

المجلس الأعلى للغة العربية

في أصول بلاد البربر

ماسينيسا

أو

بدايات التاريخ



غابريال كامبس ترجمة وتحقيق د. العربي عقون

كتاب نال الجائزة الأولى في علوم الترجمة إلى اللغة العربية 2010

منشورات المجلس / الطبعة الثانية 2012

قابريال كامبس

في أصول بلاد البربر

ماسينيسا

أو

بدايات التاريخ



تعريب و تحقيق

الدكتور العربي عقـــون

2009

LIBYCA

Bulletin du Service des Antiquités

Archéologie - Epigraphie

Tome VIII 1er semestre 1960

SOMMAIRE

Gabriel CAMPS

AUX ORIGINES DE LA BERBERIE

MASSINISSA
ou
LES DEBUTS DE L'HISTOIRE



مقدمة الترجمة العربية

التاريخ القديم كما هو معلوم لدى المتخصصين وحتى المهتمّين هو المعين الذي لا ينضب لأنه الأساس والمنطلق في حياة الأمم، فيه صنعت من جغرافياتها أوطانا ومن تجاربها أعرافا ونظما ومن أوهامها معتقدات وأديان، وعبره ارتقت سلّم الزمن وانتقلت من طور إلى أطوار في حياتها الاجتماعية والاقتصادية، وبين الانطلاق والتعثر كانت تشقّ طريقها نحو آفاق أرحب ومستويات أرقى، وهذا التاريخ القديم كما هو معروف يعلن عن ولادته بظهور الكتابة، لأنّ الكتابة هي التاريخ الذي أنهى عصورا طويلة بدأت بظهور الإنسان واستمرّت إلى حين ظهور الكتابة وهي العصور المسماة عصور ما قبل التاريخ .

كانت بدايات التاريخ في أفريقيا الشمالية ولا تزال محل نقاش كبير، وقد ظنت نخبة من مؤرخي الفترة الكولونيالية أنّها حسمت في الموضوع، وفي رأي هذه النخبة أنّ "بلاد البربر" هي آخر منطقة متوسّطية دخلت التاريخ، ليس بجهدها وإبداعاتها ولكن الفضل يعود دائما إلى الاستعمار الذي يحمل رسالة حضارية إلى هذه المنطقة، وقد تبارى في ترسيخ هذه الفكرة فريقان أحدهما ظلّ يمجّد المآثر الرومانية والآخر بذل كلّ جهده لتأصيل فكرة بداية التاريخ مع وصول بحارة صور إلى سواحل المنطقة، ومع هؤلاء البحارة جاءت الكتابة والزراعة وإقامة الموانئ وبناء المدن ... وكان هذا يتماشى مع الأجواء الفكرية التي سادت في الأوساط الأكاديمية في الإمبراطوريات الاستعمارية، وهي أجواء تمجّد الاستعمار وتنسب إليه كلّ فعل حضاري، وفيها تأسست فكرة قصور شعوب أفريقيا الشمالية.

احتل الأقلّيد ماسينيسا وهو أبرز ملوك السلالة الماسيلية مكانة بارزة في المصادر الأدبية الإغريقية واللاتينية على السواء، التي أشادت به وبأعماله، أمّا المؤرخون المحدثون فقد نبّهوا إلى أهمّية "مشروعه" الذي يتجاوز توحيد نوميديا إلى توحيد كلّ "بلاد البربر"، كما يستفاد من الشعار الذي أطلقه وهو " **أفريقيا للأفارقة** " المعبّر عن طموح رائد كاد أن يتحقّق إذ لم تبق خارج مملكته النوميدية سوى قورين وموريتانيا وإقليم قرطاج، ولذلك كان هذا الملك المحارب محلّ دراسات وآراء تتفق أحيانا وتتعارض أحيانا أخرى حسب الميول والنزعات.

في عمل قابريال كامبس هذا الذي بين أيدينا، نجد أصداء كل هذه الطروحات ولكن ما يميزه هو أنّه عمل شامل في التحليل والاستقراء جامع لكل ما تختزنه المصادر والمراجع

والدراسات الحديثة وعلى الخصوص الوثائق الأثرية من معلومات وشواهد تثري الموضـوع، والمؤلف الذي ولد ونشأ ودرس في الجزائر وتخرج في جامعة الجزائر، يجمع بـين التكـوين الأكاديمي الرصين وحبّه لعمله وأبحاثه فقد كان في أعماله كلها وهي مخصّصة في قسم كبير لأفريقيا الشمالية كمن يمارس أحبّ هواية لديه، وإذا كانت الهواية لا تنفصل عن العاطفـة وقد تؤدّي إلى طغيان الذاتية فإنّ امتلاك المؤلف — افتراضا – لمنهجية صارمة كـان كـافٍ لتحقيق الحدّ الأدنى من الموضوعية، وهو ما كنا نتوخاه منه، ولكن مع الأسف لم تعـصمه منهجيته ولا تكوينه الأكاديمي من الزلل في عديد القضايا، ومع إدراكنـا لعـدم وجـود موضوعية تامّة في العلوم الإنسانية وعلى الخصوص في الدراسات التاريخية وما يتصل بها من معارف في الحقل الاجتماعي، إلاّ أنّه لا مسوّغ أيضا لإحلال افتراضات وتأويلات مشبوهة محلّ الحقائق التاريخية.

ومع ذلك يبدو أن قابريال كامبس تخطى الخطوط الحمراء التي دأب سـابقوه علـى التوقّف عندها وأولهم اسطيفان اقزال الذي يعتبر أول من رسم معالم التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية في عمله الهامّ المعروف بهذا العنوان، وهذا التجاوز يعدّ إنصافا إلى حدّ ما – ولو أنّه نسبي وجاء متأخّراً– لشعوب أفريقيا الشمالية، التي طُمِس دورها، مع أنّ مؤرّخاً آخر سبقه هو **شارل أندري جوليان** في إبراز معالم التاريخ الأفريقي الذي يمكن أن يتأسّس عليه تاريخ "وطني" على غرار الأمم الأخرى، ففي رأي اسطيفان اقزال الذي قدّم لكتابه تاريخ أفريقيا الشمالية: تونس–الجزائر–المغرب[*] ((**أنّ المؤلّف لا يخفي ولا ينفي عن شخصه أنّ آراءه لها بعض التأثير على أحكامه بحيث أن السيّد أندري جوليان "لا يحبّ الإمبرياليـات ولا القوميات" ويميل دائما إلى الدفاع عن الشعب البربري ضدّ الفاتحين الذين كان ضـحية لهم عبر القرون : قرطاجيون، رومان، وندال، بيزنطيون، عرب، أتراك وفرنسيون، هذا الموقف مشروع وفيه شهامة ولا يزيّف رواية الوقائع**)). ولا ريب أن اقزال اعتبر أن مجرد ذكر الشعب الأهلي باسمه وإبراز "شيء" من دوره في التاريخ هو "دفاع" غير مستساغ من طرف المتشبّعين بالنزعة الإمبراطورية الاستعمارية رغم اعترافه بمشروعيته.

---

[*] **قام بتعريبه الأستاذ محمد امزالي رئيس الحكومة التونسية الأسبق كما هو معروف، ولا يزال هذا الكتاب في نسخته العربية مرجعا هامّا للدارسين والمهتمّين على السواء.**

تأتي ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية متأخرة كثيرا، فقد صدرت الطبعة الفرنسية الأولى ضمن سلسلة ليبيكا[*]، وهو في الأساس أطروحة جامعية، ممّا يزيد من أهمّيته، ورغم صدوره منذ نصف قرن تقريبا إلاّ أنّه لا يزال مصدرا أساسيا للدارسين والباحثين من مختلف المشارب بل وحتّى الذين تذهب بهم نزعاقم إلى حدّ معاداته لا يستغنون عنه أبدا فهم مثل الذي يلعن الغابة ولكن لا مناص له من الاحتطاب منها، لحماية نفسه من برد الشتاء، هذا فضلا عن أنّ الترجمة في حقل التاريخ بالذات تسهم في رأب ذلك الصدع الكبير الذي يفصل بين النخبتين المعرّبة والمفرنسة (في بلادنا)، لأن التناقض في الأفكار لا في اللغات هو الذي أحدث ذلك الشرخ، والدليل ما نراه في أوربا من انسجام في الرؤى وفي التطلّعات رغم تعدد لغاتها، لأنّ المعين الفكري واحد، وقد كنت متردّدا في الإقدام على ترجمة الكتاب لعوامل عديدة منها :

- الخشية من التقصير في الوفاء لمرامي النصّ الأصلي المحرَّر بلغة أكاديمية في مجال غير متاح لنا في اللغة العربية بعد، وهو مجال ما قبل التاريخ على وجْه الخصوص، إلى حدّ أنّ هاجس المثل الإيطالي عن الترجمة كان لا يفارقني.
- عامل آخر هو المصطلحات والمسمّيات التي يعتمدها المؤلّف مثل عنوان الكتاب في حدّ ذاته، وهي مصطلحات لا تتفق كثيرا مع الخطّ الفكري للبعض من ذوي النزعة التقليدية الذين يتوجسون من بعض الاصطلاحات التي لا تنسجم ورؤاهم، في الوقت الذي لا يمكننا أن نفرض على المؤلّف اصطلاحاتنا إرضاء لهم.

ومع ذلك كان لدينا شعور دائم بأنّه من الضروري أن يواكب تعريب تدريس التاريخ القيام بترجمة أمّهات الكتب التي لا يمكن للدارس الاستغناء عنها في تحصيله العلمي، ولعلّ الفراغ هو الذي مكّن بعض النافذين في هيئات التدريس بالجامعة الجزائرية من الترويج لفكرة مفادها أنّ تراث ما قبل الاستقلال المكتوب بالفرنسية بالذات هو تراث "كولونيالي" وكان من رأينا أنّه حتّى لو سلّمنا بذلك، فإنّ الاطلاع على هذا "التراث" ودراسته ضروري للغاية، للتصحيح والتنقيح أوّلاً ثمّ لضمان تزويد الدارسين من الأجيال الجديدة بتكوين متين وعميق، وكذا تمكين الأبحاث باللغة العربية من ثراء ضروري للنهوض بها أخيرا ولذلك ألزمنا

[*] ليبيكا العدد VIII ، السداسي الأول **1960**

أنفسنا بالقيام بهذا العمل وغرضنا أن نقدّم الكتاب لقارئ العربية ليطّلع عليه كما لـو أنّـه يقرأه في نصّه الأصلي، بهوامشه وتعاليقه، وله أن يميّز بعد ذلك المعلومة التاريخية الموثّقة مـن الرأي والتأويل الذي يخصّ المؤلّف وحده، ومن ثمّ يحكم على مختلف القضايا الـتي يتطـرّق إليها الكتاب.

في الكتاب إشكاليتان متعلقتان بأصول "بلاد البربر" حسب تعبير المؤلّف هما بـدايات التاريخ ودور ماسينيسا في النهوض بالأمة الأفريقية، ومع أنّ بدايات التاريخ في المنطقة سابقة بقرون كثيرة لفترة حكم ماسينيسا إلاّ أنّ المؤلّف يرى في شخص الأقلّيد علامة فارقة ولذلك تناول الموضوع بعمق كبير وتطرق إلى مختلف الجوانب المتعلقة بفترة حكمه.

تتوزع موادّ الكتاب على ثلاثة أقسام أو أبواب، عـالج في القـسم الأول موضـوع الأفارقة (الأمازيغ) قبل ماسينيسا، مستقرئا مختلف النصوص الأدبية التي وردت فيها إشارات عن الأفارقة مقارنا بين ما جاء في كلّ من سالوست وهيرودوت معتبرا أنّ ما جاء في الأول تغْلِب فيه الأسطورة على الحقيقة، أمّا الثاني فيرى فيه قسطا كبيرا من الحقيقة، وهـذا بنـاء على مقارنة ما ورد فيه بما جادت به الحفريات من وثائق أثرية وخاصّة فيما يتعلّق بظهـور الزراعة في المنطقة، حيث أثبتت المعطيات الأثرية أنّها أقدم بكثير من وصول بحارة صور إلى السواحل الأفريقية، وتعود إلى العصر النيوليثي، لكن وجد إشكالية كبيرة في تتبـع مـسار تطوّر هذه الزراعة من النيوليثي إلى فترة حكم ماسينيسا وهو مسار طويل يمتدّ على قـرون كثيرة ويتطلب المزيد من الأبحاث الأثرية للكشف عن تفاصيل كثيرة غير معروفـة إلى الآن، خاصّة وأنّ الحفريات الأثرية قدّمت إلى ذلك الحين (خمسينيات القرن العشرين) معلومـات عن التهيئة الفلاحية للأراضي وعن "العتاد الفلاحي" من معاول وفؤوس ومحاريث ومناجـل ومطارق ومطاحن ... إضافة إلى ما جادت به المقابر الميقاليثية من أدوات وفخاريات أمكن للباحث من خلالها رسم صورة لبعض الجوانب الاجتماعية لمجتمع الشمال الأفريقي خـلال العصر النيوليثي.

في القسم الثاني تناول فترة حكم ماسينيسا متطرّقا إلى مختلف "أقاليم" المنطقة متلمّـسا أثر شعوبها من خلال المصادر الأدبية والأثرية، إلى ظهور الممالك "الأمازيغية" محاولا ربـط المنطقة بالبحر المتوسط أكثر من حضارة الهضبة الصحراوية (تاسيلي-نَ-اجَّر تحديدا) ومـع

أنّنا كنّا نتوقع منه أن يبحث في البدايات الأولى لتلك الممالك، وهو الذي أمدّته الحفريــات الأثرية برصيد كبير يجعله يتجاوز تأويلات سابقيه، إلاّ أنّه توقّف في الحدود الــتي رسمتــها النصوص الأدبية ولذلك عبّر عنها بممالك القرن الثالث، مع أنّ هذا القرن ليس قرن تأسيس لها بل هو مرحلة في مسارٍ تكُون منطلقاته أقدم بكثير من القرن الثالث ق.م. .

في تناوله لعلاقات ممالك القرن الثالث بعضها ببعض وكذا علاقاتها بقرطاج حاول أن يبرز ظروف وملابسات دخولها حلبة الصراع بين قرطاج وروما وما نتج عن ذلــك مــن تحالف وتحالف مضادّ وحروب انتهت بزوال قرطاج، وكنّا نودّ لو أشار إلى أنّ التاريخ كثيرا ما يكون أقوى من إرادة الرجال، فماسينيسا الذي كان حليفا لقرطاج ومحاربا للذود عــن مصالحها البعيدة هناك في الجبهة الإيبرية يصبح بحكم صيرورة تاريخية لا يتحكّم فيها حليفــا للمعسكر المضادّ لها، خاصّة وأنّ ذلك لم يكن بإرادته لأنّ تداعيات الخلاف علــى وراثــة العرش وتدخّل أشفاط قرطاج لصالح الجناح "الانقلابي" في العائلة الملكية الماسيلية وما ترتّب عنه من وقائع هو الذي أدّى إلى ذلك المآل.

في القسم الثالث تناول شخصية ماسينيسا عبر ثلاثة فصول متطرّقا في الفــصل الأول إلى فترة حكمه ضمن السياق الزمني وعلى الخصوص مسألة وراثة العرش ولعلّ تأثّره بما ورد في المصادر الرومانية من عبارات تمجيد لروما هو الذي جعله على غرار سابقيه يعتبر علاقــة المملكة النوميدية بروما علاقة تبعية، ممّا يوحي بأن المملكة منقوصة السيادة، وهــي مــسألة تستحق نقاشا على ضوء ما استجدّ اليوم من رؤى وأفكــار خــارج منظومــة الأفكــار الكولونيالية، كما أنّه بَحَث في مسألة إشادة المؤرخين القدامى بماسينيسا نقلا عــن مــؤرّخ معاصر له هو بوليب مستخلصا بأنّ ما ينسب لماسينيسا هوفي الغالب ليس من إنجازه لوحده ولكن كان إنجازا لسلالة حاكمة على امتداد أجيال وما ماسينيسا إلاّ واحدا من ملوك تلك السلالة وما قام به هو مواصلة ما بدأ به سابقوه على أن يكمل خلفــاؤه الأعمــال الــتي باشرها،وهو هنا كمن يريد إزالة هالة التمجيد التي أحاط بها المؤرخون قدامى ومحدثون هذه الشخصية الملكية النوميدية، وذهب إلى حدّ عقد مقارنة بينه وبين سيفاكس الذي امتدحه في بعض الجوانب ولكن أظْهر بأنّ ماسينيسا يتفوّق عليه في الخطّ الاستقلالي الذي سلكه.

وفي علاقة السلطة الملكية بالزعامات الإقليمية داخل نوميديا اختزل مئـــات الـــسنين وجعل لنظام المخزن في العهد التركي أصولا قديمة فتزويد القبيلة للسلطة المركزية بعدد هامّ من المجنّدين من أبنائها مقابل امتيازات معيّنة في رأيه لا يختلف كثيرا عما كان معمولا به في عهد الأتراك، معتبرا **قبيلة المخزن** في العهد التركي صورة مُعَادة **للقبيلة الملكية** المشار إليهـــا في الوثائق الأثرية التي تعود إلى الفترة الرومانية، بحيث أنّ للزعامات القبلية استقلالية معتبرة، نتجت عنها تناقضات أضعفت السلطة المركزية وجعلت التحكّم في أقاليم المملكة ليس أمرا سهلا، على عكس المدن التي أخذت قسطا من التقدّم الحضاري تحت إشراف هيئات بلَدية كانت لها صلاحيات واسعة ولكن كانت دائما تحت رقابة السلطة الملكية وبعضها كانـــت عواصم ملكية وبعضها الآخر كان مقرّا للخزينة وللإدارة الجبائية، وعلى غرار سابقيه اعتبر المدينة النوميدية مدينة بونية الحضارة فهي جزيرة وسط ريف نوميدي يفتقـــر إلى التحـــضّر وهي الصورة النمطية للأهلي النوميدي التي رسمها عتاة وغلاة الاستعمار من قبله، ويبدو أنّ المؤلّف اجتهد لتأكيدها عوض البحث في الأسس التي يقوم عليها تصنيف المعالم الحضارية في أفريقيا الشمالية وفي نسبتها إلى البونيين وإقصاء النوميد منها حتى يتراءى للقارئ أنّ كـــلّ المنجزات الحضارية بالمنطقة بونية صرْفة وهي مسألة تنبغي مراجعتها.

في الفصل الأخير، يضع المؤلّف شخص ماسينيسا الإنسان، الحاكم، الملـــك، القائـــد العسكري ... في محاكمة يقول عنها أنّها محاكمة للتاريخ ذاته، وحاول أن يجد في الشواهد الأدبية والأثرية ما يؤكّد أو ينفي عبادة النوميد والأفارقة عموما لملوكهم فتطرّق إلى أسمـــاء الآلهة وإلى التسمّي بها، ولكن لم يضع حدّا بين الإجلال والتعظيم من جهة والعبادة والتأليـــه من جهة أخرى وتاه في فرضيات ورؤى لم توصله إلى شيء حقيقي، ليختم موضوعه بإبداء الأسف على أفريقيا التي عوض أن تظهر شخصيتها - وقد جاءتها الفرصة في عهد ماسينيسا وخلفائه — اكتفت بالتخفّي وراء قناع غريب عنها سلبها هويتها وشخصيتها الحقيقية.

د. العربي عقون

قسنطينة في 26 رمضان 1430 الموافق لـ 16 شتمبر 2009

مقدّمة المؤلف

إنّ نقد الشواهد التاريخية لهو في حدّ ذاته شرط كلّ عمل جادّ في حقل البحوث التاريخية، ذلك أنّ وفرة الروايات المتناقضة أو حتّى المكمّلة لبعضها تسمح بحصر بقايا الحقيقة التي تكوّن الرواية التاريخية.

قليلة جدّا وفقيرة هي النصوص التي تتناول تاريخ الشعوب خلال فترات التاريخ البعيدة، تلك الفترات التي كانت الشعوب خلالها تخرج تباعا من تحت ظلال البدائية، وأمام المؤرّخ عقبة كأداء لاستخراج حقيقة أو جزء صغير منها، وإذا عدنا إلى عمق حياة الإنسانية فإنّ الروايات كلّها غير موثوق منها، ولنقْد النصوص وهو عمل المؤرّخين ينبغي القيام بدراسة تحليلية للوثائق على قلّتها وضياع أجزاء منها، بدقّة متناهية تسمح للمؤرّخ أن يعيد في هذه الحال تشكيل أنماط الحياة ورسْم لوحات لها بل وجداريات حقيقية لمراحل التطوّر ذات مضمون تاريخي إلى حدّ كبير، وهو بذلك كمن يعيد لتضاريس جرداء اخضرارها وحيويتها: حيواناتها ونباتاتها، وبذلك يقدّم صورة مطابقة للوسط الذي عاش فيه الإنسان البدائي، لأنّ تطوّر العلوم المساعدة يسمح للمتخصّص بتحديد تواريخ دقيقة للمراحل الحضارية ولتسلسلها، ولكن تنقصه دائما الوثيقة الأساسية وهي النصّ أي الرواية المثبّتة في نصّ.

بين المتخصّص في ما قبل التاريخ المحكوم عليه بدراسة الوثيقة المادّية والمؤرّخ الذي يجذبه سحر النصّ يقف المتخصّص في فجر التاريخ بين الفريقين وعليه أن يعرف كيف يستخلص من علم الآثار أكبر قدر من المعلومات كما عليه أن يبحث في الروايات النادرة التي احتفظت بها أقدم النصوص الكتابية ليتمكّن من تتبّع سير تطوّر الوقائع والأحداث عن طريق الاستقراء ليعرف كيف تمّ التأثير وكيف وقعت التحوّلات في حياة الإنسان.

تبعا لمزاجه أو لتكوينه الفكري، يظهر ميله لهذه النزعة أو تلك، والملاحظ أنّ الباحث في فجر التاريخ لاستهانته بالنصوص القديمة أو لجهله بها في حال أفريقيا الشمالية، سيجد نفسه في صميم الفترة التاريخية، وهو شيء منافٍ للمنطق، وإذا حاول الرجوع إلى النصوص لن يجد سوى النزر القليل الذي لا يسمح ببناء مشهد تاريخي كامل، وهذا الوضع شهده التاريخ المصري الذي كان إلى القرن 19 يقوم على ما هو مكتوب في التوراة وما دوّنه هيرودوت. وفي حال اليونان كانت أشعار هوميروس هي مصدر التاريخ الإغريقي القديم ولكن حفريات هيسارليك وموكين وكريت أحيت عالما كان مجهولا كم هو بعيد عن الخيال الشعري، وفي حال روما فإنّ تيت ليف لا يزال هو مصدر تاريخها حتّى في الكتب المدرسية.

إنّ الأخذ بهذه النزعة أو تلك بالكامل في منهجية الأبحاث البروتوتاريخية * لهو أمر خطير، ففي أفريقيا الشمالية حيث يبدأ التاريخ متأخّراً ويحتفظ دائما بطابع أجنبي فيه شيء من الغرائبية[1]، ينبغي على صعيد المناهج التاريخية والأركيولوجية أن يراعى فيها الحذر أكثر من البلدان الأخرى حيث النصوص متوفّرة وإمكانية إجراء المقارنات متيسّرة، ويبدو واضحا خطر استعمال المنهجيات المشار إليها في عديد الأعمال والدراسات الحديثة.

طالما اعتُبِر نصّ رحلة حانون القرطاجي كأقدم نصّ تاريخي متعلّق بأفريقيا الشمالية، مع أنّ تلك الرحلة لم تترك أيّ أثر مادّي، ويشير سترابون بعد ذلك (القرن الأول ق.م.) إلى أنّ المستعمرات التي أقامها حانون لم يبق لها أيّ أثر، ورغم هذه الملاحظة فإنّ كلّ مؤرّخي قرطاج حاولوا وقد حالفهم الحظّ أن يحدّدوا مراحل تلك الرحلة وأن يستخلصوا منها نتائج هامّة للغاية عن الحياة الاقتصادية للعالم البوني رغم الغموض الذي يكتنفها بل إنّ البعض حوّل الغموض إلى براهين[2]، وتمكّن من إعادة تمثيل خطّ سير الرحلة:قرنة التي لا يُعْرَف مكانها تمّ تثبيت موقعها على الخريطة،كما تمّ البحث في أقصى نقطة وصلتها الرحلة، وبشيء من التأكّد اعتُبِر خليج غينيا هو تلك النقطة وليس مصبّ واد درعة[3]، ويمكن اللجوء أيضا إلى الإثنوغرافيا الحديثة لتفسير بعض المشاهد الغامضة التي لم يفصح الراوي عنها[4].

(*) فضّلنا استعمال كلمة بروتوتاريخية المركّبة من دمج البادئة بروتو لأنّنا نرى أنّها أكثر دلالة.

(1) عن استغراق مرحلة فجر التاريخ ودمج الدراسات البروتوتاريخية في الإثنوغرافيا يراجَع :

- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 37-44.

(2) هذا الغموض أسماه كاركوبينو : تصريح كاذب (fausse confidence) وقد استنتج المؤرّخ الممتاز أنّ القرطاجي كـان يخـادع القارئ وهو يخفي عنه طريق الذهب، أنظر :

-Carcopino (J.), Le Maroc, marché punique de l'or, in le Maroc antique, 1943, pp.73-163.

ومنذ تلك الدراسة الهامّة جدّا أثارت رحلة حانون من جديد عديد التعاليق ويمكن العودة إلى:

- Merlin (G.), La véritable portée du périple d'Hannon, Journ. des sav. 1944, pp. 62-76
- Marcy (G.), Périple d'Hannon, Le Maroc antique, de M. Jérôme Carcopino, in Journ. Asiat. 1943-1944, pp. 1-57
- Rousseaux (M.), Hannon au Maroc, Rev. Afric. T. XCIII, 1949, pp. 161-232
- Carcopino (J.), Du Périple d'Hannon aux Portulans grecs du XVI siècle dans Mélanges Ch. Picard, t. I, 1949, pp. 132-141.
- Cesariego(J.E.), El Periplo de Hannon de Carthago, Madrid 1947
- Mauny (R.), Note sur le Périple d'Hannon, Acte de la 1ère conf. Intern. Des Afric. De l'ouest, t. II, 1951, pp. 509-530,
- Idem, La navigation sur les côtes du Sahara pendant l'Antiquité. Rev. Des étud. Anc. T. LVII, 1955, pp. 92-101
- De Jarreguy (J.J.), Las islas de Canarias y la carrera del oro y la purpura en el periplo de Hannon. Acte du 1er congrès archéol. Du Maroc espagn. Tétouan 1953 pp. 271-276
- Cintas (P.), Contribution à l'étude de l'expension carthaginoise au Maroc. Paris 1954, pp. 90-95
- Germain (G.), qu'est-ce que le Périple d'Hannon ? Document, amplification littéraire ou faux intégral ? Hespéris, t. XLIV, 1957 pp. 205-248.

(3) اقترح ستيفان اقزال في الجزء الأول من تاريخ أفريقيا الشمالية القديم تحديد موقع قرنة في مصبّ واد الساقية الحمراء (ص 492) ويوافق على أنّ حانون وصل إلى القرب من خطّ الاستواء (ص 501) أمّا كاركوبينو فيرى أنّ قرنة تطابق جزيرة هرنة (Herne) في ريو دورو وأنّ جبل الكمرون مطابق لعربة الآلهة، ويطابق روسو ليكسوس بلوكوس (Loukkos) ويحدّد موقع قرنة بمصبّ تانسيفت كما يرى أنّ درعة أو سوس هي نقطة النهاية في رحلة حانون، ومن جهته يرى موني أنّه من غير الممكن الإبحار في القديم على امتداد الساحل الصحراوي الأفريقي الأطلنطي بسبب الرياح المعاكسة.

(4) هذه النيران الليلية وأصوات الصنوج كثيرا ما ترافق الاحتفالات الفصلية للخصوبة، و"ليلة الغلطة" في المغرب كانت لا تزال إلى نهاية القرن 19، وقد أشار إلى وجودها نيقولا الدمشقي وليون الأفريقي (القرن 16) أنظر : اقـزال الجـزء5 ص ص 32-33 وكذا دوتّي السحر والدين في أفريقيا الشمالية، الجزائر1909 ص557 (بالفرنسية).

لقد قرئت رحلة حانون ودرست تباعا وبرؤى جديدة، وفي كلّ مرّة كانت الدراسات تؤكّد أو تدحض حججا سابقة، وفي رأي جرمان أنّ كلّ هذه الجهود غير مجدية، مثل البحث عن موقع قرنة أو عن عربة الآلهة، وحتّى عن مستعمرات حانون، فهذا النصّ حيث كلّ كلمة وكلّ جملة فيه تمّ تحليلها عديد المرّات، ما هو إلاّ نصّ أدبي ركيك، والدراسات التحليلية التي كان موضوعا لها ما هي في واقع الأمر إلاّ كتمرين أدبي، تنتمي لغته دون ريب إلى الفترة ما بعد أفلاطون، ورواية النصّ مدوّنة في هيرودوت، حيث يظهر الأسلوب الهيرودوتي: التصنّع الشعري والعجائبية في ثنايا النصّ عدا الفقرات الستّ الأولى التي تتميّز بأسلوب عرض الحقائق، والحال أنّ نصّ الرحلة ليس وثيقة دوّنها بحّار ونقلت بأمانة، وليست أيضا نصّا مزيّفا بالكامل يعود إلى التاريخ القديم فما هو إذن في النهاية ؟ وللإجابة على هذا السؤال يرى جرمان أنّ النصّ كان مختصرا ولكن وقع تضخيمه وأنّ أصله البوني لا يمتدّ إليه الشكّ، والخلاصة يقول جرمان ينبغي الكفّ نهائيا عن اعتبار التضخيم الوارد في النصّ شيئا موثوقا، لأنّه ليس جديرا بنقاش جادّ[5].

لا نعرف ما إذا كان **جرمان** (Germain) قد نجح في إقناع كلّ المؤرّخين فدراسته القيّمة هي التي لفتت الانتباه إلى خطورة الاعتماد المطلق على نصّ وحيد والمبالغة في الاهتمام به مع أنّه لم تنجز له دراسة لغوية بعد، وهي أساسية، وهنا بالذات تعود الكلمة الفصل لعلم الآثار، إذ يمكن لقليل من الأمتار المكعّبة من الرمال التي تغطّي جزيرة موقادور أن يحمل إلينا كلّ المعلومات الموثوقة المتعلّقة برحلة حانون والمصحّحة لنصّها في ذات الوقت[6].

هناك نصوص أحدث تكشف سخافة المتسرّعين مثل رواية انتصار كورنليوس بالبوس التي سجّلها بلينوس الكبير، ومنها انطلق لوت(Lhote H.) في أبحاثه لاقتفاء أثر القائد الروماني الذي في زعمه يكون قد عبر الفزان وتاسيلي ناجّر والهقار ووصل إلى النيجر[7]، وعلى العكس من تسرّع لوت فإنّ دزانج (*Desanges J.*) أخضع النصّ لمنهجية صارمة وهو جدير بذلك، وحاول المقارنة بين الأعلام الواردة في مخطوطة نصّ بلينوس الأصلية والأعلام الحالية،

---

(5) **كان سنطاس قد ألحّ على الطابع التهويمي للنصّ دون أن ينتظر كلّ هذه التحاليل،يقول : على امتداد المتوسّط نشر القراصنة البونيون صخبهم المدوّي ومبالغاتهم،فبعد العودة من السواحل الغربية لأفريقيا اختلقوا قصّة حانون الطريفة، أنظر :**

- Cintas (P.), Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris 1954, pp. 94-95.

(6) **كانت الأبحاث الأولى قد قام بها كل من ديجاك وكوبرلي، أنظر :**

- Thouvenot (R.), Recherches archéologiques à Mogador. Hespéris, t. XLI, 1954, pp. 463-476

كما قام سنطاس بحفرية خلال سنة 1952 ، أنظر:

- Cintas (P.), Op. Cit. pp. 35-59.

ولكن العمل الهامّ في هذا المجال هو الذي قام به جودان خلال سنتي 1956–1957 أنظر:

- Jodin (A.), Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador, Bull. d'archéol. Maroc, t. II, 1957, pp. 9-40.

(7) - Lhote (H.), L'expédition de Cornelius Balbus au Sahara, Rev. Afric. T. XCVIII, 1954, pp. 41-83.

فلم يجد أيّ دليل موثوق منه يثبت مقاربات لوت[8]، وإذا كان دزانج قد وقع هو الآخر في بعض الهفوات في تأويل النصّ فإنّ مؤرّخ فجر التاريخ سيجد في ذلك عبرة تجعله حذراً من مثل هذه النصوص خاصّة إذا كانت ثرية بشكل يلفت الانتباه.

أيمكن أمام صمت المصادر الأدبية، أو ضعف صدقية المعلومات التي تتضمّنها التوجّه فقط إلى البحث الأثري الذي يقدّم وثائق قيّمة وموثوق منها ؟

يبدو الخطر أقلّ فالحفريات التي يشرف عليها أكفاء لا يمكن أن توقعنا في أخطاء كبيرة، فقرطاج التي تضمّ أقدم المدافن لا يتجاوز تاريخ تأسيسها القرنين السابع والثامن ق.م.، أي أنّها تكون قد تأسست في تاريخ أحدث من التاريخ الذي يحظى بإجماع كلّ المصادر الأدبية، وفي هذا السياق حاول فورر (Forrer K. O.) إثبات أنّ مدينة ديدون لم تكن موجودة قبل القرن السابع، والسبب هو وقوع خلط منذ القديم بينها وبين مدينة أقدم منها بذات الاسم في قبرص[9]، وبذلك يمكن أن نحذف قرنين من تاريخ قرطاج دون أن يلحق أيّ تحوير في أركيولوجيا وتاريخ الحوض الغربي للمتوسّط ذاته.

لم تسفر حفريات ليكسوس عن أيّ أثر سابق للقرن الخامس ق.م.، وترتكز الطبقة السفلى التي عثر فيها على خزف أحمر برّاق وسط شقوف أثينية تعود إلى القرن الرابع على التربة البكر، وهو ما يجعل البحث الأثري الصريح يدحض بشدّة المصادر الأدبية التي تجمع على أنّ ليكسوس تأسّست في القرن الحادي عشر ق.م.[10].

اعتمد عدد من الأثريين الشمَفْريقيين (Nord af.) –في منهج بحث موازٍ– على المعطيات الأثرية المحلّية فقط، التي تؤرّخ انتشار أقدم الدولمان الشمَفريقي بالقرن الثالث ق.م.، في حين تؤرَّخ هذه المعالم في البلاد المتوسّطية الأخرى بعصر البرونز أي الحجري الحديث[11].

يمكن للأركيولوجيا البروتوتاريخية أن تبطل التواريخ التي بنيت على ما جاء في المصادر الأدبية، ممّا يجعل النصوص القديمة التي تتحدّث عن وقائع أقدم من تاريخ تدوينها محلّ

---

(8) - Desanges (J.), Le triomphe de Cornelius Balbus (19 av. J. C.) t. CI, 1957, pp. 5-43.

(9) - Forrer (E.O.), Karthago Wurde erst 673-663 v. Christ gegrundet. Fets-chrift Franz Dornself. Leipzig 1953, pp. 85-93 ; - Frezols (E.), Une nouvelle hypothèse sur la foundation de Carthage, Bull, de corresp. Hellén, t. LXXIX, 1956, pp. 153-176.

(10) عن الحفريات التي أجريت في ليكسوس أنظر : - Tarradell (M.), Les excavaciones de Lixus. Tinga, 1953.
- id. Marruecosantigua : nuevas perspectivas. Zephyrus, t. V, 1954, pp. 105-139,
- id. Notas acerca de la primera epoca de los fenicios en muarruecos, Tamuda, t. VI, 1958, pp. 71-88.
ونقتطف من أوزينا : التناقض بين هذه المعطيات الأركيولوجية والمصادر الأدبية... يمكن أن يزول إذا أخذنا في الاعتبار أنّ الموقع كان مكان ارتياد فترة طويلة من طرف البحارة قبل أن يقيموا فيه مصرفا دائما، أنظر:
- Euzennat (M. L'archéologie marocaine de 1955 à 1957, in Bull. d'archéolo. Maroc. T. II, 1957, pp. 199-229.

(11) اعتمد البعض على وجود بعض الفخار الذي صنفوه في البوني للحكم بأنّ الدولمان الشمفريقي لا يمكن أن يكون سابقا للقرن الثالث ق.م. أنظر : Gsell (S.), H.A.A.N, t. VI, pp. 231-232 –وعن قدم الدولمان الشمفريقي أنظر :
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 139-148.

ارتياب، وفي هذا السياق لا بدّ من منهجية صارمة تعتمد على مقابلة النصوص الأدبية بالوثائق الأثرية، وعندما تكون التناقضات بينهما واضحة من الواجب مراجعة المعلومات المستنبطة من الاكتشافات الأثرية وكذا النصوص الأدبية وتفحّصهما بدقّة.

يحدث أن تظهر تناقضات في النتائج التي تترتّب عن مقابلة النصوص بالحفريات يتعذّر التوفيق بينها، لأنّ المجالين مختلفان بقدر اختلاف مضمون أحدهما عن الآخر، فالتاريخ هو رواية بالأساس، يضع في الاعتبار الناحية الفكرية وكذا اهتمامات كبار الفاعلين السياسيين بالدرجة الأولى أي الدول، أمّا الأركيولوجيا فلا تحتفظ إلاّ بالوقائع والوثائق المادّية أو السلوكات المتكرّرة من الحياة اليومية، والحال أنّ الأركيولوجيا البروتوتاريخية الشمفريقية اختزلت في التنقيب في مدافن السكّان الريفيين، ومخزونها متواضع، وكذلك تاريخ المنطقة لا يحتفظ إلاّ بأسماء وأعمال الملوك أو بعض المغامرات التي تحلّق عاليا.

لنأخذ مثالا دقيقا من تاريخ أفريقيا الشمالية القديم، ومن المفيد أن نقابل بعض المعطيات الأركيولوجية بالنصوص التاريخية التي تتحدّث عن أعمال ماسينيسا، فهناك إجماع تامّ وملحّ بين المؤرّخين القدامى في موضوع المنجزات السياسية والاقتصادية لهذا الملك الذي عرف كيف يمدّن النوميد، فأنشأ الإدارة، ونمّى الفلاحة في طول المملكة وعرضها حتى أصبح الحاكم المطلق بالقوّة حينا وبالدبلوماسية أحيانا حسب الظروف.

ما هو النتاج الحقيقي لهذه السياسة؟ وبأيّ مقياس يسمح لنا البحث الأثري ومعارفنا عن الفترات السابقة واللاحقة لحكم الملك ماسينيسا[12] أن نؤكّد أقوال المؤرّخين القدامى؟ هذا هو موضوع هذه الدراسة، ومن الضروري أن نوضّح من الآن أنّنا لسنا بصدد كتابة تاريخ لماسينيسا أو المملكة النوميدية منذ تأسيسها إلى وفاة يوبا الأول، لأنّ ما يشغلنا فعلا هو عرض المشهد التاريخي للأفارقة في القرون الأخيرة السابقة للتقويم الميلادي، وستكون النصوص التاريخية حاضرة إلى جانب الدلائل الأثرية والإثنوغرافية كلمّا استدعت الضرورة ذلك، وإذا كانت النتيجة غير مكتملة فالمنهجية هي التي تفرض ذلك وما ماسينيسا في هذا العمل سوى تعلّة.

أحكام القدامى والمحدثين في شأن ماسينيسا

لقد حظي ماسينيسا بامتداح المؤرّخين القدمى والمحدثين،باعتباره الملك الذي عمّم الفلاحة في نوميديا، فهذا بوليب يقول في هذا الشأن:"... **إنّه العمل الكبير والرائع فقبله كانت نوميديا بطبيعتها غير مجدية،ولا تستطيع أنّ تقدّم إنتاجا زراعيا، إنّه الأول والأوحد**

[12] عن كتابة اسم ماسينيسا Massinissa ou Masinissa أنظر أدناه ص **187-188**.

الذي أظْهر بأنّها يمكن أن تنتج كلّ الخيرات، مثلها مثل غيرها من الأقطار،لأنّه قام بتهيئة مساحات شاسعة تهيئة جيّدة" [13]. هذا النصّ في غاية الأهمّية لأنّ بوليب استقاه من علاقة مباشرة بماسينيسا الذي استقبله خلال إقامته بأفريقيا. أثناء الحرب البونية الثالثة، كما أنّ بوليب قام برحلة استكشافية إلى سواحل المحيط الأطلنطي[14]، فهو ذو معرفة جيّدة بأفريقيا الشمالية، وبنظرة ثاقبة لفيلسوف رأى في عمل ماسينيسا بادرة لأعمال السلم ولرغبته في ازدهار بلاده، وهذه شهادة جديرة بالاهتمام لأنّها صادرة عن شاهد عيان موثوق منه.

بعد بوليب يأتي سترابون ليعيد ما دوّنه ثمّ يأتي ماكسيم فاليريوس الذي نقل عن تيت ليف وأبيان اللذين توسّعا فيه. وحسب سترابون فإنّ: **ماسينيسا قد جعل النوميد اجتماعيين أي مدّنهم وجعل منهم فلاّحين**[15]، أمّا ماكسيم فاليريوس فيرى **أنّ ماسينيسا أقام مملكة شاسعة جعلها خصبة بفضل العناية التي أولاها للفلاحة**[16]، ومن جهته ثمّن أبيان عمل ماسينيسا قائلا : **ساعدته العناية الإلهية في إصلاح قطر شاسع، فوفّر للنوميد غذاءهم وكانوا قبله لا يكادون يجدون غير الثمار البرّية غذاءً لأنّهم لا يتعاطون الزراعة** [17].

وجد المؤرّخون المحدثون بدورهم في هذه العبارات التي تشيد بماسينيسا مادّة خصبة لإطراء الملك، الأقلّيد العظيم"**الذي عجن شعبه بيديه القويتين**"[18]. هذا الرجل الذي " **جمع في شخصه (في توازن لا يزال غير قارّ حقيقةً) فضيلة الأرومة الأفريقية، التي لا تزال بكراً قبل أن تتسرّب إليها أيّ تأثيرات حضارية راقية من إيطاليا والشرق، وكذا الحسّ اللاتيني اللصيق بالحقائق وبالعمل المتاح مثل تشرُّب ملذّات الروح والرقي الفكري**"[19].

وإذا تتبّعنا أفكار المؤرّخين المحدثين نجدهم ينسبون إلى الأمير الماسيلي معارف عميقة في الاقتصاد السياسي: "إذا كان قد طوّر الزراعة يقول اقزال فإنّه وجد فيها منافع باعتباره ملكاً" [20]، ومن هذه الفكرة صاغ أندري جوليان استنتاجه يقول: البدوي هو أسوأ الرعايا وعلى العكس منه يمثّل الحضري دافع الضرائب الذي يحلم به أيّ حاكم... والبدوي ما هو

(13) - Polybe, XXXVI, 16, trad. St. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrque du Nord, t. V, p. 187.

(14) - Thouvenot (R.), Défense de Polybe, Hespéris t. XXXV, 1948, pp. 79-92,

ويلحّ توفنو على أهمّية رحلة بوليب التي كانت محلّ عديد الدراسات في الفترة الأخيرة، مثل :

- Mauny (R.), Autour d'un texte bien controversé : le "périple" de Polybe (146 Av. J.C.), Hespéris t. XXXVI, 1949, pp. 47-68.
- Pedech (P.), Un texte discuté de Pline : le voyage de Polybe en Afrique, Rev. Des études latines, t. XXXIII, 1956, pp. 318-332
- Thouvenot (R.), Le Témoignage de Pline sur lz périple africain de Polybe, ibid. t. XXXIV, 1957, pp. 88-92

(15) -Strabon XVII, 3, 15.

(16) -Valère-Maxime, VIII,

(17) - Appien, 106, trad. St. Gsell op. cit. p. 187.

(18) - Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie-Algérie-Maroc I, Des origines à la conquête arabe (647 ap. J.C.) 2ème édition, revue et remise à jour par Ch. Courtois, Paris 1951, p. 96.

(19) - Romanelli (P.), Storia delle province romane dell'Africa, Rome 1959, p. 25.

(20) - Gsell (S.), op. cit. p. 187.

إلاّ مادّة ضريبية ميتة وتحويله إلى مستقرّ ليس بالمهمّة السهلة، وعلى من يقوم بذلك أن يجمع بين الشهرة وقوّة الإرادة [21].

نجد مواضيع أخرى تشيدبهذا الرجل وتعتبره عبقريا[22]،وأنّه هومن وجّه العمل لاختراع ألفباء ليبية وهو عمل ظلّ خالدا عبر القرون لأنّ الألفباء الليبية ظلّت حيّة في تيفناغ التوارق.

ماسينيسا الفاتح، المهندس الفلاحي، الاقتصادي واللغوي هو مصلح ديني أيضا، فهذا كاركوبينو يبيّن لنا بأنّ عبادة الإلهة كيريس[*] (Cereres) انتشرت لدى النوميد قبل سقوط مملكة يوبا الأول في يد الرومان (46 ق.م.) [23]، ويرى جميع المؤرّخين أنّ ماسينيسا هو من جعل النوميد يقبلون على عبادة هذه الآلهة[24]، وقليل هم الذين اهتمّوا باستنتاج كاركوبينو هذا حيث يرى أنّ هذه الديانة الهلينية تمتدّ بجذورها إلى أعماق المعتقدات المتعلّقة بالطبيعة (Naturistes) في حضارة البحر المتوسّط التي كان النوميد لا يزالون متمسّكين بها[25].

كان الرجل قويا ويتمتّع بمناقب جعلت روما المرتابة تقرّر وضع نهاية لطموحات هذا الرجل التسعيني وإذا كان مجلس الشيوخ وبفعل غادر قلّ مثيله في التاريخ قد قرّر تهديم قرطاج وإلحاق إقليمها فإنّه قد فعل ذلك -وهو ما انتبه إليه المؤرّخون المحدثون- للحيلولة دون استيلاء ماسينيسا عليها وحتّى لا يحلّ محلّ منافستهم في العالم المتوسّطي[26].

بعد عشر سنوات من وفاة ماسينيسا أقام سكّان دوقّة له معبدا لا نعرف إلى أيّ تاريخ ظلّت ذكراه محلّ احتفاء، ولكن قراءة العديد من المبالغات التي نجدها في أعمال المحدثين جعلتنا نرى استمرار عبادة ماسينيسا- التي تخلّى عنها البربر- عند هؤلاء المحدثين الذين لايزالون يمارسونها.

---

(21) - Julien (Ch. A.), op. cit. p. 97.

(22) **جاءت الفكرة من ملتير في كتابه تاريخ قرطاج** Melteer (O.), Geschichte der Karthager I, p. 493 **–وهي فكرة نجدها في سياق كتاب فيفري** :Fevrier (J.), Histoire de l'écriture, p. 320 **- وكذا لدى بيكار: يمكن أن يكون ماسينيسا قد فكّر ذات يوم في إنشاء ثقافة ليبية وليس مستبعدا أن تكون الألفباء (الليبية) قد اخترعت في بلاطه وتحت رعايته :** - Picard (G. Ch.), leMonde de Carthage, 1956, p. 78.

(*) **كريرس او كيرس Cérès إلهة رومانية تقابلها الإلهة ديميتر عند الإغريق وهي إلهة الخصب والنماء علمت الإنسان فنون الزرع والحصاد كما تقول الميثولوجيا الإغريقية الرومانية.**

(23) - Carcopino (J.), Le culte des cereres et les Numides, Rev. Hist., t. CLIX, 1928, reproduit dans Aspects mystiques de la Rome païenne, Paris 1941, pp. 13-47.

(24) - Julien (Ch. A.), op. cit. p. 98.

(25) - Carcopino (J.), op. cit. p. 29.

(26) **لا نفهم إصرار روما على تدمير قرطاج إذا كان السبب الوحيد هو الخوف من وقوع المدينة في قبضة ماسينيسا أو أحد من خلفائه، فبقرار بسيط من سيبيون الإيميلي تمّ تقسيم الصلاحيات في المملكة بعد وفاة ماسينيسا بين أبنائه الثلاثة، وبهذا الوضع لا تشكّل المملكة الماسيلية أيّ خطر، وكان عمر ماسينيسا عندما نزل سيبيون في البر الأفريقي 88 سنة، ومهما تكن سلطته أو كفاءاته لا يمكن في هذه السنّ أن يشكّل خطرا على روما (وهي لم تكن تخشاه في أيّ يوم) وولاية العرش كانت ولا ريب محلّ لقاءات سرّية، والحلّ الذي فرضه سيبيون لم يلق ارتجاليا، وقد درس اقزال هذه المسألة في الجزء الثالث من كتابه تاريخ أفريقيا الشمالية القديم ص ص363–365 ولعله أولى اهتماما كبيرا للأشخاص ليصل في الأخير إلى أنّ ميكيبسا الذي كانت تعوزه القوّة في نوميديا الموصوفة بأنّها بلد مضطرب، حكم 30 سنة وترك سلطة ملكية قوية لخلفائه الثلاثة.**

كان ماسينيسا رجلا عظيما بكلّ تأكيد، ولكن لا أعرف إنّ كانت لديه الروح العملية اللاتينية – كما يقول رومانللي – إذا كان هذا الأمير البربري خلاّقا طوّر رعاياه ومملكته خلال 56 سنة من الحكم، ليجعل من نوميديا غير المجدية أهراء قمح.

قبل أن نصدر أيّ حكم صارم على إنجازات ماسينيسا من المهمّ البحث في الوضع الحضاري للسكّان الأفارقة (وليس النوميد لوحدهم) في الفترة السابقة لحكم نجل غايا، ومن الضروري أيضا دراسة وضع المملكة الماسيلية بعد حكم ماسينيسا،وفحص ما إذا كانت المنجزات المنسوبة لماسينيسا يمكن تحقيقها في حياة رجل واحد أم أنّها منجزات أسرة ملكية بالكامل.



القسم الأول

الأفارقة قبل ماسينيسا

أ ـ ماذا تقول النصوص ؟

أسطورة في سالوست[*]

يقول سالوست إنّ "**سكّان أفريقيا الأوائل هم الجيتول والليبيون، وهم أناس غلاظ ومتوحّشون، يتغذّون على لحوم الحيوانات وعلى النباتات البرّية كالقطعان، وفي فترة لاحقة عبر الميد (Mèdes) والأرمن (Arméniens) والفُرس (Perses) – وكانوا في إسبانيا تحت قيادة هرقل– إلى أفريقيا واختلطوا بالسكّان؛ اختلط الأولون وهم الميد والأرمن بالليبيين (Libyens) أمّا الفُرس فاختلطوا بالجيتول (Gétules) ....**

اندمج الميد والأرمن في الليبيين وعُرف الجميع باسم المور(Maures) وشيّدوا منذ وقت مبكّر مدنا، وكانوا يبادلون منتوجاتهم مع إسبانيا، أمّا الجيتول والفُرس فقد استسلموا لحياة التنقّل والترحال فعرفوا باسم نوماداس(Nomadas) ومنه جاء الاسم الذي يجمعهم وهو النوميد (Numides) والحال أنّ قوّة هؤلاء نمت بسرعة فمكّنتهم من فتح كلّ البلاد إلى حدود قرطاج[27].

في هذه الرواية الأسطورية عن أصل سكّان أفريقيا الشمالية القدامى، لا يخفي سالوست بألاّ مصدر لها بل ذكر أنّها مخالفة للرواية المألوفة (التي لا نعرفها) ومع ذلك يقول أنّ الأهالي يتقبّلونها ويتناقلونها بناء على ما ورد في كتب بونية للملك يمبسال(Hiempsal)، كما أنّ العبارة الواردة في سالوست: (Libri punici qui regis Hiempsalis dicebantur) فيها غموض، بحيث يرى اقزال أنّ الملك يمبسال هو مؤلّف تلك الكتب البونية وليس مجرّد مستلم لها[28]، فقد كان تغلغل الحضارة واللغة البونية كبيرا في أوساط العائلة الملَكية الماسيلية وكذا لدى جميع العائلات الأفريقية النافذة، ممّا يسمح لملك نوميدي بإبداء الرغبة في تثبيت رواية أسطورية أو نسْخها حرفيا تقريبا من الأرشيف القرطاجي الذي تخلّت عنه القيادة العسكرية الرومانية بصفة مهينة فاستلمه أسلافه.

يبدو أنّ هناك إشكال صغير لم يطرحه اقزال وهو أنّ ملكين نوميديين حملا اسم يمبسال، الأول هو نجل ميكيبسا حكم ما بين 118-116 ق.م. اغتيل بتحريض من يوغرطة، والثاني هو نجل قودة (Gauda) ورث عنه المُلْك وحكم في الفترة ما بين 80-60 ق.م. وكان

(*) هو المؤرخ الروماني غايوس كريسبوس سالوستيوس، لتفاصيل أكثر يمكن الرجوع إلى كتابنا: <u>المؤرخون القدامى:سالوستيوس (86-35 ق.م.)</u> وكتابه <u>حرب يوغرطة</u>، طبع ونشر دار الهدى، عين مليلة الجزائر **2006**.

(27) - B. Jug. XVII; tradu. Ernout, Paris 1947, p. 151.

(28) - Gsell (s.), H.A.A.N., V, p. 332.

ابنه يوبا الأول آخر ملك لنوميديا، وإذا كان يمبسال الثاني هذا هو مؤلّف "الكتب البونية Libri punici" فإنّ هذه الكتب تكون قد أُلِّفت بعد ثلاثين سنة على الأقلّ قبل أن يصبح سالوست حاكما على أفريقيا وبعبارة أوضح كيف تُنسَب تلك الكتب إلى رجل معاصر له تقريبا، ولذلك أميل إلى القول بأنّ يمبسال الأول هو مؤلّف تلك الكتب البونية(29).

مهما يكن مؤلّف هذه الأسطورة، المطابقة لرأي أهل البلاد — حسب سالوست- ، فإنّ ذلك لا يمنعنا من العودة إلى نصّها، وبعد تفحُّصه نجد أسبقية الليبيين على الجيتول لفظيا على الأقلّ، بحيث يسجّل أنّ الليبيين متوضّعون في الساحل وسرعان ما تحوّلوا إلى مستقرّين وحضر، أمّا الآخرون فبقوا بدواً.

قدّم سالوست صورة اعتيادية عن المرحلة السابقة للحملة الهرقلية (Les Héracliades) رسم بها العصور البدائية لأولئك الليبيين والجيتول الذين كانوا يعيشون على القطف والقنص أي شعوب ما قبل التاريخ الذين تفصلهم آلاف السنين عن الفترة القرطاجية، إنّها صورة تجعل نصّ سالوست مطابقا لمعطيات أنثروبولوجيا ما قبل التاريخ المتعلّقة بأصول البربر(30)، ففي المراحل الأخيرة من ما قبل التاريخ وخلال النيوليثي كان هناك عنصرين يقتسمان في الواقع أرض المغرب هما إنسان المشتى الذي يعْمُر المنطقة التلّية وخاصّة الساحل وإنسان الحضارة القفصية (البروتومتوسّطي) الذي يشْغُل المناطق الجنوبية التي ستكون في وقت لاحق مجالا للجيتول، ويتوقّف التشابه عند هذين القسمين اللذين يمثّلان ثابتة في تاريخ المغرب، ولذلك نعود إلى المعطيات الأركيولوجية التي تكشف عن وجود الفلاحة في هذه البلاد خلال فجر التاريخ بألفية سابقة لماسينيسا.

لندع إذن سالوست و يمبسال يصوّر كلّ واحد منهما على طريقته شعوب ما قبل التاريخ التي جعلاها هما أيضا شعوبا أسطورية، ولنعد إلى المقترح الأول عن وجود عنصرين من السكّان هما الجيتول والليبيون فما الذي جعل صاحب النصّ يقيم فرقا أو تمييزا بينهما، لا ريب أنّه الاختلاف في نمط المعيشة الذي نشأ بسبب الأوضاع الجغرافية وهو الرأي الذي

---

(29) **عندما اغتيل يمبسال الأول كان قد تجاوز سنّ الشباب،دام حكم والده ميكيبسا ثلاثين سنة ، وهذا الأخير ورث العرش مع اثنين من إخوته وعمره حوالي 50 سنة ، بعد وفاة والده ماسينيسا عن عمر يناهز التسعين سنة ، وكان ميكيبسا أكبر إخوته سنّا وهذا ما يوضّحه ترتيب الأسماء في نصب الحفرة رقم 63 ، أنظر :**

- Berthier (A.) et Charlier (R.), le sanctuaire d'El-Houffra, Constantine, Paris 1955, p. 60.

(30) - Balout (L.), préhistoire de l'Afrique du Nord, Paris 1955; Id. les Hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara, Alger 1955.

أجمع عليه المؤرّخون القدامى والمحدثون؛ الجيتول هم البدو نجد آثارهم من سواحل المحيط[31] إلى خليج السيرت[32]، وهم بالنسبة للكتّاب اللاتين كلّ الرحّل الجنوبيين المتميّزين عن الإثيوبيين والغرامنت بالبداوة، ويبقى الليبيون الذين كانت لهم مدن منذ فترة باكرة، وكانوا مستقرّين أو على الأقلّ أنصاف بدو يمارسون الزراعة. أمّا النوميد والمور فسنتحدّث عنهم بإسهاب في الفصول اللاحقة المخصّصة للممالك التاريخية [*].

حقائق هيرودوت

بالانسجام مع نصّه، ينقل سالوست القارئ إلى الجهة الغربية من بلاد البربر، بجوار إسبانيا. وبالمقابل هناك نصّ أقدم من نصّه وهو نصّ هيرودوت، يقدّم –انطلاقا من شرق بلاد البربر– ذات التقسيم للسكّان، بل أكثر دقّة ووضوحا في ما يتعلّق بنمطي المعيشة لدى المجموعات السكّانية الليبية.

الليبيون المزارعون

في هذا الموضوع نخرج من الأسطورة، فأبو التاريخ خصّ ليبيا بعملٍ جغرافي غاية في الإتقان[33]، وصف فيه انطلاقا من مصر قبائل الأدورماخيد، القيليقام، الأسبوست، الأوسكيس، الباكال، الناسمون، البسول المنقرضون، الماس، القوندان، اللوتوفاج، الماشلي، والأوس المجاورين لبحيرة التريتون[34]، وفي هذا السياق يقول هيرودت: سأذكر لكم الليبيين البدو الرحّل الذين ينتجعون على امتداد البحر. ففي المناطق الداخلية، جنوبي البحر، تقع ليبيا الآهلة بالحيوانات الضارية... . ولكن في مغرب الشمس ما وراء بحيرة تريتونيس (أي في

---

(31) إلى الجنوب من نهر سلا (بورقرق) يحدّد بلين الكبير إقليم مجموعة قبلية جيتولية كبرى اسمها أوتولول (Autololes) الممتدّ إلى سفوح الأطلس شمالا.أمّا الجيتول الداريون فيتمركزون في ما وراء وادي درعة جنوبا.
ومن جهتنا نرى أنّ اسم اوتولول يمكن مقاربته لغويا بعبارة آيت لول أو آيت اولول وهو ما يجعلنا نتأكّد من أمازيغية تلك القبائل، حيث نفنّد المزاعم التي تختفي وراء اصطناع الغموض في المفردات والمدلولات لتمرير طروحاتها الزائفة (المترجم) .

(32) Virgile, Enéide, V, 192.; Strabon XVII, 3.9.-ويتحدّث نصّ الحرب الأفريقية (Bellum Africanum, LXII, 1) عن مجدافيين من الجيتول في الأسطول البومبي،وعن انتشار الجيتول تجدر العودة إلى:
-Gsell (S.), H.A.A.N, V, pp.110-112.

(*) الذي لم يتطرّق إليه كامبس ولا اقزال من قبله، هو أنّ سالوست بتدوينه لهذه الرواية الأسطورية، يمثل الخطّ الأيديولوجي لروما بل للاستعمار عبر التاريخ، وهو تعمّد الخلط وإقحام الأسطورة بهدف محو الحقيقة التاريخية تدريجيا، وعلى الخصوص زرع فكرة تعدّد الأصول التي سيسهل على الاستعمار فيما بعد جعْلها أساسا لسياسة فرّق تسُدْ بعد أن ترسخ تلك الأسطورة في الأذهان على مرّ الأجيال... .

(33) قام اسطيفان اقزال بترجمة الفصول المتعلقة بليبيا والتعليق عليها، أنظر :
- St. Gsell, Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, I, Hérodote, Paris – Alger 1916

(34) كلّ المعلومات المستقاة من المصادر الأدبية والوثائق الأثرية التي أمكن تجميعها عن الليبيين الشرقيين قام بدراستها بعناية بيتس في كتابه الهامّ عن الليبيين الشرقيين الذي طبع ونشر في لندن سنة **1914**.

الشمال من هذه البحيرة، حيث القطر القرطاجي، ولكن هيرودوت يقصد الغرب عموما من سواحل سيرت) ليس هناك ليبيون رحّلُ،وحتّى العادات تتغيّر، أولئك هم الليبيون المزارعون ...الذين يعيشون في بيوت واسمهم الماكسي (Maxyes)[35]. وفي إيجاز بسيط ولكنه دقيق يقابل هيرودوت ليبيا الشرقية –المنخفضة والرملية– إلى نهر التريتون حيث ينتجع الرحّل، بليبيا الجبلية الغابية الواقعة إلى الغرب من هذا النهر التي يعمرها مزارعون...[36]وتحمل الجملة الأخيرة حقيقة معتبرة، لأنّها ليست مقتصرة على القطر القرطاجي (منطقة الساحل السهلية) ولكن تشمل كلّ أفريقيا الشمالية، أي بلاد الأطلس، وفي الواقع بعد أن سجّل ما يعرفه عن الماكسي والزواك(Zauèkes)والقوزنت(Gyzantes) المستقرّين في البرّ الأفريقي المقابل لجزيرتي قرقنة، انتقل في الفقرة الموالية إلى الحديث عن تجارة المقايضة التي تتمّ ما وراء أعمدة هرقل.

يمكن اعتبار التريتون حدّا جغرافيا هامّا، دقيقا وواضحا على الخصوص في ذهن هيرودوت، وهو الحدّ المعلمي الذي يفصل ما بين الرحّل والمزارعين ساكني البيوت. لا يمكن تحديد التريتون بدقّة — مع أنّ ذلك قليل الأهمّية في موضوعنا– أهو نهر أم بحيرة أم هما معاً، وهناك ثلاث فرضيات مقدَّمة في موضوع هذا التريتون، المميَّز عن آخر شبيه به في قورين. وبالنسبة للبعض،يتطابق التريون مع شطّ الجريد وامتداده شطّ الفجاج،والبعض الآخر يقترح مطابقته ببحيرة البيبان القريبة من الحدود الليبية التونسية حاليا،أمّا اسطيفان اقزال فيفضّل مطابقته بخليج السيرت الصغير (خليج قابس) وتكون جزيرة فلا(*Phla*) الواقعة داخل البحيرة هي جزيرة جربة[37].

تحصر الفرضيات الجادّة [38] موقع بحيرة التريتون إذن، في منطقة حدّدها هيرودوت ذاته كما نعرف، ما بين كينوبس (*Cinyps*) – وادٍ يقع شرقي لبتيس ماقنا– وجزر قرقنة (جزر **كوراونيس** *Cyraunis*).

ولا يزال الجغرافيون المحدثون إلى يومنا يجعلون من الشطوط التونسية الكبرى حدّا جنوبيا لأفريقيا الشمالية، والموضوع سيكون أكثر إثارة لو أنّه ليس من صنع الطبيعة[39].

---

(35) - Hérodote, IV, 181, 186, 191, trad. St Gsell

(36) -Ibid. p. 191

(37) **عالج اسطيفان اقزال موضوع موقع التريتون بدقّة ، أنظر :** - S. Gsell, Hérodote, pp. 77-84

(38) **عالج آخرون هذه المسألة فالباحث قاتزوسي يربطها بقضية الأطلانتيد، ويقترح في مذكّرة هامّة تحديد موقع التريتون في الصحراء الموريتانية، أنظر :** - Gattesossé (J.), L'Atlantide et le Tritonis, Bulletin de la Soc. de Préhist. du Maroc, 8e année n° 2, 1932 **؛ وحسب هذا الباحث فإنّ جغرافية أفريقيا الشمالية وعلى الخصوص خطّ ساحل المغرب حصل فيه تغيُّر كبير، وهو ما جعل الموضوع يتحوّل إلى أساطير.**

(39) - A. Bernard, Afrique septentrionale et occidentale, 1ère partie, T. XI, de la géographie universelle de Vital de la Blanche et L. Gallois, Paris 1937, p. 30. **؛حيث يبدو حدّ الالتواء الألبي في الجنوب التونسي على امتداد جبل طباقا جنوبي شطّ الفجاج.**

تفرض علينا قراءة لهيرودوت -حتّى ولو أنّها سطحية- قبول وجود فلاحة خلال القرن الخامس ق.م.، ليس فقط في الواجهة الشرقية لتونس ولكن في عموم ليبيا الغربية في ما نسمّيه اليوم أفريقيا الشمالية.

من حقّنا، بالنسبة للماكسي على الأقل، قبول أنّ هذه الجماعة السكّانية التي تسكن بيوتا، كانت مستقرّة نهائيا ولا تمتهن حتى نصف البداوة، ومع أنّنا نعرف -من خلال البدو الحاليين الذين هم في الطريق نحو الاستقرار- أنّ اختفاء الخيمة (أو ما يقوم مقامها قديما) هو العمل الدالّ على الاستقرار نهائيا، إلاّ أنّ كثيرا من صغار البدو الذين لا ينتجعون منذ سنين لم يتخلّصوا نهائيا من الخيمة، إلاّ بعد أن أضحى القطيع لا يكفي لتوفير المادّة الضرورية لترقيع "**الفليج**"[40].

إنّ المعلومات الواردة على قلّتها في غاية الأهمّية رغم عموميتها، وأسلوب هيرودوت هنا يختلف عمّا اعتدناه من حبّ للإطناب -في التفاصيل- الذي يغلّف به نصوصه، ولكن هل يمكن الوثوق التامّ في تأكيدات هيرودوت؟ دون اعتبار قلب الحقائق على يد الإخباريين أو حتى هيرودوت ذاته؟ الواقع أنّه يمكن فحص ذلك بالعودة إلى كلّ التفاصيل التي أوردها على امتداد الكتاب الرابع عن ليبيا وهي تفاصيل إثنوغرافية أكّدها علم الآثار والإخباريون المحدثون، ومن جهتنا نعيد صياغة الوقائع حسب اسطيفان اقزال الذي لم يتمكّن سنة 1915 من وضعها بموازاة المعطيات الأثرية أو الإثنوغرافية المعاصرة.

ممارسة طقس النوم على قبور الأسلاف

يقول هيرودوت في حديثه عن الناسامون أنّهم:" يذهبون إلى قبور أسلافهم وينامون عليها بعد أن يكونوا قد نووا نذُراً بالالتزام بما سيرونه في المنام[40 مكرّر]، وفي هذا المقام يجدر بنا التذكير بأنّ هذا الطقس لا يزال يمارَس لدى البربروعلى وجه الخصوص في الصحراء[41]، وقد قدّمت لنا الأبحاث الأثرية أخيرا نوعا من المعالم الفجر-تاريخية ذات العلاقة بهذا الطقس،

---

(40) عن تطوّر المسكن يستحسن الرجوع إلى البحثين اللذين قام بهما أ. برنار : - A. Bernard, Enquête sur l'habitation rurale des indigènes de l'Algérie, Alger 1921، وكذا : - Ibid. Enquête sur l'habitation rurale des indigènes de la Tunisie, Tunis 1924, والمتمّمين بدراسات عديدة ومنها :
- A. Berque, l'habitation de l'indigène algérien, Rev. Afr. T. LXXVIII, 1936, pp. 43-100
ويلحّ جان ديبوا على وفاء أنصاف البدو للخيمة التي تظلّ مطوية خلال فصل الشتاء بعناية في ركن البيت أو القوربي. - J. despois, l'Afrique du Nord, Paris 1949, pp. 252-254

(40 مكرّر) Hérodote, IV, 172, -وقد ترجم اقزال العبارة Kapenxamemeroi بعد أداء الصلاة ويبدو لي أن المعنى غير دقيق، أنظر:
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et sites funéraires protohistoriques, p. 557

(41) - Gsell (S.), Hérodote p. 184, ; Reygasse (M.), Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris 1951, p. 33; Père de Faucault, Dictionnaire abrégé Touareg-Français, 1913, p. 115.

تنتشر في الصحراء من موريتانيا إلى الفزان، - وبالتأكيد إلى ما وراءها في اتجاه مصر وبلاد النوبة- فقد عثر الأثريون على معالم ذات مظاهر متنوّعة، ولكنّها جميعا ذات قباب تنفتح باتجاه الشرق[42] لعلّها تكوِّن ركنا للتعبّد من غرفة واحدة أو من عدّة تجويفات، وقد فكّرت على غرار كابوتو (G. Caputo) بأنّه لا يتعلّق فقط بضريح جرمة (Germa) في الفزان ولكن يتعلّق بقبور تملوس **نقرين** ذات القبّة بهضبة نمامشة، **وتاوز** في جهة البرابر (المغرب) **وبويا** بتافيلالت **ومرايتي** (Mreïti) **وبير أم قرن ولبني** في موريتانيا، هذه كلّها أضرحة للتعبّد (Sanctuaires) يمارَس فيها طقس النوم على قبور الأسلاف، حيث تسمح القبّة الموجودة داخل كل تملوس للزائر بالاقتراب من صاحب القبر الموقّر، دون أن يكون هناك اتصال بين المدفن (Supulture) والمقْدس (Sanctuaire). وكانت قد أجريت في **مْرايتي** حفرية استخرجت منها حوالي مائة لوحة مزخرفة بأشكال حيوانية، (لا يوجد من بينها أيّ شكل للجَمل) وأخرى هندسية، ولعلّ هذه اللوحات التي ليس لها أيّ دور نفعي، لعلّها نذور.

يحقّ لنا أن نضع معلومات هيرودوت إلى جانب هذه المعطيات الأثرية، وأكثر من ذلك فإنّ هذه المعالم ذات القباب لها امتداد جنوبي وصحراوي، حيث كان الناسامون الصحراويون ينتجعون ويتغذّون على التمر والجراد[43].

عربات القرامنت

قبل أن نغادر الصحراء، نتفحّص بفضل علم الآثار إثباتا آخر لهيرودوت جعل اقزال مرتابا: "**كان القرامنت يطاردون الأثيوبيين سكنة الكهوف، على عربات تجرّها أربعة خيول**"[44] وإذا سلّمنا بأنّ هذا صحيح يقول اقزال، فإنّ هذه العربات تكون شديدة الخفّة، ومزوَّدة بعجلتين فقط[45]. وقد احتفظت النقوش الصخرية بعدد هامّ من صور هذه العربات موزّعة في الفزان وفي تاسيلي ناجّر وكذا في الأطلس الأعلى، وفي موريتانيا وعديد الجهات الصحراوية. وباعتبارها معالم مقامة على محاور الطرق التي كانت تسلكها فإنّ البحث قد يوصلنا إلى تلك الطرق؛ ولعل أولاها هي الطريق التي تشقّ الفزان بلد القرامنت القديم،

---

(42) - Camps (G.), Sur trois types peu connus de Monuments funéraires nord-africains (Notes de Protohistoire); Bulletin de la Soc. de Préhist. Franç. T. LVI, 1959, pp. 101-108, Idem. Les Monuments à niche et à chapelle dans la Protohistoire nord-africaine, Congrès préhist. De France, XVI, session, Monaco, 1959,

(43) -Hérodote, IV, 172

(44) - Ibid, IV, 183

(45) - Gsell (S.), Hérodote, p. 151, note 5.

وتربط بين المتوسّط وبلاد النيجر[46]. وأجمل عربة قرامنتية هي العربة المرسومة على لوح حجري في مدخل مغارة تاماجرت: منصّة صغيرة دون صندوق وقاية ترتكز على عجلتين، ولها عمود جرّ (Timon) طويل، ويُرى القائد في وضع يكاد يجعله متكئا على ظهر الخيل وفي يده الأعنّة (Rênes) ورمحان[47]. إنّه قرامنتي يلاحق بعض الأثيوبيين.

إنّ خفّة هذه العربات تجعلها على العموم تسع شخصا واحدا[47 مكرّر]، وهي عربات شبيهة بعربات السولكي (Sulkys) الحديثة، صالحة للصيد والقتال، و لم يكن لها قبل أن يصبح الحصان حيوانا للركوب أيّ استعمال تجاري.

معركة العذارى

تؤكّد الصحراء أيضا معلومة أخرى لهيرودوت، وهي معلومة على طرافتها تظلّ محـــل نقاش. فبجوار بحيرة تريتون كان الماشلي (Machlyes) والأوس (Auses) يقيمون احتفالا علـــى شرف أثينا (لعلها تانيت) وذلك بأنّ يشكّل فريقان من بنات سكّان المنطقة، "يتظـــاهران" بالاشتباك في معركة بالعصي والحجارة، ومن تصاب من أحد الفريقين (عرَضاً) وتموت تعتبَر غير عذراء[*]، فيتوقّف"القتال"،ويقوم كلّ فريق باختيار أجمل فتاة فيه، ليطاف بها على عربة – وهي في كامل زينتها ومدجّجة بالسلاح– في الناحية، ودون ريب فهي تمثّل الإلهة[48].

---

(46) أهمّ الدراسات في هذا الموضوع : - Gautier (E. F.), Rapport sur la mission Gautier-Reygasse en 1934, C.R.A.I.B.L., 1934, pp. 149-159.;

-Mauny (R.), Une route préhistorique à travers le Sahara occidental, Bulletin de l'institut français de l'Afrique noire, 1947, pp. 341-357,

وعلى الخصوص في موضوع توزيع عربات الصور الصخرية في شمال غربي أفريقيا (رفقة خريطة):

- Actes du 11 e Congr. Panaf. De préhist. Alger 1952 pp. 741-746.

وعدد معتبر من صور العربات ضمن كتاب الأبّي براي، أنظر:

- Breuil (Abbé H.), les roches peintes du Tassili-N-Ajjer, Ibid., pp. 65-219.

هناك فرضية حديثة قدّمها بيكار، يريد من خلالها أن يجعل الصور الصخرية مجرّد نسخ (Reproduction) لسباق العربات في ميادين السباق الرومانية، أنظر: Charles-Picard (G.), C.R.A.I.B.L., 1958, pp. 44-48.، وهذه الفرضية لا تأخذ في الاعتبار العدد الكبير لهذه العربات التي لا تنتشر فقط في الصحراء الشرقية حيث النفوذ الروماني كان محسوسا بل تنتشر أكثر في مناطق لم تصلها السيطرة الرومانية،في حين يشير القدامى إلى عربات الفاروزيين في جنوبي المغرب(Strabon, XVII,3, 7.) وعلى العكس مما افترضه بيكار فإنّ قادة العربات يمسكون في أيديهم رماحا ذات حراب حديدية، واضحة المعالم، ولا يمكن الزعم بأنّها شارة النصر الرومانية، ولا داعي لتفنيد مقولة أنّ العربات تجرّها ثيران لأنّها فكرة من هوميات البعض... ونشير إلى أنّ العربات تبدو أحيانا في صورة توقّف عن الحركة في مشاهد عديدة خلال التخييم، كما هو الحال في جدارية تاماجرت، وإذا كانت فرضية بيكار تنطلق من أنّ عربة الحرب يمتطيها دائما اثنان على الأقلّ فإنّ ذلك صحيح في اليونان والشرق، أمّا في مصر فالمشهد يختلف بحيث تكون يدا الفرعون متحرّرة من مسْك الأعنّة –التي يلْصقها بظهره– وهذا لاستعمالهما في القتال، كما يمكن تثبيت الأعنّة في مقدّمة العربة، ولا نكاد نفهم السبب الذي جعل بيكار يرفض اعتبار العربة الصحراوية عربة قرامنتية، مع أنّ المصادر قبل وبعد هيرودوت تحدّثنا عن عربات الليبيين، فمنذ القرن 12 ق.م. كان الفرعون رمسيس III قد غنم من الليبيين أكثر من 100 عربة (Bates (O.), The eastern Libyans, p. 159) ، وفي القرن الرابع كان لليبيين الغربيين عربات استخدمها أغاثوكليس في حربه ضدّ قرطاج (Diodore, XX, 38, 2).

(47) Balout, (L.), Algérie préhistorique, Paris 1958, p. 162- وتوجد الصورة في متحف الباردو بالجزائر العاصمة.

(47 مكرّر) عربات واد زيقزة (Oued Zigza) هي فقط التي يمتطيها شخصان، أنظر:

- Graziosi (P.), l'Arte ruperstre della Libia, pl. 37 B et 38 B.

(*) في الواقع لا تكون هناك إصابات لأنّ المعركة عبارة عن تظاهر فقط.

(48) - Hérodote, IV, 180.

في قريتي **غات والبركات** بالفزان وفي يوم 27 رمضان من كلّ سنة، إلى عام 1954، حيث منع الاحتفال من طرف سلطات النظام الملَكي الليبي [49] وكان حديث عهد باستلام الحكم)، إنّه الاحتفال بعيد الملح، أين يتمّ جمع الفتيات وهنّ يرتدين أجمل الثياب ويتحلّين بأجمل المجوهرات، ليقُمْن بتمثيل معركة حيث يتمنطقن بأحزمتهن على شكل حزام الرصاص (Cartouchière) كما يفعل المهاريين (Méharistes) يتقدّمهنّ الموسيقيون وكلّ واحدة "مسلّحة" بعصا وسوط، وهذا بعد استخراج الملح، ويقترب الفريقان من بعضهما ويتظاهران بالاشتباك، ثمّ تشرع اثنتان أو ثلاث من النساء المتقدّمات في السنّ بفحص عذرية البنات أمام الملأ، ويولي الأولياء في القريتين أهمّية كبيرة لهذا الحفل بحيث يحرصون على تقديم بناتهم – اللائي لم يتزوّجن بعد– لهذا الفحص التقليدي[50].

نرى بكلّ وضوح تشابه الحدثين الرئيسين: التظاهر بالاشتباك في معركة و فحص عذرية البنات في الفريقين (الماشلي والاوس قديما وأهل غات والبركات حديثا) عموما، أمّا الاختلاف في التفاصيل ما بين رواية هيرودوت والوضع الذي استمرّت عليه إلى الآن، فهو شيء طبيعي لأنّ الشكل القديم والحديث لهذه "الطقوس" يفصل بينهما 24 قرنا، كما أنّ أحداث هذا الطقوس لا تدور في ذات المكان الذي كانت تجري فيه قديما، والحال أنّ رواية هيرودت تؤكّدها في قسم كبير المعلومات "الإثنوغرافية الحديثة[51].

إلى ذلك، هناك وقائع أخرى رواها هيرودوت نجدها ضمنيا، وتؤكّدها المعطيات الأثرية والإثنوغرافية ومنها الهياكل العظمية المصبوغة بالمغرة — التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية– التي تذكّرنا بما جاء في المصادر الأدبية بأنّ الماكسي(Maxyes) والقوزنت (Gyzantes) كانوا يستعملون صباغة قرمزية (من معدن الزنجفر[52] (Vermilion) ويسمح اكتشاف بعض المنحوتات بإثبات أنّ بعض الليبيين "**يحلقون شعورهم، ولكن يتركون شوشة في قمّة الرأس، وعلى يمين وشمال تلك الشوشة، يتمّ حلق الشعر تماما**"[53] وهيرودوت هو الوحيد

---

(49) كانت السلطات الإيطالية ثمّ السلطات الفرنسية أكثرتسامحا إزاء التقاليد العريقة التي كان السكّان شديدي التمسّك بها.

(50) تفاصيل هذه الاحتفالية مدوّنة في :

– Pâques (V.), Le bélier cosmique, son rôle dans les structures humaines et territoriales du Fezzan, Journ. De la Soc. Des Africain., T. XXVI, 1956, pp. 210-253 et surtout par M. Brulard, "Tfaska n'tisent" la fête du sel à Ghat, le 27 Ramadhan, Bull. de liais. Sahar. N° 25, mars 1957, pp. 12-17.

(51) لن أتطرّق هنا إلى مؤشّرات أخرى في نصّ هيرودوت متعلّقة بالرحّل النوميد (IV, 168, 172, 176) وهي مؤشّرات تؤكّدها الإثنوغرافيا، والكلّ يعلم مدى انفتاح المجتمع التارقي.

(52) Hérodote, IV, 191-194 ؛ وكان الطلاء الجنائزي بالأحمر عامّا في كل جهات العالم، وفي أفريقيا الشمالية عرف العديد من الأساليب، أنظر:

- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 522-526.

(53) Hérodote, IV, 175. ؛ الواقعة أثبتتها صور هرمس العجيبة في حمامات أنطونينوس بقرطاج، التي ضمّنها جيلبار شارل بيكار في كتابه أديان أفريقيا الشمالية القديمة، حيث نشاهد ليبيّاً تعلو رأسه ظفيرة تنتهي بهلال كايلستيس، أنظر:

- G. CH. Picard, Les Religions de l'Afrique antique, Paris 1954, pl. II وهي لا تختلف عن الوصف الوارد في هيرودوت.

من المؤرّخين القدامى الذي سجّل أنّ الأفارقة يعبدون الشمس والقمر(54)، ولولا الأبحاث الأثرية التي تؤيّد أبا التاريخ لاعتبرنا التزام الصمت من قبل المؤرّخين الآخرين، كافٍ للشكّ في رواية هيرودوت، هذا عدا ما تقدّمه لنا آثار العصر الحجري الحديث، مثل الكبش كروي غطاء الرأس الذي أُدمِج بعجالة في الإله المصري أمون، وفي هذا السياق لا بدّ من التذكير بالوجود المكثّف لقرص الشمس والقمر في النصب الليبية، في القبور المحفورة في الصخر (حوانيت)، وكذا في بعض المغارات الجنائزية والدلمانات(55) ، أمّا في زخرفة الأواني الفخارية الجنائزية فتحتلّ مكانة أولى خاصّة في توابيت الموتى (Reliquaires) ، وفي كل الصور تحتلّ الشمس المكانة الأولى(56)، والحال أنّ كلّ صفحة من هيرودوت تستحقّ أن تُدرَس من جديد على ضوء الاكتشافات الأثرية البروتوتاريخية ولكن هذا يتجاوز مجال هذه الدراسة.

إذا كان ما جاء في هيرودوت قد أكّدته المعطيات الأثرية والإثنوغرافية حتّى في التفاصيل أحيانا، فإنّه يحقّ لنا أن نثق في روايته حتّى وهي مقتصرة على العموميات، مثل حديثه عن الليبيين الفلاّحين في بلاد الأطلس وعلى الخصوص ما تعلّق بالماكسي والزاواك والقوزنت في سواحل تونس الشرقية.

ليبيون أو مازيس

الليبيون(57) هم - في نظر هيرودوت – "**كلّ سكّان أفريقيا من الجنس الأبيض المتميّزين عن الفينيقيين والإغريق**"، وهو هنا يثبت ضمنيا الوحدة الإثنية للسكّان البربر من النيل إلى الأطلسي، ولكن هؤلاء الليبيون ينقسمون إلى مجموعتين: الرحّل والمستقرّون وهو التقسيم الذي نجده لدى سالوست أيضا، في معرض حديثه عن الجيتول والليبيين، غير أنّ هذا الأخير يعطي للاسم الإثني "ليبي" مدلولا ضيّقا قياسا مع هيرودوت لأنّه يجعل اسم الليبيين مقتصرا على سكّان السواحل فقط. أمّا اسطيفان اقزال فإنّه يرى أنّ الاسم له مدلولات عديدة تبعا للمؤلّفين وللعصور(58).

أصل اسم ليبي

طالما اعتبرنا هذا الاسم ذا أصل أفريقي، واستُعمل في البداية من قبل المصريين، منذ الألف الثانية ق.م. والقصد منه هو الشعوب التي تعْمُر البلاد الواقعة إلى الغرب من النيل،

(54) - Hérodote, IV, 188.

(55) **G. Camps, op. l. p. 102 ؛وها هي قائمة مختصرة لهذه الصور : قسطل (حانوت) ، قلعة سنان (حانوت) ، جبل زيت (حانوت) ، حمام زواكرة (دلمان) ،سوق اهراس (دلمان) ، كيفان بلغوماري (مغارات) سيلة (نصب ليبية).**

(56) - G. Camps, La Céramique des sépultures berbères de Tiddis, in Libyca ; Anthrop. Archéol- préhist. T. IV, 1956, pp. 155-203

(57) - Hérodote, IV, 197.

(58) - S. Gsell, H A.A.N., T. V, pp. 102-105.

وقد حاول بيتس (Bates O.) أن يضع قائمة تضمّ الشعوب والقبائل الحامية التي كانت في تلك الفترة متوضّعة بجوار مصر غربا كما يلي :

Tehenu	تيحنو	شعوب أو كنفدرايات قبائل
Temehu	تيمحو	
Rebu = Lebu	ريبو = ليبو	
Meshwesh	مشْوَش	
Imkehek	إيموكهك ؟	قبائل
Kehek	كهك	
Keykesh	كيكش	
Seped	سيبيد	
Esbet	اسبت	
Ekbet	اكبت	
Shaï	شاي	
Hes	هس	
Beken	بيكين	

كان الريبو (Rebu = R'BW) متوضّعين في الشمال ويضمّون عددا من القبائل (منهم ايموكاك، الكاك، الأسبت) وقد دام وجود هؤلاء الريبو في شمال ليبيا إلى الفترة الكلاسيكية والإغريقية، (دون ريب إلى بداية المستعمرات الإغريقية في قورين) ثمّ عمّم الاسم على كلّ السكّان الحاميين، في الشمال الأفريقي[59]، وحتى اسم لبتيس الذي يُكتَب في البونية بصـــيغة **L B K Y** له ذات الجذر مثل اسم الشعب.

تبعاً لفرضية حديثة العهد، فإنّ للاسم الإثني (l'Ethnique) "ليبي" أصلا آخر مختلفا، يُعْزى إلى بحّارة ما قبل الفترة الهلينية[60]، وحسب دوروا (L. Deroy) فإنّ البحّارة الإيجيو-كريتيين يكونون قد أطلقوا اسما جماعيا على سكّان الضفّة الجنوبية للمتوسّط الغربي وهو ليبوز (Libuses)، في مقابل اسم ليقوز الذي أطلقوه على سكّان الضفّة الشمالية (Liguses = Ligures)، وكلا الاسمين جماعيان، وفي ذهن الإيجيين أنّهما يمثلان مدلولين متقابلين، وهو ما جعل دوروا يرى أنّ الأصل الاشتقاقي للاسمين لا لبس فيه، فالكلمة (Λισυεσ) موجودة في الإغريقية الكلاسيكية ومدلولها: وضّاء أو لطيف، ومن المحتمل أنّ مدلوله الأول يحمل معنى متعلّقا بالإدراك الحسي البصري، ومن الجذر (λιουσ) احتفظ الإغريق خلال الفترة التاريخية

(59) - O. Bates, The eastern Libyans pp. 46-48; cf. aussi H. Gardiner, Ancient Egyptian onomastica, Londres 1947, pp. 121-122

(60) - L. Deroy, L'origine préhellénique de quelques noms de peuples méditerranéens, Mélange Isidore Levy, Bruxelles 1955, pp. 87-121.

باللفظ في صيغة (λιοροσ) بموازاة اللفظة (Λιγροσ) المشتقّة بدورها من (λιγυσ) وتعني: "داكن أو أسود"، وإذا صحّت هذه المقاربة فإنّ الإيجيين يكونون قد صنّفوا سكّان السواحل المتوسّطية في فئتين : البيض والسمر أي على أساس لون البشرة ؟

تبدو هذه الفرضية مغرية، غير أنّ وجود الاسم الإثني ليبو أو ريبو هو وجود حقيقي لا يحتاج إلى الافتراض،وقد كان مستعملا منذ القرن XIII ق.م. من طرف المصريين، للدلالة على شعب أفريقي فهل يمكن افتراض أنّ المصريين أخذوه عن الإيجيين للدلالة على أناس هم جيران لهم؟ ولسنا هنا بصدد مناقشة المسألة الفيلولوجية اعتبارا للمصدر(Αιγυσ) أي اللون الداكن،خاصّة وأنّ الأنتروبولوجيا تتعارض مع هذا التقسيم القائم على اللون، لأنّني لا أرى في تلك الأزمنة الأولى فرقا بين أسلاف الكاطالانيين،اللانقدوكيين أو البروفانسيين من جهة، وأسلاف الأفريقيين لأنّ الجميع ينحدر من ذات العرق المتوسّطي، أمّا الكريتيون فلا أرى أنّهم ميّزوا قدماء الأمازيغ على أساس لون البشرة لأنّ لون الجميع واحد[60 مكرّر].

لا نرى أيّ مصداقية للفرضية التي قدّمها دوروا رغم أنّها قد تغري البعض،ونعودإذن إلى الفرضية الكلاسيكية المرتكزة على الوثائق النقوشية المصرية التي تثبت أنّ الاسم **ليبي** هو في الأصل اسم للشعب الأفريقي،وأنّ الإغريق وسّعوانطاق استعماله،متّبعين—احتمالا–الكريتيين.

الليبيون والأفري

مع قبول الاسم عموما، سيقتصر عند الإغريق والقرطاجيين تدريجيا على شمال شرقي المغرب القديم،وعلى الخصوص السكّان الأفريقيون المستقرّون في الإقليم الذي تراقبه قرطاج، وهؤلاء هم الذين سيسمّيهم اللاتين في وقت لاحق **أفري**(Afri)وبلادهم **أفريكا**(Africa)، مع أنّ اسمي **ل م ي**(LMY) و **ل ب ت**(LBT)استمرّا في النصوص الأثرية البونية والبونية الجديدة.

أخذ اسم **ليبي** في المملكة الماسيلية مدلولا جغرافيا خاصّا، وهو ما يفهَم من نصّ مكثر المزدوج، الذي درسه فيفري، وها هي الترجمة المقترحة للنص البوني :

> **"هذا الحجر (= النُّصْب) أقيم من طرف بال حانون بن ي ب د ت (YPD'T) وهو م د ي ت ي (MDYTY). أقامه له ش د ب ر ت، فارس في بلاد الليبيين. ليحيا أبناء ش د ب ر ت، لكونهم حماة هذا الناووس"**[61].

[60 مكرّر] **عن الخصائص الجسمانية للكريتيين أنظر :**
-G. Glotz, la civilisation égéenne nouvelle édition remise à jour par G. CH. Picard, Paris 1937, pp. 74-75

[61] J.G. Février, l'Inscription Punico – libyque de Maktar, Journ. Asiat. T. CCXXXVII, 1949, pp. 85-91. **؛ النصّ الليبي مختصر في سطرين : ب هـ ن (BHN) بال حانون، و ي ف د ت (U IFDT البوني) م د ي ث (MDITH) (MDYTY البوني) م س و هـ ، م و هـ ل ، م ن ك د هـ . بال حانون ابن افدت الـ م د ي ت ي (MDITI) خادم (؟) جندي في خدمة القائد الأعلى.**

إذا كان صاحب الإهداء قد وضّح بأنّه فارس في بلاد الليبيين فلأنّ هذه المنطقة لا تقع بجوار مكتر مباشرة، وأنّ ما يقصده النص بتلك العبارة هو مقاطعة متميّزة في المملكة الماسيلية، ويرى بيكار أنّ صاحب الإهداء كان مقيما في المنطقة الطرابلسية، في بلاد الإمبوريا (Emporia) التي كانت ضمن مملكة ماسينيسا[62]، ومنه يمكن القبول أنّ الإدارة الملَكية تكون قد أبقت على التسمية البونية للمنطقة المسترجعة من البونيين، ويمكن تطبيق التسمية على كلّ منطقة يستردّها ماسينيسا من القرطاجيين، مثل جهة السهول الكبيرة في حوض مجردة الأوسط، ومهما يكن المدلول الصحيح لهذه التسمية فإنّه يمكن استنتاج أنّ قسما من رعايا الملك الماسيلي كان يحمل إداريا اسم ليبيين الذي أطلقه عليهم أجانب، حتّى ولو كانوا يطلقون على أنفسهم اسما آخر.

المازيس

في الواقع، هناك اسم إثني واسع الانتشار نجده في كلّ جهات البلاد البربرية،يتجاوز اسم الأشخاص إلى اسم المكان، ممّا يسمح باعتباره الاسم الحقيقي للشعب البربري، وجذر الاسم المقصود هنا هو (**م ز غ** M Z G) أو (**م ز ك** M Z K) الموجود أيضا في أسماء مازيس (Mazices) مازاس (Mazaces) مازازس (Mazazeces) خلال الفترة الرومانية، وكذا في اسم الماكسي (Maxyes) في هيردوت ومازيس (Mazyes) في هيكاتوس والمشوَش في النصوص الفرعونية. وتحتفظ تسميات إموشاغ (Imusagh) غربي الفزان وإماجيغن(Imagughen) في الأيير(Aïr, Niger)، وإمازيغن (Imazighen) في الأوراس، والريف والأطلس الأعلى بهذا الاسم[63]، وتماسغت (Tamaseght) هي لغة التوارق، الذين يتسمَّون بدورهم باسم إيموشاغ (Imouchar = Imusagh).

يرى اسطيفان اقزال اعتمادا على نصّ ليون الأفريقي، أنّ اسم مازيغ (أمازيغ) يعني "النبيل" أو الحرّ مثل اسم أريا (Arya) أو الفرانك (Franc)[64]، ومن الأكيد أنّ لهذا الاسم الإثني في أفريقيا الشمالية انتشارا معتبَراً في التاريخ القديم، وقد أمدّتنا النصوص بأشكال وصيغ هذا الاسم، كما هي في الجدول أدناه مع أنّ رسم الاسم ليس دائما رسما موثوقا به.

(62) - G. CH. Picard, Civitas mactaritana, Karthago VIII, 1958, p. 26.

(63) القائمة واردة في بيتس : الليبيون الشرقيون، **1915**، ص ص **42-43** بالانكليزية؛ وكذا في اقزال تاريخ أفريقيا الشمالية القديم ج V ص ص **115- 119** بالفرنسية.

(64) اقزال ، المرجع ذاته ص **119** .

I- السكّان المازيس الرحّل الذين ينتجعون في مناطق جاقة

الأسماء	المؤلفون	المنطقة
مازيس Mazyes	هيكاتوسHecatus، إتيان البيزنطي Etienne de Byzance	ليبيا (رحّل)(65)
مازيس Mazices	فيلوستروق Philostrogue	طرابلس(66)
مازيس Mazices	سينسيوس Syesius	قورين(67)
مازيس Mazices	إتيكوس وصف العالم Cosmographie d'Ethicus	الصحراء(68)
مازيس Mazices	عرض كلّ العالم Expositio totius mundi	الصحراء(69)
مازيس Mazices	فيجيس Végèce	الصحراء(70)

II- توزيع السكّان المازيس وعلى الخصوص في المناطق الجبلية (من الشرق إلى الغرب)

أ- نصوص

الأسماء	المؤلفون	المنطقة
ماكسي Maxyes	هيرودوت Hérodote	تونس الجنوبية(71)
مازيسي Mazicei	كتاب الأجيال Liber generationis	تونس الجنوبية(72)
ماكسيتاني Maxitani	يوستينوس Justin	منطقة قرطاج(73)
مازاسنس Mazacenses	مجمع 411 Conférence de 411.	نوميديا(74)
تامازوسنس Tamazucenses	مجمع 484 Conférence de 484	موريتانيا القيصرية(75)
مازازس mazazeces	قائمة فيرون Liste de Vérone	موريتانيا القيصرية(76)
مازيس Mazices	أميانوس ملرسيلينوس Ammien Marcellin	جنوبي شرشال(77)
مازيس Mazices	بطليموس Ptolémée	جنوبي شرشال(78)
مازيس Mazices	يوليوس هونوريوس Julius Honorius	موريتانيا القيصرية(79)
مازيس Mazices	بطليموس ¨Ptolémée	المغرب الشمالي(80)

(65) - Hécatée d'après Etienne de Byzance, Fragm. histo. Graec. I p. 23, n° 304

(66) - Hist. Ecclesiast. XI, 8.

(67) – Epist. 74 ; cf. O. Bates, The eastern Libyans, p. 237.

(68) - Riese, Geographici latini minores, p. 88.

(69) - Ibid. p. 123.

(70) III, 23, ؛ هؤلاء المازيس هم مربو جمال، وليس تحديد مكان استقرارهم أكيدا بعد، أنظر:
- Courtois ch. Les Vandales et l'Afrique, Paris 1955, p. 100, n° 3.

(71) - IV, 191-193

(72) Reise, Geog. Latin. Minor, p.167 ؛ذُكرالمازيسي مابين الأفري والقرامنت،ولكن تسلسل الأسماءغير ثابت، أنظر:
- G. CAMPS, Les Bavares, peuples de Maurétanie Césarienne, Rev. Afric. T. XCIX, 1955, pp. 241-288.

(73) – XVIII, 6, 1. ؛ وحسب الأسطورة فإنّ ملك الماكسيتاني طلب يد ديدون للزواج.

(74) أبرشية غير معروفة، أنظر:
- Père Mesnage, Le Christianisme en Afrique, Origines, développement, extension, Rev. Afric. T. LVII, 1913, p. 520.

(75) - Ibid. p. 535

(76) - Liste de Vérone, éd. Seek, p. 252.

(77) XXIX, V, 17 -؛ هذه القبيلة مقيمة في الورشنيس.

(78) - IV, 2, 5.

(79) -Reise, Geogr. Latin. Minor, pp. 53-54.

(80) - IV, 1, 5.

ب – نصوص أثرية

المنطقة	المصدر	الأسماء
Regio Montens(is?) منطقة جبلية[81]	*CIL VIII, 2786*	Mazices مازيس
Miliana مليانة[82]	*CIL VIII, 9613*	Mazices مازيس

III- مصطلح مازاكس = مازيس المستعمل عموما

المصدر	الاسم
Lucain لوكان[83]	Mazax مازاكس
Corippus كوريبوس[84]	Mazax مازاكس

يمكن أن نضيف إلى هذه القائمة أسماء الأماكن التالية :

مازوك **Mazuc** (هنشير بشرة) .

مازوك **Mazuc** (هنشير كاشون) .

ميزيغي **Mizigi** (عين بابوش)[85].

وكذا عدد من أسماء مازيك ومازيكة[*] التي ذُكرت في النصوص الأثرية الجنائزية[86]، كما أنّ إطلاق اسم مازيس من قبل المؤلّفين القدامى على عدد من المجموعات السكانية، بعضها من الرحّل والبعض الآخر من المستقرّين الجبليين وفي فترات مختلفة وفي مناطق متباعدة يبيِّن بوضوح أنّ الاسم أهلي وهو الوحيد الذي يجعلنا واثقين بأنّه يحظى بقبول الجميع.

من جهة أخرى، يجعلنا هذا الاسم نفهم جانبا من الأسطورة التي رواها سالوست؛ حيث يقول أنّ الميد الذين نزلوا في البرّ الأفريقي اندمجوا بالليبيين وهو ما أدّى إلى تحريف في اسم الميد تدريجيا حيث تحوّل في اللسان الليبي إلى مور (Maures) ولعلّ هذا التفسير مفيد،

---

(81) جاء في نقيشة جنائزية من لمبيس مهداة لذكرى قائد مائة من الجيش الأوغسطي الثالث العبارة : المنتصر على مازيس المنطقة الجبلية (Mazices reg(ione) Montens(e)) وقد نسب البعض هذا النص إلى بلدة مونس الواقعة ما بين سطيف وجيملة مع أنّ اسم هذه المدينة هو محلّ نقاش، أنظر: - Galland (L.), Mons, Mopth… et Morti. MEFR, T. LXI, 1949, pp. 35-91 ؛ ومن اليسير استنتاج أنّ المقصود بالمازيس هم سكّان مناطق جبلية مختلفة، احتمالا الورشنيس، حيث أشارت نصوص أدبية وأثرية إلى وجود المازيس هناك.

(82) - Aurelius Nucfu praefectus gentis madicum.

(83) - IV, 681.

(84) - I, 579 ; V, 80, etc.

(85) - Atlas archéologique de la Tunisie, feuilles de Djebel Bou Dabbous n° 33; de Djebibina n° 28; de Teboursouk n° 220.

(*) أو مسيكة وهو اسم لا يزال مستعمَلاً إلى الآن.

(86) قائمة أوردها اقزال، أنظر : - St. Gsell, H.A.A.N., T. V, p. 116

حيث يرى اقزال أنّ الاسم مور أخذ في البوني صيغة أقرب إلى الاسم ميد من الصيغة اللاتينية ماوري أو الإغريقية (Μαυρουσιοι) في حين أنّه من المفترض أن اللفظة البونية الدالّة على المور قريبة من لفظة ماهوريم (Mahaurim)[87].

أرى أنّ شاهد قبر أوريليوس نوكفو (Aurelius Nucfu) التي عُثر عليها في مليانة، تحمل الحلّ لهذا الإشكال الصغير، وأنّ التفسير الذي قدّمه سالوست ليست له أيّة قيمة، لأنّ الاسم مور لا علاقة له بالاسم ميد، وأنّ وجود هذا الاسم في الأسطورة كان محض تشابه في اللفظ، وهو تشابه ملحوظ أيضا في جنيالوجيات القرون الوسطى، لقد كان أوريليوس نوكفو برايفكتوس قبيلة أمازيغية (Tribu mazique) هي مازيغ في الورشنيس، وطبقا للنطق المحلّي دون ريب فإنّ اسم هذه القبيلة كُتب ماديس (Madices) وهنا نلاحظ التقارب القويّ ما بين مايدي (Maedi ومنها يصاغ النعت Maedicus) وماديس[88].

ليس مستغربا أن نجد سكّان أفريقيا الشمالية بأنفسهم يضعون اسم ماديك أو مازيك على رأس شجرة نسبهم، لأنّهم بأنفسهم يتسمّون بهذا الاسم، وفي وقت لاحق بعد خمسة عشر قرنا ها هو ابن خلدون يجعل قسما من البربر هم البُتر، منحدرين من سلف أعلى اسمه مادغيس ... ويجعل القسم الآخر وهم البرانس منحدرين من مازيغ بن كنعان[89].

أما عن وجود اسم فُرس في نصّ سالوست، فإنّنا نجد في بلين الكبير إشارة عرضية يقول فيها "**الفاروزيون شعب يسكن جنوبي المغرب (Maroc) وكانوا في ما مضى فُرساً**" وهذا أيضا تشابه غامض أو تشابه في الاسم يبرّر دون ريب نسبة الفاروزيين إلى الفُرس[90].

*

* *

بمقابلة نص هيرودوت بنصّ سالوست، وعلى ضوء اتساع نطاق استعمال الاسم الإثني، يمكن التوصّل إلى الاستنتاجات الآتية : تنقسم شعوب أفريقيا الشمالية البيضاء منذ القرن الخامس ق.م. ودون ريب قبل ذلك على صعيد نمط المعيشة إلى قسمين مختلفين : المزارعون المستقرّون سكّان البيوت، ومربّو الحيوانات الرحّل الذين يسكنون الخيام، والحال

---

(87) أنظر أدناه ص ص **151-152**.

(88) نطق حرف ز في مازيك غير ثابت فهو متغيّر من لغة إلى أخرى فالمصريون ينطقونه س، والإغريق : ζ أو ξ ، واللاتين يكتبونه Z وعلى العموم فإنّ نطقه ينبغي أن يكون قريبا من دز dz.

(89) - Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, trad. De Slane, I, pp. 168-169.

(90) - Pline, V, 46.

أنّ هذا الاختلاف في نمط المعيشة لا يتعارض مع كون السكّان ينتمون إلى عائلة لغوية واحدة: هؤلاء البربر المستقرّون والرحّل – منذ فترة موغلة في القِدم وسابقة لكلّ احتلال أجنبي– اسمهم المازيس (إمازيغن) أما الاسم ليبي مع أنّه من أصل أفريقي فإنّ الإغريق هم الذين نشروه ووسّعوا نطاق استعماله ليضمّ كلّ سكّان أفريقيا الشمالية (البربر) ثمّ اختزلوه في البربر من رعايا قرطاج.

إثيوبيو وجيتول الغرب الأقصى

من بين النصوص الأقدم، المتعلّقة بأفريقيا الشمالية، نصّ رحلة حانون الذي كان محل نقد كثير، ويستفاد ممّا ورد فيه عن الرحّل الليكسيتانيين بأنّه مقتبَس من هيرودوت –كما أشار إليه جرمان[90 مكرّر] – في معرض حديثه عن القرامنت، فالاسم وحده هو المحتفظ به، أمّا مكان استقرار هؤلاء السكّان فهو غير واضح.

إثيوبيو قرنة

تعود الرحلة المنسوبة إلى سكولاكس (Scylax) إلى القرن الرابع ق.م. على أبعد تقدير، ولا تذكر إلاّ المناطق الساحلية، أي المناطق المتأثّرة كثيرا بالحضارة البونية على الخصوص، وأهمّ ما ورد فيها هو شيء من المعلومات الإثنوغرافية المتعلّقة بالمنطقة الجنوبية الغربية لبلاد البربر بجوار قرنة، رغم بعض الغموض فيها، ومع ذلك فإنّ النصّ جدير بالاهتمام، لأنّه الأقدم فيما يتعلّق بالإثيوبيين الغربيين[91]: " **... يوجد هنا إثيوبيون يزاول الفينيقيون معهم تبادلا تجاريا، يقايضون سلعهم بجلود الأيائل والأسُود والفهود، وكذا جلود وأنياب الأفيال وجلود الحيوانات الأليفة، ويزيّن هؤلاء الإثيوبيون أجسامهم بالصور، ويشربون في آنية (Phiales) من العاج، كما تتزيّن نساؤهم بحلي من العاج، وحتّى جيادهم يزيّنونها من نفس المادّة، وهؤلاء الإثيوبيون في علمنا هم الأطول قامةً بين البشر، يتجاوز طول الواحد منهم أربعة أذرع، وقد يقارب طول بعضهم الخمسة أذرع، وهم ملتحون وشعورهم طويلة، وهم الأجمل بين سائر الرجال، والأطوَل فيهم هو الذي يكون ملِكاً عليهم، وهم فرسان (وسائقو عربات) ورماة حراب وقوس، يستخدمون نبالا حادّة...**

[90 مكرّر] - G. Germain, Qu'est-ce que le périple d'Hannon, Document amplification littéraire ou faux intégral ? Hespéris, t. XLIV, 1957, pp. 205-248. et supra, p. 11.

[91] تحدّث هيرودوت عرَضا عن الإثيوبيين في إشارتين : سكنة الكهوف في جنوبي الفزّان،وكانوا محلّ مطاردة من قبل القرامنت : Hérodote, IV, 183 -؛ وهؤلاء نماثلهم بالتوبو(Toubous) أوالتيدا(Teda) : cf.Capot-Rey, le Sahara français, Paris 1953, p.173.

هؤلاء الإثيوبيون يتغذّون على اللحم والحليب، ويصنعون الكثير من الخمر الذي يتــولّى الفينيقيون تصديره" [91مكرر] .

لا بدّ من العودة إلى عديد الوقائع التي هي موضوع نقاش في هذه الصفحة من الرحلة، فإثيوبيو جهة قرنة ليسوا زنوجا على ما يبدو، كما أنّ بلادهم التي تنتج الخمــر ينبغــي أن تكون في أقصى الجنوب، والجلود التي يبادلها هؤلاء الإثيوبيون بالسلع الفينيقية هي لحيوانات أفريقيا الشمالية، فالغزال (Oryx) الذي يسمّيه المدعو سكولاكس الأيّل (Cerf)[92] والأسُود والفهود والأفيال والعاج هي كما يبدو منتجات التبادل الأساسية، ولكن لا يمكــن الــسير دائما وراء المسمّى سكولاكس في قوله أنّ الأثيوبيين يستعملون العاج للزينة وأنّهم يزيّنــون خيولهم بتلك المادّة، ومع أنّ الفيل في تلك الفترة لا يزال موجودا في أفريقيا الشمالية إلاّ أنّ العاج كمادّة للزينة قليل نسبيا في الأثاث الجنائزي حتّى في المقابر البونية، و لم يُعثَر عليــه إلاّ في مقبرة أهلية واحدة في المنطقة الداخلية[93].

إنّ آنية الشراب التي ذكر النصّ أنّها من العاج، في رأينا، ما هي إلاّ أكواب من بيض النعام، إذ يكفي قطع إلى قسمين متساويين كي نتحصَّل على كأسين غاية في الكمال، أمّا الزخارف فهي دون ريب، حلقات أو أنواط مصنوعة من نفس المادّة، فبيض النعام له ذات المتانة وذات اللون تقريبا التي للعاج، وهذه الزخارف هي المألوفة كثيرا في مواقع ما قبل التاريخ، وكذا في عدد معتبَر من مواقع فجر التاريخ، في جهات الصحراء، ومن المحتمل أنّ الفينيقيين ابتاعوا عددا معتبَراً من بيض النعام المحوّلة إلى آنية شراب، فقد استُخرِج من مقابر قورايا وقرطاج وفيللاريكوس (Villaricos, Espagne) كمّية هامّة من قشر بيض النعام [93مكرر]

[91مكرر] - Périple de Scylax, Géographici graeci minores: édit. Didot, p. 90.

[92] ذكر ليون الأفريقي (من القرن السادس عشر) أنّ الأيّل واليحمور (Chevreuil) يوجد بكثرة في الأطلس الأعلى. édit. Epaulard, Paris 1956, p. 85 –

[93] المقبرة الوحيدة التي عُثِر فيها على أثاث من العاج هي الضريح الكبير بسيدي سليمان في سهل الغرب (المملكة المغربية) والأثاث عبارة عن أجزاء ظنّ مكتشفها أنّها عظام، - A. Rulhmann, le tumulus de Sidi Slimane, du Rharb, Bullet. de la soc. De Préhist. Du Maroc, t. XIII, 1939, pp. 37-70, ؛ كما وُجد في هذا المعْلم قطع من جرار فينيقية تعود إلى القرنين الرابع والثالث ق.م. – cf. A. Jodin; Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador, campagne 1956-1957, Bull. d'archéol. Maroc. T. II, 1957, pp. 9-40. ؛ نادرة هي الأشياء المصنوعة من العاج في مواقع ما قبل التاريخ، (عُثر على قطعتين في بريزينا غير مصنَّعتين) –P. Delmas, XXXIX e Congr. De l'A.F.A.S., Toulouse 1910, pp. 367-379 ; وفي مسعد (عُثِر على نصف ناب فيل) – Hartemayer, Rev. Afric. T. XXXIX 1895, p. 145 ؛ وفي مغارة سيدي محمّد الطاهر (عظام طير السباتول (Spatule) ، جواهر، قطع من سوار) –L. Joleaud et R. Lafitte, l'Anthrop., t. XXXIV, 1934, pp. 469-471. ؛ وعُثر في آذرار قلدامن على سوار : - A. de Beaumais et P; Royer, B.S.P.F., t. XXIII, 1926, pp. 223-238. ؛ وعُثِر في قمّة القردة ببجاية في موقع يعود إلى عصر المعادن على قطع من سوار وقطع زينة: - A. Debruge, Rec. Des Not. Et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t. XXXIX, 1905, pp. 67-123.

[93مكرر] تمّت العودة إلى دراسة قشر بيض النعام في السنوات الأخيرة، من قبل أستروك، وهذا في المقابر البونية، أنظر:
- M. Astuc, la nécropolis de Villaricos, Madrid 1951; Supplément aux fouilles de Gouraya, Libyca Archéol. Epigr. T. II, 1954, pp. 9-49 ; Traditions funéraires de Carthage, Cahiers de Byrsa; t. VI, 1956, pp. 23-58 ; Exotisme et localisme, étude sur les coquilles d'œufs d'autruches décorées d'Ibiza, Archivo de préhist. Levant., t. VI 1957, pp. 47-112.

وما رآه صاحب الرحلة هو أكواب مصنوعة إمّا عند أولئك الإثيوبيين أو في الأساكل الفينيقية، من بيض النعام الذي جي به من عندهم، ويكون التجّار القرطاجيون قد باعوها احتمالا على أنّها من العاج.

أمّا عن الإثيوبيين المجاورين لقرنة فهم يمتازون دون ريب بطول القامة حيث يتجاوز طول الواحد منهم 1,80 م ، وذكر المدعو سكولاكس أنّ طول بعضهم يقارب الخمسة أذرع (2,25 م) وهذا مبالغ فيه من قبل هذا البحّار. ولا شيء في المعلومات التي نقلها في موضوعه هذا يؤكّد أنّهم من العرق الزنجي، فالصور "المطبوعة" على أجسامهم تذكّرنا بطلاء الجسم بالمغرة التي يتزيّن بها الماكسي، ومن هيرودوت نفهم أنّ طول الشعر وإطلاق اللحية دليل على أنّ هؤلاء "الأثيوبيين" ينتمون إلى العرق الأبيض، ولعلّه يمكن أن نماثلهم في لونهم الداكن بجماعة الرّحّل التي يسمّيها بطليموس الميلانو جيتول[94].

الفاروزيون

يحدّد سترابون (من القرن الأول الميلادي) مناطق استقرار الفاروزيين في ذات الجهة[*]، وما يميّزهم عن الإثيوبيين هو استعمالهم لسلاح القوس، وكان هؤلاء الفاروزيون يمتلكون عربات مجهّزة بمقضب[95]،والحال أنّ وجود العربات في الجهات الجنوبية من المغرب لا يثير أيّ دهشة،لأنّ الرسوم الصخرية في الأطلس الأعلى وفي تافيلالت تقدّم عددا هامّاً من صور تلك العربات، وبالمقابل فإنّ الجزم بأنّ تلك العربات مزوّدة بمقضب يبدو لي مجرّد اختلاق، ليس لأنّ هذا المقضب لم تشر المصادر الأخرى إلى استعماله كسلاح في عموم ليبيا فحسب،ولكن لأنّنا لم نجد لذلك السلاح أيّ أثر في عموم الرسوم الصخرية، وعليه ينبغي اعتبار هذه المعلومة غير ذات أهمّية وأنّها مثل أسطورة الأصول الفارسية للفاروزيين[96]، خاصّة وأنّنا نعرف أنّ العربات الشهيرة المزوّدة بمقضب استُعمِلت في الشرق فقط، وخاصّة من قبل الفُرْس من القرن الخامس إلى القرن الثاني ق.م.[97].

يتأتّى الدليل على قلّة مصداقية الجغرافيين القدامى مع أنّهم جديرون بها، من أنّ الأساطير التي اعتُبرت حقائق بيّنة، تستخدَم بدورها لخلق أساطير جديدة، وعندما يتعلّق

---

(94) - Ptolémée, IV, 6, 5.

(*) أي المناطق التي استقرّ فيها الإثيوبيون الغربيون حسب نصّ رحلة سكولاكس.

(95) - Strabon, XVII, 3, 7.

(96) أنظر أعلاه ص **29** ؛ Pline, V, 46 - ، وفي ما يتعلّق بعربات تافيلالت ، أنظر :
-cf. J. Meunté et Ch. Allain, Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême Sud-est marocain, Hespéris, t. XLIII, 1956, pp. 51-88.

(97) نجد في سترابون إشارات إلى الأسطورة التي نقلها سالوست،وفي هذا السياق يقول على الخصوص:... يدّعي بعض المؤلّفين أنّ الموريزيين (les maurusiens) هنود قدموا إلى تلك البلاد مع هيراكليس، أنظر : Strabon, XII, 3, 7. -

الأمر بالشعوب المهمَّشة فإنّ البحث التاريخي الذي لا يستند على الأركيولوجيا لن يكـون قادرا على الكشف عن الحقيقة في نصوص محشوة بالخوارق لتبدو أهلا للثقة.

مهما يكن فإنّ هؤلاء الفاروزيين الذين يميّزهم سترابون بدقّة عن الإثيوبيين يبدو جليا أنّهم قريبون من إثيوبيي رحلة سكولاكس، أمّا بلين فإنّه ينقل حرفيا الرواية الـتي سـجّلها بوليب في رحلته[98]، ويجعل من منطقة درعة موطنا للفاروزيين والإثيوبيين والبيرورسـيين (Pérorses) والجيتول الداريين (Gétules Dariens) وعليه يمكن اعتبار الفـاروزيين جيتـولاً أو إثيوبيين، هذه المجموعات القبَلية كانت من الرحّل، ذوي البشرة الداكنة مثل سكّان موريتانيا الحاليين، والواضح على الخصوص هو أنّ هذه الشعوب كانت من الرحّـل، لأنّ سـترابون يصوّرها في نصّه وهي تجتاز الصحراء حاملة قرباً مملوءة بالماء.

كان يعيش جنوبي الأطلس المغربي إذن، رحّل أصيلون، يماثلون الليبيين الـشرقيين الذين عرّفَنا بهم هيرودوت، وبين هاتين المنطقتين: التريتونيس والأطلس، تمتـدّ بـلاد ذات ظروف مناخية ملائمة للفلاحة.

قرطاج والليبيون

في هذا الإقليم الشاسع، لم يعرف المؤرّخون والجغرافيون الإغريق لسوء الحـظّ، غـير الليبيين والنوميد جيران قرطاج، لأنّهم اندمجوا في تاريخ هذه المدينة.

حالت الموانع التي وضعتها قرطاج في وجه التجارة والملاحـة في سـواحل الـشمال الأفريقي دون وصول الإخباريين الأجانب إلى هذه الجهات، فهيرودوت مـثلا لا يعـرف سوى ما تلقّاه من القرطاجيين بواسطة الإخباريين عن المقايَضة الخرساء، التي كانـت تـتمّ بجوار قرنة، أمّا المدن التي ذكرها رحلة سكولاكس فإنّنا لا نعرف منها غير عدد قليـل، ولا نكاد نتعرّف في نصّ هيكاتوس إلاّ على مدينة واحدة هي **تنجيس** من الستّة عـشر مدينـة شمال أفريقية التي احتفظ بذكرها إتيان البيزنطي.

هذا الشحّ في المصادر الأدبية، هو الذي بنيت عليه فكرة تأخُّر أفريقيا الشمالية قرونـا عديدة في ما نسمّيه التاريخ.

لا ينبغي أن نبالغ في تحميل قرطاج المسؤولية، فقد ضاعت كلّ الآداب البونية المجمّعة في مكتبتها، ولم يعتن الرومان إلاّ بكتاب واحد — احتمالا بسبب ذهنيتهم الريفية– من بين

(98) - Pline, V, 10.

الكتب البونية التي سُلِّمت إلى الأمراء النوميد هو كتاب **ماقون** في الفلاحة الذي ترجموه إلى اللاتينية، والحال أنّ المكتبات القرطاجية خارج الأساطير المقدّسة والنصوص الدينية، لا تتوفّر –في رأيِنا– على شيء ذي أهمّية في ما يتعلّق بالجوانب الإثنوغرافية، والمؤكّد أنّها تتوفّر على معلومات ملاحية على غرار معلومات الرحلات الإغريقية بل وأكثر تفصيلا منها، ومن تقرير حانون عن رحلته استمدّ بلاغي إغريقي نصّ تلك الرحلة الشهيرة، ولعلّ ما ورد في رحلة المسمّى سكولاكس أو نصوص أخرى مثيلة ككتب يامبسال البونية مستمدّ في واقع الحال من أرشيف كُتبت له النجاة في واقعة "دمار" قرطاج الشنيعة 146 ق.م. .

من جهة أخرى، لا ينبغي أن نبالغ في تحميل الرومان كلّ المسؤولية، لأنّ الدمار لم يشمل كلّ المدن البونية(أو الليبوفينيقية كما يقول القدامى) عدا قرطاج وبعض المراكز الثانوية، أمّا المدن الكبيرة والعريقة مثل أوتيكة، تنجيس، ليكسوس، هدرومت، ولبتيس فلم يطلها الدمار، وكان لكلّ منها مكتبتها في معابدها، ولكن لم تحتفظ بشيء من كتبها[*].

في واقع الحال، ليس أمام الباحثين في تاريخ الشمال الأفريقي القديم أيّ مصدر أدبي آخر غير النصوص التي أرّخت للحروب التي خاضتها قرطاج منذ نهاية القرن الرابع ق.م.، فوق إقليمها، مع أنّ المعلومات الواردة فيها على قلّتها لا تتعدّى إشارات مقتضبة عن ليبيي الشمال الشرقي لبلاد البربر، وهذه الإشارات قليلة جدّا وموضوع نقاش في أكثر الأحيان.

تهيئة الإقليم البوني

توقّفت قرطاج نهائيا منذ منتصف القرن الخامس ق.م. عن دفع الإتاوة التي ظلّت تدفعها دون انقطاع منذ تأسيسها لجيرانها الليبيين[99]، وفي نفس الفترة وتبعا لذلك أنشأت قرطاج دولة أفريقية غير معروفة الحدود، وتكون في الواقع قد توسّعت منذ نهاية القرن الثالث ق.م. في إقليم تونس الحالية[100]، ولكن هذا التوسُّع المعتبَر كان في فترات لاحقة على حساب النوميد.

كان لتكوين إقليم بوني في شمال شرقي تونس انعكاسات معتبَرة، على الحياة الفلاحية في المقام الأوّل، فقد كان تهيئة أراضي رأس بونة والجهات القريبة من قرطاج محلّ إعجاب

(*) لا نوافق قابريال كامبس على هذا التبرير الذي يتنافى والموضوعية ، وتظلّ روما مسؤولة عن ضياع الأرشيف القرطاجي، فكيف تحافظ على ذاكرة بلَد أخضعته بالقوّة عبر حروب استمرّت عشرات السنين، والذاكرة كما هو معروف هو أخطر شيء على الاستعمار عبر العصور، ولذلك لا نستبعد أن يكون إتلاف مكتبات المدن البونية والأفريقية عموما عملا مقصودا من قبَل روما.

(99) Justin, XIX, 2, 4, - ؛ **عن هذه المسألة أنظر** : Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp. 462-467 -

(100) **في رأي سطيفان اقزال** op. l, p. 465 – **يمرّ خطّ حدود قرطاج غربي السهول الكبرى (منطقة سوق الأربعاء) وإلى الشرق من المادور، ولكن المعروف أنّه بعد استسلام قرطاج (201 ق.م.) كان لماسينيسا الحق في المطالبة بالمناطق التي كانت ضمّتها من المملكة الماسيلية، والواضح أنّ الجبال الظهرية لم تكن ضمن النفوذ القرطاجي.**

إغريق صقلّية وفلاّحي اللاتيوم، وقد وصف ديودور ازدهار المنطقة الواقعة ما بين ميغاليبوليس وتونس، بشيء من الاستفاضة في التفاصيل، وهو ازدهار محسوس في نصّه الذي يروي فيه جشع جند أقاثوكليس، مقدّرا حصيلة الغنائم التي استولوا عليها بسهولة، يقول ديودور"... **كانت البلاد التي عبرها مقسّمة إلى حدائق وبساتين مروية بمياه العديد من الينابيع والقنوات، وفيها منازل ريفية محاذية للطريق، ذات معمار جميل ومبنية بالآجرّ وكلّ شيء يدلّ على الثراء: المساكن التي تتوفّر على كلّ أسباب الراحة، وذلك يعود إلى الأمن الذي عرفته البلاد فترة طويلة مما سمح للسكّان بحياة مترفة، وكانت الأراضي مغروسة بكروم العنب والزياتين وبعدد كبير من الأشجار المثمرة، وعلى جانبي السهل تعيش قطعان الأبقار والأغنام، وبجوارها مراعي غنية مخصّصة للخيول**"(101).

باعتبارهم ورثة تقاليد عريقة في الزراعة المعاشية وغراسة الأشجار المثمرة يكون القرطاجيون قد قاموا بعمل هامّ في هذا المجال لاسيّما وأنّ الخصائص الجغرافية متشابهة في الساحل اللبناني والمناطق التي يشغُلها القرطاجيون في أفريقيا، وهو ما يسهّل تكيُّف الزراعات الشرقية فيها.

تكون الزراعات الجديدة وطرائق الزرع قد امتدّت من القطر البوني إلى البلاد النوميدية، وهو ما يفترض وجود سابق لمزارعين في تلك الجهات الواقعة خارج منطقة النفوذ البوني، وذات الشيء كان يتمّ في جوار مدن الساحل الأخرى، وحتى في جوار المستوطنات الفينيقية داخل نوميديا إن وُجدت كما يعتقد البعض.

"التمرّدات" الليبية

هناك تبعات أخرى غير سارّة للتوسّع الإقليمي لقرطاج في أفريقيا، فرغم تفوُّق حضارتها والجاذبية التي تحظى بها لدى الأهالي وعلى الخصوص في المجال الديني فإنّها لم تنجح أبدا في جعْل سيطرتها مقبولة من طرف رعاياها الأفارقة، فقد كان هؤلاء يتحيّنون الفرص للتمرّد عليها وخاصّة عندما تتلقّى أبسط الخسائر في حروبها في البحر المتوسّط، وكان

(101) Diodore, XX, 8 - (ترجمة هويفر Hoefer) والمرجّح أن يكون موقع الميقاليبوليس جنوب غربي شبه جزيرة رأس بونة في جهات منزل بوزلفة حسب دراسة كورتوا ، أنظر :
- Courtois (Ch.), Ruines romaines du Cap Bon, in Karthago, V, 1954, pp. 182-202.

وصول أخبار تلك الخسائر متيسّرا لأنّ أغلب أفراد الجيش القرطاجي كانوا مـــن رعاياهـــا الليـــبـــيـــين ومن الأفارقة المستقلّين[102].

كان للهزيمة التي تلقّاها هيميلكون (Himilcon) 396 ق.م. في مواجهات سيراكوزة (Syracuse) انعكاسات كارثية في أفريقيا، فقد استولى الليبيون من العبيد الآبقين وعلى الخصوص من النوميد غير الخاضعين لقرطاج على تونس وحاصروا قرطاج، وذكر ديودور أنّ عددهم كان في حدود مائتي ألف[103]، ولعلّ الرقم غير مبالَغ فيه إذا وضعنا في الاعتبار مجموع السكّان الذين يرفضون الخضوع لنير قرطاج.

كان الخطر أكبر في 379 ق.م. فقد "... انتشر مرض الطاعون في قرطاج، وأباد عددا كبيرا من سكّانها إلى حدّ أنّه أصبح يهدّد الدولة في كيانها، وهو وضع أفقدها هيبتها، وأدّى إلى وقوع تمرّد رعاياها الليبيين والسردينيين كذلك، وحمل الجميع السلاح ضـــدّ الحكّـــام القرطاجيين[104].

في منتصف القرن الرابع ق.م. كانت الاضطرابات لا تزال تعصف بأفريقيا، فقد حاول حانون الاستيلاء على السلطة في قرطاج، اعتمادا على الليبيين رعايا المدينة، وبالتحالف مع ملك المور[105]، ومثلما أشار إليه اقزال فإنّ هذه الروايات لا تسمح بالقول أنّ قرطاج كانت مرتاحة في كلّ مرّة وهي تردّ الهجومات وتقمع حركات العصيان ضدّها، في مقابل ما تناله من توسّع في إقليمها بعد حروب مظفَّرة، والأكيد أنّ المحاولة كانت كبيرة في دفْع حدودها في كلّ مرّة للتوسُّع أكثر وفي نفس الوقت لضمان حماية أوكد نسبيا للمدينة وضاحيتها، ولكن من الثابت أنّ قرطاج لم تتمكّن من كسْب ثقة رعاياها الليبيين، وأنّ أسوارها جهة البرّ التي تغلق البرزخ هي الحماية الحقيقية لها.

حملة أقاثوكليس

يتحدّث ديودور في عديد الإشارات عن النوميد، الشعب الأفريقي المجاور للإقليم القرطاجي الذي يسمّيه اللاتين نوميداي[106] (*Numidae*) وتتعلّق الوقائع التي يسردها بخصوصهم بالمعارك التي شنّتها قرطاج ضدّهم في القرن الرابع ق.م.، كما يتحدّث عنهم باستفاضة خلال حملة أقاثوكليس (*Agathocle*) ونجد في نصّه اسمي قبيلتين هما:الزوفون

---

(102) مثلا، في سنة **406** ق.م. جال هانيبال وهيميلكون في طول البلاد وعرضها لتجنيد الليبيين والفينيقيين وطلب النجدة من حلفائه الملـــوك والشعوب، وانضمّ إلى صفوف جيشه جنود من موريتانيا ونوميديا وآخرون من فورين، أنظر : Diodore, XIII, 80-

(103) - Ibid., XIV, 77.

(104) - Ibid., XV, 24.

(105) - Justin, XXI, 4, 7.

(106) - Diodore, XIII, 80 ; XX, 38-39 et 55-57.

(*Zuphônes*) ويبدو أنّها كانت مقيمة في الجبال الظهرية التونسية[107]، والأسفوديلود (*Asphodélodes*) التي يقترح اقزال أن يكون موطنها جبال خمير أو في شمال شرقي الجزائر[108] وبخصوص هذه القبيلة يقول ديودور بعبارة واضحة أنّ أفرادها يشبهون الإثيوبيين في لون البشرة[109]، وهو زعم غريب ينبغي أن يستند على ملاحظة دقيقة، والحال أنّه من الصعب استخلاص وجود عنصر زنجي في التلّ الجزائري التونسي في القرن الرابع ق.م.، مع أنّ عناصر ذات ملامح زنجية منذ القفصي شاركت في تعمير أفريقيا الشمالية [110]؛ حيث كان في القرن الرابع الميلادي عدد من ذوي الملامح الزنجية يعْمُر الأرياف المجاورة لإيكوسيوم[111] (الجزائر العاصمة) ومن هنا فإنّ نصّ ديودور يصبّ في قضية شائكة، لم يتمكّن الباحثون في الأنثروبولوجيا من حلّها إلاّ بعد سلسلة من الأبحاث في الهياكل العظمية وخاصّة الجماجم المستخرَجة من مقابر الشمال الأفريقي التي تعود إلى الفترات الميغاليثية والبونية والرومانية[112].

يبدو الاسم زوفون اسما أهليا، ولكنه أخذ صيغة إغريقية[113]، أمّا الاسم الآخر: الأسفوديلود، فهو إغريقي بالكامل، فهل يمكن أن نجد في الاسم الذي نقله إلينا ديودور تحريفا لاسم أهلي أو بوني، أم أنّه ببساطة تسمية أطلقها جنود أوماك (Eumaque) بسبب شيء ما، استرعى انتباههم؟ الاحتمالان واردان، ويمكن أن نضيف احتمالا آخر وهو أن يكون الاسم مترجما كما هو الحال في أسماء المدن(*) التي يوضّح ديودور بأنّه ترجم أسماءها إلى الإغريقية وهي التسمية التي يطلقها الأهالي على القردة، وفي هذا السياق ما العلاقة المحتملة بين الأسفودال (البروَق) والقبيلة التي تحمل اسم هذا النبات؟ وللإجابة على هذا السؤال يقارب اقزال هذا الاسم بإشارة في هيرودوت مفادها أنّ الليبيين الرحّل يسكنون

---

(107) كان القرطاجيون قد أرسلوا جيشا لإجبار النوميد الذين انفصلوا عنهم للدخول في حلف معهم، وكانوا في إقليم الزوفون عندما انطلق أقاثوكليس خلفهم على رأس 8800 جندي و 50 عربة يمتطيها ليبيون، ودارت المعركة في منطقة جبلية، ويقول ديودور أنّ أقاثوكليس وجد صعوبة في التضاريس أكثر من خطر مواجهة القرطاجيين.

(108) - Gsell (S.), H.A.A.N., t. I, pp. 303-304 ; t. III, pp. 50-51 et t. IV, pp. 85-86 . ؛ وحجّة اقزال تقوم على تسمية فليني (Phelliné) وهي مدينة مجاورة للأسفوديلود: هذا الاسم دليل على وجود شجر الفرنان وهذا الموقع يتوافق مع اتجاه سير أوماك.

(109) - Diodore, XX, 57

(110) - Balout (L.), Préhistoire de l'afrique du Nord, Paris 1955, p. 479, et Cabot Briggs (L.), The stone age races of North West africa, pp ; 76-81, الذي أشار بدقّة إلى قسمات زنجية لدى نيوليثيي كاف لعقاب (جهة سوق الاربعاء).

(111) - Camps (G.), La nécropole de Draria-El-Achour, Libyca, Archéol. Epigr. T. II, 1955, pp. 255-264.

(112) في هذا الشأن يمكن الرجوع إلى :
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires, pp. 31-32

(113) البادئة Zu تدخل في تكوين أسماء أماكن مثل زوكار (Zucchar) – Atlas archéolo. De Tunisie, Carte Dj. Fikrine n° 14 و زوكابار (Zucchabar) وهي مليانة ، وفندس زوبيدي (Fudus Zubedi) في ناحية هيبون – Atlas archéolo. De l'Algérie, feuille n° 9, 72 ؛ ومن المحتمل جدّا أن يكون نطق صيغ Thu المكتوبة باللاتينية قريبا من زو Zu أو سو Su كما هو الحال في موثول أو موسولام (Muthul flumen et Musulames) خاصّة وأنّ أسماء الأماكن التي تبدأ بـThu أو Su كثيرة.

(*) الاسم هو بيتيكوسال Péthicoussal، ولكن لم يذكر لنا الاسم في صيغته الأهلية.

أكواخا متنقّلة مصنوعة من البروق والأسل[114]، وهذا يقودنا إلى أنّ أسفوديلود ديودور كانت لهم أكواخ (ماباليا) من البرْوَق.

يصطدم هذا التفسير ببعض العوائق وأوّلها هشاشة النبات الذي يقول النصّ أنّ الأكواخ تُصنَع منه، وهو ما يجعل تسمية القبيلة باسم ذلك النبات أمرا مستبعَدا، فمنذ نزول جند أوماك كانت لهم عديد الفرص لرؤية مثل تلك المساكن التي لا تختلف عن أكواخ الريف الصقلي.

ثاني عائق وهو أكثر حرجا، هو أنّ نصّ هيرودوت مترجم على العموم، وكذلك فعل اقزال[115]، وليس فيه ذكر للبروَق (Asphodèles) ولكن العبارة الواردة فيه هي سوق (Tiges) وأسل (Joncs) وتمّ التعليق عليها بأنّ هيرودوت يقصد سوق البرْوَق[116]، وهذا ما يجعلنا أمام غموض إزاء المعنى الحقيقي الذي يحمله الاسم أسفوديلود، ومن جهتهما ينقل إلينا برتولون وشانتر في هذا الموضوع عن دوتّي[117] ملاحظة وهي أنّه في جهة مرّاكش يستخلص الأهالي هناك من سوق البرْوَق أليافاً وبمجرّد تبليلها يمكن أن تصنع منها خيطان صالحة لنسج الخيام، وفي اعتقاد برتولون وشانتر أنّ مساكن الليبيين الرحّل المتنقّلة كانت دون ريب مصنوعة من مادّة شبيهة، ومع ما في هذا التماثل من تسرُّع، يمكن على منواله افتراض أنّ الأسفوديلود كانوا بطريقة أو بأخرى متخصّصين في إعداد ونسج البرْوَق كما يفعل قبائل جمعة الصهاريج (Djemaa N'Saharidj) في صنع السلال، وآيث ينّي في الصياغة، في حين يكون هجارس الحضنة قد استمدّوا اسمهم من مهارتهم في كسر الحجارة.

أشار ديودور في ثنايا روايته لحملتي اوماك، إلى مدن واقعة في ليبيا الداخلية، وهي بكلّ وضوح خارج الإقليم القرطاجي، إحداها قد تكون ثوقة (Thugga) دوقة، وهو اسم غير فينيقي كما أنّ التنظيم السياسي لثوقة كما عرفناه من خلال النصوص الأثرية ليس أيضا من أصل فينيقي، ويدلّ وجود الدولمان بعدد كبير على قدم التجمّع السكاني بها، وكانت ثوفا خلال القرن الرابع ق.م. مدينة هامّة[118].

---

(114) - Gsell (S.), Hérodote, p. 29. (Hérodote, IV, 190)

(115) العبارة الواردة في بيتس هي : استخدم الناسمون أكواخا من هذا النوع وهي مساكن يقول هيرودوت ، أنّها تصنَع من البروَق والقصب معا : " Shelters of this sort were used by nasamones whose dwellings says Herodotus, are made of the stems of asphodels and reeds, walted together " ، أنظر : Bates (O.), The Libyans, p. 16 8 -
وينسب بيتس هذه الكواخ للناسمون فقط، مع أنّ عبارة هيرودوت التي استقى منها تنسحب على كلّ البدو، ولا يتحدّث هيرودوت عن الناسمون حصرا إلاّ في الشعائر الدينية حيث يقول : ليس لهم نفس الطقوس التي عند البدو الاخرين.

(116) لعلّ المعلومة مستقاة من Hellanicos, Riese, *Frag. Histor. Grec.* I, p. 57 n° 93 –

(117) - D[R] Bertholon et Chantre, Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie, Lyon 1911, p. 422 ; Doutté (E.), Merrakech, p. 24.

(118) جاء في ديودور أنّ اوماك استولى على توكاي (Tocaï) وهي مدينة معتبَرة، وحولها عدد من القبائل النوميدية، أنظر : Diodore, XX, 57 - ؛ وعن مطابقة اسم توكاي بدوقة أنظر : Gsell (S.), H.A.A.N.,t. III, p. 50. -

إنْ كانت هيبو أكرا التي استولى عليها أقاثوكليس كما أشار إليه ديودور غير المدينة التي تحمل ذات الاسم، فمن الواضح أنّ تلك المدينة هي بونة (عنابة، هيبو ريجيوس في الفترة الرومانية)، ولا ريب في أنّها مستوطنة فينيقية، أمّا المدن السبع الأخرى التي ذكرها ديودور في معرض روايته فهي بالتأكيد مدن نوميدية وهي فليني (Phelliné)، ماسخيلا (Maschela)، أكريس (Acris)، ملتين (Meltine)، وثلاث مدن تحمل اسم بيتكوسال[119] (Pithécoussal) إحداها ساحلية، كما أشارت رحلة سيلاكس إلى وجود ميناء يحمل ذات الاسم ما بين بترت وسكيكدة وتوجد مقابله جزيرة بنيت عليها مدينة[120]، وفي ذات الجهة، جاء في إتيان البيزنطي ذكر لخليج القردة، ولعل تجارة القردة المستأنسة أو المصطادة هي سبب تلك التسمية[121]، ومن البديهي أنّ التجارة لا تبرّر لوحدها وجود مدن، وينبغي الإقرار بأنّ تلك المدن مهما كانت درجة أهمّيتها لا يمكن أن تحيا دون زراعة بجوارها، وهو ما ورد في ديودور بوضوح في إشارة منه إلى دخول القردة إلى المخازن وأكلها من الغلال دون حرج، وباعتبارها مقدّسة فإنّها تدخل بيوت السكّان وتعيش معهم[122].

حملة ريقولوس

كانت الحرب البونية الأولى والأحداث التي تلتها مادّة لعديد الروايات المتعلّقة بأفريقيا وسكّانها، والحقّ يقال أنّ تلك المعلومات تظلّ شحيحة أو مشوّهة من خلال النظرة الخاصّة للروايات التي تنقل على الخصوص وقائع تاريخية.

ليس لحملة ريغولوس ذات المدّة التي استغرقتها حملة أقاثوكليس ولا ذات الأهمّية، فالمدن التي ذكرها بوليب وديودور: كلوبيا (Clupea)، موستي (Musti)، أدين(adyn) وتونس(Tunès) تقع كلّها في الإقليم القرطاجي،ويدلّ المغنم الكبير الذي وقع الاستيلاء عليه في الأيام الأولى التي تلت نزول الحملة في البرّ الأفريقي على حسن استغلال رأس بونة[123]. ويروي نصّ لهسياناكس مغامرة قام بها أحد ليغاتي ريغولوس وهو المسمّى كلبورنيوس كراسوس (Calpurnius Crassus)، الذي أُرسِل إلى الماسيل في مهمّة للاستيلاء على حصن يسمّى قارايتيون (Garaition) فقبض عليه أسيرا وكان سيقدَّم قربانا للإله كرونوس (بعل أمون) لولا تدخُّل بيسالتيا وهي ابنة الملك[124]. هذه الرواية الرومانسية تفيدنا في شيء واحد وهو أنّها أطْلعتنا على وجود مملكة ماسيلية خلال منتصف القرن الثالث ق.م.

---

(119) - Diodore, XX, 58.

(120) Geographici graeci minores (édit. Didot)I, p. 90 ؛ويرى اقزال أن تابركة هي المطابقة للوصف الوارد في نص الرحلة.

(121) ورد في المصادر شراء تجّار إغريق لقردة الماغو من نوميديا في عهد الأقلّيد ماسينيسا Athénée, XII, 16 –

(122) احتفظت القردة في الفلكلور ببعض التقديس - Joleaud (L.), le rôle des singes dans les traditions populaires nord-africaines, Journ. De la Soc. Des Africain. T. I, 1931, pp. 117-150.

(123) قام جيش ريغولوس بأسر 20000 في كلوبيا (قليبية) 20000 ، كما قام بنهب المنازل الريفية المملوكة للطبقة الأرستقراطية البونية.

(124) - Hésianax, Frag. Hist. Graec. III, p. 70, n° 11.

كان النوميد لا يفوّتون الفرصة للانقضاض على الإقليم القرطاجي، وهم في ذلك يقتدون بتقليد يتكرّر في كل مرّة تكون فيها قرطاج في وضع حرج. غير أنّهم كانوا يتلقّون أشدّ العقوبة بعد زوال الخطر عليها، كما فعل أميلكار وكان قائدا لجيش من الليبيين، ففي سنة 254 قام بصلْب شيوخ القبائل، وفرض على الشعب المسحوق دفْع ألف تالنت من الفضّة، وسلب منهم 20000 رأس من البقر[125]، وهذه مبالغ كبيرة نعجب كيف تمّ جمعها إذا عرفنا أنّ روما اشتطّت في فرْض مبلغ 3200 تالنت سنة 241 ق.م. على قرطاج المهزومة ولكن لا تزال ثرية، كضريبة حرب، فهل يدلّ هذا على ثراء النوميد الذين كنّا نعدّهم فقراء ؟ وقد تردّد اقزال في قبول الرقم 20000 واعتبره مرتفعا كثيرا، ملاحِظا أنّ تونس كلّها سنة 1927، لم تكن تملك 100000 رأس، ولذلك فإنّ الرقم غير صحيح[126]، وهذا الاستدلال لا يوثق منه لأنّنا لا نعرف بدقّة المساحة التي كانت مسرحا لعمليات الحملة القرطاجية بقيادة أميلكار، وليس هناك أيّ دليل تقوم عليه أطروحة اقزال التي مفادها أنّ القبائل المعاقَبة كانت مضاربها في شمال غربي الوسط التونسي، والحال أنّ أميلكار مثل أوماك يكون قد توجّه نحو المناطق الجبلية شمالي الجزائر الشرقية، وهي المناطق الرئيسية حاليا لتربية الأبقار، خاصّة وأنّ أوروز ذكر أنّه وصل إلى موريتانيا، ولكنه في واقع الحال أخلط حملة أوماك بمسيرة أميلكار على رأس كتائبه مخترقا شمال الجزائر والمغرب باتجاه إسبانيا[127].

إنّ مقارنة أرقام تربية الأبقار خلال القرن الثالث ق.م. بأرقام القرن العشرين هي مقارنة في غير محلّها، لأنّنا نعرف كم هي متغيِّرة الأرقام المستندة على إحصائيات من عشرية إلى أخرى[128].

في الأخير تحمل الأركيولوجيا الدليل على أنّتربية الأبقار كانت أكثر انتشارا خلال فحر التاريخ مما هي عليه الآن، لأنّ عظام هذا الحيوان من بقايا نذور أو غذاء أكثر في المدافن البربرية من أيّ حيوان آخر، وتوجدعظام هذا الحيوان حتّى في مقابر مناطق الجنوب الكبير التي ليس فيها تربية أبقار اليوم، أو أنّها أحدث في أعقاب استقرار البدو[129].

---

(125) - Orose, Adversus paganos, IV, 9, 9.

(126) - Gsell (S.), H.A.A.N., t. V, pp. 179-180 ؛ وعن الرقم الحقيقي أنظر أدناه الهامش **128**.

(127) - Orose, IV, 3, 9.

(128) هاهي بعض الأرقام مأخوذة من إحصائيات رسمية تتعلّق بتربية الأبقار في تونس (الموسوعة الاستعمارية والبحرية، تونس **1948**، تحت إدارة قرنيي : **1925** : **369000** رأس. **1927**: **501200** وليس **200000** كما يؤكّد اقزال. **1931**: **448700** رأس. **1933**: **543500** رأس. **1938**: **501900** رأس. **1947**: **370000** رأس. – Despois (J.), L'Algérie du Nord, p. 397 ؛ **1960**: **500000** رأس. – Ibid. La Tunisie, Coll. A. Colin, 1961, p. 201. ؛ ومن هذه الأرقام نلاحظ كم هي متغيّرة من سنة إلى سنوات أخرى

(129) عن وجود آثار تقديم الأبقار كقرابين في المقابر البربرية التي تعود إلى فجر التاريخ أنظر: -Camps (G.), Aux Origines de la Berbérie, Monuments et Rites funéraires pp. 508-509 ؛ وفي موضوع تربية الأبقار في المناطق السهبية من قبل قدامى البدو الذين تحولوا إلى حياة الاستقرار أو أنّهم في طور التحوّل إليها أنظر: - Despois (J.), L'Afrique du Nord, 1949, p. 250.

في فترة سابقة تمتدّ على الألفيتين الثالثة والثانية، كان قسم من الصحراء وعلى الخصوص الفزّان وتاسيلي ناجّر خط انتجاع لأعداد كبيرة من قطعان الأبقار الرقطاء، وهو ما يدلّ على نشاط رعوي قديم[130]، وهو نشاط ظلّ قائما إلى ظهور الحصان، مع نهاية الألف الثانية ق.م.، لأنّ الرسوم الصخرية في تي ن بجاج Ti – N- Bedjedj تُظْهِر بوضوح صور عربات شبيهة بعربات القرامنت يجرّها ثور أو إثنان[131].

لقد ظلّت الظروف المناخية والنباتية في الجهات الواقعة أكثر إلى الشمال أكثر ملاءمة بكلّ تأكيد إلى القرن الأخير قبل الميلاد، بحيث تظهر الرسوم الصخرية في الشرق الجزائري وفي تونس، ثيرانا يحمل بعضها علامات أصيلة إشارات كتابية ليبية[132]، ولا ننسى أنّ الظروف المناخية كانت تسمح آنذاك للأفيال بأن تعيش بأعداد هامّة نسبيا، في بلدان الشمال الأفريقي[133].

تختلف سلالة الأبقار الأهلية (بوس إيبيريكوس Bos Ibericus عند الطبيعيين) عن سلالة الأبقار الضخمة ذات القرون الرقيقة (بوس أفريكانوس Bos Africanus) التي تبدو بكثرة مع رعاة النيوليثي في الجداريات الصحراوية، فالسلالة الأولى هي السلالة الأهلية في أفريقيا الشمالية، لأنّ عظامها التي وجدت في مواقع ما قبل التاريخ سابقة لاستئناسها[134].

---

(130) **يمكن تحديد عصر الرسوم الصخرية بالمرحلة البقرية، وهذا بفضل الطبقات الرسوبية الغنية برفات وبعظام الأبقارالتي وُجِدت في جوار رسوم موقع صفار،في تاسيلي ناجّر،أنظر:** - Delibrias (G.), Hugot (H.), Quezel (P.),Trois datations de sédiments sahariens récents par le radio-carbone, in Libyca, Anthro. Préhist. Ethnog.T. V, pp.267-270؛ **وهي محدّدة ب3070 ق.م.**

(131) - Abbé H. Breuil, Les roches peintes du Tassili-n-Ajjer.Actes du II e Congr. Panaf. de préhist. Alger, 1952, pp. 69-219, fig.123.

(132) - Solignac (M.), Les pierres écrites de la Berbérie Orientale (Est Constantinois et Tunisie) Tunis 1928, fig 48,
- Gsell (S.), Les Monuments antiques de l'Algérie, t. I, Paris 1901, p. 47.

(133) **منذ أن سجّل اقزال بأنّ الفيل يمكنه العيش إلى الآن في منطقة الريف وفي سفوح الأطلس المغربي (l'Atlas Marocain) وهو موضوع يتطلّب المراجعة، بدأ الاهتمام بالظروف البيئية لفيل أفريقيا (الشمالية)، والواقع أنّه عندما ندقّق النظر في العدد المعتبر للأفيال التي استعملها القرطاجيون والنوميد وسهولة تعاملهم معها لا يمكن أن نوافق على تأكيدات اقزال التي مفادها أنّ أفيال الفترة التاريخية هي بقايا محتفظ بها في مناطق لا يمكنها أن تعيش خارجها، وفي ما يلي بعض الأرقام التي حسب اقزال استعملت خلال الحروب التي خاضتها قرطاج أو الملوك النوميد: 140 فيلا خلال الحرب البونية الأولى. 170 خلال حرب الجند المأجور. 200 خلال فتح إسبانيا. 140 خلال الحرب البونية الثانية. تحت قيادة جيسكون. 80 في معركة زاما. 44 خسرها يوغرطة في المعركة. 120 أنجد بها يوبا الأول حلفاءه البومبيين. وبما أنّ هذه الأرقام ممتدّة على فترات طويلة، فإنّ ذلك يسمح بجمع بعضها مثل الـ 200 فيل التي استعملت في إسبانيا يمكن أن تكون قد استعملت في حرب الجند المأجور وفي الحرب البونية الأولى، ويمكن القول بأنّ قرطاج خلال القرن الثالث كانت لها القدرة على وضع تشكيلة أفيال تضمّ 150 إلى 200 فيل. وحسب أبيان فإنّ قرطاج كانت لها إسطبلات داخل أسوارها تتسع لـ 300 فيل.**

(134) - Cf. Dr Espérandieu, Domestication et élevage dans le Nord de l'Afrique au Néolithique et dans la Protohistoire d'après les figurations Actes du II e congr. Panaf. De Préhist. Alger, 1952, pp. 551- 573.

في ضوء هذه المعطيات الأثرية نتمسّك بالرقم 20000 رأس من البقر وهو العدد الذي نهبه أميلكار من نوميديا. أمّا الألف وزنة فضّية التي غُرِّم بها السكّان فالأرجح أنّها ليست عملة فضّية مسكوكة بل هي عبارة عن حلي، أقراط وأساور التي كان يتزيّن بها الجميع رجالا ونساءً، ويبدو أنّ غارة أميلكار كانت عملية نهب منظّم وواسع، يمكن أن توفّر لقرطاج موارد جديدة لمواصلة صراعها ضدّ روما، ويبدو أيضا أنّ السنوات الموالية كانت مواتية لقرطاج لكي تتوسّع إقليميا.

مدينة ليبية كبيرة، تيفست خلال القرن الثالث ق.م.

إنّه عمل قام به حانون،ففي حوالي 247 ق.م.، وكانت الحرب مستعرة ضدّ روما منذ وقت طويل، أصبح سيّدا على مدينة ليبية كبيرة،يسمّيها ديودور هيكاطومبيل(135) (Hécatompyle) ويقترح موفارز مطابقة هذا الاسم بتيفست الفترة الرومانية (تبسة)،وأنّ تشابه هذا الاسم مع اسم طيبة(*) (Thèbes) في مصر يفسّر الاسم الذي أُطلق على المدينة الأفريقية (136)، حانون الذي أضحى سيّدا على المدينة أظهر قدرا كبيرا من الوداعة والحلم، لأنّه رفع يده عن الممتلكات والأشخاص،واكتفى بأخذ 3000 رهينة، وقد اعترف له السكّان بالفضل وتلقّوا إعلانه بحفاوة وأقاموا له ولجنده وليمة فاخرة، وهذا دليل على أنّ مقاومة التفستيين له كانت قصيرة، ويواصل ديودور حديثه عن ثراء المدينة الذي كان كبيرا، والرقم 3000 رهينة دليل على ذلك. وعلى افتراض أنّ كلّ عائلة أخذ منها رهينة واحد – وهو شيء معتبَر ولا ينبغي أن يُفهَم منه رضى السكّان عنه- يمكن تقدير عدد سكّان مدينة تفست بـــ 15000 نسمة على الأقلّ في القرن الثالث ق.م. ويبدو من مطابقة هذا الرقم مع المعطيات العددية التي استعملها كورتوا لإحصاء عدد سكّان بعض مدن أفريقيا الرومانية (137) أنّ تيفست خلال القرن الثالث ق.م. كانت تمتدّ على 60 هكتارا، أي المساحة المساوية لتيبازا داخل الأسوار (61 هكتار).

يمكن أن نبحث في دقّة هذه الأرقام، بدءاً من عدد الرهائن الذين يكونون قد أُخذوا ليس فقط من المدينة ولكن من ضواحيها أيضا، والحال أنّ نصّ ديودور واضح كثيراُ، فلم يشر إلاّ للمدينة، وإلى اعتراف سكّانها بالجميل لحانون، كما يمكن استنتاج أنّ حانون يكون

---

(135) - Diodore, fragm. Livre XXIV.

(*) وهو الخطأ المنهجي الذي يقع فيه هؤلاء دائما فكيف يفكّر موفارز في الأصل المصري ويجهد نفسه في مطابقة ما لا يُطابَق مع أنّ المنهجية والموضوعية تفترضان البحث في أصل الاسم في بيئته اللغوية ومن الواضح أنّ صيغة الاسم ليبية (أمازيغية) دون نقـــاش والدليل التاء في بداية الاسم ونهايته.

(136) - Movers, Die Phoenizers, t. II, p. 519.

(137) - Ch. Courtois, Les Vandales et l'Afrique, Paris 1955, pp. 107- 108. ؛ قدّر كورتوا كثافة السكّان بـــ **250** نسمة في الهكتار، ولعلّه احتمالا أكبر من العدد الحقيقي.

قد قام بتجنيد حقيقي وأنّ 3000 رهينة يمثّلون مجموع الرجال القادرين على حمل السلاح، ولكن نعود في الواقع ونقع ثانية في أرقامنا.

ليست الأهمية في العودة إلى عدد السكّان الحضر، الذي أمكننا نصّ ديودور من الاطّلاع عليه، ولا لاتساع المدينة افتراضا، ولكن الأهمّ هو في وجودها ذاته في بلد تشْغُله قبيلة الموسولام التي قال عنها تاكيتوس أنّها متاخمة للصحراء وليس لها مدينة[138].

لا نعرف ما إذا كانت تيفست قد احتُلّت بصفة دائمة من قبل القرطاجيين، وإذا رجعنا إلى ديودور فإنّه يقول بأنّ حانون ترك لها حريتها، أمّا الآثار فيستفاد منها أنّ التأثير البوني كان محسوسا في هذه المدينة، منذ فترة باكرة،من ذلك العثور على عملة قرطاجية[139] بمقبرة قسطل الميغاليثية الواقعة على بعد عدّة كيلومترات إلى الشمال من المدينة، وكان الدفن بها قد استمرّ إلى بداية الفترة الرومانية، وعلى بعض الأواني البيضية (Coquetier) التي تحمل بعض المؤثرات البونية التي من غير اليسير فهْم سبب وجودها في بيئة بربرية خالصة، حيث أنّ زخارفها مختلفة تماما عن زخارف الفخار المصنوع من قبل نوميد تيديس، وقريب الشبه بالزخارف البونية التي تزيّن فخار القرنين الرابع والثالث ق.م.[140]، أمّا القبور المنحوتة في الصخر (حوانيت) والمسمّاة أحيانا بالقبور البونية[141] فليست بوجه خاصّ فينيقية، والدليل على ذلك وجودها بعدد كبير في ناحية تبسّة.

حرب الجند المأجور

لم تنجح عمليات أميلكار وحانون التي لم تكن ذات طابع عقابي فحسب، في جعْل الرعايا الليبيين ينضمّون نهائيا إلى القضية القرطاجية، فقد استمرّت أعمال التمرّد وكان آخرها هو "تمرّد" الجند المأجور، وهو التمرّد الأخطر كما يبدو، وهو المعروف لدينا أكثر.

يسمّى هذا التمرّد "حرب الجند المأجور"، وإذا كان دور هذا الجند حاسما في بداية الأحداث إلاّ أنّهم ليسوا وحدهم المحرّك الأساسي لها، وكانت هزيمة قرطاج في الحرب

---

(138) - Tacite, Annales, II, 52. **تمرّ حدود إقليم الموسولام جهة الغرب في منتصف الطريق ما بين تبسّة وخنشلة (I.L.Alg. 2988, 2989) وجنوبا في قصر البوم على بعد 20 كلم جنوب غربي تبسّة (Ibid. n° 2978)، إلى جنوب المادور (Ibid. n° 2828, 2829) إلى نقطة على بعد 14 كلم شمال شرقي تبسّة، ولكن هذه الحدود إدارية رسّمت بموجب قرار أباطرة روما، وهي أضيق بكثير مما كانت عليه قبل الكنطنة، وينبغي عدم الوثوق في النصوص الكتّاب الرومان على غرار سالوست الذي وصف بلد تالة بوصف جعلنا نتردّد طويلا في تحديد موقعها، أنظر:** - Courtois (Ch.), La Thala de Salluste, Rec. Des Not. Et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t. LXIX, 1955-1956, pp. 55-69.

(139) **نادرا ما يحدث ذلك ولا يستحق الذكر،، ولا يتجاوز عدد المقابر التي عثر فيها على عملة قرطاجية خمس مقابر، منها ثلاثة في تونس في الإقليم الذي سيطرت عليه قرطاج، واثنتان بالجزائر هما قسطل (قرب تيفست) وسيلة (قرب سيرتا).**

(140) - Camps (G.), Recherches sur l'antiquité de la céramique modelée et peinte en Afrique du Nord, Libyca. Anthrop. Archéol. Préhist. T. III, 1955, pp. 345-390, tableau p. 384

(141) - Sérée de Roch, Tébessa, antique Théveste, Alger, Alger 1952, p. 10 et 23.

البونية الأولى قد أعقبها تمرّد أفريقي، وقد جاءت خطورة الحدث هذه المرّة من كون الدولة أفقرت وليست لها الإمكانيات لتلبية مطالب جندهاالمأجور، فقام هؤلاء بإشعال نار التمرّد، وليس في نيّتنا هنا أن نستعيد وقائع هذه **الحرب التي لا تغتفَر**، التي يبالغ بعض المؤرّخين في إعطائها طابعا اجتماعيا[142].

في خضمّ أحداث التمرّد، وجّه ماطو، وهو رئيس الجند الليبي، نداء إلى المدن الأفريقية داعيا إياها لأن تتحرّر، ويشير بوليب إلى أنّ كلّ الليبيين تقريبا – في الإقليم القرطاجي- اعتبروا القضية واحدة وانضمّ منهم سبعون ألفا إلى الجند المتمرّد[143]، وليسوا هم فقط فقد أبدى النوميد أيضا استعدادهم للوقوف إلى جانب المتمرّدين، ونذكر من بينهم الميكاتان (Micatanes) وهم مجموعة سكّانية كان على رأسها ناراواس.

أبدى الليبيون في هذه الحرب قوّة وإرادة كبيرة، وقد استماتوا بحقّ في الحرب التي أنهكتهم، وكانت الأحقاد والضغائن قد بلغت حدّا كبيرا في وجه مدينة ضعيفة ومتصدّعة، وكانت قرطاج قبل أن تبرم السلم مع روما قد اشترطت على رعاياها تسليم نصف المحصول وعاقبت بقسوة الممتنعين ومنكوبي الحظّ على السواء، وعندما التحقت تلك القبائل بالجند المأجور، اتخذت النساء من جهتهنّ قرار الإسهام بكلّ ما يملكن من مصاغ، وتبرّعن بحليهنّ، وكان ذلك كافٍ لتعويض مخلّفات الأجور التي لم تدفعها قرطاج، وكذا الاستعداد لمواجهة أعباء الحرب[144].

ذلك هو حال شعب خاضع وعرضة للتفقير بسبب ابتزازات قرطاج، ومع ذلك كان لا يزال يحتفظ بشيء من الثروة التي جمعها في شكل مصاغ لدفع ديون "تجار" قرطاج الذين لم يكونوا قادرين أو بالأحرى لا يريدون تسويتها، ومهما يكن حجم المبالغة فإنّ وقائع الحرب الأليمة التي رواها بوليب تظْهِر بأنّ الفلاّحين الليبيين كانوا أشدّ فقراً ممّا يُتصوّر، وأنّ الكثافة السكّانية كانت كبيرة، ومن الأكيد أنّ الأموال التي جمعها ماطو من المصاغ والسبائك كان في عدادها كمّية هامّة من العملة، ويرى **بابلون** أنّ بعض العملات تحمل الحروف الإغريقية AIBΓON وحرف ميم بوني، وهي عملة يكون الجند المأجور قد استولى عليها أو سكّ بعضها ويقترح اعتبار حرف الميم اختصارا لاسم ماطو[145]، مع أنّ تصنيف

(142) - Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc, t. I, pp. 72-73.
(143) - Polybe, I, 70-9, 73-3.
(144) - Ibid., 70-72.
(145) - Babelon (J.), Observations sur quelques monnaies de Libye, Actes du LXXIXX Congr. Nat. des Soc. Sav. Alger 1954 pp. 23-30.

هذه العملات التي اكتشفت في سردينيا وشمالي تونس لا يتوافق مع هذه الفرضية، فـــالرموز الإغريقية التي ظهرت على وجه العملة غير واضحة جيّداً وتبدو غريبة في إصدارٍ موجّه لدفع مرتّبات محاربين في أفريقيا.

تقع كلّ المدن المذكورة في المصادر التي أرّخت لحرب الجند المأجور في إقليم قرطاج، حيث دارت المعارك، في ما عدا المدن الساحلية: تينس (Tynes) تونس، هيبو أكرا (Hippo Acra) بنزرت، أوتيكا (Utica) ولبتيس (Leptis) وفيما يتعلّق بسيكا فإنّ الوثائق الأثرية أكّدت تطابقها بالكاف، وفي دراسة حديثة تريد أن تثبت بالدليل أنّ سيرتا التي يتحدّث عنها نصّ الحرب على يوغرطة في الواقع هي الكاف التي كانت تحمل ذات الاسم طيلة الفترتين البونية والنوميدية، ممّا جعل البعض يبحث عن موقع سيكا في مكان آخر، مقترحا تبرسق الحالية (توبورسيكوم بوري الرومانية)[146] وهو اقتراح يستند على ما جاء في سالوست من أنّ سيكّا تقع في أغنى منطقة في نوميديا، وهي عبارة غير واضحة كفايةً لتأكيد ذلك الاقتراح، كما أنّه لا يوجد مسوّغ يجعل سيكا في الفترة الرومانية تغيّر اسمها لتأخذ اسما ليبيا جديداً، خاصّة وأنّ روما كانت تحتفظ بالأسماء القديمة ليبية أو بونية للمدن التي خضعت لنظمها، وعندما يقع تغيير في الاسم فإنّ الاسم البديل يكون دائما رومانيا[147].

ومن المهمّ إذن الإقرار بأنّ قرطاج كانت منذ 241 ق.م. تراقب هذه المدينة الـــتي لا يمكن أن تكون غير الكاف.

تمّت إبادة الجند المأجور، وأعدم ماطو، ولكن الحرب لم تنته في حينها، فالليبيون رعايا قرطاج أعيد إخضاعهم لسيطرة قرطاج، أمّا النوميد فقد أنزل بهم هاملكار وحانون أشـــدّ العقاب، وهي فرصة لتوسيع إقليم قرطاج[148]، على حساب الميكاتان والمملكة الماسيلية.

نوافق اقزال وتبعا لما جاء في بوليب، فإنّ هاميلكار عبر بجيشه مضيق جبل طارق مـــن أفريقيا إلى إسبانيا، أي أنّه شقّ في طريقه نوميديا وموريتانيا[149]، فبعد حرب الجند المأجور كان من الأفيد له أن يقوم بهذا الاستعراض العسكري عبر الممالك الأفريقية،وهـــذا يطـــرح مشكل العلاقات بين قرطاج وهذه الممالك، ففي سنة 238 عندما اخترق هاملكار أفريقيـــا

---

(146) - Berthier A., Juillet J., Abbé Charlier R., Le Bellum Jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta, Constantine 1949, pp. 47-49.

(147) ويدخل في هذا التصنيف عديد المحطّات المعدنية على الخصوص التي تبدأ بعبـــارة Aquae مثـــل : Aquae regiae, aquae dicicae, Aquae flavianae, Aquae Herculis, Aquae Caesaris … وكذا : Ad Portum, Ad Capsum Juliani، وكذا المدن أو المراكز العسكرية : Cohors Breucorum, Numerus Syrorum, Ala Miliaria, Centenarium Solis، وبعض الأسماء الأهلية قد توقعنا في الخلط مثل : Volubilis واحتمالا Columnata.

(148) - Cornelius Nepos, Amilcar, II, 5. ; Gsell (S.), op. cit. t. III, p. 124.

(149) - Polybe, II, 1, 6 ; - Gsell (S.), op. cit. t. III, p. 124.

من شرقها إلى غربها مبْرزا القوّة المتجدّدة للجيش القرطاجي كان قد ولد للعائلة الماسيلية أميرا اسمه ماسينيسا ووالده هو الملك قايا.

*

* *

عندما نجمع المعلومات التي احتفظت بها النصوص التاريخية والجغرافية عن الأفريقيين في الفترة ما قبل الحرب البونية الثانية، تكون الحصيلة هزيلة ما عدا بعض الاعتبارات العامّة عن أنماط معيشة البدو والمستقرّين، أمّا الوقائع المذكورة بدقّة فتخصّ ليبيي الشمال الشرقي لبلاد البربر أي السكّان المجاورين لقرطاج المتأثّرين في المجال الفلاحي بفنّيات الفلاحة البونية.

من الأكيد في جميع الحالات أنّه منذ القرن الخامس ق.م. أي قبل أن تكوّن قرطاج إقليمها، كانت جماعات أهلية من المزارعين تشغُل القسم الشرقي من البلاد التونسية، وهولاء بالنسبة لهيرودوت ليسوا هم وحدهم الذين يمارسون الزراعة ولكن كلّ الليبيين المنتشرين غربي التريتون، والحقّ أنّ هيرودوت ليست له معلومات دقيقة عن هذه المناطق ولكن بنى روايته على المعطى المناخي: وبعده بثلاثة قرون يأتي بوليب ليسجّل ملاحظته قائلا: "" **في تلك الأقطار وفرة كبيرة في الأفراس والأبقار والخراف وحتّى الماعز وأظنّ أنّه لا يوجد لهذه البلاد مثيل في باقي البلاد وهذا يعود إلى أنّ عددا كبيرا من القبائل الليبية لا يعيش ممّا تنتجه الزراعة ولكن يعيش من قطعانه**"" [150].

لا نجد في النصوص معلومات عن الزراعات التي يمارسها الأهالي ما وراء حدود الإقليم البوني الذي نجهل حدوده بدقّة، عدا بعض التفاصيل الفضولية التي جلبت انتباه الرحّالة القدامى التي نجد صداها في النصوص، فهذا هيرودوت وعديد المؤلّفين من بعده[151] يتحدّثون عن أكلة اللوتس (Lotophages) الذين يتموقعون في حدود البلاد الطرابلسية (Tripolitaine) وإذا كان اللوتس هو العنّاب ينبغي الفهم بأنّ شجر العنّاب كان يزرع أو على الأقلّ كان يحظى بالرعاية دون سائر النباتات البرّية الأخرى.

أشار هيرودوت أيضا إلى زراعة الكروم والزيتون في جزر قرقنة[152]، وقد نسبت زراعة هذه الأشجار للفينيقيين دون تقديم دليل إثبات، ويتحدّث الجغرافيون في مرّات عديدة

---

(150) - Polybe, XII, 3, 34.

(151) - Hérodote, IV, 178 ; Scylax, 109 ; Strabon, III, 157 ; Pline, V, 4, Ptolémée, IV, 6, **وحسب سترابون يوجد أكلة اللوتس في جنوب قورينائية وفي جزيرة مننكس (جربة).**

(152) - Hérodote, IV, 195.

عن الكروم المغروسة من طرف الليبيين، وجاء في رحلة سيلاكس ذكْر للكروم التي يمتلكها الإثيوبيون المجاورون لجزيرة قرنة، كما ذكر سترابون كروم المغرب العملاقة[153].

هذه المعلومات -بكلّ أسف- لا تتحدّث إلاّ عن المناطق الساحلية، وهو ما يسمح بالشكّ في وجود دور للفينيقيين في استزراع هذه الأشجار، فوجود الكرمة والزيتون البرّي قديم في بلاد البربر، وفي رحلة سيلاكس أنّ: **أهالي جربة كانوا مهرة في استخراج الزيت من ثمار الزيتون البرّي**[154]، ويرى اقزال الذي ينصح بعدم الانتقاص من دور الفينيقيين في تطوير الزراعة أنّ : **أهل جربة أخذوا عن الفينيقيين صناعة الزيت**[155] **ولم يتعلّموا منهم التطعيم**[*]، ولاستخلاص الزيت من الزيتون البري فإنّ الطريقة البدائية هي الطريقة الوحيدة الممكنة. ولا يمكن التفكير في عصر الثمرة لأنّ قشرتها رقيقة تغلّف النواة لذلك لا بدّ من سحق الثمار وترْكها تنقع في الماء تحت صخور كبيرة، حتّى يطفو الزيت فوق الماء، وهو زيت ليس من النوع الجيّد ليس فيه غير نسبة قليلة من المادّة الدهنية، ولكن لا تزال بعض الشعوب تستهلكه[156]، وللحصول على كمّية معتبرة من الزيت لا بدّ من كمّية كبيرة من ثمار الزيتون البرّي، ولذلك ينبغي أن يكون عنّاب أكَلة اللوتس وزيتون الجربيين (البرّي) محلّ عناية ونصف مزروع[**].

في روايته عن استيلاء حانون على تيفست أشار ديودور إلى أنّ **شيوخا كانوا يحملون أغصان الزيتون جاءوا يستعطفون القرطاجيين**[157] وإذا كانت الواقعة صحيحة، فإنّه ينبغي القبول بأنّ تيفست كانت منذ القرن الثالث ق.م. تمتلك بساتين الزيتون وهي في هذه الحالة ليست من عمل الفينيقيين ولا من عمل الرومان هذا إذا لم يكن ديودور قد عبَّر بحمْل أغصان الزيتون كناية عن تقليد إغريقي، أمّا في بلد كأفريقيا فإنّ طلب الأمان فيه يكون مصحوبا عادةً بأضحية خروف أو عجل.

إنّ أقدم من تحدّث عن فلاّحين ليبيين غذاؤهم من القمح هو هيكاتوس (حوالي القرن الخامس ق.م.) ومثله فعل سيلاكس الذي تحدّث عن **وفرة في إنتاج القمح والشعير في جزيرة جربة**[158]، أمّا المؤلّفون الآخرون فلم يكلّفوا أنفسهم عناء تدوين مثل هذه الوقائع،

---

(153) Scylax, 112, Strabon, XVII, 5 - ، وكانت شجرة العنب البرّية موجودة بوفرة في المغرب وورد ذكرها في عديد المصادر القديمة، أنظر: Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, pp. 166-167. -

(154) - Scylax, 110.

(155) - Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, p. 238, note: 6.

(*) لم يقدّم لنا اقزال الدليل، ومعروف عنه أنّه أحد الذين طمسوا الحضارة الأفريقية (الأمازيغية) وأسّسوا لفكرة أنّ ما ليس رومانيا فهو فينيقي.

(156) عن صناعة الزيت أنظر: - Camps-Fabrer, l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique romaine, Alger 1953.

(**) نصف مزروع (Semi-cultivé) أي أنّه في الأساس برّي ثمّ يعتني به المزارعون كما لو أنّه بستاني.

(157) - Diodore, XXXIV, fragment.

(158) Hécatée, Frag. Hist, graec, Müller, I, p. 23, n° 305 ؛ يسكن أولئك المزارعون بجوار مدينة ميقاسا (Megasa) واسم امدينة هذا اختفظ به إيتيان البيزنطي وهو قريب من ميقارا الاسم الذي عرف به حيّ نصف ريفي في قرطاج، ويحدّد هيكاتوس موقع هذه المدينة ما بين الماكسي والزوقانت (Zugantes) وهم القيزانت عند هيرودوت ، أنظر: Scylax, 110. -

و لم تكن تستهويهم غير التفاصيل الغريبة المثيرة، وما يمكن أن نستنتجه هو أنّ النصوص غير تامّة وما جاء فيها تشوبه الغرائبية المختلطة بالتقاليد الليبية، على غرار ديودور الذي يطنب في الحديث عن قردة يحميها طابو (Tabou) تأكل المؤن دون أن يحدّثنا عن الأهمّ وهو أيُّ نوع من الزراعات التي توفّر تلك المؤن[159]، وهو ما يبحث عنه القارئ، ولكن لا يمكن أن نؤاخذ القدامى لأنّهم ليسوا إثنولوجيين.

إذا كان المزراعون الليبيون قد تمركزوا في الواجهة الشرقية للبلاد التونسية منذ ما قبل القرن الخامس ق.م. فمن حقّنا التأكيد أنّ القرطاجيين لم يكن لهم أيّ دور في تكوين تلك المجتمعات من الفلاّحين لأنّ الإقليم البوني لم يكن بعد قد توسّع إلى تلك الجهة.

وبالمقابل فإنّ الفلاحة العلمية التي يكون البونيون (ماغون وحانون اللذان نعرفهما بالاسم على الأقلّ) قد علّموها لم يكن معمولا بها إلاّ في نطاق الإقليم البوني الضيّق، وإذا كانت هناك زراعة شجرية: زياتين، لوز، رمّان، في تلال الوطن القبْلي وضواحي قرطاج قد توسّعت باتجاه الجنوب والغرب فهل كان بسبب التوسع على حساب النوميد[*].

يوجد في الإقليم الذي تراقبه قرطاج – في تحليل حديث لشارل بيكار – قسمان[160]، " **الأول** وهو : **شورا** (*Chora*) يتكوّن من الأملاك البونية يشمل القسم الشرقي من التلّ التونسي[161] وحوض المجردة الأدنى والوطن القبْلي وشمال منطقة الساحل، وهو على الخصوص مخصّص لبساتين الزيتون وللزراعات المعاشية و**الثاني** ويتكوّن من سهول مجردة ووادي مليان على الخصوص كان يزرَع من قبل الليبيين ويوفّر الحبوب، وكانت قرطاج تحصّل منه جباية قد تصل في أحلك الظروف إلى نصف المحصول"، ودعما لهذا الرأي يستشهد شارل بيكار ببوليب الذي وصف مدى قلق القرطاجيين عندما انضمّ الليبيون إلى الجند المأجور الثائر: " **في الواقع كانوا في أمسّ الحاجة إلى إقليمهم (الشورا) لتأمين ضروريات العيش، أمّا استعدادات الحرب وما تتطلبه من مؤن كبيرة فإنّه لا يمكن تأمينها إلاّ من الليبيين**"[162]، وهذه العبارة يفهَم منها أنّ القسم الأكبر من الأملاك البونية الذي يسمّيه بوليب ليبيا كان الأكثر اتساعا، وكان آهلا بمزارعين لا يختلفون عن باقي الليبيين غير الخاضعين لقرطاج الذين يسمّيهم ديودور وبوليب النوميد.

(159) - Diodore, XX, 58, 3.

(*) في الواقع الفلاحة الأفريقية هي فلاحة ليبية وما يسمّيه كامبس وغيره بالفلاحة العلمية (Culture savante) ما هو إلاّ خبرات فلاحية أفريقيّة متراكمة يكون ماغون قد جمعها ودوّنها في كتاب.

(160) - Picard (C. et G. Ch.), la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, III e siècle av. J. C., Paris 1958, pp. 83- 84.

(161) وليس التل الغربي كما قال المؤلّفان خطأ ، نفسه ص **84**.

(162) - Polybe, I, 71, 1. trad. Par G. Charles-Picard, op. cit. p. 83.

لم تكن قرطاج لتستولي عى مناطق جرداء أو غير مجدية زراعيا، وأغلب المدن الواقعة داخل الإقليم البوني ذاته تحمل أسماء ليبية، ويبدو لي أنّ التفسير الذي ساقه اقــزال في هــذا الشأن وهو يتحدّث عن مدن أفريقيا ما قبل الرومان التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية غــير مقبول، يضيف: من قلّة التبصّر إضافة هذه الشواهد إلى الأسماء الليبية التي ظلّ عــدد مــن القرى والمدن يحملها في العهد الإمبراطوري بصيغة لاتينية: تلك الأسماء تدلّ بأمانة علــى أنّ أماكنها كانت مأهولة قبل الفترة الرومانية،ولكن لم تكن مأهولة بسكّان مستقرّين..."[163].

هذا التفسير يقوم على مسلّمة مفادها أنّ بلاد البربر قبل الرومان لم تكن سوى أرضا خالية، تنتجع فيها قبائل من الرحّل، تسوق أمامها قطعانها الهزيلة، ومن يوم لآخر تكشف التنقيبات الأثرية في الطبقات الرومانية والبونية عن مجتمعات أهلية منظّمة إلى حدّ ما ولكنها عارفــة بالفلاحة ومستقرّة في تجمّعات عمرانية، والمثال على ذلك تيفست التي فُرض عليها تــسليم 3000 رهينة من أبنائها خلال منتصف القرن الثالث ق.م. وهو الدليل على أنّ الأفارقــة القدامى لم ينتظروا السيطرة القرطاجية أو الرومانية لتشييد المدن.

لن نبالغ في التنويه بأهمّية هذه المدن التي تكون قد بنيت في أماكن محصّنة طبيعيا أو أنّها كانت تجمّعات فلاحية، ولا ريب أنّ تنظيم مدن كهذه يتضمّن إقامة عمران منسّق ووجود حدّ أدنى من التسيير الإداري يكون الأثريون احتمالا قد أدمجوا آثاره ضمن طبقات الفتــرة البونية.

لا يمكن الحسم في مسألة وجود مدن أو تجمّعات سكنية عند النوميد دون البحث في موضوع الفلاحة وبدايات التبادل، وإذا كان البعض قد اعتبر زراعة الزيتون والكروم علامة مميّزة للاستعمار الفينيقي فإنّ زراعة الحبوب والخضار التي تدخل ولا تزال في النظام الغذائي للأفريقيين (فول، حمّص، خرشف) هي زراعة أفريقية سابقة لوصول الفينيقــيين وكانــت منتشرة على نطاق واسع في المناطق السهلية في عموم الشمال الأفريقي.

ما هو الوضع الحضاري للأفارقة قبل وصول الفينيقيين؟ خاصّة وأنّ الكثير من المؤرّخين لم يتردّدوا في رسم صورة قاتمة لهؤلاء السكّان "المتوحشين"، وأنّهم إلى تلك الفترة كانوا لا يزالون يصنعون أدواتهم من حجر الصوان ويجهلون أدنى الأشياء التي أنتجتها الحضارات التاريخية أوالبروتوتاريخية ومحكوم عليهم بالركود والعزلة، والفينيقيون دون غيرهم

[163] - Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p. 241.

هم المتحضرون والمتفوّقون[164] والذين يريدون تفسير كلّ شيء بالتأثير الفينيقي وجعْل المدن البونية صانعة لكلّ أشكال الحضارة في بلاد البربر يخدعون أنفسهم،وأرى أنّه من الخطير جدّا إدراج كلّ التقنيات الصغيرة وحتّى الزخارف البسيطة للسكّان الأمازيغ[165]ضمن الطبقة الأثرية الأخيرة، والقول بأنّها تعود إلى البونيين، والأخطر هو أن نجعل من الفينيقيين روّاد إبحار في المتوسّط، والحال أنّه حتّى قبل ظهور الملاحة البحرية الحقيقية كانت هناك علاقات قائمة منذ النيوليثي ما بين الشمال الأفريقي والجزر وأشباه الجزر الأوربية المجاورة له[166].

يكمن الإشكال في أنّه لايوجد أيّ نصّ محتمل يمكن أن يحتفظ بذكرى مبادلات سابقة للفينيقيين[167]،ونتائج الأبحاث الأثرية هي وحدها التي يمكن أن تكشف عن ذلك[168]، أمّا في ما يتعلّق بالفترات الأقرب فلحسن الحظّ تكمّل الأركيولوجيا المعطيات الواردة في المصادر الأدبية الناقصة وتسمح بتكوين صورة ولو أنّها غير واضحة كفايةً عن قدماء البربر[169].

(164) هذا الرأي الذي سقناه كفرضية بسيطة، وعن منطقة وشتاتة الغابية وحدها أنظر :
- Gobert (E.G.), Notions générales acquises sur la préhistoire de la Tunisie, Actes du II e congr. Panaf. De préhist. Alger 1952, pp. 221-239 ؛
وهذا الموضوع مكرّر في: Charles-Picard (C. et G.), op. l. p. 25.-؛ وللتدقيق في تاريخ هذه المسألة من المهمّ التذكير بأنّه عندما قدّم قوبير هذه الفرضية لم يكن في حوزة المتخصّصين إلاّ تأريخ واحد حدّده كاربون **14** عن صناعات بدايات الباليوليثي الشمال أفريقي (وهو المتعلّق بالقفصي الأعلى في المقطع : **6450** زائد ناقص **400** ق.م. ومنه عرفنا أنّ النيوليثي ازدهر في الصحراء والمغرب منذ نهاية الألف الرابعة (موقع منيات **3450** زائد ناقص **300** ق.م. موقع صفار **3070** زائد ناقص **300** ؛ موقع جعاطشة **3050** زائد ناقص **150** في حين يعود الإيبري الموري (Ibéromaurusien) إلى الألف العاشرة في موقع تافوغالت في المغرب، يُراجَع :
- Roche (J.), Chronologie absolue de l'épipaléolithique marocain, C. R. Hébdom. De l'Acad. Des sciences, 23 juin 1958, pp. 3486-3487.
هذه المعطيات الكرونولوجية الجديدة لا تسمح نهائيا بالاعتقاد أنّ الإيبري الموري امتدّ إلى بداية الألف الأولى وحتّى في المناطق الأكثر تصحّرا توجد آثار لنيوليثي أكيد في وشتاتة ذاتها،وحتّى قوبير في دراسة له أحث تخلّى نهائيا عن فرضيته،أنظر:
- Gobert (E.G.), Recherches de préhistoire tunisienne, Karthago, t. IX, 1958, pp. 1-44 (p. 30).

(165) مثل بوانسو الذي اعتبر الديكور الهندسي المعروف باسم الديكور البربري من بين الأشياء التي أدخلها البدو الجمّالة، أنظر :
- Gobert (E..), Les Poteries modelées du paysan tunisien. Rev. Tunisi. T. XLVII, 1940, pp. 119-193 (p. 183)
وفي وقت لاحق افترض : "... أنّ السكّان الرعاة المحيطين بالمصارف الساحلية الصورية والصيدونية تعلّموا تقليد صناعة النسيج الأسيوي، وكان هؤلاء (الصوريون والصيدونيون) مرغمون على الاهتمام بحالة الوحشية التي كان عليها رعاياهم الذين هم تحت حمايتهم وكان عليهم أن يختاروا النماذج الزخرفية ذات الخطوط المستقيمة لأنّها الأسهل للتقليد والتي على ضوئها نتصوّر الزرابي والأشكال التي تعود إلى القرنين الثامن والسابع ق.م. وعدد من معالم فريجيا " أنظر:
- Poinssot (L.) et Revault (J.), Tapis tunisiens, I, Kairouan, 2ème édition, p. 11.

(166) عن العلاقات ما بين الشمال الأفريقي وإسبانيا قبل الفينيقيين أنظر :
Jodin (A.), les civilisations du sud de l'Espagne et l'Enéolithique marocain. XV e Congr. Préhist. de France, Poitiers-Angoulème, 1956, pp. 564-578 ;
ومع الجزر الإيطالية، أنظر:
- Camps (G.), Relations protohistoriques entre la Berbérie orientale et les iles italiennes, XVI e Congr. Préhist. De France, Monaco, 1959.
- Id. Les Traces d'un age du Bronze en Afrique du Nord, Rev. Afric. T. CIV, 1960, pp. 31-55.

(167) اعتبر الكثير أنّ ظهور الملاحة الفينيقية في شواطئ الشمال الأفريقي هي بداية التاريخ، وجعلوا من هذه المسألة مسلّمة لأنها تخدم فكرة الأصول الشرقية للحضارة الإنسانية ؟.

(168) توقّف البحث الأثري منذ عشرات السنين ولعلّ ذلك بسبب الخوف من التاريخ الذي لا يختلف عن الخوف من الحقيقة!

(169) نتمنى استئناف البحث الأثري على يد أكاديميين فليس من المقبول اليوم التوقّف عند الحدّ الذي بلغه البحث العلمي في القرن XIX

القبائل والشعوب الليبية المذكورة في الفترة ما قبل الحرب البونية الثانية (متمركزة ما بين السيرت الكبير والأطلنطي)

الفترة	مصادر	أسماء السكّان	منطقة التمركز
القرنان *VI-V*	هيكاتوس [170] (*Hécatée*)	بسول (*Psylles*) مازيس (*Mazyes*) زوَك (*Zauèkes*)	السيرت الكبير السيرت الصغير ؟ الساحل (تونس)
القرن *V*	هيرودوت[171] (*Hérodote*)	ناسامون (*Nasamons*) بسول (*Psylles*) ماكي (*Macae*) قندان (*Gindanes*) لوتوفاج (*Lotophages*) ماخليس (*Machlyes*) اوس (*Auses*) (قامفازانت)[172] (*Gamphasantes*) قارامنت (*Garamantes*) أتارنت (*Atarantes*) أطلانت (*Atlantes*) ماكسي (*Maxyes*) زوَك (*Zauèkes*) قوزنت *(Gysantes)*	السيرت الكبير السيرت الكبير ما بين السيرت الكبير وكينوبس ما بين كينوبس والسيرت الصغير ما بين كينوبس والسيرت الصغير السيرت الصغير السيرت الصغير فزّان فزّان الصحراء الوسطى الصحراء الغربية ؟ شمالي الجريد الساحل التونسي الساحل التونسي
القرن *V*	حانون[173] (*Hanoun*)	الليكسيون (*Lixites*)	ليكسوس
القرن *V-VI*	حرب قرطاج (عن ديودور[174])	النوميد (*Numides*) المور (*Maures*)	البلاد التونسية المغرب ؟
القرن *IV*	فليسطوس السيراكوزي[175] *(Philistos de Syracuse)*	إربيد (*Erébides*) ميماس (*Mimaces*)	متساكنون مع اللوتوفاج ؟
القرن *IV*	إفور[176] (*Ephore*)	مندون (*Myndônes*)	؟
القرن *IV*	المسمّى سكولاكس[177] (*Pseudo Scylax*)	ناسامون (*Nasamons*) ماس (*Maces*) اللوتوفاج (*Lotophages*) زوقنت (*Zugantes*)	السيرت الكبير شرقي لبتيس ماقنا جربة الساحل التونسي
306-310	حملة أقاثوكليس (عن ديودور[178])	زوفون (*Zuphônes*) أسفوديلود(*Asphodélodes*)	تونس الوسطى منطقة خمير
255 -256	حملة ريقولوس (عن هسياناكس[179])	ماسيل (*Massyles*)	تونس الغربية
237 -240	حرب الجند المأجور (عن ديودور[180])	الميكاتان (*Mécatanes*)	تونس الغربية

(170) - C. Muller, Fragmenta historicorum graecorum, I. pp. 23-25 n° 303, 304, 307, d'après Étienne de Byzance.
(171) - Hérode, Iv 172 à 180 ; 183 à 185; 191; 193 et 194.
(172) الأسماء بين مزدوجتين معدّلة أو مصحّحة، عن التصحيح يراجَع
-Bates, The Eastern Libyans, p. 53 ; Gsell S. Hérodote, p. 102.
(173) - Périple d'Hannon, C. Muller, Geographici Graeci Minores I. pp. 1-2.
(174) - Diodore, XIII, 80, 3.
(175) - C. Muller, Fragm. Hist. Graec. I. p. 188, n° 33.
(176) - Ibid., I, p. 274, n° 149.
(177) - Périple de Scylax, 109, C. Muller, Geographici Graeci Minores I. p. 83.
(178) - Diodore, XX38, 2 et 57, 5.
(179) - Frag. Hist. Graec. III, p. 70, n° 11.
(180) - Diodore, XXVI, 23.

II – مدن مشار إلى وجودها في الفترة ما قبل الحرب البونية الثانية (تريبوليتانيا، أفريكا، نوميديا، موريتانيا[181])

الفترة	المصدر	أسماء المدن	الموقع أو الاسم الحديث
القرنان *VI-V*	هيكاتوس[182] (*Hévcatée*)	زيبوتيس (*Zébutis*)	
		ميقاسا (*Mégasa*)	
		زوقانتيس (*Zugantis*)	الساحل التونسي
		يبيلي (*Ybélé*)	قرب قرطاج
		كنتيليا (*Canthélia*)	""
		كوبو *(Cuboe)*	(183)
		كالامنتي (*Calamenthé*)	(184)
		هيبو أكرا (*Hip po Acra*)	بنزرت أو عنابة
		دولوبوليس (*Dolopolis*)	(185)
		كريميون (*Cremmyon*)	
		ينكسواتيس (*Ianaxouatis*)	
		موليس (*Môlys*)	
		ستوياي (*Stoiae*)	
		ستروي *(stroe)*	
		ميتاقونيون (*Métagonion*)	مليلة ؟
		ثرنكي (*Thrinké*)	قرب أعمدة هرقل
		ثينقي (*Thingé*)	طنجة
		ميليسا (*Mélissa*)	مليتة (حانون)
القرن *V*	رحلة حانون [186]	ثمياثيريون(*Thymiathérion*)	الساحل الأطلنطي
		كاريشون تيخوس (*Carechon*	""
		Teichos)	""
		قوتة (*Gutté*)	""
		أكرا (*Acra*)	""
		ميلتّة (*Melitta*)	""
		أرمبيس (*Arambys*)	""
القرن *IV*	رحلة سكولاكس[187]	نيابوليس (*Neapolis*)	لبتيس ماقنا *(Leptis Magna)*
		قرافارا *(Graphara)*	قافارا (*Gaphara*)
		أبروتونوم (*Abrotonum*)	صبراتا (*Sabrata*)
		تاريخاي (*Tarichae*)	زوخيس أو زرزيس[188]
		إبيخوس *(Epichos)*	قيغتي (*Gighti*)
		ماكومادا (*Macomada*)	ماكومادس (*Macomadas*)
		قرقينيتيس (*Cercinitis*)	قرقنة (*Cercina*)
		ثابسوس (*Thapsos*)	ثالسوس (*Thapsus*)
		أدروميتوس (*Adrumetos*)	هادروميت (*Hadrumète*)
		نيابوليس (*Neapolis*)	نيابوليس (*Néapolis*)
		إتوكه (*Etuké*)	أوتيكه (*Utique*)
		هيبو أكرا (*Hippo Acra*)	بنزرت (*Bizerte*)
		بسيقاس (*Pségas*)	

[181] باستثناء قرطاج، التي ترد كثيرا وفي مختلف المصادر.

[182] Frag. Hist. Graec. I, pp. 13-35 - عن إتيان البيزنطي.

[183] مدينة احتمالا من أصول ايونية، في ذات المنطقة إلى الغرب قليلا، وقد تحدّث ديودور عن ميسكيلة التي أسسها إغريق بعد عودتهم من حرب طروادة.

[184] رغم التشابه في الاسم إلاّ أنني لا أرى أنّها تطابق قالمة الواقعة في منطقة داخلية.

[185] أشار اقزال إلى أنّ هذه المدينة ذكرت في إفور ، ولعلّها تقع في مصر ؟ Gsell S. Hérodote, p. 243, n° 5 -

[186] - Geographici Graeci Minores I. pp. 1-2.

[187] - Périple de Scylax, 110 et 111

[188] توجد بحيرات مالحة (شطوط) بالقرب من زرزيس.

		بيتيكوساي (*Pithécousai*) ثابسا (*Thapsa*) كَوكاكيس (*Caucacis*) سيدا (*Sida*) يوليو (*Iouliou*) هبدوموس (*Hebdomos*) أكيوم (*Acium*) بساماثوس (*Psamathos*) بارتاس (*Bartas*) خالكاس (*Chalcas*) أريلون (*Arylon*) ميس (*Més*) سيقه (*Sigé*) أكرا ميقاله (*Acra Mégalé*) أكروس (*Acros*) أبيلوله (*Abilulé*) بونتيون (*Pontion*) ليكسوس (*Liksos*) ثيمياتيريا (*Thymiatéria*)	تابَركا (*Tararca*)[189] [سكيكدة] صلداي (*Saldae*) ؟ يول(*Iol*) جزيرة كولومبي(*Ile Colombi*) جزيرة بلان(*Ile Plane*) كرتنا (*Cartennae*) سيقا (*Siga*) جزيرة رشقون (*Ile Rachgoun*) مليلة (*Mililla*) ؟ أبيلا (*Abila*) ليكسوس (*Lixus*)
القرن *IV*	حملة أقاثوكليس عن ديودور[190]	أوتومالا (*Automala*) ثابساس (*Thapsas*) أسبيس (*Aspis*) أوتيكه (*Utice*) ميقاليبوليس (*Mégalépolis*) تونس (*Tynès*) نيابوليس (*Neapolis*) هادروميت (*Hadrumète*) هيبو أكرا (*Hippo Acra*)	السيرت الكبير ثابسوس كلوبيا (*Clupea*) أوتيكا منطقة منزل بوزلفى تونس نابل سوسة بنزرت
تابع ، القرن *IV*		توياي (*Töeai*) فليني (*Phelliné*) مسكيلا (*Meschela*) أكرا هيبو(*Acra Hippo*) أكريس (*Acris*) ميليني[191] (*Milliné*) بيتكوساي (*Pithécusai*)	دوقــة جهة خمير أو القالة خمير (عنابة)
256- 237	الحرب البونية الأولى وحرب الجند المأجور عن بوليب، زوناراس وهسيان[192]	لبتيس (*Leptis*) أسبيس (*Aspis*) أدون (*Adyn*) تونس (*Tynes*) أوتيكه (*Uticé*) هيبو أكرا(*Hippo Acra*) موستي (*Musti*) سيكا (*Sicca*) قارايتيون (*Garaition*) هيكاطومبيلوس (*Hécatompylos*)	لمطة (*Lemta*) قليبية (*Clupea*) وذنة (*Uthina*) تونس (*Tunis*) أوتيكا (*Utique*) بنزرت (*Bizerte*) لكريب (*Le Krib*) الكاف (*Le Kef*) ؟ تبسة (*Théveste*)

(189) تقع بيتيكوساي مقابل جزيرة يوبويا (Euboia) التي توجد بها هي الأخرى مدينة، وفي راي اقزال أن بيتيكوساي هي طبرقـــة فلا وجود لمدينة أخرى غيرها في تلك الجهة

(190) - Diodore XX, 38 et 57 ; Strabon, XVIII, 3, 16.

(191) في ديودور تقع مليني وبيتيكوساي في الداخل ولعل أحد المدن الثلاث التي تحمل اسم بيتيكوساي مطابقة لمدينـــة المـــذكورة في سيلاكس وتقع احتمالا على ساحل طبرقة.

(192) - Polybe, I, 29 à 88. Diodore XXIII-XXIV. Zonaras, VIII, 12 à 17. Hésianax (Frag. Hist. Graec. III, p. 70, n° 11)

غذاء الليبيين، خارج إقليم قرطاج والمدن الفينيقية(من القرن IV إلى القرن III ق.م.)

مزروعات أو نباتات برّية مستعملة كمادّة غذائية	المنطقة	المصدر
القمح	الساحل التونسي جربة	*Hécatée, fragment, n° 305; Scylax, 110*
الشعير	جربة	*Scylax, 110*
الزيتون	قرقنة ، ثيفست	*Hérodote, IV, 195 ; Diodore, XXIV, 10*
كروم	قرقنة، الجنوب المغربي	*Hérodote, IV, 195 ; Scylax, 109*
نخيل	الصحراء الشرقية	*Hérodote, IV, 172-177*
العنّاب (اللوتوس)	ساحل تريبوليتانا ، جربة	*Hérodote, IV, 177* *Scylax, 109*
موادّ نباتية خمر	الجنوب المغربي	*Scylax, 112*
خمر اللوتوس	ساحل تريبوليتانا	*Hérodote, IV, 172-178*
زيت الزيتون البري	جربة	*Scylax, 110*
عسل صناعي	الساحل التونسي	*Hérodote, IV, 194*
موادّ حيوانية لحوم (قطعان)	الصحراء	*Hérodote, Iv, 186*
حليب	الجنوب المغربي الصحراء الجنوب المغربي	*Scylax, 112* *Hérodote, IV, 186* *Scylax, 112*
عسل	الساحل التونسي	*Hérodote, IV, 194*
جراد	الصحراء	*Hérodote, IV, 172*



ب . أصول الفلاحة في أفريقيا الشمالية

1- إشكال لم يجد الحلّ بعد : الفلاحة القبل تاريخية

معرفة غير تامّة بالأزمنة النيوليثية

لم ينتظر أهالي الشمال الأفريقي مجيء البحّارة السوريين لمزاولة تربية الحيوان والفلاحة[193]، وهذه الفكرة الموضوعية خرج بها اسطيفان اقزال (1911)، منذ أن بدأ علم الآثار يكشف عن الخطوط العريضة لما قبل تاريخ الشمال الأفريقي، ومنذ ذلك التاريخ تمكّن الباحثون من وضع تحقيب قبتاريخي دقيق، وتمّت دراسة الصناعات الحجرية وتتبّع تطوّرها المتصاعد[194]، و لم تبق سوى الحقبة النيوليثية والفترة البروتوتاريخية التي ما تزال غير معروفة جيّدا، ولا تزال دراستها في بداياتها، والواقع أنّه من الخطأ اعتبار أنّ ما قبل تاريخ أفريقيا الشمالية يصبح بسيطا أو أكثر وضوحا كلما اقتربنا من الفترة التاريخية[195].

يمثّل النقص في معارفنا عن النيوليثي الشمال أفريقي ضمن موانع أخرى عقَبة تحرمنا من وثائق أساسية عن أصول الفلاحة في الشمال الأفريقي، في حين أنّ دراسات نباتية عن اللقاح مكّنت من معرفة فلور العصر الحجري القديم، وظلّت المواقع النيوليثية الشمال أفريقية دون دراسة عيّناتها[196]،وعلى عكس مواقع نيوليثية أو كالكوليثية أوربية أو مشرقية لم يتمّ العثور في أيّ موقع شمال أفريقي عن مخزون بذور أو ثمار، وينبغي أن يعزى ذلك إلى الظروف غير الملائمة للحفظ في الطبقات العليا في أرضية الكهوف، لأنّ هذه الكهوف في حال أفريقيا الشمالية ظلّ يرتادها الأشخاص، وأرضيتها تبدلت بفعل عوامل عديدة، أمّا المواقع الموجودة في العراء فهي فقيرة و لم يعثر فيها إلا على أدوات حجرية وفخارية.

لا ينبغي اعتبار الظروف الطبيعية وحدها هي التي تسببت في ذلك، لأنّ الوضع الذي يوجد عليه البحث العلمي في الشمال الأفريقي هو الآخر غير ملائم، فالأبحاث في ما قبل وفي فجر التاريخ[197] بدأت منذ فترة وجيزة بحفريات غير موفّقة، وعذر الروّاد أنّ الحماس

(193) - Gsell (s.), H.A.A.N., I, 1921, p. 239

(194) - Balout (L.), Préhistoire de l'Afrique du Nord, Essai de chronologie, Paris 1955.

(195) - Ibid. p. 453. ; Gobert (E.G.), Notions générales acquises sur la Préhistoire de la Tunisie, Actes du IIe Congr. Panaf. de Préhist. Alger, 1952, p. 232

(196) في الوقت الذي كان فيه فخص وتحليل الأدوات النيوليثية الصحراوية قد تمّ، أنظر :
Quézel (P.) et Pons (A.), A propos de quelques graines fossiles du gisement préhistorique de Meniet, Bulletin de la Soc. d'Hist. nat. d'Af. du N., t. XLVIII, 1957, pp. 370-372 ; Delibrias (G.), Hugot (H.) et Quézel (P.), Trois datations de sediments sahariens récents par le radocarbone. Libyca, Anthrop. Préhist. , t. V, 1957, pp. 267-270.
وعثر على عدد وافر من بذور العناب (Zyzyphus lotus) والنشم (Celtis australis) في موقع منيات من طرف هوغو، ولم يشكّ في أنّ ثمار تلك البذور كانت غذاءً لسكّان تلك المواقع.

(197) كانت دلمان بني مسُّوس أول موقع تمّ البحث فيه من قبل الجرّاح قيون العام **1846**،أنظر: Balout (L.), op. l, pp. 10-20. - وفي ما يتعلّق بالأبحاث البروتوتاريخية يراجَع: - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques.

وحسن الإرادة هما الدافع لهم، وبعملهم ذلك أسسوا تقليدا يؤسَف له، وهو البحث دون رقابة وغير متبوع بنشر تقارير أثرية، ممّا يؤدّي إلى ضياع أو اختفاء وثائق ومعلومات قد تكون ذات أهمّية كبيرة، ومثال على ذلك موقع الداموس الأحمر في ناحية تبسّة، وهو أغنى موقع نيوليثي شمال أفريقي، أجريت فيه حفريات دون أن ينشَر شيء عنها(198).

كانت الحفريات التي قام بها دُبروج (A. Debruge) خلال السنوات الأولى من القرن XX قد شوّهت عددا كبيرا من محطّات فجر العصر الحجري القديم وكذا محطّات النيوليثي، وأخرى تعود لفترات أحدث، وهي حفريات أجريت بطريقة سيّئة، ونشرت عنها تقارير بأسلوب غامض، ولنا اعتقاد كبير أنّ مواقع ناحية بجاية مثل موقع التموين بالماء (Les Aiguades) وموقع قمّة القردة (Pic des Singes) تتوفّر على وثائق أثرية متفرّدة ولكنّها ضاعت نهائيا ولا يمكن للبحث العلمي أن يستردّها.

ومهما تكن الظروف فإنّ النيوليثي الشمال أفريقي قد ظهر، ومع أنّه لم يقدّم إلاّ نتائج هزيلة، فإنّ محتويات مواقع الكهوف ومواقع في الهواء الطلق قدّمت أدوات حجرية فيها بعض الأشكال الجديدة (مستطيلات،رؤوس سهام،فؤوس من الحجر الصقيل) وعددها قليل، وكذا فخار حلّ بعد وقت طويل محلّ بيض النعام، والحال أنّه أصبح من المفترَض تقليديا أنّ الإنسانية حقّقت تقدّما معتبَراً في هذه الفترة،فاستئناس الحيوان والفلاحة هما اختراعان نيوليثيان سيحرّران الإنسان من إكراهات البحث الدائم عن الغذاء. كما أنّ النسيج وصناعة الفخار رفعت من مستوى حياته، هذه الافتراضات المقبولة في حال أوربا والشرق الأوسط لم تكن بعد مطبّقة جميعها احتمالا في حال الشمال الأفريقي.

يقيم فحْص الوثائق الأثرية المستخرجة من المواقع وكذا دراسة الرسوم الصخرية الدليل على وجود استئناس الحيوان والفخار النيوليثي في هذا القسم من القارّة الأفريقية، وأقدم الحيوانات استئناسا هي الأبقار والخراف حيث المميِّزات الأهلية في الأولى أكيدة وفي الثانية محتملة جدّاً(199).

عن الفلاحة التي تشكّل هنا اهتمامنا الأساسي ينبغي الإقرار بأنّ مواقع النيوليثي لم تقدّم الدليل على وجودها، ومن المحتمل أنّها ظهرت في نهايات عصور ما قبل التاريخ.

---

(198) كتب فوفري في شأن هذا الموقع : " نأسف لأنّ اليّد ريقاس لم يقرّر رغم كلّ الطلبات نشره إن في ما يخصّ الجانب الأثري أو علم الحياة القديمة." أنظر :
- Le Capsien des environs de Tébessa, Rec. de la Soc. de Préhist. et d'archéol. De Tébessa. 1935-1937, pp. 131-169, p. 159.

(199) الأبقار الأهلية صغيرة الحجم التي لا نزال إلى يومنا والمسمّاة سلالة قالمة تنحدر من السلالة الإيبرية (Bos ibericus) حسب المكتشفات الأثرية لمواقع العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. أما الخروف النيوليثي فهو كثيف الصوف ويختلف عن السلالة الباربارينية المتميّزة بذيل ثخين وعن الخروف الشرقي ذي الذيل الرقيق ، يراجَع :
- Esperandieu (G.), Archéologie africaine et Zootechnie, Bull. de la Soc. Vétérin. De Zootechnie d'Algérie, fasc. V, 1958, pp. 43-59
- Id. les Motons du Nord de l'Afrique au néolithique et durant la période protohistorique, Actes di 1er Congr. Arqueol. Del Marueccos espan. Tétouan 1953, pp. 121-142.

الكويرات الحجرية المثقوبة

يلاحَظ منذ ما قبل النيوليثي وفي فترة سابقة للألف الرابعة ق.م. وجود دلائل لطرق القطف قادت الإنسان تدريجيا إلى الفلاحة الحقّة، هذه الإرهاصات الفلاحية ظلّت قائمة طيلة النيوليثي.

كنا نرى في صناعة بعض الأدوات دليلا على بدايات العمل الزراعي، وأنّ ذلك يعود إلى الأزمنة القفصية (على الأقلّ بداية تهيئة الإنسان لمحيطه الطبيعي) لكن استعمال تلك الأدوات لا يزال يثير النقاش.

الأدوات المعروفة اليوم أكثر هي الكويرات الحجرية المثقوبة المكتشفة في عديد المواقع القفصية والنيوليثية، وها هو توزيعها :

تونس

مواقع قفصية	مواقع القفصي الأعلى	مواقع النيوليثي
بير خنفوس(200)	بير حمايرية(208)	رديّف(212)
المقطع(201)	هنشير زلاس(209)	كاف لعقاب(213)
الكلم 13(202)	دار البيجة(210)	
عين الشنا(203) Ain Aachena	العالية(211)	
بورطل فخار(204)		
بوحمران(205)		
عين ام لعرايس(206)		
بلاد الوقيلة(207)		

(200) - Gobert (E.G.), Introduction à la Palethnologie tunisienne. Cahiers d'Archéol. Tunis. II, 1914, pp. 117-172
(201) - Id. El Mekta, gisement princeps du Capsien, Karthago, t. III, 1951-1952, pp. 1-79 (p. 44)
(202) - Id. Sur le problème des croûtes et sur les sols capsiens, Bull. de la Soc. des Sc. Nat. de Tunisie, 1948, pp. 56-65 (p. 62)
(203) - Id. Introduction à la Palethnographie tunisienne, Cahiers d'Archéol. Tunis. II, 1914, pp. 117-172 (p. 125)
(204) - Id. L'abri de Bortal Fakher, Libyca, Anthrop. Préhist. Ethnog., t. V, 1957, pp. 33-47.
(205) - Vaufrey (R.), Préhistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1956, p. 155.
(206) -Ibid.
(207) -Ibid.
(208) -Ibid.
(209) -Ibid.
(210) - Collection du Musée du Bardo (Alger)
(211) - Vaufrey (R.), op. l., p. 155
(212) - Gobert (E.G.), Introduction à la Palethnologie tunisienne. Cahiers d'Archéol. Tunis. II, 1914, pp. 117-172
213 - Bardin (P.), La grotte du Kef el Agab (Tunisie), gisement néolithique, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. I, 1953, pp. 271- 308, (pp. 286-287)

الجزائر

مواقع إيبرومورية	مواقع نيوليثية
تامرهات(214)	كهف الأروية (216)
رأس سيقلي (215)	كهف بوزاباوين(217)
	كهف واد الكرمة(218)
	كهف الأروية (219)
	القليعة (الصحراء) (220)
	حاسي الحميْدة (الصحراء) (221)

هذه الكويرات الحجرية عموما نادرا ما تكون كمثرية الشكل، يمكن أن تستعمل في وظائف مختلفة، وهي خفيفة جدّا ومن أحجار جيرية هشّة لا يمكن استعمالها في أشغال الطرْق، وتبدو أثقل من أن تتخذ وزنة(*) (Fusaïoles) أو للتعليق (Pendeloque) (222)، وعن استعمالها يقترح الباحثون تفسيران يستندان على ملاحظات قاموا بها في أوساط السكّان البدائيين أو الذين لديهم شيء من التطوُّر.

هناك عصيّ حفْر تسمّى ديقينق-ستيك (Digging-Stick) نهايتها العليا مزوّدة بكويرة حجرية، بحيث تسمح بالتركيز عند غرزها في التربة، إنّها معاول بدائية معروفة كثيرا في أفريقيا، وعلى الخصوص عند البوشمن وفي الحبشة، وموجودة أيضا في أميركا الجنوبية، وفي غينيا الجديدة، وهي مستعملة خاصّة في تهيئة التربة من قبل أولئك الذين يمارسون زراعة فقيرة، وكذا في قلع جذور ودرنات النباتات وحتّى في الحفر بحثا عن حشرات تؤكَل، وهذا لدى أولئك الذين لا يزالون في مراحل قطف أكثر بدائيةً، ونرى من خلال هذه الملاحظة الأخيرة أنّه حتّى لو اخذنا بالفرضية التي تقول أن الكويرات المثقوبة هي ثقالات لعصيّ

(214) - Arambourg (C.), Boule (M.), Vallois (H.V.), et Verneau (R.), Les grottes paléolithiques des Béni Segoual (Algérie), Arch. De l'I.P.H., Mém. N° 13, 1934, p. 81.

(215) -D[R] Marchand, Industries lithiques de la Mizrana, leur classification, Bull. de la Soc. D'Hist. Nat. de l'Afrique du N. t. XXV, 1934, pp. 157-162.

(216) - D[R], Debruge, Fouille à la grotte du mofflons (Constantine), C. R., du XXXVIII e Congr. de l'A.F.A.S. Lille 1909, pp. 814-822.

(217) - Id. La grotte de Bou zabaouine, reprise des fouilles, Rec. Des not. Et Mém. De la Soc. Archéol. de Constantine, t. L., 1916, pp. 123-138.

(218) - D[R], Marchand, La grotte préhistorique de l'Oued Kerma, B.S.P. F. T, XXXI, 1934, pp. 247-251.

(219) - Vaufrey (R.), l'Art rupestre nord-africaine, Arch. De l'I.P.H., Mém. N° 20, 1939.

(220) - Musée d'Ethnographie et de Préhistoire du Bardo, Collections préhistoriques, I, pl. XCV.

(221) - Nougier (L. R.), Contribution à la préhistoire du Sud du Maroc, Bull. de la Soc. de Préhist. Maroc. 9[e] année, 1953, pp. 3-26 (p. 16)

(*) وضعنا كلمة وزنة من عندنا لأننا لم نجد له مقابلا في العربية، والفوسايول (Fusaïole) هو أداة تشبه القبّان الصغير يعثَر عليهــا في مواقع بروتوتاريخية ولم يتوصّل الباحثون إلى معرفة استعمالاتها بعد.

(222) الكويرات المثقوبة المكتشفة في عموم الشمال الأفريقي يزن أغلبها ما بين **150** إلى **250** غرام.

الديقينق ستيك فإنّنا لن نخرج بأيّ دليل يسمح بتأكيد وجود زراعة في الفترة القفصية بل وحتّى في النيوليثية، وكل ما في الأمر هو مجرّد تخمين.

يمكن اعتبار كويرات **الديقينق–ستيك** الحقيقية التي استعملها القفصيون وخلفاؤهم النيوليثيون دليلا على إرهاصات زراعة وأنّها كانت أدوات لتهيئة التربة المحيطة بالنباتات المفيدة. غير أنّني أرى أيضا أنّها زيادة على استعمالها في قلع الجذور المفيدة غذائيا، يمكن استعمالها في فتح أوكار وأعشاش الحيوانات التي تكون مملوءة بالبذور الصالحة للأكل[223].

ليس استعمال كويرات مثقوبة كثقّالات (Poids) لعصي الحفر مؤكّداً في الواقع، لأنّ أغلب المكتشَف منها خفيف الوزن ولايمكن أن يكون ذا فعالية،ويرى الكثير من الباحثين أنّ هذه الكويرات يمكن أن تكون قد صنعت بغرض اتخاذها حُليّاً تحاكي بيض النعام،وخاصّة التي يتجاوز وزنها250غرام.أمّا المستخرجة من موقع تامرهات وكاف لعقاب على الخصوص فتزن ما بين1200 و500 غرام، وهي التي يمكن أن تتّخذ كثقّالات لعصي الحفر.

المناجل

هناك أداة أخرى نادرة ظهرت في فترة أحدث، اعتمد عليها كدليل على وجود زراعة قبل تاريخية، باعتبارها أداة فلاحية حقيقية ولذلك أعطى لها الباحثون اسم منجل.

اكتشف أول "منجل" في مغارة البوليقون (وهران) في الطبقة النيوليثية، وقد قدّم دومرق (Doumergue) في الأخير (1927) وصفا له، ويبدو من الأهمّية اقتباس هذا الوصف **"... القطعة المثيرة للفضول هي أداة مكوّنة من هيكل من العظم ومن حجر السيلكس، الهيكل معمول في جزئه الأسفل من نتوء فقرة ظهرية لحيوان الحيرم، أمّا الحافة العليا فهي ممتدّة على 0,085 م ومجوّفة بثلم عميق بعرض 0,004 م ثمّ يضيق بعد ذلك، وفي ذلك الثلم سلسة متتالية من السليكس الحاد تشكّل أسنان المنجل، والملاحظ أنّه يمكن إضافة عدد من قطع السليكس الحادّة خلف القطع التي لا تزال،وخلاصة القول ما العمل الذي أعدّت هذه الأداة لاستعمالها فيه، لا أرى أيّ فرضية محتملة يمكن اعتمادها."** [224].

وبعد هذا الاكتشاف بقليل يأتي اكتشاف ثانٍ على يد دُبروج الذي يقدّم لنا بدوره أداة شبيهة عثر عليها في المشتى : " هي عبارة عن ضلع ثور مجوّفة بعمق وانتظام في اتجاهها

[223] **تتعرض البذور الواقعة في الأرض للتلف أو تتغذى عليها الحيوانات مثل حيوان الهمستر (أو قدّاد الهمستر Hamester) الـذي يستطيع خزن 100 كيلوغرام من البذور في جحره ، ومع أن هذا الحيوان غير موجود في الشمال الأفريقي إلاّ أنّ النمل يمكـن أن يجمع في "قريته" كمية معتبرة من البذور، لا يمكن الاستهانة بها عند القفصيين آكلي الحلزون، يراجَع :**

- Bernard (F.), Fourmis moissonneuses nouvelles ou peu connues des montagnes d'Algérie et révision des Messor du groupe structor (Latr.) Bull. de la Soc. D'Hist. Nat. De l'Af. Du Nod, t. XLV, 1954, pp. 354-365.

[224] - Doumergue (F.), la grotte du Polygône, Bull. de la Soc. De Géog. Et d'Archéol. D'Oran, t, XLVII, 1927, pp. 205-254 (p. 248)

الطولي ونستنتج بأنّ ذلك التجويف يمكن أن يتسع لعدد من السيلكس باستعمال مادّة لاصقة نباتية أو حيوانية، وهكذا نرى في هذه الأداة سلاحا فعّالا [225].

في هذين الوصفين لا أحد من الباحثين فكّر في أنّ هذه الأدوات يمكن أن يكون لها دور ما في الزراعة، وفي 1948 عندما نشر كادنا نتائج حفرياته الهامّة بكولمناتا قدّم وصفا لأداة من ذات النوع، وأضاف على خلاف سابقيه أن "... هذه الأدوات يبدو أنّها كانت مناجل أو أنّها نوع منها[226]، ولا يزال في تجويفها عدد من قطع السيلكس الصغيرة ولكنّها مهشّمة و لم يتردّد كادنا في اعتبارها مناجل شبيهة بشفرات مصقول حدّها بفعل الاستعمال.

منذ أن اكتشف كادنا منجلا"جديدا" كامل الأجزاء بثلاث شفرات في ذات الموقع، وفي طبقة مماثلة وحتى إن لم تكن نيوليثية فإنّها تعود إلى الإيبروموري (Ibéromaurusien) الأسفل بفعل الصناعة أكثر منه بفعل التحوّلات التي ظهرت نمط الحياة[227]. وعليه فإنني أشارك تيكسيي (Tixier) القول بأنّ هذا المستوى يمثّل خصائص القفصي الأعلى.

في المنطقة ذاتها قدّمت لنا الحفريات التي أجريت في موقع عين كيدة من طرف الأستاذ **دو بايل** قطعة لأداة مماثلة من ذات المستوى الصناعي لما قبل النيوليثي[228]، وقد اعتبرها هو الآخر نوعا من المناجل.

في عمله عن ما قبل تاريخ الشمال الأفريقي يصوِّر لنا فوفري قطعة من ضلع فيها تجاويف معدّة لتركيب أسنّة صوانية، وهذه القطعة عُثر عيها في موقع رليلاي (Relilaï) وتعود إلى القفصي الأعلى[229].

يعود العدد الكبير من مناجل ما قبل التاريخ –المعروفة في مواقع أوربا والشرق الأوسط – إلى النيوليثي في الفيوم والناطوفي في فلسطين، وهي مكوّنة من أجزاء مسنّنة مركّبة على نصاب خشبي أو عظمي، وهي أيضا عبارة عن أجزاء مشذّبة مثبّتة في تجويف بطريقة تجعل حدّها موازيا للنصاب وليس تعامديا كما هو الحال في مثيلاتها في الشمال الأفريقي[230]، حيث النصاب مستقيم أو ذو انحناء خفيف.

---

(225) - Debruge (A.), Atlas préhistorique ou Essai de chronologie sur les diverses industries Préhistoriques recueillies dans mes recherches et fouilles en Algérie. Recu. des Not. Et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t. LX, 1930-1921, p. 289.

(226) - Cadenat (P.), La station préhistorique de Columnata, Bull. de la Soc. de Geo. Et d'Archéol. d'Oran, t. LXX, 1948, pp. 3-66, (p. 38)

(227) - Id. Principaux résultats de la compagne de fouilles 1956-1957 à Columnata, Congr. Préhist. De France, XVIe session, Monaco, 1953 (sous presse).

(228) - De Bayle des Hermens (R.), L'Abri préhistorique de l'Aïn Keda, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist., t. III, 1955, pp. 129-161.

(229) - Vaufrey (R.), Préhistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, pl. XXX, n° 54.

(230) بخصوص مناجل فلسطين يراجَع :

- Neuville (R.), les débuts de l'Agriculture et la faucille préhistorique en Palestine, Rec. de la Soc. Hébraïque d'explor. et d'archéol; palestin; et plus facilement :
- Mercier (A.), et Seguin (a.), Propagation d'Est en Ouest d'une technique préhistorique, B.S.P.F. t. XXXVII, 1940, pp. 201-218.

بعض المناجل المكتشفة في البلافيتي (Palafittes) ومواقع أوربية أخرى لها ذات الهيئة مثل التي عثر عليها في تريفو (Trivaux)[231]، أو لابولادا(la Polada)[232]، ولكن الأغلبية منها وهي تعود دون ريب إلى فترة متأخّرة مثل مناجل سولفيرينو[233]، لها ذراع منحنٍ، وشفراتها المسنّنة مثبّتة في تجويف الذراع، وفي الخطّ الهيروغليفي المصري تكييف لهذا الشكل للدلالة على الحرف "ما" [234].

وُجد في أوربا أدوات قبل تاريخية أخرى اعتبرت مناجل للشبه بينها وبين الأدوات المذكورة ولكنها متميّزة عنها بأنّ كلّ سنّ فيها من صوّان مثلّث الشكل (مثل المكتشفة في فنتيل Fentil (بحيرة في بيانّ Bienne بسويسرا)، وفي كويفا دي مورثيلاغوس(Cueva de Murcielagos) في أندلوسيا[235]، ومع أنّ هذه الأخيرة منحنية إلاّ أنّها أقرب إلى مناجل أفريقيا الشمالية.

وبعد هذا هل نعتبر هذه الأدوات المكتشفة في أفريقيا الشمالية مناجل، لقد رأينا بأن أول الروّاد مثل **دومارق** و**دُبروج** لم يأخذوا بهذه الفكرة، وحتّى **كادنا** في اقتراحه كان شديد الحذر بخصوص النموذج المكتشف في كولمناتا، وبالنسبة لنموذج كهف البوليقون نفى أن يكون منجلا لأنّ شفرته تأخذ اتجاها نحو نهاية النصاب (manche)... وهو ما لا يتوافق مع المنجل وإذا كانت حجّة **كادنا** مقبولة فإنّ تبعاتها تبدو أكثر أهمّية لأنّ من بين الستّة "مناجل" المكتشفة في الجزائر واحد فقط هو المكتشف في كهف البوليقون الذي يمكن أن يعود إلى النيوليثي، ومثل ذلك فإنّ أحدث مناجل أفريقيا الشمالية هي تلك التي تبتعد في خصائصها عن الأدوات المستعملة في الحصاد.

من المهمّ الإشارة على الخصوص إلى صغر الجزء الفعّال في هذه الأدوات المعتبَرة مناجل، فالمكتشف منها في كهف البوليقون بقياس 85 ملم،ومع أنّه مكسّر إلاّ أنّ طوله لا يزيد عن ذلك لأنّه معمول من فقرة حيرم(Antilope bubale) أو من حيوان بذات القامة،

تتكون مناجل الفيوم (مصر) من ثلاثة شفرات مسنّنة من الصوان واحدة مستطيلة في الوسط واثنتان مثلثتان مثبتتان في النصاب (Manche) بمادّة لاصقة وهناك مناجل مماثلة عثر عليها في مرمدة بني سلامة، أنظر:

- Vandier (J.), Manuel d'Archéologie égyptienne, t. I, Les époques de formation, pp. 85 et 133

(231) - Breuil (Abbé H.), A propos d'une côte armée de petits silex de Trivaux (Seine et Oise), BSBF, t. XXXVII, 1940, pp. 181-182;
- Cheynier (Dr A.), Trivaux, le premier village de Meudon, Hommage à André Laville, son fouilleur principal, ibid, t. XLIX, 1952, pp. 131-145.

(232) - Vayson (A.), Faucille préhistorique de Solfereino, l'Anthrop, t. XXIX, 1918-1919, pp. 393-422.

(233) - Ibid.

(234) **أقدم هذه المناجل ذات النصاب المفوّس هو الذي اكتشفه إمري في قبر هيماكا (الأسرة الأولى) ، أنظر :**
- Vaufrey (J.), op. l, T. I, p. 824

وقد قدّم التحليل بولسطة كاربون 14 النتائج الآتية: حوالي 2900–3000 ق.م.، أنظر :
- Libby (W.F.), Radiocarbon dating, Chicago, 1955.

(235) **هذه الأدوات وصفها فايسون ، أنظر :** - Vayson (A.), I, 1, fig. 8-12.

والتجويف المعدّ لتثبيت الأسنان الصوّانية في حال منجل كولمناتا الأول لا يزيد عن11 سنتم، والثاني بقياس لا يتجاوز 93 ملم ويمكن أن يتسع لخمسة أسنان صوانية إضافية لا أكثر.

نلاحظ من جهة أخرى أنّ الثلاثة "مناجل" محتفظة في جزء منها بحدّ مسنّن من حجر الصوّان بحيث أنّ السنّ مثبّت عموديا في التجويف وليس له الشفرة المسنّنة التي تصنّف في القفصي الأعلى والنيوليثي، هذا الأخيران يقدّمان تطوّرا معتبرا في الاستعمال المفترض لهذه الأدوات، وهي قطع مسنّنة أكثر حجما تميّز مناجل الفلاحين الأوائل في الشرق الأوسط.

لا يمكننا أن نستدلّ على عدم وجود انحناءة في "المناجل الأفريقية" بالقول أنّها تقارب المناجل الأقدم في الشرق، ولكن العجيب أنّ الأدوات المكتشفة في كولمناتا ذات الانحناءة الخفيفة تتميّز بتجويف محدّب، وهو ما يخالف عمليا كونها مناجل.

هذه الأسباب تجعلني أنفي الفرضية التي تريد أن تجعل من هذه الأدوات مناجل، لأنه لا يمكن أن تكون – ولو أنّها تفيد في قطع سيقان نباتية وهو احتمال ضعيف – دليلا على وجود زراعة قفصية ولا حتى نيوليثية.

الواقع أنّ الشعوب التي كانت تجني حبّات النجيليات(Graminées) كانت تستعمل عموما طرائق أسرع من التي ترتكز على قطع السيقان ودرْس السنابل، فلجني الدرين (Drinn) في الهقار مثلا ينشر لحاف تحت الغصن المراد هزّه أي حصاد ودرس في ذات الوقت، وهناك طريقة أخرى ممكنة وهي إدخال الغصن المقطوع داخل كيس كبير ثمّ دقّه بعصا[236].

ليس مجديا استعمال منجل لحصاد السنابل المتقاربة في حقل أو في جني نباتات غير مزروعة في مجال تتنوع فيه النباتات بحكم التنافس الطبيعي، أمّا الزراعة فتجعل التوازن لصالح النبتة المختارة مما يسمح لها دون غيرها بالنمو والحاصد لاخيار له سوى أداة سريعة الحركة تعوّض اليد.

مطاحن، مطارق وفؤوس

المطاحن المكتشفة في عدد معتبر من مواقع ما قبل التاريخ وعلى الخصوص في محطّات نيوليثية منسبة لطحن الحبوب، مع أنّه تبدو في مجموعها أصغر من الحجم الذي يتطلّبه استعمالها في هذا العمل، غير أنّ المطاحن الصحراوية التي تعود تقليديا إلى النيوليثي هي الأفضل وهي قريبة من التي لا تزال مستعملة إلى الآن.

هذه الأدوات إذن لا يمكن أن توفّر الدليل الذي ظلّ محلّ بحث وقتا طويلا، على وجود فلاحة قبل تاريخية؛ كما أنّ البذور التي كانت تسحق بهذه المطاحن ليست بالضرورة حبوباً مزروعة [236مكرر].

(236) - Régnier (Lt, J.), Diverses utilisations de pointes au Hoggar, Bull. de Liais, Sahar, n° 35, Sept, 159, pp. 245-249.

(236مكرر) كما كتب بنباهة الدكتور قوبار : "وجود رحى لا يعني بالضرورة وجود زراعة ولكنه دليل ضمني على استعمال البذور" ، أنظر:
-Goubert (E.G.), les escargoutières le mot et la chose, Rev. Afric. T., LXXXI, 1937, pp. 639-645 (p. 643).

لم نجد في المواقع النيوليثية دلائل ذات مصداقية لفلاحة حقّة، في الشمال الأفريقي على الأقلّ، ولكن يمكن القيام بافتراض في محلّه وهو أنّ الفؤوس المشذّبة -على سبيل المثال- المميّزة عن "البليطة"[*]، لها استعمالات عديدة، تتجاوز الاستعمال الحربي، ويرى البعض أنّه يمكن أن تكون من بين مكوّنات المحراث، أو أن تقوم مقام المجرفة، حتّى وهي في أحيان كثيرة ذات حجم صغير، وهذه فكرة منتشرة منذ أمد بعيد.

هناك أداة أخرى ذات ملمح نيوليثي، حاول ريقاس أن يسمّيها:"محروقية"[237]، ذات علاقة وطيدة على ما يبدو بالفلاحة، وهي نوع من المعاول الصوانية، المشذّبة غير الصقيلة، ممدّدة وغير كبيرة، يمكن أن تكون أداة ممتازة لإعداد الأرض للزراعة، وهذه الأداة معروفة جيّدا في أوربا، وتتميّز بها الحضارة الكمبينية (Campignienne) في مختلف أشكالها المونمورنسية والدونمارتية(Montmorencien, Donmartien)فالمعول المحروقي(ينبغي تسميته باسمه)يبدو ذا شبه كبير بالمعول الكمبيني، ولذلك جرت محاولة تصنيفه ضمن الحضارة التي أنتجت مثل هذه الأداة، في شمال البحر المتوسّط، في حين أنّ الكمبينيين على ما يبدو كانوا من كبار مستصلحي الأراضي الغابية،فهم أول من استأنس الحيوان، وأول الفلاحين في أوربا ما قبل التاريخ[238].

يمثّل العتاد الذي جمعه بالو من مرتفعات تازبنت، وهو عتاد كان مستعملا في تهيئة ذات طابع فلاحي دليلا جديدا لصالح فرضية تقول أنّ **صناعة هذا العتاد كانت في خدمة حضارة زراعية** [239]، غير أنّه – وبكلّ أسف لعدم معرفتنا الكافية للفترات الأخيرة لما قبل تاريخ الشمال الأفريقي- من المستحيل في الوقت الراهن (1960) معرفة مكانة هذه الصناعة خلال النيوليثي، في حين أنّ الكمبيني يكون حسب بالو متأخّرا كثيرا، احتمالا إلى الفترة البروتوتاريخية [240].

(*) **الاصطلاح الفرنسي هو Herminette وهو مشتقّ من اسم حيوان القاقمّ Hermine وقد اقترح البعض استعمال مصطلح قاقمّة، جريا على الطريقة الفرنسية، ولكن آثرنا استعمال بُليْطة (تصغير بلطة) لأن كلمة بلطة مألوفة.**

(237) **يبدو أن ريقاص انخدع بالمظهر الخشن للأدوات فاعتقد بأنّ هذه الصناعة أقدم بكثير مثلما يدل عليه عنوان دراسته الأولى في الموضوع :**
- Regasse (M.), Découverte d'une technique campignienne dans le paléolithique inférieur 1934, pp. 570-573;
- id., Sur une industrie campignienne d''couverte dans la région de l'Oued Mahrougue, Journ. de la Soc. des african., t. IV, 1934, pp. 115-116;

وعن العصر النيوليثي واحتمالا فجر التاريخ الذي تنتمي إليه هذه الأدوات، أنظر:
- Balout (L.), Préhistoire de l'Afrique du Nord, pp. 14-15, et 452-453.

(238) - Nougier (L.R.), Les civilisations campigniennes en Europe Occidentale, Le Mans, 1950, pp. 240-244.

(239) - Balout (L.), Préhistoire de l'Afrique du Nord, pp. 14-15, et 452-453

يبدو المحروقي ذا شبه بالنيوليثي المكتشف في واحات خارجة المصرية ، أنظر:
- Caton Thompson (Miss C.), Kharga oasis in Prehistory, London, 1952, p 165
- Balout (L.), op. l, p. 458, n° 21.

(240) - Balout (L.), op. l, p. 15.

الرسومات والألواح الصخرية

يبدو إذن في حال الشمال الأفريقي، أنّ الزراعة ظهرت في فترات أحدث، وافتراض طهورها في فترات أبعد لم يخرج بعد من دائرة الافتراض، وعلى العكس من ذلك بالنسبة لاستئناس الحيوان، فقد أثبت فنّ الرسومات الصخرية النيوليثي استئناس الخراف والبقر، والكلب، بينما يبقى الأمر غير واضح بخصوص الزراعة [*]. وقد كان جولو في عدد من الدراسات التي نشرها قد قال بإمكانية الربط بين بعض تلك الرسومات والطقوس التي لا تزال تمارَس طلباً للمطر [241].

لم تكن حجج جولو مقنعة، فمن بين رسومات الأطلس الصحراوي والجنوب الوهراني الصخرية لم أجد غير رسم واحد يمكن الاستنتاج أنّه يمثل مشهدا فلاحيا: وهو الرسم الذي يمثّل شخصا يمسك أداة طرفها الفاعل على شكل زاوية،يمكن اعتبار هذه الأداة معولا بمقبض قصير شبيه بمعول فلاحين سودانيين يسمونه دابا (daba)، وهذا التفسير مستوحى من شكل الشخص الذي يدير ظهره لكبش (ليس لتقديمه قربانا) وهو ما يطابق هذا الاستنتاج[242].

نقرّ أنّ هذا المشهد إنّ كان تفسيره صحيحا، هو مشهد فريد من نوعه بين آلاف المشاهد الأخرى المرسومة التي تمثّل حيوانات ومشاهد صيد وسحر[243].

الألواح الصخرية في الصحراء أكثر عددا من مثيلاتها في الأطلس الصحراوي وذات مواضيع مفصّلة تقدّم صورا عن الحياة الرعوية لمربّي أبقار هادئين، وهم دون ريب نيوليثيون، في حين أنّ خلفاءهم مربّي الخيول عدّوا أسلافا لقرامنت العصور التاريخية، ولم يكن مربّو الأبقار رعاة فقط فبعض المشاهد ذات إشارات فلاحية، ومثال على ذلك لوحة جبّارن – أمازّار (Jebbaren-Amazar): أربعة شخوص يمثّلون مشهد تذْرية، وقد كتب الأب براي في وصفه: " **ثلاثة شخوص بقامات ممشوقة ورؤوس اسطوانية يدقون بعصي على شيء تخرج**

(*) طبعا هذه الأحكام مرتبطة بنتائج البحث الأثري إلى غاية فترة إعداد هذه الدراسة خلال الخمسينات من القرن العشرين.

(241) - Joleaud (L.), Gravures rupestres et rite de l'eau en Afrique du Nord, Journ. De la Soc. Des African., t. III, 1933, pp. 197-282 ; et t. IV, 1934, pp. 285-302.

(242) قام فلامان برفع مشهد قصر لحمـــر، أنظــر : -Flamand (G.B.M.), les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), Gravures et Inscriptions rupestres du Nord africain, Paris 1921, pl. I, ;
- Frobenius (L.), et Obermaier (H.), Hadschra Maktuba, Munich 1925, pl. CXXI
- Vaufrey (R.), l'Art rupestre nord-africain, Arch. de l'I.P.H., Mémoire n° 20, 1939, pl. XXXI, 1.

(243) من بين المشاهد المنقوشة في جدران كهف اليهود (واد هلايل في إقليم النمامشة) صورة شخص يرتدي سترة قـصيرة ورأســه مختفية وراء قناع يبدو وكأنه يحمل على كتفه رفشا أحدث وحوله حيوانات (الحيرم ...) وهذا المشهد يمكن أن يكون نيوليثيـا فهل يمكن التفكير في أنّ الرفش ليس واحدا وأنّ هذه الأداة أضيفت في وقت لاحق؟ من الصعب أخذ هذه الصورة في عـداد دراسة عن أصول الفلاحة في بلاد البربر، لقد نشرت الصورة من قبل الباحث لودو، أنظر :
- Le Dû (R.), Gravures, graffiti et peintures de la vallée de l''oued Hallaïl et du Tazermoumt, Rev. Afric. T. LXXXI, 1937, pp. 647-667.

منه أعداد من البذور المستديرة (دخن ؟) والرابع على اليمين يسير من تلك الجهة يمسك بطرف شيء مستدير (إناء ؟) والشخص المجاور له يمسك ذات الشيء من الطرف الآخر، وفوق الجميع علّية فيها ستّة أواني مصفّفة بجوار بعضها البعض على شكل هلال وحولها بذور منتثرة [244]، وغير بعيد امرأة شابّة جاثية على ركبتيها تقوم بسحق البذور في رحى مبثوثة في الأرض[245]، وقد ظنّ تشودي أنّه تبيّن في رسوم وان بندر (Ouan Bender) صورة فلاّحين ولكن دون أيّ إقران والأداة التي اعتقد أنها محراث يمكن تفسيرها بأيّ شي آخر [246].

لا يمكن القول بوجود فلاحة حقيقية إلاّ بدلائل قويّة وواضحة من خلال اكتشاف بذور نباتات مزروعة في مواقع، في حين أنّ الرسوم الصخرية في تاسيلي لم تقدّم إلاّ تخمينات، أمّا مشهد التذرية ومثله مشهد جرش البذور فيعزى احتمالا لتحضير بذور نجيليات برّية أكثر منه تحضير بذور الحبوب، ومن المحيّر أن نجد أنّ الثمار المحفوظة في مواقع نيوليثية في **منيات** (Meniet) هي ثمار العنّاب والنشم لا غير، لأنّ هذه "المؤن" ما هي إلاّ نتاج قطف بدائي استمرّ طيلة العصور التاريخية إلى يومنا هذا [247].



(244) - Breuil (Abbé H.), Les roches peintes du Tassili n'Ajjer, Actes du IIe Congr. Panaf. De Préhist., Alger 1952, pp. 69-219 (p. 93 et fig. 71)

(245) - Ibid., p. 92 et fig. 57.

(246) - Tschudi (Y), Les peintures rupestres du Tassili n'Ajjer, Neuchâtel 1956, pl. 2, d et 12 c.

(247) - Hugot (H.J.), et Quezel (P.), A propos de quelques graines fossiles du gisement préhistorique de Meniet, Bull. de la Soc. D'Hist, Nat, de l'Afr. Du Nord, t. XLVIII 1957, pp. 370-373.

2- الفلاحة البربرية : المعطيات الأثرية والألسنية

لوحات ورسومات ما بعد النيوليثي

انتظمت الفلاحة في أفريقيا الشمالية ما بين نهاية النيوليثي والفترة البونية، وتظهر لنا الوثائق الأثرية أنّ السكّان القفصيين ثمّ النيوليثيين قد مارسوا القطف دون أن يقوم الدليل بعد على أنّهم زاولوا فعلا النشاط الفلاحي ولكن وثائق أخرى من ذات النوع تنمّ عن وجود فلاحة بروتوتاريخية لا يعود الفضل فيها لقرطاج البتّة.

كهف الأروية بالشيفية

لن ألحّ أبدا عن الرسومات الصخرية بالشيفية، الواقعة على بعد 2 كلم عن بلانـــدان (Blandan) [247مكرر] (بوثلجة حاليا)، ففي جدران كهف صغير توجد رسومات ملوّنة بالمغرة الحمراء تمثّل حيوانا من فصيلة الضأن اعتبره المصنّفون من الأروية بالنظر إلى شـــكل قرونـــه بينما طول ذيله يجعله قريبا من الخروف متقارب العرقوبين (ovis longipes) ويبدو علـــى رأس هذا الحيوان شيئا كروي الشكل يذكّرنا بالكباش كروية غطاء الرأس التي هـــي موضـــوع رسومات عديدة في الشمال الأفريقي[248]، مع أنّ تقشُّر الصخر لا يسمح بتأكيـــد هـــذا التفسير، وهناك صورة أخرى باهتة لشيء شبيه بالكلب وأمامه رسم غامض ممثَّل بخطـــوط خشنة عمودية أو مائلة ترسم شكلا شبيها بمحراث وإذا كانت هذه الرسوم غير واضـــحة كفايةً فإنّه ينبغي الاهتمام بصورة الشخص التي تكمل اللوحة، وعموما تختلف أشكال هذا الموقع كثيرا عن الفنّ الصخري المغربي أو الصحراوي الذي نكتشف فيه دائما النزعـــة إلى الطبيعة (Naturalisme) باستثناء بعض الجوانب الطفيفة ذات المحتوى السحري أو الديني، أمّا في حال رسومات الشيفية فإنّ هيئة الشخص المرسوم ذات تصميم هندسي فالذراعان الممتدان

[247مكرر] - Bobo (J.) et Morel (J.), Les peintures rupestres de l'abri du mouflon et la station préhistorique du Hammam Sidi Djeballah dans la Cheffia (est constantinois), libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. III, 1955, pp. 163-181

[248] اكتشفت صور الكباش كروية غطاء الرأس لأول مرّة في الجنوب الوهراني، أنظر :

-Flamand (G.B.M.), les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), Gravures et Inscriptions rupestres du Nod africain, Paris 1921 ;

- Vaufrey (R.), l'Art rupestre nord-africain, Arch. de l'I.P.H., Mémoire n° 20, 1939

ولكن توجد أشكال مماثلة في المنطقة التلّية، بجوار تيارت ، أنظر :

- Cadenat (P.), Actes du IIe Congr. Panaf. De Préhist., Alger 1952, pp. 701-713.

وكذا بجوار سدراتة والخروب ، أنظر :

- Solignac (P.), Les pierres écrites de la Berbérie Orientale, Tunis 1928, fig. 13, 20 et 62.

متصالبان وكأنّهما يمثّلان دعامة موازية للساقين. في حال الذكور يعطي الطول المفرط لهيئة الشخص المرسوم ملمح سمندل (Salamandre) أو ورغة (Gecko) أمّا في حال الإناث فيكون الذراعان مرفوعين في شكل نصف دائري فوق خطّ الكتفين كمن يتضرّع، وهي ذات الملامح التي نجدها في رسومات الجنوب الوهراني[249]، التي تعود إلى النيوليثي حيث الشخوص التي تكمل المشهد تحمل بوضوح سلاحا معدنيا.

وفي الأخير نستنتج أنّ تصميم ملامح بشرية في رسومات كهف الأروية يجعلنا نرجّح أنّ تاريخ هذه الرسومات يعود إلى فترة أقدم بقليل من عصر المعادن.

الصور المنقوشة في الأطلس الأعلى

تحمل الرسومات الصخرية في الأطلس الأعلى المغربي لحسن الحظ وثائق أكثر دقّة إن في مضمونها أو في الفترة التي تعود إليها. والمعروف أنّه ومنذ حوالي عشر سنوات من الاكتشافات ذات الأهمّية المعتبرة على يد الباحث النشيط مالوم[250]، أصبح لدينا عديد الأدلّة التي تلقي أضواء جديدة على أصول صناعة واستخراج المعادن في أفريقيا الشمالية، مع أنّ الأشياء المعدنية على وجه الخصوص نادرة في مواقع ما قبل الفترة الرومانية خارج المقابر الفينيقية، وتظهر لنا رسومات **أوكايمدن** (Oukaïmeden) جنوبي مرّاكش عددا كبيرا من الفؤوس والخناجر والسهام والبلطات طويلة المقبض (Hallebardes) التي أصبحت أصولها التقنية معروفة وتاريخها محدّد، فالبلطات طويلة المقبض والخناجر ذات المسامير هي أدوات تعود إلى عصر البرونز الأوربي الأوسط وللدقّة أكثر الإيبري أو الأطلنطي. فمن بين الأشياء المرسومة في جبل **بيقو** (Bégot) على الحدود الفرنسية الإيطالية نجد صورا لذات الأسلحة والملاحظ أنّ التشابه كبير بين هذين الموقعين للرسوم الصخرية مع أنّهما يبعدان عن بعضهما بأكثر من ألفي كلم. وتأتي أهمّية هذا التشابه بين الحضارتين في أنّ الأشخاص الذين نقشوا رسوماتهم

---

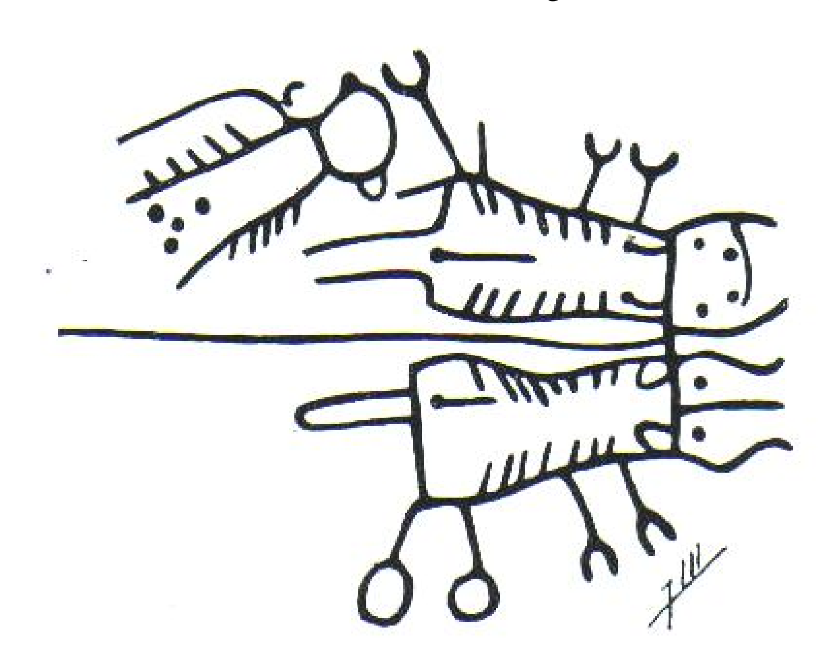
(249) **في تيوت على الخصوص، أنظر:** -Vaufrey (R.), op. l. pl. XI et XII

(250) **شرع مالوم** (J. Malhomme) **في نشر سجلّ الرسومات الصخرية للأطلس الأعلى** (القسم الأول) **في سلسلة منشورات مصالح الآثار القديمة في المغرب ج** XIII **سنة 1959 وكان قبل ذلك قد نشر عددا من الدراسات والمقالات وأهمّها :**

- Les gravures préhistoriques du Grand Atlas de Marrakech, C.R. du LXXe Congr. De l'A.F.A.S. Tunis 1951, TIII, pp. 149-153
- Une représentation de haches du Bronze (Grand Atlas), Bull. de la Soc. De Préhist. De Maroc, 1954, pp. 105-109.
- Les armes gravées du Grand Atlas, Congr. Préhist. de France, XIVe session, Strasbourg-Metz, 1953, pp. 395-402
- Aperçu sur les gravures rupestres de la région de Marrakech, Hespéris, t. XL, 1953, pp. 255-263
- Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. I, 1953, pp. 373-385.

على صخور جبل بيقو لم يكونوا رعاة فقط ولكن كانوا زرّاعا أيضا. بدليل أنّ المشهد المتواتر يمثّل إقران ثورين ومحراثا وفلاّحا، وفي مشاهد أخرى يرمز للثور بقرنيه وللمحراث بخطين متقاطعين ولشخص الفلاح بخطوط لا غير.

يسكن أهالي الأطلس الأعلى بلدا قاسيا، مشاهد الحرب والتقتيل فيه أكثر من أيّ مشاهد أخرى، ومع ذلك يوجد مشهد حرث، هذا المشهد منقوش على لوح صخري في مكان اسمه **اعزيبْ–نِ–ايكّيس** (Azib n'Ikkis) (ش1) ، يصوّر المشهد ثورين دون أن ينسى قرونهما ولا الخطوط التي تلوّن ظهريهما وهي خطوط مألوفة في البقر الإيبري (Bos Ibericus) والثوران متقابلان بظهريهما تبعا لأسلوب فني بارع كثير الاستعمال في صور إقران عربات الصحراء، كما يبدو السهم ممدودا إلى النير ليكون نوعا من محور التوازن، وهذا التطابق يذكّر بفضول بصور القص واللصق بعد الثني، كما يبدو الفلاح الذي لا يظهر منه غير الصدر والرأس وهو منحني جهة المحراث كما يفعل أيّ فلاح وهو يقوم بالحرث، وقد أشار مالوم سنة 1953 عند نشر صورة هذه المشهد أنّ بعض الخطوط المكوّعة في **رسومات اوكايمدن** يمكن تفسيرها بأنّها مناجل[251].



ش. 1 ـ مشهد حرث، نقش صخري من اعزيب ن'ايكّيس (عن مالوم)

(251) - Malhomme (J.), l,l, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist., t. I, 1953, pp. 373-385 (p. 384)

هي سمة مشتركة بين كلّ النقوش والرسومات الصخرية ما بعد النيوليثي في عموم بلاد البربر، مهما كانت المشاهد، حربية أو صيد أو من الحياة الهادئة المعتادة، وهي سمة تؤكّد أهمّية وسائل الإنجاب، فالذكور على وجه الخصوص دائما في حالة انتصاب، ومشاهد الجماع ليست قليلة، وفي بعض الأحيان نجد رسوما فيها ملامح خيالية لتجمّع الأزواج، ومن الواضح أنّ فنّ ما قبل التاريخ في أوربا والشمال الأفريقي لم يتردّد في إبراز الجنس الأنثوي غير أنّ البيتروغليف[*] (Pétroglyphes) ليس له ذات الإصرار الذي لنقوش ما بعد النيوليثي ويبدو أنّ له على وجه الخصوص أهمّية قيمة وقائية[252]. وليس هناك وجه اعتراض إلاّ في بعض التصوير البسيط، حيث العنصران الذكر والأنثى يبينان ظهور أفكار جديدة، ومهما تكن الفترة التي تمّ فيها هذا التحوّل فإنّه كان مصحوبا في كلّ مكان في أوربا وفي أفريقيا بانحطاط الفنّ ذي النزعة الطبيعية (Naturaliste) السابق المتميّز بتلك الجداريات الجميلة التي تصوّر حيوانات متوحّشة تأتي بعدها أشكال تخطيطية بشرية ثمّ الحيوانات الداجنة ومشاهد للنشاط الفلاحي.

هذا الإدراك الجديد للطبيعة يعود إلى التحوّلات العميقة في نمط الحياة، فالإنسان أصبح مهتمّا بضمان إنماء قطعانه وخاصّة خصوبة الأرض، مما جعله يؤمن بفعالية السحر العاطفي، إلى جانب الإيمان بالقدرة على ضمان توالد كوني، بحيث توصّلت شعوب شرقي المتوسّط بسرعة إلى إعداد أساطير راسخة للإلهة الكبرى وللأرض-الأمّ،وآلهة ترمز للنهاية المأساوية من خلال مغامراتها وكذا تخصيب التربة وزوال النبات شتاءً. وفي أفريقيا الشمالية لم يفض إعداد أساطير إلى خلق آلهة مشخّصة،فقد ظلّ السكّان البربر إلى العصر الحديث على رموزهم البالية وعلى طقوسهم السحرية الموجّهة لحثّ الأسباب المخصّبة للطبيعة،وقد بينّ كلّ من دوتّي ولاوست العلاقة المتينة بين طقوس الاستسقاء وطقوس الإنسال، فليالي الأخطاء أو ليالي الاختلاط ليست مجرّد تهتّك ولكنها ممارسات هدفها ضمان الارتباط الذي ينتج حصاداً[253]. والمعروف أنّ أسرار اليوسيس[**] (Eleusis) والتلميح لعناصر الإنسال والخصوبة لم تكن خفية البتّة.

(*) نقوش صخرية يرى المتخصصون أنّها مهّدت للكتابة الأبجدية ظهرت عموما خلال النيوليثي.

(252) عن الوقاية من الأذى ، أنظر :
- Gobert (E.G.), le pudendum magique et le problème des cauris, **Rev. Afric.**, t.XCV, 1951, pp. 5-61
- Id. El Makta, station princeps du Capsien, Karthago III, 1952, pp. 3-77.

(253) هذه التساؤلات عالجها دوتّي ولاوست وباسي ، أنظر :
-Doutté (E.), Magie et Religion dans l'Afrique du Nord, Alger 1902
-Westermarck , Ceremonies and beliefs connected with agriculture in Morocco Helsingfors, 1919
-Laoust (E.), Mots et choses berbères, Notes de linguistique et d'ethnographie, Paris 1920.
-Basset (H.), Les influences puniques chez les Berbères, Rev. Afric. T, LXII, 1921, pp. 340-374.

(**) أسرار اليوسيس في الميثولوجيا الإغريقية تمثل جانبا من عبادة الأسرار وهي طقوس خفية باطنية كانت تقام في معبد ديمتر في المكان المسمّى اليوسيس على بعد 20 كلم شمال غربي أثينة.

التهيئة الفلاحية في تازبنت

تركت الفلاحة البروتوتاريخية في بلاد البربر آثارا مادّية، وكنّا قد أشرنا إلى الرقعة رباعية الشكل (Quadrillage) في تازبنت، ونرى أنّه حان الوقت للعودة إلى هذه المسألة الهامّة، ففي العام 1946 كان مهندسو مصلحة الخرائط قد شدّ انتباههم شبكة من خطوط ذات ملمح هندسي كشفت عنها الصور الجوية لدوار تازبنت- على بعد كيلومترات جنوب غربي تبسّة- من قمم جبل بوزيان إلى سهل الشريّعة وهنشير مدكيس (Hr Medkis) بحيث يظهر في سفح الجبل رقعة مقسّمة على قطع رباعية ضلع كلّ منها ما بين 20 إلى 50 م ، وهذه الرقعة ليست بالدقّة الهندسية التي تميّز الكنترة (Centuriation) بل هي متكيّفة مع الواقع الطوبوغرافي للمكان ومنسجمة معه، وفي بعض الأماكن تبدو بعض القطع مفصولة عن بعضها بمجال ضيّق شبيه بزقاق يفصل بين حارتين، إلى جانب بعض المساحات المسوّرة بجدران دائرية وأخرى مستطيلة، وكأنّ المكان كان مدينة كبيرة ملتصقة بسفح الجبل في غير تناسق، ولكن هذا الانطباع لا يصمد أمام الملاحظة المباشرة أو الزيارة الميدانية للمكان.

هذه "الأحواض" المحاطة بجدران هي حقول، وجدرانها هذه لا تكاد تعلو السطح إلا ببضعة سنتمترات لا غير، وكان **دو روش** قد قام ببعض التحرّي الذي سمح له بتأكيد أنّها من فعل الإنسان(254)، وهي فعلا جدران بعرض 0,60 إلى 0,80 م بنيت بصفائح جيرية وتغوص إلى القاعدة الصخرية تحت طبقة الأرض المزروعة.

لا ريب أنّ هذه القطع الرباعية تمّت تهيئتها بهدف جعلها ملائمة للزراعة،لأنّها أصغر بكثير ولا تصلح أن تكون زريبة حيوانات كما أنّ عددها الكبير يؤكّد ذلك،في بلد جافّ نسبيا، نعتقد أنّ مثل هذه التهيئة كانت لغرض الانتفاع بمياه الأمطار في السقي بحيث تساعد الجدران المذكورة في احتفاظ كل حوض بكمية كافية من الماء أو جعل سيول الأمطار بطيء الجريان، كما تقوم تلك الجدران بحماية تربة المساحة الزراعية بتثبيتها على الطبقة الصخرية الأمّ، وقد لاحظ بالو بدورة أنّ الانحدار الخفيف في المكان يجعل ثلوج الشتاء المتراكمة تذوب ببطء (255)، حيث أنّ علو المنطقة يجعلها مهطلا للثلوج كل شتاء.

لا تزال الأرض التي تحتوي تلك القطع تزرَع من قبل العدد القليل من سكّان الجهة، دون المساس بجدرانها، وإذا كان الطابع الزراعي لهذه التهيئة يمثّل حقيقة علمية فإنّ تحديد

---

(254) - De Roch (E. Sérée), Note sur les vestiges d'habitat au Tazbent, commune mixte de Tébessa, B.A.C., 1940, pp. 193-146.

(255) - Balout (L.), Préhistoire de l'Afrique du Nord, p. 452, n°7.

الفترة الزمنية التي تعود إليها بصفة مطلقة ليس متيسّرا، ولكن هناك شيء أكيد وهو أنّ قطع تازبنت – ليست الوحيدة [256]– سابقة للفترة الرومانية، وقد تعرّف الكولونيل باراداز على آثار أعمال لا تحصى نسبت للفترة الرومانية لاستصلاح أراضي جنوبي نوميديا[257]. ومن خلال متابعته لأبحاثه الدءوبة عبر الصور الجوية للمنطقة، وعلى الخصوص في السهول العليا القسنطينية، الممتدّة من جبل بوطالب إلى الحدود التونسية لاحظ الكولونيل وجود عديد الأماكن التي كانت في واقع الحال محل تهيئة زراعية مماثلة في السفوح المجاورة للبحيرات المالحة (السباخ) ويشير ترتيبها قياسا إلى التجمعات العمرانية وللطرق الرومانية أنّها في أغلبها كانت معاصرة للفترة الرومانية، أمّا في حال تازبنت فالأمر مختلف، لأنّ "النسق" الروماني أضيف بوضوح إلى التهيئة القديمة للرقعة، مما يجعل الاختلاف واضح بين النسقين، فالمنشآت التي أقامتها روما في هذه المنطقة الجبلية هي عبارة عن سدود صغيرة تقطع السفوح طولياً بخطوط متوازية و لم تُقِمْ روما بتهيئة رقعة من القطع الرباعية كما فعل سابقوها[258]، وهذا ينفي ادّعاء ديبوا الذي اعتبر جميع أعمال التهيئة والتخطيط هي أعمال رومانية، وهذا ما يجعل الموضوع محلّ دراسة من جديد[259].

تظهر قطع تازبنت أنّ روما وجدت في أفريقيا الشمالية منظومة زراعية وري زراعي متين جدير بأن يتوسع ويؤسس نظام استغلال الأرض في المناطق الجافّة من نوميـــديا ودون ريب في الأطلس كذلك.

من الملاحظ أيضا أنّ بناء جدران محيطة بالقطع الرباعية يفسّر بالمناخ ذاته في مناطق نصف جافّة من أفريقيا، وليس واردا انتظار وصول الرومان للتفكير في هذا البناء، وفي هذا السياق كتب شوفاليي"... هذا كله يقودنا إلى الإقرار بأنّ المنشآت الهيدروليكية التي نظّمتها روما ذات أصل محلّي، لقد تولّدت الفكرة من طبيعة البلاد الأفريقية ذاتها" [260] .

إذن ثبت أنّ المنشآت الهيدروليكية في تازبنت سابقة للرومان، فهل هي من عمل النوميد؟* وللدقّة أكثر هل هي نتاج ملموس لسياسة ماسينيسا الزراعية ؟ وعموما فإنّ لديّ أسبابا قوية تدلّ على أنّها سابقة للفترة الرومانية.

---

(256) أشار بالو إلى تقسيم مماثل في مخرج واد فوريس جنوبي جبل عنق ، أنظر :
- Ibid., p. 452 n°7; –De Roch (E. Sérée), Un autre au sud de Bir el-Ater, t, l, p. 196.

(257) - Baradaz (J.), Fossatum africae, Paris 1949, pp. 185-212.

(258) أراد باراداز أن يشركني في نتائج أبحاثه عن الصور الجوية لتازبنت، فقدّم عرضا عمّا استجدّ لديه من ملاحظات في مداخلة بالمؤتمر الرابع للحدود الرومانية المنعقد بدورهام **1959** بعنوان :
Nouveaux éléments de Fossatum et hinterland productif du limes de Numidie

(259) - Depois (J.), La culture en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50.

(260) - Chevalier (R.), La centuriation romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique, L'inform. Géogr., 22e année, sept-oct, 1958, pp. 149-154.

(*) وهو سؤال لم نجد له مثيلا عندما يتعلق الأمر بأوربا، كأن يتساءل المؤلف مثلا في حال جبل بيقو الذي قارن به آثار النيوليثي في الشمال الأفريقي، أن يتساءل مثلا بشيء يشبه تساؤله هنا، أي أن يشكّك مثلا في أن تلك البقايا من صنع شعوب أخرى، لكن النزعة التشكيكية في قدرات الأفارقة على الإبداع دائما حاضرة، ولعل المؤلف وهو ينجز هذا العمل في عز الثورة الجزائرية كان لا يزال تحت وطأة المركزية الأوربية وشعور الاستعلاء على شعوب العالم وخاصة الشعوب التي ترزح تحت وطأة الاحتلال.

في الواقع تفترض أشغال التهيئة الواسعة هذه في تازبنت وجبل تروبيا وتافرنت سكنا قارّا لفترة طويلة، وتبعا لذلك وجود سكّان مستقرّين،فهذا العمل ليس نتاج إرادة شخص واحد لأنّ الشخص الواحد ليس بإمكانه إقامة هذا التنظيم الذي لايمكن تفسيره إلاّ في إطار اجتماعي اقتصادي خاصّ لا يزال سكّان الأوراس والأطلس الكبير يحتفظون بشيء من هياكله.

جمع كلٌّ من **دو روشي** و**بالو** من أرضية قِطَع تازبنت شظايا صوّانية ومعاول ذات شكل خاص قريب الشبه بالمحروقي والكمبيني الفرنسي[261]،إلاّ أنّ هذا الشكل بكلّ أسف كما ذكرنا أعلاه غير مطابق لأيٍّ من الطبقات النيوليثية بدقّة كما أنّ فكرة معاصَرة هذه الأدوات للتهيئة المذكورة غير مؤكّدة،ومع أنّ هذه الأدوات ذات طابع قديم إلاّ أنّه لا علاقة لها بالتقاليد القفصية حتى ولو تمّ العثور عليها في مناطق كانت مجالا لتطوّر تلك الحضارة [262]، ويبدو أنّها ظهرت في فترة متأخّرة وهو رأي **بالو** الذي يرى أنّها تعود إلى ما بعد النيوليثي [263].

المعالم الجنائزية في جبل مستيري

لقد تعرّف علم الآثار عموما على المجتمعات البروتوتاريخية من خلال مقابرها أكثر من الأعمال التي تمكّنتْ من إنجازها، فلقد رأينا في **تازبنت** الأعمال الكبيرة التي أنجزها فلاحون مزارعون غير أنّ هؤلاء كما يبدو لم يكن لديهم ذات الاهتمام ببناء مساكن متينة بل كانوا أكثر اهتماما بقبور موتاهم، وفي غياب أيّ أثر لمساكنهم يمكن التأكيد على أنّهم كانوا يدفنون موتاهم في قمم الجبال المجاورة حيث لا تزال معالمهم الجنائزية، وقد عرّفت بعض الدراسات بقبور جبل مستيري الدائرية[264]، تضاف إليها دلمان **تروبيا** و**تافرنت** التي أشار إليها الأطلس الأثري[265] ، وليس غريبا أن تكون هذه المعالم بعيدة شيئا ما عن أماكن السكن، فتلك تقريبا قاعدة في الجزائر حيث أنّ أهمّ المقابر البروتوتاريخية معزولة، بدليل أنّه لا أثر لأيّ سكن بالقرب من مقابر الركنية، بونوارة، جلفة و بني مسّوس، وهي المواقع المعروفة أكثر، كما أنّ ممارسة تجريد جثث الموتى من اللحم أو حرقها غير مكتملة وهو ما

---

(261) - Regasse (M.), Découverte d'une technique campignienne dans le paléolithique inférieur 1934, pp. 570-573.

(262)

(263) - Balout (L.), Préhistoire de l'Afrique du Nord, p.15

(264) - Bosredon (L. de), Notice sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tébessa, Rec. Des notices et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t. XVI, 1873, pp. 73-77 (pp. 70-76)
- Id. Promenades archéologiques dans les environs de Tébessa, Ibid. t. XVIII, 1876, pp. 382-427
- LE Dû (R.), les Tombeaux ronds du Djebel Mistiri, C. r. du IVe Congr. de la Fédération des Soc. Sav. De l'Afrique du Nord, 1938, pp. 565-587
- Camp (G.), Données nouvelles sur les tombeaux du djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie, Libyca, Anthrop. Préhist. Ethrnog. T., VI, 1958.

(265) - Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° 28, Aïn Beïda, notices 254 et 260; et n° 29, Thala, notice 139.

تمكنتُ من كشفه في عظام الموتى في العديد من المقابر ومنها مقابر جبل **مستيري** ولعل ذلك يفسَّر بأنّ الجثث كانت تنقَل عبر مسافات – احتمالا – معتبَرة .

تجعلنا أهمّية بعض المقابر نفكّر في أنّ المقبرة يمكن أنّ تكون مشتركة لعدد من العشائر أو القبائل المتحدة في كنفدرالية ولكن لا تسكن بجوار بعضها.

تدخل معالم جبل مستيري في فئة محدّدة من البازينات ذات القاعدة الاسطوانية وهـــي بلا شكّ مقابر ذات نمط بربري دون أدنى تأثير خارجي بوني أو روماني[266]، وقد استخرج كل من **لودو** و**لاترابي** من قبورها بعض الأثاث المتمثل في بعض الأواني وأقداح وجفان من الطين، أحدها يحمل زخرفة مطابقة لزخارف أواني مقبرة قسطل، وهو الذي أسميته نمـــوذج قسطل ويمكن تسميته نموذج "الموسولام"، ومن بين القطع الخشبية التي استخرجها **لو دو** من سرداب إحدى البازينات وجدت مشطا بسيطا محتفظا بأسنان طرفَيْه، أمّا الأواني الفخاريـــة فلم تقدّم أيّ إشارة دقيقة عن فترة هذه المعالم التي ظلت مستعملة فترات طويلة جدّا[267].

كل ما يمكن إثباته من خلال أثاث جبـــل مـــستيري الجنـــائزي في غيـــاب الدقّـــة الكرونولوجية هو أنّ السكّان الذين أقاموا معالمه كانوا فلاّحين مستقرّين لهم أواني فخاريـــة ذات قاعدة مسطّحة مثل جيرانهم في جبل قسطل وليست مستديرة،ولهم أقداح من خـــشب وقرب مثل قرب الرحّل الذين ظلّوا يدفنون موتاهم إلى قرون متأخّرة في تملوس(Tumulus)عين حمارة جنوبي واد جدي[268].

استعمل المستقرّون الذين أقاموا مقابر جبل مستيري صفائح جيرية تغطّي الأرضـــية، كما تبيّن الواجهات الخارجية للمقابر ذات المنظر الذي نجده في جدران رقعـــة (Quadrillage)

---

(266) - Bosredon (L. de), Notice sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tébessa, Rec. Des notices et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t. XVI, 1873, p. 76

(267) وهو حال دلمان وتملوس جبل قسطل التي عثر فيها على أشياء تعود إلى القرن III ق.م. إلى القرن I بعده ودون ريب فإنّ تتالي الدفن في الفترات السابقة كان كثيرا في كل هذه المدافن ذات البنيان المتين وقد حاولت استعادة الآنية الوحيدة التي كان قد عثر عليها لاتابي في إحدى بازينات جبل مستيري (شكلها غير معروف مع الأسف) وفي الموضوع كتب لاتابي : " في القبر الثاني عثرنا على ثلاثة أسنان بشرية ولكن لم نجد عظاما مما يدل على أنّ المكان تعرض للتخريب، وفي أحد أركان القبر وتحت المكان الذي عثرنا فيها على الأسنان وجدنا قطعا لآنية ذات عروة، وهي آنية جيّدة الصنع تعود احتمالا إلى الفترة الرومانية اهـــ (لم يقدّم الدليل على أنّها تعود إلى الفترة الرومانية ولكن يستخلص في بعض الأحيان أنّ كامبس تدفعه نزعته إلى أن ينسب كلّ ما هو في مستوى أرقى إلى الفترة الرومانية (المترجم) ، أنظر :
- Camps (G.), Données nouvelles sur les tombeaux du djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie, Libyca, Anthrop. Préhist. Ethrnog. T., VI, 1958-1959, pp. 229-242

(268) - Roffo (D[r] R.), Sépultures indigènes antéislamiques en pierres sèches. Etudes sur trois nécropoles de l'Alérie Centrale, Rev. Afric., t. LXXXII, 1938, pp. 197-235

تازبنت على سفح ذات الجبل، وأكثر من ذلك تقنية البناء المتطابقة في الموقعين وهو دليل جديد يدعم فكرة أنّ كلّ هذه المعالم هي لذات السكّان[269].

الخلاصة أنّ قطع تازبنت الرباعية تكون قد أهملت أو خرّبت في جزء منها بفعل التوسّع الروماني في هذه المنطقة عندما نقل إليها الرومان طرقهم في حماية التربة، وهذه القطع تعود إلى فترة أقدم يستحيل تحديدها ولكن يمكن استنتاج أنّها تتوافق مع فترة لم يكن فيها البربر قد تخلّوا كلّية عن استعمال الأدوات الحجرية، والدليل على ذلك أنّ قبور مستيري الميغاليثية تكشف عن وجود سكّان مستقرّين تدفعنا إلى تأكيد أنّهم هم الذين أقاموا هذا التجمّع الفلاحي النشط. وعلى ضوء ما يتوفّر لدينا من معرفة في الوقت الراهن يبدو أنّ هؤلاء السكّان المزارعين قد عاشوا في فترة سابقة لماسينيسا بكثير.

لا يختلف سكّان تازبنت المزارعون - وباقي الجبال التي سيكشف عنها البحث الأثري ذات يوم — البتة في نمط حياتهم عن المجموعات البربرية الكبرى التي هي في بلاد الشاوية كما هي في الأطلس المغربي احتفظت باقتصاد مختلط يجمع بين فلاحة المدرجات الجبلية وتربية الحيوان مع الانتجاع بأغنامهم وأبقارهم، وتضمّ زراعتهم طبعا الحبوب (القمح، الشعير والدخن) والخضر، وأيضا الأشجار المثمرة التي تستفيد من العزق[*] ومن حرث الأشرطة المستوية من التربة ما بين صفوف تلك الأشجار.

توضح الدراسات الجغرافية وحتى القانونية والألسنية التي أجريت على السكان البربر وعلى الخصوص في المغرب كم هو قديم هذا النمط من الحياة الاقتصادية، وكيف أن هذه الزراعات والتنظيم الاجتماعي الذي لا يزال قائما يعود إلى فترة قديمة جدا[270]، وفي هذا السياق تقدّم لنا المعطيات اللغوية على وجه الخصوص معلومات لا يمكن إهمالها.

---

(269) أشار سيري دو روش أنّه عثر في مستيري على حجر صوّان صقيل كامبيني الملامح، شبيه بالمعثور عليه في القطع الرباعية بتازبنت وما جاورها.

(*) **العزق (Binage) هو حرث القشرة السطحية من الأرض المزروعة لقتل الأعشاب الضارة.**

(270) **من بين هذه الدراسات :** - Laoust (E.), Mots et Choses berbères, Paris 1919. ;
- Dresch (J.), Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du rand Atlas, Tours 1941.
- Berque (J.), Structures sociales du Haut Atlas,
- Dépois (J.), l'Afrique du Nord Paris 1949, pp. 256-301
- Id. les cultures en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50.

ويأتي عمل الأستاذ لاوست في المقام الأول.

قِدم زراعة الحبوب عند الأمازيغ : القمح

يحتلّ القمح في الفلاحة البربرية ف بعض الأحيان مكانة ثانوية، لأنّ السكّان المحتفظين بالأمازيغية حاليا يسكنون في مناطق جبلية حيث التربة خفيفة وأنسب لزراعة الشعير، وبالمقابل تأتي زراعة القمح في الدرجة الأولى في السهول التلّية التي استعرب سكّانها منذ أمد بعيد، وعموما فإنّ القمح الذي يزرعه الأهالي هو القمح الصلب (*Triticum durum*) المتكيّف على وجد الخصوص مع تربة بلدان الحوض الغربي للمتوسّط، إلى درجة أنّ دو كندول (De Candolle) فكّر في الأصل المحلّي لهذا القمح في أفريقيا الشمالية وإسبانيا[271] ، واسم هذا القمح عند جميع الناطقين بالبربرية هو **ئرذن** (Irden) وهو اسم في صيغة الجمع مفرده **ئـرذ** (Ired) أي حبّة القمح قليل الاستعمال، والواقع أنّ لاوست بيّن أنّ كلمة **ئرذن** مستعملة من واحدة سيوة إلى جزر الكناري، ومن قبل الزواويين في القبائل كما هو الحال عند كال أهقّار [272](Kel Ahaggar)، ويكفي الاستعمال الواسع لهذا الاسم – مع بعض الاختلاف الطفيف في نطقه حتى في مناطق الأطراف مثل جزر الكناري حيث ينطقه القوانش **ئريسن** (Irisen)– للدلالة ليس فقط على قدم زراعة القمح في بلاد البربر ولكن على ارتباط المجتمعات البربرية الريفية بهذه الزراعة، ولا أظنّ أنّني بهذه الدلالة اللغوية أثير انتباه اللغويين لتذكيرهم بأنّ المزارعين الليبيين الذين ذكرهم هيكاتوس وهيرودوت في تونس الشرقية كانوا يسمّون الحبوب التي يزرعونها ويتغذون عليها بذلك الاسم "**ئرذن**".

لاحظ المختصون في علم النبات أنّ قمح أفريقيا الشمالية الصلب يضمّ عددا معتبرا من السلالات المتميِّزة إلى درجة أنّه يمكن اعتبار هذه البلاد الموطن الثاني لعدد من أنواع القمح الصلب (Triticum durum)، أمّا الموطن الأصلي فهو الحبشة حيث وجدت أشكال من بذور بنفسجية صغيرة غير معروفة في أفريقيا الشمالية[273]، هذه الملاحظات تضاف إليها المعطيات اللغوية، تسمح بالوصول إلى التفكير في هذا الرابط الجديد بين الشمال الأفريقي وبلاد

(271) - De Candolle (A.), Origine des plantes cultivées, Paris 1883, p. 289

(272) **أهمّ الصيغ المعروفة هي : ئرذن، ئردن، ياردن، يارذن يادن ، ئهدن ، ئريسن، والصيغتان الأُوليان هما الأوسع انتشارا، أنظر :**
- Laoust (E.), Mots et Choses berbères, Paris 1919, p. 265

(273) - Erroux (J.), Essai d'une classification dichotomique des blés durs cultivés en alérie Bull. de la Soc; d'hist. Nat. De la Afrique du Nord, t, XLVIII, 1957, pp. 230-253, citant n.1.
- Vavilov, Studies on the origin of cultivated plants. Léningrad 1926
وقد ذكر بومبونيوس ميلا أنّ الحبوب تنبت في الطبيعة لوحدها في ساحل المغرب III **105**.

أفريقيا الشرقية حيث أنّ بعض الأنثروبولوجيين يترعون إلى أنّ قسما هامًّا من السكّان القبل تاريخيين من أسلاف البربر يكونون قد نزحوا من هناك ؟

تعيدنا دراسات أحدث إلى موضوع القمح الليّن من مجموعة القمح الواحي (Oasicolum) الذي تعرّف إليه دوسيليي في الزراعات الصحراوية مما يسمح بربط هذه الأنواع أيضا بالأنواع الشرقية[(274)]، وهذه القموح قد تكون زراعتها أقدم من السلالات الأخرى.

الشعير والحبوب الثانوية

في ما يتعلّق بزراعة القمح لا فضل للفينيقيين ولا للرومان في شيء، ما عدا احتمالا في طرق الفلاحة وإدخال بعض البذور الجديدة، وذات الشيء يقال عن الشعير حيث يحل في بعض الجهات محلّ القمح، واسم الشعير في اللغة الأمازيغية هو **ثيمزين**[(*)] (Timzin) من سيوة شرقا إلى جزر الكناري غربا وهو اسم واسع الانتشار على غرار الاسم الذي يعني القمح[(275)]، ومثل **ئرذن** لا علاقة لاسم الشعير **ثيمزين** بأي تأثير لغوي خارجي، وهو مستعمل وبذات النطق عند جميع البربر، وهذا دليل كافٍ على ارتباط زراعته باقتصاد الشمال الأفريقي منذ بدايات الفلاحة، ومثل القمح الصلب ليس مستبعدا أن يكون شعير الخريف[(**)] (Escourgeon) من أصول شرقية قديمة جدّا، حيث وُجد الشعير البرّي في العربية البتراء (Arabie Petrée) وحتى في قورين[(276)].

---

(274) - Ducélier (L.), les blés du Sahara, Aller 1922
–Erroux (J.), Les blés du Fezzan, Bull. de la Soc ; d'hist. Nat. De l'Afrique du Nord, t, XLV, 1954, pp. 302- 317 ;
- Id. Note sur les blés des oasis du Sahara Alérien, Ibid. t, XLIX, 1958, pp. 180-195
ويقول كابو–ري أنّ قمح الواحات هو قمح ليّن وهو وحده الذي كان يزرَع في مصر القديمة وفي بلاد البربر أيضا قبل الزحف العربي، واحتمالا هو الذي كان يطحنه النيوليثيون، أنظر: Capot-Rey (R.), Le Sahara français p. 336 و لا تسمح الصعاب التي واجهت تكييف زراعة القمح الليّن (الفارينة) مع المناخ ودمجها ضمن زراعات أفريقيا الشمالية بالتفكير في أنّ زراعة القمح في أفريقيا الشمالية لم تعرف غير زراعة القمح الليّن، إلاّ أن وزن قمح أفريقيا الشمالية الذي ذكره بلينوس ثقيل نسبيا مما يدلّ على أنّ القمح المزروع هو القمح الصلب، وها هو نصّ بلينوس : "... من بين القموح التي تستوردها روما القمح الخفيف الذي يجلب من غوليا (فرنسا) وخرسونيس (Chersonèse) لأنّه وهو بذور لا يتجاوز وزن البواسو (Boisseau) 20 ليبرة (Livres) أمّا قمح سردينيا فيزيد وزنه بـنصف ليبرة، وقمح بيوسيا يزيد يليبرة كاملة عن قمح غوليا أمّا قمح أفريقيا فيزيد بليبرة وثلاثة أرباع الليبرة ..." أنظر : Pline, XVIII, 12, 3 وهذا الرقم يمنح لقمح أفريقيا وزنا خاصّا لأنّ مدّ (Modius) القمح (8,75 l) يزن 2& ليبرة وثلاثة أرباع (7,122 كيلوغرام) وأوجّه شكري الحارّ إلى السيّد إرّو عن المعلومات التي قدّمها لي عن قمح أفريقيا الشمالية.

(*) **ينبغي أن ينطَق الزاي هنا بالتفخيم مثل الجيم الفارسية.**

(275) - Laoust (E.), Mots et choses berbères, p. 264.

(**) **يسمّى شعير الخريف لأنه يزرَع في الخريف.**

(276) - Maire (R.), Flore de l'Afrique du Nord, vol, III, Paris 1955.
- De Candolle (A.), Origines des plantes cultivées, Paris 1883, p. 295.

يُزرَع الدخن والسورغو – اللذان هما في الشمال حبوب مكمّلة – في الربيع قبل ارتفاع القمح والشعير، ويحتلاّن مكانة هامّة عند بربر الصحراء، ويفضّلهما التوارق على القمح والشعير، وهما متعدّدا الأنواع مثل الدخن الطويل البرّي في الكناري (الذي يسمّى القمح الكناري أو الألبي) والسورغو الأسود والسورغو ذي البذرة الكبيرة، وله اسمان في اللغة البربرية هما تفسوت (Tafsut) وهو في رأي لاوست من الجذر **فسو** (Fsu) ومعناه النموّ، واسم آخر هو **ئلّن** (Illan) وهو أوسع انتشارا ويطلق على السورغو الأسود على الخصوص؛ وبقلب الاسم نجد صيغا أخرى هي **ئِنيلِي** (énélé) **أَنيلي** (Anili) و ئنلّي (Inelli) [277]، وقد أصبح القول بالأصل الأفريقي للسورغو مقبولا في الأوساط العلمية، وهذا الرأي يدعم فكرة قِدم زراعته في الشمال الأفريقي مثلما يبيّنه الانتشار الواسع لاسمه وهو **ئلّن**.

لتسمية بذور الحبوب دون تحديد نوعها يوجد مصطلح جمعي يقول لاوست أنّه مستعمل عند جميع البربر بدءاً من التوارق هذا المصطلح هو **ئمندي** (Imendi) ويعني البذور التي تستهلك كغذاء وفي الأساس تعني بذور النجيليات(les Graminées) البرّية، التي كانت لا تزال مادّة غذائية لأهل الصحراء، ومن بين هذه النجيليات : الدرين (drinn) الذي يسمّى في البربرية **ثولّوث** (Tullut) وهو نوع معروف أكثر، ينافسه الدخن البرّي (Panicum turidum) الذي يطلَق عليه اسم **مْركّبة** عند المجموعات المستعربة و **أفْسو** (Afsu) عند التوارق[278]، ومن الواضح أنّ اسم **أفسو** هو صيغة المذكّر لتفسوت وهو اسم نوع من الدخن المزروع كما رأينا أعلاه.

الخضر والنباتات البرّية

يزرع البربر القليل من الخضار ولكنهم يفضّلون البقول كالفول، البازيلاء ، الحمص والعدس، هذا الأخير من أصول شرقية احتمالا سامية، ولكن ليس العرب هم الذين أدخلوه إلى المنطقة[279]، والحمص معروف باسمه العربي عند الجميع ولكن في جنوب المغرب يسمّى **إكيكر** (Ikiker) وواضح أنّه مشتق من اسمه اللاتيني : **Cicer** ، على أنّ زراعته قديمة جدّا بحيث

(277) - Laoust (E.), op. l, pp. 267-268.

(278) - Renier (Lt, J.), Diverses utilisations de plantes au Hoggar, Bull. de liais. Sahar. N° 35, sept 1959, pp. 245-249 ، **يجني التوارق بذور عدد من النجيليات التي تستهلك بعد شيّها .**

(279) **يستعمل اسمه العربي في البربرية، ولكن بربر جنوب المغرب يسمّونه ثلنتيث** (Tilentit) **وباختصار ثنيليث** (Tnilit) **ولكن لاوست يرى أنّ الاسم مشتقّ من اللاتيني لنس لنتيس** (Lens, Lentis) **أنظر:** - Laoust (E.), op. l. p. 209

نجده في حالته البرية وشبه البرّية في سهل الغرب والجنوب المغربي، ومن جهة أخرى يسمّى الحمص في الضفّة الأخرى بالقشتالية والباسكية غاربانزو أو غاربانتسو (Garbanzu ou Garbantzu) وهي تسمية ليست عربية كما نلاحظ ولا لاتينية وعليه فإنّه من المحتمل جدّا أن الحمّص كان يزرَع في شبه الجزيرة الإيبرية قبل الاحتلال الإغريقي، القرطاجي والروماني[280]، والحمص مثل الجلبان الشبيه به هما احتمالا محلّيان في بلدان الحوض الغربي للمتوسّط .

يظل الافتراض قائما بخصوص الفول، فقد أشار بلينوس إلى وجود الفول البرّي في موريتانيا[281]، ولقد تمّ اكتشاف الفول المصري (Fèveroles) البرّي في المغرب وفي سهل سرسو، وفي قمّة القردة (بجاية)، وقد عثر دُبروج خلال أبحاثه الأثرية على فول مصري متكلّس في آنية فخارية [282]، وباقي الأثاث الجنائزي قديم جدّا ممّا يؤكّد قدم ذلك الموقع وهذا انطلاقا من استهلاك قدماء البربر لثمار هذه النبتة البرّية .

يعرَف الفول عند البربر من سيوة إلى المغرب باسم **إباون** (Ibaun) مع تحريف طفيف في بعض الجهات (إباباون، أباباو) واستعمال هذا الاسم على نطاق واسع لا يدعم فكرة علاقته بالاسم اللاتيني للفول وهو **فابا** (Faba) حسب اقتراح لاوست[283]، ومع أنّ التوارق لا يعرفون الفول إلاّ أنّ لديهم كلمة مشتقّة من ذات الاسم البربري له، وهو أباوباو (Abaubau) وهم يعنون به النواة، مما يسمح لنا باستخلاص أنْ لا علاقة للاسم البربري للفول بالاسم اللاتيني له.

يسمّى الثوم في جميع لهجات اللغة البربرية **تيسكرت** أو **تيسّرت**[*] (Tiskert ou Tissert) ولا ريب أنّ زراعته قديمة جدّا والمعلوم أنّ القرطاجيين يستهلكون منه الكثير، ومن المحتمل أنّهم أخذوا ذلك عن جيرانهم الليبيين الذين هم أكبر مستهلك له. أمّا الكرّاث فيوجد في حالته البرّية في أفريقيا الشمالية، ويستهلك كما هو من قبل الأهالي وعلى وجه الخصوص في

---

(280) **يرى كاركوبينو أنّ الاسم يمكن أن يكون من أصل قوطي ولكن نرى من جهتنا أنّ الاسم لا يمكن أن تكون له صلة بلغة قوم لا يمارسون حتى زراعة الحمص، أنظر:** - Carcopino (J.), Dictionario critico ethnologico de la lengua castellana
- De Candolle (A.), Origine des plantes cultivées, p. 260.

(281) - Pline l'Ancien, XVIII, 121

(282) - Debruge (A.), Compte rendu des fouilles faites à Bougie en 1904, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t. XXXIX, 1905, pp. 67-123 (pp. 119-120)

(283) –Laoust (E.), Mots et choses berbères, p. 268

(*) **في لهجة السوس أمّا في لهجات الجزائر فتنطَق الكلمة هكذا : ثِيشَّرْث** Tichchert .

الورشنيس، ولكن يزرَع أيضا في الحدائق المسقية، ومن أقدم الخضر المزروعة البصل ومثلـــه اللفت الذي تطهى أوراقه وتؤكَل، ويمكن إدراج اليقطينيات (Cucurbitacées) في هذه الفئـــة، أنّها على الخصوص متكيّفة مع مناخ البحر المتوسّط وتدخل بنسبة معتبرة في غذاء السكّان.

لن نلحّ كثيرا في شأن النباتات البرّية التي تتولّى النساء وصغار الرعاة في كلّ أفريقيـــا الشمالية جمعها، وهي تلعب دورا هامّا باعتبارها مادّة غذائية داعمة كالخضر الحقيقية: سوق وبراعم الخرشف البرّي، الكبّار، الطرخشقون، الهندباء البرّية، خس النعجة، الجرجير، الشمرة وحتّى الفرفحين هي المطلوبة كثيرا، تضاف إليها بعض البذور والتوابل كالنعنع، الأرطماسية والخزامى وكلّها تجود بها الطبيعة التي لا تعرف عنها حياتنا الحضرية شـــيئا[284]، والقائمـــة تطول أحيانا بحيث تتعدّد النباتات البرّية التي تدخل كمادّة غذائية داعمة عند قدماء البربـــر، وتحضرنا هنا عبارة سالوست التي أشرنا إليها في مستهلّ هذه الدراسة : " **يتغذّى الجيتـــول والليبيون على لحوم الحيوانات البرّية وعلى أعشاب الحقول في مجموعات**[285] " والمبالَغة هنا واضحة ولكن من الأكيد أنّ أسلاف البربر يكونون قد اتخذوا من أنواع عديـــدة مـــن النباتات البرّية مادّة غذائية داعمة لأنّ أنواع المزروعات عندهم أقلّ ممّا هي عليه اليوم.

المحراث في أفريقيا الشمالية

يستعمل المزارعون الشمال أفريقيون في ما يتعلق بالبستنة المعول (Bioche) واسمه لـــدى جميع الناطقين بالبربرية آقلزيم (Agelzim) في صيغة المذكّر أو تاقلزيمت (Tagelzimt) في صـــيغة التأنيث، أمّا المجرفة (Houe) وباقي أنواع المعازق اليدوية (Binettes) فلا طائل في البحث عـــن أصولها، هذه الأدوات ظهرت لحاجة العمل الفلاحي إليها، وقد رأينا أنّ عددا من الرسومات الصخرية والأدوات النيوليثية تشهد على قدم استعمالها في بلاد البربر، وما لاحظناه هو أنّ أسماءها مطابقة للغرض الذي تُستعمل لأجله.

(284) عن الدعم الهامّ الذي توفّره هذه الموادّ للغذاء التقليدي يمكن العودة إلى :
- M'Hamsadji (N.), Usages et rites alimentaires d'une contrée rurale d'Algérie (Aumale-Sidi Aïssa) Annales e l'inst. D'Et. Orient., t, XIV 1956 pp. 257-326, pour le Maroc;
- Hardy (G.), l'Alimentation des indigènes au Maroc, la Géographie, t, LVIII, 1932, pp. 143-158, pour la Tunisie;
- Bouquet (J.), Notes sur l'alimentation dans le Sud Tunisien, Archiv. De l'institut Pasteur, Tunis 1939, pp. 350-355
- Id. contribution à l'étude de l'alimentation en Tunisie, Aliments végétaux d'appoint, Ibid. 1958, pp. 66-67.

(285) - Salluste, Bellum Jugurthinum, XVII.

من الواضح أنّه كانت توجد زراعة استعملت فيها المجرفة قبل أن يستعمل المحراث الذي من المؤكّد أنّ البربر لم يعرفوه إلاّ بعد تعمير الكناري وجفاف الصحراء نهائيا، فقد كانت الصحراء تشكّل حاجزا بين السكان، بل بين عالمين فلاحيين : العام المتوسّطي الذي انتشر فيه استعمال المحراث والعالم الزنجي الذي استمرّ في استعمال المجرفة(286)، وكان القوانش الذين يزرعون القمح والدخن لا يستعملون هم أيضا غير المجرفة.



ش.2 ــــ محراث من المنطقة الأوراسية ، المصدر: A. Wilkin, و R. Maciver

المحراث أو محراث أفريقيا الشمالية البسيط[287] كان محلّ دراسات عديدة سمحت بتأكيد أنّ قدماء البربر لم يأخذوا هذه الأداة عن الفينيقيين والدليل القطعي نجده في المعطيات اللغوية فعديد الأسماء (المطابقة احتمالا لأدوات بناء مختلفة) التي تطلَق على الأجزاء المكوّنة للمحراث كلّها بربرية عند الذين يتكلّمون هذه اللغة(288)، والمثير للفضول هو أنّ عددا من

(286) الأداة الوحيدة المستعملة في الزراعة بواحات الصحراء هي المجرفة ليس بسبب تأثير سوداني محتمل ولكن بسبب استمرار حالة سابقة لمعرفة المحراث في بلاد البربر، هذا الأخير كان معروفا لدى رحّل الصحراء الشمالية، ويمكن التقدير تبعا كابو ري :" لم يجد المحراث في الصحراء مكانه بعد لأنّ حيوانات الجرّ غير متوفّرة عدا بعض الأحمرة كما أنّ كجدودية الحقول ووجود الشجر وعدد معتبر من قنوات السقي والسياجات كلها لا تساعد على استعمال المحراث ..." أنظر : Le Sahara français, pp. 339-340 -

(287) كان المحراث محلّ عديد من الدراسات والفرضيات المتعلّقة بأصل الفلاحة. عدا الدراسات العامّة التي قام بها بشماكوف :

-Beschmakoff (A.), L'évolution de la charrue à travers le siècle au point de vue ethnographique, l'Anthrop. T, XLII, 1932, pp. 82-90.

خاصّة الدراسة التي لشترك فيها: - Haudricourt (G.) et Delamare (Jean-Bruhnes), l'Homme et la charrue à travers le monde, Paris 1955

كما اعتمدت على الخصوص فيما يتعلق بأفريقيا الشمالية على: - Laoust (E.), Le nom de la charrue et de ses accessoires chez les Berbères, Archiv. Berb, 1918.

وقد أعاد لاوست هذا الموضوع في دراسته القيّمة أسماء وأشياء بربرية ص ص275-391 وأكمله بدراسة:

- Id. Au sujet de la charrue berbère, Hespéris, t, X, 1930, pp. 37-47
- Capot-Rey (R.) et Marçais (Ph.), la charrue au Sahara, notes préliminaires sur une enquête collective, trav. de l'I.R.S., t, IX, 1953, pp. 39-63

وفي الأخير وعلى الصعيد التاريخي هناك نتائج استخلصها هنري باسي ، أنظر :

- Basset (H.), les influences puniques chez les Berbères, Rev. Afric. T, LXII, 1921, pp. 340-374.

(288) ما نقرأه في هودريكور و دولامار يثير العجب، أنظر : - Haudricourt (G.) et Delamare (Jean-Bruhnes), l'homme et la charrue à travers le Monde, p. 259

"... المحراث هو اسم هذه الأداة عند العرب والبربر وهي كلمة من جذر سامي" وفي الصفحة 260 يطرحان السؤال عن دحول المحراث إلى الشمال الأفريقي أهو في الفترة الرومانية أم هو سابق لها، مع أنّهما نشرا دراسة عن العملة البونية وعليها صورة المحراث المسنّن ، اللوحة VI .

الأجزاء الثانوية مثل **الوصلة** (Chevilles d'assemblage) أو عمود الإقران (تحت بطن حيوان الجرّ Perche sous-ventrière) تحمل أسماء في بعض الجهات (الجنوب المغربي، بلاد القبائل) يبدو أنّهـــا مشتقّة من الأراتروم (Aratrum) اللاتيني [289]، ولعلّ هذا مجرّد تداخل لغوي يمكن أن يحدث في جميع العصور، ويقدّم لاوست كدليل على هذا استعمال الاسم العربي **المحـــراث** (لـــدى البربر المجاورين لموقادور) للدلالة على عمود الإقران المثبّت تحت بطن حيوان الجرّ [290].

يبدو محراث الشمال الأفريقي من شكله أنّه في غاية البساطة (ش. 2) وهو محراث خشبي بالكامل[291] والصعوبة الوحيدة في صنعه تكمن في ضمان تثبيت السهم في مزحفه أو في ذراعه حسب أنواع المحاريث، ويوجد في الواقع نوعان أساسيان يقسمان بلاد البربر أحدهما محراث مسنّن (بشكل زاوية) يتكوّن من ثلاث قطع مجمّعة: الذراع الزاحف (Le Sep) ويحمل السكّة،والسهم (L'Age) المنحني ومقبض المحراث(Mancheron) وهو المحراث الذي وجد في الإقليم البوني،ولعلّ الرومان[*] هم الذين عمّموه في كل جهات البحر المتوسّط (ش.5)، أمّا الآخر فيبدوأنّه أكثر بدائية يتكوّن من قطعتين حيث أنّ المقبض ما هو إلاّ امتداد للزاحف المائل إلى الأرض والسهم منحني،هذا المحراث هو محراث المقبض الزاحف (أو المحراث المعول) (ش.1 و2) ويحتلّ النوعان مناطق مختلفة: محراث المقبض الزاحف يغطّي المغرب والبرتغال وغاليكا وأراضي في أغلبها ذات مناخ محبطي، كما نجده في جهات أخرى من الشمال الأفريقي وهذا في الشرق الجزائري وشمالي تونس حيث المناخ رطب، أمّا المحراث المسنّن فنجده في كلّ الغرب الجزائري وفي بعض الواحات وفي مناطق معزولة في تونس (الساحل، جربة، مدنين) وفي تريبوليتانا، كما نجده بجوار الدار البيضاء وفي أندلوسيا ومالطة[292].

هل المناخ هو علّة هذا التوزيع ؟ يسمح المحراث ذو المقبض الزاحف نظريا وفي الواقع بالحرث أعمق قليلا من المحراث المسنّن ويلائم إذن التربة الأعمق في المنطقة الأطلنطيـــة وفي جبال شرقي الجزائر، كما أنّ للمنطقة التي يستعمل فيها المحراث ذو المقبض الزاحف نقطـــة مشتركة ينبغي التنويه بها وهي أنّها تضمّ المجموعات الكبرى المحتفظة باللغة البربرية في المغرب وفي إقليمي القبائل والأوراس (ش. 4) رغم أنّ نسبة التساقط ليست عالية دائما في هـــذه

---

(289) **هذه الأسماء هي أورارو، أريرارو، أثرو، أواثرو، ريراو.**

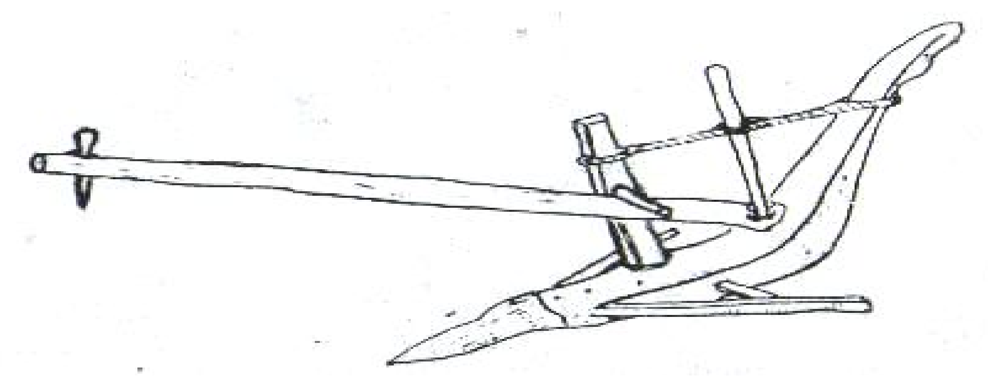
(290) −Laoust (E.), Mots et choses berbères, p. 287

(291) **السكّة أحدث من المحراث، وتوجد محاريث ليس فيها سكّة تستعمل في التربة الخفيفة في الأوراس.**

(*) **هذا الترجيح لا يقدّم عنه المؤلّف أيّ دليل، وهذا دأبه بحيث يحاول في كثير من الأحيان أن ينسب كـــلّ صـــناعة متطـــوّرة إلى الرومان.**

(292) - Haudricourt (G.) et Delamare (Jean-Bruhnes), op. l, Cartes IV et V.

المناطق، فهي تنزل إلى ما دون 400 ملم شمالي باتنة، بل نجد هذا المحراث مستعملا في إفني وفي تندوف وبني عبّاس[293]، وعليه ينبغي إبعاد العامل المناخي وليس هناك ما يمنع من اعتبار المحراث ذي المقبض الزاحف -الأقلّ تطوّرا من المحراث المسنّن - المحراث الحقيقي للبربر والمنافَس من طرف أشكال أخرى أكثر ملاءمة للتربة الجافّة.



ش. 3 محراث من منطقة الريف ، عن **G. Haudricourt**

يمثل المحراث البربري إذن أداة بدائية عبارة عن معول خشبي صلب ومثبّت في التربة[294] وهو مختلف عن المحراث القديم المصري والشرقي الذي له مقبضان، كما يتميّز عن المحراث الروماني ولا علاقة له بالمحراث القرطاجي، ويبدو أنّه ظهر في المتوسط الغربي منذ عصر البرونز[295]، ولا يستبعد أن يكون من أصل محلّي وتدعم هذه الفكرة بساطته وكذا المعطيات اللغوية التي تسند هذا الطرح.

بالمقابل تبدو طريقة الإقران (Attelage) مستوحاة من خارج المنطقة، حيث أنّ كل الأسماء المستعملة من طرف البربر لتعيين الإقران أو عناصره مشتقّة بوضوح من الكلمة اللاتينية يوقوم (Jugum)[296]، وعند بعض بربر الشمال يحمل الثور الحرّاث اسم أيوق (Ayug)

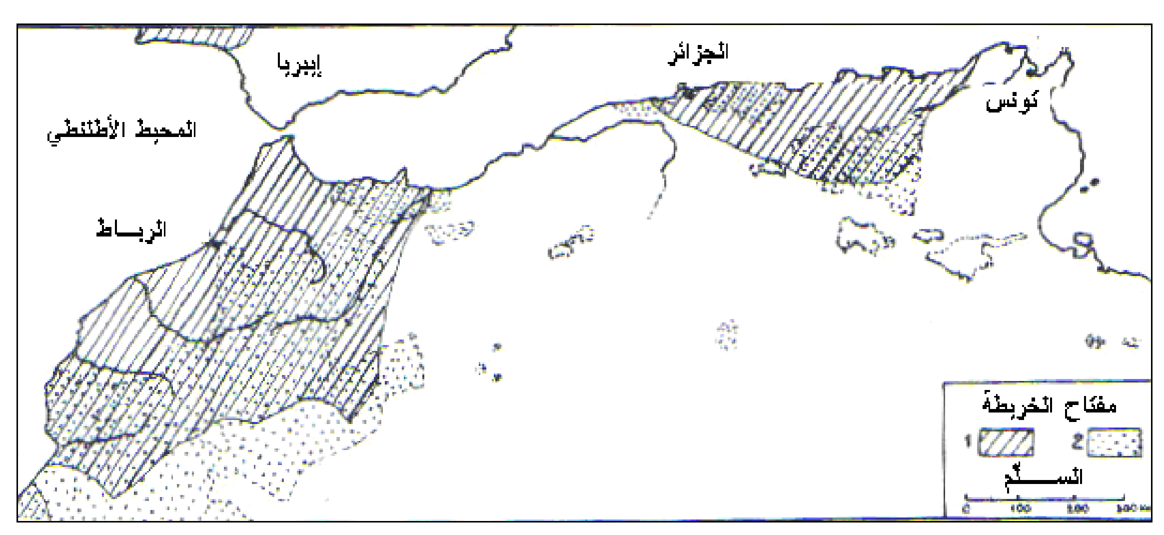
(293) - Capot-Rey (R.) et Marçais (Ph.), la charrue au Sahara, notes préliminaires sur une enquête collective, trav. de l'I.R.S., t, IX, 1953, pp. 39-69

(294) **لعلّ هذه الأداة البدائية هي المقصودة في نصّ سترابون :"... الماسيسيل ... لا يزرعون في الربيع بل يكتفون بتحريك التربة على عمق صغير بواسطة حزمة من الأغصان الشوكية والبذور التي تكون قد سقطت خلال الحصاد كافية لأن تنتج محصولا وافرا في الصيف. أنظر: Strabon, XVII, 3, 11- ، أمّا هودريكور ودولامار فيريان أن المحراث ليس مزوّدا بمجرفة ولا بسكّة، وعمليا يقترب أكثر من المنكاش (Serfouette) أو المشط (Herse) الذي يفتّت التربة ولا يقلبها وهذه أو تلك تصاحبهما عملية البذر لأن الصور القديمة تظهر المحراث دائما مع عملية البذر، أداة أصيلة مفيدة خاصّة في البذر المتميّز على الخصوص بالجرّ، " لقد تطلّب إعداده وقتا طويلا ولذلك فهو أصيل جدّا" (ص 61) ويبقى القارئ ينتظر معلومات أكثر ولكن عذر الكاتب أنّه حذر.**

(295) **تمّ تصوير المحراث ذي المقبض الزاحف في الرسوم الصخرية في جبل بيقو، أنظر :**
- Haudricourt (G.) et Delamare (Jean-Bruhnes), op. l, p. 75, fig. 11.

(296) **الصيغ المشتركة أكثر هي ثاقوقا (Taguga) ثُيويا (Tiuia) هيُويا(Hiuia) أنظر : -Laoust(E.), op.l, p. 291 et sq والسهم (أثمون) من الأصل اللاتيني Temun كما هو واضح، لكن هذه الاسم اللاتيني الأصل، معروف في المناطق التلية (القبائل والأوراس) فقط، أمّا المناطق الأخرى فلها أسماؤها البربرية.**

أو يوق (Iug) المشتق من ذات الاسم اللاتيني، فهل يعني ذلك أنّ الإقران وما يتعلق به كــان غير معروف لدى البربر قبل وصول الرومان، ويكون الجواب دون ريب بلا، لأنّ البــونيين عرفوا الإقران(297)،ونعرف أيضا في هذا السياق أنّ الليبيين كانت لهم عربات يجرّها اثنان أو أربعة من الخيول(298)، وليس من المستبعد أن يكون لليبيين منذ أمد بعيد طريقتهم في الإقران من خلال حبل يمرَّر على كتفي حيوان الجرّ، على غرار ما نجده في الجداريات المصرية وهو إقران الثيران ومحارث يجرّها أربعة أشخاص(299)، وقد سجّل بلينوس الكبير إعجابه بخصوبة التربة في جهة المزاق (Byzacène) بقدر تعجّبه من مشهد إقران غريب:امرأة(*) وحمــار لجــرّ المحراث(300).



ش. 4 ـ خريطة المحراث البربري

1- منطقة استعمال المحراث الزاحف 2- المجموعات الرئيسية الناطقة بالأمازيغية

---

(297) -Columelle, (citant Magon) VI, 1-2-3.

(298) حسب فرضية لاوست فإنّ الخيل والبقر كانت حيوانات ركوب قبل أن تكون حيوانات جرّ وهي فرضية مقبولة وعلى الخصوص الحصان الذي عرف الإقران قبل أي يعرف الإسراج أنظر أعلاه ص **21** . والثور أيضا يمكن أن يكون حيوان نقل منذ فترة موغلة في القدم، وعن المحراث البوني أنظر: - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, IV, pp. 13-14

وقد ظهرت صورة المحراث في العملةوفي نُصُب قرطاج: -Corp. Inscript. Sémit. T,II,pl XXV;XXVII, LVI

كما ظهرت في نصب الحفرة بقسنطينة: -Berthier A., et Charlier Abbé R., op. l, pl. XXVI, d.

(299) Leser (P.), Enslehung und verbreitung des plufges. Munster 1931 – ومن المقبول لديه أنّ الانــسان ســلق الحيوان في جرّ المحراث وقد لا حظ هودريكور وكولامار أنّ إقران الحيوان هو الأقــدم، لأنّ الجــداريات المــصرية لا تظهــر أشخاصا يجرون محراثا إلا في فترة متأخرة هي فترة الدولة الحديثة وللتذكير فإنّ هناك حضارات بدائية لم تعرف الإقران وفي هذه الحالة يكون الأشخاص هم الذين يجرّون المحراث بأيديهم، وفي اليابان توجد "محاريث تشريفات" عبارة عن عصي بسيطة للحفر مزوّدة سكّة حديدية يجرّها أفراد: -op. l, p. 31.

(*) لا ندري مدى صحّة هذه الأخبار التي يدسّها المؤلّف هنا ، خاصّة وأننا نعلم تعلق المؤرخين والكتاب القدامى عموما بالأحــداث الغريبة ولعلّ المشهد في واقع الحال لا يعدو كونه مشهد تعاون بين رجل وزوجته.

(300) -Pline l'Ancien, XVII.

إذا استثنينا بعض الأشكال من الفترة الرومانية، فإنّ الوثائق الأثرية نـادرة، وأهمّهـا النصب البونية وبعض القطع النقدية التي –على غرار وثائق الفترة الرومانية اللاحقة- يظهر فيها المحراث المسنّن أو أشكال منه (ش. 5)، وقد عثر في تملوس مجاورة للمدغاسـن علـى سكّة محراث[301] غير معروف، والحال أنّ مجرّد العثور علـى سـكّة في قـبر مـن نمـط بروتوتاريخي هو حدث في غاية الأهمّية لأنّه متعلّق بتقليد زراعي منتشر في عموم بلاد البربر وهو إيداع المحاريث بجوار قبور المرابطين أو في "احويطة" والمعروف أنّ القيمة الرمزيـة أو السحرية للمحراث بالغة الأهمّية [302].



ش. 5 _ محراث مسنّن من الفترة الرومانية : عن نصب من Vicus Maracitanus

* * *

الزراعات الشجرية

فيما يتعلّق بالزراعات الحقلية لم يكن قدماء البربر في حاجة إلى أيّ تأثير بوني، فأنماط الزراعة البسيطة، والمفردات الخصوصية هي كلّها ليبية سواء في أسماء الحبـوب أو أغلـب المنتجات الحقلية والبستانية الأخرى، وهو ما يدعو إلى اعتبار الفلاحة البربرية عمل ونشاط قديم جدّاً سابق لتأثير قرطاج فهل ينسحب ذلك أيضا على الزراعة الشجرية ؟

نجد في العملة القرطاجية صورة شجر النخيل والتشابه اللفظي مع الأصل الإغريقـي دليل على أنّ هذه الشجرة ليست أبدا هبة فينيقية لأفريقيا، فقد تحـدّث هـيرودوت عـن واحات في الصحراء الشرقية منذ القرن الخامس[303]، كما تظهر في الجـداريات المـصرية

---

(301) - C[el]. Brunon, Mémoire sur les fouilles exécutées au Medracen, Mausolée des rois de Numidie, Rec. Des notices et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t, XVI, 1873-1874, pp. 303-350.

(302) - Haudricourt (G.) et Delamare (Jean Bruhnes), op. l, pp. 446-461 ؛ وعن عوائد أفريقيا الشمالية أنظر:
- Bertholon (DR) et Chantre (E.), Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale (Tripolitaine, Tunisie, Algérie) pp. 520-521 ;
- Laoust (E.), Mots et choses berbères, pp. 298-299.

(303) أعلاه ص 57.

عراجين التمر في أيدي الخدم أو دافعي الضرائب، وهذا ما يجعلنا نفكّر في أنّ موطن النخيل الأول هو الصحراء الشرقية ومن هناك تكون زراعتها قد انتشرت في عموم الصحراء، غير أنّه مهما تكن الظروف التي تمّ فيها ذلك الانتشار فإنّ النخلة كانت معروفة لدى الصحراوي قبل أي توسّع إقليمي للقوّة القرطاجية.

تطرح شجرة الزيتون مشاكل أخرى، فالزيت المستخلص من الزيتون البرّي لا يختلف نباتيا البتّة عن الأوليا أوربيا (Olea europea) وهو زيت محلّي في أفريقيا الشمالية كما هو الحال في عموم بلدان البحر المتوسّط[304]،يستخرج من ثمرة الزيتون البري وقد نقل إلينا سكولاكس بالحرف أنّ سكّان جربة يصنعون الزيت من عصر ثماره[305]، وهذه المرحلة من القطف والإنتاج يمكن اعتبارها الأقدم والحالية من أي تأثير أجنبي،فقد كان قدماء البربر يستخرجون من الزيتون البرّي مادّة غذائية مثلما كان أسلافهم النيوليثيون يستخرجونها من ثمار العنّاب والنشم، والطريقة هي ذاتها خلال ما قبل التاريخ لا تتطلّب أي كفاءة تقنية خاصّة، والمثال على ذلك النشاط الصناعي لليبيي جربة المواكب لجيرانهم أكلة اللوتس (Lotophages) الذين يستخرجون الخمر من ثمار العنّاب[306]، وتكمن المرحلة الثانية في زبر الزيتون البرّي وتحويل غابة زيتون بري إلى بستان زياتين غير منتظم وبأشجار هرمة في كثير من الأحيان، وهي شبيهة بذات الأشجار البرّية المزبورة التي تغطّي سفوح جرجرة والريف وزرهون.

تبدأ المرحلة الأخيرة بظهور بساتين الزياتين المغروسة بانتظام كما هو الحال عند الفينيقيين والرومان، والفلاحين الحاليين في تونس والجزائر.

الأسماء البربرية والأسماء السامية للزيتون البرّي والزيتون البستاني

يتمثّل الإشكال المطروح هنا في تحديد الفترة التي ظهر فيها التطوّر التقني وأين نضع تدخّل الفينيقيين وهل هم الذين أدخلوا التطعيم أم أنّه كان معمولا به من ذي قبل؟ وهل من المفترَض عموما القول أنّ البربر عرفوا الزيتون المغروس (البرّي المطعّم أو البستاني المغروس)

(304)
- Battandier et Trabut, Flore de l'Algérie, Alger 1888-1890, p. 581
- Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, I, pp. 166-167
- Joleaud (L.), l'ancienneté de la fabrication de l"huile en Afrique du Nord, Rev. Afr. T, LXX, 1929, pp. 19-356
- Camps-Fabrer (H.), l'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine, Alger 1953.

(305) أنظر أعلاه ص 41.

(306) أنظر أعلاه ص 57.

عن طريق الفينيقيين اعتمادا على استعمال شبه عامّ للكلمة السامية **زيتون** للدلالة على الشجرة وكلمة **زيت** للدلالة على المادّة المستخرجة من ثمارها، ودليلنا من التوبونيميا القديمة التي نجد فيها هذه الأسماء، التي يكون الفينيقيون هم من أدخلوها وليس العرب.(307) لكن كيف يستقيم ذلك ولدى البربر اسم بربري خالص هو آزمّور(Azemmour) للدلالة على الزيتون البرّي المطعّم ما عدا في الأطلس الأعلى حيث يدلّ هناك على الزيتون البرّي(*)، ومثل الاسم السامي نجد في التوبونيميا كلمة آزمّور، زمّورة، ومجال انتشار الاسم يمتدّ من مصر إلى المغرب(308).

تبدو الأمور بسيطة من أول وهلة، لأنّ البربر لديهم اسم وطني للدلالة على الزيتون البرّي المطعّم، واسم آخر سامي للدلالة على الزيتون البستاني وهذا يقودنا إلى أنّهم كانوا يعرفون التطعيم عندما كان الفينيقيون يغرسون بساتين الزيتون الأولى في شمال شرقي تونس(**).

هناك ملاحظات ألْسُنية، في صلب الموضوع، تزيد في تعقيد المسألة، فالزيتون البرّي في الهقار (Olea Laperrini) يسمّيه التوارق باسم غير متوقّع هو آليو (Aleo) وهو اسم كما نرى وثيق الصلة بالاسم الإغريقي واللاتيني، وبالمقابل فإنّ أشجار الزيتون القليلة المزروعة في واحات الفزّان تسمّى هناك تيحاتيمت (Tihatimt) وهو اسم ذو صلة بالكلمتين المصريتين تات **(Tat)** وتعني شجرة الزيتون وحاتي **(Hati)** وتعني الزيت، أمّا في غدامس فإنّ زيت الزيتون لا يزال يسمّى **أوذي (Udi)** وفي نفوسة يحرّف إلى **ذي (Di)** فهل نحن هنا أمام مسمّيات قادمة من زراعة زيتون قديمة جدّاً وصلت برّاً من المناطق الشرقية سابقة للفينيقيين وخارج نفوذهم؟ خاصّة وأنّ ما نعرفه عن انتشار الحيوانات الأليفة والقمح عبر هذه الجهات الجافّة تماما الآن لا يتعارض مع وجهة النظر هذه. ولعلّ من الأهمّية بمكان مقارنة زيتون الفزّان بنظيره في قورين أو مصر من جهة وبنظيره في تريبوليتانا وتونس من جهة أخرى.

فيما يتعلّق بالكلمة آليو غير المعروفة خارج الهقار ينبغي الحذر وعدم المغامرة في استنتاج سريع نظرا للشبه بينها وبين الاسم الإغريقي واللاتيني،والمعروف أنّ الاسم الإغريقي ελαια ليس من أصل هندو أوربي، فهو مشتقّ من جذر إيجي(309)،وقد يكون واسع الانتشار عبر المتوسّط الشرقي ومن هناك يكون قد تسرّب إلى أفريقيا عن طريق قورينائية،

(307) **يذكَر في هذا السياق اسم المكان زيتة جنوبي جربة، ويمكن إضافة أوزيتا جنب غربي المنستير.**

(*) **الواقع أن شجرة الزيتون البستانية في اللغة البربرية تحمل اسم التأنيث تازمّورث أمّا آزمّور فهو ثمرها، ولذلك فإنّ تأويلات المؤلّف هنا تحتاج إلى مراجعة لأنّه كما يبدو لا يتقنّ جيّدا اللغة البربرية.**

(308) - Laoust (E.), Mots et choses berbères, pp. 298-299.

(**) **نلاحظ هنا تعمّد وضع البربر دائما في وضع المتلقّي وما يسوقه المؤلّف هنا لا تدعمه حجج قويّة.**

(309) Glotz (G.), La civilisation égéenne, Paris 1937, p. 441 - ؛ وفي رأي لاوست أنّ كلمة آليو هي اشتقاق واضح من الأصل الإغريقي اللاتيني op I, p. 448– ؛ وعلى العكس منه يرى جولو أنّ الكريتيين هم الذين أدخلوا هذه التسمية، (op. I, pp. 19-36 (p. 35– .

وهو ما يتضح من التدوين الخطّي **B** الذي يعرّفنا بهذه الكلمة في اللغة المحكية في كريت وفي موكين.

لنترك الصحراء وقضاياها ونتّجه إلى المنطقة التلّية حيث الاسمان البسيطان **زيتون – آزمّور**، تضاف لهما بعض الصيغ أو بعض الدلالات التي تعقّد المسألة على الخصوص. فأزمّور الذي يعني في كلّ المنطقة الزيتون المطعّم يعني في نفس الوقت الزيتون البرّي عند جماعة الشلوح وهو اسم لا نجده عند التوارق، في حين أنّ الزيتون البرّي غير المطعّم يسمّى عند باقي البربر زبوج (Zebouj) وهي كلمة أصلها بالغ الغموض، ومستعملة أيضا في عربية أفريقيا الشمالية الدارجة، مع أنّها ليست من أصل سامي، ويبدو أنّها غريبة أيضا عن اللغة البربرية، ومعروفة في إسبانيا بصيغة أثبوش (Acebuche) في القشتالية[310] بذات المعنى فهل يعني ذلك أن التسمية الشمال أفريقيّة عبرت إلى شبه الجزيرة الإيبرية على يد السرايا البربرية في جيش الفتح الإسلامي؟ وإذا كان انتشارها هناك أقدم فهل أزبوج – أثبوش محرّفة من أصل لاتيني [*] ؟ وهو ما حاول البعض إثباته ومنهم سيموني الذي يرى أن الكلمة محرّفة من الأصل اللاتيني Acerbus بسبب مرارة الثمرة[311]، أمّا كولان وهو أحدث فقد ربطها بالكلمة Aquifolium (البهشية[**]) استنادا إلى بعض الأمثلة غير الثابتة لأن البهشية في أفريقيا الشمالية تحمل اسم زبوج كرامي والبهشية تسمّى في القشتالية أثبوش أيضا[312].

إن كان هذا الافتراض صحيحا لا ينبغي التعجّب من احتفاظ البربر بمصطلح لاتيني للدلالة على شجرة غير بستانية، فشجر البلوط (آكرّوش Akerruch) وشجر الدردار (أولمو Ulmu) تحملان بدورهما اسمين مشتقّين من اسمين لاتينيين، والإشكال هنا يأتي من كون الاسم اللاتيني الذي اختصِر للدلالة على نوع مختلف هو الذي احتفظ به البربر والإسبان وليس الاسم واسع الانتشار الدال على الزيتون البستاني (أوليا Olea، آليو Aleo عند التوارق)

---

(310) في لهجة بلنسية (Acebuig) وفي الغة البرتغالية (azembujo) .

(*) **هذا كله غير صحيح ومحاولة يائسة لإثبات الأصل اللاتيني لزراعة الزيتون في الشمال الأفريقي من خلال مقاربات لغوية تلفيقية، والواقع أن الكلمة في صيغتها بربرية أمازيغية وكل البربر إلى اليوم يسمون الزيتون البري أزبوش أو آصبوش مع ميلان حرف الصاد إلى الزاي المفخم (الجيم الفارسية) ولقرب الصاد من السين والاسبان كما هو معروف ينطقون السين ثاء، صاغوا منه كلمة آثبوش ولا ريب أنّ استقرار البربر في شبه الجزيرة الإيبرية ومنهم كان جمهور الفلاحين أدّى إلى انتشار الاسم، وإن كان هناك اسم اسباني يكون قد زال من الاستعمال ليحلّ محلّه الاسم البربري.**

(311) - Simonet, Glossario de voces ibericas y latinas, Madrid 1888, cité par E. Laoust op. l, p. 448.

(**) البهشية (Houx) جنس شجر وجنبة حرجية .

(312) - Colin (G.), Etymologies magrébines, Hespéris, 1927, pp. 89-90

أو الزيتون البرّي (Oleaster) في حين أنّ هذا الأخير كان واسع الانتشار في العالم الروماني، في إسبانيا على وجه الخصوص، وبه سمّيت إحدى مدن بتيكا[313].

لا يمكننا والحال هذه سوى اقتراح أنّ صيغتي أثبوش – أزبـوج لا تمـتّ بـصلة إلى اللاتينية وهما من جذر مشترك وقديم جدّاً ؟ ويبدو لي أنّ الانتشار المعتبر لكلمة أزبـوج أو زبوج في مناطق أقلّ رومنة مثل سيوة، غدامس، والأوراس يدعم هذه الفرضية الهشّة[*].

ومهما تكن نتائج هذه الملاحظات، فإنّ من الضروري التوقّف عند المعطيات الأكيدة وحدها، أي وجود اسم بربري خالص للدلالة على الزيتون البرّي، واسم سامي للدلالة على الزيتون البستاني وأسماء من أصل غير معروف قد تكون أحدث وقد تكـون أقـدم مـن الأخرى، للدلالة على الزيتون البرّي إن في الشمال (زبوج) أو في الهقار (أليو)، ويستنتج من هذا أنّ البربر عرفوا تطعيم الزيتون البرّي قبل أن يقيم الفينيقيون بساتين الزيتون.

تظهر هذه الاستنتاجات–المختلفة شيئا ما عن استنتاجات أخرى مقبولة تقليديا[314]– إلى أي مدى ينبغي تحرّي الدقّة في التأكيدات الجازمة المتعلّقة بدور الفينيقـيين في الزراعـة الشجرية الشمال أفريقية.

أشجار مثمرة أخرى

أعترف بأنني لا أفهم لماذا التمسّك بالقول في موضوع شجر التين " ... أنّ البونيين يكونون هم من علّم البربر زراعة هذه الشجرة الأهلية في وضعها البرّي، وأنّهم علّموهم على الخصوص تأبير التين الذي لا يزال في بلاد البربر إلى الآن.[315]" وكأنّ الإخصاب لا يمكن أن يتمّ طبيعيا وكأنّ البربر كانوا في حاجة له، منتظرين التعليم البوني راضين بصحّة ممارسة التأبير ليعملوا به. وبالتالي التفكير في أنّ كلّ التقنيات الفلاحية حتّى البسيطة منها كلّها أجنبية عن بلاد البربر وأنّ هذا الشعب مجرّد تماما من أي مبادرة[**] ؟

---

[313] - Pline l'Ancien, III, 45 et XXXIV, 167

[*] ويقول عنها هشّة مع أنّها الفرضية الأقوى لأن كلمة أصبوش بكل مشتقاها وصيغها هي كلمة أمازيغية تماما ولا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بما يسرده المؤلف هنا من مفردات من لغات أخرى.

[314] في نظر لاوست أنّ كلمتي زيت وزيتون من أصل عربي، وفي نظر جولو أنّ صيغ أليو، أحاتيم، أودي أسبق بكثير من الفينيقيين أمّا بالنسبة لقزال وهنري باسي فإنّ الفينيقيين هم من علّموا البربر استخراج الزيت من ثمار الزيتون وذهب اقزال إلى حدّ القول عن استخلاص أهل جربة الزيت من الزيتون البرّي أنّ : إذا لم يقدّوا الفينيقيين في التطعيم فذلك لا يعني أنّهم لم يأخذوا صناعة الزيت عنهم" أنظر t, I, p. 238, n° 6 – ؛ وهذا شيء مستبعد لن نلحّ فيه كثيرا.

[315] -Basset (H.), les influences puniques chez les Berbères, Rev. Af. I, LXII, 1931, pp. 340-374 (p.348)
- Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, IV, p. 31.

[**] المؤلف موضوعي إلى حدّ ما بالقياس مع غيره ويكفي أنّه طرح هذا السؤال الذي يمكن أن يغيّر الكثير وأن يكون الجواب عنـه في بحوث ورسائل جامعية منتظرة.

يمكن القبول عند اللزوم – رغم أنّه شيء مستبعد– بالاستنتاج المذكور إذا وجد في الألسنية (Linguistique) ما يدعمه ولكن لا شيء من ذلك، مع أنّ القبائل والشلوح هم الأكثر استهلاكا للتين ولديهم مفردات غنية متعلقة بالشجرة وثمارها في جميع أطوار النضج أو التجفيف[316].

يسمّى التين أزار (Azar) عند جميع بربر التلّ، ومعروف أيضا بصيغة أهار (Ahar) (ومؤنّثها تاهارت) لدى التوارق، والقوانش، و يعود الاسم حسب لاوست إلى جذره ZR الذي يظهر في عدد كبير من أسماء الفواكه، ممّا يجعل التين فاكهة مميّزة، تعلو فوق جميع الفواكه الأخرى، وهو ما يوافق مكانتها المعتبرة في غذاء العديد من الجبليين.

بالمقابل نقف إلى جانب الرأي الذي أجمع عليه الباحثون وهو أنّ الرمّان جاء به الفينيقيون، وهذا ما جعل دو كاندول يعيد هذه الشجرة إلى أصل شرقي[317]، وليس تسمية الرومان لها (Malum punicum) السبب الكافي الذي جعله يقرّ بأصلها الشرقي لأنّ العبارة ينبغي أن تفهم بمعناها الجغرافي وليس المعني العرقي، والواقع أنّ هذه التسمية ذاتها تجعلنا نقول أنّ شجرة الرمان ذات أصل أفريقي، وذلك كافٍ للتعبير عن طابعها المرغوب فيه[318].

أمّا بخصوص كروم العنب فإنّني لا أعرف على أي دليل استند أولئك الذين يؤكّدون أنّ الفينيقيين هم الذين أدخلوا زراعتها ، مع أنّها تنمو برّيا في أفريقيا الشمالية وهي موجودة في المنطقة منذ بدايات الزمن الرابع[319]، ونفس الشيء يقال عن اللوز الذي تتوفّر فيه خصائص الشجرة الأهلية في بلاد البربر مع أنّه يحمل اسما عربيا عند جميع البربر[320].

---

(316) - Laoust (E.), Mots et choses berbères, pp. 421-422.

(317) - De Candolle (A.), Origines des plantes cultivées, pp. 189-191.

(318) **كتب دو كاندول أنّ "... كان أجود رمّان هو الرمّان القرطاجي ومنه جاءت التسمية اللاتينية : Malum punicum ولكن هذا الوصف لا يجعلنا نقرّ بالأصل الشمال أفريقي له." op. l, p. 191 . ويقول كلركوبينو أنّ قرطاج علّمت البربر الزراعة، ...وأنّ شجرة الرمّان جيء بها من الشرق ولذلك ظلّ اللاتين يسمّونها التفاح البوني، أنظلر : -Carcopino (J.), le Maroc antique, p. 27. اهـ . ونحن نردّ على الجميع أنّ فاكهة الرمّان أسماها اللاتين التفاح البوني لأن البونيين هم الذين كانوا يسوّقونها، والرومان عرفوها بواسطة التجار القرطاجيين ومن هنا جاءت تسميتها بذلك الاسم وهذا لا ينفي احتمالا كبيرا أنّها شمال أفريقية. المترجم.**

(319) - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, I, p. 166 **؛ ومثال على ذلك الكروم المتحجّرة المكتشفة في موقع الدار المربّعة** (Maison carrée) **أنظر** : Battendier et Trabut, l'Algérie, p. 20– **؛ واحتمالا تكون هذه الكروم معاصرة لجليد ريس وبالتأكيد الفترة الأخيرة لذلك العصر الجليدي . أنظر :**

- Santa (S.), Essai de reconstitution de paysages végétaux quaternaires d'Afrique du Nord, Lybica, anthrop. Préhist. Ethpogr. T, VI-VII, 1958- 1959, pp. 37-77 (p. 41)

(320) - De Candolle (A.), op, l, p. 175.

من المستحيل استعراض كل زراعات قدماء البربر ومختلف أعمالهم في السقي الزراعي، في المناطق الجافّة وفي التلّ ومن الخطأ نفي فضائل الحضارة البونية في بلاد البربر، كما كتب جان ديبوا "... **ليس ضروريا دائما لشرح التقنيات الزراعية في بلد ما الذهاب إلى التأثيرات الخارجية**" [321] ، ومن الأوكد توفُّر بعض الوقت لتكيّف الزراعة و"تتجنّس" في بلد ظروفه الملائمة قليلة، فاكتساح البلاد من قبل الأغاف (Agave) والهندي (Cactus) الأميركي في القرون الثلاثة الأخيرة، والبطاطس الأوربية هي أمثلة كثيرا ما ذكرت، ولا ريب أنّ العديد من الزراعات الشجرية والحقلية التي تبدو اليوم جزءًا لا يتجزّأ من الإطار الفلاحي الشمال أفريقي هو موادّ دخلت المنطقة منذ القديم، وأملي أن أبيّن أنّه إذا لم يقم الدليل على وجود فلاحة خلال النيوليثي فإنّها كانت موجودة بكلّ تأكيد لدى ليبيي الفترة البروتوتاريخية، واختصار هذه الفلاحة في الحبوب والزراعات الحقلية يبدو أنّه غير متوافق مع معطيات الألسنية وعلم الآثار؛ وفي الأخير نسجّل أنّ زراعة المدرّجات والزراعة في الواحات وُجِدتا قبل الفينيقيين وخارج أي تأثير من قبَلهم.



(321) - Despois (J.), la culture en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economis, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50 (p. 49).

ج ـ نمط الحياة والتنظيم الاجتماعي حسب الأبحاث الأثرية

عَقبة في وجه الأركيولوجيا البروتوتاريخية الشمال أفريقية غياب التحقيب أو التزمين.

سمحت المعطيات الألسنية والإثنوغرافية بالتعرّف على قِدم الزراعة في أفريقيا الشمالية فهل من الممكن تكوين صورة عن الفترة السابقة لها لمعرفة السكّان البروتوتاريخيين السابقين لعهد ماسينيسا؟ [*] ولكن أركيولوجيا فجر التاريخ بكل أسف فقيرة ولا يمكن أن تمدّنا بمعلومات دقيقة عن أنماط الحياة أو التنظيم الاجتماعي. ومع ذلك تسمح بالتأكيد على وجود سكّان مستقرّين متمركزين خارج الإقليم البوني، وتقدّم الدليل على أنّ هؤلاء السكّان كانوا منظّمين اجتماعيا، ومع أنّ هذه الأدلّة متماثلة عموما إلاّ أنّها تبرز شيئا من الفروق على الأقلّ في الطقوس الجنائزية.

لا تملك أركيولوجيا فجر التاريخ في أفريقيا الشمالية سوى مصدر واحد للمعرفة، وهو مصدر لا يتضمّن في الواقع غير بعض الإضاءات الهزيلة والتي لا تزال محلّ نقاش (لا شيء يؤكّدها) وهذا المصدر هو نتائج الحفريات التي أجريت في المعالم الجنائزية. أي أنّه منذ الانطلاقة في أبحاثنا لا نجد بين أيدينا سوى وقائع غير مؤكّدة، وكلّ ما لدينا مأخوذ من نتائج حفريات ويستند على مسلّمة هشّة، مفادها أنّ المعالم والأثاث والطقوس الجنائزية، تعكس بأمانة حياة أولئك السكّان[322]، ومن المحبّذ لو في الإمكان مقارنة نتائج حفريات المعالم الجنائزية بنتائج حفريات موازية في الأماكن المسكونة للحصول على صورة أوضح وغير معروفة عن الشعوب البروتوتاريخية، ذلك أنّ مساكن فجر التاريخ غير معروفة أو بعبارة أدقّ لا يمكن الكشف عنها بين أنقاض لا ملامح لها ومتشابهة ومن عصور مختلفة، تحمل جميعها عبارة أنقاض بربرية. بعضها سابق لروما بعدّة قرون والبعض الآخر معاصر لها، وعدد كبير أقدم، ولا توجد أي وثيقة تأريخية (Chronologique) تحمل حدّا أدنى من الحقيقة.

---

[*] أصبحت مسألة اعتبار الفترة ما قبل ماسينيسا امتدادا لماقبل التاريخ متجاوَزة، بفضل الدراسات والأبحاث التي ظلّت تنشر على امتداد نصف قرن منذ أن أنجز غبريال كامبس هذا البحث، وهو نفسه في أبحاثه الأخيرة تراجع عن كثير من الرؤى والتأويلات التي تتكرر مرارا في بحثه هذا، ولو أعاد نشر هذا العمل لغيّر عنوانه لأن اعتبار فترة حكم ماسينيسا بداية للتاريخ في أفريقيا الشمالية يعتبّر تجنّيا كبيرا على تاريخ هذه المنطقة.

[322] لا تتبع الطقوس الجنائزية تطوّر شعب إلاّ ببطء شديد وتبدو في هذه الصفة عتيقة ولا ينبغي على الإطلاق التقليل من شأنها وحتّى العبارات التي تسجّل في النصوص الأثرية الجنائزية لم تتطوّر إلاّ ببطء كبير فالعبارة : هنا يرقد لا تزال مستعملة في أيامنا هذه كما أنّ عبارة .D.M.S من الفترة الرومانية هي امتداد من الفترة الوثنية.

وهو ما أسمّيه ومعي آخرون: **الديمومة البربرية**[323] التي تبيّن أنّ التقنيات البسيطة جدّا المتوافقة مع مثيلتها لدى السكّان الريفيين البسطاء، الملبّية لحاجياتهم بسهولة، لم تتطوّر بطريقة محسوسة عبر القرون.

احتفظ الخزف البربري عبر العصور بنمط واحد إلى حدّ أنّه يستحيل التمييز بين شقفة آنية مصنوعة في عهد ماسينيسا من أخرى لم يمرّ عليها أكثر من قرن (أنظر ش. 6) ولن نتفاجأ أو نصاب بالدهشة ونحن أمام زخارف في آنية من إحدى بازينات تيدّيس (القرنان II و I ق.م.) التي احتفظت بها زخارف فخارية حديثة من الحضنة أو من القبائل الصغرى، وذات الشيء نجده في زخارف فخار الأوراس الشبيهة بزخارف جبل قسطل، وعلى العكس من ذلك فإنّ الأواني الفخارية التي هي الوثيقة الوحيدة عمليا المستخرجة من حفريات بروتوتاريخية غير مفيدة في تحديد تاريخها. ولا يمكن تأريخها إلاّ من خلال القرينة الأثرية والمكان الذي اكتشفت به. لأنّ اكتشاف آنية فخارية في معلم ميغاليثي هو الذي يمكن أن يجعلها قديمة، لكن ذلك لا يسمح بتحديد تاريخ هذا المعلم، فالاكتشاف مهما كان في أنقاض مسكن دون وثيقة أخرى ذات قيمة كرونولوجية لن يزيد الأمر إلاّ غموضا، وفي مثل هذه الظروف فإنّ أغلب محاولات تثبيت تاريخ المعالم البروتوتاريخية بواسطة الأثاث الجنائزي المستخرج منها لم توصلنا إلى شيء.

ما بين وفرة قطع السيلكس التي تعود إلى أواخر النيوليثي ودخول أولى الأدوات القرطاجية أو الرومانية في الوسط الريفي البربري تمتد قرون طويلة تكون وثائقها القابلة للتأريخ قد أتلفتها عوامل طبيعية، وكل ما يمكن عمله في غربي الشمال الأفريقي ودائما في المنطقة الساحلية وجدت عدّة شقفات من فخار حضارة الآنية ذات الشكل الكمباني جاءت من شبه الجزيرة الإيبيرية وأشياء أخرى نادرة عبارة عن سلاح من البرونز الذي احتفظت بصورته نقوش الأطلس الأعلى، وقد حاول الأثريون تأريخ المعالم والمواقع السكنية بواسطة الوثائق الأولى بالفترة التاريخية التي أظهرتها الحفريات، وبهذا الأسلوب بيّنت عملة فاوستين (Faustine) أنّ الدلمان لا يمكن أن يكون سابقا للقرن الثالث قبل الميلاد لأنّ الأشياء ذات

(323) -Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp.37-44

وعن ديمومة الطابع البربري أنظر : -Berthier (A.), L'Algérie et son passé, Paris 1951.

التأريخ الأقدم تعود إلى تلك الفترة، مع أنّ هذا المنطق مخالف للعقل[324]، فكوننا لم نعثر على أثاث قابل للتأريخ سابق للقرن الثالث يدل ببساطة وفقط على أنّ إنتاج الصناعة القرطاجية لم يدخل المناطق الأفريقية الداخلية إلاّ بعد فترة طويلة أي عدد كبير من القرون تفصل ما بين تمركز الفينيقيين في الساحل الأفريقي والفترة التي تلقّى فيه الأفارقة سلعهم.

من المؤكّد أنّه خلال "الألفية القرطاجية" كان السكّان الشمال أفريقيون يتكونون كلهم تقريبا من ريفيين ورحّل وقد ظلّوا على تلك الحال عبر قرون من التاريخ، وكانت نسبة الحضر أقل مما هي عليه اليوم بكثير، وفيما عدا المدن الفينيقية أو التي أسسها القرطاجيون في الساحل كانت توجد بعض المدن النوميدية أشارت إليها المصادر خلال القرنين الأخيرين من عمر قرطاج : كما هو الحال بالنسبة لباناسا و تامودة و وُلوبيليس عند المور التي وجدت منذ القرن الثالث [324مكرر] لكن هذه المدن الأهلية وحتى تلك التي يعود تأسيسها إلى مبادرة من بعض الأمراء لجعلها عواصم لم تكن سوى بلدات صغيرة أو مجرّد قلاع محصّنة [325]، ولا تختلف تلك التي لم تغمرها آثار رومانية أو من الفترة الإٌسلامية عن باقي الأنقاض البربرية.



ش. 6 ــ هذه الآنية الفخارية من الأوراس هي من نوع عتيق جدّا، أقدم حتى من الآنية الفخارية المستخرجة من المقابر الميغاليثية

(324) عن عصر المقابر الميغاليثية أنظر : Camps (G.), Ibid. pp. 139-152

(324مكرر) - Cf. Euzennat (M.), L'Archéologie marocaine en 1955-1957, Bull. d'archéol. Maroc. T. II, 1957, pp. 199-229

(325) أعلاه ص ص 53-54 .

المقابر البروتوتاريخية ومناطق زراعة الحبوب

يبقى الأثاث الجنائزي إذن الوثيقة الثرية الوحيدة التي من عصر غير مؤكّد وذات قيمة هزيلة لأنّها مكوّنة من أشياء ظرفية غير دائمة، ومع ذلك ينبغي الإقرار بأنّ طابعها مهمّ وهي شاهد على عصورقديمة يمكن تسميتها في غياب مصطلح آخر باسم الحضارة الريفية البربرية.

تبدو الآنية الفخارية المودعة في المعالم الجنائزية مطابقة لآنية البعض من الساكنة البربرية الحالية مع أنّ فخار هؤلاء الساكنة من الحضر يختلف عن فخار الرحّل، فهل يمكن الاستنتاج من تشابه الفخار أنّ الساكنة القديمة كان لها ذات نمط الحياة مثل الحضر المعاصرين ؟

هذه الملاحظة يدعمها واقع هو أنّ جميع المعالم الجنائزية التي تعود إلى عصر غير محدّد – لنقل بروتوتاريخي أو بعبارة أخرى قبل الإسلام – لم تقدّم لنا ذات الأثاث بلا تمييز، وما قدّمته لا يحتوي في أكثره على فخار في حين أنّ المعالم التي قدمت أثاثا ليست موزّعة صدفة.

توزيع غريب

تكوّن الستّون مقبرة بروتوتاريخية التي تحتوي على آنية فخارية[326]، عند توقيعها على خريطة (ش. 7) سلسلة سديمية ذات توزّع واتساع غير متساوٍ، وأولها وهي الأكثر أهمّية في عدد المواقع وفي الاتساع وكذا في كمّية الآنية المستخرجة من معالمها يمكن إدراجها ضمن مثلّث رأسه في خليج الحمامات بتونس ويمتدّ إلى هضبة النمامشة بجوار الحدود الجزائرية التونسية وإلى رأس شنوة غربي الجزائر العاصمة. هذه المنطقة لا تقلّ مقابرها عن 38 بعضها استخرج منه ما يزيد عن مائة آنية فخارية [327].

إلى الغرب تمتد مجموعة أقل اتساعا من الشلف الأعلى إلى منطقة أرزيو، ثمّ يعقب ذلك فراغ مطابق للمغرب الشرقي والجزء المحاذي له من الجزائر، وإلى الغرب من هذا الفراغ نعثر من جديد على معالم تضمّ فخاريات في جهات محدودة بطنجة وتازة إلى مصبّ السّبو.

خارج هذه المناطق المتميّزة يمكن الإشارة إلى عدد من المقابر المعزولة مثل مقابر سوق خميس الزمامرة وبني سناسن في المغرب ودلمان الجلفة وتملوس وادي تامدة بالجزائر، ومدافن سيدي علوان وقابس بتونس، وفي ما عدا المواقع الأربعة الأخيرة (جلفة، واد تامدة، سيدي علوان، قابس) فإنّ كلّ المقابر التي احتوت على فخاريات تقع داخل حدود هامّة على وجه الخصوص(ش.7) وهي الحدود الجنوبية للزراعة الجافة للحبوب كما أقرّه ديبوا[328]، وبالتأكيد فإنّ الحبوب وخاصّة الشعير والسورغو يمكن أن تزرع في ما وراء هذه الحدود

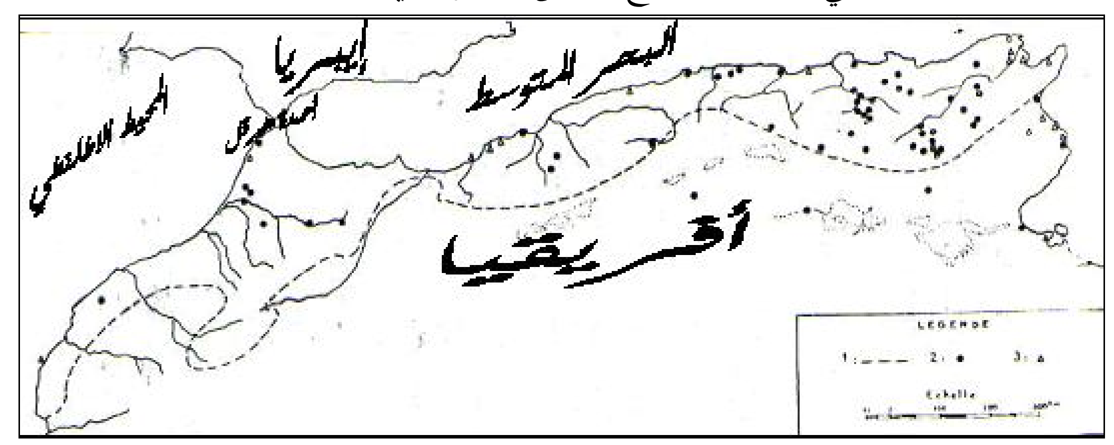
(326) للمزيد من التفاصيل أنظر : Cf. Camps (G.), op. l, pp. 215-225 -

(327) قسطل 350 آنية. سيلة 187 آنية. الركنية 148 آنية. دوقة أكثر من 100 الخ Ibid. p. 218 .

(328) - Dépois (J.), L'Afrique du Nord, Paris 1949, Carte n°16 p. 102.

ولكن خطّ هذه الحدود المتعرج يفصل بين منطقتين الأولى ذات مردود جيّد والأخرى غير مجدية.

مطابقة السلسلة السديمية المشار إليها أعلاه بتصميم هذه الحدود أكير من أن تكون نتيجة للصدفة، فالمنطقة ما بين زاغز والحضنة بالجزائر الوسطى، وكذا المنطقة ما بين ملوية والحدود الجزائرية بالمغرب الشرقي تتطابق تماما مع البياض الملحوظ في خريطة المقابر.



ش. 7 خريطة فخاريات جنائزية وزراعة الحبوب

1– حدود جنوبة لزراعة غير مسقية. 2– مقابر أو قبور بروتوتاريخية تضمّ فخاريات. 3– معالم بونية وجدت بها فخاريات طينية

وبالمقابل فإن عديد التملوس التي أجريت بها حفريات جنوبي هذا الخطّ لا تحتوي على فخاريات، ليس فقط في المقابر الواقعة إلى الجنوب مثل مقابر برج فجاج بتونس(329)، وتيلغمت وعين احمارة وعين صفراء بالجزائر(330)، وكذا مقابر تافيلالت : ارفود، بويا، تاوز وفم لرجام(331)، ولكن أيضا في مقابر بوسوي (Bossuet) تلاغ ومغنية بغربي الجزائر وبجوار وجدة وبرقنت بالمغرب الشرقي(332)، الواقعة إلى الشمال.

(329) -Fleury (Lt.), Recherches de préhistoire dans le Sud Tunisien, *Bull. de la Sic. Archéol. De Sousse*, 1908, pp. 62-64.

(330) أجريت في هذه المعالم حفريات على يد الكولونيل بوتيي، أنظر :

- Pothier (le Col.), les tumulus de la Daïa de Tilghemt, Rev. D'Ethnor. , t, V, 1886, pp. 301-332 ;
- Roffo (le D^R^ P.), Sépultures indigènes préislamiques en pierres sèches, Etude sur trois nécropoles de l'Algérie centrale, Rev. Afric. , t, LXXXII, 1938, pp. 197-240 ;
- Petit (M.), Note sur les tumuli d'Aïn sefra, Bull. de la Sic. De Géogr. Et d'Archéol. D'Oran, t, XXV, 1905, pp. 285-295 ;
- Dessogny (Cne), Notice sur quelques monuments de la région d'Aïn Sefra, B.A.C., 1908, pp. 63-86.

(331) مقابر تافيلالت ذات المساحة الشاسعة أصبحت معروفة بفضل الحفريات والأبحاث التي أجراها :

- Ruhlmann (A.), Recherches de préhistoire dans l'extrême sud marocain, Publ. Du Serv. Des Antiq. Du Maroc, t, V, 1939, pp. 42-51 ;
- Meunié (J.) et Allain (Ch.), Quelques gravures rupestres et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain, Hespéris, t, XLIII, 1956, pp. 51-81
- Margat (J.) et Camus (A.), la Nécropole de Bouïa au Tafilalt, Bull. d'Archéol. Maroc. T, III, 1958;
- Meunié (D.J.), la nécropole de Foum le-Rjam, tumuli du Maroc présaharien, *Hespéris, t, XLV*, 1958, pp. 95-142.

(332) عن حفريات بوسوي أنظر : - D[R] Pinchon, Stations de surface et de tumuli de Bossuet et du Télagh (Oran) ; Congr. Préhist. De France, XIIe session, Toulouse-Foix, 1936, pp. 375-402 وعن حفريات مغنية، أنظر : -Ballu (A.), Rapport annuel, B.A.C., 1914, p. 270

وعن حفريات برقنت ، أنظر: -Thouvenot (R.), Rapport sur l'activité du service des antiquités du Maroc en 1951, B.A.C., 1952, pp. 142-157

الخلاصة التي نخرج بها تفرض علينا بوضوح وبصرامة لا يوجد نصّ قديم يلغيها،وهي أنّ الآنية التي عثر عليها في المعالم الميغاليتية تمثّل ذات الطابع الذي يميّز أواني السكّان الحاليين المستقرّين وأنّ القبور التي تحتوي على هذه الآنية توجد داخل مناطق زراعة الحبوب الجافّة عدا أربعة استثناءات. وأنّ السكّان الذين صنعوا هذه الآنية ووضعوها في هـذه القبـور هـم مستقرّون وهم مزارعون يتغذّون على الدخن مثلما قال العجوز هيكاتوس.

مقابر سابقة للقرن الثالث

نتساءل عن أي من هذه القبور كان معاصرا للفترة الرومانية، بدليل لا يمكن إبطالـه بأي شكل من الأشكال، سواء من خلال الاستنتاج المستخلص من ملاحظة خرائط المعـالم التي وجدت بها فخاريات منصوبة أعلى الدلمان وهي قلّة صغيرة أغلبها تظهر به آثار يتعـذّر إصلاحها بسبب الكسر أو إعادة الاستعمال[333]، والخلاصة انّه من الممكن إذا جئنا لتثبيت تاريخ بناءً على الفخاريات المقلوبة،أن نعود إلى ما وراء القرن الثالث ق.م.كحدّ توقّف عند اسطيفان اقزال[334]، ذلك أنّ دورق ماء (Gourde) ذا نمط قبرصي عثرتُ عليه في محفوظات متحف قسنطينة كان قد استُخرج من دلمان بوشّن وبالمقارنة مع مثيله المستخرج من موقـع بتيبازا من قبل **سينتاس** يتبيّن أنّ صناعته تعود إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث[335]. كما يضمّ المعلم الجنائزي المطمور تحت كومة سيدي سليمان في منطقة الغـرب (Le Rharb) أشتاتا من جرار سمحت حفريات موقادور وبناسا بتأريخها بالقرن الرابع أو أقلّ[336]. أمّا قبل هذه الفترة فلا يوجد في المقابر أي أثر للمبادلات بين الليبيين والفينيقيين، ولهـذا لا يمكـن وضع تأريخ دقيق للمعالم التي لا تحتوي في الواقع إلاّ على فخاريات ولا شيء يسمح بالقول أنّها تعود إلى ما بعد هذا التاريخ فأغلبها يبدو أنّه يعود إلى فترة سابقة لها*.

وعن حفريات وجدة، أنظر: -Voinot (L.), Les tumuli d'Oujda, Bull. de la Soc. De Géogr. Et d'Archéol. d'Oran, t, XXX, 1910, pp. 516-528.

(333) -Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 143-146.

(334) - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, VI, p. 232.

(335) - Cintas (P.), Fouilles puniques à Tipasa, Rev. Afric. T, XCII, 1948, pp. 263-330.

(336) - Jodin (A.), Note préliminaire sur l'établissement pré-romain de Mogador (campagnes 1956-1957), Bull. d'Archéol. Maroc, t, II, 1957, pp. 9-40.

(*) ومع كلّ الجهد لم يخرج المؤلف بأي نتيجة مدعومة بقوّة الأدلّة، لأنّ الحديث عن مقابر قبل تاريخية معاصرة للفترة الرومانية هو من الهذيان أكثر منه رؤية تاريخية موضوعية، وها نحن نرى كيف أنّ المدرسة التاريخية الـسامية تتبـارى هـي وزميلتـها المدرسـة الكولونيالية في القول أنّ الشمال الأفريقي ظل في عصور ما قبل التاريخ لولا الفينيقيين بالنسبة للأولى ولـولا الرومـان بالنـسبة للثانية، ولماذا لا توضع هذه الآثار في إطارها الزمني على غرار مثيلاتها في كل جهات العالم ؟

كذلك لم تقدّم المقابر الساحلية في النفيضة الواقعة في الإقليم البوني أي فخارية متقنة سوى وجود رواق عابر لقاعدة الدلمان يدعو إلى اعتبارها قديمة جدا، وإذا انتقلنا جنوبا فإنّ مدافن ودلمان العالية والسلاكتة مع أنّها مجاورة لمقابر البونية والرومانية إلا أنّها لم تقدّم أيّ فخارية حسنة الصنع[337]، وهنا ينبغي القبول بأنّ هذه القبور سابقة للفترة البونية. وفي الطرف الأخرى من الشمال الأفريقي توجد قبور تعود إلى القرنين السادس والخامس في رشقون، عثر بها على فخاريات شبيهة بفخاريات موقع بني مسّوس، أمّا بالقرب من طنجة في **المرايس** فيوجد دلمان صغير شبيه بنواويس (Cistes) سكّان ألميريا، عثر به على سلاح من البرونز ومعه فخارية ذات نمط مشترك .

تستمدّ الفخاريات المزوقة التي عثر عليها في عدد من المقابر أصولها من خزف يعود إلى عصر البرونز وبداية عصر الحديد.

عرفت فترات فجر التاريخ إذن بناة الدلمان والبازينا وهم سابقون أو معاصرون للقرطاجيين الذين تمركزوا في المناطق "**المجدية**" من بلاد البربر حيث مارسوا زراعة الحبوب ونفترض أنّه كان من بينهم مربو حيوانات (دون أن يكون ذلك دليل على أنهم رحل بالضرورة) وصيادون محبّون لكل ما هو غريب، ولأنهم أصبحوا أرقى نوعا ما، فإنّ المؤرخين الإغريق والرومان وصفوهم بعناية. لكن للاحتراس إذا كان الموري ملتفّاً في جلد فهد أو أسد أو حتى الدبّ كما يؤكّده سترابون[338] فما ذلك إلاّ قناع معنوي منه لا يعكس الحقيقة مثله مثل المحارب الغالي الذي يقاتل الإغريق والرومان حاسرا تماما.

الخزف الجنائزي ونمط الحياة

تضمّ الفخاريات المستخرجة من المعالم الجنائزية أنماطا مختلفة موجّهة لأغراض عديدة، وهي كلها تقريبا آنية تمّ صنعها وشيّها لتوضع في المدافن، ولندع الأشياء النذرية التي جمعتها تحت مسمّى الآنية الخزفية الصغيرة (Microcéramique) والآنية الطقوسية التي ليس لها غير

[337] هذا الاستدلال يؤيّده أنزياني، أنظر: Anziani (D.), Nécropoles puniques du Sahel tunisien, M.E.F.R., t, XXII, 1912, pp. 244-303 (وعلى الخصوص في الصفحات **247–275**). أنظر أيضا :
-Merlin (A.), Rapport sur les récentes découvertes de ruines en Tunisie, B.A.C. 1912, pp. CLXXXIX
-Collet (M.), sur trois tumulus de la région de Sidi Alouane, Ibid, 1917, pp. CXXXIX-CLX.

[338] Strabon, XVII, 3, 11 - **وجود الدبّ في أفريقيا الشمالية خلال العصور القديمة هو محلّ جدل، فهو موجود في المستحثات في المواقع العاترية والإيبرومورية ولم نجد له أثرا في الرسومات الصخرية النيوليثية، وهي غير موجود اليوم، وقد ورد ذكره في عديد النصوص القديمة، أنظر:** Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, I, p. 115.
وعلى العكس فإنّ بلينوس (Plin, VIII, 131 et 228) نفى وجوده في أفريقيا مرّتين ومن الأكيد أنّه حتى ولو استمرّ في الوجود إلى القرون الأولى من التقويم الميلادي فإنّه سيكون بأعداد قليلة جدّا، وبذلك لا يمكن الحسم في شأن تأكيد سترابون على وجوده.

الأهمية الدينية. ولنفحص بسرعة الأشكال الشبيهة بالأشياء المترلية التي تضمّ آنية دون مقبض (مثل الأقداح، الجِفان، الأطباق والكؤوس) وأخرى مزوّدة بمختلف عناصر القبض والتفريغ.

أقداح، أطباق وكؤوس

الأقداح هي الأكثر عددا ومنها نوع ذو شكل انسيابي اعتبر من الجفان، له شكل أكثر عمقا مثل القدح (ش.ــ8) وهذه هي آنية المائدة الأساسية المعدّة للأطعمة السائلة التي يـــتمّ شربها مباشرة بأخذ القدح أو الكأس بملء اليد، أو تلك المعدّة لطعام مهروس يـــتمّ تناولـــه بملعقة خشبية أو بواسطة قطع من رغيف، ولا تزال الأقداح والجفان تكوّن وحدة أساسية في آنية المائدة القبائلية والمغربية والتونسية، على غرار "مشرب" ناحية خمير ومقعـــد الـــوارد في رسومات قوبار (Gobert) [339]، وأخرى توجد بحوزتي، مصنوعة في الشلف مطابقـــة بدقّـــة للأقداح والجفان المستخرجة من معالم الركنية وجبل قسطل ومن جهات أخرى[340].

في ما يتعلق بالأطعمة الجافّة، لآنية المائدة الشمال أفريقيّة شكلان من الأطباق (طبْسي) أحدهما أعمق بشكل مخروطي يتميّز على "المشرب" باتساع حافته، أمّا الآخر فهو ذو قاعدة مستوية وحافة أقلّ اتساعا وكثير الشبه بأطباقنا القديمة العميقة التي ليس لها حافـــة. هـــذان النوعان من الأطباق عثر عليهما في مدافن بروتوتاريخية، والحـــال أنّ النـــوع الأول نـــادر الوجود، أمّا النوع الثاني فهو معروف على وجه الخصوص بفضل عدد هامّ منه عثر عليه في جبل قسطل. وبعضها مزوّد برجل قصيرة لم تعد ضمن مكوّنات الأطباق الحديثـــة. هـــذه الأطباق التي لم تُشْوَ على النار تحمل اليوم زخارف وفيرة، مع أنّها بسيطة، إلاّ أنّها تخـــضع لذات القواعد الجمالية التي نجدها في الأطباق والكؤوس القديمة.

---

(339) -Gobert (E.G.), les poteries modelées du paysan tunisien, Rev. Tunis. 1940, pp. 119-198 وعن فخارالقبائل: - Banfet (H.), la poterie des Aït Smaïl du Djurdjura, Rev. Afric. T, XCIX, 1955, pp. 289-340
- Id. les poteries modelées d'Algérie dans les collections du Musée du Bardo, Alger, 1957.

(340) تمّ استخراج عدد من الأقداح من **14** مقبرة، والجفان من **9** والأكواب (Gobelets) من **8** وهي الأشكال الأكثر رواجـــا في الخزف المستخرج من المعالم الجنائزية لكن عددها في كلّ مقبرة أقلّ عموما من الآنية المزينة بخطوط رشيقة انسيابية أو على شـــكل كؤوس لها شكل الآنية الطقوسية. والاستثناء نجده في مقبرة بني مسوس حيث الأكواب بعدد كبير (تمثّل **27** % من مجموع آنيـــة الموقع) التي يبدو أنّها كانت تلعب دور الآنية الطقوسية، في هذا الموقع الدولماني، وهذا الطابع لا يتعـــارض البتّـــة مـــع صـــفتها الاستعمالية، ممّا يسمح باعتبار هذه المقبرة أقدم بكثير وتعود إلى فترة كانت فيها الطقوس الجنائزية لا تميّز بين الآنية المعدّة لاحتواء الأطعمة والآنية البسيطة المعدّة لاحتواء النذر التي لا وظيفة مترلية لها.

من بين الأشكال الأكثر اتساعا هناك نوع آخر من الأطباق ذات الخصوصية في مقبرة قسطل(341)، وهي أكبر من الفخاريات الجنائزية الأخرى وفي قعرها انبعاج حلقي الشكل يظلّ دوره غامضاً ومن بين الفرضيات التي قدّمت في شأن وظيفة هذه الأطباق في نظري هي الفرضية القائلة بأنّ هذه الأطباق مطابقة لآنية طهي الرغيف (طاجين) وهو نوع من التنور الذي لا يزال يستعمل اليوم في طهي الرغيف الجافّ (Pain non levé) والكسرة والرقاق(342)، ويتناسب عدم وجود زخارف في هذه الآنية - وهو طابع عامّ في الآنية المعدّة لطهي الطعام - مع استعمالها. وهو الدليل على أنّ بربر القرون الأخيرة ق. م. كانوا مستهلكين لرقاق الخبز وفطائر الدقيق وهو شيء لا يثير الاستغراب إلاّ عند ذوي الأفكار التائهة بفعل بعض النصوص الأدبية الباهتة(343).



ش. 8 _ أثاث جنائزي من دلمان بني مسّوس، وكل هذه الآنية هي نسخة من الآنية المترلية

(341) وينبغي التذكير أنّ مقبرة قسطل التي تحتوي على حوالي **350** آنية مع أنّها معروفة بأثاثها الجنائزي أكثر، وينبغي أيضا أن لا يعتبر شكل الآنية المكتشفة في قسطل وحده هو اشك النادر، فمن ستّين مقبرة تمكّنا من جرد أثاثها الخزفي **44** منها قدّمت أقلّ من عشرة فخاريات.

(342) ننفي بشدّة فكرة اسطيفان اغزال الذي يرى في هذه الأطباق شبها بمعاليق (Patères) (Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, VI, p. 65) لأنّ شكل حافتها المرفوع وقعرها المحدّب وثقوب التعليق تتعارض وهذا الرأي، كما أنّ هذه الخصائص جميعها لا تزال مستمّرة في الآنية الحالية.

(343) ننفي بشدّة فكرة اسطيفان اغزال الذي يرى في هذه الأطباق شبها بمعاليق (Patères) (Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, VI, p. 65) لأنّ شكل حافتها المرفوع وقعرها المحدّب وثقوب التعليق تتعارض وهذا الرأي، كما أنّ هذه الخصائص جميعها لا تزال مستمّرة في الآنية الحالية.

الرقاق (الكسرة) الذي يكوّن الإعداد الأساسي في الطبخ، لا يزال يمثّل أساس الغـــذاء عند سكّان أفريقيا الشمالية، وهو في الحقيقة الطعام المعدّ الأقدم بعد اللحم المـــشوي وقـــد أظهرت اكتشافات تمّت في إسبانيا أنّه يعدّ بواسطة حجرين مسطّحين يتمّ تسخينهما، وهذا دليل على أنّ السكّان خلال العصر الحجري المعدني كانوا يعرفون طهي الرقاق[344].

يستهلك سكّان أرياف الشمال الأفريقي الكثير من عجائن الحبوب، المعدّة بطرق متعدّدة ولكن مع بهارات كثيرة، ويبدو أنّ البدو أدخلوا "قلي" [*] بذور القمح والشعير، لكن يبدو أنّ العجائن – مثل العصيدة في تونس والروينة و**تاقلّة** (Tagulla) في الجزائر– هي أطباق قديمة جدّاً. والدليل على ذلك استهلاكها دون غيرها في بعض المناسبات الاحتفالية كما هو الحال في الظهرة حيث تقدّم **تاقلّة** في وجبة القربان التي تعلن عن بدء الحرث، وذات الوجبة تقدّم لدى الجميع عشية الانتهاء من مراسم الدفن[345].

الكسكس طعام شهي يتمّ إعداده بطرق متعدّدة ويتطلّب ذلك أواني خاصّة، أولها الكسكاس (Keskès) وهو إناء مخروطي بقاعدة فيها ثقوب كثيرة، يوضع فوق القدر وهو ما يسمح بطهي مرق اللحم، ويوضع الكسكس في الكسكاس حيث يطهى على البخار الذي يتسرب إليه من القدر عبر الثقوب، والمعروف أنّ الكسكس هو طعام قومي في بلدان أفريقيا الشمالية عند المحافظين مثلما هو عند المستعربين، وهو طعام أصيل في بلاد البربر وغير معروف في المشرق حيث يسمّى هناك المغربي. ومن بين الفخاريات المستخرجة من المعالم الميغاليثية والتملوس لم يعثَر على إناء بشكل الكسكاس وبالمقابل هناك آنية متقنة الصنع بقاعدة مثقوبة ولها شكل الكسكاس وجدت في مقابر تعود إلى الفترة الرومانية بالساحل التونسي[345 مكرر] ومهما يكن فإنّه لا ينبغي التشكيك في قدم هذا الطبق لأنّ الإناء الذي يطهى فيه الكسكس غير مصنوع في عديد الجهات في المنطقة الوهرانية على الخصوص من الفخار ولكن من الحلفاء (Sparterie) وهي آنية عرفت خلال فجر التاريخ و كانت تصنع بذات الطريقة المتبعة حاليا من طرف الحرفيين البربر، ويحتفظ قعر الآنية بشكل أسطواني من الحلفاء وعلى ذلك الشكل صنع الكسكاس الطيني[346] .

---

[344] - Prades (H.), Des galettes au calcholithique, B.S.P.F., t, LV, 1958 pp. 157-162.

[*] ولذلك تسمى الحبوب "المقلية" في الطاجين باسم القلية (el guelia) عند البدو المستعربين، وتسمّى في تامازيغت: ثوريفث (Turift) .

[345] - Servier (J.), les rites de labour en Algérie (Région du Dahra et du Moyen Chélif) Journ. De la Soc. Des African. T, XXI, 1951, pp. 175-196.

[345 مكرر] -De CODRAY (de la blanchère) et Gauckler (P.), Catalogue du Musée Alaoui, p. 240, n° 268, et pl. XLII.

[346] **حسْب الآثار المتبقّية، فإنّ صناعة السلال ينبغي أن تكون دقيقة: ولا أعرف بأي ألياف نباتية تمّ لفّها، أمّا المادّة الأساسية فهـــي دون ريب من الحلفا، وفي الوقت الحالي يكون الخيط دائما من الرافيا (Raphia).**

من بين الأكواب ذات الأحجام والأشكال المختلفة، يوجد نمط وُجد في ثلاث مقابر (قسطل، مغراوة ودار بلواعر) وهو قريب من الشكل المعروف في الفخاريات المعاصرة: المثرد المماثل لطبق الفاكهة ذي الأرجل.

آنية فلاّحين

عدد كبير من الآنية مثل الصحون والأكواب وبعض الجفان والأقداح ذوخصوصية هي وجود ثقبين متجاورين عبر حافة الآنية وأحيانا عبر الأرجل، والبعض لها أذن مثقوبة، وكنا قد أشرنا إلى أنّ ثقوب التعليق هذه تعتبر كشاهد في علمي الآثار والإثنوغرافيا[347]، إذ يكفي أن تدخل أي مترل في ريف تونس أو الجزائر أو المغرب الشمالي حتى ترى أغلب آنية الطبخ معلّقة من صحون وجفان وأكواب، فهذه الثقوب البسيطة (لا يمكن لعلم الآثار أن يهمل تفاصيلها بل ينبغي استخلاص نتائج منها) تسمح أيضا بأن نؤكّد على أنّ مقابر قسطل هي لسكّان مستقرّين في بلاد الموسولام.



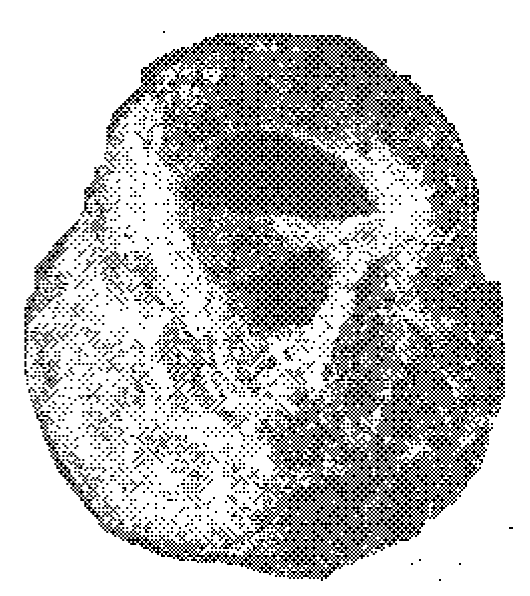
ش. 9 _ الأنماط الرئيسية للآنية المزودة بعنق (Vases à Bec) عثر عليها في مقبرة قسطل .الإناء الأيمن مصنوع بدقّة

من بين الفخاريات المزوّدة بلواحق لا نلحّ كثيرا على الكؤوس والأقداح المزوّدة بمقبض، والأباريق (Aiguières) والقدور المعاد صنعها بذات أشكال وأحجام الخزف الجنائزي. هذه الآنية نجدها ضمن آنية الطبخ الحالية، بل وتوجد الآنية المزوّدة بمقابض أنبوبية الشكل بأعداد كثيرة، أمام نقص في آنية الأكل وآنية الحلْب أو آنية حفظ الزبدة حيث الأشكال والاستعمالات متنوّعة في عموم الشمال الأفريقي (ش. 9).

هناك شكلان نادران لا وجود لهما في الآنية الخزفية المعاصرة، تردّدت في حذفهما من الآنية المترلية البروتوتاريخية رغم ندرهما. والمقصود هنا هو آنية بمصفاة من تيدّيس ومن

(347) - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires, pp. 252-253.

قسطل. الأولى مزوّدة بمصفاة أفقية في نصف فمها وبمقبض مقوّس فوق مصفاتها (ش. 10) والقسم الآخر من الفم يبقى مفتوحا. هذه الصفات مطابقة لآنية تسمح بتصفية السائل خلال صبّه أمّا آنية قسطل المنتمية إلى نمط مختلف معروف أيضا بمغراوة في جهة مكثر (تونس) فإنّ مصفاتها مثقوبة في بطنها، وينتهي السائل الذي يعبرها في شبه فنجان ذي ميزاب يضمن جريان السائل. ويتبيّن من هيئة المقبض أنّ الآنية ترفع إلى الفم مباشرة. هذه الآنية الصغيرة لا أثر لها الآن في آنية المطبخ البربري، وكان قد عثر في في إيطاليا الجنوبية على نمط شبيه بها يعود إلى عصر البرونز[348]، وتبدو ثقوب المصفاة واسعة الشيء الذي لا يساعد على التصفية،ولعلّ ندرة هذا النوع من الآنية يعود إلى أنّها معدّة لترويب اللبن. وقد اقترحنا على سبيل افتراض بسيط أنّها قد تكون معدّة لفصل العسل عن شمعه أو لتحضير بعض الأنقعة أو موادّ تحتاج إلى التغلية، ومن الأهم الإشارة في هذا الموضوع إلى أنّ مقبرة مغراوة حيث استخرج هذا النمط من الفخاريات قريبة جدّاً من جبل وسلات حيث لا يزال يصنَع نوع من العسل الفجّ بطحن الخروب وخلطه بالماء. وهذه المنطقة مجاورة لموطن قبائل القوزنت (Gyzantes) التي كان البعض منها على ما ذكره هيرودوت يقوم بإعداد عسل اصطناعي[348 مكرّر].



ش. **10**_ آنية بمصفاة أفقية من تيدّيس وهو نموذج نادر لا وجود له في الفخاريات البربرية الحالية.

قمنا بهذا الفحص السريع لآنية من النمط المنزلي عُثر عليها في معالم جنائزية، مع الإشارة إلى أنّ موقد الجمر الوحيد اكتُشف في قسطل، وهو بقرونه الثلاثة لا يختلف عن "الكانون" الحالي ولا عن الذي استعمله البونيون.

---

(348) - Ibid. p. 316.

(348 مكرّر) عن جبل وسلات أنظر: - Depois (J.), Le Djebel Ousselat, les Ousseltya et Kooub, Cahiers tunisiens, n° 28, 4e trim., 1959, p. 413 ؛ وعن العسل المصنوع من قبل الغزانت أنظر: Hérodote, IV,194 وتبعا لأودوكس الكنيدي (Eudoxe de Cnide) المذكور من قبل إتيان البيزنطي فإنّ هذا العسل كان من الزهور، أنظر : - Gsell (S.), Hérodote ..., p. 58.

سمحت لنا عديد الآنية الفخارية التي استخرجت من المقابر زيادة على دورها في الطقوس الجنائزية باقتفاء أثر عادات وتقاليد السكّان مع الاختلاف الطفيف في أنماط الحياة وهو ما يبيّن أنّ سكّان المناطق الجبلية من بلاد البربر عرفوا كيف يحتفظون بأقدم التقاليد المتوسّطية.

لعلّ عملية استحضار مشهد تاريخي أيسر من الملاحظة الإثنوغرافية التي تكفي أحيانا بإلقاء الضوء على الإشكالات التي تطرحها الأركيولوجيا. ومن المحبّذ النظر إلى حقائق الحاضر والماضي لريف الشمال الأفريقي لا محاولة شرح الكلّ اعتمادا على بعض تأكيدات الكتّاب القدامى البائسة الذين نعرف أنّهم يفتقرون إلى المعلومات وأحيانا يتعامون عن الحقيقة، على غرار بوليب، فنوميديا قبل ماسينيسا لم تكن لا "**غير مجدية**" ولا "**معتبرة غير قادرة بطبيعتها على تحقيق إنتاج زراعي**"[349]. وكذا أبيان مهما كان رأيه[349 مكرّر]، فالنوميد لا يتغذّون على الأعشاب خاصّة وأنّه منذ قرون وبكل وضوح منذ نهاية النيوليثي كان الفلاحون من السكّان يزرعون قسما كبيرا من المناطق حيث الحبوب تنمو دون سقي وعلى الخصوص في شرقي الجزائر في قلب المنطقة ذاتها التي ستكون مركز مملكة ماسينيسا.

حلي، ملابس وأسلحة

لا ينقل إلينا الأثاث الجنائزي –ماعدا الخزف– أي معلومة عن نمط الحياة ما عدا بعض الأواني الخشبية التي عثر عليها في بعض المقابر التي يسمح موقعها جنوبا بالقول أنّها تعود إلى الرحّل[350]،وقد عثر على أفرشة من الحلْفاء أو قطع منها في معالم نادرة تُظهِر نمط الحياة ذاته. ويتحلى البدو والمستقرّون بالحلي المعدنية(أساور،أقراط، نوط) وهي موزّعة بانتظام في عموم الشمال الأفريقي[351]، أمّا المجوهرات من الأحجار نصف الكريمة (العقيق الأحمر على وجه الخصوص) أو من الزجاج فوجدت جميعها مع اعتبار الفارق عامّة في قبور لم يُعثَر فيها

---

(349) -Polybe XXXVI, 16, 7-8

(349 مكرّر) -Appien, 106, 3.

(350) مثل الأواني المكتشفة في موقع عين احمارة، أنظر :

- Roffo (D^R), Sépultures indigènes antéislamiques en pierres sèches, étude sur les trois nécropoles de l'Algérie centrale, ***Rev Afric***. T, LXXXII, 1938, pp. 197-240

والمكتشفة في ارفود ، أنظر: - Ruhlmann (A.), Recherches de préhistoire dans l'extrême sud marocain, Publ. Du Serv. Des Antiq. Du Maroc, t, V, 1939, p. 46 ;

كما استخرجت آنيتان من خشب من التملوس الكبيرة المجاورة لضريح المدغاسن، ولكن هذا المعلم يكون قد تعرّض للنهب لأنّه كان مقصد الباحثين عن الكنوز، أنظر: - Brunon (Col.), Mémoire sur les fouilles exécutées au Medracen, Mausolée des rois de Numidie, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t, XVI, 1874, pp. 302-350.

(351) - Cf. Camps (G.), op. l, pp. 423-432.

على أي فخارية ما عدا التي في ظنّنا أنّها تعود إلى المستقرّين[352]، وبالمقابل فـــإنّ البـــذور الموضوعة بانتظام في قشر بيض النعام المعروفة لدى القفصيين والتي طوّرها النيوليثيون لا أثر لها البتّة في مدافن الآنية الخزفية؛ ولا توجد شقوف قشر بيض النعام إلاّ في المدافن البونية وفي مقابر دون فخاريات، باستثناء قسطل وعين الباي حيث التأثير البـــوني محـــسوس بوجـــه خاص"[353].

النسيج والجلود

لا نكاد نجد في المدافن البروتوتاريخية ما يزوّدنا بمعلومات عن لباس قدماء البربر، عـــدا بقايا لباس عُثر عليها في أضرحة التملوس الجنوبية، التي يعود بعضها إلى فترة متأخرة. وكذا في قبور بونية في موقع اسميرات[354]. وقد سمحت الملاحظات التي أجريـــت علـــى هـــذه المنسوجات بربطها بتقنيات مستعملة حاليا في أفريقيا الشمالية، فتكرار ظهـــور الأشـــرطة الملوّنة في اسميرات يذكّر بألبسة العامّة الحالية، وبالسترات الفضفاضة التي يرتديها المور تحت جلود الحيوانات حسب سترابون[355].

مشابك الثوب نادرة في مدافن فجر التاريخ، أمّا الأقراط والأحزمة فعديدة، وهـــي في أحيان كثيرة من ضمن الأثاث الجنائزي لرفات جديدة من الفترة الرومانية دفنـــت في ذات المقبرة، ويمكن التفكير في أنّ لباس عموم قدماء البربر كان عبارة عن قطعة قماش مـــستطيلة يلفّ بها الجسم أو قماش مدروز على الكتف يُشدّ على الجسم بحزام كما يبـــدو في هيئـــة زعماء ليبيين في الجداريات المصرية حيث يكون أحد الكتفين دائما عاريا. ومن الممكـــن أنّ ثقبا واحدا في قطعة القماش يمكّن من تمرير الرأس ليجعل منها (قطعة القماش) معطفا يلبس البعض تحته تنورة (Pagne) والبعض يشدّه (المعطف) بحزام، وكانت قطع القمـــاش مزوّقـــة وذات مضامين مختلفة عمّا ألفه المصريون، ولعلّ بعض البقع الملونة المرسومة علـــى خلفيـــة

---

(352) هذه قائمة المقابر التي لم نجد فيها خزف ولكن قبورها تضمّنت حليا : قفصة، قلتة السطل، تلاغ، عين صفراء، بـــني ونيـــف، تروز، بويّة، كما عثر على حلي من زجاج أغلبها استخرجت من مقابر مغراوة، رْفانة، قسطل، بونوارة، عين الباي، أيت راونة التي احتوت على فخاريات أيضا.

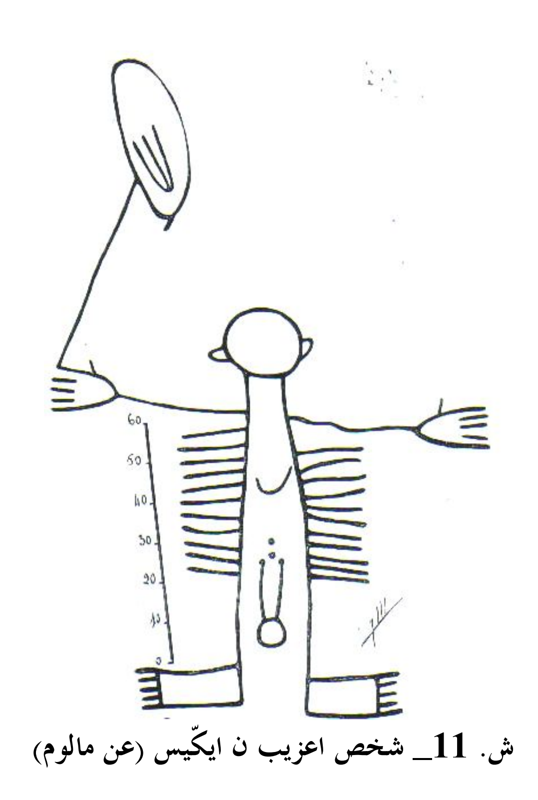
(353) هذه التأثيرات يمكن تمييزها بولسطة نسبة كبيرة من آنية مصنوعة بدقّة وكذا وجود آنية صغيرة بوفرة، بحيث تضمّ مقابر عـــين امارة ، جلفة، قلتة السطل، مغنية، عين صفراءـــ بني ونيف وتاوز حليا من قشر بيض النعام أو قطعا من الأصداف.

(354) Gobert (E.G.)et Cintas P.), Smirat, Rev. Tunis., 1941, pp. 83-121 - كما عثر على قطع من القماش في تملوس بناحية نقرين، أنظر: - Battistini (E.), Note sur deux tumuli de la région de Négrine, Rec. de la Soc. De Préhist. et d'Archéol. de Tébessa, t, I, 1936-1937, pp. 183-195 ؛ وكذا في موقع فم لرجام، أنظـــر: -Jacques Meunié (D.), la nécropole de Foum le-rjam, tumuli du Maroc présaharien, Hespéris, t, XLV, 1958, pp. 95-142.

(355) - Strabon, XVII, 3, 7.

ناصعة هو استمرار لطريقة الباتيك[*] البدائية التي لا تزال مستعملة في بعض جهات أفريقيا الشمالية [356]، وعلى تلك الجداريات ذاتها يبدو الزعماء الليبيون متزيّنين بريشة أو أكثر من ريش النعام مغروسة في شعورهم.

كان بعض الليبيين المجاورين لمصر خلال عهد الدولة الحديثة لا يزالون يرتدون قراب العورة على غرار باقي الشعوب الأفريقية، أمّا في أفريقيا الشمالية فكان ذلك خلال النيوليثي كما تبيّنه الرسومات الصخرية[357]، ولا نعرف متى تمّ التخلّي عنها، أمّا النصوص القديمة فليس فيها أي إشارة إلى أنّ بربر أفريقيا الشمالية كانوا يرتدون قراب العورة.



ش. 11_ شخص اعزيب ن ايكّيس (عن مالوم)

كثيرا ما تظهر الألبسة الجلدية والسترات الواسعة من الأسفل ذات الشراريب في الرسومات الصخرية بالصحراء، يرتديها مربّو الخيول الذين يحقّ لنا اعتبارهم من ضمن مجموعة القرامنت، وقد وصف هيرودوت هذه السترات[358]، معتقدا وجود أصل حماية أثينة فيها، وهذا النصّ الهيرودوتي تدعمه الرسومات الصخرية وحتى السترات التي ظل التوارق

(*) الباتيك هو صنف من الحرير الملوّن على طريقة جاوى.

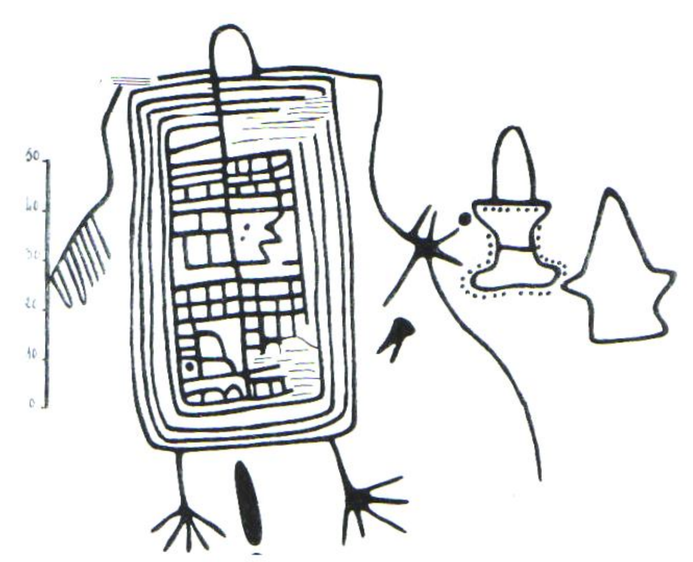
(356) خصّص بيتس فصلا عن لباس قدماء الليبيين في عمله عن الليبيين الشرقيين ص ص **118-141**.

(357) في قعدة الخروبة وفي ثنية الخروبة، أنظر :

- Vaufrey (R.), l'Art rupestre nord-africain, Archiv. De l'I.P.H., Mém. N° 20, 1939, pl. XLVII, et XLIX.

(358) - Hérodote, IV, 189.

يرتدونها إلى عهد قريب[359]، وكذا قطع الجلد التي عثر عليها بالمدافن القديمة بالصحراء[360]، وقد لاحظ اسطيفان اقزال أنّ الألبسة الجلدية كانت إلى الفترة الرومانية سلعة تجارية لأنّها مسجّلة في تعريفة **زاراي** الجمركية[361]،ومن خلال هذا يمكن التفكير في أنّ جلود الحيوانات التي تحدّث عنها الكتّاب القدامى كانت في غالب الأحيان سترات أو معاطف مصنوعة من الجلد، كما ذكر أبو التاريخ هيرودوت وكما أثبتته الملاحظات الإثنوغرافية والأثرية.



ش. 12 _ شخص اعزيب ن ايكّيس يرتدي معطفا كبيرا (عن مالوم)

في فترة أقدم من التي تمّ فيها نقش صور آدمية وحيوانية في الأطلس الأعلى، يبدو أنّ الإنسان لم يكن يرتدي بعد جلود حيوانات فالشخوص المرسومة ترتدي وزرة قصيرة جدّا أو نوعا من معطف مستطيل الشكل وبدائي، كما أظهرت الرسومات الصخرية سلسلة من شراريب تحيط بأجناب محاربين (ش. 11) وأحيانا يغطّي هذا اللباس الجسم كلّه من الكتفين إلى ما دون الركبتين[362] (ش. 12).

ظلّ قِدم البرنوس – هذا المعطف الكبير المزوّد بغطاء الرأس- يطرح إشكالا صغيرا إلى أن تمّ التعرّف من قبل برتيي ولوجار على رسوم صخرية من الفترة النوميدية بجوار أنقاض

(359) - Musée s'ethnographie et de Préhistoire du Bardo, Collections ethnographiques Album n° I, Touareg Ahaggar, pl. VI.

(360) هذه الأكفان أو الألبسة الجلدية تستجيب احتمالا لمعتقدات دينية خاصّة، أنظر : –Camps(G), op, I, pp. 472-474

(361) -C.I.L., VIII, 4508 ; -Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, V, p. 23

(362) - Malhomme (J.), les représentations anthropomorphes du Grand Atlas (Maroc), Libyca. Anthrop. Archéol. T, I, 1953, pp. 373- 385.

بلدة سيقوس[363]، حيث يرتدي الشخوص المُهْدُون أو الآلهة معطفا كبيرا دون كمّ يعلـــوه غطاء الرأس، وقد لاحظ الباحثان أنّ الذراع الأيمن للشخص ترفع أحد جنـــاحي المعطـــف واليسرى تشدّ على الآخر وهو ما يفعله الأهالي إلى اليوم.

سكاكين وأسنّة

الأسلحة نادرة في مقابر الشمال الأفريقي والمسألة واضحة بذاتها عرَضـــيا، فهـــؤلاء الأشخاص الذين تظهرهم المصادر الأدبية الرومانية كمشاكسين ونهّابين وحربيين، لا تذكر أنّهم كانوا مدجّجين بأسلحتهم على غرار السلت والجرمان أو السييت (Scythes) ففيما عدا ضريح الخروب الذي ينسب إلى ماسينيسا والذي يضمّ سيفا ورماحا، وأســـلحة دفاعيـــة[364]، لا يوجد سوى اثنا عشر معلما بروتوتاريخيا من أنماط مختلفة تحتوي علـــى أســـلحة. وهذه الأسلحة هي دائما سكاكين (وليست خناجر) وأسنّة رماح أو رماح، ويبدو أنّ أسنّة السهام المستعملة عند قدماء الشمال الأفريقي لم تكن معدنية، وكان بعضها مـــن الـــصوّان استُخرِج من تملوس زوزفانة، ولا أثر لذلك في الشمال[365].

تتوافق الوثائق الصوَرية مع الكتّاب القدامى والمعطيات الأثرية لأنّ الرمح وتوابعه هـــو السلاح المعتاد لدى النوميدوالمور،على عكس سكّان الجنوب الذين احتفظوابالسهام والقوس الذي كان يستعمله النيوليثيون. ع أنّ القرامنت أو بالأحرى مربّي الخيول وسائقو عربـــات الفزّان وتاسيلي-نَ-اجَّر(Tassili n'Ajjer)كان سلاحهم الرمح.إضافة إلى أسلحة أخرى ممّـــا يسمح بربطهم بالسكّان البربر الشماليين لا بالأثيوبيين الذين كان سلاحهم القوس [366].

إذا كانت الرماح المكتشفة في القبور لا تنطبق بدقّة مع الوصف الذي جاء في سترابون فإنّ ذلك لا يثير العجب لأنّ التناقضات متواترة بين ما يسوقه هؤلاء الكتّاب القدامى وما تقدّمه الأبحاث الأثرية من وثائق، وبعيدا عن الأسنّة إن كانت عريضة أو قصيرة[367] فإنّ الرماح التي استخرجت من تملوس المغرب والجزائر الغربية ذات أسنّة ضيّقة وطويلة، وكلّها مزوّدة بغمد ما عدا أحد الأسنّة القديمة جدّاً من البرونز أو النحاس وجدت في دلمان صغير بموقع المريس بالقرب من طنجة [368].

(363) - Berthier (A.) et Logeart (F.), Gravures rupestres de Sigus, Rev. Afric., t LXXX, 1937, pp. 391-93

(364) - Bonnel, Monument gréco-punique de la Souma, ***Rec. ds Not. et Mém. de la Soc. Archéol***. De Constantine, t, XLIX, 1915, pp. 167-178.

(365) - Gautier (F.E.), Etudes d'Ethnographie saharienne l'Anthrop., t, XVIII, 1907, pp. 36-68,et 315-332

(366) **عن تسلّح الإثيوبيين، أنظر : Strabon, XVII, 3, 7. ؛ في خلال حروب روما ضدّ الرحّل، كان القرامنت دائمـــا علـــى أتمّ الاستعداد للتمرّد (Tacite, Annales, IV, 22) رغم موقع منطقتهم جنوبا خارج النفوذ الروماني لكنهم كانوا جزءاً من العالم ذاته الذي يشكّله رحّل البربر.**

(367) -Strabon, XVII, 3, 7.

(368) -Buchet (G.), Note préliminaire sur quelques sépultures anciennes du Nord-Ouest du Maroc, Bull. de éogh. Hist et descript, 1907, pp. 396-399

يمكن أن تكون السكاكين أدوات بسيطة وليست سلاحا والملاحظ أنّها ذات حدّ واحد مثل الأسلحة البيضاء البربرية المصنوعة في أفريقيا الشمالية(369).

في تلاغ، في مدفن عائلي وبجانب زوجته المزينة بحلي متواضعة من الحديد يحمل الرجل تحت ذراعه سكّينا يفترض أنّه معلّق في سوار من جلد مثل التي يتزيّن بها الباركاي (Barcaei) الذين وصفهم كوريبوس أو مثل تيلاك (Télek) التوارق(370).

لا يكاد الكتاب القدامى يذكرون السيف في عداد أسلحة الشمال أفريقيين قبل العهود المتأخّرة، ولعلّ الوثائق الوحيدة التي احتفظت بصورة أسلحة ذات طابع أهلي هي المعالم الأثرية الكبرى وهي في أغلبها من نوع المنهير، في جهة وادي خنقة، حيث يبدو المحاربون الذين نُقشت صورهم على هذه المعالم مسلّحين بالرمح والسيف ولعلّ الفينيقيون هم من أدخلوها(*)، لأنّ معالم الحفرة تظهر هذه الأسلحة ومعها درع ورمح(371)، كما اكتشف سيف من البرونز في ليكسوس(372)، والخلاصة أنّ الأفارقة يكونون قد تعرّفوا على هذه الأسلحة منذ فترة قديمة جدّاً، أمّا استعمالها فيرجّح أنّه بدأ خلال نهاية العصور القديمة(373).

لم نجد الأسلحة الدفاعية مودعة في المدافن، عدا خوذة ضريح الخروب ودرع مستدير في بعض المعالم البونية أوالنوميدية من جلد الفيل، وهو درع كان سترابون قد نسبه إلى المور والماسيسيل(374).

---

(369) في المقال، للتوراق أسلحة بيضاء ذات حدّين سواء الأسلحة الكبيرة كالسيوف أو الصغيرة مثل الخناجر.

(370) - D[R] Pinchon, Stations de surface et de tumuli de Bossuet et du Télagh (Oran) Congr. Préhist. De France, XIIe session, Toulouse-Foix, 1936, pp. 375-402 (p. 397)
- Corippus, Johannides, II, vers 126-129؛ وعن التيلاك، أنظر : متحف الإثنوغرافيا وما قبل التاريخ، باردو، المجموعة الإثنوغرافية، الألبوم رقم **1**، توارق أهقّار اللوحة رقم **3**.

(*) الحقيقة أنّ المؤلف بالغ في هذه الاستنتاجات غير الموضوعية فكلّ شيء فيه لمسة حضارية يجعلها وافدة على هذه البلاد، والفينيقيون ثمّ الرومان هم من أدخلوها، وإذا حصل ونسب شيئا إلى الأهالي كما يسمّيهم فإنّ ذلك الشيء لن يكون سوى بدائيا.

(371) يوجد أكبر نصب وادي خنقة في حديقة متحف سيرتا (قسنطينة) ، وكان أوغوست فال هو من قام بتصوير ووصف هذه النصب ، أنظر :
-Vel (Auguste), Monuments et inscriptions libyques relevés dans les ruines de Tirkabbine, Rec. des Not. et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t, XXXIX, 1905 pp. 193-227.
وعن نصب الحفرة البونية يراجَع: - Berthier (A.) et Charlier (Abbé R.), Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine, pp. 193-196 et pl. XVII et XVIII.

(372) هذا السلاح لم تؤخذ له صورة، لا أحد أشار إليه سوى سايزمارتان، أنظر : - Martin (Saez), Sobre una supuesta edad del bronce en Africa menory Sahara, Actes di IIe Congr. Panaf de préhist, Alger 1952, pp. 659-662 ، ولم أتمكّن من الحصول على أي معلومة عن هذا السلاح من مصدر آخر.

(373) - Gsell (S.), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t, VI, p. 44؛ من الواضح أنّ السيف التارقي : تاكوبا يستمدّ أصوله من هذا السلاح الذي استعمله الرحّل في العهد البيزنطي، وهو غير سيف القرون الوسطى الذي جاء به المرابطون من أوربا، أمّا التابوكا الحالية فشفراتها مصنّعة في أوربا، أنظر : - De Foucauld (Père ch.), Dictionnaire Touareg-Français, t, II, pp. 726-727 ولكن هذا ليس استباقا في الحكم بغير روية عن أصول التسليح.

(374) هذه التروس مصوّرة في النصب الليبية وعلى الخصوص في جهة القبائل، أنظر :
- Aucapitaine (J.), Ruines romaines à Abizar, tribu des Béni Djennad et les Béni Raten (Kabylie), Rev. Archéol., t, XVI, 1859, pp. 25-31 (p. 25)

الأسلحة المودعة في مدافن الجزائر الغربية والمغرب الشرقي

وُجدت الحلي موزّعة بانتظام عبر مقابر فجر التاريخ في عموم أفريقيا الشمالية، وقــد احتوت هذه المقابر على أسلحة متجمّعة في مدافن البربرية الغربية مــن الــشلف الأدنى إلى الأطلسين الأوسط والأعلى وبدقّة في منطقة حيث الفخاريات قليلة الوجود.

في تونس وفي الجزائر الشرقية أو بالأحرى بلاد الماسيل، عُثر على ثلاثة ســكاكين لا غير، في دوقّة، عين الباي، وفج امزالة، وليس مؤكّدا أنها سكاكين بل يمكن أن تكون مجرّد أدوات بسيطة. ولا أثر للرمح في مدافن فجر التاريخ بهذه المنطقة.أمّا في الجزائر الغربية حيث الحفريات أقلّ، فقد عثر على رماح في مدافن اجْديوية، المطمور والعــين الــصفراء وعلــى سكاكين في كليبر (سيدي بن يبقى) وتلاغ[375]، كما كشفت الحفريات التي تمّت في المقبرة البونية بجزيرة رشقون أيضا على رماح وعلى سكاكين[376]،وفي المغرب-حيــث لا تــزال مناطق كثيرة غير مكتشفة أثريا– عثر على أسلحة في المقاطعات الشرقية: في وجدة، برقنت، تازة، ارفود وتازارين[377]، فهل يمكن أن نستخلص من هذا التعارض بين شرقي وغربي بلاد البربر نتائج بشأن أنماط الحياة والعلاقات الاجتماعية ؟ مؤدّاها سكّان مسالمون في الــشرق يعتاشون على الفلاحة،وآخرون ذوو ميول حربية وأقلّ ارتباطا بالأرض في الغرب؟

لا يمكن اعتماد أيّ من الافتراضين ولو شكليا، لأن المعروف من الكتّاب القدامى ومن الوثائق الأثرية على السواء هو أنّ النوميد في الجزائر الشرقية وتونس كان لهم ذات الأسلحة التي عثر عليها في المدافن المورية، وأكثر من ذلك نجد في سترابون عبارة تكتسي أهمّية كبيرة وهي "... الموريتانيون وجيرانهم الماسيسيل وبصفة عامّة كلّ الليبيين لهم تقريبا ذات العتــاد ويتشابهون فيما سوى ذلك كلّه[378] .

- Boulifa, Nouveaux documents archéologiques découverts dans le Haut Sébaou, ***Rev. Afric***. t, LV, 1911, pp. 16-41 ;
- Chabot (J.B.), Recueil des inscriptions libyques, pl. XI, n° 10 et XII, n° 6.

(375) - Cf. Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 434-436.

(376) - Vuillemot (G.), la nécropole punique du phare dans l'ile Rachgoun (Oran), Libyca, Archéol. Epigr. , t, III, 1955, pp. 7-76 ؛كما عثر على أسنّة رماح في مرسى ماداخ، أنظر :
- Id. Fouille puniques à Marsa Madakh ibid. t, II, 1954 pp.299-342 وعلى أسلحة في مقابر القرنين الرابع والثالث ق.م.في الأندلسيات،أنظر :
-Le Glay (M.), l'Archéologie algérienne en 1954, Rev. Afric., t.XCIX, 1955, p. 215

(377) -Camps (G.), op. i, pp. 434-436. ؛ بالقرب من طنجة في موقع المرياس تمّ اكتشاف سنان رمح بحديدة (Soie) وليس بغمد، من طرف بوشي (أنظر أعلاه الهامش **368**) لكن هذا السلاح من فترة سابقة بكثير لعصر البرونز أو حتّى للعصر الحجري المعدني.

(378) - Strabon, XVII, 3, 7.

ليس لدينا من جهة أخرى – في غياب تحديد كرونولوجي– إمكانية تأكيد أنّ كلّ مدافن الغرب تحتوي على أسلحة كانت معاصرة للمقابر الميغاليثية الكبرى في الشرق. ويمكن القول بحذر إذن اعتمادا على الملاحظة الأركيولوجية وحدها أنّ قدماء البربر في الناحية الغربية كانت لهم طقوس جنائزية مختلفة عن طقوس إخوانهم في الشرق،ففي حين كان هؤلاء الأخيرون يضعون في مدافنهم فخاريات وشيء من الحلي ومعها بعض أدوات الفلاحة[379]، كان سكّان المناطق الأكثر جفافا في الجزائر الغربية وفي المغرب الشرقي وفي تافيلالت، لا يضعون فخاريات في قبور موتاهم إلاّ نادرا ولكن يفضّلون دفن أسلحتهم معهم لتمكينهم من الدفاع ضدّ أخطار الحياة الآخرة. وليس خافيا أنّ انشغالات ثقافية مغايرة تستجيب لأنماط حياة مختلفة يمكن أن تكون هي السبب. والواقع أنّه حينما نبتعد باتجاه الغرب لنصل إلى السهول الخصبة في المغرب الأطلسي تختفي الأسلحة من المدافن وتظهر الفخاريات من جديد وسنوضح ذلك أكثر عند التطرق إلى موضوع أقسام بلاد البربر البروتوتاريخية.

نذر جنائزية وتربية حيوان

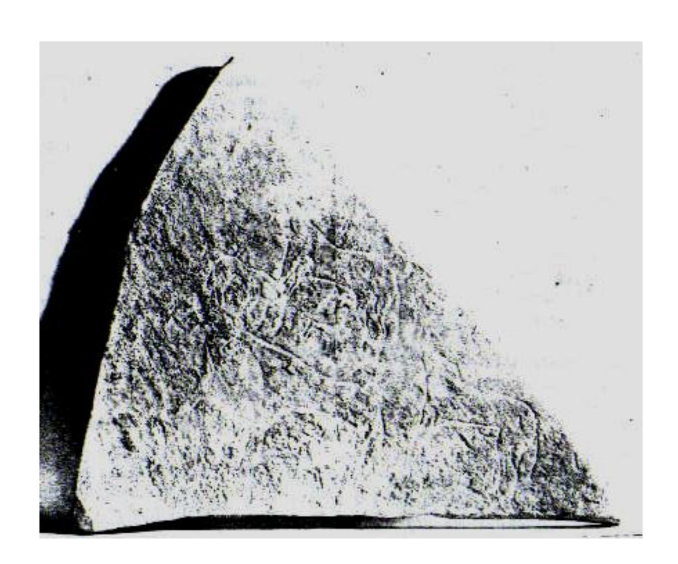
رغم الضعف الملحوظ في طبيعة ونوعية الوثائق التي تبرزها أركيولوجيا فجر التاريخ، فإنها تسمح بالتعرّف عبر الشمال الأفريقي على مجموعات السكّان، هؤلاء مستقرّون مزارعون بالأساس وأولئك رحّل في المناطق السهبية في الجنوب، وفي الأخير مجموعة أخرى في المنطقة الوهرانية وفي المغرب الشرقي يبدو أنّها تنزع إلى الاحتراب وغير مهتمّة كثيرا بممارسة الزراعة، ومن الأهمية بمكان تسجيل أنّ المحراث المسنّن الذي لا يبدو أنّه من أصول بربرية يكون قد دخل المنطقة خلال الفترة التاريخية.

يكون السكّان القدامى للمنطقة الوهرانية والمغرب الشرقي قد عاشوا بالأساس من قطعانهم. وهنا أيضا لا بدّ من فحص محتوى المدافن الذي يمكن أن يقدّم بعض المعلومات فمثلا يحتوي عدد من القبور على بقايا نذر جنائزية في شكل عظام حيوانات فهل كانت تلك النذر غذائية لا غير؟ يوضّح ذلك اكتشاف عظام خيول (ليس هيكلا عظميا كاملا) في عدد من المقابر وهو أمر لا يزال يلفّه الغموض لأنّنا لم نجد في المصادر الأدبية القديمة أي

---

[379] عثر على منجل في دلمان بسيلة من طرف فروبينيوس (Frobenius (L.), Der klein africanisce grabbau. - Praehistorische zeitschrift, 1916, pp. 1-84) وعلى سكّة محراث في تملوس مجاورة لمدغاسن (Cel. Brunon, Mémoire sur les fouilles exécutées au Medracen, Mausolée des rois de Numidie, Rec. Des notices et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t, XVI, 1873-1874, pp. 303-350.) وعلى عدد من الكلاليب وأشياء حديدية مختلفة في عدد من مواقع اشرق الجزائري، فيها الكثير من الأدوات المتعقة بتجهيزات الفرسان.

إشارة إلى أنّ الأفارقة كانوا يتغذّون على لحوم الخيول، وإنْ وجد ذلك فإنّ من المفروض أن يشير إليه هواة الخصوصية المحلية. والخلاصة أنّه من المحتمل أنّ بعض تلك النذر ذو قيمة رمزية لا غير مثل الطيور التي نجدها مرسومة بأعداد كبيرة[380] في المعالم الجنائزية التي تعود إلى القرون الأولى من التقويم الميلادي والتي دخلتها بعض المعتقدات البونية[381].



ش. 13_ رسومات صخرية من موقع جرف التربة يمثل مشهد حلْب

فيما يتعلّق بالقطعان، تظهر صور الخراف والماعز وخاصّة الأبقار، هذا الأخيرة نادرا ما تظهر في مقابر الشرق (تونس والجزائر الشرقية) وتظهر بأعداد كبيرة في الجزائر الغربية في مناطق هي اليوم لتربية الخراف[382]، وقد عثر في جرف التربة على الحدود الجزائرية المغربية غربي بشار على لوحات من الجير في تملوس بها الكثير من النقوش الصخرية ذات أسلوب ممتاز؛ إحداها تصوّر مشهد حلب مهمّ للغاية (ش. 13) يظهر فيه عجل إلى جانبه بقّار في ذات الوضعية التي يكون فيها رعاة الشمال الأفريقي اليوم كما لاحظ ذلك اسبيراندو وهو أنّ الأبقار الأهلية لا تستسلم للحلب إلاّ إذا كانت عجولها بجانبها [383].

تكمن أهمّية هذا المشهد إذن ليس في إظهار قدم تربية الحيوان في الشمال الأفريقي في مناطق جافّة اليوم مثل جرف التربة ولكن أيضا في إظهار ثبات تقاليد تربية الحيوان منذ القديم إلى الآن عند المربّين البربر.

---

(380) - Camps (G.), op. L, pp. 513-514

(381) على الخصوص في نصب مكثر، عين برشوش والكاف، أنظر: - De Coudray (de la blanchère) et Gauckler (P.), Catalogue du Musée Alaoui, 1897, p XVIII, XXI et XXII.

(382) توزيع القبور التي تحتوي على نذر من لحوم الأبقار : تونس : لا شيء. الجزائر الشرقية: عين امحارة، الركنية، سيلة، راس العين بومرزوق. الجزائر الوسطى: قمة القردة. بني مسّوس. الجزائر الغربية: جبل مناهوم. خربة بوزيان. معسكر. عين لحجر. عين صفراء. المغرب: وجدة. القور. بناسا.

(383) - Espérandieu (G.), Remarques au sujet de figurations d'animaux domestiques provenant de Djorf Torba (Sud Oranais) et conservées au Musée du Bardo (Alger), ***Libyca***, Anthrop.Préhist.Ethnogr.,t, I,1953, pp.181-197, (p.195).

ما يؤسَف له حقّا – مثلما هو في جميع الحالات التي تجد فيها الأركيولوجيا البروتوتاريخية نفسها في إشكال– هو استحالة إعطاء تاريخ دقيق لهذه الوثائق. فوجود خيول بعدد هامّ في جرف التربة يحمل دلالة صُوَرية على أنّ تلك الرسومات الصخرية تعود إلى فترة تالية لبداية الألف الأولى ق.م. كما أنّ صور شخوص مسلّحين برماح وبجانبهم كتابات ليبية يدعونا من جهة أخرى إلى إعطاء تاريخ متأخّر لهذه الوثائق، ومن الأهمّية بمكان أيضا الإشارة إلى أنّ هذه الجداريات كما يبدو أحدث من النقوش الصخرية، وأكثر من ذلك حسب اسبيرانديو يمكن أن تكون تلك الخيول شرقية وليست بربرية وهو ما يجعلنا نعتبر تلك الصور والرسومات أحدث[384]. لكن بالمقابل هناك تفاصيل أخرى تعطي لهذه الوثائق طابعا أقدم لا جدال فيه، وحينئذ تكون الظروف البيوجغرافية المختلفة هي التي تثبت أنّ تربية الخيول والأبقار ممكنة في هذه المناطق.

من حقّنا أن نعتبر على ضوء وثائق جرف التربة والعظام المستخرجة من المدافن البروتوتاريخية أنّ تربية الأبقار – التي كانت بأعداد معتبرة خلال النيوليثي في مناطق هي الآن صحراوية – كانت إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد واسعة الانتشار حتّى في المناطق الواقعة إلى الجنوب من العين الصفراء وعين الحمارة.

نعرف من خلال بول اوروز أنّ الليبيين المجاورين لإقليم قرطاج كانوا يمتلكون أعدادا كبيرة من الأبقار وقد سلب منهم هاملكار خلال غزوه لهم منتصف القرن الثالث ق.م. عشرين ألف رأس[385]، وإذا لم يكن في عداد الأشياء التي يدفنونها مع موتاهم كميات من لحوم الأبقار أو أنّهم لم يفعلوا ذلك إلاّ نادرا فليس مردّه إلى أنّهم لا يربّون الأبقار ولعلّ السبب هو تحريم غذائي حمى هذه الحيوانات التي هي أولا وقبل كلّ شيء معدّة للحرث ولذلك تكتسي طابع قدسية في تلك المناطق.وقد أشار هيرودوت إلى أنّ ليبيي قورين يمتنعون عن أكل لحم البقرة إجلالا للإلهة إيزيس(أو بالأحرى إيزيس–حتحور)[386]،لكن لا أرى أنّ بالإمكان وضع هذا الامتناع في خطّ يوازي ندرة النذر من الأبقار في مدافن المنطقة الشرقية.

في جميع الحالات بعيدا باتجاه الغرب لا وجود لما أشرنا إليه، فقد لعبت تربية الأبقار والحالة هذه دورا كبيرا في التغذية، ولكن هذا الاستنتاج يستند إلى المسلّمة المقبولة في بداية هذا الفصل وهي أنّ ما هو صالح للموتى هو أصلح بالضرورة للأحياء.

---

(384) Id. l,l, p. 191 -؛ **هناك عديد الرسومات الصخرية على امتداد المنطقة ما بين مصر، ليبيا إلى الجنوب الجزائري تبيّن في الواقع أنّ الحصان الشرقي أو الآري المسمّى خطأ الحصان العربي جاء إلى أفريقيا الشمالية بعد الحصان البربري ولكن قبل الفتوحات العربية.**

(385) - Paul Orose, Adversos, IV, 3, 9, Cf, supra p. 40.

(386) - Hérodote, IV, 186.

عُرفت تربية الخراف منذ النيوليثي، فقد عثر على عظام خراف في مدافن موزّعة أيضا عبر بلاد البربر ولكن عددها يبقى ضعيفا، لا يزيد عن ثمانية(387) حسب التنقيب الأثـري، وليست بقايا الأبقار بأكثر من ذلك بكثير، وما اكتشفه الأثريون لا يزيد عـن 14 بمـا في ذلك بقايا في شكل قطع وأخرى لم تنشر عنها تقارير أثرية، ومن الأهمّية بمكان الإشارة إلى ضعف هذه الأرقام عموما، بالقياس مع السكّان الذين تبرزهم الروايـة التاريخيـة الأدبيـة مكوّنين بالأساس من رعاة !

لا غرو أنّ الصيد يضمن توفير قسط هامّ مـن اللحـم كغـذاء لقـدماء الـشمال الأفريقي(388)،فما الذي يمكن العثور عليه في مدافنهم لإثبات هذا التأكيد؟ هنـاك عظـام حيوانات عاشبة غير محدّدة منها الوعول والغزلان وجدت في ثلاثة مواقع بالكـاد (عـين الحمّام، قمّة القردة والعين الصفراء) عظام وقرون غزلان في بازينا بالجلفة، وفي تملوس بوجدة واحتمالا في مفتاح (Rivet) عظام أرانب برّية قد يكون جيء بها عرَضاً من العين الـصفراء وبناسا وإراديا في دوسن (389).

والحال أنّ ندرة الأغذية الحيوانية على الخصوص في البربرية الشرقية لم تمنع قدماء الأفارقة من وضع فخاريات في مدافنهم، التي تضمّ على الأقل طعام الموتى، وفي وقت لاحق ستتحوّل تلك الفخاريات إلى رمز للنذُر الغذائية قبل أن تصبح أشياء نَذْرية أو طقوسية بسيطة، ومهما يكن الأمر فإن الأقداح والجفان والأطباق والأكواب مناسبة تماما للأطعمة الأساسية المكوّنة من العجائن التي لا تزال إلى اليوم أساس غذاء الريفيين الشمال أفريقيين (390)، والملاحظ أنّ الصور المستوحاة من المدافن البربرية المعاصرة لقرون قرطاج الأخيرة بعيدة بصفة غريبة عن صورة أخرى من ذات الفترة، هي صورة ذلك النوميدي أو الموري على صهوة جواده الذي لا يكلّ، وهو يركض خلف حلم قديم ومتلاشٍ عبر الفيافي المقفرة! إنّها خفّة الفرسان والمشاة النوميد خلال الحرب مثلما هي في حياة الترحال خلال السلم.

بصمات تنظيم اجتماعي

تسمح دراسة الطقوس الجنائزية بالتعرّف على وجود سكّان مستقرّين، مزارعين في مختلف جهات الشمال الأفريقي، وعلى الخصوص في القسم الشرقي منه الذي يطابق بلاد الماسيل، وأيضا في سهول المغرب الأطلسية حيث تمركزت القوة المورية.

(387) في بولة ريجيا (تونس) عين احمارة، بونوارة، عين الباي (الشرق الجزائري) أيت راونة، ريفي، جبل مناهوم (الوسط والغرب الجزائري) القور (المغرب).

(388) - Gsell (s.), H.A.A.N., V, pp. 169-173.

(389) في خندق بتملوس هذا الموقع عثر على 12 أرنب بري محيطة بهيكل عظمي لامرأة دفنت في وضع امتداد على الظهر ، أنظر :
- Rethault (E.), Les Djeddards du Sud Constantinois, Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, t, XXXVII, 1932, pp. 475-589.

(390) الدراسة المفصّلة في هذا الموضوع هي المساهمة القيّمة للدكتور قوبير التي قدّمها ضمن البحث الذي افتتحه معهد باستور، تونس، ج XXIX ، **1940** ص ص **475-589**.

تقدّم الأركيولوجيا البروتوتاريخية أيضا الدليل على وجود بنية اجتماعية متطوّرة، بحيث يقتضي بناء قبور بأبعاد معتبرة وجود تجمّع هامّ جدّا من العمال متطوّعين أو مسخّرين، رعايا أو أسرى مجنّدين لتخليد ذكرى طاغية !

المدافن الكبرى في الغرب (المغرب)

إنّ الأشخاص المتجمعين ضمْن عشيرة أو عائلة كبيرة لهم دائما رؤساء، وذوو القوّة دائما في مقدورهم امتلاك قصور حقيقية ومقامات خالدة تضمّ رفاهم، ولا يمكن أن تصرفنا الأبعاد الاستثنائية عن حقيقة بعض المدافن الركامية (Tertres) في الشمال الغربي للمغرب ومنها المدفن الواقع في سيدي سليمان الذي يعود إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث محيطه قبل هدمه 47 م ولكنه أقلّ فخامة من ضريح امْزُورة الذي من المؤكّد أنّه أقدم منه [391]، ولا يقلّ محيطه عن 56 م ، وهناك آخر في منطقة الغرب في موقع بوميمون محيطه 100 م وعلوه الحالي يصل 16 م وآخر أيضا في نفس المنطقة بشكل مستطيل طوله 90م وعرضه يتجاوز 30م وعلوه 8م [392]، ولا يمكن أن يكون الأشخاص الذين شيّدت لهم هذه المعالم مجرّد زعماء قبائل ومن المؤكّد أنّهم كانوا على رأس كنفدراليات قبلية قويّة بل على رأس ممالك كانت قد نشأت في المغرب منذ القرن الرابع قبل الميلاد على الأقلّ.

في قلب المدينة ذاتها التي ستصبح إحدى عواصم يوبا الثاني والمغرب الروماني من بعده، في فولوبيليس (Volubilis) توجد تملوس ضخمة محيطها 40 م بعلو خمسة إلى ستة أمتار، يبدو أنّها كانت قطبا جذّاباً لسكّان المنطقة، في فترة سابقة لتشييد المدينة[393]، ولأهمّية الشخصية المدفونة تحتها ظلّ هذا المعلم محل احترام الناس –احتمالا لوازع ديني– إلى الفترة الرومانيـــة، وعوض إزالته فضّل المهندسون الرومان الميل بالقناة المحمولة التي تعبر المكان وتركوا الفـــضاء المحيط به وكذا قمّته غير مشغولة طيلة القرنين الأول والثاني.

مدغاسن

بغضّ النظر عن قبر الرومية الذي شيّد في أعقاب فترة ماسينيسا[394]، فـــإنّ الـــشرق الجزائري هو الذي يضمّ معالم جنائزية بأحجام موازيـــة لمثيلاتهـــا في المغـــرب الأطلـــسي.

---

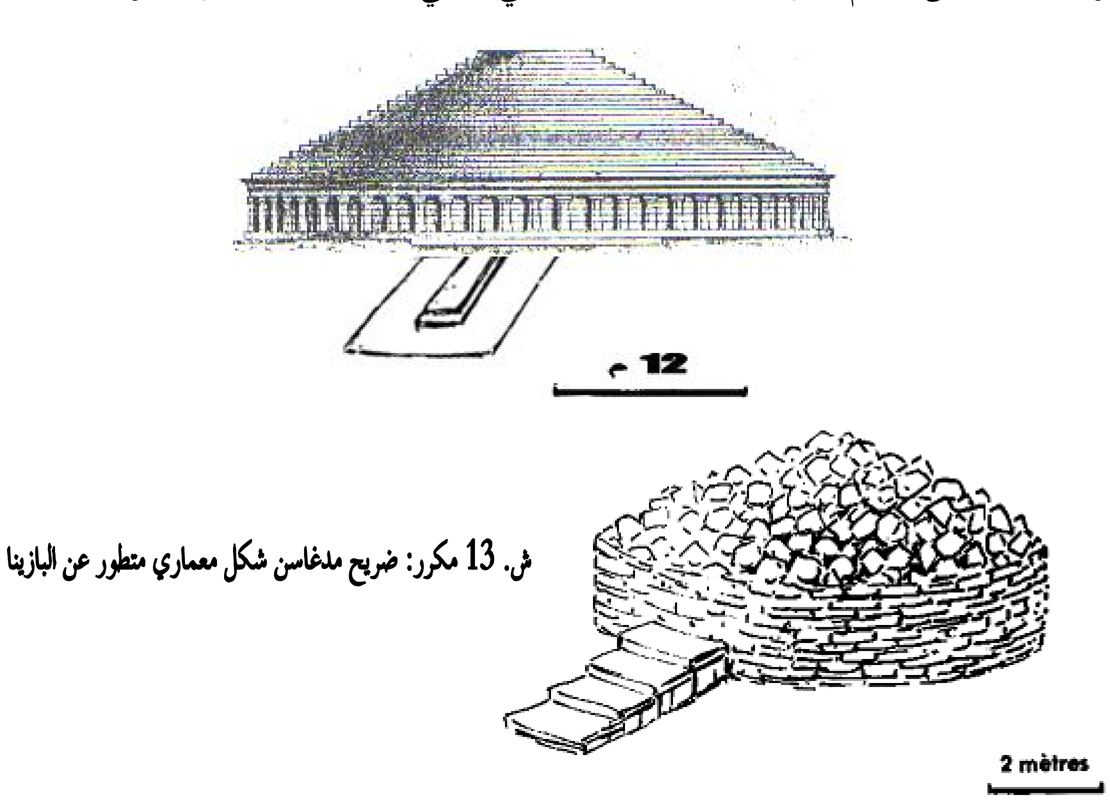
(391) يبدو أنّ مقبرة مْزورة يحتمل أن تكون القبر الشهير لأنتي الذي أجرى فيه سرتوريوس حفرية، أنظر:
-Cf. Plutarque, Sertorius IX ; - Strabon VII, 3, 8.
وهي مقاربة قدّمها كوهلر، أنظر: -Koehler (P.), La civilisation mégalithique au Maroc, B.S.P.F., t, XXIX, 1932, pp. 413-420.

(392) هذه القياسات قدّمها سوفي، أنظر : -Souville (G.), Principaux types de tumulus marocains, Ibid., t, LVI, 1959, pp. 394-402.

(393) -Euzennat (M.), Le Temple C de Volubilis et les origines de la cité, Bull. d'archéol. Maroc, t, II, 1957, pp. 41-53

(394) - Gsell (s.), H.A.A.N., VI, p. 268. ؛ المعروف أنّ بعض المؤلّفين يريدون جعْل هذا المعلم هو قبر يوبا الثاني : - Cf. Christole (M.), Le Tombeau de la chrétienne, Paris 1951؛ولا داعي لذكر جدّارات منطقة فرندة التي لا يتجاوز أقدمها القرن الخامس الميلادي :
-Cf.Cadenat(P.), Vestiges paléo-chrétiens dans la région de Tiaret, Libyca, Archéol. Epigr., t, V,1957, pp.77-103.

المدراسن* هو ضريح بني على نموذج بازينا بقاعدة اسطوانية محيطها 59 م ، ويرجعه اقــزال إلى القرن الثالث ق.م. (395)، ومن المؤكّد أنّه تطلّب وسائل أخرى فوق ما تطلّبته المـــدافن المغربية. فهو أقلّ وحشية ودون شكّ أحدث منها. لا يمكن تشييده بتلك الــضخامة إلاّ إذا كان لملك أو لعائلة حاكمة على صلة بالقرطاجيين**. تقع بجواره سبخة كان اسمها خـــلال الفترة الرومانية : البحيرة الملكية (Lacus regius) والمعروف أنّ المعلم يستمدّ اسمه الحالي مـــن أحد الأسلاف الأسطوريين للبربر وهو مادغس (396)، فهل كان الأمير الذي شيّد له هـــذا المعلم يبسط نفوذه على مملكة حقيقية تغطّي الشرق الجزائري والغرب التونسي – يحقّ لنا أن نسميها المملكة الماسيلية– أو على الأقل فرض قوّته في معارك مظفّرة عديدة. أم أنّه حكـــم لفترة وجيزة و لم يطل الحال بسلالته. أمّا من حيث موقع المعْلم فيبدو أنّه خـــارج مركـــز المملكة بالنسبة لما نعرفه عن الأقاليم الماسيلية في الفترة السابقة لماسينيسا(397)، لكن المقـــبرة المجاورة للمدغاسن تدعم فكرة أنّ السلالة الملكية التي ينتمي إليها حكمت فترة أطول.



ش. 13 مكرر: ضريح مدغاسن شكل معماري متطور عن البازينا

(*) المدراسن هو الصيغة التي كتب بها اسم هذا المعْلم Medracen وهو في الأمازيغية بصيغة مدغاسن، ومن الخطأ إضـــافة همـــزة في أوله كما يريد البعض لأنّ الأعلام القديمة التي على وزنه لا تتضمّن هذه الهمزة مثل: مكوسن، قولوسن، ماسنسن ... ولكن آخر اسم على هذه الصيغة وهو إغمراسن وهو اسم مؤسّس الدولة الزيانية يتضمّن الهمزة في أوله، وكُتب أيضا يغمراسن بالياء في أوله في العربية.

(395) - Gsell (s.), H.A.A.N., VI, p. 270.

(**) مثل هذا النوع من الافتراضات والتأويلات التي لا تستند على أيّ دليل سوى الأحكام المسبقة هو الذي صاغ التاريخ المزوّر لأفريقيا الشمالية.

(396) - Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, trad., par De Slane, t, I, pp. 168 et 181.

(397) - Cf. Infra, pp. 175 et 183.

هل تعود البازينا الكبرى ذات الامتداد الكبير في جبل ميمل (Meimel) (ناحية عين امليلة) إلى فترة سابقة حقّاً. هذا المعلم الهامّ ليس معروفا في الواقع[398]، محيطه ليس أقلّ من 70م ، إلى جانب مدفنين (Tertres) كبيرين محيطهما على التوالي 53 و 55م في وادي مسكيانة أجرى فيهما دبروج حفريات لم توصله لشيء [399].

ما بين تملوس المغرب الأطلسي الكبرى وتملوس الجزائر الشرقية لا نجد أي معلم يمكن أن ينسَب لأمير أو زعيم سابق لماسينيسا، وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام لأنّها تتطابق مع ملاحظات أخرى كنّا قد سجلناها في موضوع المقابر البروتوتاريخية والأثاث الجنائزي، فالجزائر الوسطى والغربية والمغرب الشرقي تشكّل فجوة حقيقية بين منطقتين حيث تكوّنت نواة ممالك يعمل سكّانها بالزراعة، ولذلك ليس مفاجئا أن نجد في هذين المنطقتين – اللتين لا تزالان ناطقتين باللغة البربرية في أجزاء كبيرة منهما- المحراث الزاحف الذي نعتبره كنموذج للمحراث البربري الأصيل الأكثر قدماً.

المقابر الكبرى في البربرية الشرقية

تحمل المقابر الميغاليثية في المنطقة الشرقية أيضا دلائل على وجود تنظيم اجتماعي متطوّر إلى حدّ معتبر لا يعود إلى التملوس الممتدّة في المنطقة الوهرانية ولا للمدافن الكبرى في المغرب الأطلسي، بل تكشف عنه تلك المقابر الشاسعة التي تضمّ آلاف الدولمان التي تفترض في الواقع وجود تعمير بشري كثيف ونوع من الاستقرار السكّاني وأطر اجتماعية. إنّها مقابر قبائل أو كنفدراليات قبائل يبدو لي أنّها شكّلت القاعدة الأساسية العميقة لمملكة ماسينيسا التي ستتأسّس مستقبلا في هذه المنطقة.

الفلاحة إذن كما كانت تمارَس في تازبنت تتطلّب تنظيما اجتماعيا متينا يساعد على تيسير وتشجيع التنمية في المملكة الماسيلية.

إذا كانت المدن لا تزال قليلة والتجارة مقتصرة على مبادلات عفوية بين المناطق السهلية والجبال فهناك بعض العلاقة مع خارج البلاد أي مع المصارف الفينيقية على السواحل والدليل على ذلك نموذج لأبي الهول من البرونز (ش. 14) الذي يعود حسب نمطه إلى القرن الرابع ق.م. عثر عليه في تيدّيس[400]، وشقوف من الفخار البوني يعود إلى القرن

[398] وصف هذا المعلم بإيجاز من طرف جولي و جولو ، أنظر :
- Joly (A.) et Joleaud (L.), Ruines et vestiges anciens relevés dans la province de Constantine, Rec. des Not. et Mém. De la Soc. Archéol. de Constantine, t, XLV, 1911, pp. 19-36 (p. 29).

[399] - Debruge (A.), La bazina de Dalaa à la Meskiana, Ibid., t, LXII, 1934, pp. 219-224.

[400] - Gsell (s.), H.A.A.N., t, IV, p. 233. et t, VI, p. 83

الرابع أيضا استخرج من ضفاف الشلف[401]، وأخيرا في سيرتا كانت هناك جالية فينيقية متمركزة منذ القرن الثالث ق.م. على الأقل [402]، وفي نفس الفترة في المغرب وتحت تأثير مشترك إيبري بوني تمّ تطوير نوع من الخزف الخاصّ وجدت نماذج منع في الطبقات الأعمق في بناسا وفولوبيليس وحتى في المدافن الكبرى في ناحية الغرب[403].

هكذا بشيء من الخجل كانت بلاد البربر تستعدّ لولوج المسرح الكبير للتاريخ المتوسّطي.



ش. **14** _ اسفانكس من البرونز، من تيدّيس

401 - Boulaine (J.L.G.), Etude des sols et des plaines du Chélif, Alger 1957, pp. 85 et 365, pl XI.

402 - Berthier (A.)et Charlier (Abbé R.), Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine, Paris 1955, p. 231

403 عن الفخاريات المسمّاة فخاريات بناسا أنظر : - Euzennat (M.), Rapport sur l'archéologie marocaine en 1955 B.A.C. 1955-1956, pp. 97-215

- Souville (G.), Principaux types de tumulus marocains, B.S.P.F., t, LVI, 1959, pp. 394-402

القسم الثاني

عهد ماسينيسا

أ ـ من شعوب فجر التاريخ إلى الممالك التاريخية

الطابع الإقليمي في بلاد البربر البروتوتاريخية

تبيّن الأركيولوجيا أكثر من النصوص – التي لا تقدّم لنا للأسف سوى أسماء في غالب الأحيان خالية من المضمون– أنّ أفريقيا الشمالية لم تعرف وحدة سياسية أو ثقافية خلال الفترات قبل التاريخية والبروتوتاريخية وحتى خلال العصور التاريخية.

لا مراء في وجود وحدة جغرافية في بلاد الأطلس التي هي بلاد متوسطية أكثر منها أفريقيّة، كما توجد أيضا وحدة عرقية تثبتها لهجات اللغة البربرية، وهي لهجات مجزّأة ومفصول بعضها عن بعض حاليا، مقلّصة في مناطق محدودة، ولكن تنحدر كلها من لغة قديمة ما هي إلاّ اللغة الليبية التي ظلت لغة البلاد على امتداد القرون قبل الميلاد[404].

هذه الوحدة العرقية لم تحقّق عبر التاريخ وحدة إقليمية أوسياسية ماعدافي بعض العقود إلى نهاية القرن XII الميلادي تحت الحكم الموحّدي،فما هو السبب وراء هذا العجز الإقليمي ؟ هل هو عرقي؟ كلاّ لأنّ المصريين سرعان ما كرّسوا سياسيا وحدة جغرافية لوادي النيل. هل هو جغرافي؟ لا يبدو ذلك من أول وهلة لأنّ التضاريس ذات اتجاه عامّ شرق–غرب. تشجّع على الاتصال من هذا الطرف إلى الآخر، كما أنّها لا تمثّل اختلافات مناخية كبيرة.

هل يمكن اعتبار الجغرافيا هي المسؤولة عن هذا الانقسام الذي يعزوه البعض للإنسان، فبلاد البربر ليس لها ذلك القلب الحيوي القادر على أن يجمع من حوله المقاطعات المحيطة به،

---

(404) أعطى هيرودوت بعض الأسماء الليبية (Hérodote IV, 155, 192) وسجّل اقزال قائمة من خمسة عشر كلمة ليبية أو يعتقَد أنها كذلك، كما نقلها إلينا الكتّاب القدامى (Gsell, H.A.A.N., T, I, pp. 312-313) ويرى أنّها ليست كلها ليبية وأن بعضها بوني ويرى أيضا أن فئران التلال (Zegereis) تستمد اسمها من اللغة البونية في حين أن هذا الاسم ذو نغمة بربرية لا نقاش فيها، ويمكن ربطها بالمصدر أزوقاغ Azugagh (أحمر) أو الجذر أزقـــــرار A zegrar (طويل) ومن الواضح أن الاسم قريب في صيغته من اسم القبيلة المورية زقرنسي (Zegrensii) (Ptolémée IV, 1, 5) ومن غير المقبول الأصل التراقي لاسم الثعلب أو بالأحرى الفنك : بساريا (bassaria) الذي يرى اقزال أن إغريق قورين هم الذين أدخلوه، ثم تبناه الليبيون إلى حدّ أنّ اللغة القبطية إلى حد اليوم تستعمل ذات الاسم للدلالة على نفس الحيوان. فلماذا يكون إغريق قورين الدوريون هم من أدخلوا الاسم التراقي في حين أن لغتهم ولغة الليبيين لكلّ منهما اسم خاصّ لنفس الحيوان.

تجولنا في أسماء الأماكن والأشخاص القدامى في تسميات أخرى أقرب من البربري وردت في اقزال وفي مرسيي وفي بلقران، أنظر : - Gsell (S.), *H.A.A.N.*, t. I, pp. 316-317.

- Mercier (G.), la langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, Journ. Asiatique, 1924, pp. 189-320.
- Pellegrin (E.), Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, Tunis 1953.

وتسمح النصوص الأثرية المزدوجة أيضا بالتعرف على عشرات اسماء الليبية ، أنظر :

- Février (J.C.), Que savons-nous du Libyque ? Rev. Afric., t, C., 1956, pp. 263-273

وما بين البلاد المستقبلة جهة المتوسط الشرقي والأخرى التي على ضفاف الأطلنطي تبـــدو المنطقة الساحلية هي المنطقة الحيوية ولكن ما هي إلاّ شريط ساحلي مقطوع بالجبال والباقي ركام من السهول العليا أو هضاب سهبية صالحة لأن تكون طرق عبور تـــسهّل للفـــاتحين المرور، وتشكّل المسافات المعتبرة بين المنطقتين المتميّزتين –عندما تريد هذه أو تلـــك فـــتح مجموع البلاد– خط امتداد متّصل، على أنّ الخصوصية الإقليمية تشكّل حاجزا ممّا يفْــشل تلك المحاولات إن لم تكن مسنودة من الخارج[405]، وحتّى عندما تنجح قـــوة أجنبيـــة في توسيع نفوذها في مجموع أفريقيا الشمالية، سواء الرومانية منها أو العربية أو الفرنسية يكون من المفيد لها أن تراعي تلك الخصوصيات أي الخصائص التي تميّز كلّ منطقة.

إذا كانت الحدود غير ثابتة عبر القرون، وإذا كانت الأسماء تتغيّر تبعا لمجريات التاريخ فهناك دائما بربرية شرقية يصل أقصى امتداد لها إلى الحضنة وإلى البابور، وبربرية وســـطى يحدّها غربا وادي ملوية والأطلس الأوسط، ثمّ بربرية غربية حيث السهول الأطلسية والجبال الأطلسية الكبرى الممتدّة بانتظام.

يضاف إلى هذا التقسيم –القائم على التقابل ما بين الجهة الشرقية والجهـــة الغربيـــة– قسم آخر تولّد من التناقض ما بين بلاد مطيرة(سهول ساحلية وجبال)تسمح بحياة الاستقرار ،ومناطق جافّة حيث البداوة الرعوية فرضت نفسها كنمط حياة وحيد منذ فجر التاريخ.

هذه الفوارق القليلة لا تؤثّر كثيرا في حقيقةٍ ذات حركية مضطّرة. فبـــسبب الغـــزو والفساد السياسي لا تتوافق في الواقع أنماط الحياة بدقّة، مع الظروف المناخية والطوبوغرافية المتاحة، وهذا لا يمنع والحالة هذه من كوْن هذه الأجواء المختلفة في بلاد البربر ما فتئت تنوء بثقلها على مصير هذا البلد.

منذ فجر التاريخ تمثّل بلاد البربر خصوصية محسوسة جـــدّاً تبعـــا لدراســـتنا للـــبلاد المتوسطية الشرقية والوسطى، المناطق الأطلسية في الغرب، والفيافي السهبية الـــشاسعة الـــتي تربطها بالقارّة الأفريقية، ليبيا بواجهاتها الأربع، تلك البلاد الآهلة بالمازيس[406]، كانت قد انفتحت في ظروف متغيّرة على مصائر متشعّبة ومتضاربة.

---

[405] في الحديث عن أفريقيا الرومانية، عن أفريقيا الشمالية الفرنسية أو المغرب العربي، نلحّ على استعمال اسم بلاد البربر ونفضّله لأنه الأدقّ في التعبير عن الوحدة الإثنية التي ترسم الإطار لبلاد الأطلس.

[406] أعلاه ص ص**24–28**.

البربرية الشرقية

كانت البربرية الشرقية على علاقة مباشرة مع المتوسط الشرقي منذ النيوليثي، وخاصّة مع جيرانها القريبين مثل صقلية وقد كانت الجزيرة الصغيرة بانتيليريا (Pantelleria) محطّة تنقّل هامّة بين الضفّتين كما ارتبطت بعلاقات مماثلة مع سردينيا، وقد انتقل عبر الجزر وجنوبي شبه الجزيرة الإيطالية نوعان من المقابر المتميّزة وبعض الأشكال الخزفية والفخاريات المزخرفة في الشكل الذي لا تزال عليه إلى اليوم عند الكثير من السكّان الريفيين(*).

بلاد "الحوانيت"

تتميّز البربرية الشرقية - وعلى الخصوص منطقة الرأس الطيّب (Cap Bon) والبلاد الواقعة شمالي المجردة وقسم من الجزائر يقع ما بين الحدود والسيبوس- بالقبور المحفورة في الصخر في منحدرات الجروف أو في كتل صخرية معزولة. وهي القبور التي أطلق عليها الأثريون اسم "حوانيت"، ويعود تاريخ هذا النوع من القبور في صقلية وسردينيا إلى عصري البرونز والحديد. أمّا في أفريقيا فإنّ هذا النوع يوجد في المناطق الداخلية أيضا في جهات دوقّة وتبسّة وقسنطينة، مع أنّ أغلبها يوجد في المناطق الساحلية (**).

نرى هذا على امتداد الساحل إلى المغرب، ولعلّ هذا التوسّع نحو الغرب كان متأخّراً واحتمالا هو من عمل البونيين، وبعض الحوانيت يعود إلى الفترة المسيحية في تيبازا وهذا الموقع الساحلي محسوس بوجود مقابر مماثلة في جزر لاقاليت (La Galite)، في المنستير وفي جربة بتونس، ويجعلنا تمركزها في شمال تونس وعلى الساحل نفكّر في أنّ هذه الحوانيت من أصول فينيقية، وهو افتراض يستند من جهة أخرى على وجود قبور سردابية في كل البلاد المطلّة على المتوسّط الشرقي من قيليقيا إلى مصر.

في الواقع تبرز المقابر الشمال أفريقية هذه دخول ثقافات شرقية سابقة للفينيقيين فمن صقلية عبرت الحوانيت إلى تونس وإذا كانت منتشرة بعدد معتبر في المناطق التي شملها نفوذ قرطاج فلأن تلك المناطق كان لها دائما توجه شرقي.

(*) مرّة أخرى يقْدم المؤلّف على هذه التأويلات دون أن يقدّم الدليل فلماذا يكون انتقال هذه الأشكال من جنوبي إيطاليا والجزر الإيطالية وما هو الدليل على ذلك، ولماذا لا نجد الانتقال في الاتجاه المعاكس، ولماذا تظلّ أفريقيا تتلقّى فقط، هذه مسألة تتطلب لفت الانتباه للسير بالبحوث في هذا الاتجاه.

(**) لو كتب التاريخ بأقلام أفريقية لكان هذا الوضع عنصر إثبات بالنسبة لأصل هذا النمط من المدافن وهو أنّ منشأها كان في المناطق الداخلية مثل الركنية ومنها انتقل إلى الساحل ثم عبر البحر باتجاه الجزر الإيطالية وجنوبي شبه الجزيرة الايطالية، ولكن عقدة المركزية الأوربية هي التي كانت وراء اعتبار الحضارة تأتي دائما من الشمال.

تمتد بلاد الحوانيت في إقليم قرطاج مع تفرعات ساحلية وهو ذات الإقليم الذي أسماه سترابون كرخيدونيا (Carchédonie) الممتدّ في أقصى اتساع له من بلاد الماسيسيل إلى السيرت الكبير . إنها بلاد الليبوفينيقيين، يقول: **هي البلاد البحرية التي كانت دائما مع مالطة وبنتليريا معبرا من المتوسط الشرقي نحو المتوسط الغربي**[407].

من خلال حجمها الضيّق وشكلها المكعّب ومحدودية طولها فإنّ قبور الحوانيت في الجزائر وتونس تذكّرنا خاصّة بالقبور القديمة التي تعود إلى نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد وبذلك فإنّها تظهر علاقة أفريقيا بصقلية في الفترة ما قبل قرطاج.

من المحتمل أن تكون هناك علاقات مع صقلية وسردينيا وإيطاليا الجنوبية سابقة لقرطاج، وهو ما يقودنا إلى التفكير بأنّ أنماطا من خزف عصر البرونز ذي الأشكال المتميّزة تكون قد دخلت من هناك، وهي أنماط تتميّز بزخرفها وعمقها وبمقابضها ممّا يجعلها شبيهة بالآنية التي تحتفظ بها المنطقة الأوراسية[408].

بلاد الدولمان

من بين تبعات تلك العلاقات السابقة، نجد دخول الدولمان هو الحدث الأكبر الملفت للنظر، الذي ترك على الأقلّ آثارا ملموسة عبر كلّ المنطقة الشرقية من بلاد البربر، ومن الثابت وجود حوانيت في مناطق الدولمان ودولمان في مناطق الحوانيت، ولكن ينبغي أن لا يغيب عن ذهننا أنّ مناطق انتشار الدولمان التي تغطّي قسما كبيرا من البربرية الشرقية تقع في الركن الشمالي الشرقي وهذه المنطقة ذاتها شهدت انتشارا كبيرا في فترة لاحقة ومحدودة لقبور الحوانيت ومن المفيد هنا الإشارة إلى أن هذين الشكلين من الانتشار متطابقان بدقة مع كرونولوجيا معالمهما، فقبور الحوانيت مواكبة للقبور العتيقة التي تعود إلى بداية عصر الحديد (نموذج بنتيليريا وكاسيبيلPantalica et Cassabile) ذلك أن لدولمان الجزائر وتونس الأقدم نموذج مماثل لها في المقابر الميغاليثية السردينية، الإيطالية والمالطية التي تعود إلى عصر البرونز.

تستمد دولمانات الجزائر الشرقية أصولها من سردينيا ويمكن القول أن دولمان الساحل التونسي(مجموعة دولمان النفيضة والرأس الطيب) جاءت من ايطاليا الجنوبية أو الشرقية عبر مالطة ومثل قبور الحوانيت يكون الدولمان قد دخل نحو المناطق الداخلية عبر خط الساحل

---

(407) - Strabon XIII, 3, 13 et 19

(408) **الزخارف التشكيلية : حبال مفتولة، تعلوها مقابض؛ هذه الأشياء الصغيرة التي تزين الفخاريات لم تبق إلا في بعض الأنماط الفخارية في جهة القبائل وعلى حد علمي لم تبق المقابض ذات النتوءات إلافي فخاريات الاوراس.**

ليصل إلى أبعد نقطة. والحال أنه يمكن تمييز عديد المناطق — في بلاد الدولمان– التي يختلف بعضها عن بعض سواء من حيث شكل المعالم أو من حيث ملامح المقابر ودون ريب من حيث زمن الدفن.

دولمان النفيضة

في منطقة الساحل الشرقي التونسي تكوّن مقابر النفيضة مركزها، ولهذا المركز امتدادات نحو الشمال والجنوب عبر دولمان الرأس الطيب شمالا إلى رأس كابوديا جنوبا، وتتميّز هذه الدولمانات الساحلية بتوفرها على أروقة متعدّدة ومتجاورة، وهي ذات ارتفاع بسيط ومبنية في أغلب الأحيان بالقش، ومع أنّ مقابر النفيضة[409] عديدة إلاّ أنّ عدد الدولمان بها قليل، وأهمّ واحدة من هذه المقابر التي تحتفظ بكلّ مكوّناتها لا تعدّ أكثر من 106 معالم في سنة 1904، ولكن عدد المعالم في مجموع المقابر يمكن أن يصل إلى 3000 دولمان اختيرت لها مواقع أعلى التلال.

تكمن أهمّية هذه المجموعة على الخصوص في وجود أنقاض مساكن بجوار المقابر، ويدل عدم أو قلّة وجود الدولمان في السهول على تقليد راسخ في أفريقيا الشمالية وهو اختيار مواقع مرتفعة وصخرية لمدافن فجر التاريخ، وليس الفلاحون هم من أزالوها خلال استغلالهم لأراضي السهول كما قد يتبادر إلى الذهن. وزيادة على الانشغالات الدينية فإنّ اختيار تلك الأماكن العالية وخاصّة منحدرات التلال يستجيب لهاجسين : الأول هو تقريب الموتى من الموادّ الضرورية لبناء قبورهم والآخر هو الاحتفاظ بالأرض الجيّدة للزراعة، وهذا الهاجس الأخير يبدو لي أنّه محسوس أكثر في مقابر المنطقة السيرتية، واحتمالا هو سبب الاستمرار الملحوظ لأغلبها إلى وقت غير بعيد.

والخلاصة أنّ مقابر النفيضة – التي لا شيء فيها يوحي بتأثير من الحضارات التاريخية[410] – تعكس وجود مجتمع مستقرّ يتكوّن من مجموعات صغيرة مقيمة على حوافي التلال كانت تزرع السهول الممتدّة إلى الشواطئ التي هي بوابات مفتوحة على الشرق.

[409] - Hamy (E.T.), Cités et nécropoles berbères de l'Enfida, Bull. de Géogr. hist., et descript. , t, XX, 1904, pp. 33-63

[410] لم نعثر على أي آنية جيدة الصنع، وعلى حد علمي الهياكل العظمية المستخرجة من معالم النفيضة هي في جميع الحالات في وضع الثني أو مضمومة.

منطقتا طبرقة وجيجل الساحليتان

هناك سمتان تميزان معمار دولمان النفيضة. وهي أنّ أغلبها مزوّدة برواق ولوح حجري مرتكز على أرضية القبر ويشكّل أساسه، ونجد هذين السمتين في دولمانات الساحل في المنطقة الثانية (ش. 15) وتغطي هذه الدولمانات بصفة متقطعة شريطا ساحليا يمتد من طبرقة الى جيجل. يتكون مركزه الرئيسي من دولمانات شبه جزيرة القل [411]، واذا كانت متميزة بذات الخصائص التي لدولمان ساحل تونس الشرقي فإن دولمانات الساحل الجزائري ذات ارتفاع معتبر، وهنا أيضا لا تحتوي المقابر إلا على عدد محدود من الدولمان ونادر في بعضها لا تتعدى في كثير من الأحيان العشرة وينبغي الاتجاه نحو المناطق الداخلية إلى الركنية لاكتشاف المقابر الأكثر اتساعا التي تتجاوز الألف قبر.



ش. 15- نمط دلمان الساحل . الركنية

على انه إذا كانت الدولمانات أكثر عددا شرق بونة وغربها، وفي جهات تامالوس وعبر كتلة القل الجبلية كذلك، فإنها تقل فجأة غربي الوادي الكبير (امبساقا في الجغرافيا القديمة) بحيث لا نجد غربي هذا النهر إلا مقابر صغيرة بجوار وادي النيل قرب الطاهير وأربعة دولمانات بجوار العوانة (Cavallo)[412].

[411] - Mennetrier (Ch.), Note sur les monuments mégalithiques de la province de Constantine Congr. Préhist. de France, IVe session, Chambéry, 1908, pp. 352-386

[412] -Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° 7, Bougie, n° 75, (Dolmens de Cavallo) et feuille n° 8, Philippeville, n° 3 (nécropole de l'oued Nil).

المناطق الكبرى للقبور الميغاليثية في المرتفعات

إلى جانب المنطقتين الساحليتين في تونس والجزائر الشرقية تبرز في الواقع منطقة كبرى تشمل وسط وغرب تونس وشرق الجزائر إلى قسنطينة وهذه هي المنطقة الثالثة التي تماثل سابقتيها لولا شكل المعالم ومظهر المقابر المتميّز، وعلى العكس من ذلك شرقا، حيث توجد فجوة ما بين دولمان مناطق مكثر وتبرسق من جهة ودولمان النفيضة والرأس الطيب من جهة أخرى. أمّا جنوبا فتمتد الدولمانات إلى هضبة نمامشة والسفوح الشمالية للاوراس، على أنّ الحدّ الغربي هو الذي يمثل العلامة الأكثر أهمية. ففي حين تتراكم المقابر عدديا بجوار قسنطينة سرعان ما تختفي الدولمانات غرب هذه المدينة، ولا تعود إلى الظهور إلا في نقطة بعيدة عنها نسبيا في فج امزالة أي على ذات خط الطوال الذي يمرّ على واد النيل حيث آخر مقبرة ساحلية في المنطقة الثانية. ولنا انطباع بأنّ ما وراء قسنطينة باتجاه الغرب هو الحد الغربي لها وهي ذات الملاحظة عن مثيلتها في الساحل غربي الوادي الكبير.



ش. 16 _ نمط دولمان المناطق الداخلية : دولمان مرتكز على قاعدة مدرّجة في بونوارة.

نجد في المنطقة الداخلية خصائص عديدة ذات أهمية قصوى أولها الاتساع المعتبر وعدد مقابرها الكبرى التي تضم أحيانا آلاف الدولمانات وخاصة المعالم التي تجذب الانتباه بتنوع أشكالها : قاعدتها وأسوارها الكبيرة، أمّا الأروقة فقد أزالتها عوامل الزمن، على أنّ الأحجام متنوّعة إذ نجد في ذات المقبرة دولمانات صغيرة محاطة بمعالم ذات ارتفاع كبير. وخلاصة القول أنّ هذه الأشكال متنوّعة (دولمان بأذرع، دولمان بقاعدة متدرّجة **ش. 16**)، وهي

نتاج اندماج نمطين من المدافن: نمط الدولمان البسيط مثل دولمان الساحل، ودولمان التملوس أو البازينا المدرّجة السابقة لتوسع الدولمان. وبعد هذا يأخذ نمط الدولمان في التغيّر تـــدريجيا باتجاه الجنوب كما هو في الأوراس وفي جبال الحضنة حيث يظهر نمط جديد هو الـــشوشة اسطوانية الشكل الدالّة على تطوّر نهائي للدولمان الشمال أفريقي، لم يحتفظ هذا الـــنمط إلا بالمائدة الميغاليثية في حين أنّ السور الذي هو عبارة عن دائرة بسيطة من الحجارة في الساحل يصبح هنا جدارا حقيقيا دائري الشكل ترتكز عليه بلاطة التغطية.

لا تفصل المنطقة الداخلية عن الساحل فجوة حقيقية، ولكن لا تمثّل فضاء متواصلا تتوزع فيه المعالم بانتظام، ففي بعض المناطق تكون كثيرة ولكن دون أن تكون متجمّعة في مقابر حقيقية (ناحية بوشقوف، سوق اهراس وخنشلة) وفي نقاط أخرى تضمّ المقابر الأكثر اتساعا عددا معتبرا من الدولمانات ويمكن أن تكون تلك المقابر متجاورة مثل ما هو الحال في دوقة ومكثر بتونس، وفي المنطقة السيرتية الجنوبية وبصفة أقلّ في جهة تبسة بالجزائر.

توجد ما بين القسمين الشرقي والغربي من هذه المنطقة الداخلية بعض الفروق التي لا يمكن المرور عليها مرّ الكرام على الأقل، ومثال على ذلك المقابر الجزائرية حيث الـــدولمان نادرا ما يكون كثير الأجزاء، ويحتوي في الغالب على سراديب دفْن مفصولة ببلاطة مشتركة (بونوارة)، أمّا في تونس فإنّ غرف الدفن كثيرا ما تكون بجوار بعضها البعض بعدد ثلاثة أو أربعة غرف بل ثمانٍ أحيانا كما هو الحال في المعالم الكبيرة بموقع اللز (Ellez) شمـــال غـــربي مكثر. وتوجد الأشكال الأكثر تطوّراً المزودة بممرّات وطنوف (auvents) ومقْـــدس في ذات المنطقة كما لو أنّ بلد مكثر ظلّ يشيّد معالم ميغاليثية مدّة طويلة بعد توقفهـــا في الجهـــات الأخرى[413]، ولكن الأهمّية تكمن حينئذ في أنّ المقابر في الجزائر في غالب الأحيان بعيـــدة بمسافة معتبرة عن المراكز الحضرية (ركنية، بونـــوارة، راس العـــين – بـــومرزوق وجبـــل مستيري[414]، أمّا مقابر البلاد التونسية فهي قريبة نسبيا من المدن، نجدها بجـــوار تبرســـق، دوقة، بولة ريجيا،الكاف ومكثر، ولا أرى لذلك سوى سببين متلازمين ينحصران في أنّه في الناحية الشرقية سرعان ما أخذ الأفارقة بتقاليد بناء المدن مع الاحتفاظ بتقاليد بنـــاء مقـــابر ميغاليثية بعضها برواق ومعمار معقّد يبرز اهتماما معماريا غير معروف بعد في الجهة الغربية.

---

(413) وهو الملاحظ في حفريات بوفيلي الذي يقترح قطعة من Skyphos مصنوع حوالي 50 ق.م. كوثيقة أقدم، أنظر: -Pauphelet (D.), Monument mégalithique à Maktar, Karthago IV, 1953, pp. 49-83 **؛ والواقع أنّ نتائج هذه الحفريات يمكن تفسيرها بشكل آخر حسب الطابع المختلف لأثاث غرف الدفن وأثاث المقدس وهو ما يسمح بالتفكير أيضا أنّ غرف الدفن كانت خلال بداية الفترة الرومانية قد أفرغت قبل أن تعدّ لاحتواء المعظمة ، أنظر :**

-Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, pp. 191-194.

(414) في الحقيقة توجد مقابر ميغاليثية بجوار بعض المدن الرومانية مثل : المحيجيبة، تيفاش، قسطل؛ ولكن المراكز العمرانية أحدث بكثير من تلك المقابر.

الطقوس الجنائزية

اكتسبت الجهة الشرقية من بلاد البربر طابعا خاصّا تبعا لعلاقاتها القديمة بالجزر الإيطالية والجنوب الإيطالي، هذه العلاقات بدأت منذ النيوليثي لأن الشمال التونسي استقبل حينها أدوات من الحجر الزجاجي (Obsidienne) من تلك الجزر، وتبدو أصالة بلاد البربر ليس فقط في اتساع انتشار قبور الحوانيت والدولمان ولكي أيضا في بعض الطقوس الجنائزية التي هي – دون اعتبارها من خصوصيات هذه المنطقة – أكثر ممارسةً هنا من غيرها. وكذا في طرائق الدفن وفي نقل العظام متروعة اللحم إلى مدفنها النهائي وهي طقوس مورست كثيرا في الجزائر الشرقية وتونس، وهي غير معروفة في المغرب وفي الجزائر الغربية[415]، ولا تظهر في الجزائر الوسطى إلا في مناطق القبائل والجزائر العاصمة التي تكوّن بدولمانها نوعا من الامتداد لمنطقة الدولمان الشرقية الكبرى. كما لاحظنا ممارسة طقوس دفن ثانوية في 32 مقبرة – يسبقها تجريد العظام من اللحم – يوجد عشرون منها في المنطقة الشرقية وخمسة في جهة القبائل والجزائر العاصمة.

نجد هذه الممارسة الطقوسية ذات الاشتراطات المتنوعة في الدولمان[416] بقدر ما نجدها في البازينا[417] والقبور السردابية [418] كذلك، وهي الممارسة التي كان الباحث الأثري أُرسي (Orsi, P.) قد تعرف عليها في قبور السيكوليين[*] [419]، غير أنّني أجد نفسي متردّدا في تأكيد أنّ هذا الطقس يكون قد انتقل إلى أفريقيا عبر ذات الطريق التي سلكتها قبور الحوانيت والدولمان، وهو طقس في واقع الحال واسع الانتشار عند الشعوب البدائية ولو كان في مقدورنا البحث عن منشأ جغرافي له دون اعتبار الانشغال الطقوسي لفعلنا مع أنّ ذلك قد يفرض علينا الذهاب إلى مناطق نائية جدّاً، غير أنّه ينبغي أن نأخذ في الحسبان ندرة هذه الممارسة الطقوسية غربي قسنطينة من جهة ووجودها في صقلية من جهة أخرى.

من بين طقوس النذر يوجد طقس واحد خاصّ بالبربرية الشرقية، ولكنه يعود إلى فترة متأخرة جدّاً، وهو طقس وضع قطعة أو عدّة قطع من النقود في القبر، وإذا كان أصله إغريقيا فإنّ البونيين تبنّوه منذ القرن الثالث،وقلّدهم في ذلك النوميد، وقد عثر على قطع

[415] مورس الدفن الثانوي في بوسوي والعين الصفراء في الجزائر الغربية، وفي وجدة واحتمالا في بناسا في المغرب.

[416] في دوقة، وفي النفيضة وكدية السلطان، وفي بولة ريجيا ومكثر بتونس؛ في قسطل ، ركنية، بوشن، سيقوس، بونوارة، راس العين بومرزوق وكذا في جبل معاضيد بالجزائر الشرقية. وفي بجاية ، عين راونا وبني مسوس في جهة القبائل والعاصمة الجزائرية.

[417] في الملاحات (تونس) وفي جبل مستيري، بونوارة، تيدّيس، واد تامدة وعين احمارة (الجزائر الشرقية).

[418] في ركنية وفي سيلة بالجزائر الشرقية.

[*] السيكول (Sicules) هم شعب قديم في صقلية .

[419] - Orsi (P.), La nécropoli sicula di Castelluccio (Siracusa), Bull. di Paletnol. Ital. 2e série, t, VIII, pp. 1-34 et 67-84 (p. 81).

نقدية قرطاجية أو نوميدية في قابس، بولة ريجيا، دوقة، مغراوة وزوارين بتونس، وفي قسطل، سيلة، وعين الباي بالجزائر الشرقية، وإلى الغرب من خط جيجل لا أثر للقطع النقدية حتّى الرومانية منها في مدافن ذات طابع أهلي ولا في دولمان بلاد القبائل ومنطقة الجزائر العاصمة ولا حتى في قبور الحوانيت في اجْديوية أو تازة ولا في عدد لا يحصى من البازينا والتملوس بالمنطقة الوهرانية والمغرب مما يجعلنا نستنتج بأنّه طقس جهوي يقيم دليلا جديدا على تسرّب ممارسات طقوسية متوسطية إلى الجهة الشرقية من بلاد البربر دون غيرها[420].

العلاقات القديمة مع شرقي المتوسط

إذا أردنا أن نحدد الطابع المميّز لهذا القسم من أفريقيا الشمالية البروتوتاريخية، نستطيع القول أنّها كانت، رغم تضاريسها الوعرة وغاباتها –وخاصة الجزائر الشرقية – بوابة بلاد البربر المفتوحة على الحضارات الشرقية، وإذا كانت بصمة قرطاج واضحة جدّاً في شرقي هذه المنطقة فلأنها تكون قد وجدت أرضية ممهّدة، تشهد عليها علاقات باكرة قبل تاريخية مع صقلية ، مالطة، إيطاليا وسردينيا وعبرها تكون قد دخلت العناصر الأولى لحضارة متوسطية من أصول شرقية، فالفخاريات الريفية البسيطة الأفريقية الصنع والزخرفة تحتفظ في أغلبها بذكرى حيّة لتلك العلاقات السابقة للبونيين.

ليس لدينا أي دليل على أن تلك المبادلات كانت بفعل بحارة إيجيين: أولئك البحارة لم يتركوا أي اثر في الساحل الشمال أفريقي وإذا افترضنا على العموم أنهم قد وصلوا إسبانيا فإنّ الطريق الأقصر بدءا من مضيق صقلية هي الطريق التي تتبع الشاطئ الأفريقي على عرض ألميريا ولعل ما نجده في ديودور هو احتفاظ بذكرى المساحلين الايجيو-كريتيين في قوله: "**إن مسكيلا (Meschela) وهي مدينة غير معروف موقعها بدقة أهو في ساحل خمير أو في ساحل الجزائر الشرقية تأسست من طرف إغريق خلال عودهم من حرب طروادة**" [421]، وقبل ديودور ذكر هيكاتوس أن كوبوس (Cubos) التي تقع في ذات المنطقة أسسها إيونيون [422] وفي ذات السياق يمكن العودة إلى هيرودوت الذي ذكر ان الماكسي يقولون أنهم ينحدرون من معمرين طرواديين[423] هذه النصوص ليس لها أهمية كبيرة حسب اقزال الذي يرى انه

---

(420) **عثر على عملات رومانية أيضا في مقابر ميغاليثية، ولعل وجودها دليل على استمرار الدفن إلى مراحل متأخرة في تلك المقابر، وهذه هي المقابر الميغاليثية التي عثر فيها على العملات الرومانية : مكثر ومغراوة (تونس) ، قسطل، سيقوس، سيلة، راس العين بومرزوق، مقبرة مدعاسن وعين الحمّان (الجزائر الشرقية).**

(421) - Diodore, XX, 57.

(422) - Frag. Hist. Graec., I, pp. 23-25.

(423) - Hérodote, IV, 191.

من الخطر الاعتماد عليها لتأكيد وجود استعمار سابق للبونيين[424] وهنا أيضا تكون الكلمة الأخيرة للاركيولوجيا فاكتشاف قبور الحوانيت والحفريات التي أجريت بها تسمح احتمالا ذات يوم باكتشاف وثائق أدق من التي في حوزتنا الآن[425].

ليس مستبعدا أن يكون النوميد الذين سكنوا هذه البلاد هم أول من دخل التاريخ وأنهم قد أظهروا قدراتهم في الانتظام في مملكة و لم تكن قرطاج هي الرائدة في هذه المجال ودورها مع أنّه أساسي إلاّ أنّه لا يمكن أن يفسر كل شيء*.

البربرية الغربية

ضمن البربرية الغربية التي تبدو صورتها غير واضحة هناك منطقة متميزة إنْ بمناخها أو بموقعها المجاور لاسبانيا، والحال أن الاكتشافات الأثرية في المغرب لا تزال في أولها ومع أن الوصول إلى معرفة فترات فجر التاريخ في تلك المناطق الغربية قد خطت خطوات معتبرة إلا أن ذلك لا يزال بعيدا عن أن يكوِّن عنها صورة مكتملة.

العلاقات الأولى مع شبه الجزيرة الإيبرية

نعرف في جميع الحالات أنّه لدينا ما يكفي للتأكيد أنّه منذ بداية عصر المعادن، هناك علاقات متوالية أقيمت ما بين المغرب وشبه الجزيرة الإيبرية، ويمكن أن تعود الآنية الفخارية ذات الأسلوب كمْباني الشكل (Campaniforme) الملتقطة من مواقع أثرية على الضفتين المتوسطية والأطلنطية إلى النصف الثاني من الألفية الثالثة ق.م. [426] كما يسمح نمط تلك الفخاريات بربطها بمجموعة الأندلس كمبانية الشكل التي هي الأقدم، وكذا لمجموعة البرتغال[427] وإذا كان هذا الإسهام كمباني الشكل مهمّا فإنّه ليس الأقدم فقبله وخلال

---

(424) Gsell (S.), H.A.A.N., t, I, pp. 344-345 -؛ ويضيف : وينبغي الأخذ في الحسبان الأسماء الإغريقية التي أطلقت على بعض المدن الساحليةالأفريقية : نيابوليس، أفروديسيون، ميغاليبوليس، هذه الأسماء احتمالا ما هي إلاّ ترجمة لأسماء بونية، أطلقها الإغريق الذيت يترددون على الموانئ الأفريقية للتداول ثمّ تبناها الرومان.

(425) لا ينبغي أن نتفاجأ بسبب قلّة معلوماتنا، فقبور الحوانيت التي لا تزال آثارها إلى اليوم كانت محل تخريب عبر العصور، ما عدا قبر واحد في الركنية تمّت فيه حفرية العام **1867**، وعدد قليل في المادور (أجرى به لوتورنو حفرية حوالي العام **1965**، والمدافن الأقدم هي القليلة ففي قرطاج مثلا لا نعرف أيّ مقبرة سابقة للقرن السابع مع أنّ العلم أنّ المدينة كانت موجودة قبل ذلك التاريخ.

(*) هذه العبارة الصغيرة التي فلتت من المؤلف كان يمكن أن تكون هي الأساس والخط الذي يرسم سير هذا الفصل ولكن المؤلف انجر مثل سابقيه وراء الأصول المتوسطية والشرقية لكب اثر حضاري فيه لمسة من التطور تاركا للأهالي كما يسميهم كل شيء بدائي

(426) الدراسة الأهم التي أنجزت في هذا الموضوع هي التي قام بها السيد جوردان/ أنظر :
- Jodin (A.), les problèmes de la civilisation du vase campaniforme au maroc, Hespéris, t, XLIV, 1957, pp. 353-360.

(427) - Del Castello (A.), la cultura del vaso campaniforme, su arigen y extension en Europa, Barcelone, 1928
- Id. La cazuela de la cueva de Dar es-Soltane y su procedencia hispanica, 1e Congr. Arqueol. Del Murruecos espan. Tétouan 1953, pp. 53-56
يريد الأستاذ ديل كاستيلو أن يؤكّد لي الأصل الأندلسي لفخار دار السلطان، غار كحال وكاف تحت الغار كمباني الشكل، وفي نظره لا وجود لتأثير برتغالي البتّة.

النيوليثي وقعت بعض العلاقات عبر مضيق جبل طارق وبحر البوران (Mer d'Alboran) يتضح ذلك من خلال ثلاثة مواقع في المغرب الشمالي هي **أشاكار** (Achakar) بالقرب من طنجة، **غار كحال** بجوار سبتة و**كاف تحت الغار** القريب من تطوان، حيث أنّ الطبقة تحت مستوى الكمباني الشكل نيوليثية وتضمّ قطعا من نمط إيبري، وقد تمّ العثور في أحد تلك المواقع (غار كحال) على قطع فخارية مصنوعة بأسلوب معروف في جهة غرناطة(ميسا وأستا Mesa et Asta) وكذا في صقلية (سيرافرليكيو Serraferlicchio).

تتمركز الاسهامات النيوليثية(خزف قلوبي Cardial) والكالكوليثية(آنية كمبانية الشكل) في المغرب على الأقل في الساحل الذي تلقّت منه إسبانيا في ذات الوقت عن طريق التبادل العاج وبيض النعام[428]،كما أنّ الدولمانات الصغيرة في جهة طنجة قريبة جدّا –جغرافيّاً ومورفولوجيّاً–من النواويس التي استعملت في أوربا مرارا لدفن أشخاص من حضارة الفخار كمباني الشكل،ولعلّ موقعها في أقصى شمال المغرب كافٍ وبدقّة لإثبات أصولها الأوربية.

شهد عصر البرونز نموّاً في انتقال الحضارة من إيبريا إلى المغرب مع أنّ الساحل وحده هو الذي يبيّن ذلك الانتقال من خلال مواقع عثر فيها على الآنية الفخارية كمبانية الشكل، لكن السلاح البرونزي وعلى وجه الخصوص البلطة طويلة المقبض(Hallebarde) المتميّزة كانت معروفة لدى السكان البعيدين في الأطلس الأعلى، وقد رسمت صورها بالمئات على الصخور أمّا الأشياء المعدنية فهي نادرة كما هو الحال في عموم الشمال الأفريقي[429] مع أنّه تمّ العثور في قبرين في المغرب على أسنّة رماح وخناجر بحدّ (Languette) برونزي[430]، وقد اكتشفت أسلحة برونزية وأخرى نحاسية معزولة عن بعضها وخاصة في المناطق الساحلية (ليكسوس، واد أكرش قرب الرباط، سيدي مسعود قرب مازاغان Mazagan) ويبدو أنها ليست من صنع الأهالي، وهي موجودة بأعداد كبيرة،ويمكن أن نضع في الحسبان أنّ الدفن في جرار عثر عليها في سوق الخميس وزمامرة جنوب شرقي مازاغان كان بتأثير أرغاريكي (Argarique)[431].

---

(428) - Del Castello (A.), op. l, p. 209.

(429) تم استخراج حلي وهي من البرونز أو النحاس في أغلبها حتى في الفترة التاريخية.

(430) المريس بالقرب من طنجةوفي تازارين في الجنوب المغربي.

(431) - Dr Armani, Découvertes de sépultures préislamiques à zémamra, bull. mens. de la Soc; archéol. de Constantine, n° 50 Mars 1933, pp. 89-90.

أنماط الدفن

فيما يتعلق بالمعالم الجنائزية، فإنّ المتميّز منها في المغرب الشمالي الشرقي هو المدافن الركامية (Tertres) التي كنا قد أشرنا إليها وصفوة القول أن هذا المعالم غير معروفة جيدا وتعود في الواقع الى فترات مختلفة مثل مدفن مزورة بسورها المتكون من حجارة ضخمة (علو إحداها 4,50 م) ويبدو أنها الأقدم ولعله هو المعلم المعروف قديما باسم **قبر أنتي** (Tombeau d'Antée) ومثله قبر في جهة سيدي سليمان يعود إلى حوالي القرنين الرابع والثالث ق.م. وآخر قرب لالّة ميمونة يمكن تأريخه بالقرن الثاني ق.م.، هذه المدافن الركامية تخفي بكل تأكيد بُنى مختلفة تحت غطاء واحد، مثل مدفن مْزُورة الذي يغطي ناووسا على غرار مدفن سوق الجمعة (لالّة ميمونة) ومدفن سيدي سليمان الذي يخفي حجرة حقيقية مستطيلة ذات رواق وفناء وغرفة مسقوفة بجذوع شجر التويا وأخرى تغطي خندقا محميا بطبقة رقيقة من طين مكدّس (سي علال البحراوي) [432]، وهذه المقابر الركامية الكبرى غير منتشرة في كلّ المغرب ومقتصرة على المنطقة الشمالية الغربية منه دون سواها كما أنها موجودة بعدد معتبر في البربرية الشرقية.

هناك نمط آخر من المدافن يميّز منطقة جنوب الريف ويمتدّ إلى الناحية الوهرانية وهو القبور البئرية، هذه القبور بشكل المطامر وذات فم واسع يشبه القدر وهي موجودة في الجنوب الإسباني وبعضها معاصر لحضارة الآنية كمبانية الشكل.

وليس مستحيلا أن يكون دخولها الجزائر الغربية والمغرب عائدا إلى فترة أقدم، فهذا النمط من القبور في الساحل الأطلنطي الذي اكتشف مؤخرا ليس له غرف جنائزية رغم الأبحاث التي أجريت لرصد بعض المؤثرات البونية إلاّ أن النتائج لم تتوصل لشيء من ذلك [433].

التمركز الفينيقي

دخلت المنطقة الغربية من بلاد البربر في علاقة مع العالم الخارجي متأخرة عن المناطق الشرقية والحال أنها لم تدخل التاريخ إلا في فترة متأخرة جدا وبقيت طيلة قرون طويلة بلدا أسطوريا : ذلك الغرب الأقصى العجيب، آخر ملاذ للأسطورة، وقد أظهرت حفريات

[432] عن هذه الأشكال المختلفة للقبور البروتوتاريخية ، أنظر :
- Souville (G.), principaux types de tumulus marocains, B.S.P.F., t. LVI, 1959, pp. 394-402.

[433] - Luquet (A.), Prospection punique de la côte atlantique du Maroc, Hespéris, t. XLIII, 1956, pp. 117-132.

موقادور أنّ التجار الفينيقيين أقاموا محطاتهم على الساحل الأطلنطي على الأقل بـدءا مـن القرن السابع قبل الميلاد[434]، وتعيد النصوص القديمة تأسيس ليكسوس إلى القرن الحـادي عشر[435] مما يدلّ على أنّ التمركز الفينيقي في سواحل المغرب قديم وما فعله هؤلاء التجار الشرقيون هو تحريك المبادلات مع إسبانيا، ويبدو أنّ الخزف الأحمر المزخرف الذي عثـر عليه في تلك الجهات إلى ناحية وهران يكون قد جاء من محترفات إسبانية، مـع أنّ أصـله الأول قد يكون شرقيا ومن قبرص على وجه الخصوص[436]. ونرى أنّ بعد المنطقـة عـن مراكز السياسة المتوسّطية الحساسة هو الذي يفسّر ضعف دور المور قبل تمركـز رومـا في إسبانيا وفي أفريقيا، أمّا قبل روما فإنّ قرطاج هي وحدها التي كانت تحتكر طريق الغرب.

مناطق البربرية الغربية

من جهة أخرى لا تمثل البربرية الغربية مظهرا متميّزا عن البربرية الشرقية، وقد لاحظنا أنّ حدود هذه الأخيرة متميّزة يمكن اعتبارها حدودا حقيقية، وهي حدود ممتدّة بـدءا مـن غربي شبه جزيرة القلّ ثمّ تتبع مجرى الوادي الكبير باتجاه غربي قسنطينة، وتميل غربـا حـتى تكون على استقامة واحدة مع خط الطول الذي يمرّ بجيجل، فج امزالة ونقاوس[437]، أمّـا البربرية الغربية فليس لها حدود واضحة، وإذا كانت دولمانات شمالي المغرب الصغيرة والقبور الركامية في سهل الغرب محدّدة بدقّة فإنّ مدافن أخرى مثل القبور البئرية معروفة في شـرقي ملوية كما في غربه، على أنّه من الملاحظ وجود طابع مشترك بين الجزائر الغربية والمغـرب الشرقي تمنع فصل المنطقة الوهرانية عن ضفّتي ملوية، ومعرفتنا الناقصة بالريف وبصورة عامّة بكلّ المركّب التضاريسي الأطلنطي لا تسمح لنا بتثبيت حدود أخرى إلاّ الـتي تفرضـها الجغرافيا، ولعلّ ما يدفعنا إلى ربط إقليمي الريف وطنجة بالمغرب الأطلنطي هو وجود معالم دولمانية في بعض جهات الريف[438] وبصمات عصر البرونز في الأطلس الأعلى وفي جهـة

---

[434] - Jodin (A.), Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador (Campagne 1956-1957). Bull. d'Archéol. Maroc., t, II, 1957, pp; 9-40 ؛ وعن تأريخ التمركز البوني في المغرب أنظر:
- Tarradell (M.), Lecciones de Arqueologia punica, Caesaraugusta, t, VI, 1955, pp. 55-108.

[435] أقدم شيء عثر عليه في ليكسوس هو جُعَل مصري باسم أمينوفيس III (القرن XIV ق.م.) ولكنه أحدث من حيث الصنع ، وقد اعتقد صنتاس أنّ بإمكانية تحديد تاريخ صنعه بالقرن VI ، أنظر :
- Cintas (P.), Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris 1954 p. 63.
وقد اعتمد جيلبار وكوليت بيكار على رأي لوكلون وأرخاه بالأسرة XXII التي حكمت خلال القرن العاشر:
- Charles- Picard (G. et C.), la vie quotidienne à Carthage, Paris 1957, p. 172.

[436] - Cf, Cintas (P.), Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris 1954. ;
- Id. Céramique roue brillante de l'ouest méditerranéen et de l'Atlantique, C.R.A.I.B.L., 1953, pp. 72-77.

[437] هذا التدرج يضمّ دولمان واد النيل،كافالو وفج امزالة وتملوس عين الحمام(منطقة نقاوس)التي عثر فيها على نقود.

[438] أشير إلى وجود دولمان ومعالم دولمانية في واد لو وواد راس ، أنظر :

تازة[439] أي في المناطق التي كانت على علاقة باكرة بشبه الجزيرة الإيبرية، ويمكن اعتبار وادي ملوية خطّا يرسم حدود البربرية الغربية التي نميّز فيها أربع مناطق منها اثنتان فقط لهما مظهر واضح :

أ- **المنطقة الأولى** في أقصى شمال المغرب (العرائش، طنجة وتطوان) أي المنطقة المطلة على البوغاز وهي المتأثّرة أكثر بالثقافة الإيبرية منذ النيوليثي (أشاكار وغار كحال) تلقّت من إسبانيا الدولمانات الصغيرة ذات الشكل الناووسي والآنية كمبانية الشكل والأسلحة المعدنية (المريس وليكسوس) وهي المنطقة الأولى التي شهدت في فترة باكرة بداية تمركز الملاحين الفينيقيين بشواطئها.

ب- **المنطقة الثانية** وهي الأوسع تضمّ المغرب الأطلسي حيث التأثيرات الايبرية أقل من الشمال تتميز عن المنطقة الأولى بأحجام معالمها الكبيرة (مدافن ركامية بناحية الغرب) وبخلوها من المعالم الميغاليثية.

يضاف إلى هذين القسمين الهامين منطقتان انتشرت منهما التأثيرات نحو باقي الجهات وهما الريف الذي يضم معالم الدولمان ومثله المنطقة الطنجاوية وكتلة الأطلس التي يدل موقع **ولماس** على دخول أسلحة برونزية إليها.

أطراف الصحراء الشمالية

تمتد إلى الجنوب من التل الجزائري والتونسي منطقة شاسعة ذات تضاريس مسطحة تنقسم إلى أحواض مغلقة تتوسط كلا منها بحيرات مالحة (سباخ وزواغز) هذه البلاد السهبية لها امتداد باتجاه الغرب والجنوب المغربي ورغم أن مناخها متنوع بعض الشيء حسب المناطق إلا أنّه ف العموم هو الذي يطبع هذه المنطقة الممتدة على هامش الصحراء من الأطلنطي إلى السيرت بطابع واحد .

- Qintero Auturi (P.), Nueva estacion prehistorica en el Marruecos espanol. Archivo espan. de Arqueol, n° 45, 1941, pp. 563-564.

إلى جبال بني سناسن،أنظر: -Vélain(C.),Le dolmen des Béni Snassen, Rev. Ethnogr.1885,pp.307-312.

(439) في مقابر تازة عثر على سكين صغير من البرونز، أنظر :

- Campardoo (J.), la nécropole de Taza, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t, XXXVII, 1917, pp. 291-328,

وعثر على قطع معدنية في موقع نيوليثي وعلى مجوهرات من عجينة الزجاج في واد لجرف على بعد **8** كلم من تازة، أنظر: - Petit (Cne), le Préhistorique du Maroc oriental (notes mises en ordre par F. Doumergue), Ibid. t, XXXVIII, 1918, pp. 157-174 (P. 168).

وعثر أيضا على أشياء من النحاس (مجوهرات وأقراط) مع صناعة حجرية في موقع لاكاز جنوبي مراكش وهي معلومات قدمها في مداخلة الأستاذ مالوم، أنظر: - Malhomme (J.), cf, c.r. de la Soc. Des sc. Nat. Du Maroc, Avril, 1954.

المناطق الزراعية

البداوة الرعوية هي نمط الحياة الأكثر تكيفا مع الظروف البيوجغرافية في هذه السهوب ولكن التضاريس هنا أيضا تحدث بعض الفروق فالسلسلة الجنوبية وخاصة الأكثر علوا: الأطلسان الأعلى والصغير والأوراس تتلقى أمطارا وثلوجا تضاريسية تضمن تموين الينابيع والأودية وهناك آثار أشغال هيدروليكية قديمة جدا تفترض وجود تنظيم اجتماعي وهذا كله يسمح بقيام زراعة مدرجات مسقية، نرى صورة لها عند الشلوح على الخصوص في السفوح التي تحولت إلى مدرجات مهيأة فلاحيا وفي تلك الأودية الجبلية تمارس زراعة مروية لا تختلف كثيرا عن مثيلتها في المناطق الشمالية إلا في المدرجات[440].

في المناطق المستوية وعلى حوافي الضايات التي تغمرها دوريا فيضانات وفي الأودية المنخفضة، يغامر أنصاف البدو بزراعة شيء من الشعير وحتى القمح، في أراضي وعرة حيث أن كل سلسلة الأطلس الصحراوي الممتدة من الأطلس الأوسط إلى الدورسال التونسي لا تضم سوى بضعة مساحات غابية لأنّ الأمطار غير كافية، وفي بيئة كهذه تحولت البداوة إلى انتجاع بسيط حيث توجد ينابيع تسمح بإقامة تجمعات قروية وبعض الزراعات من طرف أولئك الرعاة الذين يضطرون إلى ترك بساتينهم دوريا لرعي قطعانهم وتبقى ممتلكاتهم ومؤنهم في القرية؛ في "القلعة" او "تيغرمت" أو اقادير، أي المخزن الجماعي المحمي تحت حراسة مسؤول.

التأثير الأفريقي

في جميع الحالات لا تمثل هذه المناطق المتميزة سوى مساحات محدودة، حيث تحتل السهوب اليوم -وهي بيئة تربية الأغنام – القسم الأكبر من هوامش الأطلس الصحراوي، يضاف إلى ترحال السكان الذين يسكنون هذه المناطق -في القديم دون ريب- تنقلات كبار البدو القادمين من الصحراء : قرامنت الفزان وتاسيلي ن اجّر الذين كانوا على علاقة دائمة بالجيتول، كما هو حال قبيلتي عتبة والارباع اليوم المرتبطين بعلاقة مع صغار البدو في جبل عمور والسرسو[441]، فهذه الحركات القديمة جدّا دعّمت الروابط ما بين مناطق السهوب والبلاد الواقعة في أقصى الجنوب ذات الطابع الأفريقي.

(440) - despois (J.), la culture en terrasses en Afrique du nord. Annales 1956, pp. 42-50 ; cf, contra, Poncet (A.), à propos des cultures en terrasses, Ibid ; 1957, pp. 455-460.

(441) - Cf. Capot-Rey (R.), La migration des Saïd Atba ou le "Zénétie ressuscitée" **Rev. Afric.** T, LXXXV, 1941, pp. 171-190.

خلال فجر التاريخ كما هو في تلك الأزمنة الغامضة التي تلتها، نتصور سلسلة من تحركات شعوب قد تكون كثيرة في تعدادها ولكنها تحركات ضعيفة ولعل أهمّ أثر لتلك التحرّكات هو إدخال الحيوانات الأليفة الأولى إلى المنطقة عبر جنوبها الشرقي، وإلاّ كانت فكرة استئناس الحيوان متأخرة، ثمّ بعض النباتات الزراعية ومنها الحبوب الأولى وفي الأخير الحصان البربري والأغنام البربرينية ولاسيما استعمال المعادن.

نستخلص إذن انّه عبر الصحراء والسهوب دخلت بعض المبادئ الحضارية والرقي المعيشي التي تكون قد أخذت وقتها لتتطوّر على ضفاف النيل، كما سلكت المعتقدات نفس الطريق، فالمعالم الجنائزية في السهوب لا تختلف في شيء عن باقي معالم الشمال الأفريقي، فهي تنتمي كلها إلى نمط البازينا أو التملوس البسيطة، ولكن التخطيط المستطيل أو المربّع الاستثنائي في المناطق التلّية نجده بكثرة في السهوب وفي كلّ الصحراء وعليه فانه من المفترض أن يكون التخطيط الرباعي الذي نشأ هناك في أفريقيا وفي مصر على وجه الخصوص هو إسهام أفريقي في العمارة الجنائزية في بلاد البربر.

التعبد في القبور

القبور هنا كثيرة على غرار الشمال، وهي مزودة برواق وبأذرع أو ملحقات وعلى الخصوص في أرضيات تعدّ هياكل حقيقية، وتقع في أماكن بعيدة عن بعضها مثل واد العجل (الفزان) ومليزن(ناحية كرسيف بالمغرب الشرقي)[442]، وهي عبارة عن أنصاب مثبّتة مقابل كتلة المعْلم.

هذا إلى جانب عناصر متعلقة بالتعبّد في القبور تؤكّد تبعية الجهات السهبية للفضاء الحامي الكبير (Grand ensemble hamitique) الذي تمارس فيه مصر تأثيرا معتبرا منذ وقت مبكّر، ولعل الدليل على هذه التبعية أو الانتماء ما نلاحظه في المعالم ذات القباب التي كانت محل حفريات سواء في تافيلالت أو في منطقة نقرين[443]، وهي شبيهة بنمط المصاطب المصرية، وفي السودان والفزان وموريتانيا معالم شبيهة لها وهي غير معروفة في شمالي الأطلس الصحراوي.

---

(442) انتهت الحفريات الإيطالية في الفزان بصدور عمل هامّ هو :
-Pace (P.) et Caputo (G.) et Sergi (S.), Scavi sahariani, Monumenti Antichi, Acad, dei Lincei, vol. XLI
وعن النصب ، أنظر المرجع نفسه : ص ص 352-359. 408 و 412 ، وقد أشار كارباردو إلى نصب قبور الميزان (=المليزان) أنظر: -Notes archéologiques sur la région de Taza, Bull. de la Soc. de Géogr. Et d'Archéol. d'Oran, t, XLI, 1921 pp. 190-193 والجدير ذكْره أنّه في ذات الجهة أشار الباحثون إلى وجود قبور تملوس بتخطيط رباعي وهذا عنصر آخر من أصل صحراوي أفريقي.

(443) عن هذه المعالم أنظر : -Camps (G.), les monuments funéraires à niche et à chapelle dans la Protohistoire nord-africaine. Congr. Préhist de France, XVIe session, Monaco, sous presse

توجد المعالم المزودة بكوة في عموم المنطقة السهبية إلى حدود التل وهـــي مـــن ذات الأصل وامتدادها الأفريقي كبير أيضا، وقد وجدت منها نماذج في ريـــو دورو وفي قـــورين وحتى في إثيوبيا.

تؤدَّى طقوس التعبّد في هذه القبور في الهيكل وفي الكوة أو في القبـــاب ولعلّهـــا ذات صلة بعبادة الشمس المنتشرة في عموم أفريقيا، من البحر الأحمر إلى جزر الكناري، والـــدليل على ذلك أنّ كلّ هذه العناصر التعبّدية المضافة إلى المعالم الجنائزية تكون دائما مقابلة لمشرق الشمس، وهذه قاعدة عامّة. وهو ما جعلنا نشرك هذا التعبّد بطقوس النـــوم فـــوق قبـــور الأسلاف التي أشار هيرودوت أنّها تمارَس من قبل البدو وهي طقوس لا تزال تمارَس عنـــد التوارق إلى اليوم.

حيوانات النقل: الثور والحصان

سمحت الظروف البيوجغرافية الأقل قسوة مما هي عليه اليوم، لهؤلاء الرعاة بامتلاك قطعان البقر فقد كشفت الحفريات عن عظام هذه الحيوانات في مدافن الجنوب (ما بين واد جْدي وواد ايتل) ومدافن العين الصفراء، وكان يستفاد من الحصان في جر عربات القرامنت والفاروزيين الخفيفة، قبل أن يتخذ مطية على امتداد قرون طويلة لتسهيل الانتجاع والقيام بغزوات ضد المستقرين تعود بغنائم وفيرة، أمّا في الجبال فإنّ أنصاف البدو يفضلون استخدام الأبقار وهو تقليد لا يزال قائما في الأطلس المتوسط وجبل عمور وغير معروف في التل وأرى أنّه تقليد من أصل أفريقي ولا وجود له في البلاد المتوسطية.

في بلاد شاسعة ومتنوعة التضاريس ليس سهلا القيام بأبحاث أثرية شاملة ولذلك فإنّ عدد الحفريات متفاوت من جهة لأخرى كما هو الحال في جهات تافيلالت،الشلف الأعلى، أولاد جلال، جهة قفصة والفزان ومع ذلك تظل المعلومات جزئية كثيرا ولا تسمح بإقامة أقسام فرعية. وتبقى الفزان هي المنطقة الأكثر خصوصية فبالإضافة إلى أنها تقع جنوبا فإنها تمتد شرقا مما يجعل معالمها الجنائزية تحتوي على تأثيرات مصرية أكثر من الجهات الأخرى.

تتمثّل الخصائص البارزة لمعالم المناطق السهبية في الغياب التام للدولمان وشواهد القبور وقبور الحوانيت والمدافن مطمورية الشكل بالتوازي مع التوفر النسبي للأذرع والفروع والهياكل والكوى والقباب الملتصقة أو المحاذية للمعالم ذات التخطيط المستطيل في الغالب

وهذا ما يدلّ على ضعف التأثير المتوسطي الذي حلّ محله التأثير الأفريقي الحامي الذي انبثقت منه الأسس الأقدم للحضارة البربرية، ولكن جفاف الصحراء ما انفكّ يحد من الدور الذي لعبته البلدان الأفريقية الشرقية ووادي النيل وليبيا والفزان، وهذا قبل أن يصبح الجمل حيوان النقل الوحيد في مناطق الساحل، حيث كانت النباتات الزراعية والحيوانات الأليفة قد أدخلت عبر الجنوب الشرقي لبلاد البربر إلى السهوب التي هي اليوم شبه جافّة.

البربرية الوسطى

منطقة دون ملامح

ما بين خط طول جيجل أو بسكرة ووادي ملوية تمتد المنطقة التي نطلق عليها البربرية الوسطى على عكس المناطق الثلاث الأخرى لا يظهر لها أي تميز ويبدو أنها محل التقاء عناصر ثقافية قادمة من هنا وهناك، مما يجعلها مركز أفريقيا الشمالية، أي الإقليم الذي يمكن أن تقوم فيه حضارة أصيلة وممتدة لتشع على مجموع البلاد لا مجرد منطقة شاسعة وباهتة تنتظر التأثيرات الحضارية المتوسطية الوافدة من الشرق ومن الغرب وكذا من المنطقة الصحراوية، ومع ذلك فان التأثيرات القادمة من الجهات الثلاث لم تنصهر في تيار واحد لخلق حضارة حقيقية بالمنطقة.

لا تمثل البربرية الوسطى إذن إلا انعكاسا ضعيفا للمناطق المجاورة ورغم السلاسل الجبلية والسهول التلية الممتدة بالتوازي والتي تسهّل الاتصال شرق – غرب فإننا نلاحظ ظهور تعارض بين الأجزاء الشرقية والغربية لهذا المجموع الشاسع .

إن تشكّل مركز ميغاليثي ثانوي في بلاد القبائل يجعل منها منطقة ملحقة بالبربرية الشرقية، أما المنطقة الوهرانية فهي متميزة ومتفردة بفضل اتصالاتها الباكرة باسبانيا، ولكن انفتاح المنطقة عبر حوض الحضنة والشلف الأعلى ووادي ملوية على تأثيرات واسعة قادمة من السهوب الجنوبية وممتدّة عبر سهول الجزائر الوسطى والغربية ونحو المغرب الشرقي أيضا جعلها - خلال الاضطرابات والفوضى الاجتماعية - تحت سيطرة البدو القادمين من الجنوب الشرقي: الجيتول ثم الزناتيون وأخيرا بنو هلال، وهذا ما يفسر كيف أن المنطقة الوهرانية رغم موقعها غربا استعربت على غرار تونس أكثر من الجزائر الشرقية.

منطقة تداخل

من الجنوب تصل التأثيرات الصحراوية القادمة عبر الحضنة وكذا التوسع الميغاليثي القادم من البربرية الشرقية وتتدخل التضاريس في تقسيم هذين التيارين وتفرض حالة تجاور بينهما وإذا كانت منطقة سطيف تضم معالم جنائزية مستوحاة من الجنوب (معالم ذات كوى بجحيفة قرب برج بوعريريج. معالم بملحقات وأرضية في أولاد صابر شرقي سطيف) فان معالم جبل معاضيد من دولمان وحتى الفخاريات ذات شبه كبير بخزف بازينات تيديس الملون[444]، مع أنّه يقع جنوبا، ذلك أنّه إلى الجنوب من جبال الحضنة في السهل تعود المعالم المزوّدة بكوى لتطبع المقبرة الكبرى بكدية الصنم.

تنطبق ذات الملاحظات أيضا على جهة الجزائر العاصمة وهوامشها الجنوبية، بحيث تضمّ منطقة القبائل معالم ميغاليثية بعضها ذات حجم كبير[445]، وللتأكيد فان كل الكتلة القبائلية تشكّل مركزا ثانويا لميغاليثية ممتدّة غربا عبر دولمان **بني مسّوس وأولاد فايت** بجوار الجزائر العاصمة ودولمان **قمانة** (Guemana) في جهة **لمديّة**. وإلى الجنوب من هذا المجموع تبرز جهة **زاغز** وأعالي الشلف بمعالم من نمط جنوبي (معالم بكوى في كاف سيدي عطا الله جنوبي **بوغار** بازينة عين ورق المستطيلة الشكل، معالم في شكل هلال بوادي تاقين) كما نجد جنوبا في المرتفعات المجاورة للجلفة آخر دولمانات أفريقيا الشمالية الواقعة جنوبا.

إلى الغرب من الظهرة لا نجد غير التملوس أو بازينا أهلية ما عدا بعض قبور الحوانيت على الساحل وبعض القبور مطمورية الشكل التي تعلن بدء المنطقة الوهرانية. أمّا الورشنيس فهو غير معروف كثيرا وليس به غير قبور التملوس مستطيلة الشكل وهي ذات امتداد جهة السرسو وفرندة، وقد انتشرت منذ النيوليثي مؤثرات صحراوية في كل جهة تيارت وهي مؤثرات محسوسة طيلة الفترة البروتوتاريخية وما بعدها في شكل بنية داخلية لأضرحة الجدّار والتملوس المجاورة لها. أمّا المركز الميغاليثي الصغير الموجود بالقرب من مشرع الصفا (Prévost-Paradol) فمن المحتمل أن يكون أهليا، ويبدو أن حجارة **مينا** (La Mina) استعملت في يناء معالم مشرع الصفا المتميزة.

---

(444) - Camps (G.), la céramique des sépultures berbères de Tiddis, Libyca, Anthrop. Préhist. ethnogr., t, IV, 1956, pp. 155-203.

(445) في بجاية في آيت قارت (شمال القصر) وفي آيت راونا (شرقي تيقزيرت) وفي قارة أحمد (شمالي برج امنايل).

التقاء التأثير الايبري بالصحراوي غربا

يعتبر وادي مينا الذي يفصل الورشنيس عن جبال بني شقران حدا داخليا محسوسا والمنطقة التي تليه غربا هي الأكثر تميّزا في مجموع منطقة البربرية الوسطى الباهتة.

ومثل المغرب استفادت من قربها من اسبانيا التي انتقلت منها في موجات متتالية عناصر ثقافية لا يستهان بها. ففي النيوليثي نلاحظ في كهوف وهران وجود فخاريات على شكل قلوب (Cardiales) من حضارة نشأت وتطورت في شبه الجزيرة الايبرية وهي فخاريات لا مثيل لزخارفها في عموم أفريقيا الشمالية، ولا ريب أنّ حضارة الآنية كمبانية الشكل تكون قد انتقلت خلال الكالكوليثي إلى المنطقة الوهرانية مع أنّ شواهدها تبدو نادرة[446]، وينبغي أن تعزى قلّة الأسلحة النحاسية والبرونزية المكتشفة في الناحية الوهرانية ومنها إلى منطقة الجزائر العاصمة إلى محدودية التجارة الاسبانية بالناحية، ولكن كيف وصلت تلك الأسلحة -والحالة هذه - إلى المناطق الداخلية لأن ما اكتشف منها استخرج من اولاد ميمون (Lamoricière) وسيدي حسني (Waldeek-Rousseau)، أمّا في جهة العاصمة فالمكتشف منها استخرج من مناطق ساحلية (شرشال، شنوة وسانت اوجان).

توجد في المنطقة الوهرانية في عديد المواقع قبور مطمورية الشكل يحتمل أن تكون من أصول إيبرية، وهي أكثر عددا من الموجودة في المغرب لكن تاريخها غير متأكّد منه، إلا أنّ المدافن الجماعية ذات الغرف الثلاث[447] تحمل الكثير من أوجه التشابه مع مدافن أثبوشال (Acébuchal) في الأندلس، لولا أنّ هذه الأخيرة ترتبط بحضارة الآنية كمبانية الشكل، كما أنّ قبور المنطقة الوهرانية تعود بالتأكيد إلى فترة لاحقة حيث عثر فيها على أداة حديدية (احتمالا سلاح رمي؟).

وفي الأخير تنبغي الإشارة إلى غياب تامّ لكل المعالم الميغاليثية ما بين وادي مينا ومنطقة وجدة وكل ما نجده هو البازينا المدرجة والتملوس وكلها بأحجام صغيرة.

---

(446) **المعروف هو قطع من آنية كمبانية الشكل في موقع غار أم الفرنان في منطقة سعيدة أي في منطقة بعيدة كثيرا عن الساحل، وقد بدات الحفريات في مغارات وهران في وقت مبكّر، ومن المحتمل أنّها شقوف من آنية كمبانية الشكل غير متعرف عليها أو غير مشار إليها من قبل الباحثين، ويمتاز أحد شقوف مغارة Grotte des noiseux بشبه كبير في زخرفه مع فخاريات كالكوليثية المسماة فريار (Ferrières) ومن الواضح أنّ قسما من لفخاريات النيوليثية في نواحي وهران يعود إلى فترات أحدث.**

(447)
- Desjardins (V.), Découverte d'une sépulture ancienne aux trembles ; bull. de la Soc. de Géogr. Et d'Archéol. d'Oran, t, LVI, 1935, pp. 87-88
- Cf. Camps (G.), Sur trios types peu connus de monuments funéraires nord-africains (note de Protohistoire) B.S.P.F., t, LVI, 1959, pp. 101-108.

الطقوس الجنائزية في المنطقة الوهرانية والمغرب الشرقي

وهي على الخصوص الطقوس الجنائزية التي أكسبت المنطقة الوهرانية والمغرب الشرقي بعض الخصوصية : وأكثر من جهات أخرى يمارس طقس حرق الأموات وفي وضع يبدو أنه لا علاقة له بالحضارات التاريخية البونية والرومانية وهذا الطقس يمكن في واقع الأمر ملاحظة آثاره في مغارة نيوليثية بموقع تيفريت (سعيدة) وكذا في تملوس العين الصفراء، مغنية ووجدة وفي مدافن من الفترة البونية في رشقون والأندلسيات وجبل لنديّس (Lindiès) وإذا كان هذا الطقس من أصول أجنبية فان دخوله إلى المنطقة قديم جدا والواقع لا يوجد ما يماثله في عموم أفريقيا الشمالية ولا اثر له في المعالم الجنائزية الأهلية[448].

من بين الطقوس الجنائزية في المنطقة الوهرانية والمغرب الشرقي طقس متميّز يتمثّل في إيداع أسلحة في المدافن، وهو طقس لا وجود له تقريبا خارج هذا المناطق [449]، ما عدا في تافيلالت التي تظهر فيها بعض السمات المشتركة مع المغرب الشرقي، ومن الصعب القول من أين جاءت هذه العادة التي بظهر فيها دون ريب نمط حياة أقل هدوءاً من نمط سكّان البربرية الشرقية لم نجد فيها طقسا مماثلا، والواقع أنّ مجرّد العثور على رؤوس رماح في مناطق جنوبية مثل العين الصفراء وارفود أو في السهوب مثل برقنت وحتى في حدود السهوب مثل وجدة وتلاغ يدعو إلى التفكير أنّ أصل هذه العادة من الجنوب خاصّة وأنّ بدو بني غيل الذين ينتجعون إلى اليوم في السهوب من الفقيق وتلمات إلى شمالي برقنت [450]، أصلهم من الصحراء.

هناك أحداث أخرى يمكن أن تكون مرتبطة بمكوِّن ديني مركزه السهوب المحاذية للصحراء مثل مقابر مغنية التي تضم معالم مزودة بكوى وأيضا قشر بيض النعام ضمن أثاثها الجنائزي وهو استثناء غير معروف إلا في المقابر الجنوبية (تاوز، بني ونيف، العين الصفراء، قلتة السطل، جلفة وعين الحمراء)[451].

التأثير الصحراوي ملموس على الخصوص في المغرب الشرقي حيث سهوب الحلفاء ممتدّة إلى حوافي جبال بني سناسن، ولا وجود لتضاريس تتوضّع ما بين الأطلس الأوسط وجبال القصور هذه الأخيرة هي الأولى في سلسلة الأطلس الصحراوي، وعبر هذه الطريق

---

(448) في البربرية الشرقية يوجد شكل من حرق الأموات اقترحت تسميته لتمييزه عن مثيله في المنطقة الوهرانية بالحرق غير التامّ لأنه في الواقع شكل من Décarnisation

(449) - Cf. Supra p. 111

(450) -Depois (J.), l'Afrique du Nord, pp. 233-234

(451) في قسطل (ناحية تبسة) وفي عين الباي (ناحية سيرتا) وجدت شقوف من قشور بيض النعام في قبور يفترض أنّها على علاقة بطقوس جنائزية بونية.

التي تشكل فجوة واسعة فرض البدو السيطرة المرينية، وأخيرا فعلت السلالة العلوية ذات الشيء انطلاقا من تافيلالت.

ومثلما هو الحال في جهات البربرية الوسطى تلتقي التأثيرات القادمة من الجنوب بأخرى قادمة من المتوسط ولكن في المنطقة الوهرانية وخاصّة في المغرب الشرقي تسمح التضاريس المتقطّعة ببعض الانصهار لهذه التأثيرات التي تتوضّع بجوار بعضها البعض.

الشعوب الليبية :

المور

ساهمت الفوارق التي فرضت نفسها ما بين مختلف مناطق أفريقيا الشمالية وثبّتت مصائر على فترات متباعدة لذلك "المغرب الخادع" [452]، ساهمت في تكوين شعوب وفي وقت لاحق ممالك بحدود متحركة، وقد عرف الكتاب القدامى من بين المازيس –الذين أسموهم الليبيين– ثلاثة شعوب كبرى يمكن توزيعها باختصار على الخريطة وهي **المور**، **النوميد** و**الجيتول**، هؤلاء الأخيرون يحلّ محلّهم الفاروزيون في جنوبي المغرب والقرامنت في الفزان [452 مكرّر].

لهذه الأسماء عبر القرون مدلولات مختلفة؛ فالإغريق على غرار القرطاجيين كانوا لفترة طويلة يطلقون اسم نوميد على كلّ الأفارقة غير الخاضعين لقرطاج، مفضّلين الاحتفاظ باسم ليبيين في الإشارة إلى الأهالي الساكنين في الإقليم الخاضع لتلك المدينة[453].

وفي ما يتعلّق بالسكّان الليبيين في أقصى الغرب، نراهم يطلقون عليهم اسم المور بدل النوميد، أمّا التمييز بين الاسمين فلم يتمّ نهائيا إلا بعد أن تعرّف الرومان على وجود مملكة أهلية في المغرب، فهذا أرتيميدور (Artémidore) من القرن الثاني ق.م. يعتبر الليبيين الذين يسكنون بجوار أعمدة هرقل نوميداً [453 مكرّر] وعليه فإنّ من المحتمل أن يكون التمييز بين النوميد والمور أقدم بكثير إذا كان اسم المور كما هو مفترض دائما ليس إلاّ تسمية جغرافية من أصل فينيقي والواقع أنه في عهد هانيبال كان استعمال هذا الاسم شائعا[454]، ومدوّن في الأرشيف البوني على امتداد قرون[455].

---

(452) **العبارة للخليفة عمر الذي اعترض على ارسال جيش الفتح العربي من مصر وقورينة إلى أفريقيّة.**

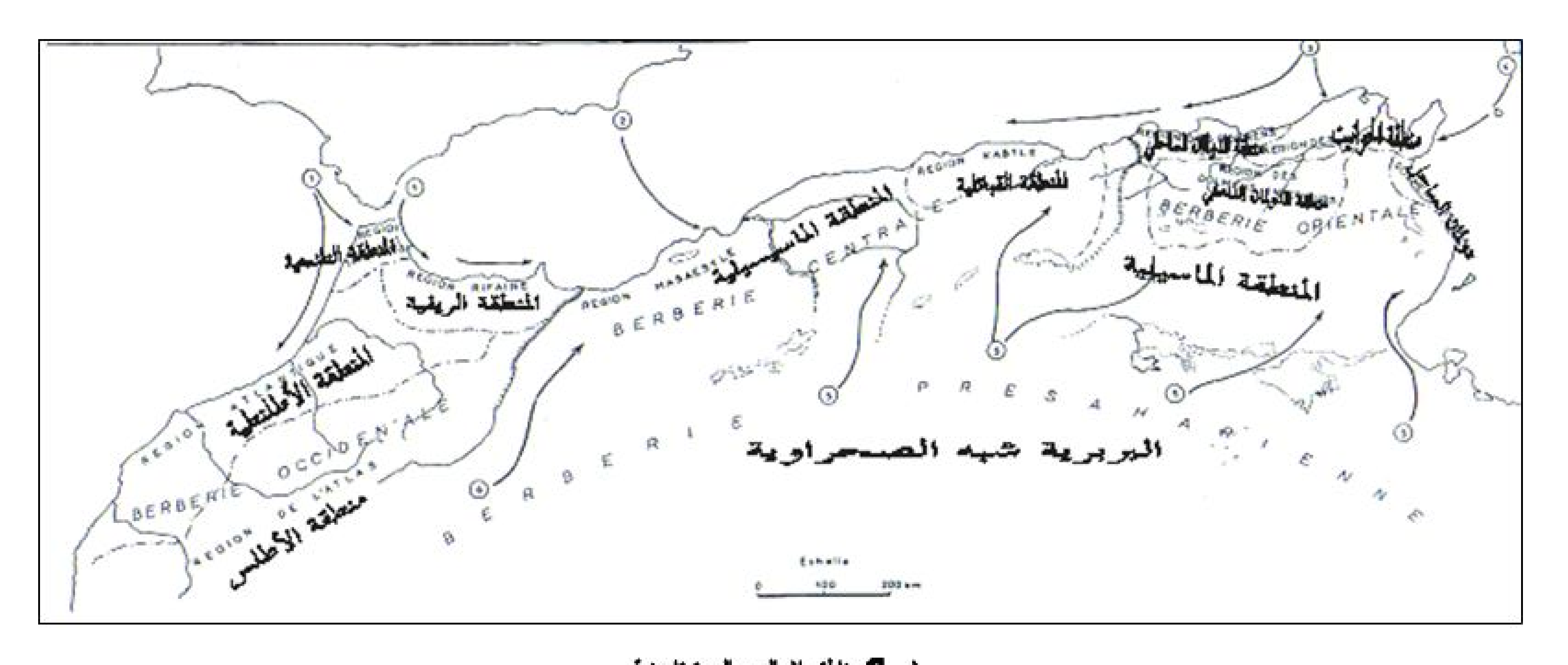
(**452** مكرّر) -Strabon, II, IV, 33

(453) - Cf. supra p. 25.

(**453** مكرّر) -Strabon , III, V, 5

(454) Polybe III, 33, 15 - ؛ **هذا الاسم يظهر في النصوص المزدوجة التي نقشها هانيبال في كروتون بإيطاليا.**

(455) - Cf. supra, Tableau, p. 51.



ش . 17- مناطق بلاد البربر البروتوتاريخية

1- تأثير إيبيري: آنية كمبانية الشكل، سلحة من النحاس والبرونز ، دلمان صغيرة على شكل ناووس.

2- تأثير إيبيري : قبور مطمورية الشكل، أسلحة من نحاس وبرونز، فخاريك إيبرية.

3- تأثير سرديني: دلمان وقبور سردابية

4- تأثير إيطالي-سيكولي : قبور سردابية، فخاريات مزخرفة

5- تأثير أفريقي : معالم مستطيلة الشكل، عناصر تعبّد في العمارة الجنائزية كوى، بريجات، هياكل)

6- تأثير أفريقي : معالم مستطيلة الشكل، عناصر تعبّد، إيداع أسلحة في المدافن

منذ القرن XVII تمّ تفسير أصل اسم مور على ضوء ما جاء في بوشار[456]، بأنّه مدغم من الكلمة السامية **ماهاوريم** (*Mahaurim*) التي تعني "**الغربيين**"، وهو الاسم الذي أطلقه الفينيقيون على سكان أفريقيا الشمالية الواقعة في الغرب (المغرب عند الكتّاب العرب) وبعد التعرّف أكثر على الليبيين في البربرية الشرقية احتفظوا بالتسمية للدلالة على شعوب أقصى الغرب فقط أي شعوب المغرب (*Maroc*) أو المغرب الأقصى عند الكتّاب العرب. هذه الفرضية المغرية التي أخذ بها عدد هامّ من المؤرّخين لا تفسّر الصيغة اللاتينية ماوري (***Mauri***) وينبغي استحضار التسمية الإغريقية فباعتراف سترابون أنّ الأهالي يسمّون أنفسهم ماوري بذات الصيغة التي يستعملها الرومان[457]، ولكن في اللاتينية ذاتها لا تسمح فرضية بوشار بتفسير اشتقاق الاسم الجغرافي موريتانيا (*Maurétania*) إلا إذا كان حرف التاء لا علاقة له بالحرف الصافر المحتفظ به في الاسم الإغريقي.

لاحظ اقزال المعروف عنه حذره أنّه لا وجود لأيّ مسوّغ يجعلنا نرفض قول سترابون أنّ اسم ماوري من أصل أهلي، خاصّة وأنّ بلينوس الكبير أشار إلى أنّ من بين قبائل موريتانيا الطنجية قبيلة رئيسية اسمها ماوري (*Mauri*) يقول أفنتها الحروب وجعلتها عشيرة صغيرة من بضع عائلات[458]، واعتمادا على هذه النصوص بحث بعض المؤرخين عن أصل أمازيغي لاسم المور، فهذا رينّ (RINN, L.) يعيد الاسم إلى الجذر أور (***Our***) الموجود في اسم جبل أمور أو عمور ومعناه جبل، أي أنّ اسم مور في هذا التفسير يعني سكّان الجبال أي السكّان المستقرّين في مقابل السكّان الرحّل الذين ترجم رينّ اسمهم نوميد بالرحّل، ولكن هذه الشروح ما هي إلا تهويمات لا قيمة لها[459].

قارب البعض الآخر اسم المور بالاسم الحالي(القديم) للكتلة الأوراسية (آوراس *Aoures*، أوراسينوس *Aurasinus*) فالحرف الصافر الذي يظهر في الكلمة الإغريقية Μαυρουσιοι تجد هنا تفسيره، واعتمادا على هذه المقاربات حاول البعض استنتاج أنّ مملكة بوكوس المورية المعاصر ليوغرطة لم تكن على أرض المغرب الحالي وإنما كانت في الأوراس[460]، هذه الفرضية التي تريد قلب الجغرافيا القديمة لأفريقيا الشمالية ترتّب عنها محاولة لتحويل كل الأسماء من أماكنها شرقا، فسيرتا تصبح هي الكاف وليس قسنطينة، وسيكّا هي توبورسيكو

---

(456) - Bochart (S.), Geographia sacra, Caen 1646, p. 544.

(457) -Strabon, XVII, III, 2 ؛ **وعن فرضية بوشار ، أنظر** : -Gsell (S.), H.A.A.N., t, V, p. 89

(458) - Pline, V, 17.

(459) -Rinn (L.), les premiers royaumes berbères et la guerre du Jugurtha, Rev. Afric. T, XXIX 1885 pp. 172-209 et 2416283 (p. 243-244) ؛ **أوّل رينّ قول سترابون ليستنتج أنّ المور يسكنون كل السلسلة الجبلية من كاب كوتس إلى السيرت مع أنّ سترابون ذكر أن هذه السلسلة التي تمتدّ في موروسيا (Maurusie) سكنها أوّلا الموروسيون ثمّ سكن الجيتول الذين يشكلون أهمّ شعب ليبي في المناطق الداخلية وباقي السلاسل الموازية.**

(460) - Berthier (a.), Juillet (J.) et Charlier (Abbé R.), Le "Bellum Jugurthinum " et le problème de Cirta, 1949.

وليست الكاف، ومولوشا هو ملاّق وليس واد ملوية، والموثول هو واد تاسا وليس ملاّق. هذا الانزلاق الكبير نحو الشرق لكل جغرافية نوميديا يصطدم بتناقضات تاريخية بارزة تنفيه، وبالعودة إلى سترابون، بومبونيوس ميلا وبلينوس باعتبارهم الأقدم والأدقّ، نجد أنّهم يحددون بوضوح موقع تمركز المور في أقصى غرب ليبيا (أفريقيا) كما أنّ تيت ليف كان أكثر توضيحا بحيث حدّد موقع بلاد الماسيسيل في مقابل كارتاجينة أي في المنطقة الوهرانية[461]، وتبعا لذلك يكون موقع بلاد المور غربي الماسيسيل وهم سكان البلاد الواقعة إلى الغرب من الملوية (او احتمالا واد كيس وعلى العموم غربي وادٍ يشقّ المغرب الشرقي) وفي نص سالوست ذاته[462] ذكر على لسان الملك بوكوس أنّ مجرى وادي مولوشا هو الحدّ الفاصل ما بين أقاليم مملكته ومملكة ميسيبسا، في حين أنّ النص الأثري الجنائزي لهذا الملك عثر عليه في شرشال وليس في إحدى المدن التونسية أو في الجزائر الشرقية[463]، وعليه فإنّه لا يوجد أي دليل يثبت أنّ هذا النص الأثري مع أنه نقش على لوح حجري ليس كبيرا، يكون قد تمّ نقله من سيرتا أو من جهة أخرى إلى شرشال.

وفي حدود معارفنا الحالية، لا يمكن أن نضع تمركز المور في أي جهة أخرى غير البربرية الغربية مع أننا لا نعرف إن كان امتدادهم يصل إلى المحيط، ولعل المقابر الركامية الكبرى في سهل الغرب أو حتى تملوس فولوبيليس أو مْزُورة تضمّ رفات أسلاف بوكوس.

النوميد : الماسيسيل والماسيل

بلاد النوميد

إلى الشرق من المور إلى جوار قرطاج يسكن النوميد، وخلال الفترة الرومانية كان اسم النوميد مقتصرا على بعض قبائل الشرق الجزائري وتونس[464]، ولكن في وقت لاحق سيصبح اسم المور علما على كل سكّان الجزائر الحالية، إلى الوادي الكبير (أمبساقا) على إثر تسليم ماسيسيليا القديمة لبوكوس/ وما فتئ اسم المور يمتدّ عبر أفريقيا الشمالية إلى نهاية التاريخ القديم، لينتهي بالتحول إلى مدلول يشمل جميع البربر غير المترومنين[465]، وفي القرون الوسطى أصبح هذا الاسم ذاته علما على جميع مسلمي الغرب[*].

---

(461) -Tite- Live, XXVII, 17.

(462) -Salluste, Bellum Jugurthinum, CX, 8.

(463) - Février (J.G.), l(Inscription funéraire de Micipsa, Rev. D'Assyriologie, t, XLV, 1951, pp. 149-150, Cf. infra pp. 217-237.

(464) قبيلة ذات أهمّية كبيرة بجوار تبرسق النوميدية () وقبيلة أخرى في منطقة برج مجانة تمذ تحديد إقليمها العام 137(; C.I.L., VIII, 4884 (C.R.A.I.B.L., 1904, p. 479 et 484) في نصّ أثري في زوارين (CIL, VIII, 16352) ذكر النوميد. اربشية باسم نوميدا صنّفت على أنّها دوناتية في قائمة مجمع **411** في موريتانيا القيصرية، أنظر: - Mésnage (p.), le christianisme en Afrique, Origine, développement, extension, p. 525.

(465) - Cf. Camps (G.), l'Inscription de Béja et le problème des Dii Mauri, Rev. Afric., t, XCVIII, 1954, pp. 233-260.

(*) في الكتابات الأوربية فقد دخل الفاتحون المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية باسم المور وظل الأندلسيون ولا يزالون يتسمّون بهذا الاسم.

ينتشر النوميد في إقليم يمتدّ ما بين المور وقرطاج، وهم بذلك يشغلون المنـــاطق الـــتي أسميناها البربرية الشرقية والبربرية الوسطى، ولذلك عندما بدأت الدول في التشكّل في أفريقيا الشمالية قامت هنا دولتان هما المملكة الماسيلية التي تشغل الأقـــاليم الممتـــدّة مـــن القطـــر القرطاجي إلى المنطقة السيرتية أي أنّها مطابقة للبربرية الشرقية تقريبا، وبأكثر دقّة منطقـــة المقابر النيوليثية الكبرى.

المملكة الثانية هي المملكة الماسيسلية، التي تشغل باقي الجزائر الحالية وجزء من المغرب الشرقي إلى وادي ملوية، على أنّ هذا الاتساع المعتبر سيتعزز بضمّ سيفاكس لسيرتا قبل فترة حكم ماسينيسا بقليل، ويخبرنا بلينوس أنّ مهد القوّة الماسيسلية هو المنطقة الوهرانيـــة ومـــا يجاورها من المغرب الشرقي[466] وهذا دليل على أنّ البربرية الوسطى : مملكة الماسيسيل هي المنطقة الأكثر تميُّزاً وخاصّة قسمها الغربي الذي يبدو من الواضح أنّه مهد الماسيسيل.

أصل اسم نوميد

يبدو أنّ أسماء نوميد ، ماسيل وماسيسيل هي أسماء أهلية وخاصّة في الاسمين الأخيرين اللذين استمرّا في أسماء الأعلام الأمازيغية[467]، أمّا اسم نوميد فيبدو غامضا وكأنّه ســـامي ومردّ ذلك احتمالا إلى أثر مختلف الأنساق الكتابية عليه، ففي نصّين أثريين مزدوجين: لاتيني بوني ولاتيني ليبي وجدنا فيهما اسمين مختلفين في مقابل الاسم اللاتيني نوميـــدا (*Numida*) وفي قلعة بوصبع نجد في نص بوني جديد اسم تيسدات (*Tisdat*) ابن ميتاتيس (*Metatis*) ابن قاوتال (*Gautal*) الـــ **ن ق ر ي** ... (*NGRY*) ، وقد أعطى النص اللاتيني الاسم بصيغة لاتينية لذات الشخص = *Rufus, Metatis filius num(ida) ?*[468]، وإذا افترضنا تكْملة *Num* بـــــ *ida* فمـــن

---

(466) يرى اسطيفان اقزال أنّ المسيسيل كان موطنهم الأول في موريتانيا الطنجية اعتمادا على نصّ لبلينوس (V, 17) وها هو النصّ:

:" Gentes in ea (Mauretania tingitana) quondam praecipua maurorum, unde nomen, quos pierisque Maurusios dixerunt. Attenuata bellis ad paucas recidit familias. Proxima illi Masaesylorum fuerat sed simili modo extincta"

ومن الواضح أنّ بلينوس لاحظ مصير كل من المور والماسيسيل فمملكتاهما متجاورتان. والحقيقة أنّه لم يوضّح ما إذا كان الماسيسيل في وقت ما كانوا متمركزين في موريتانيا الطنجية. بل أشار بوضوح (Pline V, 52) إلى أنّ الماسيسيل يسكنون في موريتانيا القيصرية. وفي نصّ اثري من الريف نقل إلى متحف تطوان (Cf. Le Carcopino P. Le Maroc antique, 7ème édition 1943, p. 286) إشارة إلى : Taeneidir Securi (filius) ex Masaiculis. وإذا كان ماسايكولي يطابق ماسايسولي (وهو واضح جدّا) فإنّ هذا النصّ يفيد أنّ الماسيسيل أو بعضهم لا يسكنون تجوار المكان الذي نقش فيه النصّ وأن تاينيدي أجنبي ولذلك ذكر أصله على الشاهد. أما بطليموس فيحدد بلاد الماسيسيل بموريتانيا القيصرية (IV, 2, 5.)

(467) المعروف هو شخص باسم م. أوريليوس الماسيسيلي في وظيفة والي (Préfet) شيّد Centenarium في آقمون او باكير (جهـــة القبائل الكبرى) CIL, VIII, 9010 والماسيل هم الذين تذكرهم المصادر أكثر/ وفي الأمثلة التي قـــدّمها اقـــزال (S. Gsell, H.A.A.N., t, V, p. 96 n° 2) نضيف شخصا باسم ماسولوس (Massulus) في نص حنائزي من سيلة: -Cf. F. Logeart, Grottes funéraires hypogées et caveaux sous roches de Sila, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t, LXIII, 1935-1936, pp.69-105

(468) هذا النصّ الأثري درس مرّات متتالية : CIL, VIII, 17467؛ I.L.A. I, 446 ؛ - Chabot (J.B.), Journal asiatique 1917, p. 23 sq… et Punica pp. 134-140; et enfin: Février (J.G.), Sur la bilingue de Guelaa bou Sba, B.A.C., 1951, pp. 38-43

الممكن إعطاء ذات المدلول للمقابل البوني *NGRY* في حين أنّ هذا الاسم الاثني وارد في حوالي ستة نصوص ليبية بصيغة *NGRH*[469]، وهذه النصوص الأثرية جميعها عثر عليها في المنطقة ما بين بوشقوف وسوق اهراس أي في في قلب نوميديا ما بين الألب النوميدية وتوبورسيكو النوميدية، ومما أثار استغرابنا هو وجود تشابه صغير بين الصيغ البونية والنوميدية من جهة والاسم اللاتيني للنوميد (*Numidae*) من جهة أخرى ويزداد الارتياب عند فحص نص مزدوج آخر لاتيني ليبي وجد في موقع دار الطبلة بالقرب من وشتاتة[470] :

- - AVSTVS . ASP
RENATIS . FN . TR
- T - ICI . VIX
ANNIS LXXV

قام شابو باسترجاع المحذوفات وركّب النص كما يلي :

(L. F) austus Asprenatis f(ilius) N(umida) tr(ibu) ... tligi (ou ... tlici) vix(it) annis LXXV.

وقرئ النص الليبي كما يلي :

FUSTH U SRNH NBIBH MSUR MNKDH

فوست (= فاوستوس FAUSTUS) ابن سرنSRN (= أسبريناتيس ASPRENATIS) الـــ ن ب ي ب ه LE NBIBH (= ن نوميدة N(UNMIDAE)) من النص اللاتيني :

MSUH (serviteur de soldat? خادم جندي) Mnkdh (de l'empereur الإمبراطور)

صيغة نوميدة إذن مختلفة كثيرا عن NGR التي وردت في النص الأثري السابق. فالاسم الإثني NBIBH معروف بهذه الصيغة في نصوص أخرى في الشيفية، وهي صيغة وردت في خمسة عشر نصّا أثريا، وكتبت مرّة واحدة فقط بهذه الصيغة: NBIDH، كما وردت الصيغة المعتادة في نفس المقبرة في **مشتى جناين** في نصّين آخرين[471].

اعتبر فيفري اعتمادا على نصّ دار الطبلة أنّ الإشكال المتعلّق بأصل اسم النوميد قد زال[472]، ولكن لا أظنّ، فإذا كان *NBIBH* هو أصل الاسم الذي كتب في اللاتينية بصيغة نوميدة (*Numida*) فان هناك ثلاث ملاحظات تخصّ هذا الافتراض: **الأولى** وقد كنا قد أشرنا إليها في معرض الحديث عن النصّين المزدوجين وهي استعمال اسمين اثنين مختلفين هما:

---

(469) **بناء على هذا التشابه في الاسم اقترح فيفري كفرضية اعتبار الأسماء الليبية المنتهية بـــ H كعلامة على انتماء إثني أو انتماء لوظيفة، كما هو في الاسم الليبي MNKDH المطابق للبوني MNKD (الذي يدلّ على وظيفة = إمبراطـــور) وفي الليـــبي NGRH المقابـــل للبوني NGRY (إثني) واذا اعتبرنا هذه قاعدة فغنها ستسمح بالقول انّه عندما يكون الليبي منتهيا بـــ H فإنه يطابق البوني المنتهي بـــ Y وهو اسم يفيد معنى الانتماء الإثني أنظر : Février (J.G.), l, l, B.A.C., 1951, pp. 38-43 - مع أنّه ليس لكل H في نهاية اسم للأسف معرّف سبي، وتبعا لرأي لافوينت فإنّ الحرف قرئ H من طرف الأب شابو ليس إلا إشارة بسيطة للوقف أنظر:**
- Lafuente (G.A.), Le rôle du signe = dans les inscriptions libyque, Rev. Afric., t, CI, 1957, pp. 388-392

(470) - Recueil des inscriptions libyques, n° 85.

(471) - Ibid. n° 114, 117, 119.

(472) - Février (J.G.), Que savons-nous du Libyque ? Rev. Afric. T, C, 1956, pp. 263-273 (p. 267).

NGRH و *NBIBH* في مقابل ذات الاسم نوميدة كما لو أن له مدلول أعمّ من الأسماء الإثنية الليبية.و**الثانية**: المطابقة التي تفرض نفسها ما بين الاسم الليبي *NBIBH* واسم إثني آخر وارد في النصوص الأدبية والأثرية اللاتينية وهو ناباب[473](*Nababes*) ومن الأكيد أنّ ناباب كانوا منذ القرن الأول الميلادي متمركزين في الكتلة الجبلية القبائلية أو إلى الجنوب منها قليلا، وفي جميع الحالات في موريتانيا القيصرية كما أشار إليه بلينوس الكبير أي على مسافة أبعد من الشيفية ولكن هذا البعد لا ينبغي أن يدخل على خط الحوار الدائر حول الموضوع لأنّ القبائل كما هو شأنها اليوم يمكن أن تحمل ذات الاسم رغم بعدها عن بعضها[474]، بل نجد عشائر من ذات القبيلة متفرقة وموزعة في أعقاب حروب أو هجرات داخلية،وكما أنّ *NBIBH* تكتب أحيانا *NBIDH* نرى في بلينوس صيغة ناباد *Nabades* تحل محلّ الصيغة المعتادة ناباب *Nababes* .

الملاحظة الثالثة والأخيرة، تتعلق بمقابل كلمة نوميدة في الكتابات المزدوجة المذكورة أعلاه، في النصّ: تيسدات (أو **روفوس**) ابن **ميتاتيس** و ل. **فاوستوس** ابن **اسبريناس** نلاحظ أنّ اسم نوميدة هو جزء من الاسم الثلاثي (*Tria nomina*) وفي كلمة واحدة اسم نوميدة ما هو إلاّ كنية تشير احتمالا إلى الأصل بالمعنى الواسع ولكن ليس لها ذات المدلول الذي للاسم الاثني، ويثبت نص فاوستوس الأثري ذلك لأنّ الإشارة إلى القبيلة الأهلية التي ينتمي إليها هذا الدفين يبدو أنّها مسجلة على اللوح الحجري لتفيد هذا المعنى. ونجد في نصّ أثري آخر من ذات المنطقة اسماً إثنيا يدلّ على كنية ضمن بنية الاسم الثلاثي وهو نص مزدوج من موقع كاف بني فْرج (في الشيفْية) وقد قُرئ النص اللاتيني كما يلي :

C. Julius G(a)e(tu)lus, vet(eranus), donis donatis torquibus et armillis, dimissus est in civi(tate) sua Thullio, flam(en) perpet(uus), vix(it) annis LXXX, H(ic) s(itus) e(st).

وبالمقابل قدّم النص الليبي الاسم الأهلي للدفين :

كاتا ابن **ماسوالات**[*](KTH U MSULT) فالإشارة MSUH MNKDH (=جندي الإمبراطور) تستجيب للعبارة اللاتينية veteranus ويبدو أنّها تحمل ذات المدلول لذات الشخص[475] رغم اختلاف الأسماء. ويثبت رجوع كاتا يوليوس (Kata Julius) إلى بلدته النوميدية ثوليو (Thullio) أنّه ليس جيتولياً وما قايتولوس (Gaetulus) إلاّ كنية اكتسبها في الجندية.

---

(473) - Table de Peutinger (dans le Djurjura au Nord de la Soummam); Pline V, I, 19 et H. Genevois, Djemaa n'Saharidj : à propos d'une inscription funéraire, Libyca, Anthrop. Epigr; t, III, pp. 373-374

(474) - Cf. Camps (G.), Les Bavares, peuoles de Maurétanie Césarienne, Rev. Afric. T, XCIX, 1955,

من الأمثلة المذكورة يمكن أن نضيف مثال قبيلة نيسيف في تيجيس وفي نيسيويبوس (نقاوس) أمظر :

- Lancel (S.), Suburbures et Nicives, une inscription de Tigisis, Libyca, Archéol, Epigfr. ,t, III, 1955, pp. 289-298.

(*) هكذا قرأها كامبس ولكن نرى أن قراءتها في الليبي ينبغي أن تكون كما يلي : كث أو مسولت لأن هذا أقرب إلى النطق الأمازيغي الحالي.

(475) -C.I.L. VIII, 5209; Rec. des Inscrip. Libyq, n° 146.

نوميد ورحّل

لا نعرف إذن لا الاسم الليبي ولا البوني الذي يقابل الاسم اللاتيني نوميدة [475 مكرّر] (*Numida*) وليس هناك والحالة هذه أي مسوّغ مقبول للقول بأنّه مشتقّ من الاسم الإغريقي Νομαδεσ (الذي يعني رحّل) وإذا كان الرومان قد أخذوا الاسم مباشرة من الإغريق فإنّه ينبغي دمجه في نسق معرب بالحرف[476] وإذا كان اللاتين يطلقون اسم نوميداي Numidae على ذات الشعوب مثل الإغريق تبعا لتشابه الاسم ومن ثمّ أسموهم نوماد Nomadas (رحّل Nomades) فلأنّ أمامهم (إغريق ورومان) نموذج شمال أفريقي يبدو أنّه أمازيغي أكثر منه بونيا رغم الصيغة الغامضة، والواقع أنّ لدينا في الأعلام الليبية عدد هامّ من الأسماء التي تبدأ بحرفي النون والميم NM [477]. كما أنّه توجد مجموعة من الصيادين البدائيين في موريتانيا يحملون اليوم اسم نيمادي (*Nemadi*) [478].

ومن غير الممكن -مهما يكن- تجاهل ما ورد في سترابون من استفاضة : " ... **من قرطاج إلى أعمدة هرقل كما يقال البلد عموما غني وخصب، ولكنه آهل بالحيوانات الضارية كما هو الحال في كل المناطق الداخلية في ليبيا**"، ويمكن التفكير أيضا في أنّ اسم نوماد (رحّل) (نوميد) الذي هو اسم قسم من هذه الشعوب أُطلِق عليه لأنّه في ماضي الزمان كانوا لا يستطيعون زراعة أراضيهم مطلقاً بسبب كثرة الحيوانات الضارية [479] " ويضيف "... **هذا الشعب يحب كثيرا حياة الترحال دون توقّف تاركا الأرض للزواحف والحيوانات المفترسة، مفضّلا حياة البداوة لا أكثر ولا أقلّ على غرار كلّ الشعوب التي تعيش تحت رحمة الفقر والجفاف وقسوة المناخ**" [480] .

الحقيقة أنّ هيرودوت الذي ميّز من بين الليبيين رحّلا(*Nomades* وما هم نوميد) ومزارعين (يسكنون مناطق نعرف أنّها آهلة بالنوميد) يُثبت جيّدا أنّ التسمية الإغريقية ليست مستخلصة البتّة من ملاحظة إثنوغرافية عن نمط المعيشة، ومن الواضح أنّ هيرودوت

[475 مكرّر] لا داعي للعودة إلى الاشتقاقات اللغوية الوهمية التي اقترحها السيّد رينّ (Rinn (L.), les royaumes berbères et la guerre de Jugurtha, Rev. Afric. T, XXIX, 1885, pp. 172-209 et 241-283**) وحسب هذا المؤلّف فإنّ الاسم نوميد مشتقّ من الجذر MED الذي يعني "راعي" (ص 243) من رعاة السهول مقابل المور الجبليين ويستمر في تفاسير مماثلة ليجعل من بوكوس "ملك الجنوب" على ماسيليا (مارسيليا) وهي في ظنّه مستعمرة ماسيلية وأنّ سيفاكس زعيم على حلف (صفّ) بربري !!!!!!!!! .**

[476] **بعض الشعراء ضمّن شعره الاسم الإغريقي مباشرة، انظر :** -Virgile, Enéide, IV, 320, 535;
- Silius Italicus VI, 675; Martial, XII, 26, 6

[477] -Rec. des Inscript. Libyques, pl. XX.

[478] - Gabus (J.), Contribution à l'étude des Nemadi, chasseurs arxchaïques du Djouf, Bull. de la soc. Suisse d'anthrop. Et d'Ethnogr. &951-1952, pp; 49-83.

[479] - Strabon, II, V, 33, trad. A, Tardieu.

[480] -Id. XVII, III, 15.

يتحدّث عن Λιβνεσ Νομαδεσ ولا أحد يفكّر في ترجمتها بـــ "الليبيين النوميد" وهذا حـــدث مؤخّرا بسبب التشابه بين كلمة **ليبي** والكلمة الإغريقية Ναμδεσ التي حاول الكتاب الإغريق واللاتين في وقت لاحق شرحها بالاسم الإثني **ليبي** اعتمادا على حياة الترحال التي تنسب إلى هؤلاء السكّان. وها هو سترابون الذي يعرف جيّدا أنّ الماسيل والماسيسيل يزرعون أراضي عالية الجودة(481)، يفسّر بجدّ سبب حياة الترحال المفترضة تلك، بوجود عدد معتـــبر مـــن الحيوانات الضارية لكن الملاحظ هو أنّ الضواري لا تضايق الحياة الزراعية فحـــسب بـــل تضايق الحياة الرعوية وتربية الحيوان أكثر.

الجيتول

الشعب الثالث الذي يعمُر أفريقيا الشمالية يسمّى الجيتول من طرف القدامى، ومناطق تمركز هؤلاء الجيتول(Gaetulii)غير محددة بدقّة لأنّ النصوص أشارت إلى تواجدهم في المغرب والجزائر وتونس في ذات الوقت،وانطلاقا من خط عرض معيّن يحمل الليبيون هذا الاســـم تلقائيا، وهو اسم ظهر في فترة متأخّرة في المصادر الأدبية؛ويعتبر سالوست أقدم كاتب أشار إليه وخصّ الجيتول بلعب دور هامّ في تكوين الشعب النوميدي، أمّا تيت ليف فأشـــار إلى أنّهم يشكّلون قسما من جيوش هانيبال(482)، وفي الفترة السابقة للحرب البونية أطلِق اســـم نوميد، ليبيين، ومور على أناس يعْمرون"منطقة" جيتولية،وقد جمع اسطيفان اقزال عددا من المؤشرات النادرة التي سجّلها الكتاب القدامى والتي تسمح بتحديد مناطق تواجد عدد مـــن القبائل الجيتولية(483)،وهناك شيء قليل يضاف إلى ما أشار إليه مؤلف التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية وهو أنّ بعض وجهات نظره عن الجيتول ينبغي أن تكون محلّ مراجعة وأولها تتعلق بالقبائل أو بالأحرى الكنفدراليات الجيتولية في المغرب الأطلسي فهو يرى ومعه كاركوبينو أنّ جيتول الأوتولول كانوا يتواجدون في البدايـــة بجـــوار واد بـــورقرق ومدينـــة ســـلا الرومانية(484)،وكانوا يهدّدون خطوط الاتصال بالأطلس وقـــد افتـــرض كـــاركوبينو أنّ الأوتولول(Autololes)طُردوا تبعا لذلك نحو الجنوب من طرف قبيلة الباقواط (485) التي نزحت

(481) -Id, XVII, III, 11
(482) - Tite – Live, XXIII, 18, 1.
(483) -Gsell (S.), H.A.A.N., t, V, pp. 109-112.
(484) - id., op. l, p. 110 ((في المغرب توجد قبائل جيتولية ما بين واد بورقرق والساحل الأطلنطي وجبال الأطلس)) أنظر :
- Carcopino (J.), Maroc antique, pp. 258-259
485 - Carcopino (J.), op. l, p. 266.

إلى موريتانيا الطنجية،وتبيّن دراسة عميقة لفريزول أنّهم لم يكونوا مجبَرين على التنقل جنوبا وكان موطنهم ما بين رأس صوليس (Cap Cantin) ومنطقة الـــسوس (Le Quosenus) وكـــانوا يعْمُرون في الواقع إقليما يمتدّ ما بين سلا والأطلس الكبير[486]، وخلال تمدّدهم نحو الشمال سوف يشغُل الجيتول البانيور والأوتولول إقليما هو المنطقة الأصلية للمور.

الحدود الجنوبية لبلاد الجيتول

يمتدّ انتشار الجيتول جنوب موريتانيا الطنجية إلى تخوم الإثيوبيين وهم يتوضّـــعون في المقاطعات الأفريقية الأخرى أيضا، ومن الصعوبة القول – بما أنّ التناقــضات عديـــدة في موضوع مدلول اسم إثيوبي – أنّ الجيتول ينتشرون في السهوب والصحراء معاً، أو أنهـــم لا يشغلون سوى الهوامش الجنوبية لبلاد الأطلس، لأنّ الصحراء متخلّى عنها للملونين، وصفوة القول لو أن الصحراء تمثّل عبر التاريخ القديم تعميرا مماثلا لتعمير اليوم فإنّ الإشكال سيكون غير مطروح: الجيتول الرحّل ينتجعون في الصحراء وفي السهوب المجاورة على غرار كبـــار البدو اليوم في حين أن الإثيوبيين يشغلون الواحات مثل الحرطانيين وهو اســـتنتاج يجعلنـــا نستطيع القول أنّ إثيوبيا تمتدّ إلى شمال الواحات أو أنّ جيتوليا تمتدّ جنوبا إلى حدود البداوة البيضاء، ولكن نفتقر إلى الدليل الذي يسمح بالتفكير في أنّ الرحّل الأمازيغ كانوا يشغلون كلّ الصحراء، مع أنّ قوتيي يدْعم فكرة أنّ دخول الأمازيغ إلى الصحراء لم يتمّ إلاّ في وقت متأخّر أمام ضغط الرومان من الشمال ومع تطوّر تربية الجمل[487].

ولنا أن نفكّر في أنّ القرامنت-الشعب البدوي الذي يعيش في الفـــزان وفي تاســـيلي نـــ'اجّر- كان من الأمازيغ وليس إثيوبيّاً كما افترض اقزال[488]، لأنّه كان دائما على صلة بالجيتول.وفي أقصى الشرق نرى توغّل بدْو ليبيِّي هيرودوت كثيرا في الـــصحراء ومنـــهم الناسمون الذين كانوا يذهبون لجني التمر أوبالأحرى لجني نصيبهم من الغلّة إلى واحة أوجيلة،

(486) -Frezouls (E.), Les Baquates et la province romaine de Tingitane, Bull, d'Archéol., maroc. t, II, 1957, pp. 65-116 (pp. 98-100).

(487) - Gautier (E.F.), Le Passé de l'Afrique du Nord, Les siècles obscurs, Paris 1937 هذه المسألة الهامّة نوقشت ثانية من قبل ديموجي، أنظـــر: - Demougeot (E.), Le Chameau et l'Afrique du Nord romaine, ***Economies, Société, Civilisation,*** XV e année n°2, 1960, pp. 209-247.

(488) - Gsell (S.), op. l, t, V, pp. 9-10 جعل القرامنت من بين الصحراويين وعن أنثروبولوجية القرامنت ينبغي الرجوع إلى : -Pace (B.) Caputo (G.) et Sergi (S.), Scavi sahariani, Monumenti antichi, t, XLV, 1951, pp. 443-504 ؛ واعتمادا على مرسيي، أنظـــر : - Mercier (G.), La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, ***Journal asiatique***, 1924, pp. 189-320 فإنّ القرامنت يضمّون آق قرمان (Ag German) أي أهل القرى أو أهل القصور (gens des Ksours) قاراما أو قارامنـــت مشتقّة من الجذر G R M أقرم .العبارة تحمل معنى تجمع سكاني، قرية أو دشرة (ص**280**).

وبعضهم يصل إلى الأقوام الزنجية المجاورة للتشاد أو النيجر[489]، وفي أقصى الغرب كان الفاروزيون وهم البدو الذين ميّزهم سترابون عن الإثيوبيين بقوله يسكنون بلدا(**تسقط فيه أمطار غزيرة في الصيف**) ومثل هذا المناخ لا وجود له اليوم إلاّ في جنوب ريودورو[489 مكرّر].

الحدود الشمالية، نموذج الموسولام

حدود إقليم الموسولام غير معروفة جيّداً في الشمال كما في الجنوب، وقد رأينا الغموض الذي يسود هذا الموضوع في المغرب الأطلنطي؛ ويزداد الغموض أكثر في البربرية الوسطى حيث ذكر سترابون أنّ بعض المجالات المحدودة فقط هي التي يزرعها الجيتول[490]، وبالاتجاه شرقا نعرف جيّدا أنّ قفصة تقع في بلد جيتولي في عهد يوغرطة ولا يبدو أنّ ذلك هو حال تالة [490 مكـرّر]، فبعد نصف قرن خلال الحرب الأهلية (الرومانية) استولى سيتيوس على "مدينتين جيتوليتين" في أعقاب احتلال سيرتا ؛ وهذا لا يدلّ على أنّ هذين البلدتين كانتا بجوار العاصمة النوميدية [491].

يولي اسطيفان اقزال عناية كبيرة بعبارة ابوليوس التي يقول فيها أنّه نصف نوميدي نصف جيتولي وأنّ موطنه : المادور كان في التخوم النوميدية الجيتولية[492]، وبالمقابل كتب سترابون أنّه ما بين جيتوليا والساحل المتوسطي :" **نجد الكثير من السهول والكثير من الجبال أي بحيرات كبيرة وأودية وبعض هذه الأخيرة يختفي فجأة ويغوص تحت الأرض**"[493]. هذا الوصف الدقيق لمناطق الجنوب القسنطيني لا يبدو أنّه يؤكّد قول أبوليوس أمّا اسطيفان اقزال فيضع قبيلة الموسولام ضمن الجيتول وهو اعتماد ظنّي على نصّ أبوليس، والمعروف أنّ حدود إقليم الموسولام خلال العهد الإمبراطوري تمرّ على مقربة من المادور بما لا يزيد عن 4 كلم وأنّ أبوليوس ذكر أنّ هذه المدينة تقع في التخوم النوميدية الجيتولية وقد كان من المغري عقد مقاربة لكن لا تاكيتوس ولا أي مؤرخ آخر عالج

---

(489) - Hérodote, IV, 172, 182, et II, 22.

(489 مكرّر) -Strabon, XVII, 3, 7, **تراجَع خريطة نظم التساقطات المطرية في الصحراء في:**
- Cf., R. Capot-Rey, Le Sahara Français, pp. 64-65.

(490) - Strabon, XVII, 3, 9.

(490 مكرّر) -Salluste, Bellum jugurthinum, LXXV et LXXVI, XCI et XCII **ولا يبدو أنّ موقع ثالة في جيتوليا، لأنّ فلوروس ذكر أنّه بعد سقوط هذه المدينة قام متلوس بملاحقة يوغرطة عبر جيتوليا (Florus, I, 36, 12) ويبدو أنّ يوغرطة لم يضمّ إلى حيشه جيتوليين إلاّ بعد سقوط ثالة، ولا يكاد سالوست يذكر شيئا عن الفِرَق المساعدة الجيتولية قبل نهاية حملة سنة 108 .**

(491) - Bellum africanum, XXV, 3.

(492) - Apulée, Apologia, XXIV, 1

(493) - Strabon, XVII, 3, 19.

موضوع الموسولام[494] وقال إنّهم جيتول، والجدير ذكره أن تاكيتوس الذي تحدث مطولا في موضوع ثورة تاكفارين يعتبرهم دائما نوميداً، ولا يمكننا حتى مجرد التفكير أنه استخدم هذا الاسم في معنى عام لأنه يميز بدقة النوميد (الموسولام) تحت قيادة تاكفارين عن المور تحت أوامر ماسيبا (*Mazippa*) وعن القرامنت في الأخير، أما بول اوروس فقد ذكر في ذات الجملة الموسولام والجيتول مما يبين انه يميّز في ذهنه بين الموسولام والجيتول.

من جهة اخرى لا تسمح المعطيات الأثرية بإظهار أي فرق في موضوع نمط المعيشة والعادات مابين البلاد الواقعة بين المجردة وخليج عنابة من جهة والبلاد الواقعة ما بين المجردة وجبال تبسة من جهة أخرى لان مقابر قسطل وجبل مستيري هي مقابر سكان من الفلاحين المستقرين وليسوا من الرعاة الرحّل ولو كان الموسولام من الجيتول ينبغي القبول بأنّ بعضهم لم يكن البتّة من الرحّل ولا يكاد يختلف عن المزارعين النوميد.

نمط معيشة الجيتول

يبدو والحالة هذه أن نمط المعيشة وحده هو الذي أعطى للقدامى إمكانية تمييز النوميد والمور عن الجيتول والقرامنت فالأولان يسكنان التلّ بالتأكيد حيث كانت الفلاحة ممكنة، والأخيران ينتجعان في السهوب والمناطق الصحراوية، ولا أظنّ في واقع الأمر أنّ اسم الجيتول محتفظ به "**لأقوام بقوا عند تكوين ممالك المور والماسيسيل والماسيل خارج تلك الممالك**" [495]، ومن المعلوم أنّ الجيتول في واقع الحال ولو أنّهم لم يكوّنوا ممالك حقيقية (على الأقل النصوص سكتت في هذا الموضوع) فإنّهم دخلوا بقسم كبير في الممالك النوميدية والمورية، وإذا كان ماسينيسا سيّداً على سيرتا ولبتيس في الآن ذاته فإنّه ينبغي والحالة هذه أن يكون سيّدا على جيتول جنوب البربرية الشرقية، مع أنّه ليس لدينا أي فكرة عن اتساع مملكة باقا ولا مملكة بوكوس إلاّ أنّنا نعرف في المقابل أنّ مملكة يوبا الثاني تمتدّ على الأقل إلى الموقادور (الجزر الشعبية) أي في الإقليم الجيتولي.

ليس لكلمة جيتول إذن مدلول سياسي ولا إثني أيضا لأنها مستعملة بالترتيب للدلالة على الشعوب الجنوبية بدءا من الأطلنطي إلى خليجي السيرت وحتى إلى جنوب قورينة[496]، أي إلى شعوب هي بالضرورة من الرحّل.

(494) -Tacite, Annales, II, 20, 21, 32, 73, 74; IV, 22, 24, 25; -Aurelius Victor,De Caesaribus 4; Paul Orose,VI, 21, 18.
(495) - Gsell (S.), H.A.A.N., t, V, p. 110.
(496) -Strabon, XVII, 3, 19 et 23.

كان الجيتول[497] على صلة في نفس الوقت بالقرامنت الذين يصعب تمييزهم عنهم وبإثيوبيي الواحات والسودان وكذا بإخوانهم في العرق: النوميد والمور في الأقاليم الشمالية، وكانوا يشغلون إذن السهوب الشاسعة المحاذية للصحراء أمّا المزارعون المشار إليهم هنا وهناك في جيتوليا فيمكن أن يكونوا مندمجين في مجموعات مستقرة تشغل كلّ الأودية المروية في الأطلس؛ إلاّ أنّ الجيتول كانوا في أغلبيتهم من الرعاة الرحّل خلفاء مربّي الأبقار الكبار النيوليثيين والذين خلفهم الجمّالة. أولئك الفرسان البدو كانوا قد ألفوا الصعود كل صيف نحو المراعي الشمالية وعلى امتداد طريقهم في تلك الطلعة الصحراوية التي أشرنا إليها أعلاه، أدخلوا بعض الأشكال الأفريقية أكثر منها متوسطية ويبدو أنّ أولئك البدو الذين تساعدهم البيئة الصحراوية على التأمل كانوا يعلقون أهمّية كبرى على العبادة الجنائزية أكثرمن جيرانهم في الشمال وتظهر الهياكل والعلامات والصوامع الملتصقة بالقبور ممارسات طقسية غير معروفة لدى النوميد والمور أكثر منه لدى البربر الآخرين أمّا الجيتول والقرامنت فقد ظلّوا فترة طويلة أوفياء لتقاليد الحاميين الأولى التي عرفت على ضفاف النيل ازدهارها الكامل.

كذلك تضافرت ببساطة معطيات علم آثار فجر التاريخ والإشارات المستخلصة من النصوص القديمة مما يسمح بوضع المور دون صعوبة في البربرية الغربية مابين المحيط والملوية، والنوميد الماسيسيل في البربرية الوسطى إلى الوادي الكبير والنوميد الماسيل في البربرية الشرقية باستثناء إقليم قرطاج وأخيرا الشعوب البدوية من جيتول وقرامنت في السهوب والمناطق الصحراوية.



[497] المصدر الاشتقاقي لكلمة جيتول غير معروف جيّداً كما هو حال مصدر مور ونوميد، والواضح أنّ الاسم مشتق من لغة الأهالي وهو صفة أكثر منه اسما إثنيا ولعله على غرار أسماء (شاوية : مربو حيوانات) قبائل (أناس القبيلة) وهناك عديد الافتراضات التي ساقها عدد من الكتّاب لتفسير اسم جيتول، أنظر :

- Gsell (S), H.A.A.N., t? V, p. 109 ؛ وكذا الدراسة الحديثة لويسيشي، أنظر :

- Wycichi (M.), Les Gétules de Mauritanie, Bull. de l'I.F.A.N., 1955, pp. 163-167.

الاسم قايتولوس (Gaetulus) مشتقّ من الأصل البربري أقوذال وجمعه إقوذالن وفي العربية كتب جدّالة.

ب ـ ممالك القرن الثالث

أصل الممالك

لا نعرف بالضبط في أيّ فترة انتظمت هذه الممالك في بلاد البربر، فقد أشار عدد من المؤرخين القدامى إلى ملوك يكونون قد حكموا في فترات سابقة للحرب البونية الثانية، ولكن هذه الإشارات المتأخّرة كثيرا، لا تقدّم أيّ معلومات تفصيلية فيما يتعلّق بسلطة هؤلاء الملوك والمجال الجغرافي الذي تمتدّ عليه ممالكهم.

هؤلاء المؤرّخون القدامى ذكروا عددا من أولئك الحكّام بلقب ملك، وأقدم هؤلاء هو يارباس (Hiarbas) ملك الماكسيتاني (Maxitani) في الأسطورة التي رواها يوستين : **يارباس ادّعى أنّه فرض على القرطاجيين تزويجه بإليسا (ديدون) ولكن إليسا لتبقى وفية لذكرى زوجها أشرباس (Acherbas) انتحرت بإلقاء نفسها في محرقة (Bûcher)**" [498] وتكمن أهمّية هذا النص في ذكره لاسم شعب الماكسيتاني الذي من خلاله نتعرّف على الجذر MZG (مازيس Mazices) المحرّف قليلا، أمّا يارباس فيحمل اسما أفريقيّا سيكون هو الآخر اسما لملك تاريخي من القرن الأول ق.م. [498 مكرّر] ومن الواضح أنّ قرطاج منذ تأسيسها كانت لها علاقات- مع بعض الزعماء الأهالي- تشهد توتّرات بين الحين والآخر، ولكن لا شيء يسمح بالتفكير في وجود ممالك أثناء ذلك[*].

وجدنا إشارات إلى ملوك من القرن الرابع ق.م. مرّتين؛ في الأولى يخبرنا يوستين أنّ حانون وهو يريد الاستيلاء على السلطة في قرطاج استنجد بملك المور[499]، وبعده يأتي ديودور الذي أشار – في سياق روايته لحملة أغاثوكليس- إلى زعيم باسم أيليماس (Ailymas) ملك الليبيين[500]. لكن من غير الحكمة الادّعاء أنّه منذ القرن الرابع كانت هناك مملكة ماورية موجودة لأنّ نصّ يوستين غير موثوق منه كثيرا، مع أنّه من المعروف في

---

(498) - Justin, XVIII, 4,6.

(498 مكرّر) - Tite-Live, Epitome du Livre XXXIX et St GSELL, H.A.A.N., VII, p. 281.

(*) **نستغرب الخروج بهذه النتيجة من قبل غابريال كامبس، أليس تأسيس قرطاج في حدّ ذاته قائم على رواية أسطورية، فلماذا لا يعتبر ذكر يارباس والماكسيتاني إشارة إلى وجود مملكة بهذا الاسم خاصّة وأن اسم يارباس سيتكرر في سلسلة الملوك الماسيل مما يدلّ على أنّه من ضمن الملوك الماسيل لأن التقليد المعروف في شمال أفريقيا هو أنّ العائلة تحيي أسلافها بإعادة تسمية أبنائها بأسماء الأسلاف .**

(499) - Justin, XXI, 4,7.

(500) - Diodore, XX, 17, 1. et 18, 3.

واقع الحال ومنذ هذه الفترة، وجود أمراء أقوياء حكموا في منطقة الغرب. حيث أنّ مدافن التملوس الكبرى في سيدي سليمان تعود إلى تلك الفترة التي شهدت توسّعا في العلاقات بين الفينيقيين والأهالي امتدّت نحو الداخل.الإشارة إلى الملك أيليمـــاس (Ailymas) ذات أهمّيـــة كبيرة، ذلك أنّنا نستطيع الاستنتاج من نصّ ديودور الذي وردت في الإشارة، أنّ هذا الزعيم الليبي كان له إقليم مجاور لإقليم قرطاج، وبكلّ وضوح في تونس الوسطى، لأنّه في طريـــق الذهاب لحصار هدرومت عقد مع أقاثوكل تحالفا، فهل كان هذا الزعيم خلالها ملكا علـــى الماسيل ؟ ليس مستبعدا ولكن من الصعب إثبات ذلك.

الزعماء الماسيل الأوّلون

من المعروف أنّ المملكة الماسيلية كان لها وجود على امتداد أجيال قبل ماسينيـــسا، لأنّ هذا الأخير تلقّى من الرومان حقّ المطالبة بالأراضي التي كانت تابعة لأسلافه [501].

خلال حرب الجند المأجور، التحق أحد الزعماء النوميد وهو ناراواس بالقرطاجيين، وكان قبل ذلك قد حاربهم، وهذا الزعيم لم يعطه بوليب الذي روى الأحداث لقب ملك، ولكن أشار إلى أنّه شخصية من مقام رفيع وأنّ لوالده علاقات صداقة بالقرطاجيين[502]، ومن المحتمل إذن أن يكون نجل أمير حليف لقرطاج، ولعلّه يكون قد نشأ في قرطاج كرهينة، لأنّه يعرف أميلكار ومعجب به. والخلاصة أنّ النوميد الذين كان يقودهم لم يكونوا من رعايا قرطاج الليبيين، كما أنّ إقليمه كان خارج المنطقة التي كانت قرطاج تسيطر عليها مباشرة، وعليه فإنّه من غير المستبعد أن يكون ناراواس هذا من أفراد العائلة الملكية لنوميديا الشرقية حتّى وإن لم يكن ملكاً. وقد وردت عبارة لأبيانوس مفادها أنّ ماسينيسا نشأ في قرطاج[503]؛ ومن هذا يمكن استنتاج وجود مؤسسة قائمة منذ أجيال عديدة – تتمّ فيها تنشئة الأمراء الشباب فكريا– بغرض جعْلهم في المستقبل منفّذي سياستها الأفريقية، وضمن هذه الرؤية السياسية يتمّ تزويج الأمراء النوميد ببنات من الأرستقراطية البونية؛ وقد نال ناراواس وعدا من أميلكار بتزويجه من ابنته، وكانت زوجة أوزالس (Oezalcès) بنت أخ هانيبال، وتزوّج سيفاكس من صوفونيسب بنت أسدروبال.

(501) Polybe, XV, 18, 5. - ولكن هذا المنطق لا يستقيم، لأن ادّعاء الحكمة والحذر من قبل المؤلف هو في واقع الحال عذر أقبح من ذنب، لأن قرطاج أقيمت على أرض المملكة الماسيلية التي ذكرها يوستين باسم مملكة الماكسيتاني وأنّ أيليمـــاس ومـــن قبلـــه يارباس هما أسلاف العائلة الملكية الماسيلية التي ينحدر منها ماسينيسا، وعبارة تلقى من الرومان هذه عبارة فيها غمـــز، لهـــؤلاء الذين يرون في كلّ ما قام به ملوك البلاد مجرّد تنفيذ لأوامر رومانية .... ، لأنّ الكلام عن وجود مملكة ماسيلية أفريقية عريقـــة تملك مصيرها كان يزعج الاستعمار بالأمس، مثلما يزعج بعض مريدي الأيديولوجيات المشبوهة اليوم.

(502) - Id. 1, 77

(503) - Appien, Lib. 10, 37, et 79.

كان ناراواس حتى وإن لم يكن ملكاً، يمارس سلطات واسعة لأنّه كان على رأس ألفـــي فارس وهو عدد مطابق لعدد الفرسان الذين جاء بهم شخص باسم توخايوس (Tuchaïos) لهانيبال عشية معركة زاما [504]، وتوخايوس هذا كان من أقارب سيفاكس الـــذي كـــان يتحكم آنئذٍ في مجموع المملكة النوميدية، ويرى اغزال أنّ هذا الزعيم كان على رأس قبيلـــة الأرياسيد (Areacides) التي أشار أبيانوس إلى أنّها انضمّت إلى هانيبال[505]. ومن جهتنـــا ليس لنا بكلّ أسف أيّ معلومة عن هذه القبيلة التي على غـــرار الميكاتـــان (Micatanes) والزوفون (Zuphônes) كانت متمركزة في قسم من الدورسال التونسي، وتكون حـــسب الظروف تابعة لقرطاج أو المملكة الماسيلية، ومع أنّ ناراواس ينتمي إلى العائلة الملكية غير أنّ ذلك لا يمنعه من أن يكون على رأس إحدى هذه القبائل التي يمكن أن تسهم ببـــضعة آلاف من المحاربين.

كان الملوك الماسيل يقودون عددا معتبرا من الجند: وكان لاكوماز منافس ماسينيسا على رأس 15000 من المشاة و 10000 من الفرسان؛ كما تمكّن ماسينيسا بعد انهزامه من جَمْـــع 6000 من المشاة و 4000 من الفرسان في أيام قليلة، وكان سيفاكس وهـــو ملـــك علـــى نوميديا الموحّدة على رأس ستين ألف مقاتل في المعركة ضدّ سيبيون[506].

ورد ذكر للمملكة الماسيلية التي نتكهن بوجودها منذ القرن الرابع ق.م. لأول مرّة خلال الحرب البونية الأولى، في نص غير موثوق منه لهسياناكس[507].

بدايات مملكتي الماسيسيل والماور هي الأخرى يلفها الغموض ولكن سكوت النصوص لا يمكن اتخاذه دليلا على عدم وجودهما. فسيفاكس الذي قال تيت ليف أنّه كان أقوى ملـــك في عموم أفريقيا، وباقا ملك المور الذي وفّر لماسينيسا موكبا عسكريا مرافقا قوامـــه 4000 رجل لا يبدو لنا أنّهما مجرّد مغامرين صنّاع ممالك دون مستقبل أو أنّهما مجرّد ورثـــة قـــوّة تشكّلت عبر فترات غامضة كشفت عنها تقلّبات التاريخ فجأة.

---

(504) - Polybe, XV, 3, 5.

(505) - Appien, Lib, 33.

(506) عن هذه الأرقام أنظر: - Gsell (S.), H.A.A.N., V, p. 148, note 6

(507) - Hésianax, Fragm. Histor. Graec. III, p. 70, n°11; cf, supra, p. 39. ؛ ونحن لا نجد مبرّرا لعبارة كامبس في قوله نصّ مشتبه به وغير موثوق منه، فما هو الأساس الذي بنى عليه هذا الاشتباه أو عدم الوثوق، وهل كلّ نصّ يشير بوضـــوح إلى وجود نظام ودولة ماسيلية يصبح غير موثوق منه، خاصّة وأنّ نصّ عمل كامبس هذا الذي بين أيدينا كتب والثورة الجزائريـــة في عنفوانها فهل لذلك علاقة بآرائه هنا ؟؟

الأسر الملكية والولاء للسلالة الحاكمة

كلّ ما يمكن أن نكتبه في شأن تشكّل هذه الممالك يستند بالكامل على فرضيات، فنحن لا نعرف غير أسمائها، وموقعها بالتقريب. وتحمل ممالك القرن الثالث البربرية الثلاثة أسماء شعوب أو قبائل: هذه الأسماء عرفت نهايات مختلفة، ذات علاقة بنهايات الممالك ذاتها التي تحمل أسماءها، فبعد زوال مملكة سيفاكس اختفى اسم ماسيسيل من الاستعمال؛ وفي بلاد الماسيسيل في شرشال اكتفى نصّ ميكيبسا الجنائزي بالإشارة إليه باسم ملك الماسيل لا غير، وبعد تسليمه يوغرطة استلم بوكوس كلّ ماسيسيليا أو قسما منها، وبقي ملكا على المور، وسكّان هذا الإقليم الذين لم يبقوا نوميداً ولا ماسيلاً ولا حتّى ماسيسيلاً تلقّوا اسم مور.

هذه الملاحظات تقود إلى التفكير في أنّه خلال إنشاء هذه الممالك فرضت العائلة التي انبثق منها زعيم دانت له القبائل اسمها على الدولة الوليدة. ويشير بلينوس إلى صحّة هذه الفكرة بوضوح في شأن المور، ويمكن من خلال التطابق وعلى ضوء التقليد الماسيلي الوارد في نقيشة ميكيبسا استنتاج أنّ ذلك يصدق على المملكتين النوميديتين.

ومثلما كتب اقزال، من المحتمل أن هذه الممالك تكون قد تأسّست باستعمال القوّة بحيث تجمع قبيلة قويّة تحت سيطرتها قبائل أخرى تعيّن على رأس كلّ منها زعيما ينتمي إلى العائلة المنتصرة، ومثل هذه الممالك ليس لها سوى قاعدة إقليمية ضعيفة تقوم على توسّع إقليم القبيلة المؤسسة، أمّا السلطة فتقوم على علاقات شخصية ما بين الملك وزعماء القبائل التابعة[508]، وفي حال ما إذا كانت القوة هي الأصل الوحيد لقيام هذه الممالك فإنّ مشاعر أخرى ستظهر في فترات لاحقة تدعّم الروابط الشخصية بين الملك ورعاياه، وقد ألحّ المؤرخون مرارا ومطوّلا في موضوع تقلّب الأفريقيين عموما والنوميد على وجه الخصوص، في حين نفاجأ في سياق الأحداث الدموية التي عرفتها الممالك الأفريقية بدلائل الإخلاص والوفاء وهي ليست أفعالا فردية كالخيانات بل جماعية وموجّهة أكثر لشخص الملك وليس لمجرّد شخص في الحكم، وللحاكم الشرعي أكثر من قائد ظرفي، وكان يكفي ماسينيسا – المهزوم والملاحَق من قبل عساكر سيفاكس – أن يقدّم نفسه للماسيل ليجمع عشرة آلاف مقاتل في ظرف أيام وجيزة، وإذا كان يوغرطة الذي اعترف له بالملك من قبل النوميد جميعا بعد

(508) عن هذه القضايا يراجَع - Gsell (S.), H.A.A.N., V, pp. 71-79

اغتيال ابني عمّه يمكن أن يتوجّس من حبك مؤامرات ضدّه من قبل بعض ضبّاطه إلاّ أنّه ظل محتفظا بولاء الشعب له إلى آخر يوم حيث سلمه ملك المور للرومان وهذا الوفاء ظل قائما فقد كانت هناك محاولة لإغراء الفرق المساعدة النوميدية العاملة ضمن الجيوش الرومانية في إيطاليا ولكسب ولائها وحثّها على القتال خلال الحرب الأهلية، بإظهار أحد أبناء يوغرطة مرتديا حلّة أرجوانية [509]، وأخيرا فإنّنا نعرف الاضطرابات التي حدثت في موريتانيا في أعقاب اغتيال بطليموس[510]. وإذا كان ليس لدينا ما يجعلنا نعتقد أنّ تعلق البربر بشخص ملكهم نابع من حبّهم له فإني أرى أنّه يعود إلى عوامل دينية سحرية[*].

في كل المجتمعات البدائية يكون الملك كاهنا بقدر ما هو قائد حربي ومن المحتمل ان يكون للملوك الأمازيغ وظائف دينية موازية، ويتمتعون خارج هذه الوظائف بحماية سحرية حقيقية وبكرامات ورثها عنهم الأولياء المسلمون في الشمال الأفريقي. هذه الكرامات وهذه القوّة السحرية لها اسم هو **البركة** وهذه الخاصية المقدّسة للملكية أهملت عموما، ويبدو أنّها لعبت دورا معتبرا فيما يسمّى بعبادة الذات الملكية.

المملكة المورية

تبقى مملكة المور غير معروفة كثيرا لدينا، وهذا الغموض يمتدّ أيضا إلى فترة ما بعد ماسينيسا، على أنّ وحدة الاسم الذي حملته مملكة البربرية الغربية إلى وفاة بوقود وتشابه الأسماء التي حملها ملوكها تباعا (باقا، بوكوس، بوقود) [511]، يجعلني أرى أنّ ذات الأسرة تكون قد حكمت منذ القرن الثالث إلى نهايتها بوفاة بوكوس الأصغر.

باقا ، ملك المور

كانت أسرة بوكوس الملكية تسيطر في القرن الأخير ق.م. على أقاليم ممتدّة على أقلّ تقدير إلى الأطلس، إلى حدّ أنّ بوقود **قاد حملة لمحاربة الإثيوبيين** ولكن هذه العبارة الواردة في سترابون [512]، لا تسمح بتأكيد أنّ مملكة باقا (قبل قرنين) كانت بذات الاتساع، ولا

(509) - Appien, Guerre civile, I, 42.

(510) - Carcopino (J.), le Maroc antique, p. 36

(*) **ولماذا يستبعد المؤلف تعلّق الشعب بملكه، ألأنه متأثر بالدراسات الأنثروبولوجية التي ترى أن الشعوب البدائية لم ترتق إلى درجة التعبير عن مشاعر راقية مثل الوفاء والحب وأن الدين والسحر فقط هما اللذان يوجّهان سلوك تلك الشعوب وهذه رؤى استعمارية غاية في الاستعلاء وفي تحقير الشعوب الواقعة تحت الاحتلال.**

(511) **والتشابه يكون أكبر في حال اختصار الأسماء الذي نجده في العملة، فبوقود يصبح اسمه REX BOCV، أنظر :**
- Mazard (J.), Corpus nummum Numidiae Mauretaniaeque, Paris 1955, p. 61, n° 103 à 106.

(512) - Strabon, XVII, 3, 5.

نرى أنّها كانت ممتدّة حتى لجهة المضيق (أعمدة هرقل) لأنّ هذا الملك كان مهتمّا بالقضايا النوميدية وأبدى تأييده لمطالب ماسينيسا في وراثة العرش الماسيلي، ووضع تحت تصرّفه 4000 رجل للسير في ركابه[513] (خلال مروره بمملكته في طريقه من إسبانيا إلى العاصمة الماسيلية) وبفضل هذه الإشارة المقتضبة لتيت ليف يمكن التأكيد أنّ باقا لم يكن مجرّد مُلَيْك (Roitelet) بل كان كامل السيادة يسيطر في أقلّ تقدير على الأقاليم الممتدّة ما بين المضيق وماسيسيليا، وفي حدود هذه الأخيرة توجد مضارب قبيلة المور التي تسمّت المملكة باسمها [513 مكرّر] وقد ظلّ باقا دائما خلال الصراع الأخير بين سيبيون وهانيبال حليفا لماسينيسا وأرسل وحدات شاركت في الحرب التي ألحقت الهزيمة بالقرطاجيين[514].

لدينا في وقت لاحق ما يؤكّد أنّ المملكة المورية لم يكن لها تنظيم مركزي ففي حوالي 80 ق.م. كان يحكم طنجة وإقليمها مليك اسمه أسكاليس (Ascalis) كان حليفا أو تابعا للملك الموريتاني بوكوس الأول[515] دون ريب، وكانت لأسكاليس هذا أهمّية على الصعيد الدولي بحكم موقع إمارته فقد تلقّى دعما عسكريا من السيلانيين[*] (Syllaniens) –الذين كانوا يسيطرون حينئذ على إسبانيا– لمحاربة رعاياه المتمرّدين، ولكن سرتوريوس (Sertorius) أزاحه عن العرش [516]. وإذا كان من غير الموضوعي الحديث عن تنظيم شبيه في المملكة المورية في عهد باقا فإنّ المؤكّد هو أنّ الممالك ينبغي لها أن تكون أقلّ مركزيّة في بداياتها، فالملوك حينئذ لم يكونوا سوى رؤساء كنفدراليات فضفاضة على العموم، وما هو موجود

---

(513) - Tite-Live, XXIX, 29, 7.

(513 مكرّر) - Pline V, 17, et Ptolémée, IV, 1, 5.

(514) - Tite-Live, XXIX, 30, 3.

(515) بوكوس الذي زوّج إحدى بناته بيوغرطة، وحارب ابنه وولكس ضدّ ماريوس في **106** ق.م. يمكن أن يكون قد امتدّ به العمر إلى **80** ق.م. وقد رأى بعض المؤرّخين أنّ أسكاليس هو الذي اعتلى العرش خلفا له، وقد لاحظ اقزال (الجزء VII ص **271**) أنّ أسكاليس اعتمادا على بلوتارك (Plutaque) هو ابن إفتاس Iphtas أما سالوست فيتحدث في تواريخه عن ملك في موريتانيا اسماه لبتاستا (Leptasta) ويقترح اقزال تصحيح هذا الاسم هكذا يفتاس (Iephtas) وهو الاسم المعروف بصيغ IFTN و YPTN و Iepta في النصوص الأثرية الليبية البونية واللاتينية، فهل كان أسكاليس المقتول سنة **81** ق.م. هو من خلف بوكوس الأول (يراجَع جدول سلالة الملوك في Mazard (J.), Corpus nummum Numidiae Mauretaniaeque, p. 60 – وفي جدول السلالة الملكية الموريتانية هناك من يقول أنّ لقب ملك REX لا يسري بالضرورة إلاّ على حامله وهو سيّد المملكة، خاصّة إذا ترجم مباشرة من الأمازيغية : آقلّيد، وهناك نصوص شكلية تثبت أنّ بوكوس الأول كان لا يزال على قيد الحياة العام **93** و **91** ق.م. وبكل وضوح العام **81** ، إذا تمعّنّا جيّدا في عبارة بول اوروز (Paul Orose, V, 21, 14) وكاركوبينو التي تدعم كون الأسرة الملكية يفتاس – أسكاليس لم تكن سوى أسرة كبيرة من قياد الريف (Caïds du Rif) مدعومة من الرومان، في حالة تبعية للملك الموريتاني أو مستقلّة عنه وتبعا لهذه الفكرة يكون بوكوس الأول قد توفي في سنّ متقدّمة حوالي العام **70** ق.م. وخلفاؤه على التوالي هم بوكوس الثاني وبوقود ، يراجَع :

- Carcopino (J.), l'Afrique au dernier siècle de la république romaine, Rev. Histo. T, CLXII 1929, pp. 86-94
- Id. Le Maroc antique, Paris 1943, pp. 28-29 et 173-175

(*) أنصار سولّة (Sylla) خصم ماريوس في الحرب الأهلية الرومنية.

(516) - Plutarque, Sertorius, 9

على عهد ملك قويّ مثل بوكوس الأول كان موجودا من باب أولى في القرن الثالث على عهد باقا، وهذه الوقائع لا تفاجئنا لأننا لاحظنا في عموم الأقاليم التي تكوّن البربرية الغربية أنّ منطقة طنجة تمثّل طابعا خاصّا ظل متفاعلا عبر التاريخ، وبالرجوع إلى الوثائق الأثرية [517]، نصل إلى استنتاجات متطابقة مع التي توصّل إليها كاركوبينو في قوله: " **حافظت منطقة تانجيس (Tangis) ... دائما – بالنسبة لموريتانيا التي تدخل في عداد أقاليمها– على وضعها الخاصّ وعلى استقلال تقليدي**"[518]، وفي هذه الحال لم تبق طنجة عاصمة لباقا و لم تكن كذلك بالنسبة لبوكوس ويوبا، واحتمالا فإنّ الضريح الهامّ الذي أقيم في هضبة موقوقة (Mogogha) الصغيرة يكون لأحد الأمراء المعاصرين لباقا [518 مكرّر] .

أصول فولوبيلس

ظلّت العلاقات ما بين المملكة المورية والمصارف الفينيقية المقامة على الساحل المتوسطي والأطلنطي غامضة، فالتأثير البوني المدعوم بالتأثير الإيبري قديم، وكان هذا التأثير والحالة هذه عميقا ليس فقط في المدن الساحلية ولكن أيضا على المدن الداخلية التي يبدو كما لو أنّها مراكز للثقافة البونية قبل أن تصبح مراكز للرومنة، ففي القرن الرابع كانت الجرار المصنّعة في هذه المدن تباع للمور في الأرياف ولأمرائهم الذين كانوا احتمالا يمارسون سلطتهم على تلك المدن.

ليس لدينا ما يثبت أنّ اللغة والكتابة البونية لم تدخل فولوبيليس(Volubilis) إلاّ في عهد يوبا الأول ولا ما يثبت أنّ وجود أشفاط على رأس هذه المدينة تأخّر إلى فترة سابقة قليلا للاحتلال الروماني، وفي رأي جيمس فيفري الذي درس نصّ فولوبيليس البوني منذ فترة وجيزة[519]، أنّ النصّ يعود إلى فترة حكم باقا وهذه ترجمة لهذا النصّ كما اقترحها فيفري:

"(نُصْب ؟) سويتنكن SWYTNKN الشفط، كاتب الجيش
ابن يملل YMLL ابن ملويتنب MLWYTNB الشفط
ابن ... أريس الشفط، ابن يملل الشفط، ابن مكلل MKLL
... عمره 67 سنة . غير مُزال (النصب) ... "

---

(517) - cf supra, p. 538

(518) - Carcopino (J.), Le Maroc antique, p. 176

(518 مكرّر) -Jodin (A.), Le tombeau pré-romain de Mogogha Es-Seghira (Province de Tanger), Actes du 84e Congr. Nat. Des Soc. Sav. Dijon, 1959, pp. 201-213 ؛ **هذا المعلم مؤرّخ بالقرن الثالث إلى الثاني من خلال آنيتين فخاريتين من نمط هلينيستي.**

(519) - Février (J.), Inscriptions puniques du Maroc, B.A.C., 1955-1956, pp. 29-35

هذا النصّ كثير الأهمّية، يمكن تأريخه اعتمادا على شكل الكتابة وقد أرّخه فيفري "بالقرن الثاني وبدقّة أكثر ببدايات القرن الأول ق.م." أي أنّه يعود تقريبا إلى فترة حكم الملوك المور(520).

لنفترض ببساطة أنّ نصّ **س و ي ت ن ك ن** الجنائزي هذا تمّ نقشه في العام 100 ق.م. وأنّ المدفون توفي عن عمر 67 سنة، في هذه الحالة تكون ولادته سنة 167 ق.م. وبحساب الفترة الفاصلة بين الجيلين بمقدار 25 سنة، يمكن استنتاج الجدول الآتي:

أسماء	تاريخ الولادة	الوظيفة
س و ي ت ن ك ن SWYTNKN	167	شفط كاتب جيش
ي م ل ل YMLL	192	؟
م ل و ي ت ن ب MLWYTNB	217	شفط
مجهول...................... X	242	؟
أ ريس Aris	267	شفط
ي م س ت ن YMSTN	292	شفط
م ك ل ل MKLL	317	؟

يمكن أن يكون هناك تقديم أو تأخير في هذه التواريخ بنصف قرن، ولكن نسب **س و ي ت ن ك ن** SWYTNMN يمكّن من العودة به إلى القرن الثالث، ممّا يجعل هذه الوثيقة الأثرية تحمل الدليل على أنّ فولوبيليس كانت موجودة منذ القرن الرابع إلى الثالث وأن وظيفة الشفط– على افتراض أنّ **ي م س ت ن** YMSTN هو أول من تولاّها–كانت قائمة منذ منتصف القرن الثالث ذلك أنّ المعلومات المستخلصة من هذا النص أجدر أن تكون محلّ توضيح فإلى حدّ الآن يتبيّن أنّ الوثائق الكثيرة القابلة للتأريخ التي استخرجت من فولوبيليس لا تعود إلى تاريخ سابق للقرن الأول ق.م.(521)،ولكن لدينا الدليل على أنّ الموقع كان آهلا منذ النيوليثي(522)،ومن جهة أخرى يدْعم وجود مدينة فولوبيليس منذ القرن الرابع إلى الثالث رفض الفرضية التي تقارب بين اسم هذه المدينة واسم وُولُكْس نجل بوكوس نهائيا(523).

(520) - Ibid, pp. 30 et 32

(521) - Euzennat (M.), Le temple C de Volubilis et les origines de la Cité, Bull. d'Archéol. Maroc. T, II, 1957, pp. 41-64

(522) - Souville (G.), le préhistoire au musée de Volubilis, Hespéris, 1956, pp. 457-461 وأقدم منه :
- Ruhlmann (A.), le Volubilis préhistorique, Bull. de la Soc. De préhist. Du Maroc, 1933, pp. 3-26

(523) هذا المقارنة قام بها غاجي : - Gagé (J.), Nota acerca das origines e da nome da antiga cidale de Volubilis – Univesidade de Sao Paulo, Faculdade de Filosafia, Ciencas e Letras ; Bulletin n° 2, 1940.

مدن موريتانية في عهد باقا

إذا حاولنا وضع قائمة بأسماء المدن التي ثبت وجودها في عهد ماسينيسا ومعاصره باقا، فإننا سنلحظ أنّ موريتانيا كانت قد عرفت حضارة عمرانية متطوّرة، وفي هذا السياق تمثّل الوثائق الأثرية والنقوشية تتمّة لما ورد في المصادر الأدبية مع أن هذه الأخيرة لا تسمح عموما بالتعرّف على المدن التي وقع تحريف في أسمائها أو التي لم تتمّ الإشارة إلى مواقعها[524].

أسماء مدن		الوثائق الأثرية الأقدم	أقدم تاريخ ذكرت فيه
1 – مدن ساحلية	ليكسوس (العرائش)	القرن X – V ؟ V – IV [525]	القرن الرابع [526]
	Thrinké, ثرانكه	القرن VI [527]	القرن الخامس [528]
	(Tingis) تنجيس		القرن الخامس [529]
	جزيرة موقادور	القرن VII– VI [530]	
	(Emsa) امسا	القرن IV– III [531]	
	سيدي عبد السلام	القرن IV– III [532]	
2– مدن داخلية	فولوبيليس	القرن IV– III	
	تامودة	القرن III– II [533]	
	باناسا	القرن III– II [534]	
	ريغة	القرن III– II [535]	

من المستحيل طبعا تقييم أهمية هذه المدن مع أنّ وجود أشفاط في فولوبيليس خلال القرن الثالث على الأقل دليل على أنّ بعضها تجاوز حدّ القرية الصغيرة، ويبدو أنّ وظيفة كاتب جيش لم يكن لها وجود قبل القرن الثاني لأنّه يبدو من غير المحتمل لو وُجدت ألاّ يكون أيّ من أسلاف **س و ي ت ن ك ن** المنتمي لعائلة من الأعيان قد تولّى هذه الوظيفة.

---

(524) **ذكرت المدن الداخلية سابقة الوجود للقرنين الثالث والثاني من قبل المؤرخين بأسمائها ولكن لم يتمّ التعرّف عليها ولذلك لم نوردها هنا : أنظر قوائم الصفحة 52 – 54 .**

(525) **عن الحفريات الأقدم (القرنان الخامس والرابع) ينظَر :**
- Tarradell (M.), Las exacavaciones de Lixus, Tinga 1953 pp. 8-18

(526) - Périple de Scylax, 111

(527) **مطابقة مقترحة من طرف اقزال :**
- Gsell (S.), Tombe découverte au dessus de la grotte d'Hercule, B.A.C. 1923, pp. CCX-CCXIV,

(528) - Hécatée de Milet, Fragm, histor, graec, I, pp. 23-25 n° 325.

(529) - Ibid. n° 326.

(530) - Jodin (A.), Note préliminaire sur l'établissement pré-romain de Mogador (campagne 1956-1957) Bull. d'Archéol. maroc, t, II, 1957, pp. 9-40.

(531) - Euzennat (M.), l'Archéologie marocaine de 1955 à 1957, Ibid. pp. 199-229 (p. 201) .

(532) - Ibid. p. 201.

(533) -Tarradell (M.), Las exacavaciones de Tamuda de 1940 à 1955, TAMUDA T. IV, 1956, pp. 71-85

(534) - Euzennat (M.), l, I, p. 205.

(535) - Ibid. p. 206.

والخلاصة أنّه في نهاية القرن الثالث كان باقا يحكم كلّ القسم الشمالي من المغرب على الأقل وكانت له القوة التي تمكنه من توفير وحدات قوامها 4000 محارب لمرافقة ماسينيسا والمشاركة في نزاع دولي طرفاه قرطاج وسيفاكس من جهة وروما وماسينيسا من جهة أخرى وبتوجّه سياسي سار عليه خلفاؤه من بعده : بوكوس الأول وبوكوس الثاني، فهو يعرف الوقت الملائم للانضمام إلى المعسكر الذي سيخرج ظافرا. ويبدو أنّ مملكته لم تكن قد عرفت تنظيما واسعا، مما يجعلنا نستنتج أنّ منطقة المضيق المتأثرة كثيرا بالحضارة البونية كانت تتمتع بقسط من الاستقلال الذاتي.

المملكة الماسيسيلية

كان سيفاكس ملك الماسيسسيل أقوى الملوك الأفريقيين، عندما كان ماسينيسا يحارب في إسبانيا إلى جانب الجيوش القرطاجية، وأكثر النصوص وضوحا في شأن هذه المملكة هو نص سترابون: " **يأتي بعد وطن المور وطن الماسيسيل الذي يبدأ من وادي مولوشاث وينتهي عند رأس تريتون** " [536].

المولوشا ورأس تريتون

لن أعود إلى مسألة مطابقة مولوشا بالملوية، فقد قدّم اقزال الأدلّة الكافية لإنهاء النقاش الذي ظلّ قائما حول هذا الموضوع[537]، ذلك أنّ موقع سيقا عاصمة سيفاكس على الضفة اليسرى للتافنة يدفعنا إلى البحث عن المولوشا غربي هذا النهر، حيث نجد ثلاثة أودية يمكن ترجيح واحد منها وهي الملوية، وادي كيس ووادي تلاتة، وثاني هذه الأودية ما هو إلا مجرى صغير يمثّل الحد الفاصل حاليا بين الجزائر والمغرب وينبع من جبال بني سناسن ولا يتجاوز طوله الثلاثين كيلومترا أمّا واد تلاتة الذي ينبع من جبال طرارة فهو الأقل أهمّية، ويبقى الملوية الذي يمثل علامة فارقة فبعد أن يشقّ السفح الشرقي للأطلس الأوسط يفصل في مجراه الأسفل آخر تلال الريف وجبال بني سناسن إلى سهل اطريفا (Trifas) وقد رأينا أعلاه أنّ الملوية يفصل بشكل واضح بين المنطقتين الأثريتين : البربرية الوسطى والبربرية الغربية دون أن يشكّل حدّا طبيعيا حقيقيا.

ينطبق رأس تريتون دون ريب على رأس بوقارون في شبه جزيرة القلّ [538]، وسيمرّ خط الحدود بين نوميديا وموريتانيا القيصرية في وقت لاحق عبر الوادي الكبير(أمساقا)وذات

(536) - Strabon, XVII, 3, 9.
(537) - Gsell (S.), H.A.A.N., t, V, pp. 91-94
(538) **وكانت شبه جزيرة القلّ تسمّى أيضا ميتاقونيوم** (Metagonium) :
- Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n°1, Cap Bougaroun.

النهر سيشكّل الحدود الشرقية لمملكة يوبا الثاني[539]، وتبدو إشارة سترابون في هذا السياق تقريبية في نطاق بعيد الاحتمال حيث كانت الحدود بين الماسيل والماسيسيل قارّة ومرسومة بدقّة.

توسّع المملكة على حساب الماسيل

يحتلّ الماسيسيل إقليما كبيرا يغطّي ثلثي مساحة الجزائر (التلّية) الحالية وجزءاً من المغرب الشرقي، ومنذ الفترة التي ذكر فيها سيفاكس ملك الماسيسيل لأول مرّة في نصّ تيت ليف إلى تاريخ 203 ق.م. الذي حدّد مصيره ومصير منافسه ماسينيسا ما فتئ ملْكه يزداد اتساعا على حساب الماسيل، ومن الصعب إذن تثبيت الحدود الأولى لمملكة سيفاكس، ففي الجهة الغربية يبدو أنّ الحدود الممثّلة في الملوية ظلّت على ما هي عليه ما بين بوكوس الأول وميكيبسا ثمّ بوقود وبوكوس الثاني دون تغيير، منذ حكم المتعاصرين باقا وسيفاكس.

الأمر مختلف في اتجاه الشرق حيث عرفت المملكة توسّعات متتالية، ففي 205 ق.م. استفاد سيفاكس من النزاع بين الأمراء الماسيل واستغل الظرف لصالحه داعما اعتلاء كابوسا عرش الماسيل،على حساب ماسينيسا الذي أرسل خلفه قادته لمطاردته،فهل تمّ ضمّ سيرتا في تلك الأثناء أمّ أنّها كانت منذ وقت سابق جزءاً من الأقاليم الماسيسيلية ؟ نلاحظ أن اقزال يؤيّد الاحتمال الأخير لأنّ تيت ليف ذكر سيرتا كعاصمة لمملكة سيفاكس (لكن خلال سنة 203 فقط) ولأنّ ذات المؤرّخ ذكر أنّ ماسينيسا استلم من روما[*] سيرتا ومدنا أخرى وأقاليم أضافها إلى مملكة آبائه [540].

وعلى عكس هذا تظهر لنا نصوص ما قبل 205 ق.م. سيفاكس منعزلا في غربي ماسيسيليا، ومهتمّا أيضا بالأوضاع في إسبانيا [541] أكثر من اهتمامه بأوضاع نوميديا، وفي سنة 213 ق.م. كان في حرب ضدّ قرطاج ليس بسبب مطالب متعلّقة بالقطر البوني في حدّ ذاته فقد كان بينه وبين قرطاج حاجزا هو مملكة قايا ولكن الأمر كان متعلّقا بعدد من المدن الساحلية، وفي تلك الفترة كان قايا ملك الماسيل حليفا لقرطاج، ويبدو من كلّ هذا أنّ

---

(539) أشار سترابون خطأً إلى أنّ صالدي (بجاية) تقع في الحدود ما بين مملكة يوبا الثاني والمقاطعة الرومانية :
- Strabon, XVII, 3, 12.

(*) عبارة "استلم من روما" هذه عزيزة جدّا على كلّ من يعادي تاريخ أفريقيا الشمالية ولا يريد الاقرار بالهوية والسيادة النوميدية من مؤرّخي الغرب والشرق، ولهذه العبارة ما يماثلها في وقتنا عند أولئك الذين يقولون أن دوقول منح الاستقلال للجزائر !!!!.

(540) - Tite-Live, XXX, 12, 4 et XXX, 44, 12.

(541) يبدو أن قسما من عملة سيفاكس جاء من دار سكّة في إسبانيا
cf, Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, p. 17.

ظهور سيفاكس في مناطق مجاورة لبلد الماسيل كان متأخّرا وذا علاقة بالاضطرابات التي اندلعت في هذه المملكة في أعقاب اغتيال كابوسا.

كانت سيقا هي العاصمة الحقيقية لسيفاكس أمّا سيرتا فلم تكن كذلك إلاّ بعد ضمّ الإقليم الماسيلي فهل كانت هذه المدينة ضمن الإقليم الماسيلي من قبل؟ ويبدو من عبارة تيت ليف التي نوّه بها اقزال استبعاد هذه الفرضية، والواقع أنّ كثيرا من الوقائع تحمل على التفكير في أنّه إذا لم تكن سيرتا جزءاً من مملكة أجداد ماسينيسا (regnum paternum) فإنّ منطقتها كانت في وقت سابق ضمن مجموع الأراضي التي انتظمت بها المملكة الماسيلية، وتبيّن لنا آثار فجر التاريخ أنّ التحولات المحسوسة في التقاليد الجنائزية ومظاهر الدفن ظهرت غربي سيرتا، وأكثر ذلك يتبيّن لنا من التاريخ أنّ الروابط القوية كانت موجودة دائما بين سيرتا وروسيكاد (سكيكدة) فهذان المدينتان شكّلتا في وقت لاحق مع شولو (القل) وميلاف (ميلة) الكنفدرالية السيرتية التي يبدو أنّها ليست من صنع الرومان [542]، وإذا تغاضينا عن الوضع الذي كانت عليه ميلة قبل الفترة الرومانية فالمؤكّد أنّ القلّ وسكيكدة كانتا جزءاً من إقليم المملكة الماسيلية[543].

إذا كان الأمبساقا نهرا حدوديا عبر مجراه الأدنى فلا شيء يثبت أنّ الحدود التقليدية ما بين المملكتين تتبع بالضرورة خطّ مجرى وادي الرمال (الذي يعتبره القدامى فرعا رئيسيا للأمبساقا) والملاحظ في واقع الحال هو أنّ الرومان أقرّوا الحدود بين نوميديا وموريتانيا عبر مجرى الوادي الكبير (الذي هو في الواقع المجرى الرئيسي) بحيث تكون كويكول (جيملة) في نوميديا بينما تكون موبتي (Mopti) في موريتانيا، ولا نرى هنا أيّ سبب يجعل الرومان يختارون في المجرى الأدنى ذات الحدود التي أقرّها سابقوهم ثمّ يغيّرونها في المجرى الأعلى باختيار مجرى آخر يعتبر رافدا، وإذا افترضنا اعتبار الامبساقا خلال عهد الممالك النوميدية حدّا ما بين الماسيل والماسيسيل فإنّه يتوجّب التفكير في أنّ تلك الحدود تتطابق في مجملها مع التي اختارها الرومان في وقت لاحق.

---

(542) في الخلاصة التي خرج بها في عمله المعتبر عن معبد الحفرة اقترحا اعتبار الميتاقونيوم كمنطقة جغرافية على غرار كنفدرالية المستعمرات الأربع : وأنها الأصل في تكوين هذه الأخيرة، ويتضح ذلك من خلال ماضٍ تاريخي مستوحى من جذور أعمق ,اكثر تجذّرا في البلاد أكثر من تأثير مجرّد مغامرة سيتيوس الأجنبية، أنظر :
- Berthier (A.) et Charlier (l'abbé R.), Le sanctuaire punique d'El-Hfra à Constantine, p. 235, n° 4

(543) تقع القل شرقي رأس بوقارون، وكانت للفرق المصاحبة للاكوميز قد وجدت الامان خلال مطاردة ماسينيسا له في روسيكاد التي تسمى أيضا تابسوس، وقد استولى ماسينيسا على روسيكاد دون أن يتدخّل سيفاكس ولعلّ موقعها إلى الشرق من القل دليل قوي على تبعيتها للمملكة الماسيلية.

سيقة، عاصمة المملكة الماسيسيلية

في حال افتراض أنّ سيرتا في الفترة ما قبل 206 كانت جزءاً من مملكة سيفاكس فـإنّ من المهمّ توضيح أنّ موقعها في أقصى شرق المملكة لا يسمح لها بأن تلعب سوى دور قلعة محصّنة لا مقرّ إقامة ملكية اعتيادية، وإذا كانت قد لعبت دورا هامّا فإنّ ذلك وقع بعد ضمّ المملكة الماسيلية حيث أصبحت العاصمة الشرقية لمملكة سيفاكس[544].

كانت سيقة المدينة الماسيسيلية الرئيسية وقد أشير إليها دائما على أنّها عاصمة سيفاكس، وفيها استقبل سنة 206 سيبيون وأسدروبال وفيها دون ريب سكّ قسما من عملته، وقد استمر سكّ العملة في هذه المدينة حيث أقام بها بوكوس الصغير دار سكّة جديدة [545]، مع أنّ أنقاض تاكُمْبْريت (سيقة) لم تقدّم شيئا ذا أهمّية كبيرة وأغلب الآثار المكتشفة بها تعود إلى الفترة الرومانية، وسيكون من المفيد لوسمحت الظروف القيام بحفريات حقيقية في هذا الموقع الذي عرف تاريخا مجيداً. وكان فويمو (G. Vuillemot) قد قام سنة 1953 بنشر دراسة عن فخار ذي تقليد بوني مرفقة بقطعة نقدية لسيفاكس كانت شاهدا على ما يمكن استخراجه من مدافن سيقة لو تمّت حفريات في مقبرتها القديمة[546] ، ويظهر اكتشاف عدد وفير من القطع النقدية لسيفاكس في هذا الموقع –على عكس سيرتا– أنّ سيقة كانت هي العاصمة الحقيقية للمملكة الماسيسلية[547] .

(544) لماذا يرجع كامبس أن تكون سيرتا ضمن مملكة سيفاكس قبل انقلابه على حلفائه الرومان وتحالفه مع قرطاج، فـأين كانـت المملكة الماسيلية وأين كانت عاصمتها إن كانت سيرتا في تلك الفترة خارج إقليم المملكة الماسيلية، فهـل إبـراز دور ومكانـة سيفاكس على حساب منافسه ماسينيسا وراء هذه الاستنتاجات من قبل كامبس واقزال يعود الى نزعة ذاتية ؟

(545) - Mazard (J.), op. l, pp. 63-65 et 175

(546) سرعان ما أصبح لسيقة مراجع، فبعد الملخّص رقم 1 الذي خصصه اقزال لهذا الموقع في الورقة رقم 31 تلمسان، من الأطلس الأثري للجزائر، صدر لعدد من الأثريين ما يلي عن الموقع :

- Grimal (P.), les fouilles de Siga, in MEFR, t, LIV 1937, pp. 108-141.
- Vuillemot (G.), Note sur un lot d'objets découverts à Siga, Bull, de la Soc, de Géogf, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXVI, 1953, pp. 25-33
- Id. Deux stèles de Siga, Bull, de la Soc, des Amis du vieux Tlemcen, 1954, pp. 73-80
- Janier (E.), une petite monographie : Siga, ibid, p. 68-77
- Chabot (J.B.), Recueil des Inscriptions libiques, deux inscriptions libyques relevées de Siga, n° 878-879.

(547) اكتشف بسيقة على قلة للحفريات التي أجريت ست قطع نقدية لسيفاكس أربع منها محفوظة في متحف وهران، أنظر :

- Demaeght (L.), Catalogue raisonné du Musée d'Oran, section des médailles, Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, XV, 1895, p. 324

إحداها درست من طرف قريمال (من أربع اكتشفها هذا الباحث) وأخرى من طرف فويمو :

- Vuillemot (G.), Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXVI, 1953, p. 33

وحسب مازار فإنّ كلّ قطع سيفاكس نادرة مهما كان نمط سكّها .

المدن الساحلية والتجارة المتوسطية

لم يذكر سترابون – الذي يستعمل وثائق سابقة لعصره – أيّا من موانئ شــرقي ســيقة سوى بورتوس ديويني (Portus divini) (مرسى الآلهة) وهو المرسى الكبير اليوم، ويــول[*] (شرشال) ثمّ صلداي (بجاية) ولذلك فإنّ معلوماته قليلة وتتعلّق فقــط بالمــصارف البونيــة الرئيسية وقد سمحت الحفريات التي أجريت في عديد المواقع بجمع وثائق أثريــة معاصــرة لسيفاكس أو سابقة له بكثير، وأغلب هذه المواقع تقع في الــساحل ومرتبطــة بالتــاريخ والحضارة البونية بقدر ارتباطها بالممالك البربرية، وقد قام **فويمو** بدراسة دقيقة عن الأساكل البونية في الساحل الوهراني التي من حقنا اعتبارها منافذ وكذا مراكز تجاريــة لماسيــسيليا، ويعود بعضها إلى فترة أقدم كما هو الحال في جزيرة رشقون مقابل مصبّ تافنا حيــث أنّ المقبرة الموجودة هناك يمكن أن تؤرَّخ بالقرن السادس إلى الخامس[548]، وكان موقع مرســى ماداخ الذي تمركز به التجار الفينيقيون في فترة أقدم قد هُجِر خلال القرن الثالث، ولعــلّ ذلك بسبب دمار لحق به استتبع استعماله ثانية [549].

عُثِر في الأندلسيات وفي **سان لو**[550]،على آثار من فترة أحدث توحي بأهمّية التبادلات مع إسبانيا، وإلى الشرق كشفت الأبحاث في موقع ميناء **قلتة** على تمثال إغريقي يؤرَّخ بحوالي 460 ق.م.ولكن وصوله إلى **قلتة** ليس أقدم بالضرورة، والمؤكّد هو المعلومات المستوحاة من الفخار الأتيكي الذي عثر عليه في قونوقو (قورايا سيدي ابراهيم Gunugu) فهذا الفخار الذي يعود هو الآخر إلى القرن الخامس ق.م. يوحي بأنّ الميناء الذي لم يذكره لا سيلاكس ولا سترابون كان محلّ ارتياد منذ تلك الفترة وتبعا لذلك كان على علاقة بإسبانيا الجنوبية[550 مكرّر] مع أنّه ليست لدينا فكرة عن القائمة الإجمالية للموادّ التي تغذّي التجارة ما بين ألميريا

(*) **لا أدري لماذا لا يهتم المؤرخون بالتوبونيميا الليبية لإرجاع هذا الاسم إلى أصله الليبي (الامازيغي) وهو أول UL الذي يعني القلب.**

(548) - Vuillemot (G.), la nécropole punique du phare dans l'ile Rachgoun (Oran), Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955, pp. 7-76.

(549) - Vuillemot (G.), Fouilles puniques à Mersa Madakh, Ibid, t, II, 1954, pp. 299-342.

(550) - Vuillemot (G.), Vestiges puniques aux Andalouses, Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXIV, 1951, pp. 55-73

- Id. Céramique ibérique aux Andalouses, C.R.A.I.B.L, 1956, pp. 163-168
- Cintas (P.), Découvertes ibéro-puniques d'Afrique du Nord, C.R.A.I.B.L, 1953, pp. 52-57

وفي موضوع الآنية الإيبرية من ذي قبل في هذا الموقع من طرف منشاكا يمكن الرجوع إلى :

- Garcia (A.) et Bellido (Y.), Estado actual del problema referenti a la expansion de la ceramica iberica por la cuenca occedental del mediterraneo Archivo espan de Arqueol, t, XXX 1957, pp. 90-106.

الأبحاث التي أجريت في سان لو (Saint leu) لم تعقبها سوى نشرية واحدة وهي :

-Vincent(M.), Vase ibérique du cimetière Est de Portus Magnus(Saint-Leu)Libyca,Archéol, Epigr,t,I,1953,pp.13-23.

(550 مكرّر) **عن تمثال قلتة أنظر :** - Boucher-Colozier (Et.), Une statuette grecque d'Orante au Musée d'Alger, Monument Piot, t, XLVII, 1953, pp. 71-75

ودرست فخاريات قونوقو حديثا من قبل فيار، أنظر :

- Villard (F.), Vases attiques du Ve siècle av. J.C., à Gunugu, Libyca, Archéol, Epigr, t, VII, 1959, pp. 7-13.

والجزائر الغربية، فإنّ المؤكّد هو أنّ الفخار (خزف بلون أحمر برّاق وخاصّة فخار النمط الإيبري) كان يأتي من إسبانيا، خلال الفترة التاريخية وهو الذي حلّ محلّ الآنية كمبانية الشكل التي تعود إلى بداية عصر المعادن وحتى إلى بعض الفخاريات النيوليثية(*).

من بين الأشياء الأخرى المستوردة تنبغي الإشارة إلى الموادّ المعدنية، وموادّ أخرى تصديرية نعرف منها اثنتين هما العاج وقشر بيض النعام، ولكن لا نعرف هل المادّة الأولية هي المصدّرة فقط أم أنّ الموادّ المكتشفة في إسبانيا تمّ تصنيعها في أفريقيا، ولعلّ الأشياء العاجية تكون قد صنعت في المدن البونية الكبرى وخاصّة قرطاج وحتّى في قادس، ذلك أنّ شكل أسنان الأمشاط ومقابضها يبدو ذا ملمح شرقي، أمّا قشر بيض النعام فالأشياء المصنوعة منها في غاية الإتقان، وفي عمله الرائع عن مقابر فيلاريكوس (إسبانيا) التي استخرجت منها مئات من أدوات مزخرفة يرى **أستروك** أنّه أثبت أنّ الزخارف في كلّ تلك الأدوات تمّت في عين المكان وبعض العناصر الزخرفية مستلهمة من تقاليد عريقة تنتمي إلى تصاميم فنية نيوليثية من جنوب شبه الجزيرة (الإيبرية) (551) . أمّا سنتاس (552) فعلى العكس منه تماما، وفي رأيه أنّ الزخرفة بالكامل تتبع الفنّ الفينيقي وأنّها تمّت في عين المكان(**).

يرى أستروك أنّ مصدر إحدى تلك الزخارف التي عثر عليها في فيلاريكوس على الأقل هو قونوقو (قورايا – سيدي ابراهيم) (553)، وهو رأي ندعمه بقوّة، ونرى أنّ كثيرا من تلك الآنية المصنوعة من قشر بيض النعام قد انتقلت من سواحل أفريقيا كاملة الزخرفة، خاصّة وأنّ أغلب المضامين كما يؤكّده سنتاس ذات أصول بونية شرقية.

(*) لنمعن النظر في هذه التأويلات والاستنتاجات التي لا شيء يدلّ على صحّتها ومع ذلك فإنّ المؤلّف يجزم بها.

(551) تابع السيّد أستروك أبحاثه دارساً قشر بيض النعام في إيبزا تمكّن من خلالها من تحديد نمط زخرفة خاصّ بإيبيزا مع بعض البصمات من زخارف فيلاريكوس وقرطاج. أنظر :

- Astruc (M.), la necropolis de villaricos, Commissaria général de excavaciones arqueologicas, Informes y memorias n° 25, Madrid 1951
- Id, Exotisme et localisme, Etude sur les coquilles d'œufs d'autruche décorées d'Ibiza, Archivo des prehist, levantina, t, VI, 1957, pp. 47-112.

(552) ليس مقنعا كون رسومات حيوان الأيّل على قشر بيض النعام في فيلاريكوس تعود إلى الفنّ البوني ولا شيء فيها من مؤثرات التقاليد الإيبرية التي تجاوزت كثيرا الأزمنة النيوليثية وخاصّة رسومات الأيل في تاخو لاس فيقوراس (Tajo de Las Figuras) وأخرى مرسومة على آنية من نمط كمباني الشكل في لاس كاروليناس ، يُنظر:

- Cintas (P.), Compte rendu de la nécropole de Villaricos de M. Astruc, Karthago , VII, 1956, pp. 203-213
- Menendez (Pedal), Historia de Espana, t, I, fig. 398
- Del Castillo (A.), La cultura del Vaso campaniforme, pl, XXI.

(**) يمكن للقارئ أن يستنتج من الاختلاف بين الاثنين أنّ كلاّ واحد منهما يفسّر الوقائع حسب نزعته فالأول إسباني من الطبيعي أن يدافع عن أصالة الفن الإسباني وأنّه متسلسل من تراث إيبري ... والثاني وهو ذو نزعة يهودية وكرّس أعماله لإبراز الحضارة البونية اعتبر الزخارف فينيقية ... الخ والغائب هو المؤرّخ والباحث الأفريقي الذي ينبغي أن يدافع هو الآخر عن أفريقيّة هذه الفنون وأنّ أفريقيا ليست محطّ استقبال حضارة الآخر دون إسهام أو أيّ تفاعل، مع العلم أنّ أفريقيا هي بلاد النعام، فكيف تنتقل المادة الأولية خاما لتعود إلى أفريقيا مصنّعة في إيبريا.

(553) - Astruc (M.), Supplément aux fouilles de Gouraya , Libyca, Archéol, Epigr,, t, II, 1954, pp. 9-49.

هناك مضامين أخرى هندسية الأشكال، تفتح المجال لمقاربتها بالزخارف البربرية التي لا تزال كما هي إلى يومنا [554]، ومن غير المستبعد أنّ قشور بيض النعام كان يتمّ تصديرها أوّلا حال زخرفتها، وفي وقت لاحق فضّلت المدن الإيبرو-فينيقية الحصول عليها خاما لتتمّ زخرفتها حسب الذوق المحلّي، ولعلّ ما تمّ في المدن الأفريقية لا يختلف عن ذلك كثيرا.

الوضع القانوني للمدن الساحلية

إذا كانت مقابر المنطقة الساحلية قد ألقت بعض الضوء على العلاقات التجارية بين إسبانيا وماسيسيليا فإنّها لم تقدّم أيّ جواب عن سؤال ملحّ طرح كثيرا، يتعلّق بممالك القرن الثالث الأمازيغية الثلاث وهو: أيّ شكل كانت عليه العلاقات السياسية بين المصارف المسمّاة بونية من جهة والملوك أو أفصالهم في الأقاليم التي أقيمت فيها تلك المصارف من جهة أخرى؟ والواقع أنّ هذا السؤال مرتبط بأسئلة أخرى عن العلاقة الحقيقية بين قرطاج وهذه المصارف وعن علاقات الملوك بقرطاج.

ينبغي الاعتراف بأنّه مهما كانت قوّة قرطاج فإنّها لا تستطيع فرض إقامة مصارفها الساحلية على ملك الماسيسيل بالقوّة (أو على زعماء مختلف القبائل قبل انتظام المملكة)، مما يجعلنا نفكّر في وجود قوانين بالضرورة -تختلف احتمالا من مصرف إلى آخر- تقوم على تراضي (Modus vivendi) مبني على تعايش على امتداد فترات طويلة أو على اتفاقية وليس مستبعدا أن تكون هناك مدن ذات استقلال ذاتي وبها مصارف تابعة لقرطاج – خاصّة المصارف المقامة في جزر- وأخيرا مدن أسسها التجار الفينيقيون تحت سلطة زعماء من الأهالي أو الملوك، وفي أقلّ تقدير سيادة مشتركة بين الملوك وقرطاج.

من المؤكّد في كلّ الأحوال خلال سنة 206،أنّ ميناء سيقة(Portus sigensis) على مصبّ تافنا كان تحت سيادة سيفاكس وأنّ ثابسوس–روسيكاد خلال سنة 205كانت تحت سيادة ملك الماسيل، وممّا لا شكّ فيه أنّ المدينتين من تأسيس فينيقي، وكانت تبعيتهما لقرطاج على نطاق ضيّق في بعض الأحيان. وقبل ذلك بحوالي الثلاثين سنة كانت الجيوش القرطاجية بقيادة هاملكار قد اخترقت ماسيليا وكل ماسيسيليا، وفي 219-218 جنّد ابنه هانيبال 4000 رجل من المدن الميتاغونية(Métagonites) التي كانت ضمن المدن الساحلية[555]، ويمكن

[554] هناك تشابه غريب في زخارف فيلاريكوس بمثيلتها في آنية من منطقة الشلف ، أنظر:
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et Rites funéraires protohistoriques, fig. 150.

[555] مثل السفن القرطاجية التي لم تستطع مهاجمة حماسيتي سيبيون عندما اقتحمتا ميناء الملك : Tite-Live, XXVIII, 17

أن نتساءل إن كان هذا التجنيد وإرسال هؤلاء الرجال إلى قرطاج ليس في نهاية المطاف السبب الرئيسي لوضع يد الملوك على هذه المدن الساحلية؟ وربّما تسمح لنا النصوص بالقول أنّه عندما أصبح سيفاكس سيّدا عليها: في 213 لسبب لم يذكره لا تيت ليف ولا أبيانوس(556)، فهل لذلك علاقة بدخول سيفاكس في حرب ضدّ قرطاج، وتأزّم الأوضاع وكان على حكومة قرطاج استقدام اسدروبال من إسبانيا في الوقت الذي استثارت فيه قايا ملك الماسيل لمهاجمة جاره القويّ، فماذا يمكن أن ينتج عن ذلك النزاع ؟ لايستطيع سيفاكس مهاجمة الأراضي القرطاجية مباشرة لأنّ المملكة الماسيلية تشكّل حاجزا بين قرطاج ومملكته وهنا يتمّ تحرير مصارف منطقة وهران و الجزائر الوسطى ، لكن الإقدام على مثل هذه الخطوة ألا يثير النوميد وفي ذات الوقت يشكّل خطرا على قرطاج التي يوجد جيشها بإسبانيا مقطوعا عن قواعده الأفريقية.

يخبرنا تيت ليف أيضا أنّه قبل 213 كان قايا ملك الماسيل قد استولى على إقليم قرطاجي كان سيفاكس قد سلّمه لأصحابه القداملا أثناء استيلائه على المملكة الماسيلية (557) ونجهل موقع هذا الإقليم ومن المحتمل أن يكون ساحليا ويتضمّن بعضا من الموانئ التي استردّها ماسينيسا في وقت لاحق(558).

المدن الداخلية

لا نعرف شيئا عن المدن الداخلية، لأنّه إلى بداية الفترة الرومانية لا تكاد المعلومات المتوفرة في المصادر عن أفريقيا تتجاوز سواحلها تقريبا، وليس هناك أيّ سبب يقود إلى التفكير في أنّ بعض المواقع المتميّزة التي كان يعْمرها الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ، لن تصبح أماكن محصّنة أو أسواقاً أو هما معا في نفس الوقت أحيانا، كما هو الحال في الظهرة، بالقرب من قرية تاوقريت (Paul-Robert) في قلعة(559) (Kalaa) التي كان يظن أنّها متطابقة مع تيميكي (Timici) تمّ العثور على قطعة نقدية من مدينة مالقا (Malaga) الإسبانية، وهي المدينة التي كان للمور والنوميد علاقات تجارية بها(560)، وبالقرب من الشلف عثر على

---

(556) **المدن الميتاقونيتية حسب اقزال هي كلّ المدن الساحلية الواقعة ما بين رأس بوقارون ورأس سبارتل وحسب برتيي والأب شارليي (cf, n° 542) المدن الميتاقونية هي مدن الشمال القسنطيني ومهما يكن الحلّ المعتمد فإنّ التفكير يذهبنا إلى أنّه فيي سنة 219 كان ميناء سيقة وروسيكاد يتبعان للقرطاجيين وفي 206 لم يبق لهذه التبعية أيّ وجود. ينظَر:**
- Polube, III, 33, 3; Gsell (S.), H.A.A.N., II, pp. 155-157

(557) - Tite-Live, XXIV, 48-49 ; Appien, Iber, 15-16.

(558) - Tite-Live, XL, 17.

(559) **عن قلعة ، ينظَر :** -Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, feuille 12, Notice 102

(560) - Marion (J.), les agglomérations antiques des environs de Paul-Robert, Rev. Afric. T, XCIV, 1950, pp. 209-258.
- Strabon, III, 4, 2.

قطع فخار بوني من القرن الرابع هي إلى حدّ الآن أقدم شاهد على دخول التجارة الفينيقية إلى الإقليم الماسيسيلي.

وإلى الشرق في الجزائر الوسطى، خارج المدن البونية الساحلية لم يتمّ العثور في أيّ موقع داخلي على شواهد معاصرة أو سابقة لسيفاكس.

تنظيم المملكة

يبدو أنّ التعرّف على تنظيم المملكة الماسيسيلية سياسيا وإداريا بعيد المنال تماما، والملاحظ ببساطة هو أنّ الملك وحده من سكّ العملة وليس هناك تابع ولا حتّى مدينة لها هذا الامتياز، في هذه الفترة على الأقلّ[561]، ذلك أنّ صورة الملك سيفاكس في مجموعتين نقديتين، تبدو في أحدثها وهو مكلّل مثل الملوك الهلينيستيين، ومثلها صورة ابنه ورمينا (*Verminad*=) هي الأخرى أنيقة يبدو فيها الملك الشابّ غير ملتحٍ ومكلّلا أيضا[562].

عملة ورمينا معاصرة لمجموعة سيفاكس النقدية الثانية، وحيث أنّه تولى الحكم في ظروف غامضة وغير قارّة، ما بين سنتي 202 و 200 كان والده خلالها أسيرا عند الرومان، فلعلّ الملك الشابّ لم يكن يرغب في سكّ عملة تحمل صورة ملك أسير فاكتفى بصورته ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظات أنّ العملة التي تحمل صور سيفاكس وورمينا تكون قد سكّت في آخر فترة حكم سيفاكس عندما كان ورمينا يقود الجيوش الماسيسيلية، غير أنّه لا يمكن أن نصل بهذه الاستنتاجات حدّ التأكيد على أنّ سيفاكس كان قد أشرك ورمينا في ملْكه حتّى وإنّ كانت عملة ورمينا تحمل العبارة المعتادة **هـ م م ل ك ت**[*] التي تعني أميراً أو شخصا ملكيا أكثر مما تعني ملكاً : **م ل ك** [563].

إنّ تعدد المناطق التي تكوّن المملكة الماسيسيلية يجعل الرأي القائل بأنّها كانت عبارة عن **مجموعة قبائل تابعة أخضعت بالقوّة لسلطة زعيم ماسيسيلي** واردا، والمعروف أنّ منشأ هذه القبائل هو الناحية الوهرانية والمغرب الشرقي،ففي هذه المنطقة استمرّ وجود قبيلة تحمل ذات الاسم خلال الفترة الرومانية[564]، وهنا توجد العاصمة سيقة، وفي هذه المقاطعة الغربية كوّن سيفاكس القوّة التي سمحت له بلعب دور تاريخي لا يستهان به، وهو دور ليس في نيّتنا

(561) **سكّت عملة المدن المستقلّة ذاتيا على العموم في أعقا سقوط قرطاج :** -cf, Mazard (J.), Corpus … p. 149.

(562) - Ibid. p. 21.

(*) **لنا تعليق حول هذه العبارة، فهي تعني المملكة لأنّ لهجة ناحية بني مناصر والظهرة تتحول فيها التاء في بداية المؤنّث إلى هاء فيقال هامملكث بدل تاممكلت في لهجات اللغة الأمازيغية في جهات أخرى .**

(563) **في رأي اقزال أنّ سيفاكس أشرك ولده ورمينا في الحكم :** - Gsell (S.), H/A.A.N., V, p. 125 -

(564) - Ptolémée, IV, 2, 5 ; Pline, V, 17, 52.

أن ندرسه هنا. ويستذكر سترابون نقلا عن بوسيدونيوس أمجاد هذه المقاطعات الغربية عند تناوله ماسيسيليا قائلا:"... **في وقت سابق حيث كان هذا الجزء من البلاد المجاور لموريتانيا يملك الوفرة في المال والرجال**"، لكن وبالمقارنة اليوم فإنّ الجهات المتاخمة لحدود قرطاج والواقعة ضمن الأقاليم الماسيلية هي الأجود والأكثر ازدهارا ووفرة في كلّ شيء"[565].

هل كانت سياسة الطموح والفتوحات التي انتهجها سيفاكس هي السبب في تراجع الجهات الغربية؟ يقول بلينوس أنّ المور والماسيسيل تراجعت قوتهم وأصبحوا عبارة عن مجموعة عائلات لا غير في أعقاب الحروب[566]، ذلك أنّ الكنفدراليات الحربية صانعة الإمبراطوريات تنهار بسرعة، تبعا لقاعدة عامّة وضّحها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر، فبعد هزيمة سيفاكس واصل ابنه الحكم في قسم من ماسيسيليا الغربية، ثمّ جاءت حركة ارتداد حيث وسّع ماسينيسا وخلفاؤه سلطتهم لتصل إلى حدود المور.

المملكة الماسيلية

لم تتمكن المملكة الماسيسيلية–التي كانت تضمّ مناطق مختلفة وكانت تستمد مواردها من مقاطعة واحدة غير منظمة كفايةً– من الاستمرار بعد فشل السياسة الأفريقية التي انتهجها سيفاكس، أمّا المملكة الماسيلية التي عرفت فترات حالكة ما بين 205-203 وتمّ ضمّها من قبل جارها القويّ، فقد خرجت معافاة من المحنة التي ألّمت بها، فهل يعزى النجاح الماسيلي إلى شخصية ماسينيسا القويّة، وإلى المساعدة الرومانية؟ فلم يكن للماسيل في الفترات السابقة عوامل قوّة وروابط متينة تسمح لهم بمقاومة ضغط جيرانهم القرطاجيين والماسيسيليين بشيء من الثقة في تحقيق النصر؟ وقد لاحظنا أعلاه أنّ البلاد الماسيلية الممتدّة على الشرق الجزائري وتونس الغربية تمثّل وحدة أكثر انسجاما من القسم الذي افتتحه الماسيسيل تدريجيا.

تضمّ بلاد الماسيل أقاليم جبلية وغابية تناسب تربية قطعان كبيرة، كما تتوفّر في السهول العليا وسفوح الجبال على أراضٍ ملائمة جدّا لزراعة الحبوب، كما هو الحال في السهول العليا الداخلية وحتّى في سفوح الجبال الجنوبية، حيث تحتلّ الزراعة مساحات هامّة، وتوحي المقابر النوميدية في هذه الجهات بوجود سكّان ريفيين تربطهم بالأرض صلة وثيقة أكثر من نوميد البلاد الغربية، وفي هذه الحال لا يمكن إهمال الظروف الجغرافية ولا الظروف التاريخية التي هي الأخرى بالغة الأهمّية.

(565) - Strabon, XVII, 3, 12.

(566) - Pline, V, 17, 52.

الماسيل مجاورون للقرطاجيين، وقد تأذّوا من اعتداءاتهم مرارا، ومع ذلك فقد أخذوا عنهم عديد العناصر الحضارية، وخلال القرن الرابع والثالث ذكرت المصادر عددا من المدن في البربرية الشرقية خارج الإقليم القرطاجي، وكانت أثناءها مدنا صغيرة، مثل دوقّة وتبسّة واحتمالا قسنطينة [567]، وتدفعنا آثار مقابر منطقة مكثر الميقاليثية الكبرى إلى التفكير في أنّ هذه المدينة النوميدية قد تأسّست في تاريخ سابق لسقوط قرطاج، وهذا لا يقلّل من شأن التأثير البوني في تلك المدينة [568].

سيرتا احتمالا هي مدينة ماسيلية، وهي مركز هامّ للحضارة البونية خلال القرن الثالث، وقد رأينا أعلاه الأسباب التي جعلتنا نفكّر في أنّها لم تخضع لسيفاكس إلا فترة قصيرة قبل اعتلاء ماسينيسا العرش، خاصّة وأنّ تيت ليف ذكر أنّ إقليما هامّا يقع على حدود المملكتين كان محل نزاع مرارا بين قايا وسيفاكس[569]، فهل أصبحت أكبر المدن النوميدية هذه ماسيسيلية خلال ذلك النزاع؟ ويبدو أنّ الاستعدادات التي وضعها ماسينيسا، بعد هزيمة سيفاكس سنة 203 ق.م. توافق الرغبة في استرجاع أراضي المملكة.

ما رواه تيت ليف وأبيانوس في شأن محاولات ماسينيسا لاسترجاع مملكة والده يبيّن أنّ الماسيل كان لهم تعلق كبير إزاء ملوكهم وهو الوفاء الذي لا يمكن المبالغة فيه لأنّ ماسينيسا الذي عرف خيانات عديدة من محيطه، كان عنصرا جديدا لتلاحم الماسيل.

الأسرة الملكية الماسيلية – دوقة وسيرتا

لعلّه بسبب هذا التلاحم وشيء من الوحدة من الصعب التعرّف ضمن الأقاليم التي تكوّن المملكة على المنطقة الأصلية لقبيلة الماسيل، ولا يسمح التمدّد القرطاجي بالقول إلى أيّ نقطة تمتدّ السيادة الماسيلية جهة الشرق [569 مكـرّر]، على افتراض أنّ وجود مملكة ماسيلية سابق للتوسع البوني في تونس الوسطى والغربية، ذلك أنّ دوقة لم تكن تابعة للقرطاجيين خلال حملة أقاثوكل، فأثناء ذلك كان يوجد ملك لليبيين اسمه أيلماس (Ailymas) يمارس سلطته على هذه المنطقة غير أنّ دلائل أخرى تشير إلى أنّ الأسرة الملكية الماسيلية كانت موجودة

---

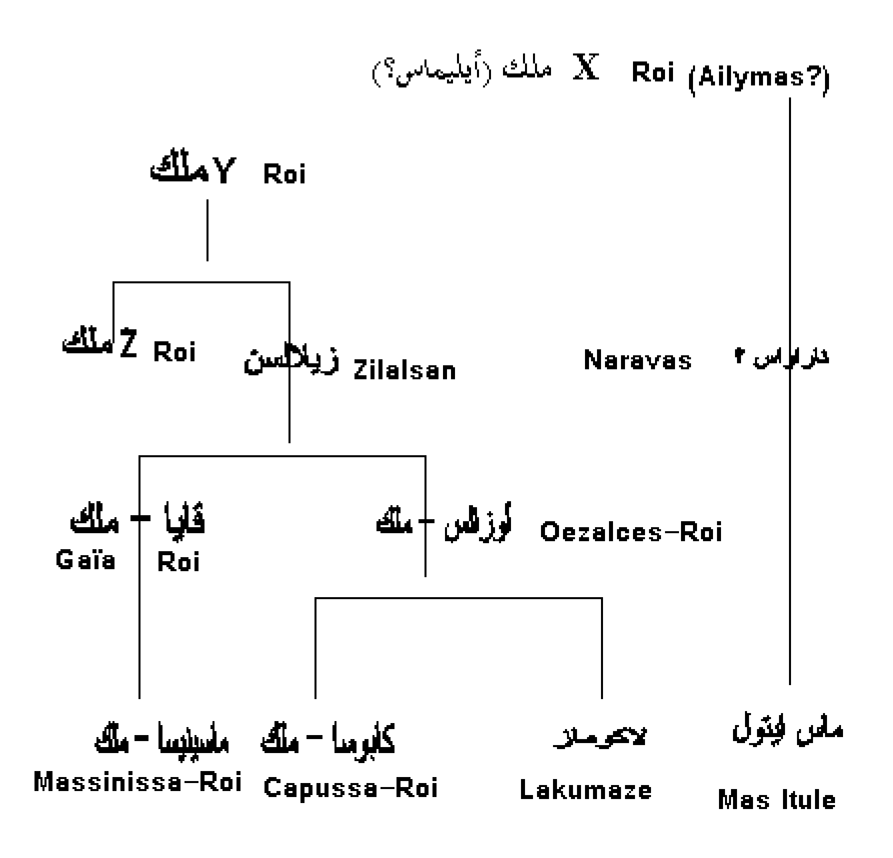
(567) **أعلاه ص ص52–53؛ ينظَر أيضا:** -A. Berthier et l'Abbé R. Charlier, le sanctuaire d'El-Hofra à Constantine, p. 234.
وقد اقترحا مطابقة قارايتيون بسيرتا ولكن الاحتمال ضعيف أن يكون ريقولوس قد أرسل وحدة من جيشه إلى مكان بعيد كهذا في الداخل.

(568) **يربي شارل بيكار أنّ المدينة تأسست من طرف الملوك الماسيل وأقدم وثيقة مؤرّخة اكتشفت في مكثر في حفرة حرق تعود حسب المؤلّف إلى القرن الثاني ق.م. ومن الواضح أنّ المعالم الميقاليثية أقدم منها بكثير ، يتظَر:**
- Charles-Picard (G.), Civitas mactaritani. Karthago VIII, 1957
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques.

(569) - Tite-Live, XXIX, 31, 4-5

(**569** مكرّر) عن هذا الموضوع يراجّع : -Gsell (S.), Etendue de la domination carthaginoise en Afrique du Nord, Alger 1909

ولدينا حدثان واضحان، الأول هو أنّ أسلاف ماسينيسا كانوا ملوكا على الماسيل[570]، والثاني هو أنّ أميرا نوميديا منافسا لكابوسا وماسينيسا هو **ماس ايتول** لا ينتمي إلى سلسلة النسب التي ينتميان إليها وهو ما يستوجب البحث عن سلف مشترك لهم سابق بأجيال عديدة، وتشير مطالب ماس ايتول والعروض التي قدّمها ماسينيسا بعد الهزيمة التي لحقت به، أنّ هذا الأمير ينحدر هو الآخر من ملوك، لكنّنا نجد في تيت ليف ما يوضّح هذا الإشكال وهو أنّ ماس ايتول ينتمي إلى فرع من العائلة المالكة معادٍ للفرع الحاكم[571]. وتمثّل قواعد ولاية العرش الماسيلي مثلما استنتجها اقزال شكلا من قانون عرفي[*]: " **كانت الملَكية ملْكية عائلة بالمعنى الواسع لهذه العبارة أي أنّها ملْكية مجموع الذكور المتسلسلين من سلف أعلى مشترك، وفي هذه العائلة يكون الرئيس هو الأكبر سنّا من الذكور الأحياء المولودين من زواج شرعي، فإليه يؤول العرش وبعد وفاته ينتقل إلى الأكبر سنا في مجموعة الذكور**" [572] . ويعود الفضل إلى نصّ دوقة المزدوج الذي سجل اسم والد قايا ومنه عرفنا قواعد وراثة العرش عند الماسيل، ومن خلاله أمكن لنا وضع الجدول النظري التالي القائم على احتمالات الوراثة الأكثر بساطة.



[570] - Polybe, XV, 18, 5.
[571] - Tite-Live, XXIX, 29, 7.
[*] استعمل المؤلّف عبارة انكليزية هي Tanistry وهذه العبارة تستعمل للدلالة على قانون عرفي لجماعة سلتية.
[572] - Gsell (S.), H.A.A.N., t, V, pp. 121-122.

تقودنا هذه الاعتبارات إلى التفكير في أنّ الأسرة الملكية الماسيلية تكون قد حكمت إلى فترة حكم ماسينيسا على امتداد أربعة أجيال، وعليه فإنّ أيليماس الملك الليبي حليف ثمّ عدو أقاثوكل يمكن أن يكون أحد أسلاف ماسينيسا، وأنّ دوقة التي استولى عليها اوماك (Eumaque) بعد سنتين من وفاة هذا الملك كانت احتمالا هي عاصمته.

هناك دليل آخر مستمدّ من نصّ دوقة الإهدائي، يدعو إلى اعتبار هذه المدينة كأقدم عاصمة للماسيل، فهذه المدينة في واقع الحال هي الوحيدة التي اختصّت بنصّ أثري يشير إلى معبد مكرّس لماسينيسا، وفي هذا النصّ الأثري إشارة إلى جدّ ماسينيسا بلقب شفط، وكان يمكن أن تكون هذه الإشارة غير مقيدة لو أنّ اسمه لا يوقظ في دوقة بالذات بعض الذكرى، لكن وظيفة الشفط هذه التي يبدو أنّها غير ذات أهمّية في مدينة بونية أو مدينة بتنظيم إداري من النمط البوني غير معروفة في دوقة في عهد ميكيبسا على الأقلّ[573]، ولا ندري كيف يمكن تصوّر أنّ زيلالسن كان شفطا، في دوقة إنّ لم يكن ذلك – احتمالا– خلال السيطرة القرطاجية.

يبدو في الأخير أنّه من الصعب التفكير في أنّ دوقة والتلّ الأعلى يمكن أن يكون هو مهد القوّة الماسيلية، فهذه المنطقة كانت في الواقع تحت سيطرة قرطاج، على الأقل منذ الحرب البونية الأولى، ومن الصعب التسليم بأنّ المملكة الماسيلية استمرّت في الوجود بعد احتلال الإقليم الأول للقبيلة التي تنتمي إليها العائلة الحاكمة، وحتى لو أنّ قرطاج مارست نوعا من الحماية على المملكة الماسيلية فإنّ حاكما مثل قايا، نقُص إقليم مملكته بسبب توسّعات جيرانه واحتفظ بشيء من الاستقلال في ظلّ ولاء مشروط لحلفائه البونيين، ما كان يمكن له ولا لابنه ماسينيسا اتباع سياسة مماثلة لو أنّ إقليم الماسيل الأساسي كان بأيدي القرطاجيين.

لنحاولْ البحث عن أصول عائلة ماسينيسا في منطقة سيرتا غربي المملكة، فمن الأكيد أنّ هذه المدينة أصبحت عاصمة لماسينيسا وميكيبسا، لكن قايا لم تكن له سيادة على هذه المدينة التي كانت تتبع سيفاكس، وإذا كان ماسينيسا قد دفن حقّا في لخروب فإنّ ذلك سيمثّل عنصر إثبات لصالح سيرتا، كما أنّ ثراء المنطقة السيرتية بالمعالم الميقاليثية يسمح بالاعتقاد إلى

[573] وجد أقلّيد شبيه بآرخون–ملك Archonte-Roi سنوي واثنين من رؤساء المئة، أنظر :
-Chabot (J.B.), Recueil des Inscriptions Libyque, n° 2, 3, 4, et 11
وعن مجموعات دوقة ما قبل الرومان يُنظَر:
- Poinssot (Cl.), Les ruines de Dougga, Tunis 1958.

حدّ ما بوجود تعمير بشري بجوار جبل فورتاس في وادي خنقة وفي ســيلة [574]، أيــن تمّ العثور على معالم ضخمة تضمّ منحوتات لزعماء محليين، ويستفاد من بعض الوثائق الأثريــة أنّه منذ القرن الرابع أو الثالث واحتمالا قبل ذلك كان نوميد هذه المنطقة على علاقة بالتجار البونيين[575]، ولذلك يمكن اعتماد أن القوّة الماسيلية نشأت حول سيرتا، ولكن هناك مؤشّر آخر يدعو إلى البحث عن الموطن الأول لهذه القبيلة جنوبا ألا وهو المدغاسن الــذي هــو بالضرورة ضريح لشخصية نافذة، لملك استمرّت ذكراه حيّة إلى الفترة الرومانية[576]، وهو مؤشّر يدلّ احتمالا على أنّ أصل عائلة الملك الذي شيّد له هذا المعْلم من الأوراس، في حين أنّ خصائص معماره لا تسمح بإعادة هذا المعلم إلى ما قبل القرن الثالث، فهو معاصــر إذن للعائلة الماسيلية، ومن غير الممكن الاعتقاد أنّه أقيم لأمير ينتمي لعائلة حاكمة أخرى، غــير العائلة الماسيلية.

أضفى مهندس مدغاسن بعض العناصر المعمارية القرطاجية مع الاحتفاظ بتقاليد المعمار الجنائزي البربري، ويمكن أن يكون بونيا أو على الأقل تعلّم فنّ البناء على أيدي البونيين، ونستنتج دون عناء أنّ الأمير الذي أقيم له ضريح مدغاسن كان في أقلّ تقدير على علاقة بالقرطاجيين وأنّ إقليم مملكته كان يمتدّ إلى جوار مدينة بونية، وتبقى سيرتا هي المدينة الأقرب التي كانت بها جالية فينيقية خلال القرن الثالث[577]، ولكن من غير المؤكّد أنّ يكون في إمكان العدد القليل من العائلات الفينيقية المقيمة بتلك المدينة إنجاب مهندس معماري مؤهّل لإنجاز هذا المعْلم، ومن المفترض أن تكون سلطة الملك الذي تكون رفاته قد دفنت في المدغاسن ممتدّة إلى سيرتا وتبعا لذلك إلى ما وراءها باتجاه الساحل ونحو الشرق أيضا، ويبدو أنّ المقبرة المجاورة لمدغاسن المكوّنة من التملوس والبازينا هي الشاهد على الفترة التي وجدت فيها العائلة الملكية التي ينتمي إليها الأمير المدفون في الضريح.

---

(574) - Cf. Vel (A.), Monuments et inscriptions libyque relevés dans les ruines de Tir Kabbine, Rec. Des Not. Et Mém. de la soc. Archéol. de Constantine, T, XXXIX, 1905, pp. 193-227
- Logeart (F.), Nouvelles inscriptions libiques de la Commune mixte d'Ain M'Lila, Rev. Afric. T, LXXIX, 1936, pp. 441-453 (Rec. Des Not. Et Mém. De la sic. Archéol. de Constantine, T, LXIII 1935 pp. 187-196)
وعن أهمّية مقابر المنطقة ، ينظَــر: - Chabassière (J.), Ruine et dolmens du Fortas et de ses contreforts, Rec. Des Not. Et Mém. De la sic. Archéol. de Constantine, T, XXIV, 1886-1887, pp. 96-138

(575) **هذه الوثائق هي : مطرة (Gourde) من نمط قبرصي اكتشفت في دلمان في بوشن ، وسفانكس من صنع إغريقي عثر عليــه في تيدّيس.**

(576) **أنظر أعلاه ص 120.**

(577) **عن تاريخ استقرار الفينيقيين في سيرتا أنظر :** -A. Berthier et l'abbé R. Charlier, le Sanctuaire …, pp. 231-236.

المنطقة النوميدية

يمثل كل من التلّ الأعلى التونسي، المنطقة السيرتية وامتدادها الجنوبي، والأوراس عناصر مطابقة للإقليم الذي تكون القبيلة الفاتحة قد انبثقت منه، ومع ذلك تبدو هذه المناطق الثلاث كما لو أنّها غير منسجمة مع مجموع المملكة الماسيلية حسب الشكل الذي كانت عليه قبل ماسينيسا إلى حدّ أنّه لا دوقة ولا حتى سيرتا تكوّن قسما من المملكة في نهاية حكم قايــا، والواقع أنّ قلب المملكة الماسيلية يقع من جهة أخرى على محور يمرّ عبر هيبون – تيفــست، ففي هذه المنطقة توجد أغلب النصوص الأثرية الليبية؛ وعلى بعد نصف المسافة من هــذين المدينتين استمرّت خلال الفترة الرومانية قبيلة نوميدية تسمّت باسمها مدينــة توبورســيكو وقدّمت نصّا إهدائيا للملك يمبسال نجل الملك قاودة[578]، وبكلّ تأكيد لا أحد من هــذه العناصر يعود إلى فترة أقدم ممّا يدفع إلى التفكير في أنّ هذه المنطقة كانت الموطن الأصــلي للعائلة الماسيلية، إلاّ أنّ اقزال يلحّ وهو محقّ على التسمية وعلى استمرار وجود قبيلة نوميديا (gens numidarum) بجوار توبورسيكو إلى عهد نيرون، ويبدو أنّ إقليم هذه القبيلــة كــان شاسعا، ولأنّه لا وجود لأيّ اسم لصيق باسم هذه القبيلة سمح المؤلّف لنفسه أن يقترح أنّها احتمالا هي التي تَسَمَّى النوميد باسمها[579]، وفي هذه الحالة يمكن التفكير لــو أنّ العائلــة الملكية الماسيلية انبثقت من هذه المنطقة لكانت مدينة توبورسيكو قد لعبت دورا في التاريخ وأنّ هذه المدينة الفخورة بأصولها النوميدية ستكون محلّ تنويه من العائلة الحاكمة ولا تكتفي بمجرّد إهداء بسيط للملك يمبسال.

لهذا كلّه تظلّ الشكوك بين مختلف هذه المناطق، إذا كان النصّ أو الدلائل المستخرجة من النقوش لا تسمح في نهاية المطاف بإعلان المنطقة السيرتية هي المنطقة الأصلية وبعبارة أكثــر دقّة القسم الجنوبي منها.

الماسيل وجيرانهم حسب بلينوس الكبير

بلينوس الكبير وهونوريوس يوليوس هما الوحيدان اللذان تحدّثا عن قبيلة الماسيل، مــع أنّ نص يوليوس هونوريوس لا قيمة له؛ فهو يحدد موقع بلاد الماسيل في جوار مــضيق جبــل طارق [580]، أمّا بلينوس فلا يحدد موقع إقليمهم بدقّة ولكن يكتفي بالإشارة إلى أنّهم مــن بين شعوب أفريقيا وأنّ بلادهم تمتدّ من الأمبساقا إلى خليج السيرت.

(578) - Inscriptions Latines de l'Algérie, t, I, n° 1242.
(579) - Gsell (S.) et Joly (Ch.), Khémissa, M'Daourouch, Announa, 1ère partie, Khémissa, pp. 11-20.
(580) - Julius Honorius, in Geographici latini minores, p. 54.

بعد أن قدّم أسماء ناتابود (Natabudes)، كابسيتاني (Capsitani) وميسولاني (Misulani) ذكر بلينوس الزبربر (Sabarbares)، الماسيل (Massyli)، النيسيف (Nicives) وأربع قبائل أخرى لم يذكرها مؤلّفون آخرون وكذا لم يرد منها في النقوش غير قبيلة الموسيني (Mussini)[581]، وبالموازاة لدينا معلومات عن وضع هذه القبائل: فالتناتابود أو الناتابوت[*] يكوّنون بلدة(Civitas) تحدّدها نصّ أثري بجهة عين عربي (Rénier) غربي توبورسيكو النوميدية[582]، أمّا الكابسيتاني (Capsitani) فهم قبيلة قفصة (Capsa) ومن الواضح أنّ الميسولاني هم الموسولام (Musulames) وكانوا بجوار الموثول (واد ملاّق) والأسماء الثلاثة الأولى وردت في ترتيب معيّن، فالناتابوت كانوا متمركزين جهة الشمال الغربي للموسولام وهؤلاء بدورهم إلى الشمال الغربي للكابسيتاني، لولا قلب بسيط يجعل الكابسيتاني ما بين الناتابوت والموسولام، وهذه المواقع تسمح إذن بإبعاد الماسيل من الإقليم الحالي لعمالة بونة وينبغي البحث عن إقليمها غربا أو شرقا.

تمثّل الأسماء الثلاثة التي تلي اسم الماسيل أهمّية كبرى لأنّ اسمهم تمّ ذكره ما بين الزبربر والنيسيف وقد سمحت النصوص النقوشية إلى الآن بتحديد إقليم الزبربر على وجه التقريب في منطقة تاجنانت بين سطيف وقسنطينة[583] والنيسيف إلى الجنوب من هؤلاء، ما بين شطّ البيضاء وجبال باتنة[584]، غير أنّ اكتشاف نصّ نقوشي أخيرا في تيجيس يجعل من الضروري إعادة النظر في هذه المواقع[585]، وهذا النصّ كتب على علامة حدودية بين الأملاك العمومية السيرتية والأملاك المخصّصة لقبيلة الزبربر الملكية وللنيسيف، وقد أرّخ سارج لانصال هذا التخصيص بسنوات 74-79 بعد الميلاد، وهو بذلك أقدم من الوثائق

---

(581) Pline, V, 4, 5. -؛ القبائل الثلاث غير المعروفة هي الواكامور (Vacamures) الإيثيني (Ethini) والماركوبيي (Marchubii)
أنظر : Ptolémée, IV, 6,5 - وذكر الموسوني (Musuni) الذين يشكّلون قسما من الموسوني الملكية (Musuni regiani) التي عرفنا موطنها من خلال نص أثري عثر عليه في هنشير رشيق بالقر من فريانة (C.I.L., VIII, 23195) .

(*) عن هذه التسمية يمكن الرجوع إلى أطروحتنا عن الكنفدرالية السيرتية ص

(582) - Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° 18, Souk-Ahras, Notice 135, C.I.L., VIII, , 4826, 4827 et 4836

(583) - Id., feuille n°16 Sétif, notice 468, 472, 473; et feuille 17, Constantine notice 214-246.
- Massiera (P.), Inscriptions de la région sétifienne, Bull. de la soc. Hist, et géogr, de Sétif, t, II, 1941, pp. 89-134 (pp. 110-112).
وليس من المستبعد أن يكون اولاد صابر (Sabor) قد احتفظوا باسم الصابربر (هذه فكرة ذكية من قابريال كامبس ولكن وجدنا أنّ اسم الــ Sabarbares أو الــ Suburbures كما هو وارد في النصوص الأدبية والأثرية مستمرّ بصيغة الزبربر في منطقة بعيدة نسبيا عن موطن الصابربر القدامى).

(584) - Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n°26, Bou Taleb, notice 161.

(585) - Serge LANCEL, Suburbures et Nicibes : une inscription de Tigisis, Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955, 289-298.

النقوشية الأخرى المتعلّقة بالزبربر وخاصّة النيسيف الذين يشهد نصّ إهـــدائي في كنيـــسة بيزنطية يعود إلى سنتي 582-583 على وجودهم في نقاوس.

لقد أدّت الاختلافات التي تظهرما بين معطيات النصوص الأثرية المعروفة قبل نـــصوص تيجيس بالمؤلّف إلى العودة إلى نصوص أقدم وعلى الخصوص نصوص بطليموس، وفي هـــذا السياق لاحظ سارج لانصال أنّ بطليموس يسجّل أنّ النيـــسيف يتوضّـــعون في الجنـــوب الشرقي من سيرتا بجوار الناتابوت أي بمحاذاة تيجيس وهذاتوافق تامّ بين نـــصّ بطليمـــوس ونصّ تيجيس الأثري، أمّا فيما يتعلّق بالزبربر فيتوضعون حسب بطليموس نقلا عن ســـارج لانصال ما بين تيجيس ومجرى باقرادا الأوسط لأنّه يموضعهم أسفل جبل ثامنس (Thamnes) وهو جبل تاقما (Tagma)، وإذا أخذنا بهذا التموضع ينبغي تبعا لفكرة سارج لانصال قبول أنّ الأباطرة يكونون قد أجْلَوْا بشكل متواصل القبائل البربرية المعتبرة من أنصاف البدو نحـــو الغرب والجنوب.

كان اقزال قد تخلّى عن فكرة أنّ جبل ثامنس يطابق جبل ثاقما [586]، في حين أنّ نـــصّ بطليموس قدّم دليلا آخر لا ينبغي إهماله[587] : "**بعد الزبربر يأتي الهاليـــاردي (Haliardi) و ... سهل سطيف**" ولا أرى في الواقع ما هو كنه هذه العبـــارة (Σιτταφιον πεδιον) حيث أنّ السهل الكبير أو النجد الذي يحدّه من الشمال البابور ومن الجنوب جبـــال باتنـــة وبوطالب، وبعيدا عن توهّم تنقّل الزبربر المتواصل على امتداد مائتي كلم من جبل تاقما إلى تاجنانت، فإنّ نصّ بطليموس يبرز على العكس تطابقا حقيقيا ما بين المعطيات النقوشـــية، حيث تشغل إحدى عشائر الزبربر أراضي واقعة إلى الجنوب من سيرتا، وهو ما يثبته نـــصّ تيجيس الأثري، ونصّ جنائزي في قبر فليكس ابـــن نبيبـــل (Félix u Nibil) مقـــدّم تلـــك العشيرة[588]، ولكن لا يمكن أن نستنتج من هذا النصّ أنّ كلّ الزبربر كانوا يتوضـــعون في سنوات 74-79 في الإقليم المجاور لتيجيس، والأجمل هو أنّ النصّين يشيران في كلّ مرّة وبدقّة إلى الزبربر أو *Sub (burbures) Regi(ani)* لتمييزهم عن باقي الشعب الذي يشغل الأقاليم الواقعة إلى الغرب[589].

---

(586) - Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° 9, Bône, notice 181

(587) - Ptolémée, IV, 3, 5.

(588) - B.A.C. 1917, p. 334. **قراءة أكملها سارج لانصال** l,l, pp. 294-295

(589) **عن المعنى الذي أعطي للكلمة** Regiani **أنظر أدناه ص 270**.

نرى أنّه من الممكن إبقاء الزبربر في المجال الذي حدّدته لهم النصوص الأثرية الأخرى، وحتى نصوص بطليموس ويوليوس هونوريوس على ما يبدو[590]، أمّا فيما يتعلّق بالنيسيف فالواضح أنّهم كانوا يتوضعون بجوار **الزبربر رجياني** جنوب شرقي سيرتا، وبعدها لا نعرف الظروف التي جعلت القبيلة أو قسما منها تُرحَّل للاستقرار في نقاوس، ولهذا يمكن القول دون وزر كبير أنّ الزبربر كانوا يتوضّعون إلى الغرب من سيرتا وأنّ النيسيف في شرقها.

لنعد الآن إلى هذه القبائل في نصّ بلينوس لنجد تطابقا بين النصوص والواقع دون ريب، على غرار قبيلة الماسيل التي تنتشر في منطقة سيرتا ذاتها إلى جبل فورتاس وقد رأينا من قبل أنّ بلينوس ذكر القبائل في ترتيب معيّن، وكأنّه يقرأ أسماءها على خريطة دون ترتيب منهجي، ولو أنّ اقتباس بلينوس لا يقدّم كلّ الدقّة فإنّه مع ذلك يوفّر الدليل الشكلي على أنّ الماسيل الذين ذكر إلى جانبهم الزبربر والنيسيف يسكنون في المنطقة الغربية من نوميديا. أمّا إدارياً فلا ريب أنّ القبيلة لم يصبح لها وجود خلال الفترة الرومانية مع أنّ ذكراها استمرّت في الموروث المحلّي، مثل اسم ماسول (Massul) الذي ظلّ الناس يتسمّون به في المنطقة خلال تلك الفترة، فقد ورد في نصوص شواهد القبور أحدها في سيلة[591]، واثنان بجوار واد جرمان[592]، والملاحظ هو أنّ هذا الاسم لم يُتَسَمَّ به في جهات أخرى لأنّه لم يُعثَر عليه ما عدا في نصّ أثري من القصرين (Cillium)[593].

الأقاليم الماسيلية

تضمّ المملكة الماسيلية إذن – قبل أن يتمّ تصغيرها إلى شريط ضيّق محصور بين إقليم قرطاج والمملكة الماسيسلية — في الغرب المنطقة السيرتية التي تكون العائلة الملكية قد انبثقت منها، وفي الشرق تغطّي القسم الأكبر من حوض باقرادا، إلى جانب الدورسال التونسي الذي يبدو أنّ القرطاجيين تخلّوا عنه، ونعتقد أنّ النزاع الطويل الذي نشب بين ماسينيسا وقرطاج ليس مردّه فقط إلى جشع الملك النوميدي؛ فهذا النزاع في الواقع كان بسبب مطالب إقليمية مبرّرة، ومعبّر عنها تباعا كلّما زادت قوّته.

(590) **ذكرها يوليوس هونوريوس إلى جوار القبائل الخمس في منطقة القبائل أنظر:** - Riese, Geographici latini minores, p. 54

(591) - Logeart (F.), Grottes funéraires hypogées et caveaux sous roches de Sila, in Rec. Des Not. Et Mém. de la soc. Archéol. de Constantine, TLXIII, 1935-1936, pp. 69-105: D.M.S. /I. MASSV/LVS/ V.A. XVI/ (p. 67).

(592) - C.I.L., VIII, 9296 et B.A.C., 1894, p. 346, n° 23.

(593) - C.I.L., VIII, 11310. **وماسول هذا ذكر في النص الأثري رقم 11311**

تضيق المملكة الماسيلية نسبيا في قسمها الشمالي ولكن لها أقاليم شاسعة في المناطق الجنوبية تنتجع فيها قبائل الجيتول، وعندما انهزم ماسينيسا أمام سيفاكس وتمّت مطاردته من طرف ورمينا لم يستطع البقاء في الشمال فالتجأ إلى السهوب المحاذية للسيرت الصغير بجوار القرامنت؛ ودون ريب كما يرى اقزال كان ذلك في جبال المنطقة الطرابلسية، غير أنّ هذه المعلومات التي قدّمها تيت ليف لا تسمح بتأكيد أنّ تلك المناطق تكوّن في واقع الحال قسما من المملكة الماسيلية ومع أنّ الوقائع اللاحقة ليس فيها ما يدلّ على أنّ ماسينيسا قام بغزو مدن الإمبوريا الفينيقية إلاّ أنّه ضمّها في النهاية حوالي سنة 192 [594]، ومن الواضح أنّ أقاليمه كانت تمتدّ إلى جوار تلك المدن، على غرار لبتيس التي ستكون منذئذ قسما من المملكة النوميدية إلى حرب يوغرطة.

كان للمملكة الماسيلية – مثلها مثل المملكة المورية وخاصّة مملكة الماسيسيل– رعايا من الجيتول ولكن لا نعرف تماما العلاقات القائمة بين الملك وهؤلاء البدو، ولا كيف كان اعتراف هؤلاء الأخيرين بالسيادة النوميدية، وقد حاولنا تذليل هذه المسألة الحساسة جدا المتعلقة بالتوسع الإقليمي للممالك وهذا باستيضاح ما إذا كانت السيادة البربرية لا ترتكز على ملكية الأرض بقدر ارتكازها على السيطرة على الأشخاص، عندها ليس مهمّا فقدان أقاليم إن كانت القبيلة السيدة تحتفظ بتماسكها، وبالمقابل تفقد الأقاليم المفتوحة آليا كلّ أصالتها، ومع أنّ سيفاكس ملك على كلّ الجزائر إلاّ أنّه بقي ببساطة ملك الماسيسيل، والتوسع الماسيلي لم يستتبع أيّ تحوّل في مراسم الملوك الذين حكموا البلاد من السِّيرْتَين إلى الملوية واستمروا في واقع الحال ملوكا على الماسيل لا غير[595] .

عندما اعتلى ماسينيسا العرش الماسيلي واعتُرف له بذلك –في أعقاب هزيمة سيفاكس – ليس فقط من قبل رعاياه الذين لم يترددوا أبدا في دعمه ولكن أيضا من قبل سيبيون باسم مجلس الشيوخ الروماني، كان النوميد قد بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها، وكان القسم الأكبر من أراضيهم مستغلاّ، كما أنّ تربية الأبقار كانت تكتسي أهمية أكثر من اليوم، ومثلها تربية الخيول التي اشتهر بها الماسيل، وكانت المدن الساحلية والداخلية مركزا للحضارة البونية منذ قرنين على الأقل، وللضرورة أصبحت المدن عواصم ممالك أو مراكز مقاطعات لم تتوقف عن نشر الحضارة البونية وعلى الخصوص في المجال الديني، وكان

[594] - Gsell (S.), H.A.A.N., III, p. 317.

[595] **يشير النصّ الأثري المعروف بنصّ ميكيبسا الذي عثر عليه في شرشال إلى هذا الملك بعبارة ملك الماسيل.**

استرجاع بعض او كل المدن الساحلية في نهاية القرن الثالث قد رفع من شأن ذلك التطوّر، أي المصير الذي لا مفرّ منه وهو بونقة (Punicianisation) بلاد البربر وخاصة قسمها الشرقي، فهل ساهم ماسينيسا عاهل النوميد الذي تعزو اليه المؤرخون عددا من المشاريع في التيسير لهذا التطور أمّ أنّه حاول صدّه لتنمية أسس حضارة بربرية أصيلة منبثقة من اللقاء العريق بين أفريقيا وعالم البحر المتوسّط ؟



ج – فترة حكم ماسينيسا

المصادر

مع أنّ ما كتب عن ماسينيسا كثير[596] إلاّ أنّه ينبغي الإقرار بفقر المصادر الأدبية والوثائق الأثرية المتعلقة بالملك النوميدي الكبير، وقد قام اسطيفان اقزال على نحو رائع بتسليط الضوء على النصوص القديمة اللاتينية والإغريقية التي تعرّف ببعض الأحداث في حياة ماسينيسا، مع أنّ هذه النصوص لا تلقي الضوء على هذا الملك إلا بقدر ما تسهم أعماله في إيضاح مجريات الأحداث المتوسّطية أو تؤثّر فيها.

دخل ماسينيسا ومعاصروه الأفارقة التاريخ من خلال الحروب البونية؛ مما يعني أنّ فترة حكم ماسينيسا الطويلة غير واضحة المعالم إلاّ في مراحلها الأولى والأخيرة: الأولى خلال اعتلائه العرش لأنها توافق نهاية الحرب البونية الثانية والأخيرة في سني حكمه الأخيرة لأنها الفترة التي يتهيّأ فيها دمار قرطاج.

أمّا خلال فترة الحكم ذاتها فليس لنا شيء عنها خارج النزاع مع قرطاج، سوى إشادة بوليب معاصر ماسينيسا به وهي الإشادة التي كرّرها المؤرّخون من بعده[597]، كما أخبرنا بطليموس عرضاً أنّه يقيم في قصره بسيرتا ولائم جديرة بملك هلينيستي[598]، وأشار تيت ليف أنّ مسطانبال كان ذا تكوين ثقافي في الآداب الإغريقية[599]، وأفادنا خصوصا وبأمانة عن الوحدات التي وضعها في خدمة روما خلال حروب فيليب وأنطيوخوس وبرسي؛ كما أنّ كمّيات الحبوب التي زوّد بها للفرق الرومانية خلال تلك الظروف هي الأخرى معروفة[600].

وعن شخص الملك هناك بعض الملامح والجوانب المادية والمعنوية التي أشار إليها بوليب، تيت ليف، أبيانوس، شيشرون وزونارا مثل قدرته على التحمّل، وبنيته القوية التي لم يفتّ فيها سنّه المتقدّم إلا قليلا، وكذا شجاعته وقلّة اكتراثه بالآخرين هي كلّها مسائل معروفة ولاحاجة إلى ذكرها هنا[601]، أمّا عن والده قايا فالواقع أنّنا لا نعرف عنه شيئا وبالمقابل نجد في زونارا أنّ والدته كانت كاهنة[602]، ممّا يجعلنا نفكّر في أنّها نوميدية وليست قرطاجية.

---

(596) خارج المجموعات التاريخية الكبرى والأعمال العامّة التي تعالج تاريخ أفريقيا الشمالية، تنبغي الإشارة إلى :
- Schur, Massinissa, dans le Real-Encyclopédie der Klassischen Altertumswissenschaft, t, XIV, pp. 2154-2164
- Walter (G.), la destruction de Carthage, (264-146) Paris 1947
- Lencman (J.A.), Massinissa Vestnix drevnef istorii, 1948.

(597) - Polybe, XXXVI, 16, 7-8.; Strabon XVII, 3, 15.; Appien, Lib 106, Gsell (D.), HAAN, V p. 186, supra pp. 8-9.

(598) - Ptolémée Evergète, Müller, Frag, histor, graec. III, p. 187, n° 7.

(599) - Tite-Live, Epitome du Livre L.

(600) - Tite-Live, XXXI, 11, 10; 10, 4 (en 200); XXXII, 27, 2 (en 198); XXXVI, 3,1 et 4, 8. (en 191); XLII, 6,2 et XLIII, 6,1 (en 171-170)

(601) - Cf. Gsell (S.), HAAN, t, III, pp. 301-304.

(602) - Zonaras, IX, 2.

العملة والنصوص النقوشية

الوثائق الأثرية والنقوشية المتعلّقة بماسينيسا نادرة وفقيرة، إذلم يترك الملك البربـــري إلا القليل من الآثار المادّية: بل إنّنا غير متأكّدين حتى من مكان دفنه،وقد أضحى من المقبـــول ولكن دون دليل حقيقي أنّ صومعة الخروب هي مثواه الأخير، ومن بين الوثائق التي تعـــود إلى عصره القطعة النقدية التي تحمل اسمه (**م س ن س ن**)[603]، حيـــث نتعـــرّف في أحـــد وجهيها على صورة أمير، يأتي بعد ذلك عدد من النصب البونية المكتشفة في معبد الحفـــرة (قسنطينة) حيث أنّ بعضها مؤرّخ تبعا لسني حكمه[604]،وهذه النصوص الأثرية لا تـــذكر اسم الملك إلاّ في حال تحديد تاريخ، والأمر ليس كذلك في حال نصّ دوقة المـــزدوج[605]، حيث أرّخ إهداء معبد لماسينيسا أقيم له من طرف سكّان تلك المدينة بالسنة العاشرة مـــن حكم ميكيبسا، والقسم الليبي من هذا النصّ هو الوحيد الذي أعطى لنا الصيغة الليبية لاسم ماسينيسا، أمّا الصيغ الأخرى فهي كلّها بونية، إغريقية أو لاتينية.

كلّ النصوص الأثرية الإغريقية التي تضمّنت اسم ماسينيسا معاصرة له أو تعود إلى مـــا بعد وفاته بمدّة قصيرة؛ وهي ثلاثة نصوص إهدائية وجدت في ديلـــوس (Délos) أحـــدها في نصب أقامه نيقوميدوس ملك بيثونيا والأخرى ضمن قائمة الألعاب الأثينية التي ذكر من بين المنتصرين فيها : مسطانبال بن الملك ماسينيسا[606].

هناك نصّ أثري **بوني جديد** من شرشال هو عبارة عن نصّ إهدائي جنائزي للملـــك ميكيبسا [607]، تضمّن هو الآخر اسم ماسينيسا، كما عُثِر على نصّ أثري لاتيني في رومـــا يعود إلى ذات الفترة يذكر الملك النوميدي ، أمّا النصّ الأحدث فهو النصّ الذي عثر عليـــه في كارطاجينا الذي سجّل جنيالوجيًا يوبا الثاني [608] .

(603) -Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mayretaniaeque, n° 17.

(604) - Berthier (A.) et Charlier (R.), le sanctuaire … stèles n° 58-59-63. - النصب رقم **62** يتضمّن اسم ماسينيسا ولكن الإشارة إلى السنة تعرّضت للمحو، وقد استخرج من قسنطينة في المجموع **9** أنصاب تتضمّن إشـــارة إلى فتـــرة حكـــم ماسينيسا، ولكن اسمه ليس موجودا في هذه الأنصاب دائما، ودون ريب فإنّه لا يمكن ذكره في كلّ مـــرّة بـــالنظر إلى الـــسنين الطويلة التي حكم خلالها(Cf. op. l, p. 61) .

(605) - Chabot (J.B.), Recueil des inscriptions libyques, n° 2.

(606) تمّ نشر دراسة عن إهداء نيقوميدوس لماسينيسا من طرف روسل وهاتزفلد في:
– Bull, de correspon, hellén, t, XXXIII, 1909, pp. 473-522
كما ظهرت النصوص الأخرى في : - les Inscriptiones Graecae, II, 968 (Athènes), XI, 1115 et 1116 (Délos)

(607) تمّت دراسة نصّ ميكيبسا الأثري من قبل جيمس فيفيري أنظر:
- Février (J.G.), Rev d'Assyr, et d'archéol. Orient, t, XLV, 1951, pp. 139-150.

(608) - CIL, I, 200 et II, 3417.

اسم ماسينيسا

هذه الوثائق النقوشية هي أيضا أفقر من المصادر الأدبية، رغم أنّها أو بعضها على الأقل عبارة عن شواهد على التأثير الذي عرف ماسينيسا كيف يمارسه على معاصريه، ومع ذلك تسمح بحلّ إشكال صغير يتعلّق بضبط كتابة اسمه، فالكثير من المؤرّخين وعلى الخصوص الذين يكتبون باللغة الفرنسية يكتبون الاسم بحرف S واحد في بداية المقطع الثاني هكذا Masinissa، وهذا هو الحلّ المتبنّى من طرف الكثيرين ومن بينهم : اقزال، كاركوبينو، أندري جوليان، برتيي ومازار. وبالمقابل كتب شور(Schur) اسم ماسينيسا هكذا Massinissa على غرار كل المستشرقين : هاليفي، ديسو، شابو وفيفريي، وهي الصيغة التي تبنّيناها هنا اعتمادا على دلائل من النصّ الأثري الليبي الوحيد الذي تضمّن اسم ماسينيسا كاملا وكتب فيه الاسم هكذا : **م س ن س ن** MSNSN، فهو إذن يساوي في النطق بين السين الاولى والثانية في المقطعين الثاني والأخير، كما أنّ كلّ النصوص النقوشية البونية تكتب الاسم بسين واحدة في ذات المقطعين سواء في رموز العملة أو في إهداءات معْلمية، أو في أنصاب خاصّة[*].

تخضع كتابة هذا الاسم البربري في الإغريقية واللاتينية لقواعد أقلّ صرامة، فقد كتبه بوليب المعاصر لماسينيسا هكذا Μασσανασσης وحصل شبه إجماع -على هذه الصيغة- سار على نهجه الكتّاب الإغريق[609]، أمّا النصوص النقوشية الإغريقية فقد فضّلَت ضبط الاسم هكذا Μασαννασασ كما أنّ أقدم نصّ أثري لاتيني أعطى للاسم هذا الشكل: Massinissa، أمّا نصّ كارتاجينا المعاصر لأوغوسطس فكتب الاسم هكذا Masinissa، وهذا الشكل الغريب تبنّاه تيت ليف وتبعا له أغلب الكتّاب اللاتين والمؤرّخين المعاصرين.

هذا الفحص السريع يبرز إذن أنّه ليس لأنّ ضبط نسخ الاسم هكذا Masinissa هو الذي لا يطابق الشكلين الليبي والبوني ولكن لأنّ هذا الشكل لم يظهر إلاّ في وقت لاحق، أي بعد قرن ونصف القرن من وفاة الملك الماسيلي[610] .

(*) هذا في الواقع متعلق بكتابة الاسم بالحرف اللاتيني بسين واحدة هكذا Masinissa أو بسين مضاعفة هكذا Massinissa، أما في العربية فيكتب الاسم دون إشكال لأن الشدّة في العربية تقوم مقام الحرف المضاعف في اللاتينية.

(609) - Schur, Massinissa, Real-Encyclopédie der Klassischen Altertumswissenschaft, t, XIV, p. 2154.

(610) بعد أن اعترف اقزال أنّ النصوص الأثرية الأقدم كتب فيها الاسم بصيغة Massinissa وليس Masinissa فضّل الصيغة الثانية لأنّ تيت ليف استعملها وكذا أوفيد وسيليوس كما أنّ قواعد العَروض تبقي على صيغة Masinissa لآنّها أقصر، وهذه حجّة غير مقنعة.

يبدو ضبط كتابة الأسماء النوميدية من طرف الكتّاب اللاتين بالمناسبة خياليا وغير دقيق، فقد منحوا اسم ماسينيسا Masinissa أيضا لأمير بربري معاصر ليوبا الأول، في حين أنّ هـذا الشخص لحسن حظّ المؤرّخين سكّ عملة باسمه كتب عليها اسمه بحروف بونية جديدة هكذا: MSTNSN أو بالأحرى MSTNZN [611]، وهو ذات الشخص الذي يسميه شيشرون ماستانسوسوس (Mastanesosus) [612].

ومن ناحية أخرى فإنّ نجل ماسينيسا الذي نسمّيه تبعا للمؤرّخين القدامى ميكيبسا كتب اسمه هكذا **م ك و س ن** MKWSN.

فالنون الأخيرة هي حرف نهاية يرد كثيرا في أسماء الأعلام البربرية؛ ذلك أنّا نجد في نصوص أفريقيا الأثرية اللاتينية وخاصّة في كتاب كوريبوس(La Johannide) أنّ النهاية EN أكثر تواترا من النهاية AN ومن هذا يبدو أنّ اسم ماسينيسا أقرب إلى الصيغة ماسينيسن.

يبدو أنّه من غير المجدي البحث في دلالة هذا الاسم ، وقد حاول قوسطاف مرسيي ذلك فجزّأه هكذا: Mes-ensen، بمعنى "**سيّدهم جميعا**"[613] ولا ندري ما كنه هذا التفسير[*].

وراثة العرش الماسيسيلي

بعد فترة عنفوان الشباب انشغل فيها بمحاربة الماسيسيل ثم الرومان في إسبانيا، وخصميه لاكوماز وماس ايتول وأخيرا سيفاكس والقرطاجيين، حكم ماسينيسا إلى سنة 148، ولسنا هنا بصدد الحروب السابقة لمعركة زاما التي كان فيها طرفا مهمّا، ولكن الجدير هو تحديد وتعريف توسّع المملكة التي حتّى عندما شملت إقليميا كلّ الجزائر وثلثي تونس ظلّت مملكة للماسيل.

كان توسّع المملكة في اتجاهين: نحو الغرب على حساب الماسيسيل، ونحو الشرق على حساب القرطاجيين، وهو توسّع ممنهج، تمّ عبر مراحل، اتخذ خاصة في السنوات الأخير، منحى القوّة وشكل وضعا لا مناص منه.

---

[611] **عن عملة ماستينيزن (= ماسينيسا = ماستانيسوسوس = ماستينيسا) وابنه يراجع :**
- Corpus nummorum Numidiae Mayretaniaeque, n° 99-102
وقد أكملها مارسيلي جوبير: - Marcellet Jaubert (J.), Port-Romain : Monnaie numide de Mastenissa 1er Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955 pp. 371-372 **؛ كتب الاسم على العملة بحرف زاي في المقطع الأخير وهوذا ما يبيّن خطأ القدامى الذين يسمّون الأمير ماستينيسا.**

[612] - Cicéron, In Vatinium, 5, 12, ; Gsell (S.), HAAN, V, p. 160.

[613] - Mercier (G.), la langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, in Journal asiatique, 1924 pp. 189-320, p. 219.

[*] **لا ندري لماذا يحجم كامبس عن متابعة المحاولة التي قام بها مرسيي المعروف بإتقانه للغة الأمازيغية بلهجاتها المختلفة، مع أنّ كامبس نجده ذا طروحات جريئة في جوانب أخرى خاصّة عندما يتعلق الأمر بإثبات الأصول الحضارية الإيبرية وامتداداتها إلى أفريقيا الشمالية.**

ورمينا وريث سيفاكس

كان التوسّع باتجاه الغرب متداخلا بشكل وثيق بما يمكن أن نسمّيه وراثة العرش الماسيسيلي، فالأحداث التي تلت هزيمة سيفاكس والقبض عليه كانت حاسمة؛ وقد جمع اقزال بطريقة تستحقّ التنويه، مختلف الروايات أو عناصر الروايات ذات الصلة بمآثر ورمينا، وخلص في الأخير بحذره المعهود إلى أنّ كلّ هذه الروايات غير موثوق بها كثيرا[614].

ودون حصر النصوص، يمكن في واقع الحال مقابلتها بعضها ببعض، وجمع العناصر المشتركة، وإقصاء المتناقض منها مع هذا أو ذاك من مصادرنا، وتأتي الأركيولوجيا لتسعفنا بأدلّة حقيقية: ورمينا، شاب يافع غير ملتحٍ بعد، مرسوم على عملات سكّت باسمه مع الإشارة المعتادة : **هـ م م ل ك ت** HMMLKT وكما رأينا أعلاه هذه الوثائق سكّت في ذات المعمل الذي سكّت فيه سلسلة القطع النقدية لسيفاكس، ويبدو أنّها معاصرة لها. ومن غير الأكيد أن يكون ورمينا هو الذي سكّها ووضعها قيد التداول بعد سنة 203 .

حادثة أخرى لا يمكن أن تكون محلّ شكّ، وهي تولّي ورمينا القيادة العسكرية التي خلال 205-204 أي أنّه خلال تلك الفترة كان شابا في بداية سنّ الرشد. وهذا دليل في نفس الوقت على أنّ سكّ العملة التي تحمل صورة فتى في هيئة مراهق يعود إلى تاريخ سابق.

في أعقاب سنة203،وبالضبط بعد معركة جوان203 التي تمّ خلالها القبض على سيفاكس من طرف ماسينيسا ولايليوس[615]،تشير بعض النصوص إلى ورمينا في وضع وعمر مختلفين.

لا يتحدّث بوليب وهو أقدم مؤرّخ معاصر للأحداث عن ورمينا، ويكتفي بالقول أن ما ماسينيسا استولى بين 203-202 على كلّ مملكة سيفاكس[616]، ونعود إلى عبارة التأكيد هذه، حيث نجد تيت ليف يقول العكس وهو أنّ ماسينيسا لم يستول إلاّ على الجزء الأكثر ثراء من ماسيسيليا[617]، وفيما يتعلّق بورمينا يبيّن أنّه لا يزال يحارب ضدّ الرومان في ديسمبر 202، بعد زاما [618]، مما يعني أنّه ظلّ يحكم في إحدى جهات ماسيسيليا، حيث

(614) - Gsell (S.), HAAN, t, III, p. 285.

(615) - Tite-Live, XXXI, 11, et 12. ؛ **تاريخ 24 جوان محدد بدقّة من طريف أوفيد:** Ovide, Fastes IV, 769 - **وعن كلّ هذه الوقائع العسكرية أنظر:** Gsell (S.), Op, l, t, III, 236-237.-

(616) - Polybe, XV, 5, 13.

(617) - Tite-Live, XXXI, 11, 8 ; XXXVI, 11, 8, ; XXXVII, 53, 22 -- **قدّم سيبيون القسم المفتوح من مملكة سيفاكس خلال الحرب بمشاركة فرق لايليوس "هبة" لماسينيسا** (XXX, 44, 12)

(618) - Ibid. XXX, 36, 7-8.

يقول نقس المصدر أنّه أرسل سفارة إلى روما في السنة 200، بنية التحالف معها، وأنّه بالمثل استقبل سفارة رومانية[619]، وألمح ذات المؤرّخ إلى شخص باسم أكروبـــازان (Acrobazane) على أنّه حفيد سيفاكس كان يقود سنة 152 جيـــشا قويّـــاً *in finibus carthaginensium* [620] وهذا الاسم (الذي يبدو فارسيا أكثر منه نوميديًّا) على رأس جيش أفريقي لا يدلّ بالمطلق على مملكة ماسيسيلية لا تزال قائمة إلى تلك الفترة.

أمّا أبيانوس فبعد أن سجّل بأنّه تمّ القبض على سيفاكس وابنه معه، فيشير إلى أنّ ورمينا كان لا يزال سنة 202 يحتفظ بالقسم الأكبر من مملكة والده، وأنّه أضاف قواته إلى قـــوات هانيبال التي كانت حينها متجمّعة في هادروميت[621]،في أعقاب معركة زاما،ويرى أبيانوس أنّه كان لا يزال قادرا على مساعدة القرطاجيين[622]، ويضيف أيضا أنّه في حـــوالي ســـنة 150كان ماسينيسا سيّدا على كلّ الأقاليم الممتدّة من السيرت الكبير إلى مولوشا[623].

يدّعي ديون كاسيوس ومختصِره زونارا أنّ ورمينا تمّ القبض عليه في ذات الوقت مـــع سيفاكس في 203، ولكن أطلق سراحه، بعد استلام الرومان لمملكة والده[624].

من المشكوك فيه بالتأكيد أن يكون ورمينا قد شارك في أي معركة بعد زامـــا، أو أن يكون قتيل النوميد على وجه الخصوص، ولكن نرى من غير المستحيل أن يكون قـــد عـــبر ماسيليا وأنّه أنجد هانيبال بفرقه، وسيكون من السذاجة الظنّ أنّ ماسينيسا وهو مُقْدِم علـــى "فتح" المملكة الماسيلية على رأس بضعة آلاف من الرجال، سيحول دون التحـــاق ورمينـــا بهانيبال عبر ماسيليا (التحرّك ليلا والكمون نهارا، عند الاقتضاء) خاصّة وأنّه كان على رأس عشرين ألف رجل[625] بل إنّ ذلك سيكون سهلا، لأنّ ماسينيسا كان أثناءها مـــع كـــل جيوشه لدى سيبيون.

زوال المملكة الماسيسيلية

يفترَض إذن أنّه بعد القبض على سيفاكس، حكم نجله ورمينا بعض الوقت في قسم من مملكته، أمّا ماسينيسا فلم يكن له لا الوقت ولا العدد الكافي من الجيش للشروع منذ 203

(619) - Ibid. XXXI, 19, 5-6
(620) - Ibid. épitome du Livre XLVIII.
(621) - Appien, Lib, 33.
(622) - Ibid. 59.
(623) -Ibid. 106.
(624) -Zonaras, IX, 3,; -Dion Cassius, 57, 0.
(625) قبل احتراق المعسكرين كان لسيفاكس ستون ألف رجل منهم عشرة آلاف من الفرسان : Polybe, XIV, 1, 14 - واذا وضعنا في الحسبان الخسائر والتدافع الذي وقع في أعقاب الهزيمة في معركة السهول الكبرى يمكن تقدير تناقص الجيش الماسيسيلي بالثلثين.

في فتح المملكة الماسيسيلية؛ والأولى له حينئذ أن يستعيد منطقة سيرتا، التي يبدو أنّها كانت الموطن الأصلي لقبيلته، ثمّ بعد ذلك يسهم بفعالية في الحدّ من القوة القرطاجيـــة.وفي 201 كان ينبغي أن يشرع منهجيا في فتح المملكة الماسيسيلية وأن يستولي احتمالا على الجزائـــر الوسطى،وكان ورمينا دون حليف، في حين احتفظ ماسينيسا بصداقة باقا ملك المور[626]، ولذلك سيدعم منذ سنة 200 صداقته مع الرومان لضمان حمايتهم عبر تبادل الاعتـــذارات والسفارات.ويمكن استنتاج أنّ مملكته حينئذ لم تكن تتجاوز ماسيسيليا الأمّ، أي القطر الواقع في أقصى الغرب الذي كانت قاعدته سيقة. وتمّ عقد السلم مع روما، ولكن لا نعـــرف إنّ كان هذا الانقياد يسمح له بضمان إقرار الرومان له على مملكته،ومن المؤكّد أنّه بعد نصف قرن لم يبق أيّ أثر للدولة الماسيسيلية، ذلك أنّ ماسينيسا كان منذ سنة 150 سيّدا على كلّ الأقاليم النوميدية، وهذا بوليب الذي عرف ماسينيسا في تلك الأثناء يعيد مجموع التوسعات التي بدأت خلال تلك الفترة و لم تنته إلاّ في وقت لاحق إلى سنوات المجد 203-202.

إذا أردنا رغم بعض الغموض التوفيق بين نصّ بوليب وتأكيدات مؤرّخين آخرين، يمكن افتراض أنّ ماسينيسا منذ 203-202 يكون قد "فتح" كلّ شمال ماسيسيليا عـــبر هجـــوم كاسح إلى مولوشا، في حين التجأ ورمينا ومن معه من الأوفياء لـــه المـــتجمّعين في ازمالـــة (Smala) نحو الجهات الجنوبية من مملكته، المتاخمة لبلاد الجيتول، ويمكن افتراض أيضا أنّـــه نجح في البقاء هناك لفترة، ثمّ شرع في ربط الصلة بروما، غـــير أنّ أنّ الظـــروف التاريخيـــة ومشاركة ماسينيسا في حملة زاما لا تسمح باعتماد هذه الفرضـــية، وينبغـــي الإقـــرار أنّ المعاصرين ليسوا في جميع الأحوال من يمتلكون المعلومة؛ ومثال على هذا بوليب الذي كانت صداقته للسيبيونيين وإعجابه بماسينيسا سببا في بعض الأخطاء في الأحكام التي أصدرها.

التوسّع شرقا

تمّ توسع المملكة الماسيلية باتجاه الشرق في ظروف معروفة أكثر، لأنّه كان على حساب قرطاج، مع أنّ هذا التوسّع الإقليمي صغير بالنظر إلى التوسغ المعتبر للمملكة الماسيلية باتجاه الغرب؛ وقد استفاض كل المؤرّخين في الحديث مطوّلا عن تلك التوسعات الشرقية الـــتي – حسب وجهة نظر ماسينيسا– لم تكن لها بالضرورة أهمّية أكبر من مثيلتها في الغرب، ومع أنّ المادّة أكثر ثراءً والبلد أكثر تحضّراً، خاصّة وأنّ الوقائع– ينبغي الإقرار بذلك– تجري في قسم

[626] المعروف أن باقا الذي زوّد ماسينيسا بجيش لمرافقته عبر المملكة الماسيسيلية، أرسل أيضا فرقا شاركت في معركة زاما.

من بلاد البربر عرف إضاءات تاريخية في وقت مبكّر، والمؤكّد هو أنّ توسّع مملكة ماسينيسا شرقا كانت له أهمّية تاريخية معتبرة لأنّ الحرب البونية الثالثة انتهت بتمركز روما في أفريقيا، على أنّه إن كان التاريخ يصدر أحكاما بعدية على الأحداث في سياقها فإنّ معاصريه الذين عايشوه لا يمكن بالضرورة أن يجدوا فيه إلا الفائدة الآنية التي تكون أحيانا مختلفة كثيرة عمّا سوف يترتّب عن العمل الانتقائي للمؤرّخ.

هناك هدفان مباشران يستجيبان لطموح ماسينيسا: إقرار السلطة الماسيلية على أقاليم كانت في السابق جزءاً من ماسيليا، وهذا يعني اكتساب أراضٍ جديدة قامت قرطاج بتهيئتها فضلا عن أنّها مزروعة بمدن ثرية، وهو استرداد أقل ما يقال عنه أنّه مبرَّر، ولكنه استنادا على حقّ معترف به شكليا من طرف سيبيون الأفريقي، تتمّ الزيادة بنسب معتبرة في قوّة ماسينيسا كما تحثّه على مواصلة –باتجاه الشرق- سياسة تعود بفوائد مطّردة.

حقوق وحجج ماسينيسا

التأني الحذر هو السبب الذي جعل ماسينيسا يسلك أثناء توسعاته ذلك الأسلوب الحكيم، فمع أنّ اتفاقية 201، تعترف لقرطاج بامتلاك أقاليم محدودة بالخنادق الفينيقية ولكن كان مسموحا لماسينيسا أن يطالب داخل تلك الحدود بأراضٍ كانت مملوكة لأسلافه، هذا الشرط كان بمثابة الدودة في الثمرة، وقد قام سوماني بتوضيح الحجج القانونية التي أثارها ماسينيسا في وجه خصومه[627]، فتارة يهاجم **"عيوب الامتلاك"** ليس فقط فيما يخصّ الأقاليم المطالَب بها ولكن كلّ ما في أيدي قرطاج سواء بالعنف أو بصفة مؤقتة، فمصدر الامتلاك غير عادل، لأنّ قرطاج ليس لها "ملْكية خاصّة *Proprius ager*" بأفريقيا، وملكية الأقاليم المتنازع عليها هي بين أيدي الذي له القوّة. وتارة أخرى يستخدم حجّة أكثر دهاءً وهي حسب سوماني ظهرت في تلك الأثناء لأول مرّة في القانون الروماني وهي حقّ الملكية: *jus possessionis* وأضاف *causa possessionis* ثمّ أعلن أنّه الأعلى في الحالتين[*].

لماذا لم يؤكّد ماسينيسا حقوقه في الحال ؟ والسبب المعقول لذلك هو أنّه كان مشغولا بقضايا أخرى، سواء إقرار النظام في مملكته حيث السيادة الماسيلية كانت محل نقاش[628]، أو

(627) - Saumagne (Ch.), les prétextes juridiques de la Troisième Guerre punique, Rev. Hist, t, CLXVII, 1931, pp. 225-253, et CLXVIII, pp. 1-42.

(*) يبدو التحيّزواضحا هنا سواء من طرف المؤلّف أو سومانيي الذي ساق أمثلة منه هنا ليقول ما قاله ولكن بلسان وقلم سومانيي !!

(628) كانت المملكة الماسيلية قد عرفت الاضطراب بدايةً أثناء الصراع الذي نشب بين ماسينيسا ولاكوماز ثمّ أثناء استيلاء سيفاكس عليها، واحتمالا بفعل هجوم قاده هانيبال في **202** ، وخلال الحملة التي سبقت معركة زاما كان عدد من الأمراء النوميد من أبرزهم ماس ايتول (يسميه أبيانوس ميسوتول Mesotyle) انحازوا إلى قرطاج ضدّ ملكهم الماسيلي.

بالتوسّع جهة الغرب على حساب الأمير الشابّ ورمينا. وكان الأولى له هو التوسع علـــى حساب الماسيسيل وما فيه من حروب واستعراض قوة وهي كلها أدوات لإقرار سلطة ملك على وحدات القبائل.

كان أمرا واقعا فإلى العام 195 أي على امتداد ست سنوات ليس هناك أيّ نزاع بين ماسينيسا وقرطاج، ولكن تيت ليف أشار إلى أنّه في ذلك التاريخ أرسلت روما ســـفارة إلى أفريقيا لتسوية الخلاف ما بين ماسينيسا والقرطاجيين، وخاصّة لمحاكمة هانيبال الذي لم يمـــرّ عليه إلاّ وقت قصير منذ أن استقال من وطيفته كشفط[629] .

مطالب وإلحاق (193- 162)

يبدو أنّ نفي هانيبال قد جرّأ ماسينيسا؛ فمنذئذ أضحت المطالب أكثـــر إلحاحـــا، ولا نعرف شيئا عن قضية أفثر (Aphther) الزعيم النوميدي المتمرّد الذي لاحقه ماسينيسا فهـــرب إلى قورين، وقد طلب ماسينيسا السماح له بعبور منطقة الامبوريا بجيشه لملاحقة المتمـــرّد، ولكن طلبه قوبل بالرفض، ويبدو أنّ هذه القضية حسب اقزال تمّت قبل العـــام 193 [630]، ولكن أغلب الظنّ أنّها تعود إلى العام 195 وكان هانيبال وقتها لا يزال في منصب شـــفط وأنّ ماسينيسا لم يجرؤ بعد على مواجهة قرطاج علناً.

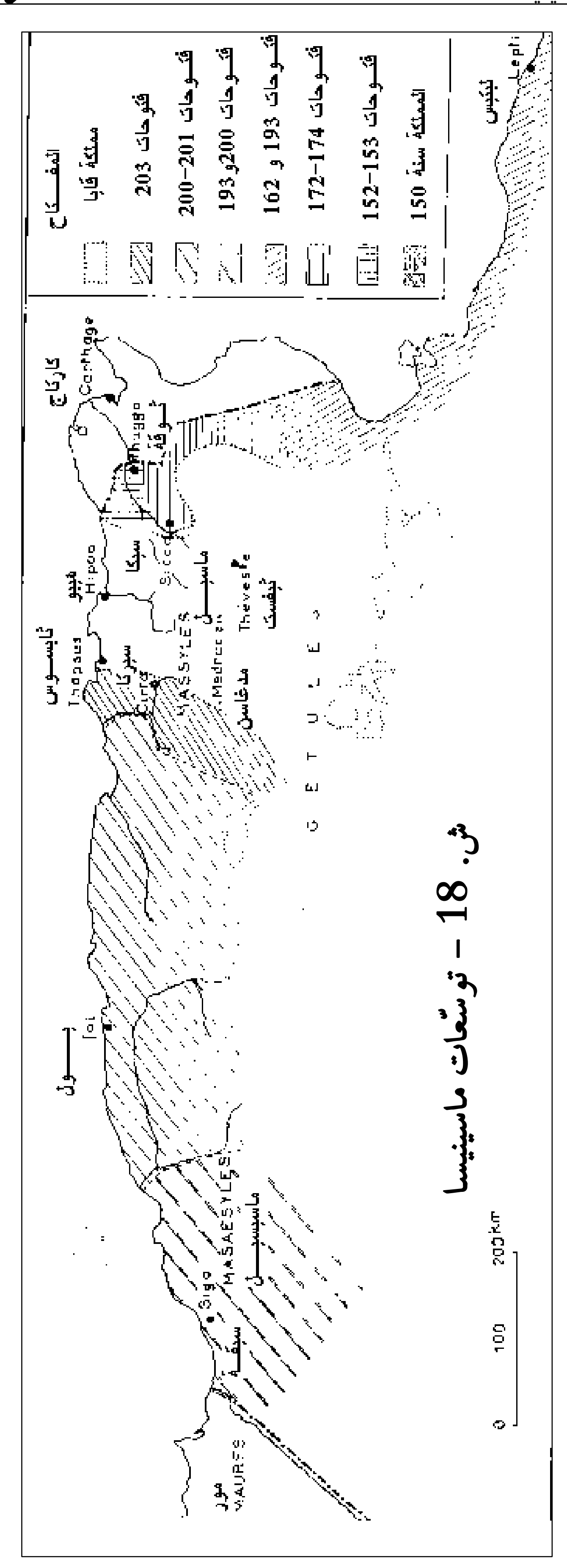
تغيّرت الأوضاع خلال العام 193 فقد ذهب وقت هانيبال نهائيا، وبدأ عصر ماسينيسا الذي قاد حملة على جهات الإمبوريا على امتداد السيرت الصغير في المنطقة الطرابلسية، وأصبح سيّدا على تلك البلاد السهلية، وفرض على بعض المدن هناك أن تدفع له الجزية، وكانت هذه المحاولة لماسينيسا ذات قيمة اختبارية؛ تمكّنه عمليا من دراسة ردّ الفعل القرطاجي، وخاصّة مجلس الشيوخ الروماني الذي رفعت إليه قرطاج القضية في الحين للنظر فيها، ويقول تيت–ليف الذي ربّما لم يكن على علم بتفاصيل الوقائع، أنّ المجلس لم يصدر حكما حاسما ينهي التراع[631] .

---

(629) - Gsell (S.), HAAN, t, II, p. 277.

(630) - Ibid. t, III, p. 215 ؛ **عندما أجبر ماسينيسا عددا من مدن هذه المنطقة على دفع الضريبة سنة 193 ردّ القرطاجيون بأنّ ماسينيسا ذاته كان يعترف بسلطتهم على هذه المدن وعلى المنطقة كلّها، لأنه طلب رخصة العبور لملاحقة أفثر** – Tite-Live, XXXIV, 62**، لكن بوليب يذكر أنّ قضية أفثر وقعت قبل 162 بمدّ قصيرة** Polybe, XXXI, 21– **، فهل من المقبول أنّ عبارة "بمدّة قصيرة" هذه تطابق فترة فاصلة تزيد على عشرين سنة؟**

(631) - Tite-Live, XXXIV, 62 ; - Saumagne (Ch.), les prétextes juridiques de la Troisième Guerre punique, Rev. Hist, t, CLXVII, 1931, pp. 225-253, **؛ ويرى سوماني أنّ تيت–ليف أخطأ، معتمدا على نصّ بوليب يتهم القضاة بأنّهم منحازون لماسينيسا، ومهما يكن وحتى إذا كان مجانبا للحقيقة فإنّ الرومان فضّلوا ماسينيسا لأنّه لا يرغمهم على ردّ ما أخذوه.**



ش. 18 – توسّعات ماسينيسا

جاءت بعد ذلك فترة فاصلة امتدّت على عشر سنوات ما بين هذه القضية والتي تليها أو بالأحرى التي احتفظت النصوص القديمة بذكراها، ولا نعرف ما إذا كانت هناك عمليات حربية قد تمّت خلال تلك المدّة، ففي 182 فقط استولى ماسينيسا على إقليم كان قد استرجعه والده قايا من القرطاجيين ثمّ أعاده لهم سيفاكس خلال استيلائه على المملكة الماسيلية، ولعلّ هذا الإقليم يقع داخل "الخندق الفينيقي" ولكن من غير المستبعد أن يكون في إحدى المناطق الساحلية التي كان ماسينيسا يتوق إليها بشكل خاصّ. والمعروف في واقع الحال أنّ ماسينيسا ابتداءً من 180 اتخذ سياسة بحرية جعلته ذا شهرة في بلاد الإغريق[632]، وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات ما بين 174 و172 وقع جدل جديد بين ماسينيسا وقرطاج في شأن أقاليم أخرى؛ وقد رفع القرطاجيون شكوى إلى روما مفادها أنّ ماسينيسا انتزع منهم في سنتين سبعين ما بين مدينة و قرية وفي هذه المرّة ودون أن يشير إلى خطأ الملك النوميدي صراحةً ودعا إلى العودة إلى نصّ "المنع الكورنيلي المؤرّخ في 201"[633]للعمل به.

في العام 162 وبعد انقضاء مدّة عشر سنوات استولى ماسينيسا نهائيا على مدن الإمبوريا، وكان ذلك دون ريب بعد مفاوضات طويلة مع كلّ واحدة منها. وأصبحت لبتيس وهي إحدى المدن الفينيقية الكبرى بأفريقيا تابعة منذئذ للملك الذي تلقّى التأييد من مجلس الشيوخ الروماني في هذا العمل الذي يبدو أنّه بدأ منذ العام 193 ، وكان على قرطاج أن تدفع 500 قطعة نقدية، وهو مبلغ مساوٍ للإيردات التي حصّلتها منذ بداية النزاع[634].

نزاع سنة 150

تسارع وقْع الإلحاقات نوعا ما منذ هذا النجاح المعتبر، ويذكّر اقزال في هذا السياق بما جاء في تيت-ليف وزونارا من أنّ تحدّيات جديدة وخطيرة كانت كافية لوجوب إرسال محافظين رومان سنتي 157- 153، فمنذ هذا التاريخ الأخير أو بعده بقليل أعلن ماسينيسا عن مطالب جديدة وكبيرة أهمّها المطالبة بمنطقة السهول الكبرى وإقليم توسكا[635]، ومن المعروف أنّ منطقة السهول الكبرى تمتدّ على طول المجرى الأوسط للمجردة في تونس الحالية، أمّا الإقليم المسمّى توسكا الذي يضمّ خمسين مدينة فيمكن أن يكون حسب اقزال

---

(632) أقدم إهداء لماسينيسا في جزيرة ديلوس من المختمل أنّه ليس سابقا لسنة 180 :
- Cf. bull, de corresp. Hellén, III, p. 469 ; IV, p. 10 et XXXIII, p. 521.

(633) - Tite-Live, XLII, 23, 24. ; Saumagne (Ch.), I, l, pp. 225-253.

(634) - Polybe, XXX, 21

(635) - Appien, Lib. 69.

مطابقا لمنطقة ثوقة (دوقة) [636]، ولكن لا يمكن نفي رأي آخر يجعل المنطقـــة المـــذكورة مطابقة لحوض الوادي الكبير (بالقرب من طبرقة) التي احتفظت باسم توسكا خلال الفتـــرة الرومانية[637]، ورغم تطابق الاسم إلاّ أنّ اقزال يعترض على هذا الرأي بحجّة زائفة وهي أنّ منطقة خمير ليس فيها سوى القليل من الآثار وهي بالأساس منطقة غابية، مع أنّنا نـــرى أنّ الخمسين مدينة التي تكلّم عنها أبيانوس يمكن أن تكون قرى بسيطة، خاصّة وأنّ عدد المدافن المنحوتة في الحجر الرملي بالمنحدرات (حوانيت) والمقابر ذات النقوش الليبية تبيّن أنّ هـــذه المنطقة لم تكن صحراء[*].

في سنة 150 ق.م. اندلع النزاع الذي ظلّ كامنا منذ نصف قرن، فقد نجح ماسينيسا في إنشاء حزب في قرطاج تلقّى الدعم السياسي حتّى من داخل قرطاج ذاتها، ولكن وفجأة كأنّ المدينة تستفيق حيث تمّ إبعاد أنصار ماسينيسا؛ وكان ردّ هذا الأخير هو إرسال ميكيبسا وأخيه الأصغر قولوسا إلى قرطاج لتقديم احتجاج ولكن دون طائل، وفي طريق عودتهما تعرّضت القوّة المرافقة لهما إلى هجوم، فقرّر ماسينيسا حصار أوروسكوب[638] (Oroscope)، وهي مدينة لا يعرَف لها موقع، ويمكن بالتخمين القول أنّ هذا الاسم الإغريقي الذي تحمله يمكن أن يكون ترجمة لاسم بوني أو ليبي وإن كان موقعها في منطقة جبلية فإنّها احتمالا تكون ما بين السهول الكبرى ومنطقة توسكا، أي على أطراف خمير، وصفوة القول أنّ المعارك التالية وتدخّل روما في النهاية سيضع حدّا لقوّة قرطاج ثمّ لوجودها ذاته.

كان الخندق الملكي (*Fossa regia*) الذي تمّ حفره بإشراف سيبيون الإيميلي والذي ظلّ محلّ رعاية النزعة المحافظة الرومانية طيلة قرون[638 مكرر] يمثّل حدود المقاطعة الرومانية التي أقيمت سنة 146 وفي نفس الوقت حدّا نهائيا لتوسع مملكة ماسينيسا عشية الحرب البونية الثالثة الذي يخترق خمير في خط ممتدّ عموما بين طبرقة وباجة ثمّ يقطع المجردة شرقي تبرسق ويواصل امتداده عبر السهوب من جنوبي زغوان إلى ثايناي (Thaenae) جنوبي صفاقس وهي حدود لا تستند على أيّ معطى جغرافي ولكن أوقفت بتعسّف فترة حركة واسعة لم تتمكّن من الاكتمال.

---

(636) - Gsell (S.), HAAN, III, p. 321.

(637) -Tissot (Ch.), Géographie comparée de la province d'Afrique, t, I, p. 47; Gsell 'S.), op, l, t, II, p. 110.

(*) **نلاحظ هنا تأثّر كامبس بتخصّصه في فجر التاريخ الذي أخرجه عن الموضوعية، فهل يعقل أن تكون منطقة جبلية آهلة بهذا العدد من المدن ، وإذا كان اقزال يتكلّم عن الفترة التاريخية فلماذا يعيدنا كامبس إلى ما قبل التاريخ وهل ماسينيسا كان لا يزال في مـــا قبل التاريخ أمّا اسم توسكا فليس حجّة لأنّ المؤرخين الاغريق والرومان كثيرا ما تلقفوا الأعلام الجغرافية الأفريقية دون تمحيص وهو ذاته يعترف بهذا في مواقع أخرى.**

(638) - Appien, Lib, 70.

(**638** مكرر) **تمّ تحديد خط تصميم الخندق الملكي قبل كانيا :**

- Cagnat (R.), Notes sur les limites de la province romaine d'Afrique en 146 av. J.C., C.R.A.I.B.L.1894, pp. 43-51
- Poinssot (L.), Note sur la Fossa Regia, Ibid. 1907, pp. 466-481
- Saumagne (Ch.), bservation sur le tracé de la Fossa Regia, Recond. Dell'Acad. Dei Lincei, 1928, pp. 451-459

طموح متّزن ومنهجي

هل كان ماسينيسا ينوي فعلا الاستيلاء على كلّ إقليم قرطاج وعلى المدينة ذاتها؟ فقد نسب إليه العمل في هذا السياق، وفسّر تدخّل روما في النهاية على أنّه العمل الحاسم الذي وضع حدّا لطموح الملك الماسيلي، ويبدو أنّ المؤرّخين الذين أيّدوا هذه الفرضية لم يتفحّصوا جيّداً عنصرا أساسيا في أيّ عمل سياسي أو عسكري وهو عامل الوقت.

من سنة 201 إلى 150 ق.م. أي خلال نصف قرن استولى ماسينيسا حقيقةً على أقاليم هامّة، وكان أغناها على ما يبدو هو إقليم الإمبوريا (من ثايناي إلى لبتيس ماقنا وما وراءها دون ريب) وإقليم السهول الكبرى، في حين أنّ هذا الالحاق لم يتمّ قبل سنة 162 للمرّة الأولى وسنة 152 للمرّة الثانية أي أنّ ماسينيسا كان في عمر76 إلى 86 سنة، وإذا لم يكن هناك طموح في الاستيلاء على قرطاج قد داعب ذهنه من قبل، فأقلّ ما يمكن قوله هو أنّ هذا الطموح تأخّر إلى سنّ الشيخوخة! فلا وجود لأيّ عمل قبل سنة 150 يوحي بأنّه كان يبحث عن بسط سلطته حقيقةً على قرطاج؛ويذهب بنا التفكير إلى أنّه في ذلك التاريخ وذلك العمر إن كانت له تلك النيّة لن تكون أوروسكوب هي التي سيقوم بحصارها ولكن قرطاج،غير أنّ الواقع غير ذلك وهو أنّ المحارب العجوز وبوعي البربري، يعرف جيّدا أنّه لن ينجح أبدا في الاستيلاء على مدينة كبيرة بقوّة السلاح حتّى وإن كانت روما موافقة[*].

في تفحّصنا للتواريخ والوقائع لم نفلت من انطباع فضولي وهو أنّ العودة في الزمان إلى توسّعات ماسينيسا هذه على حساب قرطاج تجعلنا أمام شراسة محمومة على وقع طبول الحرب، والواقع أنّ الوقائع جرت في تأنّي وبطء وكل واحدة كانت مفصولة عن سابقتها بمدّة من الزمن منتظمة كل منها تساوي عشرية :

193: حملة على اُمبوريا.
182: الاستيلاء على الإقليم الذي كان سيفاكس قد سلّمه للقرطاجيين.
174-171: الاستيلاء على 70 مدينة (في تونس الوسطى؟)؛
162: وضع اليد نهائيا على الإمبوريا؛
153-152: الاستيلاء على السهول الكبرى وعلى توسكا؛
150: حصار أوروسكوب.

[*] لا ندري ما الذي جعل كامبس يخرج بهذه الخلاصة التي تضع سقفا فكريا لماسينيسا لا يمكن تجاوزه لأنه أقلّ حضارة؟ فما هي شروط التحضر عند كامبس التي يفتقدها ماسينيسا، ولماذا هذا الرسم المشوّه لأبطال من تاريخنا في حين لم نجد مؤرّخي الضفّة الأخرى قد تجرّأوا بكلمة واحدة تنتقص من زعمائهم منذ العصر الحجري، وكأنّ هؤلاء الأوربيين يمهّدون الطريق لمن سيأتي بعدهم من بعض مريدي أيديولوجيات بائسة تسير الآن على هذا النهج !

ويبدو أنّه في كلّ مرّة عندما يتوسّع ماسينيسا إقليمياً يأخذ الوقت الكافي لضمّ المقاطعة الجديدة إلى المملكة ودمجها، داعما قوّته لضمان النتائج المكتسبة قبل استئناف العمل باتجاه آخر وهي سياسة مكلّلة بالنجاح دائما.

يمكن أن يكون هذا الجانب مصطنعا، ذلك أنّ هذه الإلحاقات لا تبدو بهذا التسلسل إلا لأنها وردت متقطّعة في مصادرنا، ولكن هناك مظهر آخر في القضية لا ينبغي إهماله حتى لو تجاهلناه تماما وهو السياسة الداخلية لقرطاج، فطالما أنّ هانيبال في قرطاج، فإنّ ماسينيسا الذي كان أثناءها في عمر القوّة ويحظى بدعم الرومان وقويّ بالحقوق التي اعترفت له بها اتفاقية 201 ، مع كل هذا لم يقم بأيّ محاولة ضدّ الإقليم القرطاجي، وبعد خمس وأربعين سنة بعد ذلك وجد على الخصوص داخل المدينة المتهاوية حزبا نوميديا فاعلا.

ماسينيسا والعالم الإغريقي

كان من الممكن أن يجعل التوسّع الإقليمي الكبير للمملكة الماسيلية قوّة بحرية ترث جزئيا الإمبراطورية القرطاجية فمن المولوشا إلى منطقة طبرقة، أصبحت الأساكل البونية مرافئ نوميدية، كما أنّ امتلاك الإمبوريا في السيرت الصغير والمنطقة الطرابلسية يضمن السيطرة التامّة على الصادرات النوميدية باتجاه العالم الإغريقي، وأصبح الملك ماسينيسا يمتلك عديد الموانئ ذات التقاليد الملاحية العريقة، كما كانت له بحرية حربية تحمي تجارته إلى جانب قيامها ببعض الغزوات، ويخبرنا شيشرون بأنّ قائد أسطول ماسينيسا الذي يرسو للراحة في مالطة استولى على أنياب فيل ضخمة تزيّن معبد جونون (أستارتي) وعاد إلى أفريقيا وقدّمها هبة لماسينيسا ولكن الملك عندما علم بمصدرها قام بتجهيز خماسية على جناح السرعة وأرسلها إلى مالطة وعلى متنها الأنياب، وقد احتفظ نصّ أثري ذو كتابة بونية يكون قد كتب دون ريب بأمر من ماسينيسا ووضع في المعبد[639]، وهذه القصّة الطريفة تحمل الدليل على أنّ الملك كان له ما يكفي من السفن جعله يخصص خماسية يوقف نشاطها العادي ويرسلها إلى مالطة، كما تدلّ أيضا على أنّ سفن ماسينيسا الحربية لا تراقب السواحل الأفريقية فقط ولكن كانت لها رحلات باتجاه المتوسّط الشرقي.

العلاقات مع رودس ، أثينة وديلوس

على عكس القرطاجيين الذين كانوا يغلقون الموانئ الأفريقية بصرامة في وجه الشعوب الأخرى، قام ماسينيسا باجتذاب التجار الإغريق، المصريين، السوريين وعلى الخصوص الإيطاليين، ولا ينبغي أن نجعل من هذه السياسة حدثا معزولا أو حالة شخصية فقد أزالت هلْيَنة المتوسّط الشرقي الكثير من العقبات ومن الأحكام المسبقة. كما أنّ العالم الهلينيستي

(639) Cicéron, Verrines, II, 1, IV, 46. ؛ فالير ماكسيم يردد ذات الرواية : Valère-Maxime, I, ch, I, 2-

الذي بدأت قرطاج تشكّل جزءاً منه كان يتطلّب تحرّرا كبيرا يضع حدّا للحواجز العرقية الراسخة ما بين الإغريق والفينيقيين.

تنبغي الإشارة إلى أنّ ماسينيسا -وهنا تظهر جدارته- المتشبّع بالثقافة البونية استعمل جهده لمواكبة الحركة، واعترف له الإغريق على الخصوص بذلك، وتضاعف الاحتكاك ببلاد الإغريق على امتداد حكمه، ولا يزال بعض الشواهد الأدبية والنقوشية والأثرية من تلك المبادلات والعلاقات قائما، وهو ما جعل فترة حكمه فترة انفتاح بلاد البربر على التأثيرات الإغريقية ليس فقط في المدن الساحلية ولكن المدن الداخلية - التي اتخذها الملك وأفصاله عواصم- أيضا.

كانت علاقات تجار المدن الساحلية النوميدية تتمّ على الخصوص مع رودس التي كانت قوّة تجارية كبرى، وقد قام أحد التجار الروديين بنصب تمثال لماسينيسا في ديلوس تكريما له [640]، كما أنّ ماسينيسا كان يوفّر للروديين خشب التويا والعاج [641]. فقد عثر في سيرتا على جرار رودية في مدافن إحراق الموتى، وهي شاهد على دخول السلع الإغريقية إلى قلب نوميديا (ش 19) كما سمحت الأختام المحفوظة على مقابض أغلب الجرار بتأريخها ببداية القرن الثاني، وأحدثها اكتشف في ضريح الخروب، ويحمل ختم سوداموس (*Sôdamos*) ولا يبدو أنّها تعود إلى ما بعد سنة 180 ق.م. [642].

إذا كانت العلاقة برودس قد غطّت على ما سواها كما يبدو، فإنّ ماسينيسا ورعاياه لم يهملوا إقامة علاقة مع مدن أخرى شهيرة فهذا تاجر أثيني يتباهى بأنّه صديق الملك ويقوم بنصب تمثال له في ديلوس [643] ، ودون ريب فإنّ هذا التاجر الثري كان قد استقبل من طرف ماسينيسا واستطاع أن يعقد صفقة كبرى مربحة للطرفين.

---

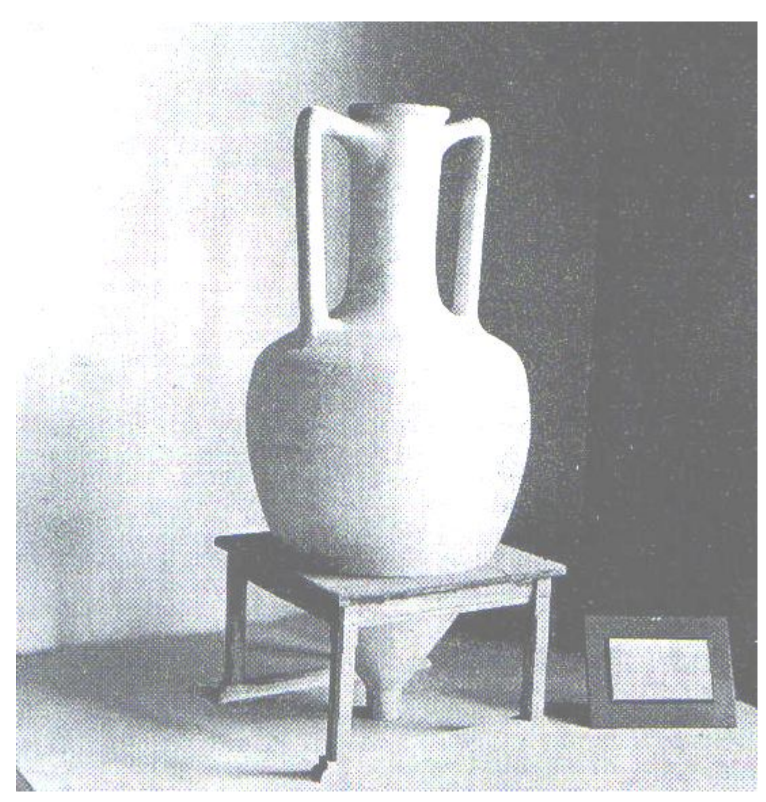
(640) Inscriptiones Graecae, t, XI, 1116 -؛ **هذا الإهداء مؤرّخ بسنوات 180-160**.

(641) -Gsell (S.), HAAN, III, p. 307 ; d'après Suidas

(642) **عن الجرار الرودية المستخرجة من قبور بقسنطينة** : -Cf, Berthier (A.), Découverte à Constantine de deux sépultures contenant des amphores grecques, rev. Afric., t, LXXXVII, 1943, pp. 23-32 ؛ **وقد سجّل في مقبض الجرّة ختم سوداموس، ولم يكتشفه بونال خلال حفريته في ضريح الخروب ولكن وجده بعد مدّة في شقوف** Cf, Gsell, HAAN, t, VI, p. 259, n° 5, ؛ **ومع ذلك لا مجال للشكّ لأن جرّة رودية بمقابض مكوّعة عثر عليها من قبل بونال**: -Bonnel, Cf, Rec, des Not, et Mém, de la Soc, archéol, de Constantinr, t, XLIX, 1915, pl, III. ؛ **وبالنسبة لتاريخ الختم** : -Cf, Berthier (A.), Et Charlier (Abbé R.), Le Sanctuaire punique d'El-Hofra, p. 232 **وهو الذي اعتمدنا عليه في قائمة التواريخ التالية (حسب مادّة رودس في دائرة معارف**: Realencyclopadie der Klassichen Altertumswissenschaft : **أرسطوكراتس (نادرة) ؛ كليونيموس 220-180؛ ألكسيادس حوالي 220؛ أوتوكراتس 189-167؛ سوداموس حوالي 180**

(643) Inscriptiones Graecae, t, XI, 1115 --؛ **النصّ مؤرّخ بحوالي سنة 170**.

تمكّن ماسطانبال ما بين168 و163 من إحرازالنصر في الميدان خلال الألعاب الأثينية ويذهب بنا التفكير إلى أنّ هذه العلاقة ليست الوحيدة التي تربط الملك النوميدي بالمدينة الشهيرة، فقد أشار تيت ليف إلى أنّ ماسطانبال كان ذا تكوين في الآداب الإغريقية،بل إنّ من المحتمل أن يكون أفراد العائلة الملكية قد تلقّوا تعليمهم في المدينة التي ظلّت عاصمة للفنون وللذوق الرفيع(644).



ش. 19 – جرة رودية عثر عليها بقسنطينة (المصدر متحف سيرتا)

عرفت ديلوس ،الجزيرة المقدّسة، اسم ماسينيسا ليس فقط لأنّ اثنين من التجّار سجّلا إجلالهم وتمجيدهم له، بل إنّ نيقوميدوس ملك بيثونيا أقام له أيضا تمثالا في تاريخ لا يمكن أن يكون سابقا لسنة 149 ق.م. (لأنّها السنة التي افتكّ فيها تاج والده بروسياس) عرفانا لموقفه الأبوي البارّ، كما احتفظ نصّ آخر منقوش على لوح رخامي يبدو أنّه يعود إلى ذات الفترة باسم قولوسا أحد أبناء ماسينيسا الثلاثة الذين خلفوه(645)، ومن الواضح أنّ نيقوميدوس صديق السبيونيين وجد دعما لدى ماسينيسا بطريقة أو بأخرى ساعده على

(644) - Tite-Live, Epitome du livre L.
(645) - Rousse (P.) et Hatzfeld (J.), Fouilles de Délos, Inscriptions- Dédicace du roi Nikomedès au roi Massinissa, Bull, de Corresp, hellén, t, XXXIII, 1909 , pp. 473-522 (pp. 484-485).

الإطاحة ببروسياس الذي كان طاغية غبيّا وجبانا [646]، وكان لديلوس سببا آخر يجعلها تقرّ بأفضال ماسينيسا عليها ، ذلك أنّ الملك كان قد أرسل حوالي سنة 179 ق.م. حمولة قمح تقدّر بـحوالي 14500 هكتولتر تمّ بيعها بعشرة آلاف دراخما لفائدة معبد أبولون [647].

كانت هناك مناسبات أخرى اقرّ فيها العالم الإغريقي بوجود ماسينيسا، فمنذ العام 200 كان الملك قد أرسل فرقا نوميدية مساعدة اشتركت في حملات الشرق ضدّ فيليب وأنطيوخوس وبرسي. وكان أحد أبنائه وهو ميساقنس (Misagenes) سنة 171 على رأس وحدة من ألفي رجل وضعت تحت تصرّف الرومان في الحرب على برسي [648].

تصدير القمح النوميدي

لقد ظلّت التجارة هي النشاط الأساسي في علاقة ماسينيسا بالعالم الإغريقي، ولعلّ الارتباط بالجزر الأسياسية في بلاد الإغريق التي احتفظت على الخصوص بذكراه، يسمح بالتفكير بأنّ هذه التجارة تتمثّل خاصّة في تصدير القمح وهو المادّة الغذائية التي تفتقر إليها اليونان على الدوام.

كانت المملكة الماسيلية قد أصبحت مصدّر قموح، ومن خلال امتداح بوليب لإنجازات ماسينيسا في مجال الفلاحة يمكن تقدير أهمّية الزراعة في مملكته، وقد قدّم تيت-ليف معلومات دقيقة للغاية وبحماس لا يعتوره شيء، ذكر أنّ ماسينيسا زوّد الرومان بكمّيات متزايدة من الحبوب خلال حملات الشرق[649] ، فقد أرسل سنة 200 ق.م. للجيش الروماني الذي كان يعسكر في مقدونيا مائتي ألف ليبرة من القمح (17508 هكتولتر) ومثلها من الشعير،وفي 198 أرسل إلى الجيش الروماني المعسكر في اليونان مائتي ألف ليبرة من القمح (17508 هكتولتر) وفي 191 أرسل إلى روما ثلاثمائة ألف ليبرة من القمح (26262 هكتولتر) و مائتين وخمسين ألف ليبرة من الشعير (21885 هكتولتر) وإلى اليونان في ذات السنة خمسمائة ألف ليبرة من القمح (43770 هكتولتر) وثلاثمائة ألف ليبرة من الشعير (26262 هكتولتر) . وفي العام 171 أرسل كذلك قمحا إلى جيش مقدونيا وفي العام الموالي 170 ق.م. زوّد جيش مقدونيا بمليون ليرة من القمح (87540 هكتولتر) ، وعلى

(646) - Polybe, XXX, 19 et XXXVI, 15.

(647) -Homolle, Les comptes de Demarès, Bull, de Corresp, hellén, t, VI, 1882, pp. 10 et sq, ؛ **تعادل 14500 هكتولتر حوالي 11600 قنطار والقنطار يباع بأقل من دراخمة وهو سعر هزيل.**

(648) - Tite-Live, XLII, 62.

(649) - Id, XXXI, 19, 4; XXXII, 27, 2; XXXVI, 3, 1 et 4, 8; XLIII, 6.

افتراض أن الثقل النوعي للقمح هو 80 وللشعير هو 60 [650]، يكون تقدير الكمّيات التي قدّمها ماسينيسا للرومان على دفعات متتالية كما يلي:

في سنة 200 : 14000 قنطار (ق) من القمح و 10500 ق من الشعير.

في سنة 198 : 14000 ق من القمح.

في سنة 191 : 56000 ق من القمح و28900 ق من الشعير

في سنة 170 : 70000 ق من القمح.

ويبدو أنّه من غير المجدي التدقيق في أنّ هذه الأرقام لا تمثّل إلاّ مساهمة محدودة من ماسينيسا دون أن تنضب موارده، فالكمّيات الهامّة التي زوّد بها الرومان سنة 170 يبدو أنّها لا تمثّل إلاّ نسبة ضئيلة من إنتاج المملكة لأنّه استاء من قرار روما دفع ثمن القمح له، وفي 179 قدّم هبة للديليين (أهل جزيرة ديلوس) حوالي 11600 قنطار، ومن هذا نرى أنّ مملكة الماسيل أضحت منتجا لكمّيات لا يستهان بها، خاصّة وأنّ ماسينيسا بإرادته أظهر أنّ هذه الإمدادات فلتت من قبضة الخواصّ، وكانت تخرج مباشرة من المخازن الملكية، فقد كان مصدر تلك القموح إمّا من المزارع الكبرى الملكية (Domaines royaux) أو من الجباية أو منهما معا، ودون ريب فإنّ هذه الأرقام لا يمكن أيّ حال أن تحدّد مجمل إنتاج المملكة. ولكن كلّ الدلائل تشير إلى أنّها لا تمثل إلاّ جزءاً قليلا.

هناك ملاحظة أخرى تفرض نفسها ؛ ففي العام 170 لم يكن ماسينيسا فد وضع يده بعد على الإمبوريا ولا على السهول الكبرى خاصّة التي تضمّ أراضٍ خصبة متخصّصة في زراعة الحبوب[651]، ممّا يدلّ على أنّ الإنتاج عموما كان إلى تلك الفترة ماسيليا صرْفاً، حيث كانت زراعة الشعير على الأقل أوسع من زراعة القمح لأنّها تستأثر بالأراضي ذات التربة الخفيفة في سفوح الجبال وفي السهول العليا.

نرى إذن أنّ تصدير القموح هو مصدر الدخل الرئيسي في المملكة النوميدية وأنّ اليونان ومعها روما كانا الزبون الأول لماسينيسا، وكانت هناك علاقات باكرة مع اليونان

---

[650] رأينا أنّه حسب الأرقام المعطاة من طرف بلينوس الكبير، يمكن تقدير وزن الهكتولتر من القمح بـ **81** كلغ أنظر أعلاه الإحالة رقم **274** . وفي القرن الأول بعد الميلاد لا تتعدّى الأرقام مثيلتها في عهد ماسينيسا، والوزن الخاص للشعير الذي يتوزع حاليا ما بين **55** إلى **65** في الجزائر.

[651] زوّدت قرطاج –التي كانت حينئذ لا تزال تحتفظ بقسم كبير من إقليمها– روما بكمّيات مساوية للتي أرسلها ماسينيسا.وفي سنة**171**على الخصوص أرسلت مليون ليبرة(Boisseaux) قمح لجيش مقدونيا (Tite-Live, XLIII, 6)

وصقلية وإيطاليا الجنوبية، بدليل أنّ الأفارقة كانوا يستوردون الفخاريات ذات الصنع الكمباني وقد اكتشف كادنا نماذج منها أخيرا في بلد بعيد عن الساحل هو تيارت.

ليس هناك من وثائق تثبت وجود علاقات بين المملكة النوميدية ومصر البطلمية، ولعلّ مملكة ماسينيسا بعد ضمّها للإمبوريا أصبحت لها علاقات مماثلة لما كان بين قرطاج والإسكندرية .

الإغريق في نوميديا

لم يكتف ماسينيسا بإقامة علاقات تجارية مع الإغريق، بل استقدمهم إلى مملكته، وقد رأينا كيف ضمن لابنه ماسطانبال تنشئة إغريقية، وفي سيرتا عاصمة المملكة وُجدت جالية إغريقية منذ حكم ماسينيسا، وفي قصره كان يقيم حفلات ينشّطها موسيقيون إغريق[652]، ويضمّ معبد بعل أمون في موقع الحفرة أنصابا نقشت عليها كتابات إغريقية مختلطة مع الأنصاب البونية والبونية الجديدة، وكثير منها أقيم في عهده ولكن من غير اليسير القول أنّ البعض من بين سبعة عشر نصبا إغريقيا معاصر له،وهناك بعض التفاصيل مفادها أنّ الإغريق الذين يتعبّون لبعل أمون كانوا مقيمين لفترة طويلة بسيرتا واندمجوا في سكّانها المبونقين، خاصّة وأنّ الاله الإغريقي كرونوس أشير إليه في نصّين أثريين بالاسم الفينيقي بعل أمون، كما أشير إلى الإلهة تانيت (كتبت ثينيت وثنّيث) في نصّين أثريين بصفتها المعتادة: **بينيبال** (*pénébal*) والمفاجأة هي في النسب حيث وجد في النصّ البوني كلمة بن (كتبت بون bun) عوض νιος والملفت للانتباه هو أنّ نصّا باللغة البونية كتب كلّه بالحرف الإغريقي، وإذا كان الإغريق الذين أقاموا هذه الأنصاب معاصرين لميكيبسا أو حتّى ليوغرطة فإنّ هذه التفاصيل تبيّن أنّ هؤلاء الإغريق في معتقداتهم كما هو في أخلاقهم لا يكادون يتميّزون عن الأفارقة المبونقين الذي يعيشون بين ظهرانيهم حيث أقامت عائلاتهم منذ أجيال عديدة في سيرتا.

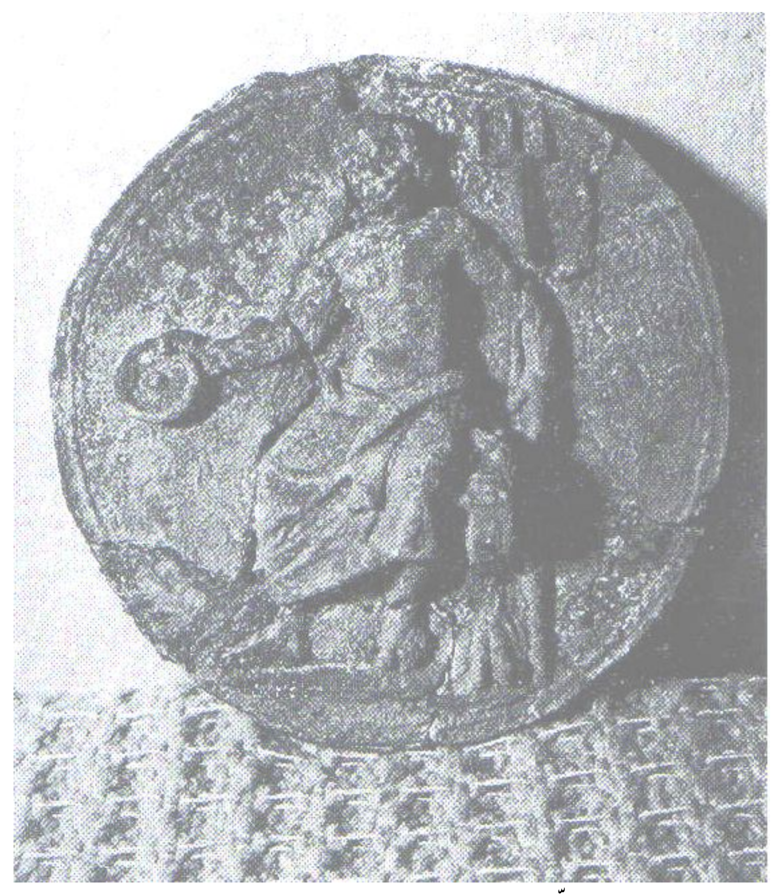
مهما تكن الصفة أو المكانة الاجتماعية يبدو أنّه يكفي أن يكون الشخص إغريقيا لكي يجد الاستقبال الحسن من قبل الملك، فقد استقبل بعناية كبيرة بوليب الذي ظلّ يحتفظ له بالعرفان، وكان يتحادث بمودّة مع التجار الإغريق الوافدين على أفريقيا لشراء قردة

---

(652) - Ptolémée Evergète, C. Müller, Frag, hist, graec, t, III, p. 187, n° 7.

الماقو[653] وقدذكرأحد التجّار الإغريق أنّه صديق الملك وكتب اسمه في نصّ إهدائي على لوح رخامي.

من المظاهر الأكثر أهمّية في أعمال ماسينيسا هي أنّه فتح الباب للإغريق لربط علاقات مباشرة مع الشرق والغرب هي الأولى من نوعها في تاريخ بلاد البربر دون وساطة قرطاج.



ش. 20 – وسام من فضة يمثّل بوسيدون، عثر عليه في ضريح الصومعة (الخروب، قسنطينة)

حتى وإن كانت هذه العلاقات لا تتجاوز الانشغالات التجارية، فإنّ ذلك لا يمنع من اجتذاب الحضارة الهلينيستية التي جلبت معها في نهاية المطاف فوائد مادّية جمّة، والواقع أنّ الجانبين المادّي والأدبي تصالحا على نحو تامّ وحتّى قرطاج التحقت بالنماذج الإغريقية أمّا ماسينيسا فقد أتقن أداء دور ملكي هلينيستي وببذخ يحسده عليه عدد من البرابرة (*).

(653) - Athénée, Citant Ptolémée Evergète, XII, 16, C. Müller, Frag, hist, graec, t, III, p. 187, n°8.

(*) **عبارات فيها الكثير من القدح من قبل المؤلف الذي لم يتخلّص من نظرته الاستعلائية.**

تطوير العملة

التجارة الخارجية (ان امكن استعمال هذه العبارة المقصود بها مجموعة على الاقل أقاليم تسيطر عليها عائلة لا دولة منظّمة) لها على الصعيد الداخلي بعض التأثير ومنها تطوير العملة على الأقل، ليس لأنّ أفريقيا كلّها إلى ذلك العهد كانت تجهل استعمال العملة لأنّ قرطاج (بعد صقلية ثمّ أفريقيا) وببطء وتردّد قرّرت إصدار عملتها الخاصّة [654]، وكان تداول العملة القرطاجية في أوساط النوميد ضعيفا وهذا التداول في قسم كبير منه كان خلال حكم ماسينيسا، لأنّ التبادل تضاعف بين المدن وبين الأقاليم على امتداد القرن الثاني.

القطع النقدية النوميدية

كان لكل مملكة في أفريقيا الشمالية عملتها الخاصّة من النحاس أو الرصاص أي أنّها من أردأ المعادن كلّها[655]، وتحمل في أحد وجهيها صورة شخص ملتحٍ وفي الوجه الآخر صورة حصان راكض أو أشبّ، وقد نشر أخيرا كتاب هامّ لمؤلّفه مازار الذي صنّف مختلف أنمط هذه العملة المنسوبة منذ مدّة طويلة للملوك النوميد من سلالة ماسينيسا[656]، وعدد كبير منها خالٍ من الكتابة وما رسم عليها من صور كثير الاختلاف إلى حدّ التفكير في أنّها تعود إلى شخصيات مختلفة، على أنّ عددا هامّا منها يحمل أسفل الرسم أو صورة الحصان حرفين بونيين: **م ن** MN، وقليل منها يحمل الحرفين **ق ن** GN والحرفين: **أل** AL، وقطعة واحدة تحمل الحرفين **ك ن** CN، وإلى جانب الحرفين تحمل هذه القطع النقدية على الوجه الآخر الرمز المختصر **هـ ت** HT وبعضها وهو قليل لا يحمل سوى هذا الرمز الأخير[657].

في قطعتين نقديتين اكتشفتا في قسنطينة تمّ فكّ هذه المختصرات، إحداهما وهي الوحيدة من نوعها إلى يومنا هذا وتختلف قليلا عن النماذج الأخرى تحمل في احد وجهيهاصورة فيل وتحت هذه الصورة رمز محي نصفه والنصف المتبقي يضمّ خمسة أحرف بونيـة **م س ن س ن** (ش 21) وهو اسم ماسينيسا مكتوب في هذه القطعة بالكامل ومختصر بحرفيه الأول والأخير

---

(654) كوليت وجلبار شارل–بيكار في كتابهما: الحياة اليومية في قرطاج على عهد هانيبال باريس **1958** ص **182** (بالفرنسية) لاحظا أنّ قرطاج التي سكّت منذ القرن الخامس في صقلية قطعا منسوخة عن نماذج كانت متداولة في الجزيرة ومطابقة للعيار الأتيكي، لم تسكّ عملتها حسب العيار الفينيقي الذي تبناه بطليموس الأول –الذي أسس إمبراطورية بحرية مصرية فينيقية– في عملته .

(655) التحاليل التي أجريت بطلب من مازار في مخبر العملة في باريس أعطى النتيجة التالية : Cu:96; Pb: 3,20; Fe : 0,30; As: 0,50; Ag:traces، أمّا عملات الرصاص فتحتوي على 0,40 % حديد، و 0,20 % قصدير و 0,20 % نحاس وقليل من الفضّة .

(656) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Maruretaniaeque, Paris 1955.

(657) رفض مازار أولا هذا النمط الوارد في مولر تحت رقم **24** (Cf, op. i, p. 31) ولكنه عاد حول هذه القضية وصنّفها في النمط **14** مكرّر : - Mazard (J.), Deuxieème supplément au Corpus Numidiae Maruretaniaeque, Libyca, Archéol, Epigr, t, V, 1957, pp. 51-58 (p. 53).

في باقي القطع، وهذا ما تدعمه القطعة الثانية التي تحمل الرمز: **هـ م م ل ك ت** HMMLKT، كاملا وهو الرمز المرسوم أيضا على عملة سيفاكس وورمينا والذي يمكن ترجمته بـ"الذات الملكية" أو "الأمير" وفي باقي نماذج العملة الماسيلية اختصر هذا الرمز بحرفيه الأول والأخير تبعا لذات القاعدة في ما يتعلق بـ: **م س ن س ن** MSNSN الذي اختصر هو الآخر إلى حرفيه الأول والأخير: **م ن** MN .

ومنذ أنّ حُلَّ إشكال الرموز المختصرة أصبح في الإمكان معرفة لمن تعزى القطع النقدية التي تحمل حرفين، ولكن الحرفان **م ن** MN يمكن أن يكونا اختصارا لاسم ماسينيسا ولاسم ميكيبسا كذلك (كتب: **م ك و س ن** MKWSN في النقوش البونية والليبية) كما أنّ **ق ن** GN تختصر الاسمين قولوسا (**ق ل س ن** GLSN) وقاودة (**قاودان** ؟ Gaudan) أمّا **أل** AL فهو اختصار لاسم آدربال بن ميكيبسا، وأخيرا علينا العودة إلى من تعزى له القطعة التي تحمل الرمز المختصر **ك ن** CN .



ش. 21 – قطعة نقدية تنسب لماسينيسا

يحملنا توفّر القطع النقدية النوميدية التي رسمت عليها صورة الحصان الراكض بكثرة على استنتاج أنّ هذه العملة استمرّت في التداول فترات طويلة وإلى القرن الأول بعد الميلاد على الأقلّ [658]، مما جعل البعض يرى أنّ الكثير منها سكّ بعد زوال المملكة النوميدية لأسباب دينية أو سياسية، ويبدو لنا أنّ هذه الفكرة مبالَغ فيها وتستند على مسلّمة مزعجة مفادها أنّ الممالك البربرية لم يكن لها حياة اقتصادية متطوّرة بما فيه الكفاية لتبرير وجود كتلة نقدية بهذه الوفرة.

---

(658) **عثر باراداز على عملة مماثلة من الرصاص في قبور القرن الأول بتيبازا :** - Le Colonel Baradez, Nouvelles fouilles a Tipasa, Survivances du culte de Baal et Tanit au 1er siècle de l'ère chrétienne, Libyca, Archéol, Epigr, t, V, 1957, pp. 221-275 (p. 226).

سكّ العملة النوميدية سابقٍ لماسينيسا

إذا كان سكّ العملات قد تضاعف ابتداءً من فترة حكم ماسينيسا فإنّه من الخطأ القول أنّ هذا الملك كان أوّل حاكم نوميدي سكّ العملة، وكان سيفاكس وابنه ورمينا قد قـاموا بهذا العمل في ماسيسيليا قبله، منذ نهاية القرن الثالث أي بمدّة وجيزة بعد أن قرّرت قرطاج أن تكون لها عملتها الأفريقية، ومن الأكيد أنّ سيفاكس كان أثناءها أقوى حـاكم علـى علاقة بإسبانيا حيث يبدو أنّ قسما من عملته يكون قد سكّ هناك[*]، ولكن من المحتمل أن يكون الماسيل وهم الأقرب إلى قرطاج وعلى علاقة متينة بها قد أصبحت لهم بدورهم منـذ تلك الفترة عملتهم الخاصّة، ولعلّنا نجد دليلا لإثبات ما نرمي إليه في النسخة الوحيدة مـن أنواط الجزائر (Médaillier) التي تحمل الرمز المختصر بحرفي **ك ن** CN وهو الرمز الـذي قرئ بناء على قطعة نقدية من مجموعة مازين (Mazin) المكتشفة في كرواتيا [659]، كما أنّ ملامح الشخص مختلفة عن باقي الصور الأخرى ؛ الأنف بارز ومفرق الحـاجبين شـديد الوضوح، وتقاسيم الوجه متميّزة وتدلّ على شخص متقدّم في السنّ، وإذا ما طبّقنـا علـى هذه القطعة ذات القواعد المطبّقة من قبل على مجموعة ماسينيسا–ميكيبـسا، يكـون مـن المفترَض أن ك C و ن N هما الحرف الأول والأخير من اسم ملك من ذات العائلـة، في حين أنّ حاكما ماسيليا واحدا يحمل اسما يتوافق مع هذين الحرفين وهو : كابوسا(ن) خليفة اوزالس (Oezalcès) سيء الحظ الذي حكم عدّة أشهر من سنة 200 قبل موته في الحرب ضدّ ماس ايتول، وندرة العملة المضروبة بهذا الاسم تفسَّر بقصر مدّة الحكم.



ش. 22 _ قطعة نقدية نوميدية من البرونز تنسب تقليديا لماسينيسا

والحقيقة أنّ بعض الحجج تعارض النظر في الموضوع بهذا الأسلوب،من ذلك أنّ الصورة على وجه العملة مكللة بالغار (laurée) في حين أنّ قطع سيفاكس وورمينا وكـذا القطـع

(*) **ما هو دليل ما يسوقه كامبس هنا من افتراضات لا يكلّ أبدا من دسّها في سياقات نصّه هذا، ينبغي للقارئ أن يمعن النظر بـين السطور ليفهم كيف أنّ باحثا من وزن كامبس لا يتحكم في عواطفه تجاه الضفة الأخرى من المتوسط.**

(659) – Cf, Bahrfeldt, Der Munzfund von Mazin (Croatien) وعن كنز مازين ؛ - Mazard (J.), op, l, p. 36
Afrikanische und Italische Kupfermunzen, Aes rude und signatum, Eine Volnänfije Erorterung der Barrenfrege, Berlin 1901; C.R. ***Rev, numism***, 4e série t, V, 1901, p. 291.

النقدية الأقدم لماسينيسا ذات صور مكللة بتاج (didémée) [660]، مـــع أنّ هـــذه النقطـــة التفصيلية ثانوية يمكن الاعتراض عليها بالقول أنّ الحصان -دون رسن وفي حالة جمـــوح- يمثل النمط القديم،والملاحظ من جهة أخرى أنّ العملة الحاملة لاسم ماسينيـــسا **(م س ن س ن)** وهي أقدم من الأخرى التي تحمل حرفي الاختصار، رُسمت عليها صورة شخص مكلّـــل بالغار وليس مكلّلا بالتاج.

ومهما يكن فإنّه ينبغي القول أنّ تنمية تداول العملة النوميدية يعـــزى إلى ماسينيـــسا وخاصّة في القسم الشرقي الأكثر تطوّرا وعمرانا من ماسيسيليا القديمة،والملاحظ أنّ مناطق اكتشاف هذه القطع النقدية التي نحمل على أحد وجهيها صورة ملك ملتحٍ وعلـــى الوجـــه الآخر صورة حصان راكض تتطابق مع إقليم الجزائر الشرقية وبدقّة أكثر منطقة ســـيرتا،لقد وجدت أيضا في تونس(قابس،بولة ريجيا،عين الحوت) وفي باقي جهـــات الجزائـــر(تيبـــازا، شرشال، سيقة وحتى في المغرب(بناسا وتامودا) ولكن في غالب الأحيان هي عبارة عن نسخ معزولة أو مجموعة صغيرة،لأنّ العدد الأكبر من هذه العملة وجد في المناطق المجاورة لـــسيرتا وخاصّة الجهة الشمالية إلى سكيكدة وتشيرحالة تآكلها إلى أنّها كانت متداولة لفترة طويلة.



ش. 23 – قطعة نقدية نوميدية من البرونز، صورة ملك مكلل بالغار

يسمح لنا تمركز العدد الأكبر من العملة النوميدية بجوار سيرتا بنفي الفرضية التي كانت مدعومة إلى عهد قريب وتريد أن تجعل تداول هذه العملة ليس من عمل الملوك بل هو إجراء قام به زعماء محليون استعملوا المعادن المستخرجة من مناطقهم، وتبعا لهذه الفرضـــية فـــإنّ بعض هؤلاء الأفصال يسجّلون تحت صورهم المرسومة على العملة مختصر اسم الملـــك[661] ولكن مثل هذه الاقتراحات تصطدم بحجج عديدة مضادّة أولاها تأتي من الانتـــشار غـــير

---

[660] **لاحظنا في الواقع أنّه من 328 قطعة نقدية نوميدية المستخرجة من كنز مازين هناك 11 عليها صورة ملك متوّج وهي أكثر استعمالا من 317 التي تحمل صورة ملك بإكليل الغار فهل كثرة التداول هو الذي جعل الغار يظهر كما لو أنّه تاج ؟ ويقترح تروسل نسبة القطع ذات الصورة المتوّجة إلى ميكيبسا، أنظر:**
- Troussel , Le trésor monétaire de Tiddis, ***Rec, des Not, et Mém, de la Soc, archéol, de Constantine***, t, LXVI, 1948, pp, 129-176 (p. 146).

[661] **هذه الأفكار توسّع فيها تروســـل**
- Troussel , Le trésor monétaire de Tiddis, Rec, des Not, et Mém, de la Soc, archéol, de Constantine, t, LXVI, 1948, pp, 129-176

الكافي لهذه العملات التي لا يمكن أن يكون سكّها قد تمّ في مختلف جهات المملكة من قبل زعماء القبائل، وعلى افتراض مضاد لكل الاحتمالات ينبغي البحث عن ماهية العملة الملكية، وعمّا يمكن أن توصلنا إليه الفرضيات المدعومة (مثل تسريب العملة الذهبية أو الفضية إلى الخارج) فلا يوجد في حدود معلوماتنا أي عملة أخرى يمكنها أن تكون مفيدة للملوك من سلالة قايا.

وباستثناء ثلاث قطع فضية لورمينا ومجموعة فضية وذهبية صغيرة من نوع مختلف تعزى تقليديا ليوغرطة ويامبسال الثاني (662)، لا نعرف أيّ عملة معدنية من المعادن النفيسة يمكن أن تعزى لملوك نوميد من الفترة ما قبل يوبا الأول (60-46 ق.م.) ويضمّ كنز قسنطينة 237 قطعة فضية تعود إلى 79 ق.م. ولا تحتوي إلاّ على قطع أجنبية أثينية وقرطاجية ومن مرسيليا وإسبانيا وخاصّة روما، ولو وجدت عملة فضّية لدى النوميد في تلك الفترة أو قبلها لكنّا وجدنا على الأقلّ بعضا منها في ذلك الكنز، وهذا عامل إضافي لرفض نسبة بعض القطع من الذهب أو الفضّة إلى يوغرطة أو يامبسال الثاني. وهو انتساب لا يستند على أيّة حجّة جادّة.

ليست العملة البرونزية متداولة فقط في المبادلات الداخلية، بل تجاوزت ذلك إلى عالم البحر المتوسّط، كما يدلّ عليه الكنزان المكتشفان في البلقان أحدهما في كولة (Kula) (بلغاريا) والآخر في مازين (كرواتيا) هذا الأخير يضمّ على الأقلّ 328 قطعة نقدية نوميدية، ففي تلك المنطقة البعيدة من إيلليريا عثر على المجموعة الأكثر أهمّية من القطع النقدية النوميدية، وقد سمحت عملة بطليموس العاشر سوتر (Ptolémée X Soter) بتأريخ الإناء الذي أدع فيه هذا الكنز بسنة 80 ق.م. وهو دليل قاطع على تداول العملة النوميدية خارج حدود المملكة يضاف إلى هذا دليل آخر هو العملة النوميدية المكتشفة في الأرموريك (Armorique) بالقرب من مصبّ ليقر (622 مكرر).

يبدو أنّ ماسينيسا لم يسكّ عملة فضّية ولا ذهبية، ومثله فعل خلفاؤه، ومن الصعب تحديد عوامل هذه السياسة التي تبدو على النقيض من هاجس الشهرة وفرض الهيبة الذي كان وراء أغلب القرارات التي اتخذها ماسينيسا طيلة فترة حكمه، ولا نظنّ أنّ الافتقار إلى المعادن النفيسة هو العامل الأساسي لأنّنا لم نجد ما يثبت أنّ ماسينيسا واجهته صعوبة في هذا

(662) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Maruretaniaeque, pp. 44-48.

(622 مكرر) - Gauthier du Mottay (J.), Recherches sur les voies romaines du département des Côtes–du-Nord, Mém, de la Soc, d'émulation des Cotes-du-Nord, t, V, 1867, pp. 1-188 (pp. 140-144).

المجال، ولعلّ السبب يعود إلى وفائه لسياسة الاكتناز على غرار قرطاج ذاتها التي لم تتخلّص منها إلا بصعوبة [663]، فالملك يفضّل الاحتفاظ في "كنوزه" بسبائك المعدن النفيس وبأثاث من الخشب النادر، والاحجار الكريمة أو المجوهرات. ومثل ذلك كانت تفعل قوى الـــشرق الكبرى؛ الفراعنة، ملوك أشور وحتى المدن الإغريقية قبل التحاقها بالاقتصاد النقدي.

أشار نصّ سالوست عن حرب يوغرطة عديد المرّت إلى خزائن الكنوز الملكية موزّعة في مدن شرقي المملكة[664]، وقد عرف ماسينيسا ومن بعده الحكيم ميكيبسا كيف يملآن تلك الخزائن التي أنفق منها يوغرطة بسخاء المبالغ الضرورية لدبلوماسيته، ثمّ في الحرب ضدّ متلوس، هذا الأخير اشترط عليه مائتي ألف قطعة فضّية (65400 كيلوغرام) وإذا كان القائد الروماني قد قدّم ذلك الشرط فلأنّه على علم بأنّ يوغرطة يستطيع تلبيته. وعلى العموم ورغم الحرب والنهب فإنّ الملك يامبسال أعاد تمويل الخزينة التي أمدّت سياسة يوبا الأول المضطربة بما تتطلّبه من مال.

كان ماسينيسا الذي يتوفر من تجارته الخارجية على عملات فضّية أجنبية تلقاها مـــن مبادلاته لقموحه وعاجه وباقي منتجات أفريقيا المعتادة (ريش وبـــيض النعـــام، حيوانـــات السيرك قردة، أخشاب نصف ثمينة) قد خصّ رعاياه لمبادلاتهم الداخلية بعملـــة ذات قيمـــة بسيطة لا تنهك خزائنه.

كان تخزين الأموال التي ما فتئ اقتصاد المملكة يغتني بها يناسب الذهنية الشرقية وهـــو شيء لا يثير التعجّب من ملك متشرّب بالثقافة البونية.

يتبيّن من الانتشار المحدود للعملة البرونزية أنّ النوميد لا يزالون في اقتصاد أدنى، تقلّ فيه المبادلات التي تغلب فيها المقايضة فكمّيات القمح أو الشعير المساوية لرؤوس حيوانات من القطيع، كانت إلى عهد قريب لا تزال موادّ غذائية تشكّل قيمة نقدية، مقبولة وموثوق منها أكثر في الأرياف[665].

ومن المحتمل جدّا أنّ الضرائب المفروضة من الملك على رعاياه النوميد كانت تدفع عينا: قمحا أو رؤوس حيوانات، خاصّة وأنّ سترابون[666] تحدّث عن إحصاء سنوي للخيـــول في المملكة، وهو ما يسمح بشيء من الرقابة على الجباية، أمّا في المدينة فـــالأمر مختلـــف، لأنّ الحضري كان عبر التاريخ الدافع الجيّد للضريبة.

(663) - Cf, G. et C; Charles-Picard, la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, Paris 1958, p. 182.

(664) - Salluste, Bellum Jugurthinum, XII, 2; XXXVII, 3; LXXV, 1.

(665) **أذكر أنّني رأيت سنة 1953 في منطقة البابور زبدة ذائبة دفع القمح في مقابل الحصول عليها، وهذا المبادلات تتمّ بوضوح، وهناك معادلة بين الموادّ في السعر تبعا للفصول مقبولة من الجميع.**

(666) - Strabon, XVII, 3, 19.

تمكّن ماسينيسا بفضل تطوّر التجارة وخاصّة التجارة البحرية، من تحصيل مبالغ مالية هامّة من المدن فمنذ 193 كان مطلبه الأول من القرطاجيين يقوم على الضرائب التي ينبغي على بعض مدن الإمبوريا أن تدفعها لمملكته، وفي وقت لاحق عندما استولى على كلّ تلك المدن اشترط حتّى على قرطاج دفع كلّ الضريبة التي كانت قرطاج قد حصّلتها من المنطقة منذ بداية التراع، ولّما انتصر على أسدروبال في السنة 150 أملى شروطه على القرطاجيين، وطالب بتعويض قدره خمسة آلاف وزنة(*) (Talent) تدفع على امتداد خمسين سنة، ولّما دمّرت روما قرطاج حرمت ورثة ماسينيسا من هذه المبالغ و لم يكن تسليم مكتبة قرطاج لهم سوى تعويض هزيل.

إلى جانب المكتسبات التي حققها ماسينيسا مثل الأراضي الزراعية الخصبة هناك الأسواق التجارية والمدن الساحلية التي تضمن له موارد هامّة لإثراء خزائنه وكان استرجاعه للامبوريا ومناطق ساحل السيرت الصغير وأساكل الساحل النوميدي يكتسي أهمّية قصوى أكثر من السيطرة على السهول الكبرى، ومهما تكن أهمّية الأراضي المنتجة للقمح في تلك السهول فإنّ المدن الصناعية والتجارية في الإمبوريا وباقي الساحل أكثر أهمّية.

السياسة الفلاحية والأملاك الملكية الكبرى

يبدو أنّ إنتاج وتسويق القمح كان في واقع الحال النشاط الاقتصادي الرئيسي في المملكة الماسيلية، التي توسعت لتشمل كل نوميديا، ذلك أنّ أهمّية التموين المقدّم للجيوش الرومانية وكذا استعادة أراضي زراعة الحبوب من قرطاج ومن الماسيسيل هو الذي يسمح بالتفكير في أنّ إنتاج القمح ازدادت أهمّيته سنة بعد سنة خلال حكم الملك ماسينيسا، ومن الأهمّية بمكان تحديد دوره الحقيقي في هذه التنمية الاقتصادية.

لقد رأينا من قبل أنّ المملكة الماسيلية حتى ولو لم تتجاوز في توسّعها إقليمها التاريخي كانت تمتلك ما بين سيرتا ومنطقة الكاف مساحات هامّة لزراعة الحبوب التي كانت نشاطا قائما منذ عدّة قرون، لكن توسّعات ماسينيسا أضافت للمملكة أقاليم جديدة، وأوّلها ماسيسيليا الشاسعة الغنية بأجود الأراضي لزراعة القمح، كما أنّ بعض الجهات كانت خصوبتها ذات شهرة كبيرة تحدّث عنها سترابون قائلا: "**بعد الحصاد يكفي تحريك التربة -التي سقطت فيها حبات القمح- بأغصان لكي تعطي محصولا جديدا**" [667]، وحتى

(*) تالنت هو وزن يختلف من بلد إلى آخر، وكان يقدَّر عند الإغريق بـ **19440** غرام، ولكن إصلاحات صولون رفعته إلى **27000** غرام.

(667) - Strabon, XVII, 3, 11.

الجبال ذاتها كانت مزروعة من طرف بعض الجيتول [668]، أمّا سهل الشلف فكان في قسم منه على الأقلّ مهيّأ للزراعة منذ القرن الرابع ق.م. لأنّه عثر في آثار قرية صغيرة كانت بجوار مدينة الشلف الحالية على فخاريات بونية تعود إلى هذه الفترة.

كانت التوسّعات جهة الشرق أكثر نجاعة وخاصة في جهات الإمبوريا حيث كانت خصوبة القسم الأدنى من وادي كينوبس (Cinyps) ذات شهرة كبيرة منذ عصر هيرودوت الذي كتب قائلا: " **تضمّ البلاد أجود الأراضي لزراعة القمح ... تربتها سوداء وتحظى بالسقي وتضاهي في جودة ثمارها ومحاصيلها وبذورها نظيرتها في أرض بابل ... ويصل إنتاج أرض كينوبس إلى 300 ضِعْف"** [669]، كما ضمن الاستيلاء على السهول الكبرى فائضا معتبرا في الإنتاج ولكن لا ننسى أنّ هذه الأراضي الغنية لم يتمّ استردادها من قبل ماسينيسا إلاّ في أواخر أيام حكمه (حوالي السنة 152).

عندما يعلن بوليب بصورة قطعية أنّ "**نوميديا كانت تعتبَر غير مجدية وغير قادرة على الإنتاج وأنّ ماسينيسا وحده هو من أظهر إمكانياتها الفلاحية**" فهو لا يبالغ وبصراحة صادمة فقط بل يجانب الحقيقة، ومن الأهمّية بمكان توضيح الظروف التاريخية التي تفسّر حكم بوليب. ومع هذا تبدو شهادته أكثر مصداقية لأنّ المعروف أنّ بوليب استُقبِل من طرف ماسينيسا في سنة 150 ق.م. وكان الملك الماسيلي حينئذ في سنّ الشيخوخة أي سنتين قبل وفاته [670]، وقد سجّل بوليب الحديث الذي دار بينهما في موضوع جشع القرطاجيين، وكان ماسينيسا حينها في تمام قوّته ومجده وقد استولى على أجود أراضي زراعة القمح في أفريقيا وهي أراضي السهول الكبرى.

لم يأت بوليب إلى أفريقيا لوحده بل كان في صحبة سيبيون الإيميلي الذي جاء لعقد صفقة الأفيال مع الملك، وهي فرصة لسيبيون مكّنته من حضور المعركة الكبرى التي انتصر فيها ماسينيسا على القرطاجيين، تلك المعركة التي جرت وقائعها في بداية الصيف[671]، ولنا إحساس قويّ بأنّ بوليب حضر أعمال حصاد القمح والشعير احتمالا إلى نهايتها، وهذه التفاصيل الصغيرة لا ينبغي التقليل من شأنها بل لعلّ منظر الحصاد في موسم جيّد هو الذي أثّر على حكمه.

---

(668) - Id, XVII, 3, 9.

(669) - Hérodote, IV, 198, trad. Par S. Gsell ؛ **وعن مردودية الأرض الخفيفة في الساحل التونسي أنظر:**
- Depois (J.), Rendements en grains du Byzacium il y a 2000 ans et aujourd'hui, Mélanges Gautier, pp. 186-193.

(670) **الأسباب التي رجّحت هذا التاريخ على 149 قدّمها اسطيفان اقزال** - HAAN, III, p. 308.

(671) - Gsell (S.), op, i, t, III, pp. 308 et 325.

كان بوليب وهو الذي يحتفظ بولائه للسيبيونيين لا يخفي إشادته بهم بل وتبنى مواقفهم وتعاطف مع محبّيهم وأعلن استياءه ممّن يعاديهم. داس على بروسياس وأسدروبال ولكن ماسينيسا حظى منه بكلّ الثناء، حيث نقتطف من سياق نصه عبارات مليئة بالحماس والإطراء، يقول: "**إنّ ماسينيسا هو الأمير الكامل والأسعد في عصرنا... لقد حكم أكثر من ستين سنة، وتوفي عن عمر يناهز التسعين...**" ثمّ تأتي عبارة تمتدح قوته الجسدية: "**وقد احتفظ ببنية قوية تمكنه من الوقوف يوما كاملا في مكان واحد، وإذا أخلد للراحة لن يقوم بعد ذلك طوال اليوم وان اقتضى الحال يمكن أن يبقى على صهوة جواده الليل والنهار دون أن يكلّ**" والخلاصة أنّ وفاته عن عمر التسعين دليل على تمتعه ببنية قوية وقد ترك في تلك السن المتقدّمة أحد أبنائه في عمر لا يزيد عن أربع سنوات،وهذه الرجل الأكمل كان له عائلة جديرة بما هي فيه من سمو:" **فقد كان أبناؤه متعلقين به ومتضامنين في ما بينهم ولم يحصل بينهم أي انقسام يزعزع أركان المملكة**" ثمّ يأتي بعد ذلك إطراء السياسة الفلاحية لماسينيسا في الأخير:"**ليس هناك ما هو أحقّ من إطراء هذا الأمير وتكريم ذكراه**".

هل كان بوليب وهو يكتب ما كتبه، يكرر ما كان ماسينيسا قد أفضى إليه به عن استصلاح الأراضي؟ لأنّه لا ينبعي أن يغيب عن ذهننا أنّ بوليب دوّن هذه المعلومات في تاريخ يواكب آخر أيام حكم الملك، وفي هذه الحال ألا يمكن أن يكون ما كتبه حقيقيا لأنّه وببساطة حصيلة فترة طويلة من الحكم كانت البلاد خلالها تتمتّع بالسلم إلى درجة كبيرة؟ ومن ذلك الاستقرار الداخلي تولّد ازدهار فلاحي يعزى بكلّ موضوعية لجدارة الملك، ولذلك نسب المؤرّخ مباشرة إلى إرادة الملك ما يمكن أن يترتّب عن تداعيات الأيام وعن طبيعة الأشياء ذاتها من نمو وتطوّر. ليس هذا مثار تعجّب لأنّ المعروف هو أنّ ماسينيسا كان شديد العناية بصنع المآثر التي تعلي من شأنه، مثله كمثل أيّ رجل دولة أومذكّراتي أبدع بعد فوات الأوان"برنامجا فلاحيا" كان يشعر أنّه متأخر حتى عندما أصبحت نتائجه مكتسبة.

كان ماسينيسا شديد العناية بالفلاحة، عرف كيف يستصلح الأملاك الملَكية الكبرى (Domaines royaux) التي يبدو أنّها كانت تمتدّ على مساحات كبيرة منذ عهده، فقد كانت العائلة الملكية الماسيلية تحوز في الأساس أملاكا مشتركة(Indivis) أصبحت بفعل التطوّر أملاك التاج، ولكن إضافة إلى هذه الأراضي نرى أنّ سياسة الضمّ التي انتهجها الملك استتبعت

توسيع تلك الأملاك الملَكية، فمن المحتمل في واقع الحال أنّه بعد كلّ توسّع إقليمي كان الملك يقتطع على الأقل قسما من الأراضي الجديدة خاصّة في المنطقة الشرقية حيث كانت مطالبه ترتكز على حقّ الوراثة الممتدّ لأنّه كان يطالب مبدئيا بأقاليم كانت مملوكة لأسلافه.

في الجهة الغربية استلم الأملاك الكبرى التي كانت مملوكة للملوك الماسيسيل ومزروعة من قبلهم، والمعروف أنّ سيفاكس كان ملكا قويا واسع الثراء. هذه المزارع الكبرى كانت محلّ اهتمام ماسينيسا الشديد فقد تمّت تهيئتها بعناية لتقوم ها زراعة نجد صدى شهرتها في نصّ بوليب، وهذا سيكون مثالا يحتذى لرعاياه، ذلك أنّ ديودور أشار إلى أنّه ترك لكلّ واحد من أبنائه مزرعة كبرى (Domaine) تمسح قرابة 875 هكتارا، مزوّدة بكلّ ما هو ضروري لأشغال الفلاحة من عتاد وقطيع[672].

كان لماسينيسا أربعة وأربعون ولداً وكثير منهم يكون قد توفي دون عقب قبل الوصول إلى سنّ الكهولة، وحسب ديودور بقي له من أبنائه بعد وفاته عشرة[673]، ومن المحتمل أنّ ماسينيسا المتعلّق بأحفاده [674]، كان أيضا قد شمل أبناء أبنائه الذين توفّوا قبله بعنايته، ومن هنا نستنتج أن ما تركه ماسينيسا من أملاك لكلّ واحد من أبنائه مضروب في عشرة لمعرفة إجمالي الأراضي التي عهد بها لهم غير دقيق، بل الرقم أكبر مع أنّه غير معروف ممّا يجعل المساحة تتضاعف ، كما أنّ الرقم المذكور لا يسمح بمعرفة اتساع المزارع الملكية لأنّ الملك كان دون ريب قد كوّن أملاك التاج التي تسهم عائداتها بقسم من النفقات التي يتطلّبها الجيش النظامي والقصور الملَكية.

تشير كلّ الشواهد إلى أنّ المزارع الملَكية كانت ذات مساحات كبيرة، وليس من المستبعد أنّ قسما على الأقلّ من السالتوس (Saltus) الإمبراطوري خلال الفترة الرومانية كان قد اقتطع من مزارع يوبا الأول ، كما أنّ بعض المدن تحمل عبارة ريجيا أو ريجيوس (ملكية أو ملكي) كصفة لصيقة باسمها مثل بولّة ريجيا ، زاما ريجيا، هيبو ريجيوس، ثيميدا ريجيا ... وقد تمّ تفسير هذه الصفة على افتراض أنّ هذه المدن كانت فيها إقامات ملكيّة أي أنّها نوع من عواصم ثانوية توجد في كلّ منها خزينة وقصر ملكيين، لكن من جهة أخرى لا سيرتا ولا سيقة ولا حتى قيصرية التي كانت في فترات مختلفة عواصم يقيم بها الحكام، تلقّت هذه الصفة ما عدا زاما (وهي احتمالا عاصمة ظرفية) عاصمة يوبا الأول التي تسمّت بزاما

(672) - Diodore, XXXII, 17.
(673) - Id, XXXII, 16.
(674) -Ptolémée Evergète, in C. Müller, Fragm, histor, graec, t, III, p. 187, n° 6.

ريجيا، وبالمقابل ثيميدا ريجيا لم تكن فيها حتى إقامة ملكية لأنّ يامبسال الأول أقام بها ولكن في مسكن خاصّ [675].

ليس من المستحيل والحالة هذه أنّ تكون هذه المدن قسما من الـــدومان الملَكـــي وأن تكون جزءاً من أملاك الملك الخاصّة على غرار قرى بسيطة مثل أكـــواي ريجيـــاي (Aquae regiae) في بيزاكينا و ريجياي (Regiae) في موريتانيا القيصرية ، والملاحظ أنّ المواقع والمدن أو أماكن معينة التي تحمل هذه الصفة تقع كلّها في مناطق اســـتولى عليهـــا ماسينيـــسا[676]، والافتراض الذي يمكن تقديمه هنا ممكن قبوله لأنّ هذا الوضع يؤكّـــد أنّ المـــزارع الملكيـــة الكبرى هذه تكون قد تكوّنت على الخصوص في أراضٍ ضُمّت حديثا للمملكة الماسيلية.

تلقّت بعض القبائل خلال الفترة الرومانية صفة ريجياني (Regiani) مثل قبيلـــة الزبربـــر (Suburbures) ولعلّ ذلك يعود إلى أنّها تشغل أحد المزارع التي كانت دومانا ملكيا.

إذا كان من الضروري إذن الخروج بحكم عن منجزات ماسينيسا الفلاحية، فإنّه مـــن الصعب تحديد الاسهام الفعلي للملك في تنمية الزراعة خلال فترة حكمه، ومن الثابت أنّـــه أبدى بعض الاهتمام بالشأن الفلاحي، ولكن مما لا شكّ فيه أيضا أنّ الفلاحة ومنـــذ فتـــرة طويلة كانت ليس فقط عملا معروفا ولكن كانت ممارستها على نطاق واسع في التلّ ، على أنّ السلم الذي وفّره لرعاياه وخاصّة فترة حكمه الطويلة استتبعت بالنسبة للفلاحة النوميدية نتائج إيجابية جدّا لفتت الانتباه في الفترات اللاحقة، فقد كان الملك ماسينيسا دون ريب قد قام بتهيئة مزارعه الكبرى ولكن بعض تلك التهيئة على مستوى المملكة كان قـــد تمّ قبلـــه والبعض الآخر أكمله من جاء بعده.

السلطة الملكية

طبع ماسينيسا فترة حكمه بطابع خاصّ يجعل منه الحكم التـــاريخي الأول في الممالـــك الأفريقية، فالذين من قبله : قايا ، كابوسا، لاكوماز، بل وحتى سيفاكس هم مجـــرّد أسمـــاء سادت لفترة ولكنها لم تنفصل نهائيا عن الفترات البروتوتاريخية الغامضة، وإذا كان حكـــم ماسينيسا معروفا فلأنّه في الأساس كان معاصرا لنهاية الحرب البونية الثانية وبداية الثالثـــة، ولكن أيضا لأنّه حكم فترة طويلة ، من 203 إلى 148 ق.م. أي قرابة 56 ســـنة وتـــرك

[675] - Salluste, Bellum Jugurthinum, XII, 3.

[676] بقي الشك بخصوص هيبو ريجيوس (بونة) التي كانت احتمالا على غرار روسيكاد جزءاً من المملكة قبل اعتلاء ماسينيسا العرش.

العرش لثلاثة شركاء في الحكم : ميكيبسا، قولوسا ومسطانبال، وقد أعطى برتيي والأب شارليي لهذا التأريخ غير المعتاد الاحتمال الحقيقي التالي انطلاقا من نصّ أثري لأنّه يتعذّر علينا الفهم ... السنة السادسة والخمسون لحكم الملوك ميكيبسا، قولوسا ومسطانبال لأنّه لا أحد منهم حكم ستّا وخمسين سنة، مع العلم أنّ سنة وفاة ماسينيسا تحسب ضمن سنوات حكمه، والأولى (بعد وفاته) تحسَب ضمن حكم أبنائه الذين خلفوه على رأس المملكة، وهذا يقودنا الى استنتاج أنّ النصّ الأثري يعود إلى سنة وفاة ماسينيسا ذاتها ... وقد قدّم تيت-ليف وأبيانوس توضيحات عن الاعتراف باعتلاء ماسينيسا العرش، من قبل سيبيون أوّلا ثمّ مجلس الشيوخ: في نهاية صيف 203 في أعقاب هزيمة سيفاكس الذي أسر بالقرب من سيرتا، وسيق إلى روما من قبل لايليوس حيث تحصل وفد من ماسينيسا على التأكيد المنتظر(677)، ونخلص إذن إلى أنّ فترة حكم ماسينيسا هي الأطول في تاريخ الشمال الأفريقي القديم، فهل لا بدّ من إضافة السنوات الثلاث ما بين وفاة كابوسا وهزيمة سيفاكس إلى 56 سنة -التي هي حكم الشرعية- حيث اعتُرف لماسينيسا خلالها من قبل أغلب رعاياه الماسيل بالعرش وكان أثناءها يدافع بقوّة السلاح عن حقه في خلافة ابن عمّه.

يمكن تفسير طول مدّة حكم ماسينيسا بشخصيته وبقوته البدنية والمعنوية التي جعلته يحكم وحده دون اشراك احد في القرارات الحاسمة حتى ابنائه وهي القوة التي سمحت له وهو في الثامنة والثمانين من عمره بقيادة العمليات الحربية ضد القرطاجيين. وإلى وفاته ظلّ ماسينيسا يحتفظ في وضوح تامّ بسلطة لا جدال فيها على أفراد عائلته(678).

على أنّ حكم ماسينيسا استمرّ فترة طويلة لأنّه عرف بطريقة أو بأخرى منذ أن كان في ريعان الشباب كيف يبعد منافسيه المحتملين، فعزّز السلطة الملَكية، مع أنّنا لا نعرف ماذا كانت المبادئ التي ترتكز عليها السلطة الملكية خلال القرنين الثالث والثاني عند النوميد ولا كيف كانوا يمارسون على الخصوص هذه السلطة.

الزعماء النوميد

من الأكيد أنّه كان بين الملك والسكّان النوميد وسطاء هم الزعماء المحليون، أفصال كبار بالوراثة، أو قياد (Caïds) يعيّنهم الحاكم، وكان أولئك الزعماء يزاولون سلطتهم

(677) - Tite-Live, XXX, 16, 1. ; Appien, Lib, 32.

(678) **الحادثة الوحيدة أو بالأحرى العصيان الأقل استقلالية الذي يمكن تسجيله على أبنائه هو إبادة القرطاجيين المنهزمين من قبل قولوسا الذي هوجم من طرفهم غدرا وهو على رأس وفد في قرطاج فانتقم من غادريه انتقاما بشعا.**

بالأساس على قبائل لا على أقاليم، وعند نشوب الحرب ستولّون قيادة وحدات مجنّدة من قبائلهم التي يحكمونها عملا بمبدأ وراثة معيّن أو باسم الحاكم (الملك) وهناك وقائع واضحة يمكن إبرازها تبيّن أنّ زعماء القبائل هؤلاء كانوا يعملون بإخلاص وفي حال انشقاق في المملكة فإنّ الوحدة العسكرية (أو بالأحرى القبيلة بالكامل) تنحاز إلى قائدها ضد الملك.

منذ البدايات الصعبة لاعتلائه العرش إلى آخر سني حكمه، اصطدم ماسينيسا بعداوة زعماء القبائل هؤلاء، فهم أتباع أقوياء لا ينقادون بسرعة لسلطته، وقد وجد **ماس ايتول** أحد هؤلاء الزعماء في اضطرابات تولي اوزالس العرش ومدّة حكم كابوسا القصيرة الفرصة للعب دور بارز أوصله إلى قيادة المتمردين لفرض لاكوماز ملكاً، ومع أنّ ماسينيسا انتصر عليه الا انه كان يفتقر إلى قوة أكثر ولذلك حاول إبرام صلح معه، ويبدو أنّ انتصار ماسينيسا عليه لم يكن حاسما ففي سنة 202 نجد ذات الشخص على رأس قُوم (*Goum*) من ألف فارس في جيش هانيبال. كما أنّ شخصا آخر اسمه توخايوس (*Tuchaios*) كان احتمالا على رأس قبيلة آرياسيد (Aréacides) حارب في صفوف هانيبال، في ذات الوقت الذي تخلى فيه أربعة آلاف فارس نوميدي عن ماسينيسا للانضمام إلى هانيبال[679]، ومن المؤكّد أنّ أسس المشروعية ضُربت في الصميم خلال هذه الفترة المضطربة، في وقت كان فيه ورمينا خليفة سيفاكس لا يزال يتمتع ببعض شهرة مكّنته من استقطاب المترددين، والواقع أنّ وجود نجل ملك الماسيسيل مجتمعا مع أحد أعضاء العائلة الملكية الماسيلية الذي جُرِّد حديثا من عرشه يبيّن كم كان تضامن الأسر المالكة ضعيفا عند معاصري ماسينيسا.

استمرّت المصاعب بين الملك والزعماء أو الأمراء المحلّيين حتى بعد الفترة المذكورة، فحوالي سنة 195 تمرّد شخص باسم أفتر أو أفثير (Aphter ou Aphthir)[680]، وفرّ إلى قورين مع عدد هامّ من أنصاره، وقد حاول ماسينيسا ملاحقته على رأس جيش، هذه القضية أساءت إلى العلاقة بين قرطاج وماسينيسا لأنّها لم تسمح له بدخول إقليم الإمبوريا.

وبعد أربع وخمسين سنة من ذلك أي في العام 150 في الوقت الذي كان فيه ماسينيسا يواجه جيش أسدروبال، انفصل عنه ستّة آلاف فارس نوميدي يقودهم زعيمان : أقاسيس و سوباس (Agasis et Soubas) وانضمّوا إلى العدو، ليست الأسباب التي تفسّر مثل هذه الوقائع

---

(679) **هذه المعلومات قدّمها أبيانوس** (Lib. 33) **وميسوتول** (Mesotyle) **هو دون ريب ماس ايتول.**(Maz etul) .

(680) - Polybe, XXXI, 29 ; - Tite-Live, XXXIV, 62.

ذات أهمّية ولكن الجدير بالملاحظة هو أنّه بعد ثلاث وخمسين سنة من الحكم كانت السلطة الملَكية لا تزال محلّ هجومات شرسة سببها التنكّر والخيانة.

في كلّ مرّة تهاجَم فيها السلطة الملكية بعنف، يكون للتمرّد عليها طابع شخصي؛ و لم يحدث في أيّ مرّة أن تكون ناتجة عن حراك شعبي.

حركات العصيان هذه التي احتفظ التاريخ بذكراها، جرت كلّها في شرقي المملكة، أي في بلد الماسيل بالأساس، في المنطقة التي يتمتّع فيها الملك بقسط كبير من الحظوة والاعتبار (تدلّ على ذلك نصوص أثرية على قلّتها) وبسلطة قويّة، فكيف كانت الأوضاع خلالها في ماسيسيليا؟ لا توجد معلومات توضّح كيف كان ماسينيسا يدير هذا الإقليم سوى أنّه حاول تنظيمه. ومن المحتمل أنّه اكتفى بولاء زعماء القبائل له باعترافهم به ملكاً وأنّه كان يتلقّى منهم ضريبة سنوية من الحبوب ورؤوس ماشية ، وكذا إرسال أفراد من أبناء تلك القبائل للتجنيد، ولا يختلف الأمر كثيرا بخصوص الجيتول حيث كانت السيطرة الماسيلية غير ثابتة.

أقلّيد وأمينوكال

هذه الاستنتاجات تقود إلى التفكير بصرف النظر عن كون الملك ذا نفوذ قوي، فقد كان العاهل الماسيلي تقليديا نوعا من الحاكم المزوّد بسلطة سحرية أو دينية، أو شيئا من "البركة" الوراثية، التي -حسب شخصية الملك- تمنحه السلطة عموما، ويمكن أن نستخلص من دراسة الألقاب التي حملها الملوك بعض الإيضاحات المفيدة، ففي نصّ أثري معاصر لماسينيسا وميكيبسا لا يحمل الملوك دائما نفس اللقب، كما أنّ العبارات ليست واحدة في النصوص الليبية أو البونية.

في نصوص قسنطينة الأثرية البونية المؤرّخة بفترة حكم ماسينيسا، يتبع اسم الملك دائما بالكلمة : **هـ م م ل ك ت**، التي ترجمها الباحثون بأمير[681]، وذات الكلمة كتبت بكل حروفها او مختصرة بحرفي هـ ت في عملة ماسينيسا وميكيبسا، وذات الكلمة أيضا كتبت لصيقة باسم قايا وماسينيسا في نص الإهداء المزدوج بدوقة، وفي ذات النصّ الأثري باسم أشخاص ليسوا سوى قضاة بلديين لمدّة سنة.

في هذه الكلمة المطابقة في النصّ الليبي لذات النصّ الأثري ينطبق اللقب **ق ل د GLD** على قضاة واهبي أسماءهم (Magistrats éponymes) في حين أنّ هذه الكلمة تطابق بدقّة كلمة أقلّيد المحتفظ بها إلى الآن في بعض لهجات اللغة البربرية وعلى الخصوص في منطقة القبائل،

(681) - Berthier (A.) et Charlier (Abbé.), Le Sanctuaire punique d'El-hofra à Constantine, pp. 51-61.

وقد وجد نصّ أثري بوني في جبل مسوج على بعد 40 كلم جنوبي دوقة يعطي لميكيبسا لقب **هـ م م ل ك ت** .

يبدو أنّ كلمتي **هــ م م ل ك ت** و **ق ل د** الأكثر استعمالا لا تتضمنان معنى واضحا وقويا لأنّهما لا تترجمان بدقّة الوظيفة الملكية وفوق ذلك حملهما أشخاص آخرون من رتب أدنى على عكس لقب أكثر اعتبارا لكن لم يرد في أيّ معْلم سابق لميكيبسا هــو MNKDH ففي نصّين أثريين إهدائيين لهذا الملك أحدهما عثر عليه في **ثيقيبّا** (Thigibba) بمنطقة مكثــر والآخر بشرشال يحمل ميكيبسا في نصّ ثيقيبّا الليبي لقــب **م ن ك د هـ** MNKDH [682]، وفي النصّ البوني بشرشال لقب **م ل ك م س م ي ي م** MLKMSLYYM، وهــو الاســم الذي ترجمه جيمس فيفريي بعبارة ملك الماسيل[683].

تشير الكلمة الليبية **م ن ك د هـ** إلى وظيفة سامية؛ ففي نصّ أثري بوني جديد من لبتيس ماقنا مُهدى إلى أوغسطس تقابل الصيغة **م ن ك د MNKD** اللقب اللاتــيني: إمبراطــور. وهناك عديد النصوص الأثرية الليبية التي تضمّنت كلمات مثــل: **م س و هــ م ن ك د هـ MSUH MNKDH** حاول البعض ترجمتها بعبارة "جندي الإمبراطور" وعلى النصّ الأثري المدروس أعلاه تتوازى هذه العبارة الليبية مع الكلمة اللاتينية **Veteranus** (جندي منــهي الخدمة) وتكمن أهمّية لقب **م ن ك د هـ** في كونه تبعا لاقتراح من **ليفي ديللا فيــدا** في أنّ الكلمة التارقية أمينوكال تطابق فونيا ودلاليا الكلمة الليبية. وهو ما جعل جيمس فيفريــي يقترح ترجمة **م ك س ن** MKSN(= **م ك و س ن** MKWSN)**م ن ك د هـ MNKDH** بعبــارة **ميكيبسا الرئيس الأعلى**[684]،واحتمالا فإنّ ميكيبسا حمل لقبا احتُفظ به لدى التوارق[685].

وردت الكلمة **م ن ك د هـ MNKDH** في عدد معتبر من النصوص الأثرية الليبية (حوالي خمسون نصّا) وفي أكثر من ثلاثين منها تكون الكلمة مرفقة بالعبارة **م س و هـ MSUH**، ويبدو أنّه من الصعب ترجمتها في كل مرّة بعبارة "جندي الإمبراطور" الرومــاني أو بعبــارة جندي مسرّح (Vétéran) لأنّ الجنود النوميد الذين يقضون ســنوات عديــدة في الجــيش الروماني يكتسبون الثقافة والحضارة الرومانية ولا يمكن أن يبقى عدد كبير منهم وفيا للكتابة

(682) - Fevrier (J.G.), la stèle de Micipsa, B.A.C., 1949, pp. 652-655.
(683) - Id., l'inscription de Micipsa, Rev, d'Assyr, et d'Archéol, orient, t, XLV, 1951, pp. 139-150.
(684) - Id, l, I, B.A.C., 1949, pp. 652-655.
(685) - De Foucault (P. Ch.), Dictionnaire abrégé Touareg-Français, t, II, p. 52, Article Amenokal
واستمرّت كلمة أقليد متداولة في جهة القبائل : - Huyghe(G.), Dictionnaire Français-Kabyle, Article : Roi.

الليبية، ولا يوجد دليل على أنّ كلّ النصوص الأثرية التي تـضمّنت كلمـة **م ن ك د هـ MNKDH** تتعلّق بالإمبراطور، وليس من المستبعد أن تكون بعض الألقاب التي كانت رائجة خلال الفترة الملكية قد استمرّت لتكون ألقابا لبعض العائلات ومثال على ذلك القبائل التي حملت صفة "ملَكية" خلال الفترة الرومانية.

نصّ شرشال الأثري

هو نصّ إهدائي إلى ميكيبسا بعد وفاته كُتِب من طرف شـخص باسـم **إزم** Y'ZM حفيد **ب ك ت** **BCT** (بوقود) ابن **م س ن س ن** (ماسينيسا) ومن المحتمل حسب شكل ومضمون هذا النص أن يكون **إيـزم** Y'ZM هذا هو ابن حفيد ماسينيسا. وتكمن أهمّية هذا النصّ الذي ترجمه كلّه تقريبا جيمس فيفريي في وصف أشياء العبادة الجنائزية الملكية وخاصّة ما نرى أنّه التسمية الملكية لنوميديا، ونقرأ السطور الأولى من النصّ هكذا:" **مقْدس جنائزي للحيّ من بين الأحياء ميكيبسا ملك الماسيل، المأسوف عليه الذي قـاد الـوطن، سـيّد الأمراء، البارّ** " .

من تتالي هذه الأوصاف يمكن استخراج كلمة "المأسوف عليه" دون تردّد، التي تنطبق على شخص الملك المتوفّى، واحتمالا لقب الحيّ بين الأحياء (Vivant des vivants) الذي يبدو هو الآخر أنّه تعبير جنائزي ينطبق على الملك المؤلَّه، ويبقى إذن لقب ملك الماسيل القائد أو ملك الوطن، سيّد الأمراء ، البارّ ، مع لقب ملك (MLK) . والعبارة الأكثر أهمّية هنا هي دون منازع **سيّد الأمراء** (RBT MMLKT)؛ ألا يكون من المغري وضع هذه الوظيفة العليا التي تضع الملك فوق كلّ الأمراء المحلّيين بموازاة الوظيفة الأخرى التي أشار إليها النصّ الليبي بعبارة **م ن ك د هـ MNKDH** ؟ لولا أنّ العبارة البونية تبدو أيسر وهي تفسّر صلاحيات الملك على أنّه : الرئيس السيّد، الذي يقود الرؤساء المحلّيين، وكذا أمراء القبائل.

يمكن أن يكون لهذه العبارة معنى آخر فوظيفة **هـ م م ل ك ت** كانت قائمة في دوقة ودون ريب في جهات أخرى، يقوم بها قضاة يحملون ذات اللقب، إلاّ أنّ تسمية ملك الماسيل بسيّد الأمراء (**م م ل ك ت**) تقودنا إلى دلالة أخرى هي أنّه كان أيضا سيّدا على المدن، ومن المعروف فوق ذلك أنّ الملك في المدن (وعلى العملة التي سكّت في المدن) يحمل ببساطة لقب **هـ م م ل ك ت** لأنّه أمير مباشرةً على كلّ مدينة؛ أمّا القاضي الذي يحمل ذات اللقب فبقدر ما هو خليفته (son Lieutenant) هو في نفس الوقت منتخب الأرستقراطية المحلّية. وإذا صحّت هذه النظرة فإنّ التسمية الملكية ستنعكس على تكوينها ذاته أي على العنصرين

الأساسيين في المملكة: ملك الماسيل، ورئيس القبائل النوميدية التي اعترفت بالسمو الملكي لعائلته؛ وأيضا سيّد المدن التي رسخت فيها الحضارة البونية.

بعد ستة قرون في غمار فترة مضطربة ولكنها تمثل ذات التضاد بين المدن ذات الحضارة الاجنبية والبلد الذي بقي وفيا للروتين البربري ، يعلن **ماسونا** نفسه بطريقة مماثلة : ملكا على القبائل المورية وعلى الرومان[686] .

مهما يكون المعنى الذي تمنحه له العبارة "سيّد الأمراء" فإنّها توحي بشكل غريب بطابع إقطاعي نوعا ما في المملكة النوميدية، ذلك أنّ شخصية الملك -التي تجمع مختلف أشكال السلطة بواسطة روابط التبعية والإخلاص التي تبقى غير معروفة لدينا- هي التي تضمن وحدة المملكة.

يبدو أنّ لقب **أقلّيد** (Aguellid) وهو الأقدم قد فقد مكانته منذ ميكيبسا، ولعلّ ذلك كان بسبب اندماجه ضمن ألقاب القضاة وإذا كان لقب **م ن ك د هـ MNKDH** ينطبق على الملك النوميدي بذات المعنى الذي لعبارة إمبراطور و أمينوكال، لأنّه يكتسي في الأساس دلالة عسكرية؛ ويمكن بالمقابل أن تكون للّقب **ق ل د GLD** (ومعاصره البوني **هـ م م ل ك ت**) دلالة مدنية بل ودينية على الخصوص، والمعروف أنّه في عديد المجتمعات البدائية وخاصّة لدى الحاميين يكون الملك رئيسا دينيا وفي ذات الوقت قائد حرب، لأنّ تأليه الملوك الأموات سيؤكّد أيضا الطابع الديني للملكية.

والملاحَظ أخيرا أنّ كلّ النصوص النقوشية ورد فيها لقب : **م ل ك MLK** البوني كلقب للملك ماسينيسا أو للرئيس الأعلى: **م ن ك د هـ MNKDH** بالليبي. ولأنّ الوثائق من هذا النوع نادرة جدّا بكل أسف فإنّه لا يمكن الخروج بقاعدة، وتبقى القاعدة العامّة إلى حدّ ما هي أنّ ملوك القرن الثاني حملوا لقب **هـ م م ل ك ت** HMMLKT (البوني) و **ق ل د GLD** (**الليبي**) ، وهذا الحال استمرّ إلى فترة متأخّرة لأنّ السلطة الملَكية - احتمالا — كانت قد تدعّمت بفترتي حكم متتاليتين طويلتين سمحتا بظهور ألقاب جديدة.

*

* *

يبدو في واقع الحال أنّ السلطة الملكية في عهد ماسينيسا لم تكن تستند على أيّ مؤسّسة قارّة ، فقد لاحظنا استمرار نظام Tinastry العتيق الذي يجعل من السلطة ملَكية عائلية، كما لاحظنا أيضا وجود آثار أكثر بدائية لمملكة دينية تجعل من الملك وسيطا بين القوى الطبيعية والإنسان، وأخيرا لاحظنا كذلك وجود سلطة متذبذبة لحاكم ذي طابع عسكري

[686] - Rex gentium maurorum et romanorum, CIL, VIII, 9836.

فرض نفسه بالقوة وبنفوذه وهيبته الشخصية على رؤساء قبائل غيورين على استقلالهم، ولكن لا أحد من هذه العناصر الأساسية تفوّق بها حقيقةً عن الآخرين، وهذا يبرز على الخصوص في اشتراطات وراثة العرش، فلا كابوسا ولا ماسينيسا ولا ميكيبسا، الجميع خضع لذات القاعدة.

كان نطاق الفرص الملكية متسعا ومنفتحا أمام شخصية الحاكم، وفي النهاية الحساب واحد وهو أنّ المشروعية في اعتلاء العرش يجب أن تكون مستمدّة من الاعتراف بها.

من الصعوبة بمكان تقدير حجم الإسهام الشخصي لماسينيسا في تطوير السلطة الملكية في نوميديا، فقد كانت سلطته تصطدم بعداء أصمّ من قبل "القياد" والأمراء، وهو عداء يصل أحيانا إلى أعمال تمرّد ترعاها خفيةً دون ريب الدبلوماسية القرطاجية، لقد سعى لتنمية سلطانه ونجح بنسبة كبيرة؟ لا أحد يفكّر في نفي ذلك. ولكن في جميع الأوقات لا يبدو أنّه اكتسب كل القوّة التي تجعل منه ملكا هلينيستيا من نموذج لا يخلو منه عصره.

يبيّن الحلّ المتبنّى خلال تولّي العرش – وأجد من الصعب تصديق أنّ ذلك كان إملاءً من روما بالكامل –أنّ السلطة الملكية النوميدية لم تكن تستند بعد على مؤسسات قوية بعد فترة حكم مجيد دام ستّا وخمسين سنة.

السياسة الدينية

يبدو الحديث عن سياسة دينية لماسينيسا أو محاولة تحديدها نوعا من المخاطرة لندرة الوثائق الأدبية النقوشية أو الأثرية في هذا المجال.

من الصعب تحديد الوضع الديني لأفارقة القرن الثاني ق.م. لأنّه باستثناء الوثائق النقوشية التي عثر عليها في المدن ذات المعتقدات البونية فإنّ كلّ المعلومات التي يمكن استخراجها من النصوص والوثائق متأخّرة كثيرا عن هذه الفترة، وقد جمع اسطيفان اقزال معلومات هامّة في فصل ثري من كتابه التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية خرج فيه بوجهة نظر كاملة عن المعتقدات البربرية؛ وحيث أنّ هذا الفصل يكوّن قسما من الجزء المكرّس للممالك الأهلية فإنّ الوثائق بالكامل تقريبا تعود إلى الفترة الرومانية أو البيزنطية[687].

تمدّنا النتيجة الرئيسية التي يمكن الخروج بها بعد فحص هذه المعطيات بذات التقسيم في مجال المعتقدات أو السياسة والإدارة، وهو تقسيم يقوم على قاعدة دينية ليبية محضة، وتبعا لذلك ريفية بالأساس، تتوضّع فوقها معتقدات فينيقية لم توفّق في الانتشار إلاّ في المدن، وهذا الوضع استمرّ على امتداد تاريخ بلاد البربر، وهو بقاء الريف وفيا ليس لدين ولكن

(687) - Gsell (S.), HAAN, t, VI, pp. 419-569.

لاعتقادات في الطبيعة غير مفصولة بعد عن طقوس السحر البدائي في حين اعتنقت المدن بحماس العبادات الأجنبية خلال الفترة الرومانية كما هو الحال خلال الفترة المسيحية، والفترة الإسلامية فيما بعد. هذه الظاهرة ليست خاصّة بالشمال الأفريقي لأنّ اعتناق الريفيين لدين جديد يتمّ دائما عبر فترة طويلة على عكس الحضر، ولكن لا وجود لما يماثل وضع المدينة الشمال أفريقية في عالم البحر المتوسّط؛ فالمدينة هنا بأنماط تفكيرها وردود أفعالها، بلغتها ومعتقداتها تكوّن عالما غريبا منبثاً وسط سكّان لا يحتفظون بطباعهم الأصلية إلاّ بقدر ما هم باقون على ريفيتهم.

في عهد ماسينيسا كانت المدن الساحلية والداخلية تتعبّد للإله بعل أمون وآلهة البانثيئون الفينيقي الرئيسية بينما احتفظ الريف بآلهة لا تُعرَف أسماؤها (*divinités innommées*) وبأرواحه المحلّية (*Génies locaux*) التي ستصبح في وقت لاحق آلهة ماورية (*Dii Mauri*). ويخبرنا هيرودوت أنّ بعض الليبيين في عصره عبد آلهة مشخّصة وأنّ الشمس وكذلك القمر كانت تقدَّم لهما القرابين من طرف كلّ الأفارقة[688].

خلال الفترة الرومانية عندما ألبست المدن آلهتها البونية حسب التقليعة الجديدة واستقبلت دون تردّد آلهة الأولمب ظلّ الريف على ما هو عليه دائما وفيا لآلهته القابعة في مكانها وسيتقبل متأخّرا الطقوس الأبسط والأكثر خشونة في الذهنية الدينية السامية، وكانت التضحية بالأطفال التي تخلّت عنها قرطاج في القرون الأخيرة من تاريخها ظلّت تمارَس في سيرتا في عهد الملوك[689]، واستمرّت طويلا في الأرياف، ويخبرنا ترتوليانوس أنّه صدر قرار إمبراطوري في عهد تيبريوس يعاقب بالصلب، الذين لا يزالون بعد يقدّمون أضاحي آدمية، وهي قرابين ممنوعة منذ مدّة طويلة بنصّ القانون الروماني[690]، لكن لم يكن قبول الأفارقة تبديل التضحية بطفل كهبة (Donatus) أو متنازل عنه (Concessius) للإله إلاّ بعد تردّد وبطء كبير. ذلك أنّ التحفّظات الطقوسية شبه القانونية كانت تتمّ بدقّة صارمة كما تبيّنه النصب المكتشفة في نقاوس التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي: استبدال خروف، نفَس بنفَس (*anima pro anima*) دم بدم (*sanguine pro sanguine*) حياة بحياة (*vita pro vita*)[691].

(688) - Hérodote, IV, 188.
(689) - Février (J.G.), n sacrifice d'enfant chez les Numides, Mélanges Isidore Lévy, Bruxelles, 1955, pp. 161-171.
(690) - Tertullien, Apologeticum, 9.
(691) عن أنصاب نقاوس ينظَر: - Cf, J. et P. Alquier, Stèles votives à saturne découvertes près de N'Gaous (Algérie) C.R.A.I.B.L., 1931, pp. 21-27, et surtout: Carcopino (J.), Rome et les immolations d'enfants, dans Aspects mystiques de la Rome païenne, Paris 1941, pp. 39-48 ؛ وعن مولخومور (البديل) الذي كان محلّ تأويلات عديدة فإنّ الدراسات الأحدث بشأنه هي التي قام بها جيمس فيفري، ينظَر:
- Février (J.G.), Molchomor, Rev, de l'Hist, des Relig, t, CXLIII, 1953, pp. 8-18

المعروف أنّه أمام مثل هذه الوقائع لا يملك الإنسان مهما كانت قوّته أن يلعب حقيقةً دورا فعّالا، وكان ماسينيسا باعتباره سيّد عالمين مختلفين : المدن والأرياف، أن يختار لنفسه هذا أو ذاك من هذا التصوّر الديني وفي نطاق معيّن فإن وجد فرصة مواتية حاول نشر المعتقدات التي يرى أنّها الأفضل لهذا المجتمع أو ذاك، ولكن من يمكنه التأكيد على أنّ ماسينيسا كان وحده من يعير الاهتمام لمثل هذه القضايا ؟

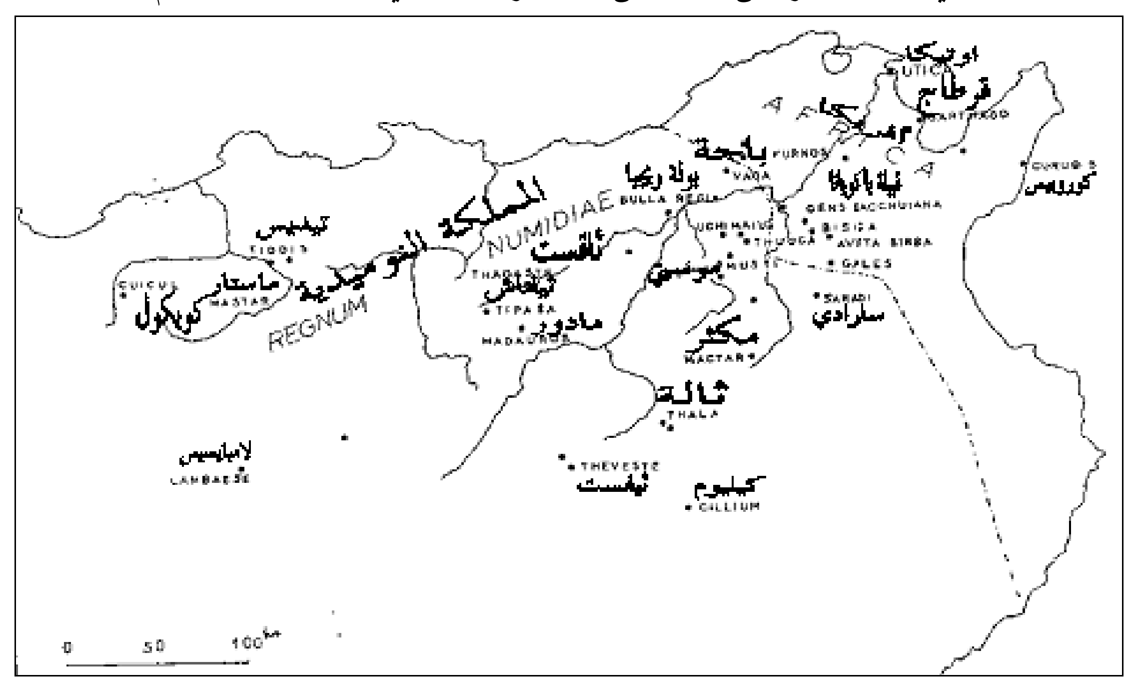
تبعا لاحتياجات سياسته، كان يجتاز باستمرار حدودا غير مرئية تفصل عالم الحضر عن عالم الأرياف، وباعتباره رئيس الشعب النوميدي، سيّد الجيوش ونوميدي الأرومة لم يكن في إمكانه – ولا شيء يثبت أنّه يريد ذلك- رفض المعتقدات الأفريقية القديمة ورفض ديـــن لا يزال وليدا كان احتمالا كاهنه الأعظم، كذلك عندما استقبل ماسينيسا سيبيون الإيميلـــي لم يتضرّع لا إلى بعل أمون ولا لتانيت ، لنستمع إلى كلمة الترحيب هذه التي استعارها منه قلم شيشرون: " **أتوجّه إليكِ أيّتها الشمس العالية بالشكر وإلى باقي آلهة السماء، على مـــا وهبتي، قبل مغادرة الحياة الدنيا أتمنى أن أرى تحت سقفي في مملكتي كرنيليوس ســـيبيون** ..." [692]، ولا يمكننا بكلّ وضوح ضمان صحّة هذا النصّ كما هو بعباراته، غير أنّه مهما أضيفت إليه بعض المحسّنات اللفظية بريشة شيشرون فإنّ جوهره يبقى حقيقيا، وفي مجموعه لا يخلو من الرفعة وعلو المقام، ملك نوميدي، قائد عسكري يستقبل صديق العائلـــة، هـــو الآخر عسكري، لقد كان ماسينيسا يفكّر بمنطق "الأفريقي" ويتـــضرّع إلى الإلـــه الأكـــبر "الشمس" الذي يحتلّ المكانة السامية في المعتقدات الدينية للشعوب الحامية.

هل يمكن القول أنّه أهمل الآلهة الصغيرة والديانة الفينيقية ؟ أبداً، لأنّ هذا النوميدي العدو اللدود لقرطاج، اكتسب في واقع الحال منذ نعومة أظافره الحضارة البونية، لقد نشأ في قرطاج، تعلّم أن يتضرّع وأن يجلّ آلهتها وقصّة إعادة أنياب الفيل إلى معبد أستارتي في مالطة التي نهبها بحارته دليل على ذلك. وعندما يعود من حملاته العسكرية في كلّ مرّة إلى إحدى عواصمه يجد واقع الحياة فيها بونيا، لأنّ حضارة قرطاج هي الوحيدة إلى ذلك الحين التي تغلغلت في المدن النوميدية.

وكذا الأب شارلبي، ينظر: -Charlier (Abbé R.), les Stèles puniques de Constantine et la question des sacrifices dits : Molchomor en relation avec l'expression BSRMBTM, Karthago, IV, 1953, pp. 2-48
ويبدو في الأخير أنّ مولخومور هو التضحية بخروف.

(692) - Cicéron, Republica, VI, 4 - عن هذا النصّ يراجَع : -Boyancé, Etudes sur le Songe de Scipion, Paris 1936 ؛
وأخيراً : - Piganiol (A.), Sur la source du Songe de Scipion, C.R.A.I.B.L., 1957, pp. 88-94.

لم يتقبّل ماسينيسا، أن تُعبد آلهة صوفونيسب في المدن ولكن اشترك دون ريب هو الآخر في ذلك التعبُّد ؛ وإذا كان قد بحث حقيقة كما قال سترابون(693) عن تمدين النوميد فلا يملك إلاّ أن يبوّهم(*) ، وهنا القدر المحتوم : فعل استعماري ممتدّ لم يؤثّر فيه دمار قرطاج مطلقا حتّى بعد سقوطها، وتبعا لمجريات الأحداث المشار إليها أعلاه، فإنّ المعتقدات البونية بعد أن تغلغلت في المدن (حتّى وإن عرفت هذه المدن معتقدات أخرى من ذي قبل) انتشرت ببطء لا محالة، في الأرياف ولكن قلّلت من آلهتها واندمجت في أشكال دينية أقدم.



ش. 24 - خريطة انتشار عبادة الآلهة كيريس

كانت الهلينة قد دخلت أفريقيا عبْر قرطاج، ولم يكن أمام ماسينيسا المعجب بالإغريق والمرتبط بعلاقة متينة بهم سوى أن يساير تلك الحركة، وفي هذا السياق يمكن لإرادة الملك التصرّف بشكل مباشر، ويرى عديد المؤرّخين منذ دراسة كاركوبينو(694) القيّمة أنّ هذه الإرادة ذاتها هي الأصل في توسيع عبادة الآلهة الإغريقية كيريس في نوميديا(**) .

لن نعود إلى الحجّة الشهيرة التي بيّن كاركوبينو من خلالها أنّ عبادة كيريس الإغريقية (*Cereres graecae*) التي أدخلت إلى قرطاج في 394 ق.م. كانت تمارس في باجة واحتمالا

(693) - Strabon, XVII, 3, 15.

(*) العبارة الفرنسية: Il ne pouvait que les puniciser

(694) - Carcopino (J.), le culte des Cereres et les Numides, Rev, histor, t, CLIX, 1928, et dans Aspects mystiques de la Rome païenne, pp. 13-27.

(**) عبادة الآلهة الفلاحية المحتفظة بالاسم الإغريقي كيريس ليست إغريقية بل وقعت ترجمة الاسم الليبي للآلهة الأفريقية إلى اللغة الإغريقية وضاع الاسم الليبي وجاء هؤلاء ليقولوا بأنّ كل شيء يحمل اسما إغريقيا هو إغريقي، وكانت هذه الآلهة قد عبدت منذ فترة أقدم والدليل أنها الآلهة الفلاحية الرئيسية في أفريقيا حسب نصّ سالوست.

في جهات نوميديا في عهد يوغرطة و"التصحيح الجـــريء" [695] لعبـــارة *diem tertium* بالعبارة *diem cererum* مقبولة عموما طالما أنّها تلقي الضوء على روايـــة سالوســـت[*]، وهذا يدلّ على أنّ المملكة النوميدية كانت في جزء منها تتعبّد للآلهـــة كيريـــس في عهـــد يوغرطة. وتبيّن آثار هذا التعبّد خلال الفترة الرومانية أنّ كيريس في الواقع كانت محلّ تعبّد في الأقاليم التي اقتطعها ماسينيسا من قرطاج[696] وإلى الغرب من خط طـــول كويكـــول (جيملة) أي خارج نوميديا الرومانية وماسيليا كذلك، لا يبدو أنّ التعبّد للآلهة كيريس كان له ممارسون، مع أنّ هذا التعبّد قد طبع البلاد القرطاجية والماسيلية وهي الأقاليم التي رتّبناها تحت اسم البربرية الشرقية (ش 24).

أصبح من المعلوم إذن أنّ نوميد الشرق على غرار ليبيي أو أفري (**Afri**) الإقليم القرطاجي ثم أفريقيا القديمة (*Africa vetus*) كانوا يتعبّدون بحماس للآلهة كيريس وتقبّلوا بلطف كلّ المراحل الصعبة الموجّهة لتحفيز خصوبة الطبيعة والإشكال الباقي يكمن في تحديد إسهام ماسينيسا في نشر هذا التعبّد ونعود في هذا السياق إلى كاركوبينو " ... المروّجون المفترضون للتعبد للآلهة كيريس الهلينية في أفريقيا لم يكونوا من قرطاجيي ما قبل 146 ق.م. ولا من رومان ما بعد 39 بعد الميلاد، ولكن كان من شأن الملوك البربر من سلالة ماسينيسا وماسينيسا ذاته الحساس لجاذبية الحضارة الهلينيستية ما بين هذين التاريخين أن يظهروا حماسا كبيرا لنشر ممارسات دينية بين رعاياهم تكون بمثابة تلقين لمبادئ الحضارة الإغريقية أملا في الإنتاج الوفير المتوقّع تحقيقه بالتشجيع على خدمة الأرض في ذات الوقت [697].

كان توسّع التعبّد للآلهة كيريس عبر نوميديا قد تمّ قبل ماسينيسا، وقد اتخذ ذلك التعبّد طابعا شعبيا ليس فقط في قرطاج ذاتها ولكن في كلّ إقليمها. والمعروف أنّه إلى عشية دمارها ورغم رعب الحصار كانت قرطاج مستعدّة للاحتفال بالكرنوفوريا (*Kernophoria*) على شرف الإلهتين في كلّ أرياف الرأس الطيّب على بعد أقل من 25 كلم في كل الجهات

---

[695] عبارة تعود إلى كريستيان كورتوا في الطبعة الثانية من كتابه : تاريخ أفريقيا الشمالية : تونس–الجزائر–المغرب من البدايات إلى الفتح العربي (**647** بعد الميلاد) ص **98** (بالفرنسية).

[*] ليس تصحيحا جريئا كما وصفه كامبس بل وقحا فمن معاني كلمة Hardi : الوقح، لأنّ تكييف النصوص من قبل هؤلاء علـــى هواهم هو تزييف صارخ للتاريخ مع أنّه كان ينبغي اعتبار قراءة كاركوبينو قراءة إلى جانب قراءات أخرى، لكن كـــان هـــؤلاء يلعبون لوحدهم والملعب خال من أيّ معترض خلال العهد الاستعماري.

[696] تمّ تجميع النصوص الأثريةً المتعلقة بعبادة كيريس من طرف أودولون في دراسته، ينظَر:

- Audollent, Cerers, Mélanges Cagnat, Paris 1912, pp. 359-331,

ووضعت في قائمة وتمّ توقيعها على خريطة من طرف برتيي وجويي والأبي شارليي ، ينظَر:

- Barthier (A.), Juillet (J.), et Charlier (Abbé R.), le Bellum Jugurthinum de Salluste et le Problème de Cirta, p. 113, Carte 7

وأكملت هذه القائمة بالنصوص الآتيـــة:

- Djémila (J. Carcopino, I, l, p. 16).; Tiddis (Année épigraphique, 1955, n° 160); Celtianis (M. Leglay, Junon et les Cereres d'Après la stèle de Aelia Leporina trouvée à Tébessa, Libyca, Archéol, Epigr, t, IV, 1956, p. 41, n° 12)

النصوص الإهدائية إلى تلوس وإلى كيريس غير مشار إليها وحدها.

[697] - Carcopino (J;), Les Cereres et les Numides, pp. 21-22.

فحيثما وجدت قرية أو بلدة "كانت توجد" معابد للآلهة الهلينية للأرض المغذّية" [698]، واستمرت عبادة كيريس طيلة الفترة الرومانية محتفظة بذات الطابع الشعبي شمالي زوقيتان (*Zeugitane*) [699]، وينبغي الإقرار أنّ عبادة كيريس كانت منتشرة أيضا هنا وهناك على أطراف الخندق الملكي ذلك أنّ اتساع هذه العبادة قديم حسب كاركوبينو، ولا يوجد أي سبب للتفكير في أن هذه العبادة غير ممارَسة في جهات السهول الكبرى عندما استولى ماسينيسا عليها حوالي سنة 152 أي قبل وفاته بأربع سنوات.

إذا كانت الآلهة كيريس عير معروفة في أراضي زراعة القمح في السهول الكبرى (*Campi Magni*) قبل 152، فإنّه من الصعب تفسير كيف أنّ ماسينيسا تمكّن في ظرف أربع سنوات أن يدخل هذه العبادة وينشرها ليس فقط في هذه المنطقة ولكن أيضا في باقي الإقليم الماسيلي، وإذا عزونا إلى ماسينيسا إدخال عبادة كيريس في منطقة السهول الكبرى فإنّ ذلك أحرى بالمناطق المخصّصة لزراعة الحبوب على الخصوص، ولم تروّج قرطاج لهذه العبادة في حين كانت المعابد المكرّسة للآلهة المغذّية تغطّي الوطن القبلي وكانت سيكا فينيريا (الكاف) تتعبّد للإلهة فينوس (*Venus Erycine*).

نرى في اتساع عبادة كيريس إلى حدّ ما مظهرا لإرادة ماسينيسا ذلك أنّه لا يمكن اعتبار أثر هذه الديانة الزراعية هيّنا وقد استمالت تدريجيا كلّ السكّان المزارعين في الإقليم البوني، وقد سمح ضمّ قسم من هذا الإقليم إلى المملكة النوميدية بانتشار بطيء لهذه الديانة في كلّ القسم الشرقي من المملكة أي القسم الذي يوجد به حصرا السكّان الفلاّحون ؟.

على أيّ حال، فإنّ تأخّر ضمّ السهول الكبرى من طرف ماسينيسا الذي كان حينها في السادسة والثمانين من العمر، لا يسمح بأن تعزى لهذا العاهل الجدارة في أنّه هو الذي نشر عبادة كيريس في نوميديا، وإنْ كان هناك حاكم ما فعلا وراء الترويج لها -وهذا ما لا أراه- فهو ميكيبسا، هذا العظيم غير المعروف جيّدا، وواقع الحال أنّه لا حاجة إلى تدخّل ملك لنشر عبادة آلهة الجني والحصاد لدى الشعب النوميدي، وقد شرح كاركوبينو الجاذبية التي يمكن أن تجدها لدى البسطاء من المزارعين الأفارقة: " هذه الديانة الهلينية قفزت من أصول بعيدة في عمق نزعة التعبّد للطبيعة وهي نزعة قديمة في الحضارة المتوسّطية تأخّر النوميد في الأخذ بها وكان من المؤكّد عند انتشارها في أوساطهم أن تنعش عواطفهم الدينية بازدهار

(698) - Cintas (G.), Céramique punique, pp. 552-553.

(699) - Charles-Picard (G.), Nouveaux documents sur le culte des Cereres dans l'Afrique proconsulaire, Actes du LXXIX e Congr, des Soc, sav, Alger, A054, pp. 237-252.L

حيوي" من خلال الأسرار الجنسية، والصلة الحميمة بالقوى المخصّبة للطبيعة كانت عبادة تلوس وكوري هي التي تقرّب أكثر الاهتمامات السحرية للمزارع البربري؛ وكانت محاولة ماسينيسا إدخال عبادة الإلهتين لتربية رعاياه " على صيغة ذهنية دينية أرقى حيث الحقيقة الخام تعوّض برموز" [700] ، وفشله في هذا المجال سيكون واضحا لأنّ "ليلة الغلطة" استمرّت إلى عصرنا[701]، ولكن أرى أنّ الملك النوميدي كانت له اهتمامات أخرى.

فترة حكم ماسينيسا
محاولة في التأريخ للأحداث

السنة	الحدث
238	ميلاد ماسينيسا
حوالي 220	الحرب بين قايا وقرطاج ، قايا يستولي على إقليم بوني.
213	تحالف قايا مع قرطاج ضدّ سيفاكس
206-212	ماسينيسا يحارب على رأس وحدة عسكرية ماسيلية ضدّ الرومان في إسبانيا
بداية 206 ؟	وفاة قايا ، اعتلاء أوزالس العرش، وفاة أوزالس، اعتلاء كابوسا العرش، إقامة قصيرة لماسينيسا في أفريقيا.
صيف 206	تمرّد ضدّ كابوسا، هزيمته ووفاته، اعتلاء لاكوماز العرش.
خريف 206	عودة ماسينيسا نهائيا إلى أفريقيا، تحالفه مع باقا ملك المور.
205	ماسينيسا يطالب بحقوقه، هزيمة لاكوماز، سيفاكس يستولي على ماسيليا، ماسينيسا يلجأ إلى جهات السيرت الكبير، سيفاكس يعيد لقرطاج الإقليم الذي كان قايا قد استولى عليه.
204	نزول سيبيون في أفريقيا، ماسينيسا يضع نفسه في خدمته.
أفريل 203	معركة السهول الكبرى، هزيمة سيفاكس.
ماي 203	ماسينيسا يسترجع أغلب أجزاء ماسيليا
جوان 203	هزيمة سيفاكس مرّة ثانية أمام ماسينيسا ولايليوس وأسره. ماسينيسا يدخل إلى سيرتا ويتزوج صوفونيسب.
سبتمبر 203	مجلس الشيوخ يعترف بماسينيسا ملكاً على الماسيل.
202-203	ماسينيسا يشرع في الاستيلاء على بلاد الماسيسيل.
صيف 202	هانيبال يشنّ غارة على مملكة ماسينيسا ؟
أكتوبر 202	معركة زاما.
ربيع 201	اتفاقية تنهي الحرب البونية الثانية.
200-201؟	ماسينيسا يكمل الاستيلاء على الأقاليم الماسيسيلية.

(700) - Caropino (J.), I, l, p. 30.

(701) لا تزال إلى اليوم في الظهرة، ينظَـــر : - Servier (J.), les rites du labour en Algérie (Région du Dahra et du moyen chélif) Journ, de la Soc, des Afric, t, XXI, 1951, pp. 175-196 ؛ عند أولاد عدّي واولاد معافة في تاشتا (شمالي كـــارنو Carnot) يقضي الفتيان والفتيات الليلة مع بعضهم البعض، في مزار، وهي "ليلة التعارف" (ص ص **190–191**).

السنة	الحدث
200	ورمينا تحت ضغط ماسينيسا يحاول عقد حلف مع روما، ماسينيسا يرسل ألف فارس ضدّ فيليب المقدوني، ويزوّد روما بمائتي ألف ليبرة قمح ومثلها من الشعير.
193-200	ماسينيسا ينهي الاستيلاء على الأقاليم الماسيسيلية.
193	ماسينيسا يرسل وحدة فرسان قوامها ألف فارس وعشرة أفيال ضدّ فيليب المقدوني ويزوّد الجيش الإغريقي بمائتي ألف ليبرة قمح ، ولادة ميكيبسا ؟
195	أولى النزاعات الإقليمية بين ماسينيسا وقرطاج، إرسال وفد روماني إلى أفريقيا للتحكيم في شأن الخلاف، قضية أفتر.
193	نفي هانيبال، ماسينيسا يقود حملة على اُمبوريا.
191	ماسينيسا يرسل خمسمائة فارس وعشرين فيلا ضدّ أنطيوخس، ويزوّد روما بخمسمائة ألف ليبرة قمح وثلاثمائة ألف من الشعير.
182	ماسينيسا يستولي على الإقليم الذي كان والده قايا قد استرجعه من قرطاج
179	إرسال القمح إلى ديلوس، علاقات مع رودس وأثينة.
172-174	الاستيلاء على حوالي سبعين مدينة في الإقليم البوني، تحكيم روما.
171	ارسال وحدة من ألف من المشاة وألف فارس و22 فيلا تحت قيادة ميساقان ضدّ برسي.
183-168	فوز ماسطانبال في الألعاب الأثينية.
162	ضمّ إقليم الإمبوريا نهائيا
157	تحكين روماني جديد بين ماسينيسا وقرطاج.
153	روما ترسل مفوّضين جدد لإنهاء النزاع بين ماسينيسا وقرطاج.
حوالي 152	ماسينيسا يستولي على السهول الكبرى وإقليم توسكا.
ربيع 150	إيفاد ميكيبسا وقولوسا إلى قرطاج، الحرب بين ماسينيسا وقرطاج حصار أوروسكوبا.
صيف 150	زيارة سبيون الإيميلي وبوليب إلى ماسينيسا المنتصر على القرطاجيين. روما تعلن الحرب على قرطاج.
149	نزول القنصلين مانيليوس و كنسوريوس في أفريقيا، حصار قرطاج.
148	وفاة ماسينيسا، تسوية وراثة العرش من قبل سيبيون الإيميلي.
146	تدمير قرطاج



القسم الثالث

أسطورة ماسينيسا



ش. 25- ضريح الصومعة (لَخْروب (قسنطنة)

أـ منجزات سلالة ملكية

اعتلاء ماسينيسا العرش

قرّر ماسينيسا وهو يشعر بدنوّ أجله سنة 148 دعوة سيبيون الإيميلي لاستشارته في تسوية وراثة العرش، وبعد أن عرف أنّ الروماني سيصل متأخّرا، قرّر أن يترك له اتخاذ التدابير التي يرى أنّها الأفضل في هذا الشأن.

ما الغرض من هذا القرار؟ وهل يتناقض مع صورة ماسينيسا الممجّدة له، الصورة التي درج المؤرّخون على إبرازه فيها، وهل يمكن الاشتباه في صحّة تلك الصورة؟ نجد على لسان اسطيفان اقزال في هذا السياق عبارة ذات دلالة:" **لقد ختم حياته بنوع من الاعتراف بأنّ مصائر نوميديا تتوقّف على الرومان**"[702]،وهو أكثر من اعتراف بالعجز وبالخضوع: فبهذا القرار لم يتصرّف ماسينيسا كحاكم سيّد بل تصرّف كما لو أنّه مجرّد حاكم مفوّض من روما[*].

لا يمكن نفي تحكيم سيبيون الإيميلي (من المحتمل أنّه تقرّر مسبّقا في روما) باعتباره أسطورة؛ فالنصوص أساسية ولا تمثّل أيّ تناقض[703]، وتمّت تسوية وراثة العرش في الواقع من قبل الرومان، على يد سيبيون الذي إن خفيت عليه الطريقة فإنّه لا تخفى عليه حينئذ القواعد التي ستطبّق.

ماسينيسا الذي حكم بكلّ جدارة طيلة ما يزيد عن نصف قرن، العاهل الذي عرف كيف يمدّن رعاياه ويشجّعهم على حياة الاستقرار، ماسينيسا الذي نظّم مملكته وأقام دولة، لم يكن الملك القوي "**الأعظم من بين كبار حكام بلاد البربر**"[704]،لأنّه لكي يختار وريثه، لم يُقْدِم على فرضه بالقوّة على عائلته أو على رعاياه فقط، بل- ودون اتخاذ هذا الإجراء جهرا- سلّم مصائر المملكة لاختيار وتحكيم الأجنبي. هذه النهاية الصعبة كوّنت مع مشهد

---

(702) - Gsell (S.), HAAN, VII, p. 135.

(*) **لا ندري لماذا هذه التأويلات المغرضة من هذين المؤرّخين الأكاديميين، ألم يجدا في تقاليد الدبلوماسية عبر تاريخها ما يفسّر ما قام به ماسينيسا غير الخضوع والتبعية وكأنّهما يكتبان التاريخ من بوابة حارس الحاكم العامّ للجزائر، فماسينيسا لم يتصّل بمجلس شيوخ روما حتّى يتمّ التأويل على هذا الشكل، ولكن اتصل بصديق جمعته به مناسبات وظروف سجّلها التاريخ، واستقبله كصديق للعائلة، فهل في هذا ما يحوّل استضافة صديق وما دار معه من حديث حميمي إلى عمل رسمي بين دولتين وطرفين رسميين!!! ، ألا نجد في العلاقات الدولية والدبلوماسية الحديثة تبادل وفود وحضور شخصيات في كل المناسبات، فهل استقبال شخص واستضافته إعلان بالخضوع لدولته على هذا النحو المشين، الذي تفنّن فيه مؤرّخو روما قديما ومريديهم حديثا، ومع أنّ كامبس يفنّد أن تكون قصّة التحكيم أسطورة ولكن نرى فعلا أنّها أسطورة دسّها المؤرّخون القدامى ووجد فيها مريدوهم المحدثون ضالّتهم.**

(703) - Appien, 105-106 ; -Polybe, XXXVI, 16, 10.; -Zonaras, IX, 27.; - Tite-Live, Epitome du livre I.

(704) - Gsell (S.), HAAN, V, p. 162.

آخر ألما مزدوجا: ماسينيسا في عمر السادسة والخمسين حيث لا يزال بعد في قوّة وحميّة الشباب يضحّي – في سبيل الصداقة الرومانية – بالمرأة التي أحبّ والتي استردّها مع عاصمته في نفس الوقت.

هل كانت عظمة ماسينيسا تكمن في خضوعه العبودي لإرادة روما ؟ إنّها حلقة رومنسية ولكن كم هي رمزية، ألم تكن محن صوفونيسب قد وقعت قبل أن يبدأ ماسينيسا حكمه وأنّ أيّ مسعى دون موافقة روما سيكون دون جدوى ؟

الحقيقة أنّ ماسينيسا لم يكن بمقدوره أن يواجه القوّة الرومانية بقوّة السلاح لكن الحاكم المنقاد لن ينال تعاطف أحد أبدا، والمعجبون بماسينيسا يقفزون سريعا على هذين الحدثين المروّعين اللذين شكّلا في البداية والنهاية ركنا ذابلا في حكمٍ أهمُّ ما فيه، في نهاية المطاف، هو طول فترته وما يعرفه التاريخ عنها.

توفي ماسينيسا تاركا ثلاثة أبناء شرعيين(*)، أكبرهم ميكيبسا الذي – مهما تكن أوضاع ومبادئ وراثة العرش المختارة : **العرش ملكية عائلة** (*Tanistry*) أو بحقّ البكورة (*Primogéniture*) – سيكون هو من يخلف أباه. وقد ذكر زونارا أنّ ماسينيسا قبل وفاته منحه خاتمه [705]، وهو نوع من تقليد العرش، فلماذا لم يعيّنه علانية كوريث له ؟

يمكن ذكر ثلاثة أسباب؛ **الأول** يتعلّق بشخص ميكيبسا ذاته؛ لأنّ أبيانوس قال عنه أنّه ذو شخصية مسالمة وقد اعتبره اسطيفان اقزال ضعيف الشخصية يفتقر إلى القوّة لأنّه تبنّى في وقت لاحق يوغرطة. ولعلّ ماسينيسا وهو يشرك معه في السلطة أخويه وخاصّة قولوسا الميال إلى المغامرة كان يقصد تجنيب المملكة صدامات تضرّ بوحدتها، وصفوة القول أنّه لا وجود لأيّ حادث في وقت لاحق يثبت أنّ ميكيبسا دون مستوى المهامّ المنوط بها؛ وعلى العكس عرفت المملكة طيلة حكمه الطويل ازدهارا مطّردا، ولايبدو أنّ هذا الملك قد واجهته مصاعب كبيرة، فلا شيء في شخصه يسوّغ إذن القرار الأبوي بتقليص سلطته.

السبب **الثاني** هو أنّ الحل الفضولي المتبنّى في شأن خلافة ماسينيسا قد يكون نوعا من الفيتو الذي أصدره مجلس الشيوخ قبل وفاة ماسينيسا. ولا نكاد نصدّق في واقع الحال أنّ

(*) ولماذا هذا الغمز وكأنّ الأبناء الشرعيين للملك النوميدي استثناء، فمن الطبيعي أن يكون الأبناء شرعيون، ولماذا لا نجد هذا في كتاباتهم عن أباطرة روما مع أن عددا كبيرا منهم متبنّون وغير شرعيين.

(705) - Ibid, t, III, p. 365.

ماسينيسا من جهة وروما من الجهة الأخرى انتظرا آخر لحظة لكي يتركا لمنبري عسكري بسيط مهمّة الارتجال بحلّ خطير كهذا، ولعلّ القرار اتخذ منذ وقت طويل في روما وبقي الأمر سرّا وماسينيسا وهو على فراش المرض ترك أمر تنفيذه لسيبيون.

هناك عوامل أخرى ينبغي وضعها في الحسبان، وهي أنّ الملك في المملكة النوميدية ليس إلاّ نوعا من حاكم –كما رأينا- لا يحكم كملك أوحد ومطْلق، ألا يمكن للأمراء ورؤساء القبائل وأقاليد المدن والأرياف (*Aguellids des villes et du bled*) التدخّل والتعبير عن إرادهم؟ ليس مستبعدا في واقع الحال أن يكون مبدأ توزيع السلطة الذي طبِّق في استخلاف ماسينيسا مستمدّاً من "التقاليد" المؤسساتية الليبية، وقد لاحظ جيلبار شارل بيكار في واقع الحال أنّ مكثر وألثيبورُس كانت كلّ واحدة منهما محكومة من قبل ثلاثة أشفاط، وأنّ الكنفدرالية السيرتية كانت تسيّر من قبل ثلاثة قضاة بلَديين (*Triumvirs*)"**في حين أنّ القرطاجيين والرومان يعهدون بإدارة كلّ مدينة إلى هيئة متكوّنة من اثنين (*Collège duumviral*) ودون ريب فإنّ نظام الهيئة البلَدية في كلّ من مكثر وسيرتا كان من أصول نوميدية**"[*] وقد عقد الباحث مقارنة بين هذه الإدارة الجماعية وتقاسم الملَكية بين ميكيبسا وماسطاتبال وقولوسا متسائلا عمّا إذا كانت هذه الصيغة "**نقلا أو ترفيعا لتنظيم بلَدي إلى مستوى الملَكية**" [706]، وهل كان اقتراح هذا التقسيم من قبل الزعماء المحليين لإرضاء طموحاتهم الخفية أم كانت وراءه أغراض خبيثة للسلطة الرومانية في نفس الوقت.

تلقى قولوسا القويّ لقبا جديرا به في حين أنّ العالم والقانوني ماسطانبال يمكنه البحث بسهولة في ترسانة القانون العرفي البربري عن الحجج التي تبرر هذا التقسيم وفي هذه الحال يكون ميكيبسا وحده –بفعل فشل ماسينيسا- هو المحبط جزئيا والحقّ يقال، لأنّه وباعتباره الأكبر سنّا بين إخوته احتفظ بشكل من الأشكال برئاسة الهيئة الملَكية، وكانت وفاة ماسطانبال وقولوسا بعد سنوات قليلة لصالح وحدة السلطة الملَكية[707].

مهما تكن الأسس أو الأسباب السياسية التي أقيمت عليها سلطة جماعية على رأس المملكة فإنّ هيبة ماسينيسا لا تصمد أمام فحص الظروف التي تبنّى فيها هذا الحلّ، فإن كان هو صاحب الفكرة لِمَ لَمْ تكن لديه قوّة الشخصية لجعلها معروفة لأبنائه أو فرضها عليهم،

(*) **يمكن الرجوع في هذا المجال بالذات إلى أطروحتنا عن الكنفدرالية السيرتية.**

(706) - Charles-Picard (G.), Civitas mactaritana, Karthago VIII, 1957, pp. 39-40 et n° 123.

(707) **في السنة 139 في العام العشار من حكمه، كان ميكيبسا ملك الماسيل الوحيد** : Cf, Inscription de Dougga **المتعلّقة بمعبد ماسينيسا. وكذا جملة لبلينوس تقول أنّ سيبيون الإيميلي تخلّى عن محتوى مكتبات قرطاج للملوك النوميد** (regulis Africae) **ويمك استنتاج أن قولوسا وماسطانبال كانا على قيد الحياة سنة 146 لأنّ العبارة تتكلّم عن ملوك بصيغة الجمع .**

وإن كانت قد أُمْليت عليه من قبل روما فقد قبلها و لم يحاول استباق الزمن بالإعلان قبل وفاته أنّه يريد وريثا واحدا لعرشه، إمّا إن كان القرار مفروضا من قبل الأمراء الأفصال، فإنّ سلطته كانت حينها ضعيفة جدّا ولعل العاهل وقد تقدّمت به السنّ كان متخيّلا بل وفي نفس الوقت واعيا بالضعف الداخلي للمملكة والمصاعب الناتجة عن الشروط الرومانية، فترك -بهذا الموقف الأخير من الثقة- سلالته مصير بين أيدي سيبيون الإيميلي -الحفيد بالتبني- لذلك الذي بعد وفاة صوفونيسب كان قد حيّاه باسم الملك[*].

بقرار أو بموافقة سيبيون الإيميلي أصبح ميكيبسا على رأس إدارة المملكة، أو كما يقال اليوم الحكومة المدنية؛ قولوسا وكان الأصغر (كان في الأربعين على الأقلّ) بقي علـــى رأس الجيش،أمّا صلاحيات ماسطانبال فهي أقل وضوحا،فقد تلقّى وظيفة العدلية،وهو منصب غير ذي أهمّية كبيرة في المملكة، وليس من المستبعد أن يكون مكلّفا أيضا بجباية الضرائب وكلّ ما يتعلّق يالشؤون المالية، وكان الأعلى ثقافةً بين الأمراء الماسيل، هؤلاء الأخوة الثلاثة حملوا لقب ملك، كما جاء في أحد أنصاب معبد الحفرة مؤرّخ بسنة 148 حيث ذُكروا ثلاثتـــهم دون تمييز في صلاحياتهم الملَكية باستثناء الترتيب المبني على الأسبقية حسب السنّ.

ما قبل وما بعد ماسينيسا

حكمت سلالة الملوك الماسيل نوميديا، من وفاة ماسينيسا إلى وفاة يوبا الأول سنة 46 ق.م. قرنا كاملا، وهي فترة تحضير في الخفاء لذلك الازدهار الباهر الذي ستعرفه المقاطعات الرومانية. فخلال المائة سنة تنظّمت المملكة التي أسّسها ماسينيسا ونالت قسطا من التحضّر، يصفه اقزال بقوله " **على امتداد االقرن الثاني إلى منتصف القرن الأول حقّقت نوميديا الكثير من التقدّم في عهد أولئك الملوك أكثر من المقاطعة التي كانت تحت حكم الجمهورية الرومانية**" [708] .

وباستثناء شخصية يوغرطة الذي نعرفه جيّدا لأنّ سالوست روى لنا تاريخ الحملات التي أرسلت ضدّه، ليس لدينا سوى معلومات مبعثرة عن الملوك النوميد الذين لم تحدّد حتّى تواريخ حكمهم؛ فإلى عهد قيصر أي إلى تاريخ سقوط المملكة لم يكن تاريخ نوميديا معروفا جيّدا وفي أحيان كثيرة يقتصر عمّا هو معروف عن حكم ماسينيسا.

(*) **يقصد سيبيون الأفريقي (235-183 ق.م.).**

(708) - Gsell (S.), HAAN, t, VII, p. 57.

الازدهار الذي تمّ في عهد هذا الحاكم (ماسينيسا) لا يمكن إلا أن يزداد أكثر في عهد خلفائه وإذا كان التاريخ لا يخبرنا كفايةً عنهم فليس من حقّنا أبدا أن نحكم عليهم بـــالعجز أو أنّهم مبدّدو ثروة جمعها ماسينيسا، ويعترف اسطيفان اقزال الذي يبدو قاسيا إزاءه قائلا: " **لو أنّ لماسينيسا خلفاء عاجزين تماما لكانت المملكة قد تفكّكت**"، ويعترف أيضا أنّ " **قـــاودة الموصوف بالضعف والبلادة(حسب سالوست) كان شديد التعلّق بالشرف الملوكي الذي أصبح في حوزته...واستطاع الاحتفاظ بالعرش وتوريثه المملكة لابنه يامبسال**" ولكنه كيف أصدر في مواقع أخرى حكما مغرضا حين الكلام عن الأسر الملَكية النوميدية والمورية فقد كتب:"**الحـــال أنّ الأسر الملكية استغرقت وقتها،أمّا الممالك ليست كذلك، وتوحي لنا الإضاءات النادرة التي تختـــرق ظلمتها الحالكة بالفوضى التي كانت فريسة لها**" [709].

أليس ذلك طبيعيا لأنّ المعلومات التي وصلتنا تتعلّق دائما بالحروب أو علـــى الأقـــل بالأزمات ؟ وفي مثل هذه الأحوال لا يمكن إسقاط خصوصيات فترة مضطربة على فتـــرات عادية ، ثمّ ألا يتوافق هذا مع المثل الشهير الذي يقول أنّ **الشعوب السعيدة المزدهرة هـــي أيضا دون تاريخ**، فقد تركت الثلاثون سنة من حكم ميكيبسا ذكريات أقلّ مـــن العـــشر سنوات من حرب يوغرطة؛ ولكن أيّ حكم كانت له في نهاية المطاف أهمّية أكثر: الحكـــم الذي أثرى المملكة الموروثة عن ماسينيسا عبْر مرحلة طويلة، أم الحكـــم الـــذي – ميّـــزه الطموح واستعمال قوّة شرسة – فأوصل إلى تفكّك هذه المملكة بالذات ؟

هذه الإضاءات التي تنير تاريخ المملكة لبعض الوقت لا ينبغي أن تخدع أحـــدا، وإذا كان يوغرطة قد خرج مظفّرا من الصراع ضدّ روما فلأنّ ذاكرته احتمالا كانت تختزن مجد المعارك واستحقاقات ميكيبسا بل وحتّى ماسينيسا.

في واقع الحال، من المستحيل أن تنسب لحاكم دون آخر من ذات السلالة الماســـيلية مزايا أعمال أنجزت أثناء سنين أو خلال فترة حكم، ومع ذلك هناك ميل إلى نفْـــي تلـــك الأعمال عن خلفاء ماسينيسا من خلال ما يُنسَب له، كما لو أنّ المسألة عبارة عن مـــسار لدرْء تبسيط شخصه أو اسمه وذلك بجمع كل ما يمكن أن يكون إيجابيا أو جديرا بالثنـــاء في السياسة النوميدية ونسبته إليه تاركا لأسلافه وخلفائه كل سلبيات حصيلة ظالمة ووحشية.

---

(709) - Ibid. t, V, pp. 162-163.

كل ما يمكن أن نعرفه او نتكهّن به عن إدارة المملكة يتعلّق بالفترة ما بعد ماسينيسا، أمّا عناصر الحضارة العمرانية فهي معروفة قبله؛وإذا كانت الفلاحة قد عرفت تقدّما طيلة حكمه فهي ليست من اختراعه،وقد عرفت بعض التطوّر في الفترات السابقة لحكمه،ولا يبدو أنّ النوميد المعاصرين ليوغرطة كانوا أقلّ أوأكثر تخلّفا من أولئك الذين خدموا في جيش سيفاكس،فقد ظلّ تنظيم القتال كم هو،والطرائق لم تتبدّل، وفي ما يتعلّق بتوسّع عبادة الآلهة البونية وعبادة الآلهة كيريس يبدو أنّ دور ماسينيسا أيضا غير محدّد،فما هو إذن النصيب الذي أسهم به ماسينيسا في الحضارة النوميدية؟ إنّه مستعصٍ على التعريف،أعترف بذلك.

سيفاكس

هو ملك الماسيسيل كان حاكما قويّا تمكّن من توسيع مملكته لتشمل كل نوميديا، ولو خرجت قرطاج مظفّرة في الحرب البونية الثانية عوض روما لكان من المحتمل أن يكون هو الذي يتقلّد المزايا المعترف بها لماسينيسا، وكان سيفاكس قبل ذلك قد سكّ عملته، وتبدو قطعه النقدية أدقّ صنعا من العملة الماسيلية، كما كان لنجله ورمينا عملته الفضّية(710) حتّى في عهد والده، الشيء الذي لم يكن ماسينيسا قد فكّر فيه .

كان سيفاكس حليفا لقرطاج يمارس سلطته –رغم تأثير صوفونيسب– باستقلالية عن قرطاج أكثر من ماسينيسا وهو ما لم يفعله هذا الأخير وهو منتصر إزاء روما، وقد حمل التاج مساويا للملوك الهلينيستيين قبله، وكانت علاقاته بقرطاج وروما وإسبانيا تجسّد مسبّقاً السياسة المتوسّطية لمنافسه، وهو سيّد على موانئ الساحل الوهراني حاول أن يجعل من "**ندوة أو قمّة**" لقاءً مفاجئا بين سيبيون وأسدروبال، وكانت قرطاج وروما وهما أكبر قوّة في المتوسّط الغربي تتنافسان على عقد تحالف معه، إنّه لحدث فريد في سجلاّت الأحداث: قائد روماني يترك قيادته ومقاطعته لعدّة أيام ويعبر المتوسّط ليلتقي وجها لوجه مع ملك أفريقي*، هذا القائد ذاته استدعى ماسينيسا عنده كتابع وأرغمه على أن يترك صوفونيسب تتجرّع الكأس اللعين. ومع إدراك علو شخصية سيفاكس أظهرت روما حلمها، فقد عاش مكرّما في ألبا فوكنس (Alba fucens) ثمّ في تيبور (Tibur)، وأكثر من ذلك دفعت الجمهورية الرومانية مصاريف دفنه(711)، وظلّت عاصمته سيقة مدينة هامّة إلى القرن الأول حيث اتخذها بوكوس بدوره عاصمة له(**).

(710) أنظر أعلاه ، ص **180**.

(*) نلاحظ هنا العنجهية والاستعلاء وكأن لقاء القائد الروماني تواضع كبير جدّا وكأن الملك الأفريقي ليس أهلا لهذا التواضع المزعوم !

(711) - Tite-Live, XXX, 17, 2.; 25, 4, et 5.

(**) **لا ندري لماذا هذا الاستعراض القائم على مفاضلة مشبوهة مع أن التاريخ يقول بموضوعية أنّ الوقائع والأشخاص محكومون بالظروف المحيطة بهم ولا يمكن أن يكون طرف ما نسخة من الطرف الثاني،**

خطأ سيفاكس هو أنّه انهزم، والتاريخ الذي يقال عنه حيادي، كلمته المدوّية هـــي: الويل للمهزوم *(vae victis)* وكما جاء على لسان اقزال: " **لم يكن حكمه إلاّ صـــراعا طويلا ضدّ جيرانه، ومن المحتمل أيضا ضدّ رعاياه دون الحديث عن الحروب التي دعّمها ضدّ قرطاج وروما ... وهو العمل المستمرّ الذي أكمله ماسينيسا**" [712].

مكّوسن

ومع ذلك كان هذا العمل أكثر استدامة لأنّه وجد أيادي مهرة لإصلاح الإرث الذي خلّفه الملك العظيم، فهذا ميكيبسا نجل ماسينيسا الذي عاش بعد أخوية الأصغر منه جـــدير بذلك، هذا الشخص غير المعروف جيّدا [713]، يواصل وبإمكانيات مختلفة ذات السياسة التي انتهجها ماسينيسا. وإذا كان الوجود الروماني في أفريقيا قد أوقف حركة التوسّع النوميدي نحو الشرق؛ فإنّه بذلك احتفظ بعلاقات طيّبة - كان والده قد دشّنها - مع الرومان كمـــا التزم مثل والده بتوفير الوحدات القتالية والأفيال والمعدّات لجيش الجمهورية، هـــذا الملـــك المسالم أقرّ على ما يبدو علاقات طيّبة أيضا مع جاره الموري؛ و لم يحدّثنا التـــاريخ عـــن أيّ محاولة إلحاق تمّت من هذا الجانب أو ذاك على أطراف مولوشا[714].

اقتصرت الوثائق المعاصرة لماسينيسا على بعض القطع النقدية وعلى أنصاب مهداة لبعل أمون من طرف سكّان سيرتا، وقد تضاعفت في عهد ابنه ميكيبسا، ومنها النصّ الإهدائي الشهير في معبد ماسينيسا بدوقة، والنصّ البوني في جبل مسوج الذي يبدو أنّه كان علامة ميلية حقيقية، دون أن ننسى نصب ثيقيبّا (بالقرب من مكثر) ونصّ ميكيبسا الجنائزي المكتشف بشرشال[715].

هذه الوثيقة الأخيرة التي كنّا قد أشرنا إليها، تمثّل قيمة تاريخية معتبرة ليس فقط لأنّها تضمّنت الأسماء الملكية كاملةً لحكّام نوميديا في القديم[716]، ولكن أيضا لما فيها من وصف يتعلّق بالمعْلم الجنائزي الذي تشير إليه، وقد وجد جيمس فيفري صعوبة كبيرة في ترجمته، وها هو نصّها: "**يقيم له هذا التمثال وغرفة مع الجرّة الجنائزية ؟ Y'ZM / ابن YZZGSN الخ... خادم الإله/ في الذكرى المجيدة من رعية جلالته الموقّرة، هذا المعْلم**

(712) - Gsell (S.), HAAN, t, V, pp. 161-162.

(713) عن ميكيـــبسا ، أنظر المقال المنشور في الموسوعة الألمانية : -Realencyclopadie der Altertumsenschaft.

(714) ذكّر بوكوس بأنّ المولوشا يمثّل الحدود بين مملكة ميكيبسا ومملكته : - Salluste, Bellum Jugurthinum, CX, 8

(715) دُرست كل النصوص الأثرية باستثناء نصّ دوقة المزدوج أو أعيدت دراستها من طرف جيمس فيفري، وبخصوص نصب ثيقيبّا يُراجَع : B.A.C., 1949, pp. 652-655 ؛ وقد نشرت أول دراسة عن نصّ ميكبسا الأثري من قبل الأب شابو (B.A.C., 1943-1845, pp. 64-67) كمل درس أيضا في (B.A.C., 1951-1952, pp. 116-120) نصّ ميكيـــبسا الأثري وأعاد نشر الدراسة في : - Rev, d'Assyr, et d'Archéol, orient, t, XLV, 1951, pp. 139-150.

(716) أنظر أعلاه ، ص ص **228–229**.

الكامل، وكذا الجذوع وقواعد (الأعمدة) التي هي على مستوى (أو الدور الأعلى) جُمِّعت من قبله (و) مع الروائح العطرة ومجمرة البخور (؟) وشعلة ... الخ" .

قدّم الأستاذ فيفري هذه الترجمة بحذر شديد، شارحا تبعا لمنهجه كلّ كلمة وكلّ عنصر في الجملة، كما قابل الكلمة **QBR** -التي تعني ببساطة قبر- بعبارة "الجرّة الجنائزية"، لأنّ هذه الكلمة وجدت مرارا على جرار استخرجت من قبور[717]، أمّا عبارة " **قواعد وجذوع** (الأعمدة)" فما هي إلاّ ترجمة تقريبية لأنّ الترجمة الحرفية للتعبير البوني تكون: " **الصواري وقواعدها** " .

مهما كانت الترجمة الصحيحة لكل جزء من النصّ الأثري فإنّ المعنى العامّ لا يثير أيّ شكّ وهذا اللوح الرخامي الصغير (0,30 م X 0,23 م) كان بالتأكيد مثبّتاً على معْلم جنائزي مُهْدَى لذكرى **مكوسن** ملك الماسيل.

يكمن المشكل الأساسي في تحديد مكان هذا المعْلم ، وكان النصّ الأثري قد اكتُشف في نهاية القرن XIX بشرشال التي كانت عاصمةً ليوبا الثاني وكذا بوكوس الصغير، وليس من المستبعد أن تكون أيضا عاصمة جهوية لميكيبسا مع أنّه لا يوجد أيّ نصّ يشير إلى إقامة أخرى لهذا الملك غير سيرتا التي زيّنها بالمباني الفخمة [718]، على أنّ احتمال أنّ ملكا سيّدا على مملكة شاسعة لا إقامة له إلا في سيرتا ضعيف، ومن جهته لم يخبرنا سالوست عن مكان وفاة ميكيبسا، و لم يشر إلى سيرتا في معرض حديثه عن المدّة القصيرة التي سبقت اغتيال يامبسال.

ألا يمكننا القول أنّ ميكيبسا توفّي في يول (شرشال) وأنّ قبره شيّد في هذه المدينة؟

ساند جيمس فيفري فرضية مختلفة تماما، مستبعدا تشييد قبر لميكيبسا في هذه المدينة ويرى أنّ اللوح الرخامي يكون قد اقتلع من معلم ونقل إلى المكان الذي اكتُشف فيه، وفي هذا السياق من التفكير أقام مقارنة متقدّمة نوعا ما بين المعْلم كما يتخيله عبر النصّ الأثري البوني الذي ترجمه وضريح الخروب المنسوب تقليديا إلى ماسينيسا، ويبدو أنّ حجج جيمس فيفري مع أنّه قدّمها بحذر شديد غير مقبولة لأنّها تصطدم باعتراضات عديدة يعترف بها هو ذاته، بعضها ذات طابع معماري؛ مثلا ضريح الخروب له أعمدة من الطراز الدوري ولا

(717) **لكن هذه الجرار يقول فيفري لا تحتوي إلاّ على نذور، وليس فيها عظام بشرية، ولا تعرف السبب الذي يجعل العبارة MSN'SMM (ص 148) ، تترجم بالجرّة الجنائزية.**

(718) - Strabon, XVII, 3, 13.

ترتكز على قواعد كالتي ذكرها نصّ شرشال، وكنا قد أشرنا إلى أنّ ترجمة كلمة QBR بعبارة جرّة جنائزية هي محلّ نقد، ولا تستند في العموم إلا على وجود جرّة تحتوي على رفات في ضريح الخروب، وإذا كان ضريح ميكيبسا وضريح الخروب يحتويان على غرفة جنائزية فإنّ ذلك في نهاية المطاف ليس عنصرا كافيا لإثبات تقاربهما، لأنّنا من خلال دراسة الأثاث الجنائزي في ضريح الخروب نجد أنّ عمر جرار سوداموس الرودية [719] يقترب كثيرا من التأريخ التقليدي (148 ق.م..) أكثر من تاريخ وفاة ميكيبسا (118 ق.م.).

أوّل اعتراض يمكن أن يقف في وجه فرضية جيمس فيفري هو أنّ فرضية نقل هذا النصّ الأثري من منطقة قسنطينة إلى شرشال في حدّ ذاته أي على مسافة تفوق 450 كلم غير مقنعة، فمن يستطيع القيام بهذا النقل؟ لا نكاد نرى في التاريخ غير جامع التحف يوبا الثاني ؟ الحريص على جلب الأشياء العائلية البارّة، ولكن نظرا إلى أنّ ضريح الخروب لم يشيّد في إقليم مملكته فإنّ هذا التحويل سيتطلّب ترخيصا من البروقنصل، وأجزم بأنّ ذلك لم يتمّ لأنّه لو حصل لما فوّت المؤرّخون الرومان تسجيل هذه الأقصوصة.

ولكن ألا يوجد على وجه الخصوص (إن كان من الضروري التفكير في أنّ الضريح لم يكن في شرشال ذاتها) على بعد أقلّ من 40 كلم شرقا ضريح شهير يضمّ هو الآخر سردابا جنائزيا مزوّدا بمشاكي (*niches*) لوضع الجرار وأعمدة تستند على قواعد، إنّه ضريح قبر الرومية، حيث أنّ بعض التفاصيل المعمارية تسمح بتأريخه بالقرن الثاني أو الأول [720]، لكن الحجم الصغير لنصّ شرشال الأثري يمثّل تفاوتا كبيرا جدّا مع ضخامة قبر الرومية، وهو ما يحكم ببطلان مجرّد التفكير في انتماء تلك اللوحة الصغيرة جدّا إلى هذا المعلم. غير أنّه في واقع الحال -إن كان لابدّ من افتراض أنّ نصّ شرشال قد جلب من هناك- يوجد إلى الشرق من هذا الضريح وطبقا لقواعد دينية متواترة عند قدماء الأفارقة[721]، نوع من الهياكل أو المعابد الجنائزية، ألا يمكن أن يكون هذا النصّ الأثري قد جلب منها.

النصّ القديم الوحيد المتعلّق بضريح قبر الرومية ينسبه إلى عائلة ملكية [722]، وهو عبارة واردة في بومبونيوس ميلا وغير واضحة، لكن يستفاد منها أنّ الشخص الذي أقيم له الضريح أصبح اسمه نسيا منسيا في عصره (القرن الأول الميلادي) .

---

(719) **أنظر أعلاه ، الهامش رقم 642**

(720) - Gsell (S.), HAAN, VI, p. 273.

(721) - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, p. 551.

(722) - Pomponius Mela, I, 6, 38 (Monumentum commune gentis), **؛ كوْن سترابون لم يذكر شيئا عن الضريح ليس دليلا على القبر غير موجود في عصره.**

لكن أليس من الأبسط في نهاية المطاف التفكير بأنّ المعْلم الذي ينتمي إليه نصّ شرشال كان في المدينة ذاتها أو في ضواحيها ؟ وأنّ التحوّلات التي أدخلها يوبا الثاني وخاصّة الحكام الرومان من بعده على مدينة **يول** القديمة تطلّبت هدم أو إزالة معْلم ليست له بالضرورة أهمّية معتبرة، فلا شيء في الواقع يثبت أنّ مكوسن اعتنى بتشييد ضريحه وهو على قيد الحياة، وينبغي الإقرار أنّ الأحداث التي أعقبت وفاته لا مجال فيها لتشييد ضريح بتلك الضخامة ومن العرضي القول أنّ الذي شيّد ذلك الضريح ما هو في أحسن الحالات إلاّ أحد أحفاد أشقّاء الملك المتوفّى [723]، فالتنازل لبوكوس ملك المور عن ماسيسيليا القديمة سرعان ما أنسى -في شرشال ذاتها- ذكرى الملك النوميدي الذي يكون قد توفّي فيها.

فرضية جديدة — يمكن مناقشتها كالسابقة- قد يرحّب بها أولئك الذين لم يتقبلوا أن يكون ميكيبسا قد توفي خارج سيرتا: سيرون في معْلم شرشال ليس فقط القبر الحقيقي للملك، ولكن أيضا قبرا أجوف (Cénotaphe) موجّها بالأساس لعبادة ملَكية. وستكون الإشارة الواردة في النصّ المهدى من قبل إيزم Y'ZM مطابقة كثيرا لهذا الرأي الذي يصطدم والحالة هذه بالكلمة **ق ب ر** QBR ؛ فهل يمكن مقابلة هذه الكلمة الأخير بعبارة قبر أجوف (Cénotaphe) ؟ يترَك أمر الإجابة على السؤال لدارسي الساميات.

مهما تكن الفرضية السابقة فإنّ نصّ شرشال الأثري يبيّن بطريقة أو بأخرى أنّ المدينة كانت محلّ اهتمام ميكيبسا وأرى أنّه من غير المستبعد أن تكون يول عاصمة لهذا الملك، فقد كانت ماسيسيليا أحسن إدارةً من فترة ماسينيسا، واكتست في عهد ميكيبسا أهمّية كبرى، وهي في منتصف المسافة ما بين سيقة عاصمة سيفاكس وسيرتا عاصمة ماسينيسا، وإذا أصبحت يول مقرّ إدارة إقليمية وعاصمة جهوية فإنّها تضمن تحكّم ماسيليا في مملكة ماسيسيليا القديمة.

التقدّم الذي كانت عليه ماسيسيليا في عهد ميكيبسا هو ذاته الذي كانت عليه طبعاً خلال توزيع المملكة بين يوغرطة وآدربال، وهذا الأخير يبدو أقلّ حظّا لأن القسم الغربي - حسب سالوست- الذي كان من نصيب يوغرطة كان أخصب وأكثر سكّانا [723 مكرّر]. وفي نصّ شرشال الأثري إشارة إلى وجود ضواحي غنية بالمزروعات وكذا أراضي الانتجاع تكوّن **ملْكية كبرى** (Domaine) قام إزم Y'ZM بتوقيفها على نفقات العبادة الملَكية. ومن جهتنا لا نتردّد في الاستنتاج أنّ هذا "الدومان" لم يكن يشكّل استثناء.

---

[723] **إ ' ز م Y'ZM يقول أنّه ابن حفيد ماسينيسا، ولكن ليس على يقين تامّ ما إذا كان المقصود ملك نوميدي.**

[723 مكرّر] Salluste, B. Jug. XVI, 5 ; - **اعتبر اسطيفان اقزال أنّ " هذا الأمر مشكوك فيه واحتمالا غير صحيح" وفي واقع الحال يعترض سالوست ومعه الحقّ قائلا أنّ المنطقة الغربية وهي من نصيب أدربال هي الأكثر عمرانا ومزوّدة أكثر بموانئ جيّدة** Porfuosior

هكذا أصبحت المملكة التي كانت بالأساس "ماسيلية" في عهد ماسينيسا نوميدية خالصة في عهد ميكيبسا وقد لعبت المقاطعات الغربية دورا أكبر دون أن تفقد المنطقة الشرقية أهمّيتها لهذا السبب.

في سيرتا، واصل ميكيبسا سياسة أبيه المعجب بالحضارة الهلينية، وكذا شقيقه ماسطانبال دون ريب الذي تلقى تكوينا إغريقيا عميقا، وتمّ تزيين المدينة بأفخر العمائر، وازداد نشاط الجالية الأجنبية نموّاً ففي العام 113 ق.م. كان عدد التجّار الإيطاليين كافيا لضمان الحماية لآدربال في دخوله إلى سيرتا وكذا للاشتراك بفعالية في الدفاع عن المدينة، وكانت إبادتهم السبب الحقيقي للحرب ضدّ يوغرطة، ولم تكن الجالية الإغريقية أقل عددا ؛ ووجودها في المدينة أقدم وقد رأينا أعلاه كيف أنّها كانت تشارك تبعا للطقوس البونية في التعبّد لبعل أمون [724].

بعيدا في الشرق، في الأقاليم المستولى عليها من القرطاجيين، كانت الحضارة القريكو- شرقية (*Greco-orientale*) قد عمّقت تجذّرها في المنطقة، وازدادت انتشارا في أعقاب سقوط قرطاج: وخرجت إلى النور مدن منها باجة ودوقة على الخصوص، ولكن أيضا ثالة وقفصة اللتان لا يعود تأسيسهما إلى يوغرطة البتّة. في نوميديا الشرقية هذه نشأت قلاع محصّنة تضمّ خزائن الملك المملوءة بأموال الضرائب والرسوم، وانتعش تداول العملة واتسعت الفلاحة وكانت الثلاثون سنة من السلم تحت حكم ميكيبسا الأكثر إشراقاً أو على الأقلّ الأكثر نفعا للعائلة الملكية النوميدية.

على أنّ كلّ ما اختزنه رصيد ميكيبسا ينبغي طرحه من حساب ماسينيسا.

التقسيم

رغم التقدّم المعتبر الذي تحقّق خلال حكم ميكيبسا الطويل في الحياة الاقتصادية للمملكة أو في السلطة السياسية فإنّ وفاة الملك في 118 ق.م. فتح الباب على أزمة مماثلة لما وقع في أعقاب وفاة ماسينيسا وهو عدم وجود مؤسّسات قارّة، وغياب قوانين تنظيمية يكشف عن ضعف هذه المملكة التي لم تعرف بعد شروط الدولة قبل ماسينيسا وبعده.

مثلما أنّ ماسينيسا لم يحاول ترك كلّ السلطات لواحد من أبنائه، كذلك فعل ميكيبسا فعل فقد ترك المملكة لورثته الثلاثة، ولداه من صلبه أدربال ويامبسال وابن أخيه يوغرطة، الذي تبنّاه مفضّلا إياه على قاودة الذي كان ضعيفا في بدنه وفي عقله – ولكنه سيتولى الحكم منذ 105 على الأقلّ – وقد حاول سالوست شرح الأسباب التي أدّت

[724] أنظر أعلاه ، ص **211**.

بميكيـــبسا إلى تبنّي يوغرطة: أوّلا الخوف الذي توجّسه من هذا الرجل المغامر، ثمّ الرأي العامّ الإيجابي تجاه نجل ماسطانبال وخاصّة الصداقات التي عرف يوغرطة كيف يقيمها مع الشخصيات الرومانية عندما كان يحارب إلى جانبهم في إسبانيا، وقد سجّل سالوست ذلك في رسالة توصية التي حمّلها سيبيون الإيميلي إلى يوغرطة [725].

يُظْهِر تعيين قاودة كوريث ثانٍ [726]من قبل ميكيـــبسا أنّ الملك كان يرى أنّه أهل للحكم. ويبدو في واقع الحال أنّ ميكيـــبسا كان يريد نقل سلطاته إلى هيئة ثلاثية تبعا لما كان قد وقع من ذي قبْل في 148.

تفلت منّا أسباب هذا القرار بقدر اتخاذنا لما حدث في أعقاب وفاة ماسينيسا مرجعية، لأنّ التعليلات التي قدّمها سالوست ليست ذات قيمة، ولأنّ مكوسن كان يستطيع لو أراد التخلّص نهائيا من يوغرطة حتّى قبل إرساله إلى نومنتيا، وإذا كان قد تبنّاه بموافقة الرومان فلأنّه كان يرى أنّه أحسن صنعا، فقد كانت الكفاءات العسكرية لنجل ماسطانبال تحضّ الملك العجوز على توزيع المهامّ كما كانت موزَّعة بينه وبين شقيقيه، بحيث تكون قيادة الجيوش ليوغرطة مثل قولوسا أمّا الوظائف المدنية فتكون مناصفة بين آدربال ويامبسال.

لا شيء تمّت تسويته في واقع الحال،ولم يكن في ذهن ميكيـــبسا غير توزيع المَلَكية وليس المملكة،ويشيرسالوست بدقّة أنّه في الاجتماع الذي أعقب وفاةميكيـــبسا قرّر"الملوك" الثلاثة بعد الفشل في الاتفاق على توزيع السلطات،أن يتقاسموا كنوز ميكيـــبسا وأن يحدّدوا الاقليم الذي سيحكمه كلّ واحد منهم"[727]. إذن اعتُبِر اقتسام المملكة هو الحلّ الأسوأ.

بعد اغتيال يامبسال أصبح ورثة العرش اثنين وكان التقسيم الذي أجْرته روما تمليـــه طبيعة المملكة النوميدية ذاتها : فالبربرية الشرقية (المملكة الماسيلية التي توسّعت على حساب الإقليم القرطاجي) كانت من نصيب آدربال، وهي أكثر عمرانا وأكثر تطوّرا من جارتهـــا المقاطعة الرومانية، هذا الإقليم يلائم ابن ميكيبـــسا الذي ورث عنه طبع الهدوء الذي ميّـــز هذا الملك، أمّا نصيب يوغرطة فكان أوسع ولكنه ذو طابع ريفي في الأساس ، تشغله قبائل أكثر حركة، فهو يمتدّ على إقليم ماسيسيليا القديمة التي بعثت من جديـــد رغـــم سياســـة ميكيـــبسا الوحدوية، وقد احتفظت مملكة الشرق بسيرتا كعاصمة مع أنّ هذه المدينة كمـــا

(725) - Salluste, Bellum Jugurthinum, IX, 2.
(726) -Ibid. LXV, 1.
(727) - Ibid.. XII, 1.

كانت في عهد قايا تقع بجوار "الحدود"، أمّا عاصمة يوغرطة فغير معرفة؛ يمكن أن تكـــون سيقة أو يول وهما المدينتان الرئيسيتان في البربرية الوسطى في تلك الفترة.

لم تكن الحرب التي قادها يوغرطة موجّجهة ضد السيطرة الرومانية في أفريقيـــا، ولا كانت معارَضة للتصوّر الروماني لممالك تابعة بفكرة دولة نوميدية حرّة وقويّة، وكلّ ما كان يريده ببساطة هو استعادة الوحدة النوميدية ورأب الصدع الذي شـــقّ وحـــدة ماســـيليا وماسيسيليا والعودة بالمملكة كما كانت في عهد ماسينيسا،وهو ما جعل من يوغرطة الرجل الجدير بأن يكون وريث ماسينيسا. غير أنّ الظروف وضعته في ذات الطريق التي وضـــعت فيها سيفاكس من قبله، وهي طريق صراع متواصل بين طرفي نوميديا عبر الأجيـــال، ومـــا الحكام الذين تعاقبوا سوى منفّذي أدوار لا مفرّ لهم منها، جعلت منهم أخوة أعداء.

كان من نتائج هزيمة يوغرطة انشطار المملكة النوميدية نهائيا و لم تبق كما صاغها تباعا سيفاكس وماسينيسا، وقد تمكّن ملك المور من ضمّ كلّ الإقليم الذي يشكّل ماسيسيليا القديمة بعد تدخّله إلى جانب يوغرطة ثم الغدر به، لكن هذا الإقليم الذي أصبح في حوزة بوكوس غير معروف جيّدا،والمعروف أنّ يوغرطة وهو في ظروف حرجة للغاية؛ لكي يضمن تحالفه معه وعده سنة 106 بثلث نوميديا (*Numidiae partem tertiam*) [728]، ويرى اسطيفان اقزال أنّ بوكوس تلقّى الإقليم الممتدّ على الأقلّ إلى الشلف، ولكن لا يصل إلى الأمبساقا، أنّ استكمال ضمّ هذا الإقليم والوصول بالحدود إلى أطراف هذا النهر سيكون على يد بوكوس الصغير سنة 46 بعد تقسيم مملكة ماستينيسا (Mastanesosus أو Mastanizen)[729].

نتقاسم مع اسطيفان اقزال رأيه في أنّ المنطقة المتخلّى عنها للمـــور هـــي ماسيـــسيليا الأصلية، وهي منطقة أقصى الغرب من البربرية الوسطى كما مرّ معنا في فصل ســـابق[730]، والمحدودة جهة الشرق بوادي مينا والمجرى الأدنى للشلف.

ما بقي من المملكة النوميدية لم يفلح في الاحتفـــاظ بوحدتـــه، ولا نعـــرف في أيّ الظروف تمّت تقسيمات جديدة ولكن منذ وفاة قاودة قبلر العام 88 بقليل [731]، يلاحَـــظ وجود مملكتين الأولى في الجزائر الوسطى وهي مملكة ماستينيزن والأخرى شرقي سيرتا وهي مملكة يامبسال الثاني التي ورثها عنه ابنه يوبا الأول.

---

(728) - Ibid. XCVII, 2.

(729) - Gsell (S.), HAAN., VII, p. 264. ؛ وعن ضبط تهجئة الاسم ماستينيزن أنظر أعلاه ، رقم **611**.

(730) أنظر أعلاه ، ص **110**.

(731) عندما التجأ ماريوس إلى أفريقيا سنة **88** كان يامبسال قد خلف والده على العرش.

هكذا من 148 على 46 ق.م. أي من وفاة ماسينيسا إلى وفاة يوبا الأول بدت الوحدة النوميدية كحادث عرضي، وكأنّ الحالة المعتادة هي اقتسام السلطة أولا ثمّ البلاد لاحقا، لكن عبارة المملكة النوميدية (*Regnum Numidiae*) ظلّت حيّة ونجت من تلك التقسيمات ؛ وقد ظلّت محاولات الزعماء السياسيين: ملوكا أو مجرّد مغامرين تترى دوريا بما لديهم من وسائل لإعادة تكوين المملكة من جديد مثلما كان ماسينيسا قد فعل ها هو يارباس في 82 ينجح في طرد ماستينيزن ويامبسال ويعيد تكوين مملكة قاودة لعدّة أشهر، ولكن يوغرطة الجديد هذا لم يصمد أمام فيالق بومبيوس ووحدات بوكوس.

هذا التقسيم المستمرّ الذي يميّز تاريخ السلالة الماسيلية تقابله محاولات إعادة توحيد المملكة، بذكّرنا بغرابة بفوضى السلالة الميروفنجية التي عانت من ذات الضعف المتأصّل.

لم يكن التقسيم المتتالي للمملكة النوميدية يثير قلق الجمهورية الرومانية؛ وقد يذهب التفكير إلى أنّ مجلس الشيوخ والمحافظين الذين يجوبون أفريقيا غضّوا الطرف عن سبب الضعف هذا عند جيرانهم على أمل تحويله ذات يوم إلى احتراب شرس، ثمّ ألا تكون روما هي المحرّض على التقسيم ؟ لا أرى ذلك، لأنّ تدخّلها العام 148 لم يكن واضحا و لم تملِه انعكاسات عابرة يمكن تصوّرها.

يبدو أنّ هناك أسباب أخرى داخلية في المملكة، لعبت هي الأخرى دورها، ففي 118 بعد وفاة ميكيبسا ليس هناك أيّ تدخّل روماني ظاهر قبل اغتيال يامبسال وهزيمة آدربال [732]، فهل كان الخطاب الذليل لهذا الأخير أمام مجلس الشيوخ سببا لاتخاذ قرار إرسال عشرة محافظين مكلّفين بتقسيم المملكة. مع أنّ التقسيم الإقليمي لم يكن مبادرةً رومانية : فالأمراء ذاتهم هم الذين قرّروه بعد وفاة ميكيبسا.

في واقع الحال تبدو هذه التقسيمات عادية في عين الأفارقة وكذا الرومان؛ وكما هو الحال في أعقاب وفاة بوكوس الأول ليس مجلس الشيوخ هو الذي قسّم المملكة بين بوكوس الصغير وبوقود، وعندما قتل هذا الأخير بأمر من أقريبا (*Agrippa*) لا أحد اعترض على إعادة توحيد المملكة الموريتانية لصالح بوكوس وحده، والمثال يتكرّر، كما كان الحال قبل

---

(732) **كتب شارل أندري جوليان دون دليل : "ولكن الأخوة الثلاث لم يحصل بينهم اتّفاق على اقتسام السلطة وكان النزاع فرصة لمندوب روما ؟ لإضعاف المملكة النوميدية بتقسيمها وبذلك حقّقت سياسة مجلس الشيوخ (الروماني) هدفها"**
– Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie-Algérie-Maroc, Des origines à la conquête arabe, p. 113
ونحن من جهتنا نسأل غابريال كامبس المعترض على استنتاج اندري جوليان أين دلائلك أنت التي تفنّد بها رأي جوليان.

قرن، ليس هناك أيّ تدخّل روماني في شأن وحدة السلطة الملكية في شخص ميكيبسا أثناء وفاة ماسطانبال وقولوسا. ومن المحتمل في الأخير أن تتقبّل روما أن يصبح يوغرطة الملك الوحيد على نوميديا، وكذا التغاضي عن خطأ سياسي –احتمالا– لا يد له فيه، لولا مجزرة الرعايا الرومان بسيرتا .

هكذا لم تتردّد روما في الاستفادة من أوضاع ليست مسؤولة عنها، وينبغي البحث في المملكة النوميدية ذاتها عن الأسباب المحدّدة لهذه السياسة الضارّة المتوارثة، فهذه التقسيمات المتكررة سببها عدم وجود مؤسّسة حقيقية، وما هو موجود هو مجرّد تقاليد محلّية بسيطة نلاحظها على مستوى القبيلة، ولم يكن في إمكان قبيلة الماسيل تحويل تلك التقاليد إلى مؤسّسات دولة، ذلك أنّ المقاطعات المجمّعة بحقّ الفتح مثلا ظلّت ملْكية عائلية يمتلكها الورثة كما هو الحال عند البدائيين، فماسينيسا أنشأ مملكة شاسعة ولكنّه لم يؤسّس أيّ دولة.

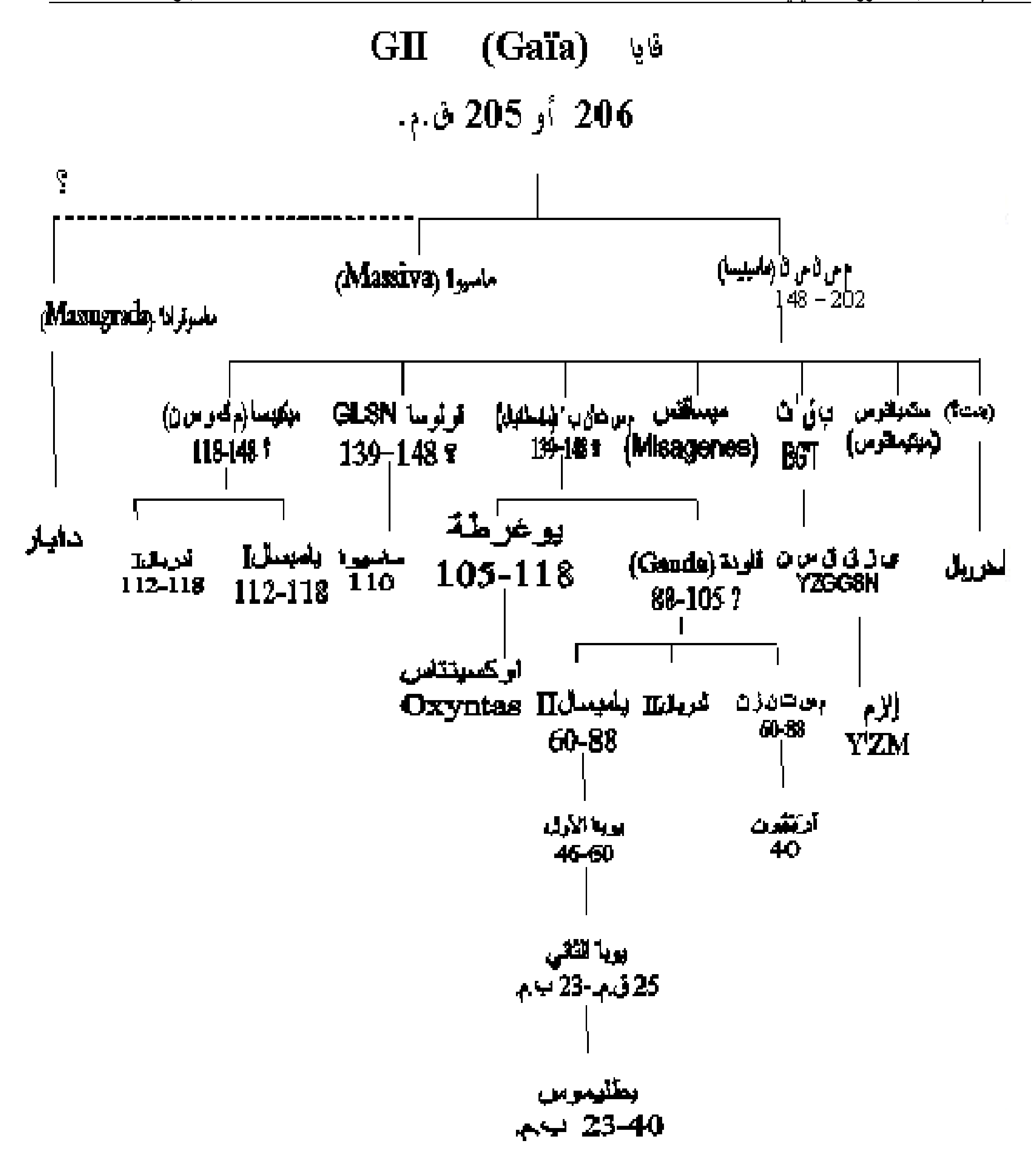
يبدو أنّ مؤسّس المملكة النوميدية فشل في مهمّته: مع أنّ بعض المعلومات المحفوظة عن هذه المملكة في واقع الحال جعلت اسطيفان اقزال يقرّ بوجود قاعدة لوراثة العرش قبل ماسينيسا –نلاحظ العمل بها في أعقاب وفاة قايا ثمّ أوزالس– تعطي السلطة للأكبر سنّا بين الذكور، ونادرا ما يكون ابن الحاكم[733]، ورغم عيوب هذا المبدأ فإنّ ميزته تكمن في بساطته نسبيا، والمهمّ هنا هو وجود مبدأ، لكن قاعدة وراثة العرش هذه لم تكن محلّ تطبيق إلاّ منذ ماسينيسا في حين أنّ طول فترة حكم هذا الملك جعل الكبار من الذكور الذين لا ينتمون إلى عقبه مباشرة يتوفّون فأصبح ميكيبسا الوريث الوحيد، وعند وفاة هذا الأخير اختفى هذا المبدأ الذي أقرّه الأسلاف، ويبدو أنّ ماسينيسا هو من ألغى القاعدة الوحيدة التي يمكن أن تضمن – رغم اختلالاتها– ديمومة المملكة.

توجد صيغة قانونية أخرى تسمح بحلّ مسألة وراثة العرش الحساسة هذه، وهي إشراك وريث افتراضي في السلطة، فقد استعمل الأباطرة الرومان مرارا هذا الأسلوب، ومثلهم فعل الكابيتيون لضمان استمرار سلالتهم في الحكم، ولعلّ ما فعله سيفاكس في ماسيسيليا هو تدشين لهذا الأسلوب لصالح ابنه ورمينا[734].

---

[733] أنظر أعلاه ، ص **184**.

[734] أنظر أعلاه، ص **180**.



إذا استبعدنا قاعدة : **المملكة ملْكية عائلة** (*Tanistry*) دون تعويضها بقاعدة حكْم أخرى قارّة، فإنّ ماسينيسا يكون قد سلّم المملكة لطموحات عشوائية وإلى تقديرات روما، ومنذ 148 ستغرق نوميديا في الفوضى لو لم يحاول ورثة عرشها - ميكيبسا على الخصوص- إقامة بعض الأسس التنظيمية في الإدارة أكثر ديمومة عوض سياسة التوسّعات.

الاسم	التهجئة ، المصدر والمرجع
GII	(قايا) ضبط تهجئة الاسم مأخوذ من نصّ دوقّة المزدوج *(Rec, des Inscriptions libyques , n° 2)* ، ويسمّيه تيت-ليف: قالا *Gala* ، *XXIV, 48-13 -*
MSNSN	(ماسينيسا) ، أنظر أعلاه ص ص
Massiva	(ماسيوا) ابن أخ ماسينيسا، حفيد قايا : *Tite-Live, XXVII, 19, 9. -*
MKWSN	(ميكيـــبسا) ، *GLSN* (قولوسا) ، *MST'NB'* (ماسطانبال)، ضبط التهجئة مأخوذ من النصب رقم 63 من موقع الحفرة.
Misagenes	(ميساقنس):*Tite-Live, XIII,2935, et 62,;* ويسمّيه فالير ماكسيم موسوكانس *(Musochanes)* *- Valère – Maxime, V, 1, I, d*
Masgaba	(ماس قابا) *-Tite-Live, XLV, 13 et 14*
BG'T	(بوقود) مأخوذ من نصّ ميكيـــبسا الأثري بشرشال.
Stembanos	(ستمبانوس) مأخوذ من : *-Polybe, XXXVI, 16,5; - Appien, 106.; -Pline l'Ancien VII, 61* ويسميه بلينوس الكبير ميتيمانوس *(Metymannus)*
Asdrubal	(أسدروبال) حفيد ماسينيسا من ابنته التي تزوّجت بقرطاجي.*Appien, 118 -*
Massiva	(ماسيوا) : نجل قولوسا اغتيل في روما بأمر من يوغرطة، *- Salluste, Bellum Jugurthinum, XXXV.*
Massugrada	(ماسوقرادا) من العائلة الماسينيسية *(gente Massinissae)* *–Salluste, ibid. CVIII.*
Adherbal II	آدربال الثاني ابن قاودة حسب كورنيليوس نيبوس: *- Cornelius Nepos, De Viris illustribus, 66.*
MSTNZN	**م س ت ن ز ن**:هوالملك الذي يسمّيه شيشرون ماستانيسوسوس *(Mastanesosus)* *In Vatinium, 5, 12.* ؛ ويسمّيه كورنيليوس نيبوس ماسينيسا *- Cornelius Nepos, De Viris illustribus, 77.* وهو احتمالا حفيد قاودة وأخ يامبسال الثاني ؟
Oxyntas	(اوكسينتاس) نجل يوغرطة: *– Appien, Guerre civile, I, 42.*



ب ـ المملكة النوميدية وتناقضاتها

القوى التقليدية

إذا كانت المملكة النوميدية قد تمكّنت من الاستمرار أكثر من قرن رغم الحروب والتقسيمات فإنّ ذلك يعود إلى أنّها تمتلك قوى داخلية نرى أنّها ذات أهمّية منذ فترة ماسينيسا، هذه القوى بعضها تقليدي نوميدي صرف، وبعضها أحدث وذو أصول بونية، وإذا كانت كلّ هذه العناصر قد لعبت دورا لصالح المملكة، فإنّ ذلك لا يعني أن بعضها لم يكن محلّ ردود أفعال البعض الآخر، بل تتعارض في كثير من الأحيان ذلك أنّ القوات التي في خدمة الملوك النوميد لم تكن في واقع الأمر عناصر متماسكة حقيقةً وكان يتعيّن على هؤلاء الحكام أن يستعملوها بكثير من المرونة لتفادي الصدامات الضارّة بوحدة المملكة.

كانت القبلية لدى الشعب النوميدي كما هي لدى المور والجيتول الوحدة السياسية الأساسية، فوق العائلة وحدة طبيعية، وقسم كبير من تاريخ الشمال الأفريقي منذ أزمنة بعيدة ما قبل سيفاكس إلى الأحداث القريبة جدّا هو تاريخ قبائل، تأخذ إحداها في كلّ مرّة زمام الأمور يس لمصلحتها الشخصية بقدر ما هي لضمان انتصار قضية ليست مقتصرة عليها بالضرورة، كذلك الحال بالنسبة لسيفاكس وشعبه الماسيسيلي الذي انحاز كطرف إلى جانب القرطاجيين وبذات البساطة سيكون ماسينيسا هو الآخر بطل قضية رومانية؛ وتكرّر الوضع خلال القرون الوسطى فهذه قبيلة زناتة تحارب تحت لواء المذهب الخارجي في حين أمّنت كتامة النصر للمذهب الشيعي، أمّا صنهاجة الصحراء ففتحت المغرب الأقصى وإسبانيا باسم أصالة الإسلام ووحدته، ثمّ جاء دور مصمودة الأطلس التي بسطت سيطرتها بفرض الإصلاح الموحّدي.

من المؤكّد أنّه ليست القبيلة بل الكنفدرالية الحربية التي تضمّ قبائل من نفس النسب هي المدعوة للقيام بالدور الرئيسي في تاريخ بلاد البربر، وفي القرن الثالث كان الماسيل قد كوّنوا شعبا؛ وامتدّ اسم القبيلة التي تنتمي إليها العائلة الحاكمة ليشمل كلّ المملكة، وذات الظاهرة وقعت عند الماسيسيل والمور. هذه القبائل لا تختفي بل تستمرّ حيّة في الممالك، وهذه القبائل (*gentes*) التي استمرّت عبر تاريخ أفريقيا الرومانية ستكون مدعوّة في كل مرّة

للعب دور الموحّد خلال الفترة الوندالية والبيزنطية، وسنرى خلال تلك الفترات إنشاءً ملفتاً للنظر لممالك "مورية" تحمل سمات عديدة من مملكة ماسينيسا، وفي هذا السياق كتب كريستيان كورتوا: " قد يثير استرجاع مشاهد تاريخية متعلقة بشخص ماسونا (*Masuna*) أو يابداس (*Iabdas*) بعض القلق، إنْ فاجأنا بالقول أنّهما يحملان بعض الشبه من ماسينيسا أو يوغرطة، لأنّهما أعادا اختراع نفس الدور ونفس الطرق دفعة واحدة، ذلك أنّ تكوين الدول البربرية خلال القرنين الخامس والسادس لم يكن بفعل حركة تمرّد، بل كان نوعا من الإعلان عن الذات أو تعبيرا عن جذوة الحياة التي لم يستطع الزمن إطفاءها "[735].

نظهر حيوية القبائل خلال الفترة النوميدية في الدور السياسي الذي يحاول الأمير المحلّي أن يلعبه وقد رأينا المصاعب التي واجهت ماسينيسا مع زعماء القبائل، هؤلاء المقدّمون (*princepii*) الذين يريدون أن يكونوا شركاء لا رعايا، فلكل واحد قوّة مادّية هي رجال القبيلة المسلَّحون وأخرى معنوية هي مساندة القبيلة. وفي هذه الحال لا يستطيع الملك فرض "قايد" من اختياره. ينبغي أن تكون القبيلة هي التي تقبله، وفي نهاية المطاف تكون مساندة المملكة قائمة على مرونة الحاكم طالما أن الجيش ما هو إلاّ وحدات مقدَّمة من القبائل، ولذلك رأينا على سبيل المثال زعيما نوميديا هو بيثياس (Bithyas) يخرج عن جيش غولوسا 147 ق.م. وينضمّ إلى قرطاج ومعه 800 فارس من قبيلته [736].

يمكن التفكير من خلال المعلومات المتعلّقة بنهاية القرن الثالث على الخصوص، في أنّ بعض زعماء القبائل مثل **ماس ايتول**، ينتمون إلى العائلة المالكة كنوع من أمراء إقطاع (*Apanagiste*)، وبعضهم الآخر من أبناء القبائل ذاتها، وليس لدينا أيّ دليل على وجود زعماء يعيّنهم الملك لشغل وظائف "قايد" سواء في عهد ماسينيسا أو في الفترات اللاحقة، وإذا كانت هناك تعيينات فهي في فترة متأخّرة، وإن كان في عهد يوغرطة، شخصيات مهمّة مثل بوملكار ونبدالسا فإنّهم لم يكونوا سوى حاشية للملك أو قادته العسكريين [737].

قبائل الشرق

المملكة النوميدية إذن هي في الأساس مجموعة قبائل كبرى أو كنفدراليات مضطربة أحيانا وموالية أحيانا أخرى، وهذه القبائل نعرفها على الخصوص وبكلّ بساطة بالاسم، من

---

(735) - Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, Paris 1955, p. 351.
(736) - Gsell (S.), HAAN, III, p. 369.
(737) - Salluste, Bellum Jugurthinum, LXII, et LXX.

خلال وثائق تعود إلى فترات سابقة للملكة النوميدية أو لفترات ما بعدها، أمّا المعلومات المقتطفة من روايات تعود إلى القرنين الرابع والثالث فهي روايات تفتقر إلى الدقّة ولذلك لا يمكن أن نعوّل عليها كثيرا[738] ، وهي متعلّقة جميعا بالقسم الشرقي من المملكة.

المعروف أنّ المزارعين الليبيين الذين يسميهم هيرودوت الماكسي والزاوَك (*Maxyes et Zauèkes*) كانوا يسكنون منطقة الإمبوريا التي استولى عليها ماسينيسا، واحتمالا كانت جهات الجبال الظهرية التونسية في عهد أقاثوكل آهلة بقبائل الزوفون (*Zuphônes*) [739]، أمّا الأرياسيد الذين حاربوا في صفوف جيش هانيبال ضدّ ماسينيسا فكانوا يسكنون احتمالا ذات المنطقة [740]، وفي ذات الوقت هناك قبيلة أخرى يبدو أنّها كان مستقلّة إلى حدّ ما، قدّمت للرومان 600 فارس يقودهم شخص اسمه داكاماس (*Dacamas*). وباعتبار أنّه هو الآخر دخل في علاقات مباشرة مع سيبيون فالمحتمل أنه كان حاكما على منطقة ما في شمال تونس، قد تكون منطقة الأسفوديلود (*Asphodelodes*)[741]، الذين تحدّث عنهم ديودور، وهذا أبيانوس يحدّثنا عن زعيم نوميدي آخر اسمه ماساثيس (*Massatès*) انضوى تحت لواء هانيبال في معركة زاما، وكان مقتله على يد ماسينيسا [742]. وفي الأخير نرى من المعقول أن يكون كلّ قادة الحرب هؤلاء أمراء محلّيين ساقوا أبناء قبائلهم (*Contribules*) إلى المعركة. لأنّه من غير الممكن جعْل أسماء هؤلاء الزعماء النوميد إلى جانب أسماء القبائل المعروفة ضمن زعماء وقبائل القسم الغربي والأوسط من تونس خلال القرنين الرابع والثالث: الأرياسيد، الميكاتان والزوفون. ففي معركة زاما انحاز أربعة زعماء نوميد: توخايوس، ماساثيس، ماس ايتول وداكاماس، وبعيدا في الجنوب إلى قورين كان ينتجع الجيتول الذين كان اعترافهم بسلطة ملك الماسيل اسميا لا غير.

الوثائق التي عرّفتنا بالقبائل الواقعة في الغرب هي وثائق أحدث، وأغلبها يعود إلى ما بعد المملكة النوميدية، ولا نضع في الحسبان إلا التي لها صلة بالمجموعات التي يحتمل وجودها خلال العهد الملكي شمالي نوميديا على امتداد الساحل إلى طبرقة، فقد ذكر بطليموس قبيلة باسم يونتي (*Iontii*)[743]، وهناك إشارتان عن قدم هذه القبلية التي لم يذكرها أيّ من

[738] -Cf. Tableau, supra, p. 53.
[739] - Diodore de Sicile, XX, 38, 2.
[740] - Appien, Lib. 36.
[741] - Ibid. 41.
[742] - Ibid. 46.
[743] Ptolémée, V, 3, 6.

المؤرّخين وردتا في هيكاتوس وديودور الصقلي، فأمّا هيكاتوس فقد ذكر مدينة باسم كوبوس (*Cubos*) في الشمال الشرقي للجزائر ولشمال الغربي لتونس ما بين بترزت وعنابة، يمكن أن تكون مدينة لهؤلاء "اليونيين *Ioniens*" [744]، وأشار ديودور في ذات المنطقة إلى مدينة باسم مسخيلة (*Meschela*) أسّسها الإغريق[745]، وليس من المستبعد أن يكون تشابه اسم اليونتيين(*Iontii*) واسم اليونيين(*Ionien*)دليلا على وقوع خطأ من بعض نسّاخ هيكاتوس، ويكون ديودور قد صحّح هذا الخطأ بطريقة أو بأخرى، وكنا قد أشرنا عديد المرّات إلى ما لاحظناه من تساهل القدامى في دمج الأسماء المتشابهة بعضها ببعض : مثل نوميد ونوماد، بيرورس وفرْس، ماديس وميد[746]، وإلى هذه القائمة يمكن إضافة يونتيين ويونيين، على أنّ هذه الفرضية لا يمكنها تأكيد أنّ اليونتيين كانوا يشغلون شمالي نوميديا منذ عصر هيكاتوس (القرن الخامس ق.م.) وربّما لا يخرج هذا عن نطاق الحدس والتخمين.

ميسيكير

في منطقة الشِّيفْية و عين كرمة (Munier) الغابية، كانت لا تزال توجد في الفترة الرومانية قبيلة أو بالأحرى كنفدرالية قبائل يبدو أنّها لم تلعب أيّ دور تاريخي هامّ، وحتّى وجودها ذاته كان محلّ نقاش من طرف اسطيفان اقزال [747]، مع أن الدلائل لا تنقصه، فهؤلاء الميسيكير وليس الميسيكتر (*Misikiri non Misiktri*) ذكروا في ثلاثة نصوص أثرية [748]، وفي 62 نصّا أثريا ليبيّا، وكان شابو قد اقترح منذ 1916 أنّ اسم ميسيكير في الكتابة اللاتينية هو ذاته "**م س ك ر هـ** MSKRH" كما قُرئ في أغلب النقوش الجنائزية النوميدية التي جمعت من ذات المكان" [749]، وقد قرأ اسطيفان اقزال الكلمة هكذا *Misctri* في النصّ الأثري رقم 138 في مدوّنته عن النقوش اللاتينية للجزائر(ج1) ثمّ صحّحها هكذا *Misictri* في الرقم 156 وأتمّها بذات الصيغة في الرقم 174 . أمّا عن مجموعة الحروف *MSKRH* فلم يفكّر في أنّه يمكن مقاربته باسم هذه القبيلة واقترح أن يكون الاسم صيغة "جنائزية ؟" في حين أنّ النصّ الأثري رقم 138 يمثّل أردأ كتابة بحيث أن حرفي ***I*** و ***T*** يسهل الخلط بينهما كما هو واضح في صورة النصّ كما سجّله شابو في مدوّنة النقوش الليبية ولذلك فإنّ اسم والد المتوفّى الذي قرئ عموما هكذا : *COTVZA/NIS* ، قرئ في النص المنسوخ هكذا:

---

(744) - Müller, Frag, histor, graec, I, pp. 13-25.

(745) - Diodore, XX, 57.

(746) **عن هذه الأصول الأسطورية أنظر أعلاه ص ص 31–36–153.**

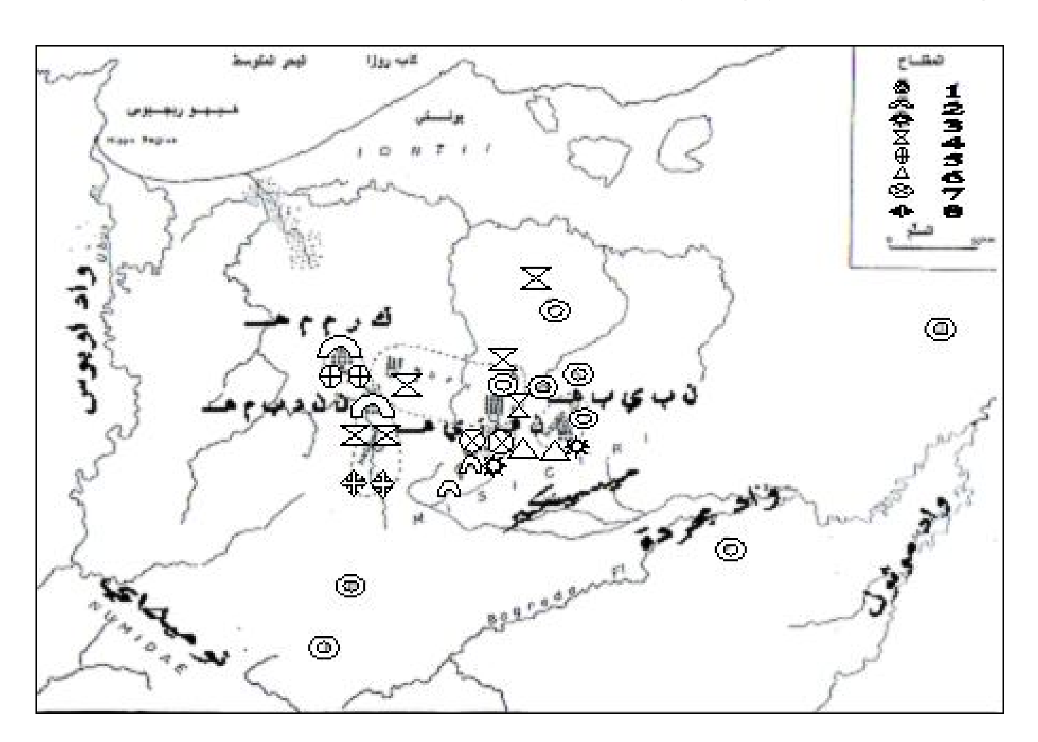
(747) - Gsell (S.), Inscr. Lat. de l'Alg. (I.L.A.) t, I, n° 138.

748 - CIL, VIII, 5211, 5217, 5218, I.L.A., t, I, n° 156, 138, 174. **والنصوص الأثرية** I.L.Alg., I, 156, 138 – **هي نصوص مزدوجة ومنشورة في مدوّنة النقوش الليبية تحت رقمي 252 و 145.**

(749) - Chabot (J.B.), Sur deux inscriptions puniques et une inscription latine d'Algérie C.R.A.I.B.L., 1916, pp. 342-250 (p. 250).

COIVZA/NIS ولذلك فإنّ وجود حرف ***T*** في *MISICTRI* غير أكيد، وبالمقابل يتبيّن من النصّ الأثري اللاتيني رقم 156 الذي نشر شابو صورته في مدوّنة النقوش الليبية تحت رقم 252 دون أدنى شكّ أنّ اسم القبيلة هو بالتأكيد ميسيكيري *Misikiri* [(750)].

إذا عدنا الآن إلى تفحّص النقوش الليبية التي أعطت الاسم **م س ك ر هـ** *MSKRH* فمن اليسير الإقرار بأنّ هذه الكلمة ليس لها المدلول الدقيق لصيغة ولا تفيد في تسمية وظيفة، ولكن قد يكون لها مدلول جغرافي، فالاثنان وستون نقشاً [(751)]، التي تبرز مجموعة الحروف هذه وُجِدت كلّها منطقة الشيفية أو بجوارها وبدقّة أكثر في المنطقة ما بين عين كرمة والحدود التونسية، وفي ما يلي خريطة توضّح موقع العثور على هذه النقوش بناء على ما جاء في أطلس الجزائر الأثري (ش 26).



ش 26- كنفدرالية ميسيكير حسب النقوش الليبية

1- نقوش ذكرت اسم ميسيكير. 2- مقبرة استخرجت منها خمسة نقوش ذكر فيها اسم ميسيكير. 3- مقبرة استخرجت منها أكثر من 10 نقوش ذكر فيها اسم **ميسيكير**.4- نقوش ذكرت الـ **ن س ف هـ**NSFH. 5- نقوش ذكرت الـ **ص ر م م هـ** CRMMH. 6- نقوش ذكرت الـ **ن ن ب ي ب هـ**. 7- نقوش ذكرت الـ **ن ف ز ي هـ** NFZIH . 8- نقوش ذكـرت الـ **ن ن د ر م هـ** NNDRMH.

(750) **هذا النصّ الأثري يمكن قراءته** Chinidal / Misicit (i?) filius/ tribu misi/ ciri vix(it) annis xxx **والنص الليبي :** **ك ن د ي ل و م س ق ت ن س ف هـ** KNDL U MSGT NSFH **وقد كانت القراءة في مدونة اقزال هكذا** Chinidal Misicir (i) f(ilius) etc. **وهي خاطئة .**

(751) **في فهارس مدونة النقوش الليبية (ص XV) قال أنّ النص رقم 738 (جيملة) يمثل أيضا هذه الكلمة : وهي غير واضحة في الصورة المستنسخة حسب بربروجر، فحذفناها من قائمتنا.**

الموقع في أطلس الجزائر الأثري	المقابر	عدد النقوش
Feuille n° X, 79	كاف مسلان	13
Feuille n° X, 42	قنتورة	11
Feuille n° X, 43	هنشير سودة	6
Feuille n° X, 43 et 34	سراية	6
Feuille n° X, 26	هنشير المرمري	6
Feuille n° X, 68	رمل توامي	3
Feuille n° X, 94	فج ردفة	2
Feuille n° X, 50	عين قصبة	1
Feuille n° X, 1Km N. de 42	هنشير لسلام	1
Feuille n° X, 81	كاف خشين	1
Feuille n° X, 2 Km SW de 73	مشتى درادر	1
Feuille n° X, 39	شعاب المقرون	1
Feuille n° X, 2Km, N. de 37	مشتى مرادية اللوطانية	1
Feuille n° X, entre 77et 80	مشتى جناين	1
Feuille n° X, 8 Km de Ghardimaou	هنشير القصب	1
Feuille n° X, 10 Km E. de Fernana	داموس بوحجار	1
Feuille n° X, 242	كاف بني فرج	5
Feuille n° XVIII, 352	حمام اولاد زايد	1
نقوش لا تينية في ذات الموقع		
Feuille n° IX, 242 [752]	كاف بني فرج	2
Feuille n° X, 24	عين الحفرة	1

(752) النصّ المزدوج رقم **174** في I.L.Alg. مأخوذ حسب فيدارب من كاف بني فرج، ويعيده اسطيفان اقزال إلى نسخة كان قد أرسلها فيدارب إلى رونيي ويرى أنّه وجد في كاف شاب في جهة لاكروا ورمل السوق.

هذه المقابلة ما بين النقوش اللاتينية والليبية يمكن أن تحسم الجدل الدائر حول المدلول الليبي للكلمة **م س ك ر هـ** *MSKRH* [753]، فقد كانت كنفدرالية ميسيكير تشغل المرتفعات الجبلية الغابية المحدودة بالمجردة جنوبا والوادي الكبير وسهل الطارف شمالا، ومنخفض واد ناموسة غربا، وإلى الشرق يمتدّ إقليم الميسيكير احتمالا إلى ناحية فرنانة (نقش داموس بوحجار) ولكن ما تمّ جمعه من النقوش الليبية شرقي الحدود قليل جدّا.

الإقليم الذي شغله الميسيكير إذن شاسع حتّى لو انتزعنا منه القسم الواقع حاليا في تونس،وهذا الاتساع يجعلنا نرى أنّ هذا الاسم استخدم ليكون اسما لكنفدرالية وليس لقبيلة. وفي واقع الحال تمكّننا النقوش الليبية من التعرّف— داخل إقليم الميسيكير (**م س ك ر هـ** *MSKRH*) على جماعة تحمل اسم **ن ب ي ب هـ** *NBIBH* (ناباب؟ *Nababes*) يسكنون منطقة مشتى جناين [754]، وفي الطرف الآخر من الإقليم في كاف بني فرج بجوار توليوم أو ثوليو (*Thullium ou Thullio*) القديمة يسكن الـــ **ص ر م م هـ** *çRMMH* الذين يعتبرون من الميسيكير أيضا [755]، وإلى الجنوب قليلا في واد بياضة (المجرى الأعلى لواد الكبير) يعيش الـــ **ن ن د ر م هـ** *NNDRMH* [756]،كما يشغل الـــ **ن س ف هـ** *NSFH* أقاليم أوسع حيث نجدهم في عين الحفرة(10 نقوش) وبجوار عين كرمة(18 نقشا)[757]،أمّا إقليم الـــ **ن ف ز ي هـ** *NFZIH* فهو محدود للغاية ويقع بجوار عين كرمة من الجهة الجنوبية في عين كرمات سمين[758]، كما تتيح لنا النقوش الليبية التعرّف على خمس عشائر أو قبائل في إقليم كنفدرالية الميسيكير، ويبدو أنّ الإقليم الأصلي لهؤلاء الميسيكير الذين منحوا اسمهم للكنفدرالية هو سفوح جبل أمّ الديس من كاف مسلان (13 نقشا) إلى واد قنتورة (23 نقشا) ومن الغريب أنّ هذا الإقليم يشرف على كلّ المنطقة التي انتشروا فيها بالتدريج وعلى الخصوص باتجاه ثوليوم(5 نقوش).

---

(753) وجود حرف H في آخر هذه الكلمة يسهم في دعم فرضية فيفري، التي يقترح فيها أنّ الكلمات الليبية المنتهية بهـــذا الحـــرف تدلّ إمّا على انتماء إلى وظيفة أو على انتماء إثني، أنظر أعلاه رقم 469 .

(754) ورد هذا الاسم في 11 نصّا أثريا وقد وجدت هذه النصوص كلها في إقليم الميسيكير : 8 من مشتى جناين، (f, X entre 77 et 80) ومن الضواحي (كاف مسلان، شعبة طويلة) و 1 من صرايا، و 1 من هنشير المرمري، و1 من كاف بني فرج.

ومن المحتمل أنّ حرف N في أول هذا الاسم والأسماء التي تليه (NNDRMH, NSFH, NFZIH) هو حرف الجـــرّ في الأمازيغية ن الذي يفيد الانتماء إلى الأصل ، أنظر: Rec, Inscrip, lib, p. XX .

(755) كل النقوش التي ورد فيها الاسم CRMMH من كاف بني فرج، واحد من كاف مسلان، (في إقليم كنفدرالية الميسيكير وفيه إشارة إلى CRMH في كاف بني فرج : النص رقم RIL n° 145 مزدوج وفي النصّ اللاتيني اسم قبيلة الميـــسيكير (RIL, n° 146) كما ورد في ذات النصّ اسمان MSKRH et CRMMH وينبغي وضعهما في علاقة مع نقش لاتيني من منطقة ثيفـــست الذي ذكر كنفدرالية الموسولام وقبيلة قوبول الـــتي تـــشكّل قـــسما منـــها (B.A.C., 1817 p. 330) أنظـــر : Bavares Mesgnenses في CIL VIII, 21486 et B.A.C. 1920, p. CV

(756) النقوش التي تتضمّن الكلمة NNDRMH عثر عليها في منخفض رافد واد مكوس باستثناء واحد جيء به من مكثر (تونس).

(757) نقش آخر ذكر الـــ NSFH في إقليم الميسيكير عثر عليه على بعد 4 كلم جنوبي الطارف.

(758) عثر على 12 نقشا في هذا المكان وعلى اثنين آخرين أشارا إلى اسم NFSH غربا جهة قالمة (RIL, 702 et 706) .

نوميدة

إلى الجنوب من الميسيكير في تلك المنطقة الشبيهة بخزان الماء حيث تجري أودية المجردة وملاّق وسيبوس وواد الشارف، كانت تعيش القبيلة الكبرى: نوميدة (*gens numidarum*) في عهد الإمبراطورية الرومانية، وكانت هذه القبيلة متمركزة في أعالي المجردة في ضواحي تبرسق النوميدية (*Tubursicu Numidarum*) [759]، وقد أشار نصّ أثري إلى موظّف يشغل منصب برايفكتوس قبيلة نوميدة (*Praefectus gentis Numidarum*) وكان قبلها منبريا (*Tribun*) وهذا أواخر حكم نيرون.

لاحظ اسطيفان اقزال أنّ هذه القبيلة في القرنين الثاني والثالث لم تبق ذات أهمّيّة بالقدر الذي يجعلها تحت سلطة ضابط روماني، ويمكن إذن الافتراض أنّها (أي قبيلة نوميدة) في عهد نيرون كانت لا تزال قبيلة كبيرة لكن وقع تشتيتها وتوزيع إقليمها ولم يبق منها سوى فرقة في أعالي المجردة تكون قد احتفظت بوجودها إداريا[760]، وهذه الفرقة احتمالا هي المذكورة في النقوش الليبية التي عثر عليها جهات سوق اهراس، بوشقوف وقلعة بوصبع – باسم **ن ق ر هـ** *NGRH* (**ن ق ر ي** *NGRY* بالبوني)– ويبدو أنّها كانت آنئذ تشكّل جزءاً من هذه الكنفدرالية [761].

الموسولام

بعيدا إلى الجنوب يبدأ إقليم الموسولام الشاسع وقد أصبحت هذه الكنفدرالية ذات شهرة بفضل ثورة تاكفارين، كان تشكّلها سابقا لتيبريوس، ونجزم أنّها كانت موجودة في عهد الملوك، مع أنّ اسمها لم يرد في سالوست (الذي تحدّث فقط عن النوميد والجيتول والمور ولم يذكر القبائل البتّة) ولكن أحداث عديدة من حرب يوغرطة جرت في إقليمها، ولدى هؤلاء الموسولان وجد يوغرطة أوفى الأوفياء وكانت مدينة ثالة إحدى القلاع التي جمع فيها كنوزه، وقد قاومت هذه المدينة متلوس أربعين يوما قبل اقتحامها [762]، ويشْغُل الموسولان في واقع الحال القسم الأكبر من حوض واد ملاّق (موثول عند القدامى) وعلى النقيض من قبيلة نوميدة، ترك هؤلاء الموسرلان بصمات عديدة في النقوش الأثرية التي تعود إلى القرن

(759) - Gsell (S) et Joly (Ch. A.), Khémissa, M'Daourouch, Announa, première partie : Khémissa, Paris 1916
(760) - Ibid. p. 16.
(761) - Rec, des Inscrip, lib, n° 441, 464, 466, 469, 929, et bilingue latino-punique CIL, VIII, 17467,
- cf. J.G. Février, Sur la bilingue de Guelaa bou Sba, B.A.C. 1961, pp. 38-43.
(762) - Salluste, Bellum Jugurthinum, LXXV, LXXVI

الثاني، وقد أقام الأباطرة وكذا المدن وحتّى بسطاء الخواصّ حدودا بينهم وبين هذه القبيلة الهامّة [763]، كما تمّ التعرّف على حدود الإقليم الذي بقي في حوزة الموسولان في أعقاب تأسيس مدن حيدرة (*Ammaedara*) ومداوروش (*Madauros*) وبلدات ثيفست وثالة والمدينة المقامة في الموقع المسمّى اليوم هنشير مدكيس وهذا من خلال العلامات الحدودية.

هكذا تمّ تقليص هذا الإقليم ومع ذلك ظلّ شاسعا ففي الشمال تقترب حدوده من مداوروش[764]، ويمتدّ غربا إلى عين كملال في منتصف المسافة ما بين تبسة وخنشلة[765]، ويجاوره من الشمال الشرقي إقليم بلدتي حيدرة وثيفست، وقد عُلِّمت الحدود المشتركة بين الموسولان وهذين المدينتين وكذا بينهم وبين الدومان الإمبراطوري[766] كما جاء في نصّين أثريين عثر عليهما في خنقة ناصر (على بعد 14 كلم شمال شرقي تبسّة)، ويجاور الموسولان في المكان المسمّى قصر البوم (20 كلم جنوب غربي تبسّة) قبيلة **تيسيبان** (*Tisibenses*) التي كانت تسكن احتمالا بلدة هنشير مدكيس[767]،ونجد من جديد ما وراء حيدرة شرقا عشائر من الموسولان في هنشير البقر (25 كلم شمال غربي سبيطلة) وكذا في الشمال على مسافة قليلة في **ربيبة** (5 كلم شرقي قلعة اسنان) وكان هؤلاء مجاورين في عهد تراجان لفاليريا أتيكيلا(*Valeria Atticilla*)[768]،وهكذا نلاحظ أنّ أقاليم حيدرة وثالة،وكذا إقليم ثيفست في جزء منه تشكّل جيوبا في أراضي الموسلان التي تتوسطها هضبة الدير شرقي مرسط.

شكّل الموسولان –مثل الميسيكير واحتمالا نوميدة– كنفدرالية قبائل؛ وقد حفظت لنا النصوص النقوشية ذكرى قبيلة من هذه الكنفدرالية وهي قبيلة قوبول (*Gubul*) الموسولانية التي أشير إليها في نصّ أثري من تبسة [769]، واحتمالا فإن اسم هذه القبيلة استمرّ في اسم الجبل الذي يحمل إلى الآن اسم جبل قوبل (*Goubeul*) وكذا الوادي الذي يحمل ذات الاسم شرقي فريانة. وإذا كان من المحتمل أنّ لإقليم الموسولان امتداد كبير باتجاه الجنوب فإنّه ينبغي الإقرار أنّ حدود إقليمهم جنوب شرقي تبسّة باتجاه بوشبكة وفريانة غير معروفة، وأنّ الحدود الممكن تحديدها الآن هي الحدود المزوّدة بنقاط حدودية معلّمة تمّ وضعها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. وفي الأخير يمكن القول أنّ قسما من الموسولان في فترة سابقة كان متمركزا في منطقة جبل قوبل.

---

(763) **عن الحدود أنظر:**
- Gsell (S.), Inscr, lat, de l'Alg. T, I, p. 267
- Carton (Dr), Inscription relative au territoire des Musulames, C.R.A.I.B.L., 1923, pp. 71-73

(764) - I.L.Alg. I, n° 2828 et 2820.

(765) - I.L.Alg. I, n° 288 et 2989.

(766) - I.L.Alg. I, n° 2939 et 2939 bis.

(767) - I.L.Alg. I, n° 2978..

(768) - Carton (Dr), Inscription relative au territoire des Musulames, C.R.A.I.B.L., 1923, pp. 71-72.

(769) - I.L.Alg., I, n° 3, 144.

قبائل "المخزن"

كانت تعيش – جنوب شرقي الموسولام – خلال الفترة الرومانية، كنفدرالية قبائل الموسوني الملكية (*Musuni regiani*) [770]، ويوحي الاسم اللصيق أنّ هذه الكنفدرالية كانت موجودة أيام المملكة النوميدية، وقد أشار إليها بلينوس باسم موسيني (*Mussini*) أمّا بطليموس فكتب اسمها هكذا Μουσσουοι [771]، وقد عثر على نصّين أثريين يشيران إلى اسم هذه الجانس[*] (*gens*) شمال شرقي فريانة غير بعيد عنها في هنشير ارشيق وهنشير اشراقة، لكن ليس لدينا أيّ مادّة أثرية يمكن أن نحدّد بها اتساع إقليمها، أمّا الصفة : ملكية (*Regiani*) التي وصف بها قسم من القبيلة فهي بالغة الأهمّية، فما هي الروابط – القائمة بينها وبين الملك النوميدي- التي تعلّل حملهم لهذه الصفة ؟ يمكن استنتاج أنّ هذه القبيلة كانت تحت حماية الملك الذي يدير شؤونها من خلال موظّفين (برايفكتي أو قياد) تابعين له. أو أنّها كانت تشغُل دومانا ملَكيا (*Domaine royal*) في أعقاب اتفاق يكون قد أبرم مع الملك. ومهما يكن السبب الحقيقي لهذه التسمية لا يمكن إلاّ أن تكون متوافقة مع واقع يميّز القبيلة عن الآخرين وهو وجود روابط حميمة تربطها بالملك، وأرى أنّ هذا القسم من الموسوني كان عبارة عن قبيلة "مخزن" مماثلة لقبائل المخزن الجزائرية التي كانت في خدمة الأتراك مقابل بعض الامتيازات كالعفو من الضريبة والحصول على الأراضي.

حمل قسم من **الزبربر** بجوار قبيلة الماسيل أيضا لقب "ملكي *Regiani* " لذات الأسباب المذكورة في شأن نظرائهم **الموسوني** وقد راينا من قبل أنّ **الزبربر الملكيين** يسكنون في أغلبهم بجوار تيجيس جنوب شرقي سيرتا [772]. وكان **الماسيل** في رأيي وهم أقدم من المملكة التي تحمل اسمهم يسكنون نفس هذه المنطقة. وكان قدر هذه القبيلة هو أن تكون قبيلة مخزن لأنّ العائلة الملَكية ستكون منها.

ما بين نوميدة في المجردة العليا والماسيل في منطقة سيرتا، تعرّفنا النقوش الأثرية والنصوص الأدبية بوجود قبائل **الناتابوت** (*Nattabutes*) **والنيقيو** (*Nicives*) خلال القرن الأول

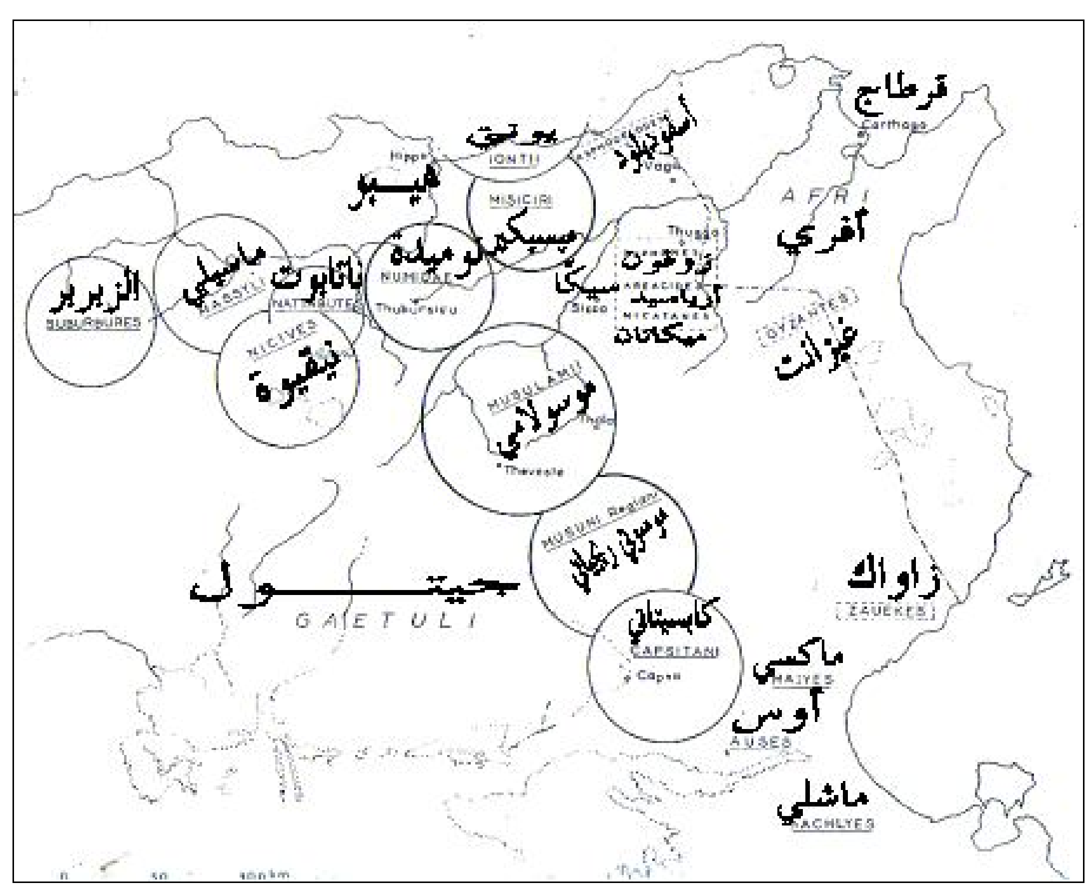
(770) - Merlin (A.), Inscriptions latines nouvellement découvertes en Tunisie, C.R.A.I.B.L.,1909 pp. 91-101 وهي تتمّة للنقوش المنشورة في – Bull, de la Soc, archéol, de Sousse, 1908, pp. 121-123.

(771) -Pline, V, 4,5; Ptolémée, V, 6, 5.; **حمل عديد القبائل خلال الفترة الرومانية أسماء متشابهة، مثل ما ورد في يوليوس هونوريوس عن موسونت (Musunet) ما بين المازيس (Mazices) والأرتنيت (Artennites) في موريتانيا القيصرية وقد حددت قائمة بوتنقر موقع الموسوني (Musoni) جنوبي سطيف، أمّا أميان ماركيلينوس فذكر الموسون (Musones) على أنّهم مجاورون للورسنيس وهم ذاتهم الذين أشار إليهم بطليموس باسم (en Grec) الساكنون غربي الأمبساقا.**

(*) **وتنطَق قانس بالقاف البدوية في اللاتينية (gens, gentis) وتعني قبيلة ومنها كلمة جنس وجمعها أجناس التي لا تزال في لهجات أفريقيا الشمالية وتعني : شعوب أو قوميات .**

(772) **أنظر أعلاه ص 181 وكذا** – Lancel (S.), Suburbures et Nicives: une inscription de Tigisis , in Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955, pp. 289-298.

والثاني الميلاديين. وكان الناتابوت يشغلون الإقليم الواقع غربي واد الشارف وكانت بلدتهم المركزية في المكان الذي بنيت فيه قرية عين مخلوف الحالية (773)، أمّا النيقِيو فيبدو أنّهم كانوا يمتلكون إقليما أضيق محدودا بالماسيل والزبربر الملكيين والناتابوت، ولعلّه كان أكثر اتساعا باتجاه الجنوب، والمعروف أن القبيلة جميعها أو بجزء منها مع نهاية الإمبراطورية الرومانية انتقلت جنوبا لتتمركز في نقاوس (*Nicivibus*) .



ش 27_ القبائل النوميدية الكبرى شرقي المملكة

من المحتمل أن تكون القبائل الأخرى التي ذكرها كل من بلينوس وبطليموس متواجدة خلال الفترة النوميدية وفيما عدا قبيلة القفصيين التي احتلّ ماريوس مدينتها خلال الحرب على يوغرطة (774)، ليس لدينا أيّ دليل على قدمها، ولكن من غير الموضوعي الاعتقاد بأنّ هذه القبائل ظهرت فجأة خلال القرن الأول الميلادي.

إلى الغرب من بلاد الماسيل في أقاليم ماسيسليا القديمة لا نعرف أيّ شيء ، فلا وجود لأيّ معلومة متعلقة بقبيلة أو بكنفدرالية قبلية خلال الفترة الرومانية ذات صلة بالفترة السابقة

(773) Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° 18, Souk Ahras, n° 135 –؛ ويسمّيهم بلينوس ناتابود Natabudes.

(774) - Salluste, Bellum Jugurthinum, LXXXIX-XCI.

لها، وكان الماسيسيل ذاتهم في عصر بلينوس في طريقهم نحو الزوال[775]، والملاحظ أنّه لا وجود خارج نوميديا الأصلية لأيّ قبيلة خلال الفترة الرومانية تحمل لقب "ملكية *Regiani*" فهل هذا دليل كافٍ لافتراض أنّ هذه الفئة من القبائل لم تكن تحظى بهذه الميزة في نوميديا إلاّ بعد التخلّي عن الأقاليم الغربية للمور ؟ وقد رأينا أنّ ميكيــبسا قد أولى عناية خاصّة لماسيسيليا أكثر من سابقيه وأنّ يوغرطة استلم هذه الأقاليم خلال تقسيم 118 ق.م. ، وأنّ هؤلاء الحكام أحدثوا تنظيمات في هذه القبائل "الملكية" في هذا القسم من المملكة إن كانت رتبة "ملكية" هذه موجودة بالأساس، وهذه الملاحظة تقودنا إلى التفكير في أنّ تنظيم بعض القبائل في صيغة قبائل "**ملكية**" أو قبائل "**مخزن**" (موسوني ريجياني، الزبربر ريجياني) كان قد تمّ في الفترة اللاحقة أي بعد ماسينيسا وميكيــبسا.

كوّنت القبائل إذن وحدات سياسية أساسية في المملكة النوميدية، وبعضها كان يضمّ عددا قليلا من العائلات المتجمّعة حول قرية، وبعضها الأقوى كان على رأس كنفدراليات يبدو أنها قارّة والبعض الآخر يكوّن تقريبا شعوبا كما هو الحال بالنسبة للموسولام مع نهاية الفترة النوميدية، الذين دعتهم الأقدار إلى لعب دور لامع لولا السيطرة الرومانية التي حالت دون ذلك.

يبدو أنّ نصيب الملوك في حياة القبائل وإدارتها كان ضعيفا للغاية، ومن المفترض منذ ماسينيسا أن تكون سياسة رسم المعالم الحدودية قد فرضت بعض الإكراهات على القبائل لكن ما هو أكيد هو أنّ كلّ قبيلة كان لها إقليمها، وكانت هذه الأقاليم تختلف في الاتساع حسب قوّة القبيلة وتعدادها، أمّا فكرة رسم معالم حدودية فهي فكرة أجنبية عن قدماء الأفارقة، فالملك النوميدي لم يكن يحكم القبائل، وملك قوي من وزن ماسينيسا كان يكتفي بجباية الضريبة منها وبتجنيد وحدات خلال الحروب وما دون ذلك لم يكن يعنيه.

المدن

كانت كلّ قبيلة تمتلك سوقا أو عددا من الأسواق وحصنا تلجأ إليه وعددا من القرى ما بين متوسّطة وصغيرة، أمّا المدينة فهي عموما شيّدت وأقيمت لها نظمها خارج فضاء القبيلة، بحيث أنّ رئيس القبيلة ليس هو سيّد المدينة لأنّ المدينة تدير شؤونها بنفسها في حال عدم خضوعها لإرادة حاكم معيّن من قبل الملك. وتوحي بعض النصوص التي تعود إلى فترة

(775) Pline, V, 17.

ما قبل حكم ماسينيسا بوجود مدن داخلية (ثوقّة، ثيفست، سيرتا) التي يجمع الكلّ على أنّها ذات منشأ أهلي، أمّا على السواحل فالمدن فينيقية أو من تأسيس قرطاج، وهي التي تؤمّن الحياة الاقتصادية لنوميديا طيلة عهد الممالك – بل وعلى امتداد القرن الأول من السيطرة الرومانية – ونحن هنا أما ظاهرة مهمّة لا يمكن إهمالها وهي أنّ كلّ هذه المدن مهما كان منشأها وموقعها وأهمّيتها تأخذ في نوميديا طابعا بونيا في إدارتها كما هو الحال في كلّ الأشكال الحضارية الأخرى.

إدارة الحواضر

ليس المعروف عن إدارة المدن النوميدية أكثر مما هو معروف عن إدارة القبائل رغم الوثائق التي توفّرها النقوش والقطع النقدية، أمّا بخصوص النصوص الأدبية فهي غالبا ما تكون غير دقيقة،على عكس نقوش دوقة الأثرية التي يمكن من خلالها تكوين صورة دقيقة عن إدارة هذه المدينة في عهد ميكيبسا:فقد كان لديها حينها مجلس مواطنين باسمه كتب نصّ إهداء معبد ماسينيسا ويتكوّن هذا المجلس من"ملك"(*GLD*أقلّيد بالليبي و **م م ل ك ت** *MMLKT* بالبوني) وهو ذو وظيفة مدّتها سنة، واثنان من رؤساء المائة و **م س س ن و** *MSSKW* و **ق ز ب** *GZB* و **ق ل د ق م ي ل** *GLDGMIL* وقائد الخمسين (GLDMÇK) [776]،وإذا كان "الملك" واثنان من رؤساء المائة والـــ **م س س ك و** *MSSKW* قد ذكروا في مستهلّ النصّين وهو ما يمكّن من معرفة التنظيم البلدي في دوقة فإنّ ترتيب تسلسل الوظائف الثلاثة الأخرى قابل للتغيير.

تكمن أهمّية نقوش دوقة في أنّها تكشف عن تنظيم إن وجد فيه تأثير فينيقي فهو قليل جدّا، لأنّ وظيفة رئيس المائة هي وحدها المعروفة في صور ومن المحتمل أن تكون ذات أصول بونية، ويبقى الأمر محلّ شكّ، وبالمقابل فإنّ وظائف "ملك" و **م س س ك و** *MSSKW* **و ق ز ب** *GZB* و **قائد الخمسين** (GLDMÇK) قطعاً ذات أصول ليبية ففي القسم البوني من النصّ الأثري المزدوج كتبت أسماء هذه الوظائف في صيغتها الأصلية دون ترجمتها.

ومع ذلك يشير نقش لاتيني مؤرّخ بسنتي 48-49 بعد الميلاد إلى أشفاط في دوقة، كما لو أنّ الوظائف الليبية السابقة تمّ تعويضها بقضاة من طراز بوني[*].

في المدن الأخرى لا نعرف غير هذا الاصطلاح لأنّ الوثائق في أغلبها تعود إلى فترات متأخرة وقد قام بوانسو سنة 1942 بوضع قائمة للمدن الأفريقية التي يديرها أشفاط [777]،

---

(776) - Rec, des Inscr, lib, n° 2 et 3.

(*) **لا ندري لماذا يمرّ الكلّ على موضوع الترجمة مرور الكرام، فأقرب استنتاج هو أن النصوص اللاتينية تترجم دائما النصوص البونية وهذه الأخيرة تترجم النصوص الليبية بما في ذلك الوظائف وبهذا يتم محو الأثر الليبي وكأنه معدوم تماما.**

(777) - Poinssot (L.), une inscription de Souani el(Adani, Rev, tunis, 1942, pp. 125-140.

وكثير منها يوجد في مقاطعة أفريقيا أي بالقرب من قرطاج[778]، ويمكن التفكير في أنّ هذه المدن ومنذ نشأتها لم تعرف إدارة أخرى غير الإدارة على الطراز البوني، والملاحظ هو أنّ عدد المدن الواقعة في المملكة النوميدية مماثل لنظيرتها الواقعة في مقاطعة أفريقيا[779]،على الرغم من أنّ بعضها مثل سيرتا، لا نكاد نجد فيها أثرا لأشفاط لولا قطعة نقدية ونصب أشير فيهما إلى قاضيين بذات الاسم يمكن أن يكونا شفطين[780]ومع ذلك وتأكيدا للرأي المعبَّر عنه أعلاه فإنّ مجموعتين من الوثائق التي تشهد بوجود هذين القاضيين في سيرتا كتبتا بالخطّ البوني الجديد الذي يعود إلى فترة متأخّرة، في حين أنّ الأنصاب التي نقشت عليها كتابات بالخط البوني لم تقدّم دلائل كرونولوجية أخرى ما عدا سنوات حكم ماسينيسا أو أبنائه، وكذلك الحال سواء في ثوقّة أو في سيرتا كان ظهور منصب الشفط قطعاً بعد حكم ميكيــــبسا.

هناك نموذج من هذا التطوّر، فمقارنة بين الإدارة من طراز أهلي والإدارة من نمط بوني بشفطين، نلاحظ في بعض مدن المملكة وجود ثلاثة أشفاط، في حين أنّ قرطاج وكلّ المدن الأفريقية تفريبا لكلّ منها شفطان فقط: مكثر، ألثيبوروس وثوقّة كان على رأس كل منها ثلاثة أشفاط زملاء يشتركون في رئاسة الهيئة البلدية، فهل هذا الشكل احتمالا كما يرى جيلبار شارل بيكار هو تنظيم أفريقي محض، يمكن أن يكون صورة كما رأينا لتنظيم السلطة الجماعية الملَكيةى [781]، وفي كالاما أشار نصّ نقوشي إلى وجود شفطين في ذات الوقت ومقدّم (*Princeps*) [782]، ومع ذلك فإنّ هذا البرنكيبس كان شخصية بارزة وليس مجرّد رئيس قبيلة ويستفاد من هذا النص النقوشي أنّ أحد الشفطين أخُ للبرنكيبس أمّا في نصّ نقوشي آخر به كسر فنجد شخصية تجمع بين وظيفتي شفط وبرنكيبس.

---

(778) ها هي هذه المدن مرتّبة حسب التسلسل الأبجدي : أبيزا مايوس. أرادي. أقيتا بيبّا. بيراكساكار. كوروبيس. روسباي. سياقو. تيلبت. ثاكا . (لعلّها ثيميترا التي لا يعرف مكان موقعها).

(779) مدن المملكة النوميدية: ألثيبوروس، بير لبيض (جنوبي قالمة) كالمة، كابسا, قواديوفالة، قاليس، لبتيس ماقنا، ليميـــسا، مكثـــر، ماسكولولة، ثوقّة، وينبغي إضافة فولوبيليس في موريتانيا.

(780) سكّت عملة في سيرتا باسم بوملكار وحانون ، أنظر :

– Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 523-529 ؛

وفي نصب عليه كتابة بونية جديدة من موقع الحفرة مؤرّخ بسنة ش ر م و سلوم ، أنظر:

– Cf.Berthier (A.),et Abbé R. Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine, p.23 stèle n° 21.

(781) - Charles-Picard (G.), Civitas Mactaritana, Karthago, VIII, 1967, pp. 23-40.

(782) - CIL VIII, 5306.; I.L.Alg., I, 233.; CF., aussi CIL VIII, 5369.; (ILAlg, I, 290), Atlas archéologique de l'Algérie, feuille n° IX, Bône, Notice 146.

كان على رأس بعض القرى في المملكة النوميدية القديمة والإقليم البوني خلال الفترة الرومانية قضاة (*Magistri* ou *Magistrati*) ويمكن أن تكون هذه الوظيفة قديمة جدا، في حين يرى البعض أنّها مستحدثة من طرف الرومان[783].

ليس جزافا الاعتقاد بأنّ على رأس كل مدينة زيادة على القضاة مجلس أو جمعية شعب تمسك بزمام السلطة المحلّية، ومن غير المشكوك فيه أنّ قرطاج كانت لها جمعية ومجلس الثلاثمائة ولا تزال للقرى القبائلية إلى اليوم جماعتها التي تتمتّع بصلاحيات مجلس بلدي، ونادرة هي الوثائق التي تتناول هذا الجمعيات في المدن الأفريقية، وإن وجدت فهي لا تتجاوز بعض الجمل البائسة المتناثرة هنا وهناك في النصوص، وحسب أبيانوس[783 مكرر] كان لمدينة باجة مجلسها خلال القرن الثاني[784]، وكان لثيفست "كبار الجماعة ***Anciens***" منذ القرن الثالث ق.م.[785]، كما نجد أيضا في نصوص نقوشية في ثوقّة أنّ المواطنين (ذُكروا قبل القضاة) أقاموا معبدا لماسينيسا؛ وفي مكثر [786]وجدت هيئة بلدية "ميزراح (*Mizrach*)" اعتبرها البعض هيئة دينية صغيرة، ولبلدة ألثيبوروس هيئتها أيضا. وكتب بحروف واضحة على عملة بلَدية صادرة في مدينتي تنجيس وليكسوس عبارة "مواطنون" وهؤلاء المواطنون هم الذين أمروا بسكّها ولا نعرف ما إذا يوجد إصدار مماثل في نوميديا[787].

الملك والحواضر

رغم قول اقزال أنّ الملوك كان لهم حكام يمثّلوهم في بعض المدن أو بالأحرى فيها جميعا [788]، هناك نصوص أساسية لا يمتدّ إليها الشكّ تشير إلى أنّ سيفاكس عيّن في المدن الماسيلية التي فتحها برايفكتوس[*](*Praefectus*)[789]،وكان متلوس خلال الحرب على يوغرطة قد دخل بسهولة في علاقات مباشرة مع برايفكتي الملك الذين خرجوا من المدن والقرى لاستقباله وتزويده بالقمح[790]، هؤلاء البرايفكتي كانوا يقودون ليس فقط الحاميات بينما يتمركز الجيش النظامي في المملكة ولكن على وجه الخصوص كانوا يتكفّلون بجمع الضريبة، ومن المعروف أنّ عددا من المدن كان يضمّ الكنوز الملكية وبهذه الصفة هي مدن مقرّات

---

(783) - Veyne (P.), Deux inscription de Vina, Karthago, IX, 1958 ; pp. 91-117.

(**783** مكرر) - Gsell (S.), HAAN, t, V, p. 132.

(784) - Salluste, Bellum Jugurthinum, LXVI, 2; "principes civitatis inter se conjurant…"

(785) - Diodore de Sicile, XXIV, 10, 2.

(786) - Charles-Picard (G.), Civitas Mactaritana, Karthago, VIII, 1967, pp. 62-63..

(787) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 589 à 594 et 630 à 642.

(788) - Gsell (S.), HAAN, t, V, p. 135.

(*) **برايفكتوس في المفرد والجمع برايفكتي** Praefecti **تعني: والي.وهذا الوالي يمكن أن يكون مدنيا أو عسكريا.**

(789) -Tite-Live, XXX, 11, 2.

(790) - Salluste, Bellum Jugurthinum, LXVI, 5 ;

لدوائر مالية، فكيف يمكن الاعتقاد أنّ هذه الخزائن لم تكن تحت الإدارة المباشرة للملوك؟ ومثال على ذلك مدينة مثل مكثر التي لم يرد اسمها في أيّ نصّ تاريخي خلال الفترة النوميدية كانت تبعا لرأي جلبار شارل بيكار على رأس دائرة جبائية هامّة في عهد الملوك،ومن المحتمل أن يكون جزء من سكّان هذه المدينة من الجند أو من الذين أنهوا عملهم في الجيش [791].

لقد سبق أن أطلقت فرضية أنّ بعض المدن وصفت بعبارة "ملكية *Regia*" مع انها لم تكن في يوم من الأيام عواصم فهل هذه الرتبة تعود إلى أنّ لها وضعا خاصّا سواء بانتماءها للملكة أو لكونها تقع داخل دومان ملكي [792]وإذا أضفنا في النهاية أنّ الملوك كانوا يتنقلون بسهولة بين هذه العواصم الجهوية الموجودة فعلا– ولعلّ شرشال كانت إحداها حيث يكون ميكيـــبسا احتمالا قد توفي فيها – نصل إلى استنتاج هو أنّ الملوك كانوا يمارسون رقابة مباشرة على المدن وهي أكثر خضوعا لسلطاهم من القبائل النوميدية.

سكّ العملة البلَدية

نكاد لا نمتلك معلومات عن المدن الساحلية مع أنّها من إنشاء بوني فإنّها سرعان ما ترومنت قبل المدن النوميدية في الداخل وبعضهما كان يتمتع بحق سكّ العملة ولكن رموزها مكتوبة بالخط البوني الجديد مما يدل على أنّها سكّت في تاريخ متأخّر [793]، وإذا كانت هناك مدن تتمتع باستقلال ذاتي فان ذلك لم يحدث إلا في نهاية القرن الأول وهذا يحمل ربما دلالة سياسية فقدكان من بين المدن التي تمتعت بهذا الحق مدينة سيرتا العاصمة القديمة للمملكة فهل يمكن الجزم أنّها كانت مستقلة ذاتيا ؟

يدل تطوّر سكّ العملة البلدية على تطوّر اقتصادي لا يستهان به ففي الحواضر وما حولها شهد تداول العملة نموا كبيرا إلى درجة أنّ الإصدارات الملكية أضحت غير كافية ، وبذلك تخطّت نوميديا عتبة الاقتصاد النقدي ويعود الفضل إلى ماسينيسا وإلى ميكيبسا اللذين بفضل إصداراتهما العديدة والوفيرة شجعا الحركة التي بدأتها قرطاج ولكن من الملاحظ من جهة أخرى أنّ العملة الملكية أصبحت نادرة منذ يوغرطة، في حين تطور في ذات الفترة سك عملة "الاستقلال الذاتي" في عدد كبير من الحواضر فهل كان ذلك تقليلا

[791] - Charles-Picard (G.), Civitas Mactaritana, Karthago, VIII, 1967, pp. 2&-22..

[792] **أنظر أعلاه، ص 228 ، ريجيا ليست نعتا ولكن عطف بيان لاسم المدينة لأنّها الصيغة المطابقة مع هذا الاسم كما هو الحـــال في زاما ريجيا (مؤنّث) تكون صيغة الصفة ريجيوس للمذكّر كما هو الحال في هيبو ريجيوس وهذه الملاحظة كافية لإبطال معنى "إقامة ملكية" لأن ريجيا هنا عطف بيان يدلّ على رابطة ما بين الملك والمدينة.**

[793] - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, pp. 151-195. **؛ الألف الأولى غالبا ما تحتفظ بالصيغة القديمة.**

من شأن السلطة الملكية ذاتها بفعل الحروب والتقسيمات ؟ ذلك ممكن وهو ما يجعلنا نؤكّد أنّ المدن لعبت دورا متناميا في الحياة الاقتصادية والإدارية للمملكة ، ففي عملة يوبا الأول نلاحظ صورة معبد أو قصر يعوض الفرس النوميدي وفي عملات أخرى عديدة نرى صور سنابل أو عناقيد العنب وهذه الرموز ذات دلالة واضحة فالفروسية والغزوات تعبير عن الشجاعة ولكنها مدمرة للثروة ولذلك فضل الأثرياء الفخورون بمدنهم الاعتراض عليها بصور ترمز للعيش الرغيد لشعوب متمدّنة.

المدن والحضارة البونية

جمع اسطيفان اقزال العناصر التي تسمح بالبحث في حياة المدن النوميدية في العهد الملكي[794]،وهذه الوثائق هي على الخصوص أثرية:مباني جنائزية،أسوار،عملات ولكن هذه العناصرلاتكفي لإتمام الإشارات النادرةالواردةفي النصوص الأدبية لكن الاكتشافات التي تمت مؤخرا في موقع الحفرة بقسنطينة قدمت صورة هامة عن المجتمع السيرتي في عهد ماسينيسا وميكيبسا والملاحظ كما كان متوقعا هو أهمية العنصر الفينيقي أو بالأحرى القرطاجي[795]، وبساطة العنصر النوميدي: هذا الموقع السيرتي لم يقدّم غير نص اثري ليبي واحد ومكتوب على نصب بوني، هؤلاء الأشخاص الذين يحملون جميعا أسماء بونية ولهم رتب ووظائف موجودة في قرطاج وفي المدن الفينيقية الأخرى ، فيهم الكهنة (اثنان من كبار الكهنة، كاهنة كبيرة، كاهنة وأربعة كهنة أحدهم كاهن ملقرت) وعسكريون (أربعة ضباك، أربعة جنود) وكتبة وأطباء ومختلف "الموظفين" أحدهم في عيون الماء أو الصهاريج ؟ نجارون ، صناع اقواس وباقي الحرفيين (سباك، قالع حجارة) الجميع جاء لتقديم قرابين لبعل امون : رؤساء قبائل وأناس جاءوا من الضواحي المجاورة (سيقوس، كدية بوكعبن ؟) وحتى الأجانب نذكر من بينهم شخص قدم من **ك ر ل** KRL (كاراليس في سردينيا) وكنعاني من جزيرة في البحر المتوسط (ي'ر م Y'RM).

هذه الاشارات عن مدينة ماهرة تتحكّم في القرى المجاورة فحسب ولكن أيضا تعقد صفقات مع بلدان بعيدة، إنّها سيرتا المدينة النوميدية التي يتنقل إليها التجّار طواعية لزيارتها حيث تخبرنا النصوص أن تجارا إغريق يترددون على عاصمة ماسينيسا وأنّ تجارا إيطاليين كانوا متمركزين بها والدليل القاطع على ذلك ما تحمله أنصاب الحفرة المكتوبة بالاغريقية

---

(794) - Gsell (S.), HAAN, t, V, p.250-282..

(795) - Cf. Berthier (A.),et Abbé R. Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine, Paris 1955.؛ **وعلى الخصوص تقرير مناقشة هذا العمل من قبل كوليت وجلبار شارل بيكار تحت عنوان :**

– Le Sanctuaire punique de Cirta, Rev, archéol, 6e série, t, XLVII, 1956, pp. 196-199

واللاتينية، ففي القرن الثاني كانت سيرتا عاصمة حقيقية ولكن الوثائق النقوشية التي بين أيدينا تكشف أن هذه العاصمة النوميدية كانت تكتسي طابعا بونيا في الأساس ولا يكاد يميِّزها شيء من أصولها عن المدينة "الليبيفينيقية".

ما هو حقيقي في سيرتا وفي مدن أخرى أقل أهمية هو مواطنوها حيث ينحدر أغلبهم من تجار بونيين يحتفظون بديانة آبائهم وينشرونها في محيطهم وقد أصبحت المدن النوميدية في عهد الملوك النوميد عبارة عن نماذج مصغرة لقرطاج مراكز دينية مشعة وقد كشف معبد الحفرة بسيرتا عن احتفاظ الديانة الفينيقية طيلة عهد الملوك الى عشية الاحتلال الروماني باصالتها وتمسكها بالطقوس الفينيقية القديمة بالحواضر النوميدية، ومن خلال هذه المدن امكن لنا معرفة جوهر عبادة بعل امون وانتشارها خلال الفترة الرومانية.

احتلّت الآلهة حامية المدن أهمية متنامية مواكبة للنمو العمراني وحتى في العملة لأنها في الواقع العملي هي الوثائق الوحيدة المعاصرة للمملكة،وقد رسمت صورة الإله أو الإلهة الحامية للمدينة على وجه العملة أما ظهرها فمخصص لصور خالية من الأبّهة والقوة ، وقد كرّمت لبتيس ماقنا آلهتها الوطنية (*dii patrii*) التي ما هي إلاّ الثالوث الصوري (*Triade tyrienne*) : ملقرت، أستارتي واشمون[796]، مستمرة في الوفاء للتقاليد الفينيقية في تكوينها كما في عباداتها،وقد انشقّت هذه المدينة الكبيرة عند أول فرصة منذ بداية الحرب على يوغرطة[797]، وهذا الوضع يستحق التفحّص عن قرب، فحين كانت المدن النوميدية "تتبونق" بسرعة كانت المدن الفينيقية الكبيرة الملحقة بالمملكة النوميدية لم تندمج بالكامل في الدولة الجديدة واحتفظت إن لم يكن باستقلالها الذاتي فعلى الأقلّ بالرغبة في الانفصال ولن يكون هذا هو التناقض الوحيد والبسيط في المملكة النوميدية.

*

* *

سارت سياسة الملوك بالضرورة إذن إلى الفشل و لم يتوصّلوا في المدن إلى تطوير حضارة نوميدية حقيقية ولكنهم شجّعوا بالعكس حضارة قرطاج، لأنهم هم الآخرون تشرّبوا من رقي الديانة والتقاليد واللغة والكتابة البونية و لم يجلب اعتناق الحواضر النوميدية

---

(796) - Dussaud (R.), les dii patrii de Lepcis, Hommage à W. Deonna, Coll, Latomus, XXVIII, 1957, pp. 203-208

(797) **يقول سالوست عن لبسيس :** "Legum cultusque pleraque sidonica" B. Jug. LXXXVII, 4 **المدينة طلبت التحالف مع الرومان ثمّ إقامة حامية فيها.**

للحضارة البونية أيّ ميزة للمملكة لأنّ الأرياف لم تلتحق بالحركة إلا ببطء شديد مما جعل الهوّة تزداد اتساعا بين الأفارقة الباقين على نوميديتهم والأفارقة "المبونقين".

يكون ماسينيسا وميكيبسا احتمالا قد شعرا بالقلق من الانتشار الواسع للتأثير البوني ولذلك اعتمدا سياسة الإقبال على الهلينة وبذلا جهودا كبيرة لجلب اهتمام الإغريق والإيطاليين إلى مملكتهما، ولكن الحضارة البونية كانت قد تجذّرت في الأرض النوميدية إلى درجة أنّ الإغريق ذاتهم التحقوا في سيرتا بواقع الحياة العامّة فعبدوا بعل أمون وتكلّموا البونية وأعطوا لأبنائهم أسماء بونية[798].

الجيش الملكي

خلال بدايات المملكة أي خلال حكم ماسينيسا بالأساس، لم تكن القوى الحيّة متمركزة في المدن ولكن وسط الشعب الماسيلي أي ضمن الكتلة المتماسكة من القبائل النوميدية المحيطة بالملك، وقد رأينا أنّه عبر هذا التماسك والولاء من قبل رؤساء القبائل تأتي قوّة الملك، لأنّ الجيش كان يتكوّن من وحدات "قوم" تتعّهد القبائل بوضعها في خدمة الملك وفي حالة العصيان أو الانشقاق يمكن للملك أن يلعب على وتر التنافس التقليدي بين القبائل وأن يضرب المتمرّدين بالكنفدرالية القبلية المجاورة لهم مكلّفا إياها بإخضاعهم ومعاقبتهم ومع ذلك يبقى الملك دائما تحت وطأة رؤساء القبائل.

يكمن أوّل مسكِّن لهذه الحالة في إنشاء قبائل "مخزن" – مثل قبيلتي الموسوني والزبربر الملكيتين (*Musuni regiani, Suburbures regiani*)– مرتبطة بالحاكم وعلى استعداد دائم لتطبيق سياسته، وهؤلاء سيدونون خير عون في تحصيل الضريبة، ولكن العلاج الحقيقي يكمن في إنشاء جيش على الطراز البوني خاضع بالكامل للملك يضمن له السيطرة على الداخل وقوّته وهيبته في الخارج، وكان تكوين جيش نظامي يتطلّب موارد هامّة كانت تأتي بلا جدال من

[798] - le compte rendu par J. Février de l'ouvrage de A. Berthier et l' Abbé R. Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine. Dans B.A.C., 1955-1956, pp. 152-158, مثل المسمى أبولونيوس الذي عيّن ابنه سافوت (النص الأثري رقم **47**) وآخر اسمه أبولو له ابن اسمه عبد ملقرت، وآخر اسمه عبدملقرت وهو ابن هرمس. وفي تقريرهما لنفس الكتاب الذي نشر في المجلة الأثرية سلسلة **6** : t, XLVIII, 1956, pp. 196-199 يرى جلبار وكوليت شارل بيكار أنّ الإغريق المتمركزين في سيرتا كانوا على وجه الخصوص من صقلية: Elymes خاصّة وكانوا منذ زمن بعيد شركاء قرطاج لأنّ الإغريق الخلّص لا يقبلون دون تردّد الفرائض المرعبة التي تفرضها العقيدة البونية..." ص**97**، لكن يبدو أنّ أسماء الأعلام لا تؤكّد وجهة النظر هذه، انظر أدناه رقم **809**.

بيع القمح (أداء عيني) وخاصّة من الرسوم المحصّلة من المدن، وهكـــذا نلاحـــظ أنّ النمـــو العمراني في حياة المملكة كانت له إذن تداعيات غير متوقّعة على الصعيد العسكري.



ش 28 _ نصب يمثل محارب تراقي اكتشف في قسنطينة

جمع اسطيفان اقزال العناصر الأدبية التي تصوّر لنا المظهر الذي كان عليه جيش الملوك النظامي ابتداء من يوغرطة، فقد كان الجند منظّمين في سرايا أو فرق صغيرة (*Manipules*) وفي قيادتهم ضباط يتجمعون تحت راياتهم، وقد أنشأ يوبا الأول فيالق [799]، وصفوة القـــول أنّ الاهتمام بتحديث الجيش كما نقول اليوم ليس جديدا فقد سبق وأن طلب سيفاكس مـــن الرومان مدرّبين لدعم وتقوية جيوشه [800]، كما وضع على رأس المدن التي فتحها حاميات تحت أوامر برايفكتي [801]، لكن الجديد في الجيش النوميدي هو استعمال الجند المأجور منذ يوغرطة على الأقلّ فقد كان في صفوف جيشه ليغوريون وتراقيـــون[802] (ش 28)، ومـــن الملاحظ كذلك أنّ من ين الأسماء المسجلة في النقوش الإغريقية بالحفرة عدد مـــن الأسمـــاء

(799) - Bellum africum, I.

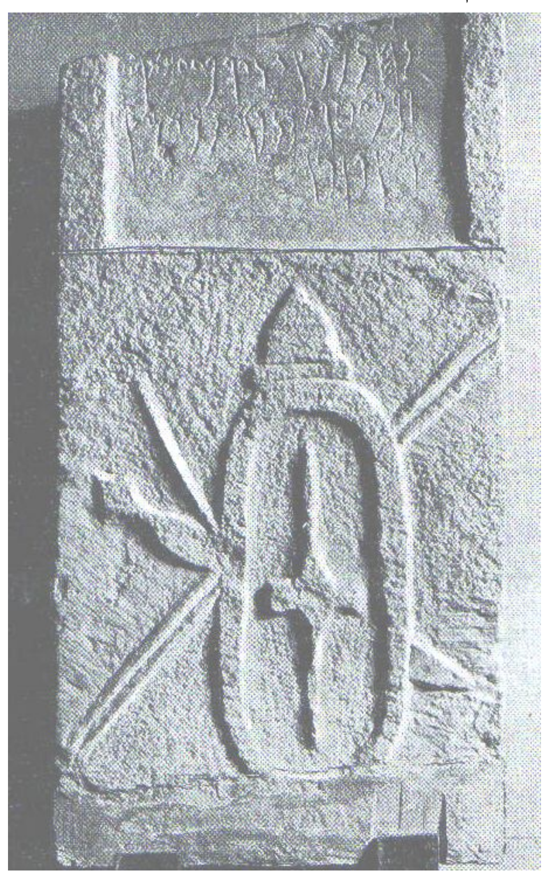
(800) - Tite-Live, XXIV, 48, 1.

(801) - *Ibid.* XXX, 11, 2.

(802) Salluste, Bellum Jug., XXXVIII, 6. ؛ وهم الفارّون من الجيش الروماني.

التراقية[803]، ولا نعرف كنه هذا التقارب ولكن المعروف أنّ بعض الأنصاب البونية مهـــداة من قبل جنود وضباط، قد يكونون من الجند المأجور فقد كان في جيش يوبا الأول مرتزقـــة أسبان وغاليين [804].

لا يشكّل الجيش النظامي سوى نواة تنتظم حولها مجموع الوحدات الـــتي وضـــعتها القبائل في خدمة الملك أثناء الحرب، وقد لاحظ سالوست أن يوغرطة بعد معركة الموثـــول "جمع جيشا جديدا أكثر عددا من سابقه ولكن دون فعالية ودون قدرة على المقاومة يتكون من أفراد أعدّوا ليكونوا مزارعين ومربي حيوانات لا رجال حرب"[805]، وهو هنا يقـــصد المزارعين النوميد الذين أرسلهم رؤساء القبائل بطلب من الملك.



ش 29_ نصب من الحفرة (قسنطينة) أسلحة

كان الجيش النظامي جيشا محترفا وبذلك فهو جيش دائم كسائر الجيوش المحترفة وهو يترع إلى أن يكون قوّة عسكرية متميّزة عن مجموع السكّان، وليس أمام فرق الجند المأجور غير التناغم مع هذه الترعة وكانت هذا الجيش متمركزا بالضرورة في المدن بجوار الملك، وفي

(803) -A. Berthier et l' Abbé R. Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine. pp. 167-176.
(804) - César, Bellum civile, 11, 60, 1.
(805) - Salluste, Bellum Jug., LIV, 3.

كل عاصمة جهوية أي أنّه على صلة بالسكان البونيين أو "المبونقين" ومن المحتمل جـــدًّا أنّ الميرة (*l'Intendance*) ومختلف المصالح كانت مخفّضة في هذا الجيش التابع لكتَبَة وموظّفين ذوي تكوين باللغة البونية وحدها[806]، وكانت الأوامر الحربية تتمّ باللغة البونية أو الإغريقية قبل أن تتحول احتمالا إلى اللاتينية بقوّة الأشياء، لأنّ أولئك القادة يسهمون بفعالية في الحيـــاة الحضرية أي البونية أكثر من الحياة الريفية التي ظلّت أفريقيّة.

استخرجت من توفات الحفرة وثائق جديدة زوّدتنا بنعلومات عن تسليح جند حاميـــة سيرتا (ش 20) ومثل لغة وكتابة الإهداءات كذلك كان السلاح بونيا: الـــرمح، التـــرس البيضوي، الخوذة المدبّبة، القوس وخاصّة السيف القصير، هذه كلّها تكوّن عُدّة فارس كاملة وهي معروفة في قرطاج وفي الشرق، ولكن تتميّز بكلّ هذه المكوّنات عن التجهيز المعهـــود لدى النوميدي أو الموري [807]، يتضمّن قبر الخروب خوذة وسيفا شبيهين بالخوذة والسيف المرسومين على أنصاب قسنطينة، وبالنسبة لرؤساء الماسيل الذين كشفت عنهم آثـــار وادي خنقة فإنهم أيضا مسلّحون بالسيوف مع أنّ السيف لا وجود له ضمن التسليح النوميدي.

يبيّن القليل الذي نعرفه عن تنظيم هذا الجيش أنّ الملوك النوميد قبل أن يتعلموا من مدرسة روما كانوا مقلّدين للنموذج البوني إلى نهاية المملكة ومثلما كان هانيبال قد فعل قبل قرنين استعمل الملوك الأفيال كقوة لتفريق شمل العدو، وكان الفرسان طليعة استكشاف (*Eclaireurs*) أو مستغلو أول نجاح. أمّا فرق المشاة فلم تكن لها أية قيمة. ولم نجد في نقوش المناطق الداخلية للمملكة النوميدية سوى إشارة إلى "فارس من بلاد الليبيين" في مكثر[808]، وإشارات أخرى إلى جنود(**م س ت ر ت** *MSTRT*)وضبّاط(**ر ا ب م س ت ر ت** *RAB MSTRT*) في سيرتا [809]، يبدو أنّ قائد الخمسين المشار إليه في نقوش دوقة كان قاضيا بلديا لا رئيس حامية[810] وليس مستبعدا في نهاية المطاف أن تكون بعض النقوش الليبية – التي وصفت مَوْتَى: **م س و ح م ن ك د هـ** *MSUH MNKDH* (جنود وخدم الرئيس الأعلى)–

---

(806) **كشف نصّ أثري بوني عثر عليه في فوليبيس بالمملكة المورية عن وجود كاتب (Scribe) في الجيش. أعلاه ص 169 .**

(807) - A. Berthier et l'Abbé R. Charlier, Le Sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine. pp.193- 106.

(808) - Février (J.G.), l'inscription punico-libique de Maktar, Journ, asiat, t, CCXXXVII, 1949, pp. 85-91.

(809) - A. Berthier et l'Abbé R. Charlier, Op. Cit. Inscription n° 74 à 81.

(810) **نصّ دوقة الليبي أشار إلى شخص رتبته الوظيفية GLDGMIL وهذه الرتبة لا مقابل لها في البوني فأبقى عليها كاتـــب الـــنصّ البوني كما هي ، وكان جورج مارسي قد اقترح معادلا لها هو: سائق جمال أنظر:**

- Marcy (G.), les inscriptions bilingues de l'Afrique du Nord, Cah. de la Soc. Asiat. Paris 1936

وتمّ رفض هذه الترجمة نهائيا من قبل الأب شابو ، أنظر:

- Chabot (J.B.), Une prétendue réforme de l'Alphabet libyque, C.R.A.I.B.L. 1937, pp. 71-82.

متعلّقة بجنود الملك النوميدي وليس في جميع الأحوال بجنود أنهوا الخدمة في الجيش الإمبراطوري، كذلك سرعان ما أصبح الجيش الملكي الموجّه على الخصوص لفرض سلطة الحاكم على القبائل المتعنّتة بطبيعته كما هو بوظائفه، فرقا بربرية أقام بها ماسينيسا مملكته، وحيث أنّ المدن هي التي أصبحت مصدرا للموارد الأساسية، فإنّ الفرق الملكية المنظّمة والمسلّحة على الطريقة البونية أسهمت مادّيا ونفسيا في تراجع مكانة القوى التقليدية التي يعود إليها الفضل في إنشاء المملكة.

اللغة الرسمية

كان انتصار الثقافة البونية محسوسا منذ بدايات المملكتين الماسيلية والماسيسيلية لأن كلّ ما يمكن الكشف عن وجودهما كان يمرّ منذ ذلك الوقت عبر قرطاج، وغير خافٍ أنّ المترفين والزعماء البربر كانوا طيلة قرون يعتبرون قرطاج مدينتهم الأمّ يعلنون عاليا رغبتهم في نتاج حضارة لا يستطيعون الحكم عليها لانعدام عناصر المقارنة ، ولذلك لا عجب أن نرى في العائلات الملكية بنات الأرستقراطية البونية ومعهن عطور وحلي وآلهة صور وسياسة قرطاج، وليس مهمّا إذا ما فشلت تلك السياسة في نهاية المطاف، لأنّ أفريقيا لم تصطبغ بالحضارة البونية تماما إلاّ بعد نهب قرطاج في 146 ق.م. ويبيّن لنا التاريخ الأفريقي الذي لا لبس فيه أنّ ماسينيسا استلم من يدي سيبيون الإيميلي الضمان المادّي لإرث قرطاج الروحي وهو مخطوطاتها التي سلمت من الحرق.

تبدو المملكة النوميدية – وبدرجة أقلّ المملكة المورية – بونية من حيث المدن التي التي ضمّتها وهي الحضارة الوحيدة التي أثرت في أفريقيا بلغتها الرسمية وكذا بهيئاتها الإدارية، فمنذ سيفاكس إلى وفاة بوكوس الثاني كان الملوك النوميد والمور يسكّون عملتهم وعليها رموز بأحرف بونية وبونية جديدة، ولا بدّ من انتظار فترة حكم يوبا الأول لتظهر على عملته الفضّية رموز بأحرف لاتينية وبذلك اختفت الأحرف البونية الجديدة(809 مكرّر).

كتبت كل النصوص النقوشية الرسمية المتعلقة بالمملكة النوميدية باللغة البونية، وواحدة فقط ذات طابع ديني مزدوجة، تحوي على الترجمة الليبية لنصّ بوني ويتمثل هذا في النصّ الإهدائي المنقوش على لوح في معبد ماسينيسا بدوقة، وينبغي التدقيق هنا أيضا وهو أنّ النصّ

(809 مكرّر) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, p. 50.

البوني متبوع بجملة أخيرة لا مقابل لها في الترجمة الليبية [811]، بينما تبيّن وفرة النقوش الليبية في دوقة أنّ اللغة والكتابة القومية ليست نسيا منسيا عند سكّان هذه المدينة خلال القرن الثاني ق.م. بل إنّ الملفت للانتباه أكثر في هذا السياق هو أنّه في نصّ إهدائي خاصّ على غرار نصّ ضريح أتبان (*Ateban*)[812] نجد النصّ الليبي يسبق النصّ البوني على اليمين(ش30) وإذا كان النصّ البوني يحتلّ المكانة الأولى في إهداء معبد ماسينيسا فإنّ ذلك ليس عرضاً ولكن لأنّ البونية كانت اللغة الرسمية في المملكة، وبالبونية أيضا سيكتب نصّ ميكيبسا الجنائزي بشرشال.

باللغة البونية أيضا كتب النص النقوشي الوحيد المتعلق بإدارة المملكة أو الجدير بأن يكون منظِّما لها، والمقصود هنا هو نصّ جبل مسوج (20 كلم شمالي مكثر) الذي كان موضوعا لدراستين مختلفتين كثيرا للأب شابو وجيمس فيفري [813] ، وبالنسبة للشارح الأول هذه العلامة الحدودية أقيمت في السنة 21 من حكم ميكيبسا وتكمن أهميتها الأساسية في تعيين الحدود ما بين ملكيتين الأولى تشكل احتمالا قسما من دومان ملكي ومن هذه العلامة الحدودية إلى نقطة معيّنة 240 وحدة قياسية، غير أنّنا في هذا السياق نفضل ترجمة جيمس فيفري التي تبدو أقل غموضا:" **نصب هذا الحجر و ل ب هـ *WLBH* في إقليم تيسكت (اسم مدينة؟) ابن اريس(؟) ، لبن د و س *DWS*، ابن ن ر و ت *NRWT* ابن زيليلسان بأمر من ميكيبسا الأمير في السنة الواحدة والعشرين من حكمه**[814]. **وانطلاقا من الحجر القريبة من القبر إلى حوالي ؟ هذا الحجر (يوجد) مائتان وأربعون شوطا**" ويعترف فيفري بأن هذا الحجر ليس علامة حدودية للدومان الملكي ولكنه علامة ميلية (*Milliaire*) نوميدية وضعت من قبل موظّف،وذهب بعيدا في إسقاطاته قائلا:

---

(811) - Chabot (J.B.), Recueil des Inscriptions libyques, n° 2.

(812) - Ibid. n° 1.

(813) - Abbé J.B. Cabot, Note sur l'inscription punique d'une borne limite découverte en Tunisie, B.A.C. 1943, pp. 64-67 ؛ ونشر فيفري دراشة عن نصّ آخر ، أنظر: - J.G., Février, la borne de Micipsa, B.A.C., 1951-1952, pp. 116-120 ، وصحّحت بعد ذلك من طرف المؤلأذف ذاته بعص فحص النسخة الأصلية ، أنظر:
- J.G. Février, paralipomena punica (suite) III, la borne de Micipsa, Cahiers de Byrsa, VII, 1967, pp. 119-127
والقراءة الثانية هذه هي المعتمدة هنا.

(814) لعلّ المسمّى WLBH هو الذي أقام العلامة الحدودية في جبل مسوج، ويمكن أن يكون من سلالة زيليلسن أو زيلالسن ولا أستبعد أن يكون عامل (Préfet) ميكيبسا هذا منتميا إلى العائلة الملكية الماسيلية، وأن زيلالسن من أسلافه، وزيلالسن كما هو معروف هو جدّ ماسينيسا ولعلّ الشخص واحد. و ل ب هـ ينتمي إلى جيل أقل سنّا من جيل ميكيبسا تبعا لهذه الفرضية، لكن لا ينبغي نسيان أنّه في ذلك التاريخ (127 ق.م.) كان ميكيبسا متقدّما في السنّ وأنّ أقاليم تيسكت (الصيغة الأمازيعية لتيسكا ؟) ليست بصرف النظر عن الاسم هي إقليم توسكا الذي فتحه ماسينيسا حوالي سنة 152 ومن المنطقي بالنسبة للمملكة النوميدية أن يعهد بإدارة إقليم مفتوح إلى أمير من العائلة الملكية.

والشوط المذكور يعادل استاد(*Stade*) والمسافة في هذه الحال بين العلامة الحدودية (*Borde*) ونقطة البداية تعادل43كلم، بينما يقع جبل مسوج على بعد أربعين كلم من دوقة مباشرة و"الحجر المحاذي للقبر" هو نقطة البداية للطريق الملكي، يمكن أن يكون حسب فيفري لصيقا بضريح أتبان (Atban) الشهير، على أنّه يمكن التفكير أيضا في أنّ إقامة معبد لذكرى ماسينيسا في مدينة دوقة هذه ذاتها يعود إلى أنّها عرفت خلال حكم ميكيبسا رقيا ملحوظا.

لا يمكن في الحقيقة الاعتماد على وثيقة واحدة وعلى قراءة غامضة لتأكيد أنّ إدارة المملكة في عهد ميكيبسا كانت متطوّرة كثيرا إلى حدّ أنّها كانت مهتمّة بكيل الطرق وإصلاحها لكن مهما تكون التأويلات المختارة فإنّ هذا النصّ النقوشي يحمل إن لزم الأمر دليلا جديدا وهو أنّ البونية كانت اللغة الرسمية في المملكة النوميدية .

خضعت العمارة – على الأقل ما هو جدير منها بهذا الاسم في المملكة – للقواعد التي احتفظت بها قرطاج في القرون الاخيرة من وجودها ويعكس ضريح دوقة وضريح الخروب وهما احدث من المدغاسن الصيغ التي سادت في قرطاج انطلاقا من طراز مقلد للطرز الشرقية والمصرية في مستوى تَبَنِّي عمارة مستلهمة من الطرز الهلينية إذ لا ينبغي اعتبار التأثيرات الإغريقية المكتشفة هنا وهناك في مختلف المعالم المعمارية كانت لحساب مستعمرات إغريقية مقامة على أرض نوميديا أو موريتانيا ولكن الأصح أنها لحساب التقاليد البونية التي احتفظ بها الملوك.

ليبية أم بونية : صدام الحضارات

كانت كل محاولات التنظيم والإدارة في المملكة النوميدية قد أدّت دون جدال إلى توسيع مجال الحضارة البونية وتعميقها وهذا يبدو لنا طبيعيا لا محالة، فأفريقيا كانت منجذبة للأشكال الشرقية من الحضارة، وأنّ ارتباطها بالغرب من خلال تدخّل روما لم يكن سوى حادث عرضي بسيط في التاريخ بينما كانت أفريقيا الشمالية قبل قرطاج وقبل الفينيقيين قد أسهمت بتواضع في حركات التبادل التي كانت – عبر المتوسّط الغربي – قد شاركت في تطوير نوع من جماعة أو تجمّع (*Communauté*) "شعوب البحر" الغربية.

عناصر حضارة سابقة للحضارة البونية

الحقيقة أنّ الفينيقيين حملوا إلى البربر جوهر الحضارة، وكان تدخّلهم لوحده هو الذي منح لأفريقيا الحياة الحضرية التي لا حضارة حقيقية دونها. وينبغي الإقرار أنّ أفريقيا قد شملتها بالكامل هذه الحضارة دون غيرها لأنّ شعوبها لم تكن لديها في السابق أيّة قاعدة ثقافية. وإذا كان الفينيقيون لم يجدوا في هذه الأرض سوى سكّان بدائيين جدّا محكوم عليهم – دون معرفة الأسباب – بالبقاء في حالة من التخلف التامّ. فإنّه ليس من المعقول بل هو هراء الادّعاء بأنّ كل شيء في بلاد البربر يعود إلى قرطاج لوحدها، فقد كان موجودا في الوقت الذي كان فيه النوميد والمور قد دخلوا التاريخ بعض المبادئ الحضارية الأمازيغية الأصيلة. وإذا كان ماسينيسا وخلفاؤه لم ينتبهوا إلى تنمية وتطوير ثقافة أصيلة في مملكتهم فلأنهم كانوا أكثر حرصا على ديمومة حكمهم، بالأموال التي يمكنهم اكتنازها أو الجيوش التي يستطيعون جمعها.

عند اعتلاء ماسينيسا العرش - حتى وإن كان هناك إقرار بأنّ كلّ المدن النوميدية من صنع بوني، وهذا شيء مبالغ فيه كثيرا – يلاحَظ أنّ الشعب النوميدي له بعض التقاليد سواء في تنظيم القبائل أو في تنظيم السلطة الملَكية، وهي تقاليد تنظيمية بسيطة للغاية وذات طابع ريفي صارم، لا تزال تتحكّم جزئيا في السكّان الأمازيغ من خلال هيئة **تاجماعت** القبائلية أو هيئة **الأمينوكال** التارقية، ولكن هذه التقاليد التنظيمية محدودة جدّا في تطبيقها؛ فهي لا تتجاوز حدود الكانتون أو الإطار القبَلي، ولم يحدث البتّة في التاريخ أن أسهمت تنظيمات القانون العرفي هذه في تطوير دولة أمازيغية(*).

الفنّ الهندسي الأمازيغي متوسّطي بالأساس ولا يد لقرطاج فيه، ويعود إلى أصول سابقة لها، وكذا الحياة الفلاحية وطرائقها، والممارسات السحرية-الدينية(**) هي كذلك أقدم من علم الزراعة البوني. ومع ذلك فإنّ الأهمّ في هذه الاهتمامات وهذه التصوّرات هو أنّ هذه الخصوصيات الأمازيغية نجت عبر القرون وظلّت حيّة رغم سيطرة حضارات أجنبية.

(*) **هذه الأحكام القطعية الجزافية يفنّدها التاريخ والكاتب هنا يصل قمّة تحامله على التاريخ الأفريقي الذي كرّس له هذا العمل لنفي أصالته وتحجيمه، وهي أحكام مبنية على أفكار مسبّقة ونظرة استعمارية استعلائية مهما ادّعى صاحبها الموضوعية واختفى وراء النصوص لأنّ تحليلاته تكشفه، ....**

(**) **الفن ... متوسّطي حتى لا يقول أمازيغي (بربري) والديانة ممارسات سحرية دينية حتى لا يقول معتقدات ... وهكذا يواصل الكاتب بناء صورة مشوّهة لتاريخ افريقيا الشمالية..**

استوعبت ديانة قدماء الأفارقة الآلهة البونية التي غزت المدن قل أن تنتشر في الأرياف غير أنّ الآلهة الماورية (*Dii Mauri*) التي تعود إلى فترات سابقة، استمرّت عبادتها حيّة ، وقد حرّم القديس أوقُستين على المسيحيين الذهاب إلى المغارات للتعبّد. لكن كم هو عدد الأمازيغ الآن، الذين لا يزالون يذهبون لإحراق شيء متواضع من البخور أو إنارة بعض الشموع في تجويف صخري [815]. ما يفعله هؤلاء اليوم ليس تعبّدا لا لساتورن ولا لمقدّسات الإسلام كذلك، والحقيقة هي أنّ هذه القوى الدينية المتحرّرة قليلا عن السحر البدائي لا ترضي إلاّ النفوس الخشنة[816]. لكن هناك مجال ديني كان الأفارقة القدامى متعلّقين به وهو المعتقدات الجنائزية على غرار باقي الشعوب الحامية فقد كان النوميد يعتنون كثيرا بموتاهم، والدليل على ذلك المقابر الميقاليثية الكبيرة وآلاف التميلوس المنتشرة هنا وهناك في عموم الشمال الأفريقي وخاصّة التهيئة المرافقة للمعالم المشيّدة التي تكشف عن عبادة جنائزية هامّة رغم أنّ بعض عناصرها مادّية إلاّ أنّها نقلت إلينا الصورة التي كانت عليها الطقوس الجنائزية البروتوتاريخية التي ظلّت قائمة وبعدد كبير طيلة الفترة الرومانية إلى بدايات الإسلام وهي معالم وطقوس أفريقية بالأساس لم تحدِث فيها الممارسات الطقوسية الفينيقية أيّ أثر[817].

الكتابة الليبية

خارج مجال الحضارة القرطاجية كان للأمازيغ لغتهم ومنظومتهم الكتابية وإذا كانت هذه الأداة الحضارية قد انتظمت خارج التأثير الفينيقي فإنّ ذلك يقدّم الدليل على أنّ الأفارقة لم يتخطّوا الوحشية البدائية فقط ولكنهم أحسّوا بالحاجة إلى تثبيت وترسيخ حركة الفكر والخطاب بالكتابة.

ومع أنّ للالفباء الليبية حروفها الخاصة التي تميزها عن الأبجدية الفينيقية فإنّ شكل الحروف في ذاته بعيد كثيرا ومتعارض مع المظهر الانسيابي بالأساس للحروف البونية، هذه الأخيرة هي كتابة تجّار يخطونها بسرعة على شمع أو على ورق البردي، فالأحرف البونية كلّها منحنية وحلزونية الشكل أمّا الحروف الليبية فعلى العكس مستقيمة الخطوط ومزوّاة (*Anguleux*) وتكوّن أشكالا هندسية أساسية، وكما لاحظ فيفري ، هذه الكتابة لم تستعمل على ما يبدو إلاّ في نقش نصوص على الحجر أو على مادّة صلبة[818].

(815) عن ديمومة هذه الفخاريات الصغيرة (Microcéramiques) يمكن الرجوع إلى :
- Cf. Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 279-280.

(816) - Cf. Charles-Picard (G.), les religions de l'Afrique antique, Paris 1954, pp. 1-25.

(817) - Camps (G.), op, l, pp. 461-567.

(818) - Février (J.G), Histoire de l'écriture, p. 319.

يوجد بعض التشابه بين عدد من الحروف الليبية والحروف الفينيقية، ولكـــن هنـــاك تشابه أكبر في بعضها مع ألفباء الجنوب العربي (اليمن) .

يكتب الخطّ الليبي بطريقتين؛ أفقيا من اليمين إلى اليسار كما هو الحال في نصّ دوقـــة المزدوج أوعموديا من أعلى إلى أسفل وهي القاعدة الأكثر شيوعا وبالتأكيد هي الأقدم[819] وتقليد الكتابة الفينيقية أفقيا من اليمين إلى اليسار واضح في نصّ دوقة حيث كتب الـــنصّ الليبي أفقيا، ورغم تأثير الكتابة العربية في وقت لاحق تظل الكتابة العمودية أنسب للتيفيناغ، وهذه خاصية أفريقية محضة وعفوية تماما لأن الأشخاص الذين لهم شيء من المبادئ الثقافية في أفريقيا السوداء تعودوا على استعمال الحروف العربية بالطريقة العمودية لكتابة اللغـــات غير العربية وفي الكونقو حتى الفرنسية كتبت كذلك وبحروف لاتينية مرتبة عموديا[819 مكرّر] مثل الأبجديات السامية على عكس الألفباء اللاتينية، لكن على غرار الأبجديات السامية ليس للكتابة الليبية أيّ حرف من الأحرف الصوتية فهي أبجدية حروف متحرّكة (*Consonantique*) مثل الأبجدية الفينيقية التي تكتب الحروف الصوتية طويلة المدّ، وهذه الميزة الهامّـــة جـــديرة بالملاحظة لأنّها يمكن أن تسهم في إلقاء الضوء على أصول هذه الألفباء.

كانت الأبجدية الليبية معروفة لدى مجموع السكّان الأمازيغ وكانت طيلـــة التـــاريخ القديم على الخصوص مستعملة في نوميديا الشرقية (الماسيل) لكـــن مدوّنـــة الأب شـــابو والاكتشافات التي تلتها تبيّن أنّها لم تكن مجهولة لدى الماسيسيل ولا لدى المور ولا حتّـــى الجيتول، هؤلاء الأخيرون استعملوها فترة أطول وتقدّم لنا النقوش المـــسمّاة ليبيـــة بربريـــة (*Libyco-berbère*) في المناطق الجنوبية (الأطلس المغربي، الجنوب الوهراني، تريبوليتانيا) نمطـــا وسيطا بين الليبي والتيفيناغ، وقد واصل التوارق وهم خلفاء الجيتول والقرامنت استعمالها في الكتابة كما فعلوا في الحفاظ على العادات، نمط المعيشة، اللغة وقسم هامّ من الانـــشغالات الدينية كسلسلة متواصلة تربط بعض هذه المجموعات الأمازيغية بالأفارقة القدامى.

كان الاستعمال الشامل مدة طويلة لهذه الكتابة الريفية بالأساس، بغموضها، والمدلول المختلف قليلا لبعض حروفها (المقصود هنا أبجديتان ليبيتان) المطابق جزئيا للمزاج الخصوصي للامازيغ، كافٍ لإظهار طابعها الأهلي، ومع ذلك ودائما تحت المسلّمة التي تقول

(819) **من 1125 نصّا أثريا ليبيا التي نشرها الأب شابو في مدوّنته، توجد 11 فقط مكتوبة أفقيا وهذه الأخيرة كلّها من دوقة.**

(**819** مكرّر) - Leboeuf (J.P.), l'écriture verticale des caractères arabes et latins dans l'Afrique subsaharienne, Notes africaines, n° 88, oct. 1960, pp. 126-127 ؛**يفترَض إجراء مقاربة هذه العادات الكتابية في اختيار اتجاه الكتابة الليبية أو تاماهق.**

أنّ الأمازيغ لم يخترعوا شيئا وكل شيء عندهم مقلّد، نجد عددا كبيرا من الكتّاب يقرّون بأنّ الالفباء الليبية ما هي إلاّ استعارة من الحضارات الشرقية*.

يلحّ الآخذون بالأصل السامي على طابع الحروف المتحركة والتشابه – الخفيف حقّا- بين بعض كتابات الجنوب العربي والكتابة الليبية على أنّ الكتابة السامية الوحيدة التي يمكن أن يكون الليبيون قد عرفوها هي الكتابة البونية، إلاّ أنّ الحروف البونية مختلفة كثيرا عن الحروف الليبية ، وجوهر الكتابة ذاته مختلف في الأصل أيضا أمّا فرضية ليدزبارسكي التي تريد ربط الليبي بالبوني الجديد فإنّها لا تلقى قبولا لأنّ أحد النقوش الليبية النادرة المؤرّخة، – وهو النصّ الإهدائي في معبد ماسينيسا بدوقة (139 ق.م.) – يعود إلى فترة لم تكن قد ظهرت فيها الكتابة البونية الجديدة المنبثقة من الكتابة البونية بعد. ولأنّ هذا النصّ النقوشي الليبي ذاته كتب أفقيا فهو مصنَّف ليس في النصوص الأقدم ولكن على العكس ضمن النصوص الأحدث، ومن حسن الحظّ أنّ الوضع الأقدم هو الوضع العمودي، وهذا دليل على أنّ الكتابة الليبية عرفت منذ 139 ق.م. بعض التطوّر باحتكاكها بالكتابة البونية ولكن لا ينبغي أن ننسى أنّ نصّ دوقة النقوشي الليبي استثنائي سواء من خلال طوله أو من خلال مضمون الكتابة ولهذا لا يمكن أن نقيم على أساس نموذج أصلي نصوصا مختلفة كثيرا عن باقي النصوص النقوشية الليبية.

إنْ كان هناك تقليد في منظومة الكتابة الامازيغية عن منظومة الكتابة الفينيقية فلعلّ هذا التقليد قديم جدا، ويقتصر خاصة على استعمال الحروف المتحركة وحدها مع أن هذه الحروف متميّزة تماما عن الحروف الفينيقية .

كان ملتزر[820]، قد عزا إلى ماسينيسا الفكرة الأصلية في إنشاء الكتابة الليبية بشكل من الأشكال [821]، غير أنّ هذا الرأي لم يصمد أمام الاختبار، مع أنّه حاول حقّاً افتراض أنّ "الملك النوميدي المدرك بقوّة شخصيته لأصالة الشعب الامازيغي في مواجهة الحضارة البونية

(*) هذا اعتراف مهمّ جدا ومع ذلك فإنّ غابريال كامبس لا يختلف كثيرا عن هؤلاء الكتّاب الذين ينتقدهم، ومنذ السطور الأولى في هذا الكتاب انطلق من هذه المسلّمة رغم أنّه قياسا مع الآخرين أقلّ تشويها.

(820) - Meltzer (O.), Geschichte des Karthager, t, I, p. 493.

(821) - Cf. Gsell (S.), HAAN, t, VI, pp. 107-108. لم يقبل اقزال هذه الفرضية؛ أمّا فيفري فلم يبد رأيا معارضا لها :
- Février (J.G.), Histoire de l'écriture, p. 320 ؛وأيّدها بيكار: - Charles-Picard (G.), Le Monde de Carthage, p. 78 آخر رأي بخصوص أصول الكتابة الليبية صاغها كذلك فيفري " ... أما بخصوص الكتابة الليبية فلي انطباع (رأي شخصي تماما) أنّها ارتقت خلال القرن الثالث وبداية القرن الثاني ق.م. تقليداً للكتابة البونية لكن من المحتمل أن تكون صيغة جديدة لكتابة محلّية قديمة، -J.G. Février , la ville antique de Mactar en Tunisie, Journ, des savants, 1958, pp. 136-140؛ والعبارة التي ختم بها فيفري يمكن أن تكون مرتكزا من جديد لفرضية الأصول القديمة جدّا .

أراد أن يحمي هذه الأصالة فوضع بين أيدي شعبه أداة تعبير خاصة به". مع أن اللوم الذي يمكن توجيهه إلى ماسينيسا وكل خلفائه هو أنّهم أهملوا تماما معطيات الحضارة النوميدية لفائدة الحضارة البونية التي استفادوا حقا من مزاياها الظرفية، وعلى افتراض أنّ ماسينيسا كان قد عزم في الواقع على إنشاء أبجدية وطنية انطلاقا من الصفر فكيف يمكن إذن تفسير استعماله الدائم والمنهجي للّغة والكتابة البونية سوى أنها كانت اللغة والكتابة الرسمية للمملكة وليست اللغة والكتابة الليبية ؟ أي تفكير لهذا الأب الذي يحرم ابنه يوم ولادته ؟ هذا دون الكلام عن خلو العملة النوميدية من أي رمز ليبي بل إنّ النص الوحيد الذي أعطى مكانة للكتابة الليبية -كما اشرنا أعلاه - جعل تلك الكتابة في الدرجة الثانية.

من جهة أخرى، يتبين من توزيع النقوش الليبية أنّ السكان الريفيين لا الحضر هم الذين يستعملون هذه الأبجدية وأنّ دوقة تشكّل استثناء مع حوالي عشرة نقوش ليبية عثر عليها في أماكن أخرى والغريب هو أنّ سيرتا عاصمة ماسينيسا ذاتها لم نجد فيها غير نص مبتور ليس فيه أكثر من ثلاثة أحرف ليبية !

يكشف انتشار الكتابة الليبية عبر كل أفريقيا الشمالية - في شكلها التيفيناغي في الصحراء أي ما وراء حدود المملكة النوميدية - في الوقع عن الطابع الشمولي لهذه الكتابة عند الامازيغ، فكيف يمكن قبول أنّ عملا شخصيا أي مصطنعا بالضرورة يستطيع أن يحقق مثل هذا النجاح وأن يستمر قرونا عديدة بعد وفاة الملك النوميدي ؟



ش 30 _ رسم صخري من الاطلس الاعلى عليه كتابة ليبية (أمازيغية قديمة)

يوجد في الواقع عدد من العناصر تسمح بالتفكير في أنّ الكتابة الليبية كانت بالفعل قديمة جدّا خلال عصر ماسينيسا وحتى الحروف التي تتكون منها هي في الواقع قسم من فهرس مضامين (*Motifs*) نفيسة في الفن الامازيغي نجدها في زخارف الفخار وكذا في الوشم[822]، حيث احتفظت منذ زمن بعيد بالأشكال الأساسية: الصليب، النقط، مجموعة خطوط ودوائر مع حيوانات في عدد من الرسوم الصخرية ذات تقليد نيوليثي[823]، إلى جانب رسوم صخرية أخرى جيدة التصميم مثل رسوم كاف الخراز التي تكشف احتمالا الانتقال من الصورة (*Figure*) إلى الكتابة التصويرية (*Pictogramme*) وليس من العبث أن يقارن السيد سولينياك مضامين هذه المحطّة بـ"النصوص النقوشية" في الصومال [824]، ولعل هذا الاتجاه هو الذي ينبغي البحث فيه عن أصول الكتابة الليبية التي تظهر بعض الشبه بالكتابة الحميَرية، خاصّة وأنّ اللغة الأمازيغية ذاتها تنتمي إلى الفرع الحامي القريب من اللغات السامية، وفي الأخير نشير إلى أنّ الأركيولوجيا تحثّ على البحث باتجاه هذه المناطق بالذات عن قسم من أسلاف المجموعة الأمازيغية على الأقلّ.

هناك حقائق أخرى تدعونا إلى البحث عن أصول الألفباء الليبية باتجاه المناطق الغربية من أفريقيا، فالملاحَظ منذ وقت طويل أنّ القوانش استعملوا بعض الرموز الكتابية دون أن تكون مطابقة للألفباء الليبية ولكن لها قرابة كبيرة بها، وذات الشبه ثابت بين الكتابة الليبية والكنارية من جهة وكتابة توردیتان (*Turdétan*) في الجنوب الغربي لإسبانيا، من جهة أخرى، وهي موجودة على الأقلّ منذ ما قبل 200 ق.م. [825]. لكن اكتشاف نصّ نقوشي ليبي في الأطلس الأعلى في المغرب، ثبت أنّه الأقدم بين كلّ النقوش الليبية، وهذا النصّ عبارة عن سلسلة من الرموز ذات شكل ألفبائي (*Alphabétiforme*) واضح في وضع عمودي مكتوب فوق صورة شخص مرسومة على صخر بجبل أوكايَمْدَن (*Oukaïmeden*) ويتبيّن من تركيب الصورة ومظهرها دون ريب أنّ النص النقوشي والشخص المرسوم كانا متعاصرين (ش 31) أمّا بالنسبة لمميزات الصورة وأسلوب رسمها فيستنتج أنّها تنتمي دون شكّ إلى مجموعة

---

(822) مقاربة ألحّ عليها بيتس كثيرا في كتابه عن الليبيين الشرقيين ص ص 85-86 بالانكليزية.

(823) - Gsell (S.), HAAN, t, VI, p. 101.
- Solignac (M.), les pierres écrites de la Berbérie orientale, Tunis 1923.

(824) - Solignac (M.), op, l, pp. 120-122. ; - Carette-Bouvet (P.) et Neuville (H.), les pierres gravées de Siaro et de Daga-Beid (Somalie), l'Anthrop, t, XVII, 1906, pp. 383-392.

(825) - Février (J.G.), Histoire de l'écriture, p. 327.

الأطلس الأعلى من الرسوم الصخرية المؤرّخة بعصر البرونز[826]، ولعلّ العلاقات العريقة بين بلاد الأمازيغ الغربية وشبه الجزيرة الإيبرية تكون قد أسهمت في تكوين الكتابة الليبية والكنارية وكتابة توريدان، وليس من المستبعد أنّ حضور الخط البوني قد أثّر بعض الشيء في منهجية تلك الأبجديات وعلى وجه الخصوص تبنّي شكل كتابي مقتصر على الحروف المتحرّكة، وممّا لا جدال فيه أنّ رموز وحتى شكل الكتابة التي نجد فيها ذوق الأمازيغ هو التركيب العمودي [827]، وقد تمّ اختياره خارج أيّ تأثير فينيقي واحتمالا قبله.

ليس نسخا مذلاّ عن النموذج البوني ولا خلقا انطلاقا من الصفر أوحى به خيال ملك، الكتابة الليبية بكل وضوح كتابة أهلية وهي قطعا سابقة لماسينيسا.

*

* *

في الوقت الذي نشأت فيه المملكة النوميدية كان للسكّان الأمازيغ إذن بعض العناصر من الحضارة الأهلية تولّدت من علاقات قديمة عبر السهوب الصحراوية التي لم تكن قد جفّت بعد وعبر مضايق البحر التي اجتازتها السفن الأوربية الأولى، وبعد أن تحررت بلاد الأمازيغ من رقابة قرطاج المتشدّدة، وقبل خضوعها لروما كان لها بعض الحظوظ لتنمية أصول حضارة أفريقية أصيلة ومتوسّطية في نفس الوقت، لكن مع شدّة يأس بربري مدرك لنقاط ضعفه، ضمن ماسينيسا في عمل أكمله الملوك المنحدرون منه انتصار الحضارة التي رأى أنّها أفضل لأنّها أجنبية.



(826) - Malhomme (J.), Corpus des peintures rupestres du Grand Atlas ($1^{ère}$ partie ; publ, du service des antiq, du Maroc, (fasc, 13, 1050).

(827) - Marçais (G.), l'art des Berbères , les conférences visites du Musée Stéphane GSELL, Alger,1956

مدن المملكة النوميدية

(ما بين الخندق الملكي والمولوشا)

I- عواصم

سيرتا (سيفاكس،ماسينيسا،ميكيبسا) [828]	**يول** (ميكيسا ؟ بوكوس 2 ، يوبا 2)
سيقة (سيفاكس، بوكوس) [829]	**زاما** (يوبا الأول)

II- مدن ملكية [830]

ثيميدا ريجيا (Thimida regia)	**بولة ريجيا** (Bulla regia)
زاما ريجيا (Zama regia)	**هيبو ريجيوس** (Hippo regius)

III- مدن مقر "خزينة" ملكية و مقرّ دائرة جبائية[831]

مكثر [832] (Mactar)	**ثيرميدا**(ثيميدا ريجيا؟)[833](Ttirmida, Thimida regia)
ثالة[834] (Thala)	**كابسا** [835] (Capsa)
سوثول [836] (Suthul)	**كالمة** [837] (Calama)
سيرتا (Cirta)	**كاستلوم مولوشا**[838](Castellum mulucha)

IV- مدن يديرها اشفاط [839]

ألثيبوروس (Althiburus)	**لبتيس ماقنا** (Leptis magna)
كالمة (Calama)	**ليميسا** (Limisa)
كابسا (Capsa)	**مكثر** (Mactar)
سيرتا (Cirta)	**ماسكولولة** (Masculula)
قاديوفالة (Gadiaufala)	**ثوقّة** (Thugga)
قالس (Gales)	

(828) ظلت عاصمة للمملكة الى وفاة قاودة وبقيت في حوزة يامبسال الثاني ويوبا الأول.

(829) استلم بوكوس ماسيسيليا في **105** ، وكان ينبغي ان يقيم في سيقة ، اقام ابنه بوكوس الثاني دار سكة في هذه المدينة، يراجَع:
- Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 107 à 112

(830) لا تعود أهمية زاما إلى فترة يوبا الثاني ، يراجَع :
– Courtois (Ch.), la Thala de Salluste, Rec, de Constantine, t, LXIX, 1955-1956, pp. 57-72.

(831) - Gsell 'S.), HAAN, t, V, passim.; A. Berthier et J. Juillet et Abbé R. Charlier, le Bellum Jug. De Salluste et le problème de Cirta, pp. 114-115.

(832) - Charles-Picard (G.), civitas mactaritana, Karthagi, VIII, 1957, pp. 21-24.

(833) - Salluste, Bellum Jug. XII, 2.

(834) - Ibid. LXXV, 1.

(835) - Strabon, XVII, 3, 12; Paul Orose, Adversus paganos, V, 15, 8.

(836) - Salluste, Bellum Jug. XXXVII, 3.

(837) - Paul Orose, Advesrsus paganos, V, 15, 6.

(838) - Salluste, Bellum Jug. XCII, 6,

(839) تبعا للقائمة وبالتسلسل الأبجدي -Poinssot (L.), Une inscription de Souani El-Adani, Rev, tunis, 1942, t, LXXXVI, pp. 124-140 أضيفت سيرتا إلى هذه القائمة بسبب وجود قاضيين سنويين بهذه المدينة أشير إليهما في نصب الحفرة رقم **21**، وعلى عملة صادرة بهذه المدينة Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 523-529 -؛ وتم استثناء مدن أفريقيا القديمة وموريتانيا من هذه القائمة.

V- مدن نوميدية اخرى[840]

كاماراتا (Camarata)	قونوقو (Gunugu)
إكوسيوم[841] (Icosium)	لاريس[842] (Lares)
ماكومادس[843] (Macomades)	ماداوروش[844] (Madauros)
ناراقارا[845] (Naraggara)	ريجياي[846] (Regiae)
روسيكاد[847] (Rusicade)	صالداي[848] (Saldae)
سيكة[849] (Sicca)	شمتو[850] (Simittu)
تابراكة[851] (Tabraca)	ثايناي[852] (Thaenae)
ثاقورة[853] (Thagura)	ثيميسي[854] (Thimici)
تيسيديوم[855] (Tisidium)	باجة[856] (Vaga)
زوكابار[857] (Zucchabar)	



(840) قائمة بتسلسل أبجدي متممة للقائمة المشار اليها أعلاه ص ص 52–54 تنصّ على المدن المذكورة في الروايات التي تعود إلى تاريخ متأخر عن اعتلاء ماسينيسا العرش وسابقة لوفاة يوبا الأول، كما نصّت على المدن التي كانت موجودة في تلك الفترة وأثبتت ذلك وثائق أثرية.

(841) هذه المدن الثلاثة سكّت عملتها ، انظر: - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 572-575; Camarata. 568-571: Gunugu, 541-544 : Icosium

(842) - Salluste, Bellum Jug. XC, 2.

(843) -- Mazard (J.), op cit, n° 520-522.

(844) - Apulée, Apologia, XXIV, 7, 8.

(845) - Tite-Live, XXX, 29, 9.

(846) عن اسم هذه البلدة (اليوم أغبال عمالة وهران) نرى أنها كانت تابعة لدومان ملكي قديم ، أنظر أعلاه ص 228.

(847) عرفت باسم تابسوس في رواية تيت ليف، (Tite-Live, XXIX, 30, 5) كانت فيها دار سكة في عهد الملوك: -- Mazard (J.), op cit, n° 536- 537

(848) - Ibid. n° 528-540 ؛ احتمال وجود دار سكّة بها.

(849) - Salluste, Bellum Jug. LVI, 3.

(850) كان اسم مقلع الرخام بشمتو خلال الفترة الرومانية Officina regia أنظر: - Gsell (S.), HAAN, t, V p. 212 ؛ أنظر أيضا : - CIL, VIII, 14578 14579, 14583

(851) - Mazard (J.), op cit,. n° 151 ؛ احتمال وجود دار سكّة بها.

(852) كانت هذه المدينة ضمن مملكة يوبا الأول أنظر: - Bellum afric. LXXVII, 1.

(853) احتمالا وجد بها دار سكّة : يراجَع : - Gsell (S.), HAAN, t, V p. 270 لا إشارة إلى عملة بها رمز قرئ هكذا TGRN في مازار.

(854) دار سكّة : مازار رقم 577.

(855) - Salluste, Bellum Jug. XXIX, 4. XLVII, 1, LXVIII, 1, et 3

(856) - Ibid., LXII, 8.

(857) عن بصمات التأثير الفينيقي في هذه المدينة أنظر: - Atlas archéologique de l'Algérie Feuille n° XIII, Miliana, n° 70

ج ـ التعبّد للملوك

الظروف التاريخية والأوضاع المحلّية

يتعدّى الامتداح السخي لشخص ماسينيسا من قبل بوليب والمعاد من قِبَل المؤلفين القدامى والمحدثين حدّ الإعجاب بمناقب ملك عظيم إلى وجود تقديس وتعبّد لذكراه مما أسهم في تكوين صورة كلاسيكية للأقلّيد الكبير ممدّن النوميد، الأمير القوي الجليل "**ماسينيسا أقلّيد وإله**" هو عنوان فصل لكتاب ممتاز في تاريخ أفريقيا الشمالية[858]. ذلك أنّ المؤرّخين لا يساورهم أدنى شكّ في أنّ ماسينيسا كان قد قُدِّس وهو على قيد الحياة وأنّه هو ذاته الداعي إلى هذا التقديس، وإذا كان الأفارقة يقدّسون ملوكهم فليس ذلك بسبب ميلهم إلى عبادة الإنسان (*Anthropolâtrie*) ولكن أيضا –كتب اسطيفان اقزال– بإرادة أحدٍ من حكامهم، الأكبر من بينهم؛ مستلهمين احتمالا نموذج البطالمة ورثة الفراعنة، ويكون ماسينيسا قد رأى في ذلك دعما لسلطته، ممّا يجعله محاطا بهالة القداسة، ويكون ورثته قد اتّبعوا هذا المثال[859].

كانت تلك هي النتائج التي توصّل إليها مؤرّخون مرموقون؛ هكذا يكون ماسينيسا قد استفاد من عبادة ملكية (*Culte royal*) تقوم على نموذج هلينيستي؛ الملك المظفّر و"السعيد" يشترك في الطبيعة الإلهية، وعلى غرار الإسكندر، ديميتريوس وبطليموس يصبح إلها.

إذا كان ماسينيسا قد أُلِّه في حياته، فإنّ هذا يعني في واقع الحال أنّ النوميد اعترفوا له بمواهب عليا وأنّ مزاياه أو قوّته كانت أوسع من المجال السياسي والاقتصادي الذي قد يحجب عنّا رؤية تلك المواهب، ومن الأهمية بمكان إذن القيام بدراسة عناصر هذا التقديس الموجّه للذات الملكية، وتحليل الوثائق المتعلّقة بذلك، أو التي تلمّح إليه.وأخيرا تحديد النزعة الحقيقية لهذه الديانة وتعريف طبيعتها.تنبغي الإشارة بادئ ذي بدء إلى أنّ الظروف كانت تسمح على نحو جيّد بميلاد وتطوّر عبادة الملوك، وكان القرن الثالث الذي انتهى باعتلاء ماسينيسا العرش قد شهد في عموم بلدان المشرق تعدّد تأليه وعبادة "أشخاص فوق البشر *surhommes*" انتصروا على منافسيهم، والمثل الحيّ هنا هو فيليب وخاصّة الإسكندر وتلاهما على نطاق واسع ولاة العهد الإغريق (*Diadoques*). فقد كانت التقاليد الهلينية في تقديس الأبطال راسخة عند اللاجيين (*Lagides*) على وجه الخصوص مشبعة بإضافات مصرية بحتة

---

(858) - André Julien (Ch.), Histoire de l'Afrique du Nord, 2e éd. T, I, 1951, p. 99.

(859) - Gsell (S.), HAAN, t, VI, p. 132.

ورثها الاسكندر. وفي حجه إلى واحة آمون اعتُرِف للمقدوني بأنّه ابن إله بل هو الله ذاتـــه. كما تبني البطالمة خلفاء الفراعنة شكل سابقيهم الذي يسبغ عليهم هالة الالوهية، كـــذلك تقبل العالم الهلينستي -الذي كان له الاستعداد بواسطة التصور الاغريقي للبطل- بـــسهولة تأليه هؤلاء الملوك. وكان تأثير هذه الأفكار في عهد ماسينيسا قد بدأ في الدخول إلى بعـــض الدوائر في الأرستقراطية الرومانية وعلى الخصوص في محيط السيبيونيين حيث كانت تختمـــر في الخفاء نظرية البرانكيبس (*Princeps*) الموعودة بالخلود لمصائرها المجيدة[860].

في قرطاج ذاتها يمكن افتراض أنّ التأثيرات الإسكندرانية كانت محسوسة في الفنون وفي المعتقدات، ويمكن أن تكون قد أسهمت في إيقاظ ذكريات قديمة عن الملوك وعن الأبطال، ويقترح شارل بيكار في هذا السياق أن نرى في قصّة إنشاء قرطاج الأسطورية وتضحية ديدون التعبير عن تحوّل طقس كوني إلى تضحية الملك الواهن الذي لا يمكن أن يُبْقِي في شخصه الطاقة المقدّسة الضرورية لحياة المجتمع. وقد كان يتوسّط توفات قرطاج قبر بطل اكتشف سنتاس الصومعة الملحقة به، هذا القبر هو احتمالا قبر مؤسِّسة قرطاج ديدون التي تكرست بإلقاء نفسها في المحرقة القربانية (*Bûcher sacrificiel*) ، وقد تواصلت عبادتها موازاةً مع عبادة كبار آلهة المدينة: تانيت وبعل آمون، وعلى العكس مما يراه اقزال كان لعبادة الأبطال جانب من الأهمّية في قرطاج، وبصرف النظر عن ذكرى ديدون كان القرطاجيون يمجّدون هاميلكار الذي تكرّس بإلقاء نفسه هو ذاته في المحرقة خلال يوم هيمر المرعب[861]. وحتى عند النوميد ذاتهم كان سيفاكس قد تبنى بعض العادات الهلينيستية مثل ارتداء التاج وسك عملة تحمل على وجهها صورته.

تكمن النـــزعة التي دفعت الأفارقة إلى عبادة البشر (*Anthropolâtrie*) في الاعتقاد في **البَرَكة** (baraka) التي ظلت السند المعنوي للزعماء البربر، وأخيرا التقاليد الحامية القديمة التي أوصلت المصريين إلى تأليه الفرعون، هذه هي الظروف الإيجابية التي تضاف إلى التيارات الدينية في عصر غني بـــ"الأبطال" . كذلك أفريقيا ذاتها لا تخلو من العناصر التي يتيح دمجها ميلاد ديانة لعبادة الملوك من شأنها أن تدعم الروابط الهشة التي تجمع مختلف المناطق النوميدية تحت سلطة الملك الماسيلي.

(860) في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى مداخلة بيقانيول :
- Piganiol (A.), Sur la source su songe de Scipion, CRAIBL, 1957, pp. 88-98.

(861) - Charles-Picard (G.), les religions de l'Afrique antique, pp. 34-37.

في واقع الحال كثيرة هي الشواهد الدالة على تعبُّد الأفارقة لملوكهم وكثيرة أيضا الوثائق ذات الصلة بهذه الظاهرة خلال العهد الملكي وهو على الخصوص شيء نادر وجدير بأن يسجل. هذه الوثائق هي وثائق أدبية، نقوشية وإلى حدٍّ ما أركيولوجية لكن كثرتها النسبية تخفي فقرا في المعلومات وتخفي أيضا تناقضات خطيرة تثير في نهاية المطاف الشكوك في حقيقة هذا التعبُّد، فما هي هذه الشواهد ؟

الشواهد الأدبية

يؤكّد الكثير من الكتّاب القدامى أنّ المور عبدوا ملوكهم، وقد ورد ذلك في نصوص تعود كلّها إلى ما بعد عهد ماسينيسا بكثير، لأنّها مأخوذة عن كتّاب مسيحيين أقدمهم ترتوليان الذي كتب:

"Uniquique etiam provinciae et civitati suus est, ut syriae Astartes,… ut Aficae Caelestis, ut Mauretaniae Reguli sui"

"كل مقاطعة وكلّ مدينة لها إلهها؛ سوريا لها أستارتي، أفريقيا لها كايلستيس وموريتانيا لها ملوكها"[862]

يتحدث معاصره مينوكيوس فليكس هو الآخر في الأوكتافيوس (*Octavius*) [863]، عن تعبّد للملوك بعد وفاتهم: " **بعد موتهم تخيلوا يصبحون آلهة ... مثل يوبا، لقد ارتضاه المور إلها**" ويغالي القديس كبريانوس قائلا أنّ "**المور يعبدون ملوكهم صراحةً ولا يخفون في ذلك سرّا**"[864]. وبعد نصف قرن ها هو لاكتانس في دستوره الالهي يكرر بأنّ يوبا كان يعبَد من طرف المور الذين يخلّدون ملوكهم[865]. وهناك بعض الشذرات أو النصوص الموزعة هنا وهناك تكرر دون أن تتم ما أخبرنا به الكتّاب المسيحيون القدامى[866]، أمّا حديثا فهذا كاركوبينو يلقي الضوء على بعض أشعار بريدانس (Prudence) التي تلمّح إلى الحفلات التي يحيي بها سكان تنجيس ذكرى ملوكهم "**الماسيل**"، ومثلما أشار كاركوبينو هؤلاء الملوك الماسيل لا يمكن أن يكونوا غير يوبا الثاني وابنه بطليموس المنحدرين من ماسينيسا وقايا ملوك الماسيل[867]. لأنّ موريتانيا باعتلاء يوبا الثاني العرش أصبحت محكومة من قبل أمير من العائلة الملكية الماسيلية.

(862) - Tertullien, Apologeticus, 24.
(863) - Minucius Félix, Octavius, 32, 9: "Post mortem deos fungitis ut… Juba, Maris volentibus, deus est"
(864) - Saint Cyprien, Quod idola dii non sint, 2. "Mauri vero manifeste reges colunt, nec ullo velamento hoc nomen obtexunt" .
(865) - Lactance, Institutions divinae, I, 15, 6.
(866) - Prudence, Peristephanon, IV, 45-48. ; - Isidore de Séville, Etymologie, VIII, 11, 1.
(867) - Carcopino (J.), la fin du Maroc romain, dans le Maroc antique, pp. 284-285.

على النقيض من الكتاب المسيحيين لم يقدّم الكتاب الوثنيون أي إشارة عن عبادة الملوك سواء في حياهم أو بعد مماهم لا توجد أي جملة ولا أي تلميح من الذين تحدثوا عن هؤلاء الملوك وفيما يتعلق بماسينيسا وخلفائه الأولين لا معاصرهم بوليب، ولا سالوست ولا محرر كتاب الحرب الأفريقية ولا تيت ليف ولا ابيانوس كانت له معرفة بالتعبد للملوك في حين أهم أتاحوا لنا تركيب بعض جوانب البلاط النوميدي فعبارة *decus regnum* تعني أنّ الحاكم يتصدر دائما المجلس وهو ما جعل يامبسال يغير مكانه ليمكّن آدربال من تصدر المجلس ويحرم يوغرطة من ذلك الشرف[868]، وهناك مشهد مماثل وقع خلال الحرب الأهلية عندما حاول يوبا الاول الجلوس في الوسط بين سيبيون وكاتون[869]. وخلال الحرب على يوغرطة لم يسمح متلوس لقاودة بالجلوس بجانبه حسب ما جرى به "العرف الملكي"[870] علامات التوقير هذه المشهودة عموما في كل المجتمع لا ينبغي أن تتحوّل إلى أحكام مسبقة تتّخذ دليلا على وجود تعبّد لشخص الملك.

حقيقة، يمكن استعمال بعض المعلومات التي تعطي عن طريق الاستقراء قرائن ما لصالح القول بوجود عبادة الملوك، ولكن هذه ليست دلائل حقيقية فهذا بلوتارك يروي أسطورة رائجة في تنجيس (طنجة) مفادها أن هرقل قاهر أنتي (Anté) تزوج من أرملته تينقا (*Tinga*) وأنّ ولدهما سوفاكس (***Sophax***) حكم البلد، وهذا ديودور يزعم أن ابن هذا الأخير منه ينحدر يوبا[871]. ويشير هذا النص في الواقع إلى أنّ يوبا الثاني أراد أن يعطي نسبا إلهيا لعائلته وهذا يقود إلى التفكير في أن بوكوس هو الآخر حاول ربط سلسلة نسبه بباخوس الذي تظهر صورته على وجه عملته [872]. أخيرا ها هو أرنوب وهوكاتب مسيحي آخر، يذكر من بين المعبودات الأفريقية بوكور ماوري (*Bucures Mauri*) القريب اسمه من اسم ملوك موريتانيا[873] وهو أمر مشكوك فيه[874].

(868) - Salluste, Bellum Jug. XI, 3.
(869) - Plutarque, Caton le jeune, 57.
(870) - Salluste, op. cit. LXV, 2.
(871) - Plutarque, Sertorius, IX, ؛ وعن سوفاكس ابن هرقل أنظر أدناه ص **308**.
(872) - Gsell (S.), HAAN, t, VI, p. 158.; Mazard (J.), Corpus … pp. 62-64.
(873) - Arnobe, Advesrus paganos, I, 36. ؛ البعض اقترح Bocchores -Cf. Gsell (S.), HAAN,t, VI, p. 138.
عن المقاربية مع Bocchus أنظر : - Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, Rev, de l'Hist, des religions, 1910, pp. 291-342 (pp. 314-315).
(874) التقريب المقبول أكثر حاليا هو الذي يشرك هؤلاء الــ"البوكور Bucures"مع الإله بونشو Bonchor"وهو إله موري أنظر :
- Merlin (A.), Divinités indigènes sur un bas-relief romain de la Tunisie, C.R.A.I.B.L., 1947, pp. 355-371
- Camps (G.), l'Inscription de Béja et le problème des Dii Mauri, Rev, afric, t, XCVIII, 1954, pp. 22-24.
يكون بونشور حسب جيمس فيفري إدغام للاسم البوني بودملقرت (J. Fevrier, B.A.C. 1949, pp. V et VII) وقد تساءل شارل بيكار عمّا إذا كان هذا الإله بونشور ليس شخصا مؤلّها G. Charles-Picard, Op. Cit., p. 24

هذه إذن مجموعة الشواهد الأدبية التي يمكن أن تكون ذات صلة بالتعبّد للملوك الأفارقة أو أنّها توحي بوجود هذا التعبّد والملاحَظ أنّ النصوص الأكثر وضوحا متأخرة كثيرا في الزمان وتعود إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي وهي كلّها لمؤلّفين مسيحيين وتخدم حججا منافحة عن المسيحية مما يجعلها قليلة الأهمّية في موضوعنا هذا، فهذا ترتوليان يذكر الملوك الموريتانيين *"Mauretaniae Reguli"* في منافحاته "*Apologeticus*" ولكن في كتاب آخر : Ad nationes في عبارة موازية نسب إلى الموريين عبادة وارسوتينا (*Varsutina*) كمعبود متميّز[875]. هؤلاء الكتّاب: ترتوليان، مينوكيوس فليكس، القدّيس كيبريانوس، لاكتانس، وأرنوب هم أفارقة كلّهم لا يمكن أن نضع شواهدهم محلّ شكّ ولكن ما ذا تقول شواهدهم في واقع الحال؟ يمكن الإقرار بوجود افتراضين في أطروحتهم : الأول هو أنّ الملوك الذين ألّهوا وعبدوا من طرف الأفارقة هم ملوك متوفّون، فلا أحد من هؤلاء قال أنّهم عُبدوا في حياتهم وما جاء في مونيكوس فليكس يؤكّد بدقّة أنّ التأليه تمّ "بعد الوفاة *post mortem*" والافتراض الثاني وهو الأهمّ في موضوعنا هو أنّ كلّ الملوك المؤلّهين هم ملوك موريون (*reges ou reguli maurorum*) والحقيقة أن الاسم مور منذ القرن الثالث أخذ في أفريقيا معنى عامّا للدلالة على مجموع الأفارقة غير المرومنين [876]. لكن الخلط في نصوصنا غير ممكن فترتوليان يقابل كايلستيس التي عبدت في أفريقيا (البروقنصلية ونوميديا) بالملوك الذين عبدوا في موريتانيا؛ وتأكيدا لهذا ما سجّله قلم مونيكوس فليكس وهو أنّ المور ارتضوا يوبا بمحض إرادتهم إلها لهم. ويعيد لاكتانس ذات التأكيد وأنّ الملوك الماسيل عبدوا في تنجيس وحسب بريدانس ليس هؤلاء الملوك الماسيل سوى يوبا وابنه بطليموس، وحتى ولو أنّ المقصود بالبوكور ماوري (*Bucures Mauri*) الذين ذكرهم أرنوب هما الملكان بوكوس الأول والثاني ينبغي الاعتراف أنّ المقصود هنا هم أمراء موريتانيا، فلا وجود لأيّ وثيقة أدبية أشارت إلى ملوك نوميد أُلِّهوا أو عُبِدوا من ماسينيسا إلى يوبا الأول من قبل الأفارقة.

النصوص الأثرية

هل تقدّم الوثائق النقوشية توضيحات أكثر مما يسمح بتاكيد الرأي الشائع عن التعبد للملوك الأفارقة ؟ يمكن تجميع هذه الوثائق في سلسلتين : النصوص الأثرية البونية المعاصرة للملوك الماسيل والنصوص الأثرية اللاتينية المتأخرة في الزمان عنهم كثيرا.

(875) - Ad Nationes, II, 8 "AtagartisSyrorum Caelestis Afrorum, Varsunita, Maurorum".
(876) - Cf. Camps (G.), l'Inscription de Béja et le problème des Dii Mauri, Rev, afric, t, XCVIII, 1954, pp. 233-260.

النصوص الاثرية البونية معروفة جدا وأبرز مثال منها هو نصّ دوقة الشهير في معبد مهدى لماسينيسا [877]. وهو عبارة عن نص بوني مرفق بترجمته الليبية جاء فيه :" **شيَّد مواطنو دوقة هذا المعبد للملك ماسينيسا ابن الملك قايا ابن الشفط زيلالسن في السنة العاشرة من حكم ميكيبسا**" والملاحَظ أنّ النصّ وصف ماسينيسا بأنّه مجرّد أمير **هـ م م ل ك ت** *HMMLKT* مثل والده قايا و لم يضف إلى اسمه أيّ لقب يعترف له بطابع ألـوهي[878].

هذا المعْلم هو معبد دوقة الذي شيِّد في السنة العاشرة بعد وفاة الملك الكبير وهو معبد جنائزي بسيط، ولو أُلِّه ماسينيسا – وهذا ما لا أثر له اثر في هذا النصّ– فإنّ ذلك كان بعد وفاته، وتبيّن دقّة النسب الواردة في تحرير النصّ أنّ معاصري ماسينيسا لا يعترفون له بأصل آخر غير الأصل البشري. كما أنّ النصّ الإهدائي جافّ حيث لم يبرز أيّ عبارة توقير أو تعبّد التي لا تخلو منها النصوص البونية عندما تكون موجَّهة للآلهة.

يحمل نص شرشال النقوشي البوني الجديد المهدى إلى ميكيبسا عددا من الإيضاحات وهو نص جنائزي أشرنا إليه مرارا ويبدأ هكذا: " **مقْدَس جنائزي لأعظم الأحياء مكوسن (ميكيبسا) ملك الماسيل**..."والمُهْدي إ'زم Y'ZM يعلن نفسه"**خادم الله" يُهدي تمثالا ومعْلماجنائزيا وأدوات عبادة للذكرى المجيدة لرعية الجلالة المرموقة والكمال الاسمى**"[879]

هذه الصفات تبرز شيئا من الطابع الالوهي الذي لا يمكن إهماله باعتبار أن إ'زم Y'ZM "خادما" لإله غير مسمّى،الذي هو احتمالا الملك ذاته. فالعبارة أعظم الأحياء (Vivant des vivants) واضح أنّها تنطبق على المتوفّى وتكتسي طابعا ألوهيا حقيقيا: العطور والمركّبات العطرية والبخور المذكورة في النصّ كانت دون ريب تحرق أمام النصب وتكشف عن تعبّد منظّم مسوِّغاً القربان المقدّم، احتمالا من قبل إ'زم Y'ZM لصيانة المقّدس وديمومة التعبّد له.

يقدّم لنا نصّ دوقة وشرشال والحالة هذه الدليل على وجود تعبّد جنائزي للملوك النوميد، دون أن يسمح هذا بالقول أنّ الملوك كانوا مؤلّهين في حياتهم.

النقوش اللاتينية أكثر عددا إلاّ أنّ قيمتها في هذا الموضوع ضعيفة للغاية، فهي تذكر الملوك النوميد وخاصّة الماسيليان الأخيران : يوبا وبطليموس ملكا موريتانيا.

(877) - Chabot (J.B), Recueil des Inscriptions libyques, n° 2 (Bibliographie).

(878) **لم يوصف ماسينيسا لا بالسيد (أدون) ولا بالسيّد (رب).**

(879) **لقد نقلنا ترجمة فيفري كما هي :** - J.G. Février, l'inscription funéraire de Micipsa, - Rev, d'Assyr, et d'Archéol, orient, t, XLV, 1951, pp. 139-150.

لا يوجد نصّ أثري لاتيني ينطبق على ماسينيسا أو ميكيبسا، فالنصوص اللاتينية كلّها تتوجّه على العكس إلى حكّام من الدرجة الثانية، أي إلى أمراء ماسيل لم يحكموا أبدا مثل نصّ هنشير بيضاء الإهدائي بالقرب من دوقة ، نقرأ فيه : "

*Masgav(a?)... pro salute (Imperatoris Caesaris) Flici(s Augusti)...*الخ.

وكان لماسينيا ابن بهذا الاسم : ماسقاوا *Masgava* [(880)]، وله ابن آخر هو قولوسا الذي حكم بالاشتراك مع أخويه ميكيبسا ومسطانبال وقد كان محلّ تكريم من مواطني قاديوفلة (*Gadiaufala*) (الصبيحي) في نصّ مُهدَى إليه قرئ بصعوبة :

Genio col(oniae) R(egi) N(umi)d(iae ?) Gulugae Nu(midiae) Regis (Mas)sin(isae) Fil(io) [(881)]

وفي نفس المنطقة في تبرسق النوميدية (خميسة) تمّ اكتشاف نصّ إهدائي موجّه إلى:

Reg(i Numidarum ou Numidiae) Hiempsa(li) / Gaudae Reg(is) fi(lio)/ (cives et i)ncolae Th(ubursicenses? Ae) dif(icaverunt).. [(882)]

كما جاء في نصّ نقوشي آخر من توبوسوبتو *Tubusuptu* (تيكلات) ما يلي:

Iemsali/ L. Percinius / L(ucii) F(ilius) Stel(latina tribu) / Rogatus / v(otum) (solvit libens animo) [(883)]

من هذه القوائم ينبغي نزع الإهداءات الموجّهة لماسقاوا ويمسال، فهذان معبودان أهليان، لأنّه لا يوجد أيّ سبب وجيه يبرّر تأليه أحد أبناء ماسينيسا الذي لم يترك سوى ذكرى بسيطة في التاريخ، ومثله يمسال (*Iemsal*) الذي توجّه إليه بركينيوس روقاتوس بإهداء ليس هو الآخر الملك يمبسال (*Hiempsal*) وعندما يشار إلى ملك سابق حتّى ولو ألّه، يشار إليه دائما بألقابه : *Rex Guluga* (قولوسا) *Rex Hiempsal* أمّا ماسقاوا ويمسال فهما احتمالا معبودان أهليان حمل بعض الأمراء النوميد أسماءهم.

يبقي أخير نصّ تبرسق النوميدية المهدَى إلى الملك يامبسال ابن الملك قاودة ونصّ قاديوفلة المُهْدَى إلى قولوسا [(884)]. ومع أنّ هذين النصّين ليس لهما طابع ديني واضح: قولوسا جاء في الترتيب بعد الجنّ حامي المستعمرة وطابع التكلّف في المشاعر الذي يكشف عنه نص تبرسق لا شكّ فيه ؛ فـ "التعبّد" للملك يامبسال في هذه المدينة واضح خاصّة من

---

(880) - CIL , VIII, 27431, ؛ أنظر جدول جنيالوجيا العائلة الملكية الماسيلية.

(881) - CIL , VIII, 18752

(882) - CIL , VIII, 1759; I.L.Alg., I, 1242

(883) - CIL , VIII, 8834.

(884) يبقى بعض الشكّ في أصالة هذا النصّ النقوشي ، أنظر : - A. Berthier et J. Juillet et Abbé R. Charlier, le Bellum Jug. De Salluste et le problème de Cirta, Constantine 1949, p. 109.

خلال الرغبة في التذكير بالأصول النوميدية للمدينة. ففي ذات المدينة كرّم نصّ أثري الـ " *genius gentis Numidiae* "[885] وليس *"gentis Numidiarum"* أي تمجيد الأصول النوميدية لا المدينة في ذاتها وحسب كما هو متوقّع.

لقد احتفظت تبرسق النوميدية بذكرى قدماء النوميد وممجّدهم أي جميع الشعب النوميدي و لم تقتصر على القبيلة التي تنتمي إليها المدينة وحسب، وكان روني باسي قد أشار إلى أنّ المقصود في نصّ تبرسق هو "**التعبّد بأثر رجعي**" الذي يشرح بدوره التكريم الذي وجّه إلى قولوسا في المدينة المجاورة قاديوفالة [886].

يبدو أنّه من الصعب استعمال هذه النصوص النقوشية للفصل في مسألة استمرار عبادة الملوك النوميد إلى الفترة الرومانية، وحتى طابع هذه النصوص في حدّ ذاته يوضّح أنّ هذه العبادة إن وجدت في يوم ما، فلا أثر لها، ما عدا وطنية متوقّدة (*Patriotisme de clocher*) تحثّ "نوميد" تبرسق على تكريم ذكرى الملك ما قبل الأخير لنوميديا. وليس في هذا الإهداء البسيط طابع ديني بالضرورة: فهو معْلم بسيط أقيم إحياءً لذكرى ملك وليس فيه ما يشير إلى أنّه معبد[887].

النصوص الإهدائية لملك موريتانيا الأخير بطليموس عديدة ومنها أربعة : نصّان عثر عليهما في شرشال ونصّ واحد في الجزائر (العاصمة) وآخر في بجاية، هذه النصوص الأثرية منقوشة على قاعدة تمثال (الجزائر العاصمة) أو على لوح رخامي (بجاية، شرشال) والنصّ التامّ هو نصّ الجزائر العاصمة[888] وقد قرئ كما يلي :

(R) EGI PTOLEMAEO
REG. IVBAE. F.
L. CAECILIVS . RVFVS.
AGILIS. F. HONORIBVS
SVAE CONSUMMATIS
D.S.P.F.C. ET
CONSECRAVIT

(885) - I.L.Alg., I, 1226.

(886) - Basset (R.), Recherches sur la religion des Berbères, Rev, de l'Hist, des religions, 1910, pp. 291-342 (pp. 314-315).

(887) **كنّا نعتقد أنّنا سنجد اسم ماسينيسا في نقش أبيزار(القبائل) مكتوب هكذا:** (CIL VIII, 20731) ...Tabla deo Masi؛ **وليس من الضروري الإشارة إلى الطابع الحدسي تماما لهذه المقاربة خاصّة وأننا نعرف ثمانية آلهة أفريقية يبدأ اسم كلّ منها بـ** Ma **: وهي (ماقورقوم** Macurgum**) و (ماثاموس** Mathamos**) و (ماتيلام** Matilam**) والإله الذي عبد في أبيزار يمكن أن يكون هو ماس إيديس (**Masidice**) ، ماسيدن** Masiden **أو معبود آخر باسم مكان، لا نعرف اسمه.**

(888) - CIL VIII, 9257.

لا يظهر في النصّ أيّ طابع ديني، ولا في النصوص الأخرى و لم نجد في تحريرها أيّ دليل على أنّ بطليموس اتّخذ إلها في مسار حياته.

هناك عبارة في نصّ شرشال[889] موجّهة إلى : "Genio/Regis Pto(lemaei) Regis (Jubae Filio" ولكن مجرّد التوجّه إلى الجنّ الحامي لشخص ليس دليلا البتّة على أنّ هذا الشخص مؤلّه؛ مثلما أنّ الجنّ الحامي لمدينة أو مكان ليس دليلا بالضرورة على أنّ المدينة أو المكان مؤلّهان أو حتّى مقدّسان.

هناك نصّ أثري آخر من شرشال يختلف عن السابق يبيّن بأسلوب رسمي أنّ رعايا بطليموس لا يعتبرونه كائنا إلهيا، ويتعلّق الأمر بنصب تذكاري لقربان مقدّم لساتورن لأمن الملك بطليموس في السنة الخامسة من حكمه [890]. فلو كان بطليموس قد اتّخذ إلها فلن يكون من الأنسب له التبتّل إلى إله آخر ولو كان هذا الإله ساتورن ذاته.

لو كان بطليموس يُتعبَّد له ويعتبَر بذلك إلها، فلن يكون ذلك إلاّ بعد نهايته المأساوية مع أنّه وبكل وضوح ليس لدينا أيّ دليل على عبادة هذا الأمير أو تأليهه. وحتّى الكتاب المسيحيون الذين تحدّثوا عن عبادة المور لملوكهم لم يذكروا إلا والده يوبا الثاني.

في ما يتعلّق بهذا الأخير، لا يوجد سوى نصّ أثري واحد يوحي بأنّ يوبا اتّخذ إلها لأنّه ذكر إلى جانب جوبيتير ، هذا النصّ يعود بالتأكيد إلى فترة متأخّرة بقرون عديدة عن فترة حكمه اكتُشف في جهة برج بوعريريج [891]. وهاهو النصّ كما نقله اقزال :

NVNDINA
ANNV QVOD
PRAECEPIT
IOVIS ET IV
BA ET GENIUS
VANISNESI
QVOD PRAECEPE
RVNT DII INGI
ROZOGLEZIM.

يتعلق الأمر إذن بسوق أو بالأحرى بمعرض سنوي أقيم تحت حماية عدد من الآلهة التي تكون قد أمرت بذلك. هذه الآلهة هي جوبيتير، يوبا، جنّ المكان وآلهة غامضة باسم : *dii Ingirozoglezim* وهو اسم غريب كما هو في قراءة اقزال هذه. هذه الآلهة احتمالا هي

(889) CIL VIII,9342 - **الإهداءات الأخرى لبطليموس مسجّلة تحت رقم 9343** (شرشال) و **8927** (بجاية).

(890) -Leschi(L.),Une sacrifice pour le salut de Ptolémée,roi de Maurétanie Mélange E.F.Gauthier,1937,PP.332-340.

(891) - CIL, VIII, 20627.

معبودات متعلّقة بكانتون أو بعدد من الكانتونات وأرى أنّه يمكن دمجها في الآلهة المورية التي يتمّ التضرّع إليها مجتمعة على العموم. هل يوجد هذا الإله يوبا ؟ النصّ الأثري يحمل الدليل لكن هل يمكن إثبات أن هذا الإله يوبا هو الملك المؤلّه ؟ من الجائز دائما القول أنّ هذا الإله متميّز عن حاكم موريتانيا الذي يحمل ذات الاسم الذي حمله أبوه يوبا الأول وتبقى في النهاية شهادة الكتّاب المسيحيين الذين يؤكّدون أنّ المور عبدوا الملك يوبا الذي ألّه، وإذا قبلنا مؤقّتا أنّ هذا النصّ الأثري يشير في الواقع إلى الملك المؤلّه فمن الأجدر التدقيق مرّة أخرى أنّ التأليه لا يمكن أن يكون إلاّ بعد وفاة الحاكم .

العملات والمعالم الجنائزية

لا نتضمّن الوثائق الأثرية خارج النقوش أيّ دليل على وجود عبادة ملكية، فالعملة تحمل في أحد وجهيها صورة لشخص ملتحٍ أراد البعض اعتبارها صورة آلهة وخاصّة آمون كبير الآلهة الأفريقية [892]. ويبدو أنّ مهندسي السكّة الأفارقة عندما يريدون تمثيل صورة معبود على عملة فإنهم يرفقونها برموزه وشعاراته: مثل عملة يوبا الأول ففي وجه العملة صورة جوبيتير–آمون بقرني كبش. كما يظهر في عملة بوكوس صورة الإله باخوس ملوّحا بصولجان (*Thyrse*)[*] وعنقود عنب، أمّا عملات المدن فتظهر فيها صور المعبودات الحامية لها (*divinités tutélaires*) مع علامات العرفان[893].

مهما تكن الصور التي تظهر في عملات ماسينيسا وميكيبسا صور حكام كما أرى أو صور آلهة أفريقية، لا هذا ولا ذلك من الحلول المعتمدة مقابل هذا "اللغز" يحمل الدليل المبحوث عنه طويلا عن عبادة الملوك خلال حياتهم، وليست مقاربات معرفية بين باخوس وبوكوس المقترحة من خلال تمثيل صورة الإله على عملات هذا الملك هي التي يمكن ان تدعم فرضية عبادة كهذه.

لقد زيّن يوبا الثاني ظهر بعض من عملاته بعصا وجلد أسد نيميا* (*Lion de Némée*) وقوس بحيرة ستيمفال[894] وعدد من ذكريات هرقل الذي يدّعي الملك العالم أنّه انحدر منه ولكن أيّ أثر يمكن أن تفعله هذه الرموز المسكينة في ذهنية الرعايا الأمازيغ ؟ كلّ السلالات

(892) - Troussel (M.), l'énigme de la tète laurée et barbue à G. et du cheval galopant à gauche, in RSAC, t, LXIX, 1955-1956, pp. 3-54.

(*) صولجان الإله باخوس متوّج بحلية على شكل كوز صنوبر ملفوف بعيدان كرمة ويظهر في كلّ تماثيل هذا الإله.

(893) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 90 et 92 (Juba 1er) 107-112 (Bocchus) 568-570 (Baal Schammin à Gunugu) 612-613 (Melqart à Tigisis).

(*) أسد نيميا في الميثولوجيا الإغريقية مخلوق خرافي قتله هيراكليس.

(894) - Mazard (J.), Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, n° 169à 188.

الملكية تبحث عن أصول إلهية أو عجائبية وهذا لا يعني أنّ أعضاء هذه العائلات بهذا النسب يصبحون شخوصا إلهية ويعترف لهم بتلك الصفة.

منذ عهد سيفاكس أي منذ العهد الذي سكّ فيه الحكام الأفارقة العملة تظهر صور الملوك مكلّلة بتاج أو بإكليل الغار وهي رموز نصر طالما احتُفِظ بها للآلهة، تاج كثيرا ما أعيد تصويره على عملات الملوك الهلينيستيين الذي أصبح لا يمثّل عندهم شيئا منذئذ سوى أنّه رمز يتيح التعرّف ببساطة على صور الملوك.

يعرّفنا علم الآثار أخيرا على بعض المعالم الجنائزية التي هي مدافن حقيقية لملوك أقوياء، كتلة هذه المعالم، الترتيب الداخلي التهيئة الخارجية هذه كلها شواهد على عبادة جنائزية فهذا ضريح الخروب الذي ينسب عموما إلى ماسينيسا كان احتمالا مزينا بتمثال من البرونز منصّب في شبه غرفة (*Loggia*) في الطابق الثاني ومن المستحيل الوصول إلى القبر وهو دهليز محفور في الصخر شُيِّد المعلم فوقه وكأنه غطاء له و لم يتمكن بونال (Bonnel) من التعرف على أي بناء خارجي يمكن أن يكون شبه مرفق لأداء طقوس العبادة وحقا فان شكل المعلم في حد ذاته يبدو انه غير مناسب لوجود مرفق ملحق به، ومن العسير التفكير في أنّ هيكلا بسيطا كان مبنيا أمام إحدى واجهات المعلم، لأنه يرتكز على أسس بسيطة وليس محاطا بقاعدة مبلطة مثل قبر الرومية[895]. والأمر أكثر غرابة حيث أن عددا كبيرا من المعالم الجنائزية البروتوتاريخية لها هياكل أو منصة لتقديم النذور أو كوى موجهة لطقوس العبادة الجنائزية [896] وبالمقابل فان مدغاسن وهو الأقدم ويعود بكل تأكيد إلى فترة سابقة لماسينيسا ينسجم كثيرا مع العبادة الجنائزية، فهو يتوفر على رواق يتم الدخول إليه من الخارج للمرور نحو السرداب (*Caveau*) الأوسط الذي يحتوي رفات الملك، هذا الرواق ينفتح جهة الشرق وهو الاتجاه الذي كثيرا ما يلاحَظ في المدافن البربرية القديمة، كما توجد خارج المعْلم، قبالة المدخل آثار بناء مستطيل الشكل هو عبارة عن ملحق مبلّط وملوّن بالأحمر هو وأرضية الرواق والغرفة الجنائزية وتكمن قيمة هذا اللون في أنّه رمز كثيرا ما ورد ذكره، أمّا بوابة (*herse*) الرواق فتسمح بالدخول بسهولة للقيام ببعض الحفلات الطقوسية المتمّمة احتمالا للقرابين المقدّمة في الهيكل الخارجي، ذلك أنّ العبادة الجنائزية تتطلّب مثل هذه التهيئة الخاصّة

(895) يراجَع الوصف الذي قدّمه بونال عن معلم الصومعة الإغريقي البوني .Cf. RSAC, t, XLIX, 1915, pp. 167-178 -

(896) - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 176 et 552

المتوفّرة في مدغاسن للملك غير المعروف المدفون فيه على عكس البونيين الذين أهملوا هـذا الجانب على العموم .

يتوفّر قبر الرومية على عناصر معمارية متكيّفة جدّا مع العبادة الجنائزية: عـدد مـن المصابيح مثبّت في كوى للإضاءة ورواق طويل دائري يتّسع لموكب وليس لمجرّد عدد بسيط من الزوار كما هو الحال في سرداب الدفن بالمدغاسن. ويتوفّر سرداب الدفن الأوسط –في حال قبر الرومية– على جرار جنائزية تتقدّمها ردهة يمكن تكويم القرابين بها، ومثل المدغاسن يوجد مدخل الضريح في الجهة الشرقية يقابله مبنى مستطيل أين تقام طقـوس العبـادة في الخارج.

المدغاسن يعود إلى فترة سابقة لماسينيسا وقبر الرومية يعود إلى تاريخ متأخر عن فتـرة حكمه وكلاهما يميط اللثام من خلال تهيئتهما عن وجود عبادة جنائزية ملكية نجد جزءا من طقوسها الاحتفالية في نصّ ميكيبسا الأثري بشرشال.

أسماء الآلهة لدى النوميد

بتجميع ومقابلة مختلف الوثائق التي تخصّ العبادة الملكية سـواء المعاصـرة للسـلالة الماسيلية أو المتأخّرة عنها كثيرا، نأخذ بالوقائع الآتية وهي أنّ ملوك نوميديا وبعدهم ملـوك موريتانيا الذين ينتمون لذات السلالة يمكن أن يكونوا محل عبادة بعد وفاتهم كما تشهد بـه نصوص دوقة وشرشال، ضريح مدغاسن وقبر الرومية وفي الأخير نصوص المؤلفين المسيحيين فلا وجود لأي وثيقة أو أي شاهد يثبت أو يمكّن من تصوّر وجود تعبّد لهم في حياتهم مـن قبل رعاياهم وحاشيتهم.

لا أرى أن النصوص الأثرية ذات الطابع الديني التي ظهر فيها اسم يحمله ملك دليـل على أن هذا الملك كان محلّ تأليه حتى بعد وفاته ولا نلحّ كثيرا في شأن الأسماء الليبية الخاصّة التي يبدو أنّها في الغالب أسماء آلهة(*Théophores*)وبعضها مأخوذ حرفيا عن الأسماء البونية [897] والبعض الآخر هجين مثل مسطانبال (*Mastanabal*) يضمّ عنصرا بونيا (*Baal*) واسمـا ليبيـا (MSTN) ظهر ثانية في اسم ماسـتينيزن (MSTNZN ou *Mastenizen , Mastanesosus*) وفي

[897] Cf. J.G. Février, Sur quelques noms puniques et libyques, B.A.C., 1949 pp. 652-655 -؛ اسم بوني كثيرا ما تسمّى به الأمازيغ وهو بوملكار وهذا الاخير إدغام لاسم بودملقرت.

أسماء أمازيغية في الوقت الحالي (موسى اق أمسطان *Moussa ag Amastane* أمينوكال التوارق السابق) وهذا الاسم مسطان (*Mastan*) يعني الحامي [898]، ومسطانبال يعني إذن **الذي يحميه بعل** أو "**بعل يحميه**" .

هذه الصيغ في الحقيقة نادرة ويبدو في كثير من الأحيان أنّ الملوك تسمّوا بأسماء إلـه دون أن يكون هذا الاسم مرفقا بكنية (*épithète*) أو إضافة، والجدير بالذكر هو أنّـه حتى عندما يكون الأمر متعلقا بإله بوني لا يأخذ الأمازيغ إلاّ اسم الإله مثل اشمون (*Eschmun*) – عند البونيين عبدشمون (*Abdeshmun*)–[899]، ونستنتج من هذا أنّ التسمّي بأسماء آلهة عند الأمازيغ يكون بأخذ اسم الإله ذاته كما هو[*]. وما أشرنا إليه في شأن ماسقاوا ويمسال (*=Hiempsal*) يوحي بأنّ الكيانات المتضرَّع إليها ليست الأمراء النوميد ولكنها معبودات يحمل هؤلاء الأمراء اسماءها، وهناك دليل رسمي في هذا الشأن مستخلص من مقابلة نصّ أثري من تبسة وجملة من أميان ماركلينوس.

عرّفنا نصّ أثري من موقع قصر البوم (*Magifa*) جنوب غربي تبسة بخمسة أسماء لآلهة أهلية، وها هو النص[900]:

DIIS. MAGIFAE. AVGG. Q. T. POLITICVS. SIMVLACRA. DEORUM. N. V. / MASIDENIS. ET. THILILVAE. ET. SVGGANIS. ET. IESDANIS. ET. MASIDDICE. ET TEMPLVM / A. FVNDAMENTIS6 EX . SVA. PECVNIA. FECIT EX. SS. VIII. N. ITQ. D. D. CAPITI. VISO. IPSIS. ATEPETENTIBVS. CVM /SVIS.OMNIBVS. V.S.L.A.B.B.M.B.

آلهة ماقيفا الخمسة – ماقيفا هو اسم المكان– هي إذن : ماسيدن (*masiden*) ثيليلوا (*Thililua*) سوقن (*Suggan*) يسدان (*Iesdan*) و ماسيديكا (*Masiddica*) ؟ وقد احتفظ جبل سوقّن (*Souggan*) باسم الإله الثالث (*Suggan*) الذي تعلو سفحه بلدة قصر البوم [901]. ولا

---

(898) - Mercier (G.), la langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, Journ, asiat, 1924, p. 236 ؛ ينبغي ملاحظة أنّ المصّ النقوشي الذي احتفظ باسم هذا الملك نسي حرف اللام في الأخير (MST'NB)ولعل الاسم ينطّق ماسطانبا فقط دون لام وبذلك تكون صيغة الاسم أمازيغية بحتة على غرار ماسقابا ويوبا.

(899) على الخصوص نصّ دوقة الأهدائي في معبد ماسينيسا في السطر الثالث من النصّ البوني والسطر الخامس من النصّ الليبي كتب SMN في مقابل عبدشمون في النص الليبي .R.I.L. n° 3 à Dougga

(*) لا ندري لماذا لم يتطرق قابريال كامبس إلى مثال حي لا يزال قائما عندنا إلى اليوم وهو ابن الجزائر ولادة ونشأة ودراسة ... ذلك أننا لا نزال إلى اليوم نختصر الأسماء التي تبدأ بعبد بالاسم الذي بعدها فيقال عن عبد الحميد حميد وعن عبد المجيد مجيد الخ .

(900) I.L.Alg., I, 2977 - ؛ ينتهي كلّ سطر بورقة سميلاكس (Smilax) ولم يتمّ نقل الأربطة هنا.

(901) هذا الاسم بهذه الصيغة وجدناه في خريطة للمنطقة نشرت في: Bulletin de l'Académie d'Hippone, 1886, pl,I, وقد نقل الاسم كما هو في الورقة رقم XXXIX الشريعة، أمّا في خريطة الجزائر 200000e فالأمر مختلف : جبل دكّان والاسم سوقان أدقّ غير أن ناشر خريطة أكاديمية هيبون لم يحاول المقاربة باسم الإله سوقان لأنّ النصّ النقوشي المتعلّق بآلهة ماقيفا لم ينشر بعد إلاّ بعد ثلاث سنوت لاحقا سنة **1888**.

يوجد ما يمنع على الإطلاق أن يحمل الجبل اسم هذا المعبود وان يحتفظ به على امتداد القرون ولا أرى أن ذلك يعني دمجا كليا بين الجبل وهذا المعبود أو أن المعبود هو الجبل ذاته ففي منطقة الورشنيس عرف هذا الاسم أيضا كما أشار إليه أميان ماركلينوس :" في حربه ضد **فيرموس** الثائر في موريتانيا القيصرية تقدّم ثيودوس باتجاه المازيس وكان على رأسهم قائد اسمه **سوقن** (*Suggen*)"[(902)] .

زعيم موري من ناحية الشلف (*Castellim Tingitanum*) يحمل إذن اسم إله أمازيغي معبود قبل قرن في منطقة تبسة، وقد رأينا من ذي قبل أنّ أسماء آلهة يمكن أن تكون أسماء أماكن في حين أنّ زعيما أمازيغيا اسمه بيلينان [(903)]يحمل ذات الاسم مثل باليني برايـــسيديوم (*Ballene Praesidium*) [يلّل *l'Hillil* غربي غليزان] ولن نفاجَأ بالاسم الإلهي لهذا الزعيم لأنّ هذا المعبود منح اسمه أيضا لمكان أو نهر أقيم بجانبه البرايسيديوم. ويبدو لنا أيضا أنّ اسم قيلـــوة (*Gilva*) هو اسم إلهي أيضا سُمِّي به مركز صغير في موريتانيا القيصرية موقعه غير مؤكّد[(904)] كمـــا ذكر نصّ أثري من قالمة معبودا بذات الاسم مطابقا لتلوس[(905)].

ليست الاسماء الالهية فقط أسماء اشخاص أو أماكن ولكن كما يبدو هي أسماء تنطبق على بعض أسماء القبائل وهذا يعيدنا إلى مسألة الإله يوبا، فنص أميان مـــاركلينوس يعرفنـــا بقوم يحملون اسم يوباليني (*Jubaleni*) [(906)]. وكان اسطيفان اقزال قد عقد مقاربـــة دون ان يتمكن من ايجاد علاقة بين هذا الاسم واسم الملك يوبا[(907)]، وهؤلاء اليوبـــاليني يـــسكنون منطقة البيبان الجبلية ما بين أوزيا (سور الغزلان) وبرج بوعريريج؛ وبجـــوار هـــذه المدينـــة الأخيرة في موقع فانسنيسي (*Vanisnesi*) تم اكتشاف النص الأثري الذي يتضمن ذكر إله اسمه

---

(902) - Ammien Marcellin, XXIV, 5, 21 "Suggen eorum ductorum" ؛ **وعن ثورة فيرموس أنظر** :
- Gsell (S.), Observations géographiques sur la révolte de Firmus, RSAC, t, XXXVII, 1903 pp. 21-46
- Courtois (Ch.), les Vandales et l'Afrique, p. 120
يرى كورتوا أنّ المازيس هم سكّان زكار، ومع ذلك فإنّ ثيودوز جاء من زوكابار (مليانة) واشتبك في معركة ضدّ المازيس بعد أن اجتاز كاستلوم تانجيتانوروم (الشلف).

(903) - Ammien Marcellin, XXIV, 5, 17, **؛ بالينين هي صيغة المفعول به** (Accusatif).

(904) **يحدّد البعض موقع قيلوة** (Gilva) **في مسرغين أحيانا ، أنظر** : Cf. Demaeght, Carte de la partie de la Maurétanie Césarienne correspondant à la province d'Oran, Révision 1931. **؛ وأحيانا أخرى في مرسى الكبير كما يقتـــرح بيار سلامة** Salama (P.), les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger 1951 – **؛ أمّا الحفريات التي أجراهـــا فويمو في هذا المكان فقد أظهرت بأنّ الآثار تعود إلى الفترة البونيـــة** : - Vuillemot (G.), Fouilles puniques à Mersa Madakh, in Libyca, Archéol, Epigr, t, II, 1954, pp. 299-342 **، ولعل الافتراض الثالث أدقّ خاصّة في حال كون قيلوة معبود سفلي** (Chthonienne) **للمحصول الزراعي والأرض الخصبة وأنسب مكان له هو مسرغين.**

(905) - CIL, VIII, 5305, I.L.Alg. I, 232.

(906) - Ammien Marcellin, XXIX, 5, 44.

(907) - Gsell (S.), Observations géographiques sur la révolte de Firmus, RSAC, t, XXXVII, 1903 pp. 21-46 (p. 32, n° 1)

يوبا في نفس درجة جوبيتير والجن الحامي للمكان، والحقّ أنّ هذه الوقائع لا تكفي لتأكيد أنّ اليوباليين أخذوا اسمهم من اسم الإله يوبا وأنّ هذا الإله مختلف عن الملك المؤلّه، ولا يقودنا تواتر هذا الاسم إلى القول بأنّ ذكرى يوبا ملك موريتانيا كانت لا تزال حيّة ولذلك ظلّ اسمه منتشرا[908]. ومن الممكن أن الملك يوبا هو الذي حمل مثل ماسقاوا وجدّه يمبسال اسما إلهيا وأنّ الإله الذي تسمّى باسمه استمرّ –مثل الإلهين ماسقابا ويمبسال– يُتَعبَّد له من قبل الأفارقة خلال الفترة الرومانية على أنّ يوبا ترك ذكرى حيّة ليس لدى المنحدرين من رعاياه ولكن في أوساط العلماء والأدباء ولسنا نستبعد أنّ الكتّاب المسيحيين كانوا يعرفون وجود إله أهلي اسمه يوبا ويعرفون (يكون ذلك من خلال المعْلم الجنائزي الملكي) أنّ الملوك القدامى كانوا محلّ عبادة جنائزية تفرض و تدمج هذا الإله مع الملك الذي كان بإمكانهم إلى ذلك الحين قراءة كتبه، وللحقيقة فإنّه من الصعوبة تصديق أن البربر في واقع الحال كانوا يحتفظون بذكراه بإخلاص إلى حدّ الاستمرار في عبادة حاكم على مدى ثلاثة أو أربعة قرون بعد وفاته، في حين أنّ الطابع السلمي والتعلّق بالدراسة الذي ميّز يوبا الثاني يبعد الصورة التقليدية لملك قائد حرب وسيّد غزوات.

هل حمل ماسينيسا هو الآخر اسما إلهيا ؟ من غير الممكن في حدود المعلومات المتوفرة قول شيء في هذا الموضوع، لكن يجدر التذكير بأنّ قبيلة مجاورة لبترا (*Petra*) على واد الصومام اسمها ماسينيسن [909]. فهل استمدّ هؤلاء القبائل المعاصرون لفيرموس اسمهم من اسم الأقلّيد الكبير الذي كان حاكما قبل خمسة قرون (من ثورة فيرموس) أم أنّ الاسم يتعلّق بمعبود قديم اتخذوه اسما لهم ؟ من الصعب الإجابة بقدر ما هو صعب المعنى المتضمّن في اسم ماسينيسا (سيدهم جميعا ؟) الذي يمكن أن ينطبق هو الآخر على إله أو حاكم أو سلف مسمّى بذات الاسم.

قدّم الكتّاب القدامى عديد المرات الدليل على أنّ الأمراء الأفارقة حملوا أسماء معبودات أو أنصاف آلهة دون إضافة أو أداة تعريف ونذكّر هنا بعبارة لبلوتارك يروي فيها أصول

(908) **من بين الأسماء الواردة في النقوش :** Postumia Urbica Jubae filia **في تبرسق النوميدية، أنظـر:** I.L.Alg, I, 1831 - ، **واسم آخر هو يوبايانوس** Jubaïanus **أسقف نوار** (Novar) **أنظر:** - R.P. Mesnage, Le christianisme en Afrique, Rev, afric, t, LVII, 1913, pp. 471 et 486 **؛ ومزرعة كبرى** (Fundus) **باسم** :Jubaltianensis **في بيزاكينا أنظـر:** CIL, VIII, 11247 **وشعب باسم بانيوباي** Banjubae **في موريتانيا الطنجية :** .Ptolémée, IV, 5 .

(909) Ammien Marcellin, XXIX, 5, 11. -؛ **الاسم يمكن مقاربته باسم مسيسنا القبيلة التي لا تزال في هذه المنطقة.**

طنجة : " ... **يروي الطنجيون أنّ تينقا زوجة أنتي باشرت بعد وفاته أعمال التجارة مع هرقل وأنّ ابنهما سوفاكس حكم البلاد وأسس مدينة منحها اسم والدته...**" [910] .

سوفاكس دون ريب هو ذاته سيفاكس، الاسم الذي حمله الملك الماسيسيلي، ومن غير الممكن أن يكون سوفاكس ابن هرقل الذي تحدث عنه بلوتارك هو الملك النوميدي، لسبب أساسي هو أن سيفاكس لم يحكم إطلاقا طنجة؛ المدينة التابعة لمعاصره باقا ملـــك المـــور، والحقيقة أن سيفاكس بكل بساطة وتبعا لتقليد متواتر عند الأمازيغ حمل اسم إله أهلي.

العبادة الجنائزية

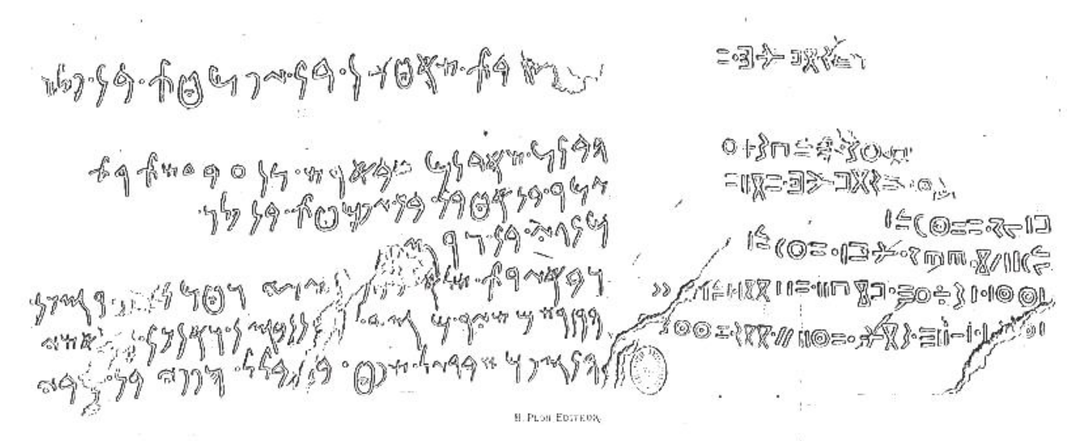
تحث التأملات التي يوحي بها تفحص الأسماء الإلهية الليبية والحالة هذه، على الحذر أي التحفظ عند تناول الفكرة الشائعة بان الملوك النوميد كانوا مؤلهين بعد وفاتهم.

ليست لدينا باختصار غير حقيقة واحدة هي أنّ الملوك يكونون بعد وفاتهم محلّ عبادة جنائزية قائمة بانتظام، وينبغي التمييز بين **التأليه** (*divinisation*) الذي يضع المتوفى في مصاف الآلهة، و**العبادة** (*Culte*) الموجَّهة لأرواحهم (*Mânes*). فالأول أي التأليه (*Apothéose*) هـــو في الواقع شكل قريب نسبيا من الثاني، وتعود أصول هذه العبادة الجنائزية إلى ما قبل التـــاريخ حيث لم يكن لدى الإنسان البدائي جدا أي مفهوم عن الألوهية فيضع بجوار الميت كمية من لحم الطرائد وبعض الأسلحة الحجرية، وهذه كانت بداية عبادة جنائزية. ولا يزال وضـــع زهور أمام نصب أو قبر إلى اليوم امتدادا لتلك العبادة الجنائزية، وقد أظهر الأفارقة القدامى منذ الفترات التي أعقبت النيوليثي توقيرا عميقا إزاء موتاهم والدليل علـــى ذلـــك المقـــابر الميقاليثية الكبيرة في المنطقة الشرقية من البلاد الامازيغية وبشكل أقلّ التهيئة الخاصّة بالعبـــادة التي أقامها الجيتول أو أسلافهم حول مدافن التملوس أو البازينا مثـــل الكـــوى المخصّـــصة للقرابين والكوى المخصّصة لإراقة الخمور، أو للسماح لدخان حرق الجثـــث (*holocauste*) بالدخول إلى الغرفة الجنائزية والصوامع الصغيرة التي تعلو التملوس أو تنغرز في كتلتـــها، وفي الأخير تبيِّن الهياكل المقامة خارج الأضرحة التطوّر المعتبر للعبادة الجنائزية عند قدماء الأمازيغ هؤلاء مثل المنصّة الخارجية المقامة أمام مدغاسن وقبر الرومية المستقبلة جهة الشرق وهي لا تشكّل استثناء بل مجموعة من المرافق المنتشرة في عموم بلاد الأمازيغ.

---

(910) - Plutarque, Sertorius, IX.

INSCRIPTION BILINGUE DE THUGGA



Copie réduite au 1/10 de l'original et gravée d'après un estampage exécuté et communiqué par les soins de Mr Saum... l'un des Conservateurs du Musée Britannique.

ش. 31_ النصّ الأثري المزدوج بوني–ليبي : معبد ماسينيسا بدوقة.

ش. 31 مكرّر – نصّ دوقة بعد اعادة كتابته، في الأعلى الكتابة البونية وفي الأسفل الكتابة الليبية والسطر الأخير بوني

ليست الأروقة (*Galeries et déambulatoires*) المناسبة لمواكب وحفلات العبادة الجنائزية وباقي الرموز والشعارات مقتصرة على القبور الملكية، هذه المرافق يوجد ما يماثلها في معالم أقلّ أهمية وتعود إلى عصور مختلفة [911].

لا يمكن فصل ضريحي مدغاسن وقبر الرومية عن العمارة الجنائزية الشمال أفريقيّة في شكلهما الخارجي، ويرتبطان ارتباطا وثيقا بالعبادة الجنائزية بواسطة مرافقهما الداخلية والخارجية.

---

(911) أروقة مهيّأة في داخل المعالم الآتية: بازينا جبل ميمل، تملوس مجاورة للمدغاسن، ضريح بلاد القيطون، جدّار C. وللمزيد من التفاصيل أنظر:
- Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, pp. 194-195.

لا تختلف العبادة التي تحظى بها رفات الملوك النوميد والمور في جوهرها عن العبادة المخصصة لرعاياهم، الثروة واتساع المدفن وحدهما هما اللذان يكشفان عن الأبّهة الملكية.

هل كان لماسينيسا مصير مختلف، فأعلن إلها في حياته وهل وضعه رعاياه وحاشيته مباشرة في عالم علوي في فضاءات سماوية حيث تبعا لسيبيون – الأمراء وكبار هذا العالم يجدون المكافأة في فضائلهم ؟- لم أجد في أيّ نصّ أو أيّ وثيقة ما يسمح بتأكيد ذلك. حقا لقد شيِّد معبد لماسينيسا في دوقة ولكن لا نكاد نجد في نصه الإهدائي شيئا من الحماس ولو حتى عبارة دينية بسيطة بينما وجدنا النقيض في نص ميكيبسا الأثري المثير للفضول رغم ما ورد فيه من معلومات قليلة وغامضة، والواقع أنّ نصّ دوقة ذو طابع سياسي لا يمكن إنكاره وأكثر من ذلك أكّد الطابع الديني الذي نود رؤيته.

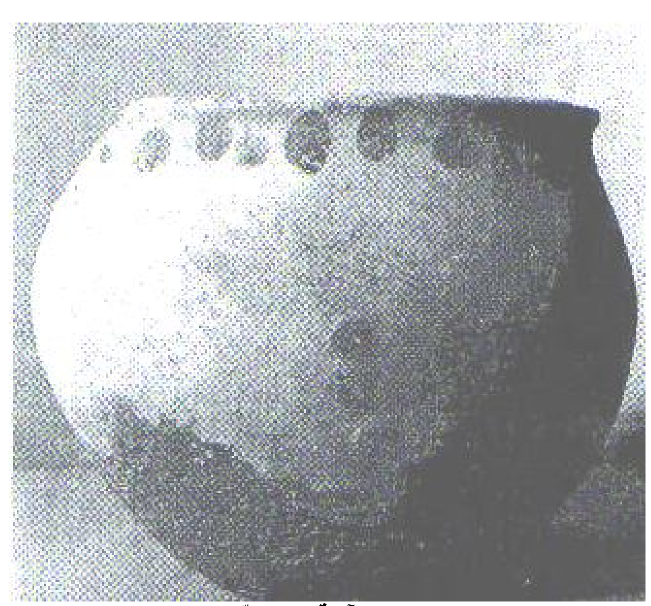
في هذا الإهداء (ش– 23) تمكّنت الأرستقراطية البلدية أولا من تسجّي أسمائها بكلّ اطمئنان من **الأقليّد** المحلّي إلى قائد الخمسين، لكن الجدير بالملاحظة هو أنّ هذا المعبد شيّد بعد مرور10سنوات على وفاة الملك، هذه الفترة أطول بكثير من المدّة الضرورية لإنجاز المبنى فما هو تفسير انتظار مواطني دوقة الطويل هذا لإقامة هذا المعْلم؟ ينبغي البحث عن الجواب في الظروف السياسية: ميكيبسا هو الوحيد المذكور في هذا الإهداء المؤرّخ بالسنة 139 وهو ما يترك المجال لافتراض أنّه منذ هذا الوقت لا أثر لأخويه قولوسا ومسطانبال شريكيه في الحكم، وأنّ ميكيبسا هو الملك الوحيد لنوميديا أحسّ بضرورة استعادة المجد الملكي في المجال السياسي كما في ذهنية رعاياه الذي لا يمكن أن يكون إلاّ في شخص ملك واحد[912]. كل شيء ينبغي أن يتّجه صوب شخص ماسينيسا نحو مؤسّس المملكة التي يتقلب في نعيمها ؛ فهو الذي قال كلمة أضحت مثلا : **ملك واحد لمملكة موحّدة**. إذن كانت استعادة نظام الملك الواحد بطريقة أو بأخرى قد ثُبِّتَت تحت السلطة المعنوية للملك الكبير الراحل. وكان تكريم ذكرى الملك الذي حكم لوحده أفضل وسيلة للتذكير بالوحدة الأساسية للسلطة الملكية.

* * *

---

[912] تستدعي السلطة الملكية بناء معبد لماسينيسا بدوقة، هذا يبيّن في الواقع أنّ الإهداء مؤرّخ تبعا لسنوات حكم ميكيبسا وهو النظام المتبع في كلّ المملكة من خلال عبارة أقلّيد الاسم المستعار بدوقة، كما أنّ الإشارة إلى الاسم تفيد في تأريخ النصّ، أنظر: رقم 3 في مدونة النقوش الليبية (Recueil des inscriptions libyques) نقش معاصر لنصّ معبد ماسينيسا الإهدائي.

لا يمكن أن يكون ماسينيسا هو مخترع التعبّد للملوك الذي يبدو أنّه لم يكن موجــودا في يوم من الأيام؛ وليس لتأليه الملوك بعد وفاتهم دليل إثبات كافٍ، ولو أنّه ممكن لبعــضهم وبالمقابل كان لكلّ الحكام في أفريقيا بعد وفاتهم عبادة جنائزية من أصول قديمة جدّا بمـــا في ذلك الذين حكموا قبل ماسينيسا، والملك الذي شيّد مدغاسن واحد من بينهم.



ش. 32- آنية من تيدّيس



خاتمة

محاكمة ماسينيسا هي محاكمة للتاريخ، فقد أصبح الزعيم الماسيلي سيّدا على كلّ نوميديا، وهو كذلك في واقع الحال أصبح أول أمازيغي دخل التاريخ من بابه الواسع، فبفضل شخصيته القوية ومن خلالها بدأت نوميديا تلعب دورا في التاريخ المتوسّطي، ولأنّه قوي وشهير وحكمه دام فترة طويلة استثنائية اعتُبِر هو صاحب كلّ ما أنجز برويّة منذ القرون البروتوتاريخية.

في القرن الثاني لم تنبثق البلاد الأمازيغية دفعة واحدة وهي مدجّجة بالأسلحة من بين أيدي ماسينيسا كما هو الحال بالنسبة لآثينة التي ولدت كذلك من رأس زيوس(*)، هذا الخطأ في حكم المؤرّخين القدامى يجازف بالحقيقة التاريخية ويعرّضها لخطر أكبر عندما ينسَب إلى ماسينيسا وبسخاء عمل سابقيه، ونرى من الضروري تبيان كم هي متحيّزة مثل هذه المواقف، فالنزعة الطبيعية في التاريخ كما في الحياة العادية هو الإقراض للأغنياء : لقد استفادت ذاكرة ماسينيسا منذ القديم من التقاء تيارين نسبا إليه في ذات الوقت ما أنجزه وما لم ينجزه، هكذا أنشئت صورة شبيهة بصورة خالق الكون ممدّن النوميد المخلّص الوحيد للأفارقة من الوحشية البدائية، غير أنّ شخصية ماسينيسا الحقيقية تبدو مختلفة تماما عن تلك الصورة التقليدية، وهذه حقائق معروفة جدّا، لا تحتاج إلى التكرار.

نعرف أنّه من اليسير فكّ التماثيل والأنصاب، كما يمكن لذي ضمير سيء أن يفعل، لكن ذلك أصعب وأكثر دقّة عندما يتعلّق الأمر برجل لأنّه كان محلّ إشادة من طرف الإغريقي بوليب ؟ وبعد التفحّص الذي أردنا أن يكون محايدا، في شأن ظروف الحياة ما قبل ماسينيسا عن الذي يميّز حكمه، للوصول إلى ما يمكن أن يكون محلّ نشاط خلفائه، وجدنا أنفسنا مجبرين على أن ننفي عن الحاكم الماسيلي بعض المبادرات أو الإنجازات المنسوبة له تقليديا.

وجدت الفلاحة عند النوميد قبل أن يقوم ماسينيسا بتوحيد كلّ نوميديا، هذه الفلاحة قديمة جدّا في التلّ الجزائري التونسي وهي فلاحة متوسّطية ومطابقة في كلّ عنصرها لمثيلتها

(*) تقول الأسطورة الإغريقية أنّ الإله زيوس أنجب ابنته أثينا من رأسه فقد كان ذات يوم يسير فشعر بدوار شديد في رأسه وأثناء صراخه الذي اهتزّت له الجبال والبحار انفتح رأسه لتخرج منه أثينة في تمام نموها وقوّتها وهي مدججة بالسلاح ... والكاتب هنا يريد أن يقول أنّ ممالك القرن الثالث لم تظهر فجأة وهي مكتملة التطور مثل الإلهة أثينا.

التي ازدهرت في صقلية، وفي إيطاليا الجنوبة وفي إسبانيا . وهي في الأساس زراعة حبوب وأضاف الأفارقة زراعة بعض الخضر والأشجار المثمرة، ولا شيء يثبت أنّ الفينيقيين هم من أدخل بالضرورة هذه الزراعات، ومن المؤكّد أنّ فترة حكم ماسينيسا شهدت تطوّرا معتبرا للزراعات، لكن هذا التطوّر لا يمكن تقديره بدقّة، مع أنّ كميات القمح الهامّة التي صدّرها هذا الحاكم للرومان منذ السنين الأولى من حكمه وقبل ضمّ السهول الكبرى تكفي لتبيان أنّ زراعة الحبوب كانت تحتلّ القسم الأكبر من نشاط السكّان النوميد، كما أنّ مدن وقرى نوميديا الشرقية كانت بالأساس أسواقا فلاحية في حين أنّ المقابر الميقاليثية الكبيرة تدلّ على وجود استقرار سكّاني هامّ قبل أن يصبح ماسينيسا ملكا.

ليس ماسينيسا من اخترع الكتابة الليبية ولا من علّمها للفلاحين النوميد، ومثل الفلاحة كانت الكتابة الليبية سابقة لحكمه بكثير، وعلى العكس إذا لم يكن هو مخترعها فإنّه هو من ساهم في تحطيمها، باعتماد البونية لغة رسمية، فقد قضت الكتابة البونية وبعدها البونية الجديدة تدريجيا في المدن على الألفباء الليبية التي ظلّت حيّة في أرياف الشمال طيلة عدّة قرون، وفي الجنوب أخذت هذه الكتابة شكلا جديدا هو التيفيناغ، ومع هذا التطوّر عرف هذا الخطّ كيف يحافظ في حروفه على الأشكال الهندسية العزيزة على الفنّ الأمازيغي.

ليست سياسة ماسينيسا الدينية وعلى الخصوص دوره في إدخال عبادة الآلهة الفلاحية الإغريقية (*Cereres graecae*) واضحة وهامّة و لم نجد لهذا الملك إصلاحات أو تجديد في أيّ منها، فقد انتشرت عبادة هذه الآلهة الفلاحية في قسم كبير من إقليم قرطاج؛ وإذا كان لماسينيسا دور في نشر هذه الديانة في نوميديا فإنّ ذلك كان بعد ضمّ السهول الكبرى ولكن بطريقة غير مباشرة وغير مقصودة، والديانات في واقع الحال وخاصّة القديمة لا تعرف حدودا وبمساهمة الملك وخلفائه أو بدونها يمكن القول دون صعوبة أنّ الآلهة الفلاحية ستكون محلّ تقديس من الفلاحين النوميد.

ليس ماسينيسا أيضا مخترع عبادة ملكية، عبادة لم تفده في شيء ويبدو أنّه لم يكن لها وجود في نوميديا إطلاقا فلا يوجد نصّ ولا وثيقة تسمح بالتفكير في أنّ الملوك الأفارقة كانوا محلّ عبادة في حيواتهم على غرار الملوك الهلينيستيين المعاصرين لهم، ، ومن الممكن أن البعض منهم مثل ميكيبسا واحتمالا ماسينيسا نفسه قد عرفا نوعا من التأليه الذي وضعهما

في مصاف الآلهة بعد وفاتهما. والحقيقة الوحيدة التي أمدّتنا بها الأركيولوجيا هي أنّ الملـوك الذين دفنوا في المدغاسن وقبر الرومية كانوا محلّ عبادة جنائزية وهي عبادة لا تميّزهم كثيرا في جوهرها عن نفس العبادة الموجّهة لموتى آخرين لأنّ الترتيبات المعمارية هي ذاتها.

اذا لم يقم ماسينيسا لا بدور مهندس فلاحة ولا لغوي ولا مصلح ديني كمـا يريـد البعض فهل أدّى على الأقل دورا إداريا ؟ يبقى السؤال دون جواب، لأنّ الوثائق القليلة التي تسمح بالتفكير في وجود أساس إداري في المملكة النوميدية تعود إلى مرحلة تالية لحكمـه ومعاصرة لحكم نجله ميكيبسا، ومن المحتمل والحالة هذه أنّ ماسينيسا كان قد عـيّن ولاة في بعض المدن وحتّى هذه سبقه فيها سيفاكس .

يبقى في الأخير أنّ ماسينيسا وحّد نوميديا وأقام مملكة نوميدية ممتدّة من مولوشـا إلى السيرت وهي جدارة معترف له بها بحقّ الفتح ولكن كان سابقه قد شـرع فيهـا وهـو سيفاكس ملك الماسيسيل الذي ضمّ ماسيليا وطرد ماسينيسا من مملكته، ولو كانت قرطاج عوض روما وهانيبال بدل سيبيون قد كسبا النصر لكانت الأسرة الملكية الماسيسيلية هي التي ستحكم نوميديا الموحّدة ولكن بصريح القول الفكرة اختمرت ومن الـصعب تـصوّر أنّ نوميديا تحت السلطة الماسيسيلية سيكون لها ملمح مختلف عن ملمح نوميديا الماسيلية، وحتى لو كان الأمر كذلك فإنّ هذه المملكة ستعرف نفس التطوّر ونفس التقدّم المادّي البطـيء وكذا نفس الضعف المعزو لغياب مفهوم الدولة.

فما هي والحالة هذه الأهمية الحقيقية لحكم ماسينيسا ؟

الاستحقاق الأول لهذا الحكم في الواقع هو المشاركة في إلحاق الهزيمة بقرطاج، وهـو الحدث الذي استتبع نتائج إيجابية بالنسبة لأفريقيا النوميدية، فلو كان سيفاكس هو المنتـصر سيبقى تابعا لقرطاج التي ستستمرّ في السيطرة على ساحل أفريقيا الشمالية متبعـة عملـها الذي يعزل البلاد عن الإغريق والإيطاليين، أمّا انتصار ماسينيسا فقد استتبع فـك الطـوق القرطاجي وتحرير الجزء الأكبر من أفريقيا، ومن الأهمّية بمكان أيضا الإشارة إلى أنّ أغلـب المدن الساحلية أو بالأحرى كلّها أصبحت تحت سلطة الملك. لقد سمح انتصار زامـا إذن – الذي أسهم فيه ماسينيسا بنصيب هامّ – بتنمية سياسة نوميدية متحـرّرة مـن الارتهـان لقرطاج.

امتاز حكم ماسينيسا بامتداده على ما يزيد عن نصف قرن وهي مدّة طويلة اعتُبِرت استثنائية وكانت الفرص مفتوحة عبر اللحظة السياسية المترتبة عن زاما ومستغلة بمهارة، فليس الاحتفاظ بمملكة موحدة ومستقلة بفضله ولكن قلب الوضع أيضا يجعل منه صاحب الدور البارز في أفريقيا، وطبعا كان من السهل انتهاج هذه السياسة لأنّ ماسينيسا كان واثقا من تعهّد الرومان بأنّ قرطاج لن تتمكّن من إعلان الحرب عليه، لكن كثيرون هم الذين لا يعرفون الاستفادة من الظروف المواتية بقدر متساوٍ من الصرامة والذكاء.

سمح طول الحكم والاستقرار النسبي في ظل النظام الذي أقامه ماسينيسا في البلاد بتطوّر إقتصادي تمّثل في الازدهار الملحوظ في المراكز العمرانية ووفرة القطع النقدية، كل هذه الأنشطة الاقتصادية لم تظهر فجأة لأنّ ماسينيسا أصبح ملكا؛ الفلاحة والمدن وحتى العملة وجدت في نوميديا قبله ولكن خلال نصف قرن من الاستقرار النسبي حقّقت الحياة الاقتصادية تقدّماً بما فيه الكفاية، وهو تقدّم أضحى ملموسا، فقد كان ماأنجزه في حياته أساسا – بكلّ جدارة– لما سيُنجَز خلال ثلاثين سنة من بعده على يد ابنه ميكيبسا.

ترتّب عن تنامي الموارد الفلاحية وتطوُّر المبادلات الداخلية ازدهار عمراني لم تكن سيرتا وحدها المستفيدة منه؛ فقد أصبحت الأسواق البسيطة مدنا وشيّدت مدن أخرى مثل ماكوماداس قطعة قطعة احتمالا بإرادة الملك، ولم تفقد العواصم الجهوية القديمة مثل ثوقة وسيكا وزاما في نوميديا الشرقية، يول وسيقة في نوميديا الغربية أهميتها أبدا، أمّا المدن الساحلية فإنْ ظلّت ذات طابع فينيقي فترة طويلة أكثر منها أمازيغية إلاّ أنّها حافظت على وظائفها السابقة كمنافذ للتجارة الداخلية ومحطات للمساحلة (*Cabotage*)، وفوق ذلك كان انهيار ودمار قرطاج قد رفع من أهميتها، ويكشف سكّ العملة البلدية – مع أنّ ذلك كان بعد فترة حكم ماسينيسا– عن نشاط اقتصادي كبير عرفت تلك المصارف القرطاجية سابقا كيف تتعاطى معه.

استوجب نموّ التجارة الداخلية والتطوّر العمراني الذي طبع فترة حكم ماسينيسا وميكيبسا المزيد من إصدار العملة، وفي هذا المجال كما في الميادين الأخرى ليس ماسينيسا مخترعا فقد سكّت قرطاج وسيفاكس واحتمالا كابوسا العملة قبله، ولكن في عهده وعهد ميكيبسا (لأنّه من المستحيل فرز نصيب كل واحد منهما) اتسع تداول العملة عبر المملكة

وتعدّدت الإصدارات لتكون كافية لتغذية المبادلات في كلّ المملكة، وكانت كمية العملة التي سكّها الملوك الآخرون قليلة جدّا، والملاحظ مع ذلك أنّ العملة الوحيدة التي تحمل اسم ماسينيسا بالكامل تنتمي إلى نمط مختلف عن مجموع العملات التي يظهر على ظهرها صورة حصان راكض والرمز MN هذا النموذج احتمالا أنشئ مع نهاية حكم الملك، وتمّ تداوله في عهد ميكيبسا كما يتبيّن في عدد من العملات من ذات النمط تحمل الرمز GN (الحرف الأول والأخير من اسم قولوسا) .

في الوقت الذي كانت فيه المدن تشهد نطوّرا كانت الحضارة البونية قد عرفت انطلاقة جديدة وترسّخت بقوّة في داخل نوميديا، ويوافق حكم ماسينيسا بداية هذه الحراك الذي تسارع واتّسع كثيرا بفعل ضمّ الأقاليم التي انتزعها من قرطاج، ففي المدن كانت العمارة واللغة والأعراف والديانة بونية، واتسع هذا الحراك أكثر خلال القرن الثاني إلى الأول، وإذا تتبعنا التطور الحاصل في دوقة ما بين حكم ميكيبسا وبداية الاحتلال الروماني يتبيّن لنا حصول تراجع تدريجي للنفوذ الحضاري النوميدي لصالح التقاليد البلدية الفينيقية حصرا. وعندما نقرأ في سترابون أنّ ماسينيسا مدّن النوميد يمكن أن نفهم من ذلك أنّه تأكيد على أنّه خلال حكمه وحكم خلفائه "تبوْنَقت" المدن النوميدية، ولا ندري إن كان هذا التطوّر جيّد في حدّ ذاته إلاّ أنه واقع لا نقاش فيه.

أمامنا نتيجة غير منتظرة كثيرا، ولكن ليست أقل يقينا، تتعلق بالتطوّر العمراني والانطلاقة التجارية، يمكن اعتبارها "انفتاحا" للبلاد الأمازيغية، فقد كان إبعاد قرطاج ووضع اليد على الموانئ المتوسّطية قد منح لماسينيسا إمكانية الدخول المباشر في اتصال بالعالم غير البوني وفتح مملكته أمام التجار الإغريق والصقليين والإيطاليين وهنا نجد أنفسنا حقّا أمام عمل أصيل أنجزه الملك، مع أنّه نتيجة منطقية للظروف التاريخية، ومن الأوكد أنّ ماسينيسا بنفسه تدخّل لتشجيع هذه الحركة وجذب الإغريق إلى نوميديا، وهي المحاولة التي واصلها ميكيبسا إلا أنّ ذلك لم يحقّق الشيء الكثير، لقد وفد على سيرتا بعض الفنانين والمعماريين ولعلّ باني ضريح الخروب واحد منهم وحتى إن لم يكن إغريقيا فلعلّه تلميذ أحد الأغارقة، كما تمركز تجار وحرفيون في عدد من المدن ولكن العدد كان دائما قليل لا يمكن أن يلعب دورا فعّالا في المشاريع الكبرى المنتظرة، لقد استوعب العالم المفتوح من قبل الاسكندر الهلينيستية ويبدو أنّه أهمل الفرصة لضمّ أفريقيا إلى مفاهيم جديدة غير التي سادت في قرطاج.

حتى ولو تمكنت اليونان من إغراق أفريقيا بموج من المستوطنين مساوٍ للموج الذي قذفت به شواطئ أوربا المتوسطية على مدى خمسة قرون قبل ذلك فإنّ الهلينة (*Hellénisme*) سيكون لها القسم الأكبر لأنّ المدن الأفريقية كانت قد تلقّت شيئا منها عبر العالم الفينيقي دون أن تحقّق شيئا من الرسوخ، وما النقوش الاغريقية بمعبد بعل امون في سيرتا إلاّ صورة من ذلك الفشل : لأنّ الاغريق في نوميديا هم أيضا تبونقوا !

لكن سيكون من الخطأ الاعتقاد أنّ نوميديا قد عمّتها كلّها الحضارة البونية وفي واقع الحال هذه الحضارة لم تنتشر إلا في المدن، ولم تلمس إلاّ قسما صغيرا جدّا من السكّان الأمازيغ، والنسبة في موريتانيا أقل بكثير، فقد بقي عالم الريف دون تغيير كبير ولم تنتشر عبادة بعل أمون ساتورن في كلّ البلاد، ولم تختف عبادة الآلهة الأفريقية ولا الأرواح المحلّية (*Génies locaux*) أمام الإله المشرقي، وظلّت معبودات الأفارقة التي خلفت معبوداتهم القديمة كما هي: الجنّ والمرابطون الأسطوريون وهي تلقى إلى اليوم توقيرا غاية في الحماس من لدن عموم الشعب وفي الأرياف.

لقد ظلت بلاد الامازيغ بعد ماسينيسا كما كانت قبله بلاد ذات حضارة ريفية في الأساس، غير قادرة على الرقي إلى مستوى أعلى في الإبداعات الفكرية، بقدر تمسّكها القوي بتقاليدها، ومع ذلك فان الأمازيغي على استعداد دائم للانجذاب لكل الحضارات التي تتمركز في مدنه ويتقبلها بحماس، ذلك أنّ المدينة في بلاد الامازيغ هي دائما عبارة عن جزيرة بثقافة أجنبية وكل شيء يتم فيها كما لو أن الامازيغي ليس له وجود أصيل الا في الاشكال البدائية للتنظيم الاجتماعي والمفاهيم الفلاحية التي عرفها العالم المتوسطي منذ عصور ما قبل التاريخ، أما المستوى الأعلى فهو لقرطاج ثم لروما ثمّ لحضارة الاسلام تباعا!

تكمن الأهمّية التاريخية لحكم ماسينيسا بكلّ دقّة في الكشف عن المثال الأول لهذا المسار، فمدن المملكة النوميدية؛ الموانئ منها أو الأسواق الداخلية، العواصم أو القرى لا تخضع لأي سيطرة ولا لأي إكراه أجنبي، والمجال حرّ لمن يستطيع فتحه للتأسيس لحضارة نوميدية حقيقية، لا شيء من ذلك حدث، وما هذا إلاّ مثال فضولي عن القومية الأمازيغية: ماسينيسا تابع لروما وفي الآن ذاته في وظيفة محاسب (*Fourrier*) في مركب حضارة بونية !

خلال حكم ماسينيسا وسلالته كانت لبلاد الأمازيغ فرصة لإماطة اللثام عن وجهها الحقيقي، ولكن لم تفعل لأنّها اتخذت قناعا بونيا هشّا.

* * *

ملـــحق

دراسة نقدية تحليلية

1- إشكاليات بدايات التاريخ

الواقع أنّه ليس في الإمكان استحضار الماضي حيّا كما هو،للوصول إلى الحقيقة الكاملة - لاستحالة ذلك- وغاية ما تسعى إليه الأبحاث التاريخية هو الاقتراب من الحقيقة، وهذا ما يجعل البحث في العلوم التاريخية دائما ومتجدّدا، مع أنّ الكشف عن بعض الجوانب من الحقائق التاريخية ليس مرحّبا به في كثير من الأحيان، بل ثبت من خلال مجريات الأحداث وسير الأفكار عبر التاريخ أنّ الكثير من الحقائق كان لها خصوم شرسون لأنّها في نظرهم تقوّض أركان التاريخ "البديل" الذي تفنّنوا في صنعه، ولذلك فإنّه كلّما اقترب الباحث من الحقيقة أو سلك منهجا قد يوصل إليها في يوم من الأيام اعترضت سبيله خطوط حمراء مغيّبة لها، فقد كانت الأقلام الرسمية الناطقة بلسان الأباطرة وقادة الحروب قديما كما هي نظيرتها المؤدلجة حديثا لا تسعى من وراء اهتمامها بتدوين التاريخ إلى تخليد الحقائق كلّها بقدر ما تعمل على أن يكون التاريخ مقبرة لبعضها على الأقلّ، وهي أقلام انتقائية تخفي ما يتعارض مع رؤاها وتبرز ما يوافقها جاعلة من نزعاتها وتأويلاتها بديلا تقدّمه للأجيال اللاحقة على أنّه التاريخ ولا شيء غيره.

يزداد الأمر خطورة عندما يكون تدوين تاريخ أمّة بحجم الأمّة الأفريقية [1] وعلى مرّ العصور بأقلام معادية في أغلب الأحيان، تكتب تاريخ هذه البلاد وهي إمّا في قصور المحتلّين أو في معسكراتهم بل وحتى في قواربهم أو في دكاكينهم المبثوثة عبر مدن هذه البلاد، ولعلّ الحدث الأخطر في هذا السياق على سبيل المثال هو ما رواه ليون الأفريقي من أنّ العبيديين أحرقوا كلّ الكتب التي دوّن فيها تاريخ الأمّة الأفريقية خوفا من أن تتذكّر ماضيها، وليس هذا العمل الوحشي هو الوحيد فقد دشّن الرومان دمار قرطاج بحرق مكتبتها[2]، وإذا كانت المصادر اللاتينية تقول أنّ القسم المتعلق بنوميديا سلّم إلى ملكها فلماذا لم نجد أثرا

---

[1] سنستعمل اسم أفريقيا والأفارقة –في مقابل الاصطلاح الذي استعمله كامبس وهو بلاد البربر والبربر– واسم أفريقيا والأفارقة هو الذي استعمله ليون الأفريقي (1488- 1548) للدلالة على الأرض وسكّانها، بل اختاره ليكون لقبا له وعنوانا لكتابه، ممّا يدلّ على أنّه ظلّ مستعملا وأنّ أهل البلاد كانوا أفارقة في نظر أنفسهم وفي نظر الأوربيين وليسوا بربرا.

[2] كان إحراق المكتبات دائما بهدف دفن ذاكرة شعب وحرمانه من التراكم الفكري الذي أنتجته الأجيال، ليجد نفسه دون مرجعية ودون نهج يتبعه في مساره فيضطرب في خط السير وذلك ما يسعى إليه المتربصون بالشعوب عبر العصور. للمزيد أنظر :

– حسن الوزان (ليون الأفريقي)،وصف أفريقيا، ج1،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر،ط2دارالغرب الإسلامي،بيروت 1983،ص ص69-71.

لذلك؟ بل إنّ كامبس قلّل من شأنها قائلا أنّها لا تضمّ على الأكثر سوى كتب دينية، ولكن عاد وأشار إلى أنّها لا يمكن أن تخلو من كتب في الرحلات البحرية التي قام بها البحارة القرطاجيون، ولعلّ أهمّ استنتاج في هذا المجال هو ما أشار إليه اسطيفان اقزال بأنّ الكتب التي استلمها يمبسال هي كتب من تأليفه هو[3] ، أمّا ما عدا ذلك فقد أحرق عن آخره.

أراد قابريال كامبس[4] أن يدخل في معالجة موضوع بدايات التاريخ الأفريقي من بوابة المصادر الأدبية، بطرحه سؤالا مفصليا هو: ماذا تقول النصوص؟ والنصوص هنا هي مصادر إغريقية ولاتينية، ومع أنّ الثانية تأخذ عن الأولى إلاّ أنّ الأولى تبدو موضوعية نسبيا، أمّا النصوص اللاتينية فقد كُتبت من داخل المعسكرات الرومانية، فهذا سالوست أول من "منح" أفريقيا نصّها التاريخي الأول كما يقول المعجبون به، يقدّم لوحة من التاريخ الأفريقي من موقعه كأول بروقنصل روماني على أفريكا نوفا، ومع أنّه كشف فساد الأرستقراطية الرومانية إلاّ أنّ ذلك لم يؤثّر على تمجيده لروما، وطبعا كان بقدر ما يعلي من شأن روما بقدر ما يتحوّل إعلاؤه لها إلى استعلاء على الأمّة الأفريقية.

في فحصه الدقيق لنصّ سالوست، يثبت غابريال كامبس أنّ الأسطورة تطغى على الحقيقة في ما يتعلّق بإشارته المقتضبة إلى أصول الأفارقة، وهي إشارة مأخوذة من الأساطير الإغريقية، وخاصّة فيما يتعلّق بإقحام البطل الأسطوري الإغريقي هيراكليوس وجيشه من الميد والفُرْس في مكوّنات الشعب الأفريقي، وطبيعي أن يكون الإغريق سباقين إلى الاهتمام بالمنطقة لأنّ تركيب أساطير عنها دليل على تطلّعهم إلى التواجد بها وهو ما جعل البعض من مؤرّخي الفترة الاستعمارية على الخصوص يبحثون عن أيّ أثر يمكن أن يثبت ذلك فعلا انطلاقا من نصّ ديودور ذكر فيه مدينة إغريقية باسم مسكيلة (Meschela) في ساحل خمير أو في ساحل الجزائر الشرقية تأسست من طرف إغريق خلال عودتهم من حرب طروادة [5].

ينبغي فصل الملحمة الهيراكلية عن الحقيقة التاريخية لأنّه لا يوجد في المصادر الأدبية والأثرية ما يثبتها، بل إنّنا نرى – فضلا عما أورده كامبس من إثباتات تنفي قصّة الجيش الهيراكلي– أنّ سالوست يكون أول من دشّن الترويج لفكرة تعدّد الأعراق في شمال أفريقيا ومن ثمّ إعطاء الأولوية في الحراك التاريخي بالمنطقة للعنصر الأجنبي وهو ما لا يستطيع كامبس – ولو أراد– الإفصاح عنه في خمسينات القرن الماضي والجزائر لا تزال تحت نير الاحتلال الفرنسي.

---

(3) - Gsell (s.), H.A.A.N., V, p. 332.

(4) الواقع أن كتاب كامبس الذي بين أيدينا مليء بالتأويلات والافتراضات المتحاملة، ولا يمكننا في هذه العجالة أن نحلّل كل ما جاء فيه، وما أردناه هنا هو لفت الانتباه بانتظار جهود أخرى يسهم بها المهتمّون بهذا المجال.

(5) - Diodore, XX , 57.

كثيرا ما ترد أسماء الأعلام (غير الإغريقية) في النصوص الإغريقية مصحّفة أو مترجمة، ثمّ يقع دمجها في الأساطير، لا سيما وأنّ خيال الإغريق خصب في هذا المجال، وقد اكتشف كامبس ذلك في تحويل اسم Pharusiens إلى فُرْس، للتشابه القريب بين الاسمين، وكان عليه وهو المطّلع على البلاد أن يستنجد بالتوبونيميا الأفريقية التي تزال مجالا بكراً يحتفظ بالكثير من الاشارات التي يمكن أن تفيد الباحث، وفي هذا السياق نرى أنّ الاسم يمكن مقاربته باسم المكان فلاّوسن (Fellaoucen) الأمازيغي الذي احتفظ به اسم جبل بناحية تلمسان لعلّه كان آخر معقل لقبيلة الفاروزيين القديمة، خاصّة وأنّه غير بعيد كثيرا عن منطقة درعة التي ترجّح المصادر أنّها كانت موطنهم، ويكون قلْب اللام إلى راء وارداً خاصّة وأنّ ما يميّز لهجة الريف الأمازيغية إلى اليوم هو قلْب اللام راءً .

توقّف كامبس عند الصورة البدائية التي وصف بها سالوست قدماء الأفارقة الليبيين والجيتول مستنتجا أنّه لا يعني بها ليبيي وجيتول الفترة التاريخية ولكن المقصود هم أسلافهم شعوب ما قبل التاريخ في مرحلة القنص والقطف، التي مرّت بها مختلف الشعوب، أي قبل الفترة النوميدية بآلاف السنين وهي في رأيه " **صورة تجعل نصّ سالوست مطابقا لمعطيات أنثروبولوجيا ما قبل التاريخ المتعلّقة بأصول البربر**"[6] فهل هذا دحضٌ لوحشية وصم بها سالوست الأفارقة، أم أنّه إعلاء من شأن سالوست "العارف" بما قبل التاريخ قبل ظهور علم ما قبل التاريخ بألفي سنة، ومع ذلك يبدو استنتاج كامبس ذكيا لأنّ العبارة التي استهلّ بها سالوست نصّه: "**الجيتول (Gaetulii) والليبو (Libyes) هم السكان الأوائل لأفريقيا وهم عمالقة متوحّشون يتغذّون على لحوم الحيوانات الضارية أو على أعشاب المروج في شكل مجموعات**..." [7] ، تفيد ماضٍ بعيد غير محدّد يمكن أن تُفهَم منه البدايات التي هي دون ريب عصور ما قبل التاريخ.

كانت الوحدة الاثنية للأفارقة محلّ اهتمام المؤلّف، وهذا من النقاط الأساسية في بحثه، وما يتحدث عنه المؤرّخون من انقسامهم إلى ليبيين وجيتول هو في واقع الحال انقسام في نمط المعيشة وليس انقساما على أساس إثني، فالليبيون في نصّ سالوست يتوضّعون في المناطق الساحلية وهم زرّاع مستقرون أمّا الجيتول فيتوضّعون في السهوب وأطراف الصحراء حيث

[6] أعلاه ، ص **20**

[7] عقون (العربي) ، المؤرّخون القدامى:سالوستيوس وكتابه حرب يوغرطة، دار الهدى عين مليلة، **2006** ، ص **91** فقرة XVIII.

ينتجعون بقطعانهم، لكن ما لا يمكن إغفاله هو عبارة هامّة وردت في سالوست وهي: **"اندمج الميد والأرمن في الليبيين وعُرف الجميع باسم المور(Maures) وشيّدوا منذ وقت مبكّر مدنا، وكانوا يبادلون منتوجاتهم مع إسبانيا"**[8] هذه العبارة كما نرى تتحدث عن تشييد مدن وتبادل تجاري مع مدن الساحل الإيبري، مما يدلّ على أنّ بعض تلك المدن في أقلّ تقدير كان على الساحل وفيه مرافئ وسفن تؤمّن حركة التبادل بين ضفّتي البوغاز، وهذا في فترة سابقة لوصول الفينيقيين إلى المنطقة بقرون، وكان حريّاً بالمؤلّف أن يجعل عنوان القسم الأول من بحثه الأفارقة قبل الفينيقيين لا قبل ماسينيسا، ولو فعل ذلك لكان بحثه أعمق، خاصّة وأنّنا نلمس في نصّه تجميعا لعدد من البراهين والشواهد التاريخية التي تفنّد مقولة أنّ الفينيقيين هم الذين أدخلوا الشمال الأفريقي في التاريخ، ولعلّ عذره أنّ مثل هذه الرؤى لم تنضج بعد في الخمسينات من القرن الماضي، لأنّ الكشف عن تاريخ المنطقة في الفترات ما قبل وصول البحارة الفينيقيين يتطلب جهودا كبيرة في مجال الأبحاث الأثرية مبنية على رؤى جديدة، وهو ما لم يكن متاحا له حينئذ[9].

في هيرودوت على عكس سالوست، وجد كامبس عددا من الحقائق التي أثبتتها الأبحاث الأثرية والأنثروبولوجية، وهي حقائق تثبت أصالة الشعب الأفريقي وديمومته، ومع أنّ المعروف عن أبي التاريخ هو ولعه بالغرائبية في سرد الأحداث خاصّة وأن الإخباريين هم مصدره الأساسي إلاّ أنّ ما أورده بالغ الأهمّية بحيث لم نجد من بين المؤرخين القدامى من قدّم معلومات غزيرة نسبيا عن الأفارقة القدامى مثله، وهو هنا يركّز على الجانب الأنثروبولوجي أكثر، وأهمّ ما أورده في هذا السياق أسماء عدد معتبر من القبائل الليبية (الأفريقية) وهي كلها تحت مسمّى واحد وهو ما يدعم الوحدة الإثنية للأفارقة، إضافة إلى معلومات متعلّقة بالنشاط الزراعي وبعض الطقوس ولعلّ الطريف في الموضوع أنّ هذه الأخيرة ثبت وجود استمرارية لها إلى عهد قريب[10].

---

(8) أعلاه، ص **19** .

(9) يمكن الرجوع إلى دراسة أحدث للمؤلّف، عن إشكالية أصول وديمومة الشعب الأمازيغي :

-CAMPS (G.), Berbères, Mythe ou réalité ? In les cultures du Maghreb, Editions de l'Harmattan, Paris 1996, pp. 35-60

(10) مثل طقس النوم على قبور الأسلاف، أعلاه ص **23** ، وهذه القبور لا تزال آثارها في جهة غاط بالفزان وآجّر في تاسيلي وتسمّي في الأمازيغية التارقية: Adebni في المفرد و Idebnan في الجمع، أنظر :

- Foucauld (Père Charles de), Dictionnaire Touareg – Français, 4 Volumes, Imprimerie nationale de France 1951, T. I, 159, édbni

المسمّى الواحد للأفارقة عند هيرودوت هو الليبيون، وسار على أثره كل من جاء بعده من الإغريق فالبلاد هي ليبيا والشعب الذي يعْمرها هو الشعب الليبي المتوضّع شمال الصحراء من غربي النيل إلى المحيط الأطلنطي، والليبيون عند أبي التاريخ هم "**كلّ سكّان أفريقيا من الجنس الأبيض المتميّزين عن الفينيقيين والإغريق**"[(11)] ، وعلاوة على أنّ هذه العبارة تثبت ضمنيا الوحدة الإثنية لشعوب الشمال الأفريقي، فإنّها تثبت هويتها، وهو ما جعل المؤلّف يقوم بتجميع كلّ القرائن ومن مختلف المصادر الأدبية والأثرية دون إهمال الفرضيات التي وضعها الباحثون في هذا الشأن، وهو يدعم الأصل الأهلي للتسمية، مفنِّدا فرضيات الأصل الكريتي، معتمدا خاصّة على استعمال الاسم (LBT) للأفراد والجماعات (قبائل الليبو أو الريبو) وكذا للأماكن (مدينة لبتيس[(12)] التي اشتقّ اسمها من الاسم لـيبي) ويكمن دور الإغريق في أنّهم روّجوا له ووسّعوا نطاق استعماله[(13)].

في الواقع كنا نتمنّى أن يقارَن الموضوع بمثيله عند الشعوب الأخرى، فالإغريق مثلا لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم ولكن الرومان من باب إطلاق اسم الجزء على الكل أطلقوا عليهم اسم مجموعة إغريقية صغيرة (Graeci) كانت متوضّعة في منطقة مطلّة على مدخل البحر الأدرياتي مقابل الساحل الإيطالي وأصبح الاسم علما على الشعب الإغريقي كلّه، وهو ما نراه في اللغة العربية حيث أطلق اسم أحد الشعوب الإغريقية وهو الإيونيون (Ionii) على كل الشعب الإغريقي ومنه اشتقّت الصيغة العربية "اليونان" التي تطلَق على الأرض والسكّان، أمّا الرومان فأخذوا اسمهم من اسم العاصمة روما ... الخ، وفي هذا السياق يكون الاسم ليبي في الأصل اسما لمجموعة من الأفارقة وقع تعميمه على كل الشعب الأفريقي، فهل كان الأفارقة يسمّون أنفسهم ليبيين؟ والإجابة نعم، بحيث يستفاد من كامبس أنّ وجود اسم ليبي كعلَم للأشخاص دليل على استعمالهم له، في الفترة ما قبل الرومان على الخصوص.

بحث كامبس في الاسم الذي أصبح متداولا حاليا وهو مازيغ وأمازيغ، واعتبره الاسم الحقيقي لعموم شعوب أفريقيا الشمالية، والمدهش حقّا أنّ يكون هذا الاسم الإثني قديم الاستعمال لا كما اعتقد البعض، ومع أن ابن خلدون المتأثر بالأنساب العربية التي تنتهي باسم جدٍّ أعلى تنتمي إليه القبيلة أو الشعب، جعل مازيغ هو اسم الجدّ الأعلى للأفارقة، إلاّ

---

(11) - Hérodote, IV, 197.

(12) **بإزالة اللاحقة الإغريقية IS من الاسم يبقى الجذر LEPT وهو ذاته الاسم ليبي.**

(13) **ورد الاسم ليبي في التوراة أيضا، بصيغة ليباهيم ،أنظر: سفر التكوين الإصحاح 12 الآية 3 ، والإصحاح 16 الآية 3.؛ وللمزيد يراجَع : ـ بازامة (محمد مصطفى) ، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، مكتبة قورينة للطباعة والنشر 1965 .**

أنّ مجرّد استمرار الاسم إلى عصره دليل على تداول واسع وعميق له، وقد تتبّع المؤلّف مختلف صيغ واشتقاقات الاسم في النقوش الأثرية ولهجات اللغة الأمازيغية ليثبت بالأدلّة قِدم وديمومة هذا الاسم الذي استحقّ اليوم أن يكون علَماً على الأمّة الأفريقية، وهذا في حدّ ذاته عامل اطمئنان لأولئك الذين توجّسوا منه لأسباب سياسية في الغالب.

مهما يكن معنى الاسم مازيغ فإنّ المؤلّف لم يتطرّق إلى سندٍ تاريخي آخر ورد في ابن خلدون يثبت وجود الاسم خلال الفتوحات الاسلامية، وهو أنّ زعيم مغراوة **صولات** ناث وزمار – الذي أسلم أمام الخليفة عثمان في المدينة – أجاب على سؤال الخليفة عن انتمائه قائلا أنّه من الأمازيغ أحفاد مازيغ بن كنعان، وسواء ذهب هناك بمحض إرادته أو أُسِر ونُقِل إلى مقرّ الخلافة لينظر الخليفة في شأنه كما تقول الروايات فإنّ ذكْره لنسبه الأمازيغي يدْعم رأي كامبس، وإذا كانت القصّة منتحَلة فلماذا اختار منتحلها النسب الأمازيغي على النسب البربري مع أنّ تسمية بربر(14) هي المتداولة في كل المصادر التي تعود إلى تلك الفترة، وما يفهَم ضمنيا من هذه الرواية هو أنّ الأفارقة ظلّوا يستعملون الاسم أمازيغ علَماً عليهم وما وجدنا منهم من استعمل الانتماء البربري له أو لأمّته.

أخذ الاسم "ليبي" يتراجع تدريجيا تاركا المجال لاسم آخر من أصول أهلية هو أفريقيا والأفارقة (15)، وهو الاسم المستمرّ إلى اليوم مع الاختلاف في المدلول، وهذا الاسم الذي هو في الأساس علَمٌ على قبيلة **آفري** المتمركزة بجوار قرطاج، سيعمّم على البلاد والسكّان، ولا ندري إن كان ماسينيسا في شعاره المعروف "أفريقيا للأفارقة" قد ذكر البلاد والسكان بهذا الاسم أم أنّ المصادر الرومانية ترجمت شعاره، وحتما فإنّ ماسينيسا الذي يتقن لغة روما يعرف التسمية ويعرف مدلولها الشامل لكل الشمال الأفريقي ويعرف أنّها أشمل من تسمية نوميد الدالّة على شعب مملكته الذي هو جزء من الشعب الأفريقي عامّة، ولذلك اختار التسمية الأشمل، ومع محاولات البعض إيجاد أصول أخرى للتسمية إلاّ أنّ افتراضاتهم تحوّلت إلى تهويمات وهذيان (16).

---

(14) لا ينبغي أن يفهم من كلمة "بربرية" في العربية معناها الحديث فلم يكن العرب في الماضي يستعملون هذه الكلمة بمعنى وحشية على الإطلاق لأن الكلمة بمعناها الحديث أخذها العرب عن كلمة Barbare الأوربية،أنظر:شفيق (محمّد)،ثلاثة وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغيين، ص **18** .

(15) ظهرت بعض الاجتهادات اللغوية القائمة على البحث في المعجم الأمازيغي فقد اقترح البعض أن يكون اسم أفريكا مشتق من الكلمة الأمازيغية ثافركه **Taferka** التي تعني السهل من الأرض عموما، وهذا لا ينطبق على جغرافية هذه البلاد التي تتنوع تضاريسها، وقال آخرون أنّها من عبارة: ثامورث نْ'وُوفْريك **Tamurt n'wufrik** أي بلد الخروف، والواقع أنّه لا ينبغي الدخول في مثل هذه المتاهات، لأنّ اسم بلد ما كثيرا ما يعود إلى الترويج له أكثر من الأصل اللغوي.

(16) من ذلك محاولة مقاربة الاسم أفري بإيفري (الكهف في الأمازيغية) مع أنّ التسميتين مختلفتين ولكن نزعة هؤلاء إلى وصف الأفارقة بالبدائية وجدوا فيها ضالّتهم وفسروا الكلمة بسكنة الكهوف (Troglodytes) مع أنّ قبيلة أفري من أقدم القبائل المستقرّة وكانت مجاورة

ما لا نجده في المصادر القديمة هو الاسم الإثني بربر (l'Ethnique: Berbère) الذي روّجت له الكتابات العربية، وهو ما لم يتعرّض له كامبس في هذه الدراسة التي أرادها أن تكون قاصرة على الفترة النوميدية ممثّلة في شخص الأقلّيد ماسينيسا على الخصوص، والحال أنّه لم يثبت أنّ أيّاً من الإغريق أو الرومان استعمل لفظة بربر علَماً على الأمّة الأفريقية، وقد يرِد الاسم كنعت من النعوت التي تنعت بها الشعوب بعضها البعض خاصة في أوقات الحرب، لكن لا وجود له بالمدلول الإثني، وقد خلط البعض بين الأصل اللغوي الإغريقي للفظة بربر (Βαρβαροι) واستعمالها علَماً إثنيا وهذا خطأ كبير، يراد من ورائه تبرير بعض الآراء التي يروّج لها أصحابها، فهذا ابن خلدون يعتبر كلمة بربرة من صميم اللغة العربية وتعني الكلام غير المفهوم، وأدرج ذلك في أسطورة أفريقش الشهيرة، ومن هنا استنتَج بأنّ مدلول بربر لا يختلف عن مدلول عجم الذي سمَّى به العرب الفُرْس لذات السبب وهو لغتهم غير المفهومة، و لم يعِدْه إلى الأصل الإغريقي أو إلى معنى الوحشية [17].

ما الهدف من هذا البحث الشامل والدقيق في الاسم الاثني الجامع للأفارقة ؟ لعلّ هاجس المؤلِّف هنا هو إثبات وجود الشعب الأفريقي (الليبي) في موطنه كغيره من شعوب حوض البحر المتوسّط وأنّ هذا الموطن بالذات لم يكن في أيّ فترة شاغرا ينتظر تعميره من أقوام طارئة، وهذه الحقيقة التاريخية في ذاتها هي أحد الأركان التي تدافع عن رسوخ الشعب الأفريقي فوق أرضه، كأيّ شعب آخر، ولذلك سار ببحثه نحو جرد كل المعلومات الواردة في المصادر وجمعها ولو أنّها في بعض الأحيان لا تتعدّى كلمة أو جملة صغيرة، وإعداد جداول للقبائل والشعوب وكذا للمدن والقرى الأفريقية على امتداد القرون : السادس والخامس والرابع إلى الثالث، من تريبوليتانيا إلى موريتانيا، وهو يردّ على اقزال الذي كان يؤسّس لمسلّمة مفادها أنّ " **بلاد البربر قبل الرومان لم تكن سوى أرضا خالية، تنتجع فيها قبائل من الرحّل، تسوق أمامها قطعانها الهزيلة** "[18] بالقول أنّه "... **ومن يوم لآخر تكشف التنقيبات الأثرية في الطبقات الرومانية والبونية عن مجتمعات أهلية منظّمة إلى حدّ ما ولكنها عارفة بالفلاحة ومستقرّة في تجمّعات عمرانية، والمثال على ذلك تيفست التي فُرض عليها تسليم 3000 رهينة من أبنائها خلال منتصف القرن الثالث ق.م. وهو الدليل على أنّ**

لقرطاج ولا ريب أنّ عددا كبيرا من أبنائها اندمج في المجتمع الحضري للعاصمة التاريخية لأفريقيا القديمة، للمزيد أنظر:كامبس (قابريال)،في أصول بلاد البربر: إشكالية الاسم الإثني واسم البلاد، ترجمة العربي عقون، في الحوار الفكري مجلة صادرة عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، العدد 9 ،2007 ص ص185-197.

(17) ابن خلدون، العبر، ج ص

(18) - Gsell (S.), H.A.A.N., t. VI, p. 241.

الأفارقة القدامى لم ينتظروا السيطرة القرطاجية أو الرومانية لتشييد المدن"[19] وهذا الاستنتاج على درجة كبيرة من الأهمّية، لأنّ الأثريين إلى حدّ الآن اعتبروا الطبقة الأركيولوجية السفلى طبقة بونية محضة وبذلك استنتجوا أنّ كلّ المدن الساحلية على الأقل هي عمل قرطاجي وأن العمران في الشمال الأفريقي يبدأ مع قرطاج، وليس للشعب الأفريقي أيّ دور في ذلك.

في سؤاله عن الوضع الحضاري للأفارقة قبل وصول الفينيقيين يلفت كامبس انتباه الجميع؛ مؤرّخين وأثريين، إلى ذلك الخطأ الفادح الذي ارتكبه الأثريون وهم ضحايا أحكام مسبّقة ألا وهو إدراج كلّ التقنيات الصغيرة وحتّى الزخارف البسيطة ضمن الطبقة الأثرية الأخيرة (السفلى)، والقول بأنّها تعود إلى البونيين، لتكريس تلك الصورة القاتمة لهؤلاء السكّان "المتوحشين"... [20] وأنّهم "**إلى تلك الفترة (البونية) كانوا لا يزالون يصنعون أدواهم من حجر الصوان ويجهلون أدنى الأشياء التي أنتجتها الحضارات التاريخية أوالبروتوتاريخية ومحكوم عليهم بالركود والعزلة، وأنّ الفينيقيين دون غيرهم هم المتحضرون والمتفوّقون...الخ** "[21]، وهذا التأسيس هو الذي قامت عليه أبحاث ودراسات بعضها يرسخ الفكرة المذكورة كمسلّمة شبه دوغمائية لا تزال إلى اليوم تسلك خطّا ينبغي أن يكون محلّ تصحيح ومراجعة.

في موضوع الفلاحة، ركّز كامبس على المعطيات الأثرية التي فاجأت ذوي النزعة السامية بنتائج قلبت الكثير من الأحكام والتأويلات التي طالما روّج لها هؤلاء، وهو يؤكّد في هذا السياق أنّ " **الأفارقة لم ينتظروا مجيء البحّارة السوريين لمزاولة تربية الحيوان والفلاحة**" وهي ذات الفكرة الموضوعية التي خرج بها اسطيفان اقزال(1911) ومع اتساع نشاط البحث الأثري أمكن تتبُّع مسار تطوّر الصناعة الحجرية في الشمال الأفريقي القديم إلى العصر النيوليثي، من أدوات وعتاد فلاحي (مناجل، مطاحن، مطارق وفؤوس) وكذا آثار تهيئة الأرض للاستغلال الزراعي كما أثبتته آثار موقع تازبنت (تبسّة) ولعلّ ما أشار إليه المؤلّف من معرفة غير مكتملة تخصّ فجر تاريخ بلاد البربر هو الذي جعله يستعدّ للبحث في

---

[19] أعلاه ص **53**

[20] - Poinssot (L.) et Revault (J.), Tapis tunisiens, I, Kairouan, 2ème édition, p. 11.

[21] أعلاه ، ص **54**

هذا المجال لينجز أطروحته القيّمة في الدكتوراه عن المعالم الأثرية البروتوتاريخية في هذه المنطقة وهي الأطروحة التي تعدّ بحقّ فتحا علميا خالدا[22].

اتجهت الأبحاث الأثرية في مجال الكشف عن بدايات ظهور الزراعة في الشمال الأفريقي القديم منذ النيوليثي نحو دراسة الأدوات المكتشفة وتصنيفها وكذا نحو الرسوم الصخرية التي تحتفظ ببعض المشاهد من الأنشطة الفلاحية، ومع أنّ النتائج كانت معتبرة إلا أنّها غير مكتملة بعد، وهذا يعني أن الاستنتاجات ليست نهائية، وبين افتراض ظهور زراعة في فترات أبعد أو أقرب يدور نقاش كبير لا يحسمه إلاّ الكشف الأثري مع أنّ عوامل التعرية في بلاد ذات مناخ جاف وحار يجعل الاحتفاظ بأدوات وبذور زراعية منذ النيوليثي ليس متاحا دائما، ولكنه ليس مستحيلا، إلاّ أنّ توقّف الأبحاث الأثرية منذ عقود وقلّة المتخصّصين الأكفاء فضلا عن احتكار مراكز البحث في العواصم العلمية الأوربية للبحوث المتقدّمة في هذا المجال يجعل التقدّم وتحقيق نتائج جديدة غير ممكن في الوقت الحالي على الأقلّ.

لقد انتبه كامبس إلى أهمّية المخزون اللغوي الأمازيغي بحيث يمكن دعم البحث الأثري بمعطيات الدراسات الألسنية المتعلّقة بالمعجم الأمازيغي، ذلك أنّ الأدوات الفلاحية بقدر ما تكون أسماؤها أمازيغية بقدر ما يكون ذلك دليلا على أصالتها الأفريقية، وهذه مسألة مهمّة تتطلّب المعرفة العميقة بلهجات اللغة الأمازيغية وليس مجرّد الاطلاع السطحي على المعاجم الأمازيغية التي نشرت في النصف الأول من القرن العشرين، ومع ذلك فإنّ التفتّح على هذا المجال في حدّ ذاته يعتبَر إيجابيا ورافداً كبيرا يعزّز الأبحاث بأدلّة قويّة إذا أُحسِن استعماله، وفي هذا السياق كان المحراث الأفريقي (البربري) محلّ اهتمام الباحثين، وفي رأي كامبس أنّ الاسم دليل على أصالة المسمّى سواء كان أداة أو مزروعات أو موادّ مصنّعة، ومع أنّ الفكرة جيّدة، إلاّ أنّ اللغة الأمازيغية التي فرضت عليها حالة الشفوية على امتداد قرون طويلة لا ريب أنّها فقدت الكثير من المفردات والمسمّيات فحلّ الدخيل محلّ الأصيل في كثير من الأحيان، وهنا تكمن الخطورة حيث يتسرّع البعض في إصدار الأحكام على أنّ الاسم الدخيل دليل على أنّ المسمّى دخيل وأجنبي أيضاً وهو ما لا يمكن البتّ فيه بهذه الطريقة وبسهولة في جميع الحالات [23].

---

[22] - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1961

[23] **كثيرا ما نرى استعمال أسماء عديدة من أصل فرنسي لها مقابل في العربية، فلو كانت العربية شفوية لكان الحكم تبعا لهذه الطريقة أنها لا تتوفر على تلك الأسماء، والواقع أن اللغة المدعومة من النفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الديني لها دائما القدرة على اختراق اللغات التي لا تتوفر على حماية.**

في هذا السياق جمع كامبس العناصر التي تدعم حقيقة قدم الزراعة الأفريقية، التي كانت بداياتها سابقة بقرون طويلة على وصول البحارة الفينيقيين إلى سواحل المنطقة، فبالإضافة إلى المعطيات الأثرية، هناك الدراسات العلمية التي أثبتت قدم الزراعة الشجرية والحقلية في المنطقة، وقد تتبّع المؤلّف مراحل تدجين الأشجار المثمرة، وأثبت معرفة الأفارقة للتطعيم وتحويل الزيتون البري إلى زيتون بستاني قبل وصول الجالية الفينيقية، وفي ردّه على القائلين بالأصل الفينيقي للزراعة الأفريقية استنتج أنّ المعطيات الأثرية والألسنية تثبت الأصل الأفريقي وكما كتب جان ديبوا "... **ليس ضروريا دائما لشرح التقنيات الزراعية في بلد ما، الرجوع إلى التأثيرات الخارجية**" [24] ففي شجر الرمّان مثلا اعتمد الباحثون على التسمية اللاتينية له وهي Malum punicum للجزم بأنّها من أصل شرقي وهذا سبب غير كافٍ لأنّ العبارة ذات مدلول جغرافي ولا ينبغي أن يفهَم منها المعنى العرقي البتّة، خاصّة وأنّ البونيين في واقع الحال ليسوا سوى مروّجي محاصل وسلع في حوض المتوسّط، ومع هذا لا ينبغي نفي فضائل الحضارة البونية- التي نعتبرها حضارة أفريقيّة- على المنطقة .

* * *

للبحث في البدايات الحقيقية للتاريخ ينبغي الذهاب الى الفترة الممهدة له، وهي فجـــر التاريخ، أي الرجوع إلى الوراء قرونا طويلة، وهو ما تطرّق إليه كامبس [25] لكن يبدو أنّه لم يكن متاحا له آنئذٍ الخروج بنتائج تجيب عن الحدّ الأدنى من التساؤلات المطروحة، وكان لابدّ من انتظار إتمام أطروحته الثانية عن معالم وطقوس فجر التاريخ الجنائزية وكذا الأبحاث التي تلتها، حيث استدرك الكثير من النقص المشار إليه، وتمكّن من إعداد جداول تحقيب[26] شاملة لكلّ مواقع ما قبل التاريخ بما في ذلك موقع **هَوَا فْتيح** بقورينة، اعتمادا علـــى كـــلّ الأبحاث الميدانية التي أجريت إلى ذلك الحين (1968)، وأمكن الكشف عن التطوّر التدريجي من القنص إلى إنتاج الطعام الذي طبع العصر النيوليثي والملاحظ أنّ مواقع هذا الأخير وكذا منهجية البحث الأثري ما فتئت تنمو وتتوسّع مما يمكّن من التعرّف أكثر على تفاصيل ظلّت مجهولة إلى ذلك الحين.

(24) - Despois (J.), la culture en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50 (p. 49).

(25) أعلاه ، ص ص **59- 60**.

(26) -Camps (G.), Tableau chronologique de la Préhistoire récente du Nord de l'Afrique, in Bulletin de la Société préhistorique française, Année 1968, Volume 65, Numéro 2 pp. 609 – 622

لقد كانت المدافن والمقابر الميقاليثية على اختلاف أشكالها وأحجامها أهمّ الأماكن التي أودع فيها إنسان ما قبل التاريخ أدواته التي يمكن من خلالها اليوم رسم مشهد للحياة الاجتماعية لتلك العصور الغابرة، ومع أنّ ما هو متوفّر الآن من معلومات ليس نهائيا إلاّ أنّه كافٍ لدحض النصوص الكلاسيكية التي رسمت صورة مشوّهى للشعب الأفريقي الذي ظلّ بدائيا يعيش على الترحال والقنص إلى أن جاءته حضارة متقدّمة من الشرق فتحت له أبواب الدخول إلى التاريخ على مصراعيها، والأخطر من ذلك هو ما نلمسه من إصرار البعض على وضع العربة أمام الحصان أي جعل الأبحاث الأثرية في خدمة تلك النصوص والسعي لجعلها دليل إثبات ما ورد في تلك الكتابات المعادية أو بالأحرى المتجاهلة لمنطقة الشمال الأفريقي.

تتبّع المؤلّف توزّع هذه المدافن وحاول على ضوء ذلك رسم خريطة إقليمية لها، حسب كثافة أو قلّة مواقعها، والحال أنّنا لا نوافق بعض التأويلات التي خرج بها بخصوص أصول المعالم الميقاليثية، بالقول أنّ وجودها بكثافة في المنطقة الساحلية دليل على أصولها المتوسطية والأوربية، ونرى أنّ مسألة الكثرة أو القلّة مرتبطة بالكثافة السكّانية، حيث أنّ المناطق التي تضمّ عددا أكبر منها هي التي شهدت تعميرا سكّانيا كبيرا، ومن الطبيعي ألاّ نجد هذه المعالم بذات الكثافة في المناطق الخالية أو القليلة السكّان.

عند إلقائنا نظرة فاحصة على خريطة توزّع معالم ما قبل التاريخ (المدافن والمقابر الميقاليثية) على امتداد الشمال الأفريقي [27] نلاحظ تطابقا شبه كامل مع الخريطة الديمغرافية والعمرانية في المراحل التاريخية، فمثلما أنّ العمران يقلّ كلّما اتجهنا غربا فكذلك معالم ما قبل التاريخ، وهو ما يدعم الفكرة المشار إليها في الفقرة السابقة، والملاحظ أنّ أهمّ ما احتوت عليه هذه المدافن هو الآنية الفخارية (أقداح، جفان، أطباق وكؤوس) ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الفخار مقاوم لعوامل التعرية فضلا عن أهميته في حفظ الموادّ النذرية إلى جانب رفات الموتى، لكن العلّة تكمن في تصنيف أصول هذه الفخاريات وكذا في تأريخها، لأنّنا نلمس في تعابير المؤلّف أحكاما مسبقة، مفادها أنّ الآنية متقنة الصنع دائما ذات أصول بونية أو من صقلية وإيبريا أو حتّى من بلاد الإغريق، أو أنّها تعود إلى الفترة القرطاجية دون تقديم الدليل وشتّان بين القولين : أنّها من أصول أجنبية إلى أن يثبت العكس أو أنّها أفريقية إلى أن

[27] أعلاه ص **100** .

يثبت العكس لأنّ القول الأول يقوم على حكم مسبّق ينسب كلّ صناعة متقنة إلى أصول أجنبية، والسير في هذا السياق كما نرى يسلب البلد تاريخه وحضارته.

قدّمت مواقع ما قبل التاريخ أشياء أخرى متنوعة تدخل في الاستعمالات المختلفة مثل الحلي والملابس والأسلحة، وفي رأي كامبس أنّ "**تكرار ظهور الأشرطة الملوّنة** (في الألبسة المعثور عليها) **في موقع اسميرات يذكّر بألبسة العامّة الحالية**"[28] وبالسترات الفضفاضة التي يرتديها المور تحت جلود الحيوانات حسب سترابون[29]وهو ما تثبته إشارة في هيرودوت[30] مدعومة من الرسوم الصخرية أيضا [31] وهذا اللباس الفضفاض لا يزال يميّز اللباس التقليدي التارقي على الخصوص، لكن لا نجد الوضوح الكافي في ما يتعلّق بالانتقال من الألبسة الجلدية إلى الألبسة النسيجية، ولعل الصور المنقوشة في الصخر لأشخاص يرتدون لباسا مزوّدا بغطاء الرأس (ناحية سيقوس) دليل على قدم الألبسة النسيجية الأفريقية وعلى قدم وأصالة البرنوس الأفريقي على وجه الخصوص الذي حاول البعض تلفيق أصول أجنبية له.

لم نجد في المصادر الأدبية والأثرية إشارة إلى انتماء قبلي أو إقليمي للملوك الأفارقة بل إن انتماءهم كان لشعوبهم وأوطانهم، ولا ندري لماذا يصرّ كامبس وأمثاله على انتماء قبلي وإقليمي لهذا الملك أو ذاك، ولعل إسقاط الحاضر على الماضي هو الغاية لتحقيق أغراض خفية، أقلّها تقسيم التاريخ وتوزيعه على الخريطة القبلية والجهوية الحالية ومن ثمّ نقْل "تناقضات" اليوم إلى التاريخ لدفع كلّ إقليم إلى اتخاذ زعماء يناقض بهم زعماء الإقليم الآخر[32] ، ولعلّ هذا هو ما جعل المؤلّف يبحث عن أصل السلالة الماسيلية مرّة في دوقة مرّة أخرى في سيرتا وفي الأوراس حيث ضريح مدغاسن[33]، وفي هذا السياق ينبغي ألاّ ننسى ما أقدم عليه برتيي وزميله الأب شارليي في أطروحتهما التي يزعمان فيها أنّ سيرتا هي مدينة الكاف وحاولا تركيب جغرافية حرب يوغرطة على إقليم لا يتجاوز جهة الغرب

---

[28] أعلاه ص **109**

[29] - Strabon, XVII, 3, 7.

[30] - Hérodote, IV, 189.

[31] أعلاه ش **11** ص **110**

[32] كما يحدث اليوم عندما تباهي منطقة بأحد زعماء الثورة فيردّ عليها إقليم آخر بالمباهاة بزعيم آخر وهذا كلّه على أساس نزعة جهوية تتغذّى من أفكار متخلّفة ومعادية للمصالح العليا للأمّة.

[33] مع أنّ المعالم الجنائزية هي التي تدلّ على الأصول لأنّ تقديس المكان يكون بعد إقامة طويلة فيه حيث تنشأ علاقة حميمة بين الإنسان وبيئته تضفي على بعض الأماكن هالة من القدسية إلاّ أنّ هذه المعالم ليست حكرا على إقليم دون آخر، لكن ينبغي الإقرار بأنّ مدغاسن لا يضاهيه معلم آخر في فخامته سواء من حيث القدم أو التفرّد والأصالة.

خطّا ممتدّا من قالمة إلى تبسة وأنّ موريتانيا في كتاب سالوست هي المنطقة الأوراسية، وكان عليهما أن يتريّثا قبل إصدار مثل هذه الأحكام خاصّة وأنّ بلدان الشمال الأفريقي كانت آنذاك على وشك انتزاع استقلالها، فهل كان القصد هو خلط الأوراق والعبث بالتاريخ الأفريقي واختراع جغرافية أخرى له؟ وإذا استند هؤلاء على نصوص أثرية تسمّي سيكا (الكاف) باسم سيرتا نوفا [34] ألا يمكن أن يكون ذلك على غرار تسمية أفريكا نوفا، لأنّ الإشكالية تكمن في العبارة نوفا وليس في اسم سيرتا في حدّ ذاته لأنّه لم يلغ الاسم القديم، ممّا يفتح المجال أمام احتمالات كثيرة، وإذا كان برتيي يستغرب أن تجري وقائع الحرب في مساحة شاسعة ممتدّة من الموثول (وادي ملاّق) شرقا إلى مولوشا (وادي ملوية) غربا [35] فلماذا لا يعيد ذلك إلى أنّ سالوست لم يرو وقائع الحرب كاملة أو أنّ كتابه تعرّض للتلف فضاعت منه أجزاء أو حذفت من طرف مجلس الشيوخ لأنها تتضمّن معلومات تمسّ بالدولة الرومانية، ثمّ تمّ ترتيب فقرات الكتاب كما هو عليه اليوم، إنّ كلّ هذه الاحتمالات واردة، وفي بحوث يراد لها أن تكون أكاديمية ينبغي ألاّ يُهْمَل أيٌّ منها.

من الغريب أن يعود بنا كامبس إلى فجر التاريخ في القسم الثاني من عمله الذي وضع له عنوان : عهد ماسينيسا، وإذا كانت المصادر المادّية تكشف في كل مرّة أنّ بدايات التاريخ في هذه المنطقة سابقة لوصول بحّارة صور بقرون فكيف يمدّد المؤلّف الفترة البروتوتاريخية ويوصلها إلى مشارف عهد ماسينيسا؟ وحتّى لو اعتبرنا أنّ بدايات تاريخ أفريقيا "الشمالية" مواكبة لوصول بحّارة صور إلى سواحل المنطقة (القرن XII ق.م.) فإنّ المسافة الزمنية بين عهد ماسينيسا وتلك "البدايات" تقارب الألف سنة، وكنّا نودّ أن يتجه البحث في هذه "البدايات" نحو مراحل سابقة لوصول بحّارة صور للعمل تدريجيا على كشف قرون طويلة من تاريخ هذه البلاد التي لا ريب أنّها كانت مليئة بالأحداث التاريخية وبشخصيات فاعلة مال حضارية تتطلّب المزيد من الجهود للكشف عنها لأنّ ما بين أيدينا إلى اليوم من معلومات عن ما قبل تاريخ هذه البلاد وبدايات تاريخها عموما ليس نهائيا [36].

---

[34] الاسم الجديد الكامل للكاف في النقوش اللاتينية هو Colonia Julia Veneria Cirta Nova Sicca ، أنظر :
-Beschaouch (Azedine), le territoire de Sicca veneria (El-Kef) Nouvelle Cirta en Numidia proconsulaire (Tunisie) , IN comptes rendus des séances de l'académie Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Année 1981, Volume 125, Numéro 1 pp. 105 - 122

[35] -Berthier A., Juillet J., Abbé Charlier R., *Le Bellum Jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta*, Constantine 1949

[36] ما يثير العجب حقا هو تناقض المؤلف وإطلاقه لفرضيات غاية في الغرابة كأنّ يعتبر الملوك مثل قايا وسيفاكس من صميم الفترة البروتوتاريخية الغامضة كما يقول، أنظر أعلاه ، ص 219..

إذا كانت الأركيولوجيا البروتوتاريخية تقدّم الدليل على وجود بنية اجتماعية متطوِّرة كما يستنتج كامبس فإنّ الإشكال يظلّ في تحديد فجر تاريخ الشمال الأفريقي في الزمان، ذلك أنّ تأريخه بنهاية الألف الثانية ق.م. أصبح متجاوَزاً، وليس من المقبول إطلاقا وضع المعالم الجنائزية الكبرى-وهي في قلْب الفترة التاريخية – ضمْن منجزات إنسان فجر التاريخ، وليس من الموضوعي أن يجعل المؤلّف منجزات مثل ضريح مدغاسن ضمن المؤشّرات التي يستدلّ بها على "**الاستعداد المحتشم لولوج بلاد البربر المسرح الكبير للتاريخ المتوسّطي**" وهي العبارة التي أنهى بها القسم الأول من بحثه ليجعل من القسم الثاني دمجا غريبا لفجر التاريخ في التاريخ القديم، ولعل نزعة التخصّص تحولت إلى هاجس يجعله لا يرى إلاّ فجر التاريخ أي أنّ تخصّصه في فجر التاريخ يحجب عنه رؤية فترات أخرى بذات الوضوح والاهتمام، وكان يفترَض أن يوسّع من مساحة التاريخ القديم بالرجوع إلى الوراء وذلك برصد مؤشّرات دخول المنطقة الفترة التاريخية مثل ظهور نظم اجتماعية وأعراف ومزاولة أنشطة فلاحية زراعية وكذا بدايات التجمعات السكانية الأولى التي كانت في فجر التاريخ منجذبة إلى طقوسها الدينية فأصبحت أكثر انجذابا إلى الحياة القروية بفعل النشاط الزراعي.

يبدو لنا أنّ من السابق لأوانه الحديث عن وحدة سياسية حسب الرؤية الحديثة، وهنا لا ينبغي إغفال العامل الجغرافي لأنّه ليس من المتاح في البدايات تأسيس حكم مركـزي في بلاد شاسعة تساوي مساحتها مساحة أوربا الغربية وأكثر، كما أنّه لا ينبغي على الإطـلاق أن يفهم من الانقسام السياسي في عهد الممالك الأفريقية حدودا تعزل هذ البلـد عـن ذاك وتقييدا لحرية التنقل فالمجتمع لم يكن يجد أي عقبة أمامه في هذا المجال والدليل أن الجيتـول جنوب موريتانيا هم مور وجنوب نوميديا هم نوميد، فالوضع قريب الشبه بالحكم الذاتي في دولة واحدة ولكن غير معلنة تتوفّر على كلّ الأسس التي تقوم عليهـا الدولـة الواحـدة الموحّدة، وعندما أخذت فكرة الوحدة تنضج على يد سيفاكس وماسينيسا وجدت أمامهـا مؤامرات الأوليقارشية التجارية الحاكمة في قرطاج ونزعة التوسع الإمبراطوري لروما، وهنا نرى أنّه من الخطأ خلط مسألة الوحدة السياسية التي كان ماسينيسا يطمح إليهـا بـالفكر الإمبراطوري التوسّعي الذي ظهر مع بدايات تدخّل روما في شـؤون المنطقـة، لأن هـذه الأخيرة بعد أن أكملت توحيد ايطاليا شرعت في توسّع عسكري غير مسبوق لتخـضِع في النهاية كلّ بلدان حوض البحر المتوسّط.

نلمس شبها بأسطورة ميلاد أثينا[37] في حديث المؤرخين القدامى والمحدثين عن الممالك الأفريقية، التي يصفونها بممالك القرن الثالث، وكأنّ هذه الممالك ظهرت بين عشية وضحاها دون تدرّج عبر مسار طويل ليكون القرن الثالث ق.م. مرحلة متقدّمة في ذلك المسار، ثمّ ألا يُفهَم من المصادر أنّ هذه الممالك سابقة لوصول البحارة الفينيقيين فالشواهد الأدبية تقول أنّ الملوك الأفارقة هم الذين رخّصوا لتجار صور الرسو في الشواطئ الأفريقية والابحار منها وإليها، وهذا يارباس[38] وهو ملك تاريخي هو الذي منح امتياز تأسيس مدينة قرطاج مقابل دفع أتاوة سنوية وهذا دليل على وجود دولة لها سيادة على إقليمها،ولا ريب أنّ تلك الدولة لم تظهر فجأة بظهور إليسا ومن معها من الفارّين من بلدها لطلب اللجوء والاستقرار في أفريقيا.

في موضوع الشعوب والأسر الملكية الأفريقية، استند كامبس على كلّ التأويلات والرؤى الكولونيالية، التي تبحث في العلاقات بين الملوك والرعية، وأضاف أنّ كلّ ما يكتبه في شأن ظهور هذه الممالك يستند بالكامل على فرضيات، وهذا ما تقتضيه منه الأمانة، لكن عند تتبّعنا لتلك الفرضيات وجدنا أنّها فرضيات سلبية لا تولي عناية بالجوانب التي لا نجد عنها معلومات في المصادر بقدر ما تشكّك في المعلومات المتوفّرة – على قلّتها– لتخضعها للرؤى الكولونيالية التقليدية، كالقول بأنّ الممالك نشأت على أساس واحد هو القوّة، وأنّ العلاقة بين العائلة الحاكمة والرعية هي علاقة إخضاع وقهر، ومع أهمّية القوّة في فرض الاستقرار والحفاظ على الأمن ركن أساسي في أيّ دولة، إلاّ أنّ المغالاة في هذا الجانب هو جناية على التاريخ الاجتماعي الأفريقي على الخصوص حيث تعتبر القرى والقبائل بمثابة "جمهوريات" مستقلّة ذاتيا، ولا يمكن للقوّة المركزية أن تمارس القهر في حقّها إطلاقا، في بلاد كان من تقاليدها أن يناقش زعماء القبائل مختلف المسائل مع الملك ويتمّ كلّ شيء بالتراضي وهذا الشكل من النظم قريب جدّا من الديمقراطية.

تَحْمل الأسر الملكية الأفريقية أسماء الشعوب التي انبثقت منها وهذا يعني أنّ فكرة الشعب التي تتجاوز فكرة القبيلة كانت راسخة،فالقبائل ممثّلة في زعمائها ورؤسائها ولكن الملك هو رمز لوحدة الشعب وهي فكرة متقدّمة حتى على بعض النظم الملكية الحديثة التي

---

(37) أنظر أعلاه، هامش ص **308**.

(38) اسم يارباس (Hiarbas) سيتكرر في سلسلة الملوك الماسيل مما يدلّ على أنه من الأرومة الماسيلية لأن التقليد المعروف في شمال أفريقيا هو أنّ العائلة تحيي أسلافها بإعادة تسمية أبنائها بأسماء الأسلاف، للتوسع يراجَع :

- Arnold Hermann Ludwig Heeren, traduit par W. Suckau: De la politique et du commerce des peuples de l'antiquité, Volume 4, Firmin Didot frères, 1832, pp. 28-66

تفرض اسم السلالة الملكية على الشعب كلّه،لاريب أنّ الملك المؤسّس يحوز على مزايا شخصية وعائلية رفيعة جعلته ينال الاحترام والتأييد من عموم الشعب،ولعل الذين لا يريدون النظر إلى الوضع على هذه الصورة علاوة على الرؤية الكولونيالية التي تركّز على عوامل الصراع والتناحر،هم من أتباع النظرية الخلدونية التي فسرت تتابع الأنظمة والدول في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بالعصبية القبلية[39]، وهي النظرية التي وجد فيها الكولونياليون مبتغاهم. ومن جهتنا لدينا تحفّظ على استعمال هذه النظرية بأثر رجعي لأنّ تنامي النزعة القبَلية في المغرب الإسلامي كما درسها ابن خلدون كان بفعل انتقال التناحر القيسي اليمني إلى المنطقة منذ بدايات الفتوحات وخاصّة عصر الولاة حيث تقاسم "الحزبان" القيسي واليمني عموم الشعب الأفريقي وخاضا به صراعاتهما ممّا أحدث شرخا في المجتمع الأفريقي ظلّ يزداد اتساعا وسيجد في الاختلاف المذهبي في وقت لاحق أداة فعّالة أخرى تغذّيه ... .

في تناوله لأقاليم الشمال الأفريقي القديم، جعل المؤلّف قورينة (Cyrénaïque) خارج موضوعه وكأنّ البلاد التي يصرّ على تسميتها ببلاد البربر هي ما كان يسمّى بأفريقيا الشمالية الفرنسية لا غير، ولعلّ اندماج قورينة في فلك الحضارة الإغريقية جعله يصرف النظر عن ضمّها إلى موضوع بحثه، وقد بحث مطوّلا في أسماء الشعوب الأفريقية التي تعمر هذه الأقاليم وأقامت فيها ممالك، دون الوصول إلى إجابات محدّدة، وبخصوص الاسم مور وموريتانيا مثلا، نرى من جهتنا أنّه يمكن أن نضيف فرضية جديدة من اللغة الأمازيغية المستبعدة دائما في مثل هذه المسائل وهو استبعاد مقصود، يراد من ورائه تلفيق بعض الفرضيات المشبوهة، فالاسم موريتانيا Mauretania إذا حذفنا منه اللاحقة ania يبقى الجذر MRT وهو قريب من جذر الكلمة الأمازيغية[40] Tamurt التي تعني الوطن، فلعلّ الأجانب فينيقيين وإغريق وغيرهم تلقّفوا الاسم في سمعهم وصاغوا منه هذا الاسم، وهذا وارد كثيرا فالعديد من أسماء الأوطان الآن هي كلمات تلقّفها سمع الأوربيين أيام الاكتشافات الجغرافية وأصبحت في ما بعد أسماء رسمية لتلك الأوطان[41].

---

(39) **جغلول (عبد القادر) ، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس مراجعة خليل احمد خليل، ط 3 ، دار الحداثة بيروت 1982 ، ص ص 63-65.**

(40) **يقال مثلا ⴰⴷ ⵔⵓⵃⴻⵖ ⵖⵓⵔ ⵜⵎⵓⵔⵜ : أنا ذاهب إلى الوطن دون ذكر اسمه لأن كلمة ⵜⴰⵎⵓⵔⵜ كافية.**

(41) **كما هو الشأن في اسم كندا، وهو في الأصل Kanata اسم قرية (ستبنى فيها فيما بعد مدينة كيبك) سمعه المستكشف الفرنسي جاك كارتيي ثمّ عُمِّم على البلد كلّه.**

كانت الحدود الإقليمية للممالك الأفريقية محلّ نقاش،ويبدو أنّ حدود المملكة الماسيلية سواء مع قرطاج أو مع مملكة سيفاكس هي الأكثر غموضا، والماسيل هم الذين أشار إليهم نصّ يوستينوس باسم الماكسيتاني، وما قدّمه المؤلّف اعتمادا على معطيات أدبية ومادّية لا يسير في الاتجاه الصحيح، فالحديث عن حدود بين قرطاج والمملكة الماسيلية ينبغي أن يتطرّق إلى أنّ قرطاج ما هي إلاّ مصرف تجاري أقيم على تراب المملكة، و لم يكن لها إقليم إلاّ بعد قرون من تأسيسها، وهو علامة فارقة، لأنّ خروج القرطاجيين من أسوار مدينتهم لإقامة إقليم هو إعلان لانتصار الجغرافيا ودورها في أفرقة قرطاج، وهو ما يوافق عبارة بسمارك الشهيرة وهي أنّ "الحقيقة الثابتة من داخل التاريخ هي الجغرافيا" لولا أنّ الأوليغارشية التجارية منذ عهد الأشفاط الماغونيين (450-550؟ ق.م.) أعلنت- وهي التي ظلّت متمسّكة كما يبدو برفض اندماج المدينة في محيطها الأفريقي-وقْف دفع الأتاوة السنوية وسعت لتكوين ظهير (Atrrière pays) يتوسّع ليتحوّل إلى إقليم يؤمّن لها ما تحتاجه من إنتاج فلاحي، محتمية بجيش من الجند المأجور، وهو ما لم يتقبّله الطرف الماسيلي، خاصة وأنّ التوسع القرطاجي شمل أجود الأراضي التي تضمّ حوض المجرى الأدنى للمجردة، هذا التوسع اعتبره الطرف الماسيلي مناقضا لنص الاتفاقية التي تمنح لقرطاج امتيازات تحارية لا غير، فبرزت مسألة التراع على الحدود التي امتدّت إلى سقوط قرطاج، وهو ما يفهَم من إعلان ماسينيسا ألاّ حقّ لها في السيطرة السياسية على المنطقة التي تحوز فيها على بعض الامتيازات التجارية، فقرطاج عبر تاريخها ليست سوى قاعدة تجارية، كما أنّ من الخطأ اعتبار الصفة البونية للمراكز الموصوفة بأنّها بونية أو قرطاجية صفة عرقية لأنّ أغلبية السكّان الذين يعْمُرون تلك المراكز والمدن كانت دائما من الليبيين وما العنصر الفينيقي إلاّ جالية محدودة ولكنها فعّالة [42].

في الحديث عن العواصم الملكية يمكن أن نطرح سؤالا هو أين كانت عاصمة الملك يارباس الذي منح امتياز تاسيس قرطاج للمرأة الصورية، وهل هناك ملك دون عاصمة، ألا تكون ثوقة (دوقة) هي عاصمته، لأنّ العواصم القديمة كلها لم تكن مدنا ساحلية فروما تبعد عن البحر بـ 12 كلم والعواصم لدى الأمم القديمة في البلاد القارّية تكون في المناطق

---

[42] عبّر قابريال كامبس في موضع آخر عن هذا الوضع بقوله أنّ المآثر البونية نشأت من التقاء مدينة تجارية شرقية بسيادة ليبية وهو تداخل معقّد بين الطرفين، أنظر : -CAMPS (G), Les Numides et la civilisation punique , in *Antiquités Africaines*, 1979, nº14, pp. 43-53

الداخلية حيث يتمركز الثقل السكّاني أمّا العواصم الساحلية فالأغلب أنّها من صنع الاحتكارات التجارية الاجنبية والاستعمار الذي يأتي من جهة البحر وهو على استعداد دائم للانسحاب في قواربه وأساطيله إذا وقع ما يجبره على ذلك، ألم تصبح الاسكندرية عاصمة لمصر بعد غزو الاسكندر المقدوني لها، ولذلك لا عجب أن نجد عواصم الشمال الأفريقي السابقة لقرطاج ؟ والمعاصرة لها، هي مدن داخلية مثل **سيرتا، ثوقة، ثيفست، فوليبيلس** بل وحتى **سيقة** التي هي مدينة قارّية أكثر منها بحرية.

لقد كانت سيرتا العاصمة الدائمة للمملكة الماسيلية واستمرّت كذلك بعد الوحدة النوميدية ويبدو أنّ سيفاكس هو الآخر أرادها أن تكون عاصمة للمملكة النوميدية الموحّدة في الفترة القصيرة التي حكم فيها المدينة لأنّه لا يمكن حكم مملكة بذلك الاتساع من سيقة الواقعة في أقصى الغرب، ولعلّ البعض تساءل كيف أنّ سيرتا العاصمة التاريخية لا تحمل لقب "ريجيا Regia " على غرار مدن أخرى مثل زاما ريجيا، وللاجابة على هذا التساؤل نرى أنّ سيرتا باعتبارها العاصمة التاريخية لا تحتاج إلى هذا اللقب الذي يعكس ترقية هي في غنى عنها، ومع أنّ كامبس أجهد نفسه في جمع شواهد ليجعل من دوقة العاصمة الأقدم للماسيل إلاّ أنّه لم يجد ما يدعم افتراضه، لأنّ العاصمة لا يمكن أن تكون في منطقة نزاع، ولو تمركز الملوك الماسيل في مدينة قريبة من قرطاج لما كان سهلا عليها أن تتوسّع وأن تكوّن إقليما لأنّها ستكون تحت بصرهم وسمعهم.



2- آقلّيذ ماسينيسا

لعلّ قابريال كامبس وهو يضع عنوان **ماسينيسا أو بدايات التاريخ** يقصد نقلة جديدة في مسار التاريخ الأفريقي من خلال شخصية طبعت عصرها بطابع خاصّ جعله يعتبر اسم الأقليذ النوميدي عنوانا لعصر وعهد متميّز، لأنّ بين بدايات التاريخ وعهد ماسينيسا قرونا طويلة، لكن ونحن نتابع علاجه للأحداث وجدنا افتراضات وأطروحات غاية في الغرابة، تدين الملك أحيانا وتعلي من شأنه أحيانا أخرى، والواقع أنّه لا يمكن لمن أراد القدح في شخص العاهل النوميدي أن يجد ما يقوله أكثر ممّا قال غابريال كامبس، فبعد أن أحاطه بهالة القداسة وجعل منه أسطورة شرع في تجريده من كلّ ذلك كما يفعل من يعلّق كلّ نياشين الجدارة والفخار لضابط سامٍ ثمّ يشرع في تجريده منها قطعة قطعة، وهذا كلّه انطلاقا من التشكيك في نصّ لبوليب يمتدح فيه ماسينيسا ويشيد بأعماله، وجاء من بعده مؤرّخون كرّروا ذات المديح.

شدّد كامبس انتقاده لرواية بوليب مع أنّها الرواية الوحيدة من داخل المملكة، أي أنّ بوليب شاهد عيان، نقل ما رآه ولمسه بنفسه[43] ، في حين أنّ كل المعلومات الأخرى التي وصلتنا عن ملوك وممالك أفريقيا القديمة على قلّتها كان مصدرها الإخباريون والقادة العسكريون ممّا يضعف من مصداقيتها، ثمّ لماذا هذا الإصرار الذي يريد أن يجعل من رواية بوليب مجرّد مجاملة للملك، مع أنّ ما وجده هذا المؤرّخ من ازدهار فلاحي يكون هو الذي أملى عليه ما كتبه، ألا ينبغي أن يُفهَم من نصّ بوليب أنّ حثّ الملك ماسينيسا رعيته على الاستقرار والاشتغال بالزراعة هو الذي جاء بتلك النتائج أي تحقيق نقلة نوعية في هذا النشاط لا أن يفهَم منه أنّ ماسينيسا هو من أدخل النشاط الزراعي إلى مملكته لأنّ بدايات الزراعة الأفريقية أقدم من العاهل النوميدي بكثير وتعود إلى نهاية النيوليثي.

كان اسم ماسينيسا هو الآخر محلّ نقاش، ومع أنّنا لا نطمئنّ كثيرا لتفكيك بنية الكلمة كما يفعل البعض لتمرير بعض التأويلات التلفيقية، لكن الثابت أنّ الاسم يعني "سيّدهم" والإشكال هو أنّ الذين ليست لهم معرفة باللغة الأمازيغية وهي الشكل الحديث للغة الليبية القديمة لا يحسنون تحريك الحروف (*Phonation*) التي تكتب في الليبي كما في

---

(43) أعلاه ، ص **216** .

البوني دون أصوات (*Voyelles*) فاسم ماسينيسا كما هو مرسوم على العملة أو في النقـــوش كتب هكذا *MSNSN* [44]وهذه الحروف تتكون من كلمة هي *MS* التي ينبغي أن تُقرَأ *MAS* (تقابلها في العربية كلمة سيّد) وحرف جرّ يفيد التملّك وهو *N'* ليس له مقابل في العربيـــة لأنّ العربية تستعيض عنه بصيغة المضاف والمضاف إليه، وضمير الغائب وهو *S* (يقابلـــه في العربية حرف الهاء) وعلامة الجمع وهي *N* (يقابلها في العربية حريف الميم)، ويكون الاســـم بالكامل هكذا : ماس–ن–س__ن *Mas-n-s-n* أي *Mas n'sen* ويعني سيّدهم،[45] واختصر في الرسم اللاتيني كما هو معروف هكذا: *Masinissa* أو *Massinissa*، وهو اسم ليبي (أمازيغي) مما يدلّ على أنّ العاهل نوميدي الأمّ أيضا، على عكس بعض أبنائه وأحفاده الذين حملـــوا أسماء بونية لا ريب أنّ ذلك يعود إلى أنّ أمّهاتهم بونيات وهنّ من سمّينهم[46] ولعلّ المكانـــة التي تبوّأها مكوسن (ميكيبسا) وقولوسن (قولوسا) تعود إلى أولوية الأصل النوميدي الكامل على الأصل المختلط، فالأسماء التي تنتهي بالسين والنون هي أسماء نوميدية وهـــي الأقـــدم، ويبقى لنا أن نتساءل عن الاسم "ماسينيسا" ذاته، هل هو اسم الملك الشخـــصي أم اســـم إجلال وتعظيم له، فقد جرت العادة أن لا يُسمّى الملك باسمه من قبل رعيتـــه، وإلى اليـــوم تحجِب ألقاب مثل صاحب الجلالة، جلالته، أو مولانا ...الخ الاسم الشخصي للملك.

في مسألة وراثة العرش، لا ينبغي أن نغفل تقاليد الأسرة الماسيلية وهي أن يتولّى العرش **الأكبر سنّا من الذكور** في العائلة الملَكية، وهذه هي القاعـــدة الأغناطيـــة[47] (*Agnatique*) المعروفة، ولذلك لم يتولّ ماسينيسا العرش الماسيلي مباشرة بعد وفاة والده فـــآل إلى عمّـــه أوزالس (*Oezalces*) – الذي كان متزوجا من ابنة أخت هانيبال – وبعد وفاة هذا الأخـــير خلفه ابنه كابوسا(*Capussa*) الأكبر سنّا من ماسينيسا، ويبدو أنّ أشفاط قرطـــاج كـــانوا

[44] أنظر أعلاه ، ص **195** .

[45] وهو نفس الاستنتاج الذي خرج به قوسطاف مرسيي لأنّه من أكبر العارفين باللغة الأمازيغية ولا تزال أعماله وأبحاثه في هذه اللغة مرجعا أساسيا، فكيف يغيب ذلك عن قابريال كامبس حتى يتساءل بغرابة عن كنه تفسير مرسيي للاسم،أعلاه ص **192**.

[46] لا يوجد قبل ماسينيسا اسم بوني لأيٍّ من أعضاء الأسرة الملكية، وأول من تسمّى باسم بوني هو آذربال ابن ميكيبسا، ولعلّ مشاعر الكراهية إزاء يوغرطة تعود إلى أمّهات قرطاجيات، ومنذ الملك المحارب يوبا الأول زالت الأسماء البونية ولكن زواج يوبا الثاني من سيليني ابنة كليوباترا جعل الاسم اليوناني (بطليموس Ptolémée) يحلّ محلّ الأسماء النوميدية، فهل كان تقليدا أنّ تكون الأمّ هي التي تسمّي ولدها في الأسرة الملكية النوميدية ؟ .

[47] - Gsell (S.), HAAN, t, V, pp. 122-123

يريدون أن يؤول العرش لابن اوزالس من القرطاجية، فأوعزوا إلى أمير ماسيلي من الفـــرع المنافس للفرع الحاكم اسمه **ماس ايتول** (*Mas Itule*) بخلع كابوسا، ودارت الحرب وقُتل هذا الأخير وانتصر الانقلاب وأجلسوا على العرش الماسيلي **لاكومـــاز**[48](*Lacumazès*) أخـــو كابوسا غير الشقيق، وكان صغير السنّ، ولذلك أصبح ماس ايتول هـــو الحـــاكم الفعلـــي للمملكة الماسيلية، ولدعم مكانته تزوّج من أرملة الملك اوزالس (والدة لاكوماز) ليكون له الحق في إدارة دواليب السلطة، باعتباره كفيل الملك الصغير لاكوماز، ولكسب حلفاء أرسل وفدا إلى الملك سيفاكس استُقبِل بالترحيب، وهذا كلّه تمهيدا لحلف يقطع الطريـــق علـــى المطلب الشرعي لماسينيسا، وبإيعاز وتخطيط من أشفاط قرطاج.

جرت هذه الأحداث وماسينيسا في إيبريا، فقرّر العودة ولضمان وصوله إلى مملكته في أمان (خريف 206 ق.م.) استعان بحليفه باقا (*Baga*) الذي أمّن له قوّة ترافقـــه قوامهـــا 4000 رجل حتّى يعبر إلى بلده في أمان. وما إن وصل حتى اصطدم بلاكوماز الذي كان في ثابس (*Tapse ou Thapsus*) بجوار سكيكدة، في طريقه إلى سيفاكس الموجـــود احتمـــالا بسيرتا، وهنا انكشف له تآمر الأطراف الثلاثة (المنشقّ ماس ايتـــول والملـــك الماسيـــسيلي سيفاكس وأشفاط قرطاج) عليه، فرأى ألاّ مناص من خوض حرب مريرة فدخل المعركـــة مكرَهاً لاسترجاع حقوقه، ورغم قلّة من معه إلاّ أنّه انتصر على لاكوماز وحاميه ماس ايتول اللذين فرا إلى قرطاج ولكن موازين القوى لم تكن في صالحه فانهزم أمام جيوش ســـيفاكس وابنه ورمينا، ونجا من الموت بأعجوبة بعد أن أشرف على الهلاك[49].

كان ينبغي إذن التركيز على دسائس أشفاط قرطاج الذين أضمروا لماسينيـــسا ســـوء العقاب، لما أبداه من كفاءة عسكرية مع أنّه كان في خدمتهم، غير أن المطّلِع علـــى تـــاريخ الأوليغارشية الحاكمة في تلك المدينة يعرف أنّ من تقاليدها دائما التخلص من العسكري بعد إتمام الخدمة حتى ولو كان قرطاجيا، وما المؤامرة على ماسينيسا إلاّ تذكير بمأســـاة الجنـــد

---

(48) **يرى اقزال أنّ الصيغة الأصلية لأسم لاكوماز Lacumazes هي: لاكوماسن Lacumasen، وجريا على هذه القاعدة تكون الصيغة الأصلية لكابوسا واوزالس هي على التوالي أوزالسن Oezal**sen** وكابوسن Capus**sen** وأنّ النهاية **asen** التي تميّز الأسماء الليبية، حذفت لضرورة الإعراب اللاتيني ،أنظر: .** -Gsell(S.), op.cit, p.189 note 4

(49) **الفرار إلى قرطاج خير دليل على أنها مبعث كل الدسائس، ومع ذلك أرسل ماسينيسا الى ابن عمه (الذي فر مع الذي قتل أخاه وتزوج أمّه) يعرض عليه الصلح حقنا للدماء ...الخ . ولسنا هنا بصدد استعراض تفاصيل الأحداث ولكننا أردنا الردّ على من يطمسون حقائق التاريخ وتصوير ماسينيسا بأنه هو المبادر بالعدوان، للتوسع في التفاصيل يمكن الرجوع إلى :**
-Gsell (S.), HAAN, t, III, pp. 190-196

المأجور[50] وكذا بتلك النهاية التعيسة لكبير ضباطها هانيبال الذي سيلقى نفس المصير فكان المنفى جزاء لتضحياته، هذا كله يقع إهماله من قبل الكثير من الباحثين، ليتمّ التركيز على ما يسمّونه بتحالف ماسينيسا مع الرومان وكأنّ ماسينيسا كان في أمن وسلام ومملكته تنعم بالاستقرار والازدهار فأقدم على التحالف مع روما، ويتناسى هؤلاء أنّ ماسينيسا حارب روما في إيبريا وكان جزاؤه من قبل قرطاج الجفاء ونكران الجميل والتآمر الذي بدأ بالانقلاب عليه، ثمّ عقْد حلف ضدّه وتجريده من مملكته ليصبح طريدا، فماذا يريد هؤلاء من ماسينيسا وهو على هذه الحال ! ومع كلّ هذا وإحقاقا للحقّ ليس ماسينيسا من بادر بذلك التحالف ولكنه استجاب لعرض قُدِّم إليه وطبيعي أن يقبل كلّ من كان في وضعه مثل ذلك العرض، لأنّه لا سبيل له لاسترجاع ملكه غير هذا السبيل.

يرى البعض أنّه لولا استجابة ماسينيسا لطلب التحالف مع الرومان لما كانت كارثة زاما، ونحن نستغرب من مثل هذه الآراء التي لا يمكن تصنيفها إلا في خانة السذاجة أو التمنيات، فماذا كان أشفاط قرطاج وحليفهم سيفاكس ينتظرون من ماسينيسا بعد أن فعلوا ما فعلوا؟ وما الذي أغرى سيفاكس حتى يقرّر سحق ماسينيسا وضمّ مملكته سوى خدمة أشفاط قرطاج الذين لن يكون مصيره معهم أفضل من مصير الجند المأجور وماسينيسا؟ بعد أن يلعبوا ورقته بنجاح، لقد كان ماسينيسا في موقف المضطرّ على عكس خصومه، فأي اضطرار يجبر أشفاط قرطاج على الكيد والمؤامرة، وما الذي يدفع بسيفاكس إلى اكتساح المملكة الماسيلية غير تنفيذ خطط أولئك الأشفاط، وهكذا تتضح الرؤية وهي أنّ ماسينيسا كان يردّ عدوانا أمّا خصومه فكانوا هم المعتدون، والحال أنّ هؤلاء الكتبة يضعون أشفاط قرطاج في موقع الزعامة الوطنية وعليها يبنون أمجاد البلاد وهم يعلون من شأن سيفاكس ليس حبّا فيه باعتباره زعيما أفريقيًّا نوميديًّا ولكن بقدر ولائه لأشفاط قرطاج، لأنّه ليس له مشروع تحرري وحتى لو كان النصر حليفا لقرطاج فسيظل تحت هيمنتها، لأنه أعلن ولاءه التام لأولئك الأشفاط فهل من الموضوعي بعد هذا كلّه جعْل الذين لا يشعرون بانتمائهم إلى هذه البلاد – وليست لهم رؤية استقلالية– في موقع ليسوا جديرين به، والحطّ من شأن

---

[50] عقون (م. العربي)، من تداعيات الحرب البونية الأولى على قرطاج : ثورة جندها المأجور، في مجلة العلوم الإنسانية صادرة عن جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر) عدد **21** – جوان **2004** ص ص **199-212** .

الأقلّيذ الذي يسعى إلى توحيد أفريقيا وتحريرها من أشفاط قرطاج ومن ثمّ التصدّي للغــزاة الرومان المتربّصين بالبلاد.

كانت الوحدة النوميدية إحدى النتائج الطبيعية للحرب، ولا يمكن بعد تأمين الجبهــة الغربية للمملكة أن يجد أشفاط قرطاج ملوكا يستميلونهم من جديد لطعــن المملكــة مــن الخلف، فتعود الأمور إلى سابق عهدها، وفي هذا السياق نستغرب استعمال عبارة توسّع بدل عبارة الوحدة واسترجاع الأقاليم والمدن التي كان النفوذ القرطاجي قد نمــا فيهــا وتحــوّل تدريجيا إلى سيطرة سياسية، مع أنّ الامتياز الذي تأسست المدينة بموجبه ينصّ على الجانــب التجاري الذي لا يمكن بحال من الأحوال أن يتحول إلى سيطرة سياسية، فقرطاج بالأساس ما هي إلاّ قاعدة تجارية مؤجّرة يمكن للملوك الماسيل استرجاعها في أيّ وقت، ولعل نشوب الخلاف بين الملك النوميدي قايا وقرطاج يعود إلى تداعيات توقّف هذه الأخيرة عن دفــع الأتاوة السنوية، من جهة، وتوسعها الإقليمي في جهات السهول الكبرى من جهــة ثانيــة، ومن الواضح أنّ ماسينيسا كان يدرك خطورة الأوضاع المحدقة بالمنطقة ولم تكن تخفى عليه أطماع روما، وهو على يقين بأنّ أشفاط قرطاج استنفدوا ما عندهم، وقــد آن الأوان لأن يستلم الأفارقة زمام أمور بلادهم كقوّة متجدّدة يمكن أن تستعمل مقدرات أفريقيا بمــا في ذلك أسطول قرطاج وثروتها في الوقوف ضدّ أطماع روما، ولذلك يبــدو واضــحا مــن السياسة التي سلكها أنّه يريد وضع حدّ للاحتكارات القرطاجية من جهــة وتحقيــق حلــم الوحدة الكبرى التي كادت أن تتحقق بعد تأسيس حزب في قرطاج ذاتها يــدعو إلى إنهــاء حكم الأشفاط وتسليم السلطة له، ولو حدث ذلك لعرف تاريخ المنطقة مسارا آخــر لأنّ حكم الأشفاط أثبت فشله.

هذه إذن الرؤية المطموسة التي ينبغي إبرازها، وليس ما يردّده هنــا وهنــاك مريــدو المدرسة الكولونيالية وهم يصوّرون قرطاج المنكسرة ضحية تحالف ماسينيسا مــع العــدو الأوربي وأنّ ما فعله ماسينيسا كان بإملاءات رومانية ...الخ، ولو استعمل هؤلاء بعضا مــن النظر الثاقب لأدركوا أنّ روما كانت تعرف أنّ عدوها الحقيقي هو الأقلّيــذ لأنّ قرطــاج أصبحت في حكم المنتهي أمره منذ أن أصبح الرومان يهاجمونها في عقر دارها، لكن أطالت

عمر قرطاج[51] وأضعفتها في ذات الوقت مادّيا بدفع أتاوات باهظة، وعسكريا بوضع سقف في التسليح البحري على الخصوص لا تتجاوزه، وكذا بدسائس لا نهاية لها بينها وبين منافستها التاريخية أوتيكا؛ أليس الرومان هم أصحاب فكرة "**استلام المدينة وهي جثّة هامدة !**" وماذا يفيد قرطاج في الاستمرار في الاعتماد على صيغة الجند المأجور الذي لا يحفظ للأوطان استقلالها ولا كرامتها، والبلاد في حاجة إلى جند "وطني"، ولذلك فإنّها ليست هي التي يمكن أن تجنب البلاد الغزو الروماني المتوقع في كلّ حين.

لقد كان ماسينيسا يحمل فكرة أفريقيا للأفارقة دولة واحدة موحّدة عاصمتها قرطاج، و لكن الكثير من ذوي النزعة الشرقية والغربية على السواء يعملون على طمس دور العاهل النوميدي وأطلقوا العنان لأقلامهم المتحاملة عليه، ذلك أنّ هؤلاء لا يرون في أفريقيا إلا غنيمة يتنافس عليها الشرق والغرب وهؤلاء الذين يبدون أسفهم على قرطاج لَيْتهم فعلوا ذلك من باب حرصهم على سيادة الأفارقة على وطنهم ولو كان الأمر كذلك لاعتُبِروا على جانب كبير من الموضوعية، لكن الذي يتضح في نصوصهم هو أسفهم على نهاية سيطرة شرقية على هذه البلاد وهم يتحدّثون عن فيْنَقة أفريقيا لا عن أفْرقة قرطاج، ومثلهم على الطرف الآخر يقف مؤرّخو روما موقفا شبيها وهو أنّ الرومان انتزعوا أفريقيا من شرقيين، وهكذا يضيع تاريخ البلاد وهويتها بين هذين الطرفين ! وكان المفروض أنّه مثلما انتهت السيطرة الإغريقية في صقلية وجنوب إيطاليا ينبغي بالمقابل أن تطوى صفحة البونيين في قرطاج ليخلفهم النوميد ولو تمّ ذلك لاعتُبِر تسوية لشأن داخلي، وهي تسوية تجنّب البلاد خطر الانقسامات وتجعلها تقف الندّ للندّ أمام العدو المتربّص من وراء البحر، وإذا كان الإغريق قد أذعنوا في النهاية لمجريات الأحداث وقبلوا رغم رقي حضارتهم أن يكونوا "رومان" وأن تكون اللغة الإغريقية حاضنة للغة اللاتينية وأداة تطوير لها، فإنّ الأوليغارشية التجارية البونية ظلت تستعلي على الأفارقة بل يبدو أنّها لم تكن تعتبر نفسها أفريقية رغم الجغرافيا ووشائج القربى التي رسّختها قرون من العيش المشترك.

[51] **لم تكن قرطاج تختلف عن ما سمي في العصر الحديث بالرجل المريض (الدولة العثمانية) وقد سلكت روما معها ذات الأسلوب تقريبا الذي سلكته الدول الأوربية مع الدولة العثمانية للانقضاض عليها في الوقت المناسب وما إن توفي ماسينيسا (148 ق.م.) حتى نفذت روما مشروعها (146 ق.م.).**

استرجع ماسينيسا السيادة النوميدية على المدن المرفئية وألغى الاحتكارات القرطاجيـــة [52]، وأصبح للمملكة واجهتان بحريتان تطل بالأولى على الحوض الغربي للمتوسط وبالثانية علـــى الحوض الشرقي، ومن مدن الاسواق (*Emporia*) كان ينطلق الاسطول التجاري للمملكـــة باتجاه الموانئ الإغريقية على الخصوص، حيث ارتبطت المملكة بعلاقات تجـــاوزت المجـــال التجاري إلى المجال الثقافي والفني وحتى الرياضي، وراجت العملة النوميدية في أسواق البحر المتوسط[53] وفي هذا السياق لا نرى تفوق قرطاج فقد سُكَّت عملتها وعملة نوميـــديا في تاريخ متقارب إن لم نقل في تاريخ واحد رغم ما لقرطاج من باع طويل في مجـــال التبـــادل التجاري، وهذا يجعلنا نعيد النظر في ما ينسب لقرطاج من سبق حضاري، فإصدار عملـــة نوميدية دليل على الاستقلال عن قرطاج في أول مجال تحتكره وهو التجارة[54].

نظر المؤرخون نظرة عرقية إلى اللغة والثقافة البونية مع أنّ الواقع غير ذلك تماما فالبونية هي الفينيقية كما تكلّمها الأفارقة، ولا ينبغي الانزلاق في إسقاطات خارج سياق التـــاريخ وإذا صدرت عملة الملوك الأفارقة برموز بونية فإنّ ذلك لم يكن عنوان تبعية لثقافـــة ولغـــة شرقية لإنّ الأفارقة لم يكونوا يعتبرون ما يطلق عليه هؤلاء حضارة بونية حـــضارة شـــرقية أجنبية بل هي حضارتهم نشأت ونمت في وطنهم، وليس من المنـــهجي فـــرز البـــوني مـــن النوميدي والموري كما لو أنّنا نؤرّخ لأعراق، فقد اندمجت الجاليـــة الفينيقيـــة في الـــشعب الأفريقي بل إنّ ما أنتج من حضارة على الأرض الأفريقية ينبغي أن يأخذ هويـــة أفريقيـــة لتجنّب الوقوع في تصنيف الأعراق على الطريقة النازية.

لا ينبغي المبالغة في الحديث عن هلينة أفريقيا من خلال سكّ عملتها كما نلاحـــظ في عمل كامبس وحتى في الأعمال الصادرة حديثا، حيث وقع التركيز على أنّ صـــور الملـــوك الأفارقة في العملة هي صور محاكية للنموذج الهليني واعتبر هؤلاء أنّ هذه أكثر الصور دلالة على هلينة أفريقيا وحتّى لو أنّ في ذلك جزءا كبيرا من الحقيقة فإنّ الحضارة الإغريقية في غنى عن كل هذا الإطناب فهي من أرقى الحضارات دون منازع. وكان ينبغي الكلام عن العملة

---

[52] **عن الاحتكارات القرطاجية يراجع كتابنا : الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعيـــة، الجزائـــر 2008 ، ص ص 59-65 .**

[53] **موقع مازين بكرواتيا حيث عثر على 238 قطعة نقدية نوميدية، أعلاه ص 213.**

[54] **صدرت حديثا دراسة قيّمة عن العملة الأفريقية وهي متاحة للقراءة على الأنترنت، أنظر:**

- Alexandropoulos (Jacques), Les monnaies de l'Afrique antique - 400 av. J.-C - 40 ap. J.C. édition PU Mirail revue et augmentée, Toulouse 2008 (500p)

الأفريقية كإحدى الدلالات القوية على نمو الاقتصاد النقدي الأفريقي المتحرر من احتكارات قرطاج، فقد كانت متداولة في فضاء شاسع ممتدّ من المحيط إلى هيكـــل الفـــيلان، وكـــان اكتشاف كنز مازين بكرواتيا دليل آخر على رواجها في بلدان حوض البحر المتوسّط، وهي تحمل دلالات ثقافية وسياسية متميّزة، فإذا كان الإلهة الأفريقية تانيت هـــي رمـــز العملـــة القرطاجية الأول فإنّ الملوك الأفارقة يحتلّون الدرجة الأولى وتأتي القوّة المرموز لها بالحـــصان والفيل في الدرجة الثانية ولا أثر لرموز دينية ما عدا في عملة يوبا الأول حيث تظهر في ظهر العملة صورة لا ندري أهي لقصر أو لمعبد؟ وتنقسم عملة الملوك الأفارقة حسب المتخصصين إلى مجموعتين: الأولى تتميّز بصورة ملك متوّج (*Diadémé*) وفي ظهرها صـــورة حـــصان راكض (*Galopant*)، والثانية تتميّز بصورة ملك مكلّل (*Lauré*) وفي ظهرها صورة حـــصان خَبِب (*Trottant*) بجانبها أحيانا صورة نجمة أو سعفة نخيل، وقليلة هي القطع التي تحمـــل في ظهرها صورة فيل، ولا يزال الكنز المكتشف في ترهونة (ليبيا) الذي يضمّ 176 قطعة نقدية نوميدية غير مدروس بعد ويمكن أن يقدّم رؤى جديدة[55] ، وهذا قبل أن يتوسّع الإصـــدار لتظهر عملة المدن الأفريقية كتعبير عن لا مركزية تقدية.

توقف كامبس مطوَّلا عند عبارة بوليب "**نوميديا كانت تعتبَر غير مجدية وغير قادرة على الإنتاج وأنّ ماسينيسا وحده هو من أظهر إمكانياتها الفلاحية**"[56] وأخذ العبارة على ظاهرها دون الأخذ في الاعتبار ما يسميه زملاؤه بـــ *l'exagération rhétorique* وكان عليه أن يتساءل ما هي الجدوى التي يقصدها بوليب، ومن هو الطرف الذي يعتبرها غير مجدية ؟ لعل الجدوى التي يقصدها بوليب هي أنّها أصبحت بلدا مصدِّرا للحبوب للرومان والإغريق، أمّا قبل ذلك فلم تكن نوميديا مجدية لكن عندما تنقذ الرومان من مجاعة حقيقية ألا تكـــون فعلا مجدية، لأنّ المجدي في نظر المؤرخين الرومان والإغريق قديما ومثلهم مؤرخـــو الفتـــرة الاستعمارية حديثا هو ما كان في صالح بلدانهم وشعوبهم !

من الحماقة التساؤل عن جدوى نوميديا لذاتها، لأنّ الفلاحة فيها عريقة وما حدث في عهد الملك هو توسّع ونمو زراعي كبير وليس إعلانا لميلاد الفلاحة الأفريقية، وكأنّ أول ثلم لمحراث يشقّ الأرض الأفريقية كان بإيذان من الأقيلّذ، كما يريد أن يفهمنا المؤلف الذي من

---

(55) - Alexandropoulos (Jacques), op. cit. p. 150, note 4.

(56) أعلاه ص **216**

خلال نقضه لعبارة بوليب أراد تجريد الملك من كلّ دور إيجابي قام به[57]، والواقع أنّ ما فعله هذا الأخير هو إقرار نظام استغلال الأرض، ويتعلق الأمر هنا بنظام استغلال الأملاك الملكية (*Domaines royaux*) التي كان بعضها داخل الإقليم القرطاجي ذاته[58]، وتلك الأملاك هي التي تكون قد أنتجت تلك الكميات الكبيرة من الحبوب المصدّرة إلى روما وبلاد الإغريق، والدليل هو أنّه أورث لأبنائه من بعده أراضي فلاحية واسعة، أمّا الذي حدث خلال الاحتلال الروماني فهو تعميم نظام المستثمرات الفلاحية بأنواعها (*Latifundia, Fundus, Praedia, Saltus*) التي أقيمت بعد تطبيق قانون نزع الملكية من الشعب المغلوب على أمره، وهو نظام شبه عبودي[59] اعتبره البعض من إرهاصات النظام الإقطاعي الذي سيظهر في أوربا خلال القرون الوسطى، وهو فعلا كذلك.

لقد كانت فترة حكم ماسينيسا أطول فترة، ولا يضاهيه أي ملك آخر فقد حكم طيلة أكثر من نصف قرن (203-148ق.م.) وهذا في حدّ ذاته دليل على كفاءته التي ضمنت له ولاء شبه مطلق من شعبه، مع أنّ الروح الاستقلالية والنزعة القبَلية التي تميّز المجتمع الأفريقي ليس سهلا ترويضها، فضلا عن اتساع المملكة الكبير وجغرافيتها المتنوعة، وإذا استثنينا بعض الحركات التي قام بها منشقّون مثل آفثر (*Aphther*) وأقاسيس (*Agasis*) وسوباس (*Soubas*) بسبب طموحات شخصية، لا نجد أيّ أثر لأيّ اضطراب وهذا مؤشّر على ثقة الرعية في الأقليذ وحبّها الكبير له، ولو تركت الأطراف التي حاربته ذكرى طيّبة لحرّكت تلك الذكرى بعض القوى المجتمعية للثورة عليه، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، مما يقيم الدليل على أنّه ليس مجرّد ملك استلم عرش آبائه ولكنه قائد عسكري يتقدّم الصفوف وراعٍ للشأن العامّ وساعٍ إلى وحدة الأمّة الأفريقية ومنافح عن عزّتها ومجدها[60].

---

(57) أعلاه ، ص **216** . إلا أنّ كامبس عاد في الأخير وأنصف الملك أنظر ص **219** .

(58) ليست تلك الأملاك هدية من روما كما يريد مؤرخو الفترة الاستعمارية من أمثال سوماني وغيره، ولكن هي أملاك العائلة الملكية توارثتها منذ ملوكها الأولين، وقد استمرت حتى بعد الاحتلال الروماني للإقليم وعندما أشار بعض أعضاء مجلس روما إلى ضمّها للملكية العمومية الرومانية (Ager publicus) ذهب يوبا (الأول) للمرافعة عن حقّ العائلة الملكية النوميدية في أملاكها أمام مجلس الشيوخ

(59) هو السبب المباشر لثورة الريف الأفريقي (القرن الرابع الميلادي) التي أسهمت في تقويض أركان الاحتلال الروماني بأفريقيا.

(60) لعلّ اقزال هو خير من عبّر عن حلم ماسينيسا في أن يرى أفريقيا موحّدة ، فقد كتب قائلا بالحرف : "أصبح (ماسينسا) سيّدا على مملكة ممتدّة من المغرب إلى قورينة، وكان أمله أن تكون قرطاج عاصمتها، لكن روما بتدميرها للمدينة الشهيرة وإزالتها من الوجود قضت على آخر حلم للملك العجوز، أنظر : **-Gsell (S.), HAAN, t, VII, p. 135**

جَدَّ المؤلّف في البحث عن كلّ ما يمكن أن يلقي المزيد من الضوء على شخصية الأقليذ، دون أن يأتي بشيء جديد، ونحن نرى أنّ ملكا حكم أكثر من نصف قرن وكان له صيت في كلّ بلدان حوض المتوسّط يستحيل ألاّ تكون حياته وأعماله مدوّنة، ممّا يدعّم فكرة أنّ أرشيف المملكة النوميدية يكون قد أحرق، بحيث لم ينج منه شيء، واليوم ليس بين أيدينا سوى ما لم تستطع يد الاحتلال الروماني الوصول إليه كالآثار المطمورة تحت الأرض أمّا العمائر والكتب فقد أتلفت، وكأنّ المحتلون الذين تعاقبوا على حكم هذه البلاد قد اتفقوا جميعا على دفن ذاكرة الأمّة الأفريقية، ولم يبق سوى بعض الإشارات في مصادر إغريقية ورومانية تذكر الأقليذ عرضا في سياق سردها لوقائع الحروب البونية، أمّا ما استخرج من آثار من تحت الأنقاض إلى اليوم فهو شيء هزيل للغاية، لا يزيد عن كلمة أو جملة هنا وهناك مثل عبارة *HMMLKT* التي دار حولها نقاش كبير دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، وإذا كان كامبس قد فسّرها بالذات الملكية، فإنّ هذا التفسير لا يجد القبول بعد، ولنا أن نتساءل هل العبارة كلمة واحدة أم أكثر، ويبقى لو عرفنا مقابل كلمة المملكة في اللغة البونية[61]، لنقارنها بهذه الكلمة ولا شكّ أنّ المقطع *MLK* بوني ويبقى حرف التاء الأخير الذي هو علامة المؤنّث في اللغة الأمازيغية كما أنّ حرف *H* في البداية –إذا ثبت أنه حرف هاء فعلا– هو حرف تأنيث أيضا في لهجة شنوة حيث يحلّ محلّ الثاء أو التاء في لهجات اللغة الأمازيغية الأخرى، فهاململكث في لهجة شنوة هي ذاتها ثاململكث (المملكة) في باقي اللهجات الأمازيغية، وهو الشكل الذي تفرضه الصيغة الأمازيغية لكلمة مملكة العربية.

اعتمد كامبس في مقارباته اللغوية على كل من برتيي والأب شارليي وفيفري وهؤلاء جميعا يتخذون من اللغة العبرية – لأنها أقرب اللغات السامية إلى اللغة الفينيقية – مفتاحا لفك رموز الكتابة البونية، ويبدو أنّ دراسة هؤلاء عن مقدس الحفرة لا تخلو من تأويلات توافق أهواءهم، مع أنّ تأريخ بعض النصوص الجنائزية بتولي ماسينيسا أو ميكيبسا العرش دليل على الولاء للملكين[62]، ولكن محاولة طمس تاريخ الأمة الأفريقية وإحلال تاريخ آخر محلّه لا تزال تجد رواجا عند بعض مريديهم إلى اليوم، رغم أنّه لا يمكن بأيّ حال من

[61] **المملكة في الفينيقية كما هي في العبرية هي مملكوت وإذا فصلنا الحرف الأول H على اعتبار انه اختصار لكلمة ما، فماذا تكون تلك الكلمة يا ترى ؟ .**

[62] - Berthier (A.) et Charlier (R.), le sanctuaire … stèles n° 58-59-63.

الأحوال اختصار تاريخ أمّة في مجموعة أنصاب مقبرة لجالية حِرَفية قرطاجية خارج مدينة سيرتا أين كانت تمارس طقوسها المستنكرة من قبل النوميد على الخصوص ألا وهي طقوس حرق الأطفال.

ونبقى في المجال الديني، فقد نشر كاركوبينو[63] مقاله عن عبادة الإلهة الفلاحية كيريس (*Cérès = Cerealia = Céréales*) في أفريقيا، حاول فيه إثبات أنّ "انتشار" عبادة هذه الإلهة يمثّل جانبا من جوانب انتشار الهلينة في أفريقيا عموما، اعتمادا على ما ورد في بعض المصادر الأدبية من أنّ الإلهة كيريس هي الإلهة الأولى في بلد مثل أفريقيا يقوم اقتصاده أساسا على الفلاحة، ومنذئذ لحق به مؤرّخون آخرون أبرزهم جلبار شارل بيكار[64]، وها هو كامبس يحاول هنا إيجاد دور لماسينيسا في إدخال طقوس هذه العبادة إلى مملكته[65]، فما مصداقية مثل هذه الافتراضات التي ترى في ذهنية الأفارقة عدم قدرتها على إبداع أفكار دينية تتجاوز الملموس إلى المجرّد، وبالتالي جعل كلّ الأفكار الدينية وافدة إلى المنطقة، فهل من الموضوعي في بلد فلاحي القول بحاجته إلى استيراد معتقدات متعلقة بنشاطه الفلاحي اليومي والموسمي من بلاد أخرى ؟ يمكن أن تتمازج بعض المعتقدات الأصلية الليبية والوافدة الإغريقية ولكن تظلّ المعتقدات الأصلية دائما هي الأساس.

درج المؤرّخون القدامى، الإغريق منهم بالخصوص، على ترجمة أسماء الأعلام الجغرافية وكذا أسماء المعبودات ومطابقتها بمقابلها الإغريقي وهذا دون تدوين اسم العلم الأصلي (الليبي) وبذلك تضيع هوية المسمّى وهو ما حصل للإلهة الأفريقية التي تمّت مطابقتها بالإلهة الإغريقية "كيريس" وهذه هي إحدى الطرائق التي تمّ بها طمس التاريخ الأفريقي[66]، وكان يفترَض في دراسات المحدثين الإشارة على الأقلّ إلى مسألة ترجمة الأسماء ومطابقتها كإحدى

(63) - Carcopino (J.), le culte des Cereres et les Numides, ***Rev. histor,*** t, CLIX, 1928, et dans Aspects mystiques de la Rome païenne, pp. 13-27.

(64) - Charles-Picard (G.), les religions de l'Afrique antique, Paris 1954

(65) نسجّل هنا شطحات غريبة للمؤلّف بحيث فسّر عبادة الإلهة الفلاحية كيريس بعبادة الخصوبة مصدر الحياة المتجدّدة ليربط بينها وبين ما يعرف بليلة الغلطة (أعلاه ص **232**) ولينظر القارئ إلى هذا الأسلوب الذي يعتمد المغالطة مع أنّ ما يسمّى بليلة الغلطة من المنكرات في المجتمع إذا ذكرت استعاذ منها ذاكرها، وإذا كان كامبس من أبرز من استعان بالأنثروبولوجيا في التعمّق في تحليل الوقائع التاريخية لماذا لم يتعرّض إلى طقس شاهدناه ولا يزال يمارس إلى اليوم في أول انطلاق موسم الحرث وهو وضع رمّانة في أول ثلم يشقه المحراث على أمل أن يكون العام ذا إنتاج وفير (عام خير كما يقال) وهو طقس نرى أنّه امتداد لمعتقدات دينية فلاحية، ولكنه مقبول لأنه ليس فيه ما يتعارض مع الأعراف ولا حتى مع الديانات السماوية على عكس الدسائس التي يقحمها بعض هؤلاء في تاريخ الأمة دون دليل .

(66) بل عمد البعض إلى تحريف العبارات الواردة في المصادر تحت مسمّى"تصحيح جريء"لتوافق هواهم، أنظر أعلاه، ص**229-230**.

الفرضيات أمّا التجاهل المقصود والتمادي في تغليب مسألة الأصول الإغريقية مرّة والفينيقية مرّة أخرى لهذا العلَم أو ذاك فهو أسلوب مستهجن وقد آن الأوان لكشفه وكشف الأبعاد التي يرمي إليها.

ما يقال عن الآلهة الإغريقية يقال أيضا عن الآلهة الفينيقية، وكان يفترَض الحدّ الأدنى من الموضوعية، أي الفصل بين ما هو شرقي وما هو أفريقي، لأنّ كل علَم لا وجود له في الشرق قبل تأسيس قرطاج هو علَم أفريقي، وإذا كان اشمون وبعل وملقرت ... الخ معبودات شرقية فينيقية دون جدال فالأحرى أن يكون أمون وتانيت إلهان أفريقيان دون مماحكات أو مزايدات فالصيغة والعبارة لا تترك مجالا للشكّ في أنّهما إلهان أفريقيان[67] ويبقى أنّ الفينيقيين أدخلوا من عقائدهم الشرقية بعض الطقوس فذلك هو الامتزاج الحضاري الذي لا ينبغي أن نحكم دائما بأنّه انصهار الأصيل في الوافد، وهو امتزاج يمثله الاله بعل امون الذي يجمع بين بعل الفينيقي وأمون الأفريقي، أمّا الإلهة تانيت إلهة قرطاج الأولى فهي إلهة أفريقية دون منازع، وكان طقس التضحية بالأطفال طقسا شرقيا بامتياز وحيثما وجدت آثار ممارسته فهناك جالية من أصول فينيقية هي التي تعود إليها تلك الآثار.

* * *

يبالغ المؤرخون قدامى ومحدثون في تجريد المملكة النوميدية من مظاهر السيادة، ويرسمون لها صورة التبعية التامّة وكأنّ الأقليذ لا يباشر صلاحياته إلا بإذن من روما، هذا الملك المحارب سليل عائلة ملكية عريقة، لم يمنعه عز الملك وبذخ الرفاهية من ركوب أهوال الحرب كأيّ عسكري محترف، ويعرفه الرومان محاربا شرسا قهر خيرة شجعانهم في إيبريا، وحليفا صنع انتصارهم في زاما، هذه الأمجاد السامقة يأتي كتَبة التاريخ الرسمي لطمسها بجرة قلم مأجور، ولا يتورعون عن القول أنّ روما وهبت لماسينيسا كذا وسمحت له بكذا وأطلقت يده في المجال كذا ... الخ، وما كنا ننتظر من هؤلاء المؤرخين إنصافا ولكن نستهجن اعتبار البعض هذه العبارات حقائق لا يمتدّ إليها الشكّ، ثم الاختفاء وراءها للحط من شأن الأقليذ العظيم، والحال أنّ ميزان القوى بين روما ونوميديا هو الذي لم يكن

---

[67] **حاول البعض أخيرا سرقة بعض أنصاب تانيت وعرضها في متاحف شرقية والقول بأنّها مستخرجة من مواقع أثرية شرقية وهذا كلّه لإثبات أنّ تانيت إلهة شرقية.**

متعادلا، ومع ذلك عرف العاهل النوميدي كيف يدير العلاقات بين الطرفين دون أن يفرّط في طموحه المشروع وهو أفريقيا الموحّدة وعاصمتها قرطاج، لكن ممّا لا ريب فيه أنّ عامل السنّ كان له دوره أيضا، إضافة إلى وقوف روما بالمرصاد ضدّ مشروع الأقلّيذ الذي لم يكن يخفى على دهاة مجلس الشيوخ الروماني[68].

على الصعيد العسكري أثبت الأقلّيذ جدارته في حرب إيبريا (206ق.م.) ضدّ الرومان وفي زاما (202ق.م.)، واستعاد مملكته وأقام أكبر وحدة تكررت مرة واحدة في عهد الموحدين، وعلى الصعيد الدبلوماسي احتفظ بعلاقات تبادل المصالح مع روما ولكن كانت عينه على قرطاج التي أقام فيها أنصاره حزبا ينادي بتسليم السلطة للأقليذ لولا دسائس أشفاط قرطاج[69] ودهاء السيناتوس الروماني، هذه الدبلوماسية اعتبرها البعض خضوعا وتبعية إلى حدّ أنّهم لا يرون في أي موفد روماني إلاّ حاملا لأوامر للملك، إنّه الإعلاء من شأن روما وهي الصورة التي رسّخها مؤرخها تيت ليف عبر الأجيال، وفي مبالغات هؤلاء تحوّل سيبيون الذي استضافه الملك وجعَله أحد الحضور في مراسم انتقال العرش إلى أولاده حسب العرف الماسيلي الذي يوزع السلطة الملكية على ثلاثة ورثة إلى موفد روماني له سلطة التحكيم في شأن وراثة العرش النوميدي ليصلوا بعد ذلك إلى الحديث عن تبعية نوميديا وعن سيادتها المنقوصة، وأنّ سيبيون كان في مهمة رسمية كلفه بها مجلس الشيوخ ... فكيف يكون موفَدا وهو من تلقّى دعوة من الأقلّيذ ؟ وهذا كله دون دليل سوى كلام إنشائي تم تحويره وتحريفه لوصم المملكة النوميدية بالتبعية وهي في عزّ قوّتها[70].

كانت قاعدة توريث العرش للأكبر سنّا في العائلة الملكية – وهي صيغة عرفت في حضارات عديدة وفيها تكون المَلَكية ملْكية عائلة (***Tonistry***) – محلّ نقاش كبير، واعتبرها البعض سبب إضعاف السلطة الملكية التي تكون والحالة هذه من نصيب أشخاص متقدّمين

---

(68) **يقول اقزال بوضوح أنّ روما لا تريد أن تكون مدينة كقرطاج بسكانها وثرائها وموقعها عاصمة لنوميديا ورأى كاتون وعدد من النافذين أنّ ماسينيسا على وشك تحقيق حلمه وأنّ القرطاجيين لم تبق لهم القوة لمنع الملك من ضم المدينة بل لعلهم بدأوا يفكرون في قبول السيادة النوميدية، ووجد الرومان أنفسهم في مأزق بحيث لا يستطيعون المجازفة بالوقوف ضد طموح حليف مثل ماسينيسا ولا التسليم بالأمر الواقع لذلك رأوا ضرورة تدمير المدينة للقضاء على حلم الملك ومن سيخلفه... أنظر :**
-Gsell (S.), HAAN, t, III, pp. 329-330

(69) **تمّ نفي أنصاره من المدينة** Appien, Lib., 70-73.

(70) **أعلاه ، ص 237. ، والمعروف في كلّ الأنظمة أنّ الملك واحد، لكن في حال المملكة النوميدية تتوزع الصلاحيات على ثلاثة ورثة للعرش يحمل كل واحد منهم لقب ملك، ولكن هذه الثلاثية غير مستمرة وفي حال وفاة أحد الثلاثة لا يخلفه آخر وهو ما يفسر انفراد ميكيبسا بالحكم وحده بعد وفاة أخويه قولوسا ومسطان.**

في السنّ لا تسمح ظروفهم الصحّية بإدارة شؤون الدولة بالحزم المطلوب، كما تقلّ طموحاتهم، وهذا على حساب الأصغر سنّا الذين يتوفرون على شروط الصحة والحزم، لكن بالمقابل ألا تحافظ القاعدة الأقناطية على وشائج القربى وعلى تضامن أفراد العائلة الملكية وتقطع الطريق على تدخّل الأمّهات وخاصة القرطاجيات منهنّ في التنافس على ترشيح أبنائهنّ لولاية العهد وإذا علمنا أنّ أغلب الزيجات من هذا النوع هي زيجات سياسية ندرك كيف أنّ أشفاط قرطاج هم من خطّط لانقلاب ماس ايتول على كابوسا وقتْله وإجلاس أخيه لاكوماز على العرش رغم صغر سنّه لأنّ أمّه قرطاجية وما ترتّب عن ذلك من اضطراب وحروب، أمّا مسألة العهد بالعرش لثلاثة وليس لواحد فهي أيضا ذات جوانب إيجابية ولا ريب أن هذا التقليد قديم وسابق للوجود الفينيقي في أفريقيا، ولكن عندما أصبح الملوك النوميد يتزوجون من قرطاجيات حلّت التراعات بين ورثة العرش في حال كونهم إخوة وليسوا أشقّاء.

يبدو أنّ ماسينيسا هو الذي قرّر إنهاء العمل بقاعدة توريث العرش للأكبر سنّا من العائلة الملَكية، ولعل الجميع يكونون قد اتعظوا من تلك الأحداث التي ترتّبت عن تولّي عمّه أوزالس العرش بعد والده، ولذلك جعل ولاية العهد لثلاثة من أبنائه أي أنّه أبقى على قاعدة توزيع السلطة بين الأخوة ولاة العهد الثلاثة، ويبدو أنّ هذه القاعدة كانت ميزة نوميدية ومعمول بها على المستوى البلَدي أيضا، لأنّها ظلّت قائمة حتّى بعد زوال المملكة، فإذا كانت المجالس البلدية القرطاجية والرومانية يحكمها قاضيان فإنّ المجالس البلدية النوميدية كان يحكمها ثلاثة قضاة زملاء متساوون في الصلاحيات كما هو حال سيرتا خلال العهد الإمبراطوري الأول، لكن ما وقع في أعقاب وفاة الملك ميكيبسا كان عبرة ولذلك ألغيت هذه القاعدة هي الأخرى بدءاً من يمبسال الثاني والد يوبا الأول الذي لم تحدّثنا المصادر عن وجود شركاء له في ولاية العهد أو المُلْك، ومنذئذ أصبحت ولاية العهد لواحد لا غير.

لا تخلو كتابات القدامى من إقحام عناصر درامية لأنّ النصّ التاريخي جعله البعض للتسلية أيضا، وفي هذا المجال تحتلّ قصّة القرطاجية الفاتنة صوفونيسب مكانة بارزة، لكن ما هو مستهجن هو اتخاذها من بين الدلائل التي يريد البعض أن يجعل منها نقيصة في حقّ الأقليذ، بالقول لماذا لم ينقذها كما تفترض أخلاق الفرسان ... الخ، والواقع أنّ موقفها

الدرامي وهي أسيرة كان موقفا مجيدا إلاّ أنّ الأجدر لها لو اتخذته عندما أقحم بها في تلك الزيجة السياسية التي ربطتها بسيفاكس وهي تعلم أنّها مجرّد صفقة، وحيث أنّها ارتضت بها ينبغي القبول إذَن بما يترتّب عنها من نتائج، والأمر ذاته في شأن سيفاكس الذي استعمله أشفاط قرطاج لتنفيذ خططهم، فمن التدليس في التاريخ رمي ماسينيسا بنقيصة أنّه لم ينقذه من أسر الرومان[71]، وكان حريا بمن يدلّسون أن يتساءلوا على الأقل لماذا لم يدفع أشفاط قرطاج فدية لتخليص سيفاكس من الأسر، أو أن يكون تحريره من الأسر من بين شروط الصلح مع روما، بعد أن نُقِل إلى معسكر سيبيون، فعليهم تقع المسؤولية لأنّه حليفهم، أليس حريا بهم أن يمنحوه قيادة الحرب ضدّ العدو التقليدي المتربص بالمدينة البونية، بل يتوِّجوه ملكا على أفريقيا الموحّدة إن لزم الأمر، ولو حدث ذلك لأمكن لنا أنْ نقول اليوم أنّ معسكر قرطاج كان معسكر العزّة والسيادة الأفريقية، ولكن أنّى لأشفاط قرطاج الجشعين أن يقوموا بمثل هذا العمل العظيم، بل إنّ ما حدث في زاما هو أنّهم خاضوا المعركة بجيش أغلبه من الأفارقة، ولّما انهزموا دخلوا مدينتهم دون خسائر كبيرة، وعادوا من جديد إلى طلب الصلح كما في كلّ مرّة، وطبيعي أن يؤول الحال إلى تلك المأساة، ألم يكن أشفاط قرطاج وراء تراجع هانيبال -أعظم قائد في عصره- في إيطاليا، ثمّ انهزامه على الأرض الأفريقية في زاما، وهذا دون أن ننسى دور اوتيكا غريمة قرطاج التي استقبلت سيبيون وقدّمت له العون فاتخذها قاعدة لمعسكره[72].

هناك غموض في الأسباب الكامنة وراء التناحر الدائم بين قرطاج واوتيكا، هذه المدينة المجاورة لقرطاج كانت دائما معادية لها ولديها استعداد في كلّ وقت للتعاون مع القوة الرومانية، ولعل الحديث في هذا السياق يجرّنا إلى التساؤل عمّا يسمّى بالإمبراطورية القرطاجية، أين دور مدنها في حروب قرطاج ضد الغزو الروماني فلم يحدّثنا التاريخ عن تضامن هذه المدن المسمّاة بونية على امتداد الساحل الأفريقي والإيبري، فهل هناك فعلا جاليات بونية في تلك المدن، ألم تكن لها أساطيل يمكن أن تفيد في الحرب، وكيف لا تهبّ لنصرة المدينة التي إذا احتُلّت لن تقوم للجميع قائمة، ألا تنصّ الروابط التي تجمع الجاليات

---

[71] يمكن الرجوع إلى تفاصيل أسر الملك سيفاكس وقصّة موت صوفونيسب المأساوية في الجزء الثالث من كتاب اسطيفان اقزال Gsell (S.), HAAN, t, III, pp. 236-240 مع أنّنا لا نثق كثيرا في المصادر الرومانية التي ليس بين أيدينا غيرها مع الأسف.

[72] - Polybe, XXXVI, 3, 1.; - Appien. 75.; -Tite-Live, Epit. L XLIX

البونية على ما نسميه اليوم الدفاع المشترك ولماذا تحارب قرطاج وحدها وباقي المدن لا تكترث لها، أم أنّ الوجود البوني في أغلب تلك المدن كان مقتصرا على وكلاء تجاريين؟ وبالمقابل كان الأفارقة دائما قوة ضاربة في الجيش القرطاجي؛ حلفاء وفرقا مساعدة وجندا مأجورا، إنّهم الحماة الحقيقيون لقرطاج، ولو أحسنت الأوليقارشية التجارية البونية سياستها الأفريقية لكان لقرطاج تاريخ آخر، فثروتها مع سيوف الأفارقة كانت كافية لصدّ الأطماع الرومانية.

التضامن الذي لانجده بين المدن "البونية" نجده راسخا في المجتمع الأفريقي، ولعلّ أبلغ مثال له تضامن الشعب الأفريقي مع أبنائه المجنّدين في الجيش القرطاجي عندما تخلّى عنهم أشفاط قرطاج[73]، بمجرد وصول النداء الذي وجّهه ماطو (*Mathos*) ومثله في وقت لاحق النداء الذي وجّهه تاكفارين (*Tacfarinas*) خلال حربه على التوسّع الروماني وشعاره "**إلى كلّ الذين يؤثرون الحرية على العبودية**" [74]، ولقد كانت القبيلة في المجتمع الأفريقي أنموذجا في التضامن ونواة صلبة لا يمكن اختراقها، وهي المصدر الأساسي للتجنيد، على غرار ما نراه في النظم الحديثة (الخدمة الوطنية) وكانت كنفدرالية الموسولان التي ينتمي إليها تاكفارين مدعوّة لأن تقوم بدور إحياء الدولة النوميدية لولا تفوّق الجيش الروماني المكوّن من فيالق نظامية محترفة.

اعتبر كامبس صيغة قبائل المخزن المعروفة في العهد التركي امتدادا لصيغة قديمة معبَّر عنها بالقبائل الملَكية[75] (*Regiani*) وعلى العموم فإنّ الجيوش الأفريقية كانت جيوشا وطنية، تحارب تحت راية قادتها من أجل هدف أسمى، لا يخرج عن نطاق الدفاع عن الوطن، ولذلك كانت الجندية مهمة نبيلة يعود القائم بها إلى حياته الاجتماعية بمجرّد إنهائها، ولم تكن لدى الملوك الأفارقة رؤية إمبريالية في ما يتعلّق بالجيوش، أي جعل الجيش على استعداد دائم لخوض غمار الحروب خدمة لتوسّعات إمبراطورية، وهي الرؤية التي قامت عليها إمبراطورية روما حيث كانت مهمة جيوشها الهجوم والتوسع وليس الدفاع والانكفاء خلف حدود إيطاليا.

---

(73) **استجابة كل الأفارقة بمن فيهم رعايا قرطاج لنداء ماطو، أنظر:** Polybe, I, 70, 8, 9 -

(74) **العبارة واردة في تاكيتوس وهي:** Cuncti, quibus libertas servitio potior .

(75) **أعلاه، ص ص 263-265** .

يبدو من خلال رسوخ التقاليد الحربية لدى الملوك النوميد أنّ الكفاءات الحربية هي التي رفعت الأسرة الماسيلية إلى سدّة السلطة الملكية، فأغلب ملوكها كانوا هم الذين يقودون جيوشهم، قايا وماسينيسا ويوغرطة ويوبا الأول، لأنّ السلطة للمحارب في أغلب حضارات العالم القديم، وإذا كانت المعتقدات الدينية من العوامل التي يمكن أن تدعم ولاء الرعية لملوكها - وهو ما حاول كامبس جاهدا أن يقيم الدليل عليه بخصوص الملك ماسينيسا- إلاّ أنّنا لا نجد ما يثبت مثل هذه الطروحات في حال الملوك الأفارقة، فلو كان شخص الأقليذ يحظى بالقداسة لتوارث الملوك النوميد هذه الصفة، لكن لم نجد أدلّة قوية على أنّ يوغرطة أو يوبا وغيرهما قد كانوا محلّ قداسة وعبادة، والحال أنّه لا ينبغي على الإطلاق أن نجعل من مظاهر الأبّهة أو التكريم الذي حظي به ملك ما حيّا أو ميتا طقوسا دينية أوتعبّدا له، فأنْ يحتفظ شعب بذكرى ملكه أو أن يقيم له معْلما لا يعني البتّة أنّه رفعه إلى مصاف الآلهة، أمّا الاستناد إلى خطابات كهنة المسيحية أو المنافحين عنها في قولهم أنّ المور يعبدون ملوكهم فهو كخطاب رجال الدين اليوم الذين كثيرا ما تتردّد عبارة عبادة السلطة الحاكمة على ألسنتهم ليس لأنّ ذلك حقيقي ولكن لإثارة العامّة على حكّامها لا غير.

القبيلة الأفريقية ذات "هوية" جغرافية أكثر منها إثنية، ولاتزال عبارة القرابة إلى اليوم قائمة على المنطقة وليس على العرق، وهذا في المجتمعات الريفية الزراعية، أمّا البدو فليس عندهم انتماء إلى الأرض لأنّهم في تنقّل دائم، ونرى أنّ إقليم القبيلة هو الذي يحدّد حجمها فالكنفدراليات القبلية التي اجتهد المؤلّف في إبرازها هي على الصعيد الجغرافي عبارة عن أقاليم[76]، تستمدّ هويتها من الانتماء إلى الأرض التي تسكنها وتعيش من فلاحتها، ويكون المرور إلى التحضّر بتشييد مدينة وسط ذلك الإقليم كما رأينا في حال قبيلة نوميدة التي أقامت مدينتها التي ظلت تحمل اسم الانتماء إليها وهو تبرسق النوميدية (*Tubursicu numidarum*) وكذا بلدة نقاوس (*Nicivibus*) التي استمدّت اسمها من اسم القبيلة التي تعمرها (*Nicives*)[77] وفي هذه الحال يكون المجتمع الحضري بهذه المدن قد أخذ في التشكّل والتميّز تدريجيا بحكم حياته الحضرية، أمّا في أصوله فينتمي إلى ذات الكنفدراليات القبلية التي

[76] وهو الوضع الذي استمرّ إلى اليوم وما نراه من تقطيع إداري هو في الواقع قائم على أساس الجماعة القبلية، وهذا حفاظا على الانسجام الاجتماعي.

[77] - Lancel (S.), Suburbures et Nicives, une inscription de Tigisis, Libyca, Archéol, Epigfr. ,t, III, 1955, pp. 289-298.

تتوسطها تلك المدن، وليس كما يقول كامبس أنّ المدينة خارج فضاء القبيلة [78] ويريد أن يجعل منها جزيرة يمنح لها الهوية التي يريد، وإذا كانت المدن غير محكومة بزعامات قبلية من محيطها فإنّ ذلك لا يعني البتّة أنّها زرع أجنبي في إقليم القبيلة.

اجتهد كامبس في جمع كلّ المعلومات الواردة في المصادر الأدبية والمادّية، وقدّم صورة قلمية عن المجتمع الأفريقي وقبائله[79] خاصّة في المنطقة ما بين طرابلس وسيرتا التي يبدو أنّها كانت أكثر سكانا وأكثر تحضُّرا، ولعلّ الأهمّ حقّا هو الاعتماد على مصدر غير مألوف هو النقوش الليبية التي تحتفظ بها منطقة القالة على الخصوص، أي الوصول إلى المعلومة التاريخية دون المرور على الوسيط التقليدي وهو المصادر الاغريقية والرومانية، غير أنّ هذه النقوش لم تتمّ قراءتها بعد رغم توفرّ عدد من النصوص المزدوجة ليبية- بونية وليبية- لاتينية، كما أنّنا نرى أنّ استعمال اللغة العبرية كأداة لفكّ النصوص الليبية لم يكن موفّقا وإذا نجح ذلك الاستعمال في حال النقوش البونية لأنّ العبرية هي أقرب لغة سامية إلى شقيقتها الفينيقية فإنّ الأمر ليس كذلك بخصوص الليبية لأنّها لغة حامية (*Chamitique*) وكان ينبغي الاستعانة بالدرجة الأولى بلهجات اللغة الأمازيغية الحالية التي لا ريب أنّها تحتفظ بصيغ وأشكال كثيرة من أمّها الليبية التي كتبت بها هذه النقوش، وفي هذا السياق نرى أنّ تحريك كلمة *MSKRH* لا يكون كما اقترح اقزال أو كامبس: *Misikiri* بل كان ينبغي الإتيان بكلمة أمازيغية بجذر شبيه، لنرى كيف تنطَق، وليكن المثال اسم بسكرة، فهذا الاسم ينطَق في الأمازيغية بَسْكَرْثْ وإذا حذفنا الثاء وهي علامة المفرد المؤنّث يبقى الجذر *BSKR* فهذه الكلمة لا تنطق في أمازيغية اليوم *Bisikiri* مثلما اقترح اقزال نطق كلمة *MSKRH* بالصيغة *Misikiri* [80] أمّا حرف *H* الأخير في الكلمة فيمكن مقابلته بحرف التاء أو الثاء لأنّ الأسماء البربرية في صيغة المفرد المؤنّث من هذا الوزن تنتهي بالتاء أو الثاء وفي صيغة الجمع المؤنّث تنتهي بالثاء أو التاء والنون، فهذه هي نهايات (*Suffixes*) الاسم في الشكل الحديث لليبية وهو الأمازيغية ولا تنتهي بالحرف *I* الذي هو علامة الجمع في بعض الصيغ اللاتينية.

---

[78] أ علاه ، ص 265.

[79] أعلاه ، ص **257–262**.

[80] **لأنّ الإشكال يكمن في اسم هذه الكنفدرالية القبلية التي كان موطنها ناحية القالة (أنظر أعلاه ش 26 ، ص 258) في الخط الليبي الذي لا يكتب الأصوات (Voyelles) ولهذا صعبت تهجئته .**

ما يميّز المجتمع القبَلي هو أنّه لا يحتمل تدخّل السلطة المركزية في كل صغيرة وكبيرة، وهذا لا يعني ضعف السلطة المركزية ولا تمرّد القبيلة عنها كما يفهَم من بعض تأويلات كامبس ولكن هناك أعراف وتقاليد تصنع الانسجام والاستقرار كان الملوك يدركون أهمّيتها ولذلك يبقون عليها، فتحصل القبيلة على مساحة حرية كبيرة تحت تصرّف أعيانها كما لو أنّها مستقلّة ذاتيا (*Autonome*)، هذا المجتمع القبلي الأفريقي لم يعرف طبقية ولا وجود فيه لأسياد وعبيد وهو مستقل اقتصاديا لأنّ معاشه من أرضه وقطيعه فلماذا التضييق عليه بسُلَطٍ إدارية هو في غنى عنها، أليست أعرافه كافية لتنظيم العلاقات الاجتماعية، خاصّة وأنه ينقاد لزعمائه وأعيانه ولا يمكن أن يحتمل تحكّم مسؤولين ترسلهم السلطة المركزية، على عكس المدينة التي يختلف وضعها الاقتصادي والاجتماعي، حيث يتوجّب الحضور الدائم لممثلي السلطة المركزية.

كما في كل المجتمعات والشعوب، تحتفظ الأرياف بالخصوصيات المحلّية، بينما تكون المدينة فضاء للإبداع الحضاري والتفتّح على الآخر، وطبيعي أن يكون هناك تأثير وتأثّر، لكن ما نلاحظه في شأن المدينة الأفريقية هو إصرار الروّاد وعلى رأسهم اسطيفان اقزال على الهوية البونية لحضارة هذه المدن، التي اعتبروها "اختراعا" بونيا خالصا، وهو مانراه إجحافا كبيرا في حقّ الأفارقة أملته رؤية أنثروبولوجية كولونيالية على أقلام ناطقة باسم الدوائر الاستعمارية في عزّ الهيمنة الاستعمارية ما بين النصف الثاني من القرن *XIX* والنصف الأول من القرن *X* فهل من الموضوعي اليوم أن نستمرّ في نفس الخطّ أم ينبغي علينا أن نراجع هذه الكتابات المحكومة بالفترة التي أنجزت فيها، ومن بينها كتابات غابريال كامبس.



3- أثر منظومة الأفكار الكولونيالية في طمس التاريخ والحضارة الأفريقية

لم يكن الاحتلال الفرنسي عملا عسكريا قائما على فرض منطق القوة وحسب ولكن كان أعمق من ذلك بكثير، لقد سخر كلّ إمكانياته للتأسيس لمنظومة فكرية تعكس رؤية قادة الاحتلال وتبرر مشروعية الاستعمار، وهذا لم يكن ليتحقق إلاّ بتجنيد النخبة المثقفة، وهو الذي حدث حيث تَجنّد عدد كبير من الباحثين الذين توزعوا على مختلف التخصصات المتعلقة بالشمال الأفريقي أرضاً وشعباً وتاريخاً، وكما قال جول فيري في وقت لاحق "بعد استعمار الأرض حان وقت استعمار الأذهان"[81] وكان الجميع يسعى لإغناء تلك الرؤية الكولونيالية التي تريد أن تجعل من الاستعمار رسالة حضارية، في بلاد "شاغرة" على الدوام تنتظر "حضارة" جديدة قادمة من وراء البحر. وعلى امتداد أكثر من قرن من العمل الدءوب "اغتنت" المكتبة الكولونيالية بمئات الدراسات والأبحاث والتآليف والتقارير الأثرية التي تعلن اكتمال منظومة فكرية تعكس الرؤية الاستعمارية لتاريخ وهوية هذه البلاد.

كانت المعلومات الأولى مستقاة من كتب الرحالة الأوربيين الذين جمعوا في تآليفهم مادّة أنثروبولوجية انطباعية في الغالب خلال أسفارهم عبر البلاد الأفريقية، ولكن عندما وجد قادة الاحتلال أنفسهم وجها لوجه مع البلاد التي أخضعوها وهي مادّة خام بالنسبة لهم، تمّ تجاوز تلك الأعمال الانطباعية، ووقع تسارع كبير في حركة النشر، وتحول الجميع ضبّاطاً وإداريين ومهندسين... إلى كتّاب ومدوّنين وتمّ إصدار أوامر مُلزِمة بجمع كلّ المخطوطات في الجزائر سواء من الزوايا أو من العائلات التي تحتفظ بالكتب المخطوطة، وتسليمها إلى السلط الاستعمارية، وما كاد القرن XIX ينتهي حتى كان المخزون الجزائري من المخطوطات قد دُرس وصنّف وترجمت الكثير من الأعمال التي رأى الباحثون أنّها مهمّة بالنسبة لمنظومة الأفكار الكولونيالية.

كانت أعمال الجرد والإحصاء مواكبة للتوسع العسكري، ومن أول وهلة اجتذبت المواقع الأثرية فضول قادة الاحتلال من ضباط وأعوان وإداريين ... وتحوّل الجميع إلى مؤرّخين وآثاريين، ولعلّ أهمّ عنصر يمكن توظيفه في نظر هؤلاء للترويج لفكرة التراث المشترك بين ضفّتي المتوسّط هو النقوش الأثرية اللاتينية التي تزخر بها تلك المواقع بالسعي إلى

---

[81] في ما يتعلق بجول فيري وتعليم الأهالي، يمكن الرجوع إلى: - Robert Ageron, "**Jules Ferry et la question algérienne en 1892**" in Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine 10 (April-June 1963: 131-34

ترسيخ فكرة أنّ الشمال الأفريقي الذي كان عنصرا أساسيا في حضارة الغرب اللاتيني يمكن أن يعود بحكم هذا التراث وبحكم الجغرافيا أيضا إلى "ذاته" وإلى أصوله التي انفصل عنها خلال القرون الوسطى.

ليس غرضنا هنا هو التعمّق في تاريخانية[82] أفريقيا الشمالية "الفرنسية" بل إننا لا نستطيع في هذه العجالة أن نفي ولو جزءا منها حقّها، ولكن أردنا من خلال عمل غابريال كامبس هذا لفت الانتباه إلى أنّ تاريخ أفريقيا الشمالية الذي أنتجته رؤى وإملاءات إمبراطورية استعمارية ليس سهلا تحريره، ففي كلّ جزء منه مهما كان محدودا نجده مصطبغا بألوان متراكمة تحجب وجهه الحقيقي، لأنّ ما أنتج في أكثر من قرن لا يمكن فرزه وتنقيحه بين عشية وضحاها، وبموازاة ذلك لا ينبغي أن يُفهَم من عبارتنا هذه التقليل من شأن بعض الأعمال التي تحوز على جانب كبير من الموضوعية، كما أنّه لا يمكن أن نسقط في فخّ أولئك الذين يختفون وراء شعار "إعادة كتابة التاريخ" ليكتبوا تاريخا على هواهم وإسقاطاتهم الإيديولوجية أسوأ ممّا يدّعون أنّه مسيء إلى ذاكرتنا التاريخية !

من الجوانب الايجابية في حركة البحث والتأليف هذه أن أصبح لأفريقيا الشمالية تاريخها القديم، الذي لم يكن الأفارقة يعرفونه طيلة القرون الوسطى، حيث كان التاريخ الذي درج أبناء البلاد على دراسته يبدأ بالفتوحات الاسلامية، وهذا في حدّ ذاته يمكن أن يحدث اضطرابا في الذاكرة التاريخية إذا لم يكن الموضوع بين أيدي أكاديميين حريصين على ربط حلقات التاريخ ببعضها بحكمة تحفظ للأمّة انسجامها ووحدتها،ولكن أنّى لذلك أن يتمّ على أيدي أقلام تكتب بإملاءات استعمارية، في إطار إيديولوجي يستبعد أيّ دور للشعب الأفريقي في تاريخ بلاده، فما كادت الدراسات الكولونيالية تصل حدّا من "النضج" حتّى ظهرت نظريات متتالية كمحصّلة لتلك الدراسات مثل: نظرية"**استعمار يطرد استعمارا**[83]" ونظرية "**قصور الأفارقة** ***Impuissance des Maghrébins***" ونظرية "**لعنة الجغرافيا**" التي تقول أنّ عدم تحقيق وحدة سياسية تجمع الشمال الأفريقي في دولة مركزية واحدة يعود إلى جغرافيته، ونظرية "**حضارة في كنف استعمار أو حرية دون قانون أو نظام**[84]" أي أنّ تراكم الأعمال التاريخية والسوسيوتاريخية وصل إلى درجة التنظير وإصدار الأحكام، وقد

---

(82) **التاريخانية (Historiographie) في مدلولها الاصطلاحي هي مجموع الكتابات التاريخية، المتعلّقة ببلد ما، وكذا الأساليب التي استعملها المؤرّخون في كتاباتهم التاريخية، وخاصة في ما يتعلق بالتاريخ القديم..**

(83) - Gautier (E.F.), le passé de l'Afrique du Nord, Payot, Paris1952. p. 24

(84) **في مقابل عبارة غاستون بوتول :** Civilisation et servitude ou liberté et barbarie **، أنظر مقدّمة الطبعة الثانية لمقدّمة ابن خلدون (بالفرنسية)، عن : - Nouschi (André), L'ALGERIE, Passé et présent, éditions sociales, Paris p. 70.**

أنشئت لنشر هذه الأعمال حوليات هامّة بدأت بالمجلّة الأفريقية (***Revue africaine***) في الجزائر العاصمة ثمّ تدعّمت بحوليات عمالة قسنطينة (***Recueil des notices de la Société Archéologique de Constantine = R.S.A.C. 1953***) وأخرى في عمالة وهران (***BULLETIN DE LA SOCIETE DE GEOGRAPHIE ET D'ARCHEOLOGIE D'ORAN. = B.S.G.O. 1980***) ثمّ حوليات في مدن أخرى(85).

هذه الأعمال وغيرها على درجة كبيرة من الأهمّية، برز فيها أفذاذ على غرار اسطيفان اقزال، وهي التي أسست لأجيال من الدارسين والباحثين الذين احتفظ بعضهم لنفسه بمساحة من الحرية التي يعبّر من خلالها عن آرائه التي لا تتعارض مع الخطوط العريضة للرؤية الكولونيالية، وفي هذا السياق بدأت تظهر توجّهات هؤلاء، ومع أنّها توجهات تتحاشى التناقض والاصطدام إلاّ أنّها تعبّر عن اختلاف في بعض الرؤى، فقد ظهر في الساحة ما يمكن التعبير عنه بفريقين أو تيارين تبعا لنزعة كلّ طرف، بحيث اهتمّ أحدهما بتراث الفترة الرومانية، ويمثّل هذا الفريق عنصرا نافذا يحتلّ الصدارة، وهو في الغالب من ذوي الأرومة الفرنسية. أمّا الفريق الثاني فاهتمّ بالتاريخ القرطاجي وأغلب أفراد هذا الفريق من ذوي الديانة اليهودية، ودخل الطرفان في شبه تباري كل يريد أن يبرز مجاله، وانقسم تاريخ أفريقيا الشمالية تبعا لهؤلاء إلى ثنائية أرادوا لها أن تكون شبه مسلّمة وهو أنّ ما ليس قرطاجيا بونيا في تاريخ أفريقيا الشمالية القديم هو بالضرورة روماني لاتيني والعكس، وإذا كان ذوو النزعة الرومانية قد اجتهدوا في إبراز أفضال روما على أفريقيا القديمة، فإنّ نظراءهم من ذوي النزعة السامية ظلوا يجتهدون للتأسيس لفكرة أنّ الفينيقيين هم من أدخل الشمال الأفريقي التاريخ، وأنّ أفريقيا القديمة عرفت حضارتين وأنّ أركيولوجيتها تضمّ طبقتين، واتفق الفريقان على إقصاء الأفارقة و"إحالة ملفّهم" على الأنثروبولوجيا التي تعنى بدراسة الأقوام البدائيين على غرار قدماء أستراليا أو الهنود الحمر! وخير مثال على ذلك ما نلاحظه عندما يتعلق الأمر بالفترة الرومانية في فرنسا حيث يقال الحضارة الغالورومانية أمّا عندما يتعلق الأمر بأفريقيا وفي ذات الفترة فإنّه يقال الحضارة الرومانية ويشار إلى الأفارقة بعبارة "الأهالي" مع ما فيها من تحقير وانتقاص، لأنّ الغاليين لا ينظر إليهم هؤلاء على أنّهم مجرّد "أهالي" بل هم غالورومان (Gallo romains) أي شركاء للرومان شراكة ندّية، مع أنّ أفريقيا هي الجديرة بأن

(85) **مثل حوليات عنابة :** Bulletin de l'Académie d'Hippone (B.A.H.) .

تكون الندّ لروما لأنّ ما قدّمته لها لا يوجد له ما يماثله في فرنسا بل في أوربا الغربية على الإطلاق[86].

لم يكن هؤلاء موضوعيين ولا حياديين البتّة، بل لم يكونوا يشعرون أنّهم في حاجة إلى الموضوعية والحياد، وكانت الإيديولوجيا تطغى على كتاباتهم بل إنّ أفريقيا الشمالية كانت ميدانا خصبا لخيلائهم، لأنّ الفاعلين في الحقل المعرفي كما رأينا كانوا في أغلبهم وعلى الخصوص في البدايات عسكريين مع عدد محدود من رجال الدين وأعوان الإدارة، هؤلاء لم تكن تعنيهم – تحت تأثير نشوة انتصار الفتوحات العسكرية– حياة الإنسان الأفريقي ولا الدور الحضاري لبلدانه أو العلاقة بين الحضارات كما هو الحال الآن، وقد يُبدون سخرية أو احتقارا في كتاباتهم إزاء الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال وتدهورت أحوالها من خلال النظر إلى ماضيها عبر حاضرها البائس، مع أنّ هذا ليس عملَ المؤرّخ الذي ينبغي عليه أن يحلّل وأن يمنح لقارئه أدوات إصدار الحكم [87]، واليوم وبعد الاستقلال إذا كان ذوو النزعة الرومانية قد رحلوا ورحلت معهم دراساتاهم التي يصلنا بعضها من وراء البحر، فإنّ ذوي النزعة السامية وجدوا من يستلم منهم المهمّة خاصّة في بعض الأوساط التي وضعت نفسها في خدمة إيديولوجيات فاشية بواجهة قومية معروفة، هؤلاء لاينتجون مادّة معرفية أصيلة مصطبغة برؤية وطنية لأنّهم لا يمتلكون الكفاءات العلمية، ويستعيضون عن ذلك بتاريخ بديل جاهز مصنّع في مخابر التيارات الفكرية الشوفينية المذكورة.

كانت هوية البلاد الأفريقية هي المستهدفة، والواضح أنّ الجميع لا يريد أن يكون لهذه البلاد اسم ولا عنوان ولا شخصية ولا هوية، فالدول البربريسكية[88] (Etats barbaresques) امّحت وليس غير أفريقيا "المستردّة"، يريدونها جغرافيا بلا هوية قومية، وإذا كانت الكتابات

---

(86) ظلّت أفريقيا مركز إشعاع فكري وثقافي وهي التي أنجبت كبار الأدباء والفلاسفة في العصرين الوثني والمسيحي وكانت آخر معقل للغة والثقافة اللاتينية حتى بعد سقوط روما. ولعلّ الأفريقي كوريبوس هو آخر شاعر لاتيني.

(87) كان سقوط قسنطينة قد نقل فرنسا إلى داخل الجزائر فصدر قرار إنشاء لجنة مكلفة بالاكتشاف العلمي في أفريقيا تحت رعاية الهيئات الأكاديمية ووزارة الحرب كما أنشئت ما بين سنتي **1840–1842** لجنة الاستكشاف العلمي بالجزائر، تحت رئاسة الكولونيل بوري دو سان فانسان Bory de Saint Vincent التي أصدرت نتائج أعمالها في ما يزيد عن الثلاثين مجلّدا بعنوان : **Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841 et 1842** وهو أول عمل منهجي نشر عن أفريقيا الشمالية. أنظر :

–**onique Dondin-Payre**, « Historiographie de l'Afrique du Nord antique », **Annuaire de l'École pratique des hautes études (EPHE), Section des sciences historiques et philologiques**,139 | 2008,[En ligne], mis en ligne le 15 décembre 2008. URL http://ashp.revues.org/index 233.html.

(88) وهو اسم بلدان الشمال الأفريقي الوارد في كتابات الأوربيين المعاصرة لفترة الحكم العثماني لها.

الأولى قد سايرت القرارات الإدارية التي انطلقت من رؤية عامّة الأوربيين الذين يطلقون اسم العرب على كلّ المسلمين (مكاتب عربية، مشروع مملكة عربية...) فإنّها أخذت تتراجع عن هذه التسمية، باستعمال عبارة أهالي (Indigènes) وسكّان (Population) أي تجريد الأفارقة من هويتهم القومية وأخيرا حشرهم واختصارهم في هوية دينية من خلال عبارة **مسلمين** – التي تقتصر على الانتماء إلى الدين ولا تتضمن معنى الانتماء إلى الوطن – في مقابل عبارة **أوربيين** لإلغاء انتماء الأهالي إلى وطنهم والنظر إليهم على أنهم مجرّد جماعة (Communauté) "دينية" لا غير.

هذه المحصلة وقع التأسيس لها منذ البدايات،عندما جرّدوا أفريقيا من حضارتها وفرضوا الانتماء العرقي على حضارة قرطاج بترسيم عبارة الحضارة البونية، وتعميمها على ميادين التطور الاجتماعي والحضاري الذي وقع على الأرض الأفريقية على امتداد ألفية كاملة، بحيث تمّ طمس الشعب الأصيل[89] بملوكه ونظمه السياسية والاجتماعية ومدنه ومعتقداته، كلّ شيء أصبح يحمل اسم الحضارة البونية (Punique) نسبة إلى أولئك الذين جاءوا فارّين من بلدهم خاليي الوفاض، وبعد أن صنعت منهم أفريقيا جاليات تجارية نشِطة وقوّة حربية منافِسة، تصبح بجرّة أقلام مأجورة بلا حضارة وأنّ كلّ شيء فيه حدّ أدنى من لمسة حضارية ما هو إلاّ بوني شرقي: الزراعة والعمران والنظم والمعتقدات وحتى الفخار مع أنّ نشاط هؤلاء كان في البحر، ولو اكتفى ذوو النزعة السامية بتمجيد الدور البحري للفينيقيين عموما لكان ذلك مقبولا، أمّا أن يُنسَب إليهم كلّ شيء في هذه البلاد فهذه مؤامرة على تاريخ الأمّة الأفريقية التي وقع تجريدها من حضارتها بأقلام ظلت تشتغل عبر القرون منذ الكتّاب الأغارقة إلى المؤرخين الفرنسيين مرورا بالمؤرخين الرومان، وكان الأَوْلى أن تستعيد الحضارة الأفريقية هويتها المطموسة لأنّ كلّ شيء في قرطاج كان أفريقيّاً: الجغرافيا والديمغرافيا والعمران وحتى المعتقدات حيث كانت عبادة الآلهة الشرقية تتراجع مع تقدّم الزمن ليعتلي عرش الآلهة القرطاجية في القرون الثلاثة الأخيرة الثنائي الأفريقي آمون—تانيت.

[89] أشار ليون الأفريقي إلى سياسة الطمس هذه، يقول: " ***ولعلّ في الدليل الآتي كفاية، ذلك أن بلاد البربر كلّها، سواء منها مدن الساحل أو مدن الداخل، أعني المدن المشيدة قديما، لا تحتوي على أيّة كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلاّ وهي بالحروف اللاتينية دون استثناء ... إذ لا شكّ أنّ الرومان لّما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم محوا – حسب عادة المنتصرين– جميع النقوش الحاملة لآثار المغلوبين بخطّهم الأصلي قصد إذلالهم... وهكذا كانوا يقضون في آن واحد على كرامة الأفارقة وعلى كلّ ما يذكّر بماضيهم...*** " أنظر: ليون الأفريقي ، مرجع سابق ، ص **70**.

يوضح كامبس أنّ الحضارة "البونية" انتشرت أكثر في عموم نوميديا على الخصوص بعد سقوط قرطاج، ونرى أنّ هذا طبيعي جدّا لأنّ الحضارة القرطاجية هي حضارة أفريقية و لم تسقط بسقوط قرطاج، والذين ينفون أو يستبعدون عن قصد الانتماء الجغرافي للحضارة ويغلّبون الجانب العرقي يخالفون الحقيقة التي يؤكّدها التاريخ عبر العصور، وهي أنّ قاطرة الجغرافيا هي التي تقود التاريخ والبيئة الجغرافية هي التي تسهم في توفير المناخ الحضاري، وبالمقابل لماذا لا نجد التركيز ذاته على الانتماء العرقي للحضارة عندما يتعلق الأمر بالإغريق والرومان في شبه الجزيرة الإيطالية على غرار التركيز المتعمّد على الفرز بين ما هو أفريقي (ليبي، نوميدي، موري ...) وما هو غير أفريقي (بوني) وجعْل الأول منطبقا على كل ما هو ريفي ساذج والثاني شاملا لكلّ ما هو مدني متحضر، ولماذا يتمّ إقصاء الأفريقي من كلّ إبداع واكتشاف حضاري لحساب الجالية الفينيقية التي لم تبق من فينيقيتها غير الذكرى بعد أن مرّت قرون طويلة على استقرارها في وطنها الجديد واندماجها في الشعب الأفريقي، وما الحضارة التي يقال عنها بونية سوى محصِّلة لذلك الإندماج والانصهار.

التاريخ الذي تخطه أقلام هؤلاء يجعل الحضارة دائما جسما دخيلا مستزرعا في هذه البلاد وحتى حضارات العصر الحجري كالقبور الميقاليثية اعتبروها قادمة من الشمال عبر صقلية مرة وعبر ايبريا مرات فوزعوا البقايا الأثرية على هواهم وألحقوها بحضارات يقولون أنّها كمبانية وإيبرية[90]، وباختصار هاهو غابريال كامبس "الأقلّ شططا" هو الآخر يتحدّث عن منافذ من كل جهة من الشرق عبر صحراء الفزان ومن الجنوب عبر الهضبة الصحراوية أمّا الساحل فكله منافذ دخلت منها مؤثّرات حضارية، ويبلغ الأمر قمّة التجنّي عندما يتحدث عن أصول زنجية للأسلوب العمودي في الكتابة الليبية[90 مكرّر] وهذا عندما لم يجد الدليل على أنّه نتاج تأثير أورو متوسطي مستدلاّ بالدراسات "الأنثروبولوجية" التي يعتمد عليها والتي تقول أنّ الجماعات الزنجية التي احتكّت بالكتابة العربية والأوربية الحديثة تكتب لغاتها بحروف عربية أو أوربية بشكل عمودي !

بلغ الأمر مداه عندما اخترع هؤلاء عبر طروحاتهم "مئة" أصل وأصل للشعب الأفريقي "القادم" في فرضياتهم من كلّ أصقاع العالم إلاّ أن يكون من بلده، وكأنّ البلد الذي شهد

---

(90) أعلاه ، ص ص 135-136.

(90 مكرّر) أعلاه ص 286.

أول حضارة صورة (هضبة التاسيلي) واكتشفت فيه بقايا الإنسان المسمى الأطلنطي الموريتاني عقيم، وكأنّ إنسان هذه الحضارة تبخّر وانقرض، ومع أنّ غابريال كامبس فنّد هذه المقولات، إلاّ أنّه هو الآخر لم ينفِ أسطورة "الشرق مهْد البشرية" ومع أنّه سخِر منها إلاّ أنّه أبقى على بعض طروحاتها.

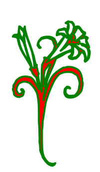
حضارة قرطاج ونوميديا وموريتانيا هي حضارة أفريقية لا تخلو من مؤثرات شرقية فينيقية بدرجات متفاوتة[91]، ولكن النصيب الأفريقي فيها هو الغالب تشهد على ذلك التوبونيميا والعمران والثقل الديمغرافي، وحتى المعتقدات في القرون الثلاثة الأخيرة من عمر قرطاج، وكانت مظاهر السيادة الأفريقية دائما هي الأقوى ممثَّلة في الملوك رموز السيادة الكاملة، أمّا قرطاج فهي دولة مدينة يحكمها أشفاط على رأس مجلس مدينة على غرار ما هو كائن في باقي المدن الأخرى، وكانت قوتها بالدرجة الأولى في ثروتها التي إن صنعت لها الرخاء فإنّها لم توفّر لها الأمان، لأنّها تفتقر إلى مقوّمات الدولة الكاملة غير المنقوصة وكأيّ **دولة مدينة** لا يمكنها أن تجابه أمما وإمبراطوريات، ولا حلّ لها سوى أن تنضوي —على الأقلّ في اللحظات الحرجة– تحت لواء الدولة كاملة المقوّمات وهي نوميديا، وإن امتنعت فلن يكون مصيرها غير الزوال النهائي وهذا هو حال قرطاج التي رفض أشفاطها أن تكون حيث يفترض وضعها الطبيعي والبشري أن تكون أي ضمن الأمّة الأفريقية الموحّدة.

هذا هو الوضع الطبيعي الذي ينبغي اليوم أن نرى عبره قرطاج الأفريقية، لكي نحتفظ بذكراها في أذهاننا على أنها مرحلة حضارية رائدة وصفحة تاريخية ناصعة، أمّا إذا سايرنا من يتحدّث عن "وجود" فينيقي بوني قرطاجي ينسب إليه كلّ معْلمة حضارية ويمنّ على الشعب الأفريقي بالأفضال الفينيقية، ويبالغ في تقزيم الأمّة الأفريقية فهو كمن يضع الفينيقيين والبونيين حيث وضعتهم روما بالأمس أي أنّهم استعمار ينبغي محو ذكراه من الأذهان اليوم كما تمّ محو وجوده بالأمس البعيد من على الأرض، ولذلك آن أوان إعادة المياه إلى مجاريها فما تمّ من تطوّر حضاري على الأرض الأفريقية هو حضارة أفريقية ساهم فيها الجميع نوميد ومور وبونيون دون إقصاء عرقي لأيّ طرف وهذا لتصحيح ذاكرتنا التاريخية.

---

(91) **ونستغرب العبارة التي ختم بها كامبس الفصل الثاني من القسم الثالث من كتابه، وهي أنّ ماسينيسا ضمن انتصار حضارة أجنبية لأنه "بربري يائس مدرك لنقاط ضعفه ... " ! ، أنظر أعلاه : ص 285.**

هذا التاريخ صالت فيه الأقلام المذكورة وجالت، وما كتبه قابريال كامبس وغيره ينبغي أن نقرأه اليوم بحذر شديد، وألاّ نتعامل معه كعمل مكتمل، بل أحرى بنا أن نتعامل معه كما لو أنّه مادّة للتنقيح والفرز وهي فعلا كذلك، ليتمّ في خطوة تالية تحريرها من المقولات المغرضة والافتراضات المتحاملة، لأنّ أصحاب هذه الأقلام أرادوا أن تظلّ آلة الانقسام نشِطة وهم بعملهم أسّسوا لديمومة الصراع بين الشرق (قرطاج) والغرب (روما) على أرضنا، واليوم عوض أن نؤسّس ذاكرتنا التاريخية على هوية وحضارة أفريقية يراد لهذه الذاكرة أن تنقسم من جديد إلى طرف يؤصّل لهذه الحضارة وطرف ثانٍ لحضارة أخرى يجعل لها امتدادا إلى اليوم يطمس بها هوية البلاد وشخصيتها ويختصر استقلال بلدان الشمال الأفريقي في أنّها مجرّد ممتلكات استعادها هذا الطرف من ذاك، وبذلك تظل أفريقيا الشمالية ساحة صدام وتجاذب بين الشرق والغرب، فهل يمكن أن ننهي اليوم هذا السجال شرق-غرب وأن نعود إلى ذاتنا دون قطع الجسور مع الآخر، كما تفترضه قواعد وأصول العلاقات بين الأمم والحضارات.



فهـــــارس

فهرس المصادر والمراجع

مصادر

مراجع ودوريات

متاحف

فهرس الأعلام:

(أشخاص، معبودات، أماكن جغرافية)

فهرس الأشكال

مسرد المفردات غير العربية الواردة في النص

فهرس المحتوى

المصادر والمراجع

أ- مصادر

Ammien Marcellin,

1. *Res Gestae*, Texte établi et traduit par P. Goukowsky, avec la collaboration de S. Lancel. Editions : Belles Lettres, Paris 1974.

Anonyme

2. Bellum Africanum., trad. par A. Bouvet, éditions Belles Lettres, Paris 1949.

Anonyme,

3. Liste de Vérone, éd. Seek. Notitia dignitatum

Anonyme,

4. Périple de Scylax, Géographici graeci minores : édit. Didot

Appien,

5. Bellum civile (guerre civile) dans l'Histoire romaine, Trad. Par H. white (Loeb.lass. Libr.) London, 1912-1928.

Apulée,

6. Apologia, trad. Par de violette, collection Budé, Paris 1954.

Arnobe,

7. Adversus nationes, éd. Rief. Atrschied, (Corpus de Vienne), 1875.

Aurelius Victor,

8. De Caesaribus, trad. nouv. par M. N. A. Dubois, éd. C. Panckoucke, Paris 1846

Cicéron,

9. Oeuvres, C. L. F. Edition Panckoucke, Paris 1833-1840, (36 Tomes).

Corippus,

10. Johannides, trad. Alix, éd. Revue Tunisienne, 1899-1902.

Cornelius Nepos,

11. Amilcar, Traduction de M. Kermoysan, édition Nisard, Paris (1841)

Diodore de Sicile,

12. Bibliothèque universelle, trad. Par Af. Milot, imprimerie croyale, Paris 1834-1837.

Hécatée de Milet,

13. Fragm, histor, graec,

Hérodote,

14. Histoire, Livre IV, Texte établi et traduit par Ph. E. Le Grand, éditions les belles lettres, Paris 1980.

Julius Honorius,

15. Geographici latini minores,

Justin, (Marcus Junianus Justinus**)**

16. HISTOIRE UNIVERSELLE , trad. par jules Pierrot, éditions C.L.F. Panckoucke, Paris M DCCC XXXIII

Lactance,

17. Institutions divinae

Minucius Félix,

18. Octavius, éditions « Belles Lettres » Paris S.D.

C. Muller,

19. Fragmenta historicorum graecorum, I

Paul Orose,

20. Adversus paganos, éd. K. zangemeister, 1882.

Plutarque,

21. De Viris illusteibus (Vies des hommes illustres) , traduit par gérard walter, édition Gllimard, Paris 1951 .

Polybe,

22. Histoire Romaine, traduit par denis Roussel, édition Gallimard, Paris1970

Prudence, (Aurelius Prudentius Clemens)

23. Peristephanon,

Silius Italicus

24. Les Puniques, traduit par E.F. Corpet, et N.A dubois Edition Panckoucke, Paris 1836-1838. (3 Volumes).

Strabon

25. Géographie, traduit par tardieu, Edition Hachette, Paris 1867-1870. (4 Volumes).

Tacite,

26. Annales, trad. par Bornecque, éditions garnier, Paris 1940.

Tertullien,

27. Apologie, trad. Par de grand, Paris 1852..

Tite-Live,

28. Histoire Romaine, traduit par Verger, Editions Panckoucke, Paris 1930.

Valère-Maxime

29. *Faits et dits mémorables*, Texte établi et traduit par R. Combès, Garnier : Paris 1935

Virgile,

30. Enéide, traduite par Jacques DELILLE, Paris MDCCIX



A

Alquier, (J. et P.)

31. Stèles votives à saturne découvertes près de N'Gaous (Algérie) C.R.A.I.B.L., 1931,

Anziani (D.),

32. Nécropoles puniques du Sahel tunisien, M.E.F.R., t, XXII, 1912, pp. 244-303

Arambourg (C.),

33. Boule (M.), Vallois (H.V.), et Verneau (R.), Les grottes paléolithiques des Béni Segoual (Algérie), Arch. De l'I.P.H., Mém. N° 13, 1934, p. 81.

Armani, (Dr)

34. Découvertes de sépultures préislamiques à zémamra, bull. mens. de la Soc; archéol. de Constantine, n° 50 Mars 1933, pp. 89-90.

Astruc (M.),

35. Supplément aux fouilles de Gouraya , *Libyca, Archéol, Epigr,, t, II, 1954, pp. 9-49.*

36. la nécropolis de Villaricos, Madrid 1951; Supplément aux fouilles de Gouraya, Libyca Archéol. Epigr. T. II, 1954, pp. 9-49 ;

37. Traditions funéraires de Carthage, Cahiers de Byrsa ; t. VI, 1956, pp. 23-58 ;

38. Exotisme et localisme, étude sur les coquilles d'œufs d'autruches décorées d'Ibiza, Archivo de préhist. Levant., t. VI 1957, pp. 47-112.

Audollent,

39. Cerers, Mélanges Cagnat, Paris 1912, pp. 359-331,

Aucapitaine (J.),

40. Ruines romaines à Abizar, tribu des Béni Djennad et les Béni Raten (Kabylie), Rev. Archéol., t, XVI, 1859, pp. 25-31 (p. 25)

B

Babelon (J.),

41. Observations sur quelques monnaies de Libye, Actes du LXXIXX Congr. Nat. des Soc. Sav. Alger A954 pp. 23-30.

Babelon (E.) Cagnat (R.) Reinach (S.)

42. Atlas Archéologique **de** Tunisie**.**

Bahrfeldt,

43. Der Munzfund von Mazin (Croatien) Afrikanische und Italische

44. upfermunzen, Aes rude und signatum, Eine Volnänfije Erorterung der Barrenfrege, Berlin 1901 ; C.R. Rev, numism, 4e série t, V, 1901, p. 291.

Balout, (L.),

45. *Algérie préhistorique, Paris 1958,*
46. Préhistoire de l'Afrique du Nord, Essai de chronologie, Paris 1955.
47. Préhistoire de l'afrique du Nord, Paris 1955,
48. les Hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara, Alger 1955.

Ballu (A.),

49. Rapport annuel, B.A.C., 1914, p. 270

Banfet (H.),

50. la poterie des Aït Smaïl du Djurdjura, Rev. Afric. T, XCIX, 1955, pp. 289-340
51. Id. les poteries modelées d'Algérie dans les collections du Musée du Bardo, Alger, 1957.

Baradez (Le Colonel)

52. Nouvelles fouilles a Tipasa, Survivances du culte de Baal et Tanit au 1er siècle de l'ère chrétienne, Libyca, Archéol, Epigr, t, V, 1957, pp. 221-275 (p. 226)
53. Fossatum africae, Paris 1949, pp. 185-212.
54. Nouveaux éléments de Fossatum et hinterland productif du limes de Numidie

Bardin (P.),

55. La grotte du Kef el Agab (Tunisie), gisement néolithique, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. I, 1953, pp. 271- 308, (pp. 286-287)

Basset (H.),

56. Les influences puniques chez les Berbères, Rev. Afric. T, LXII, 1921, pp. 340-374.

Basset (R.),

57. Recherches sur la religion des Berbères, Rev, de l'Hist, des religions, 1910, pp. 291-342 (pp. 314-315).

Bates (O.)

58. *The eastern Libyans*,

Battandier et Trabut,

59. Flore de l'Algérie, Alger 1888-1890,

Battistini (E.),

60. Note sur deux tumuli de la région de Négrine, *Rec. de la Soc. de Préhist. et d'Archéol. de Tébessa*, t, I, 1936-1937, pp. 183-195

Bernard (A.)

61. Afrique septentrionale et occidentale, 1ère partie, T. XI, de la géographie universelle de Vital de la Blanche et L. Gallois, Paris 1937, p. 30.

Bernard (F.),

62. Fourmis moissonneuses nouvelles ou peu connues des montagnes d'Algérie et révision des Messor des groupes structor (Latr.) Bull. de la Soc. d'Hist. Nat. de
63. 'Af. du Nod, t. XLV, 1954, pp. 354-365.

Berthier (A.),

64. l'Algérie et son passé, Paris 1951.
65. Découverte à Constantine de deux sépultures contenant des amphores grecques, rev. Afric., t, LXXXVII, 1943, pp. 23-32

Berthier (A.) et Charlier (R.),

66. le sanctuaire d'El-Houffra, Constantine, Paris 1955,

Berthier (A.) et Loeart (F.),

67. Gravures rupestres de Sigus, Rev. Afric., t LXXX, 1937, pp. 391-393

Berthier A., Juillet J., Abbé Charlier R.,

68. Le Bellum Jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta, Constantine 1949,

Berque (J.),

69. Structures sociales du Haut Atlas,

Berque (A.)

70. l'habitation de l'indigène algérien, *Rev. Afr.* T. LXXVIII, 1936, pp. 43-100

Bertholon (D[R]) et Chantre,

71. Recherches anthropologiques dans la Berbérie orientale : Tripolitaine, Tunisie, Algérie, Lyon 1911, p. 422 ;

Beschmakoff (A.),

72. l'évolution de la charrue à travers le siècle au point de vue ethnographique, l'Anthrop. T, XLII, 1932, pp. 82-90.

Bobo (J.) et Morel (J.),

73. Les peintures rupestres de l'abri du mouflon et la station préhistorique du Hammam Sidi Djeballah dans la Cheffia (est constantinois), libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. III, 1955, pp. 163-181

Bonnel,

74. Monument gréco-punique de la Souma, *Rec. Des Not. Et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine*, t, XLIX, 1915, pp. 167-178.

Bouquet (J.),

75. Notes sur l'alimentation dans le Sud Tunisien, Archiv. De l'institut Pasteur, Tunis 1939, pp. 350-355

76. Contribution à l'étude de l'alimentation en Tunisie, Aliments végétaux d'appoint, Ibid. 1958, pp. 66-67.

Bosredon (L. de),

77. Notice sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tébessa, Rec. Des notices et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine, t. XVI, 1873, pp. 73-76 (pp. 70-76)

Boucher-Colozier (Et.),

78. Une statuette grecque d'Orante au Musée d'Alger, Monument Piot, t, XLVII, 1953, pp. 71-

Boulifa,

79. Nouveaux documents archéologiques découverts dans le Haut Sébaou, Rev. afric., t, LV, 1911, pp. 16-41;

Boyancé,

80. Etudes sur le Songe de Scipion, Paris 1936

Breuil (Abbé H.)

81. *Les roches peintes du Tassili-n-Ajjer.Actes du II e Congr. Panaf. De préhist.* Alger, 1952, pp. 69-219

Breuil (Abbé H.),

82. A propos d'une côte armée de petits silex de Trivaux (Seine et Oise), BSBF, t. XXXVII, 1940, pp. 181-182

Brunon (C[el].)

83. *Mémoire sur les fouilles exécutées au Medracen, Mausolée des rois de Numidie, Rec. Des notices et Mém. de la Soc. Archéol.de Constantine,* t, XVI, 1873-1874, pp. 303-350.

Buchet (G.),

84. Note préliminaire sur quelques sépultures anciennes du Nord-Ouest du Maroc, Bull. de géog. Hist et descript, 1907, pp. 396-399

C

Cabot Briggs (L.),

85. The stone age races of North West africa,

Cadenat (P.),

86. Actes du II[e] Congr. Panaf. De Préhist., Alger 1952, pp. 701-713.

87. La station préhistorique de Columnata, Bull. de la Soc. De Geo. Et d'Archéol. D'Oran, t. LXX, 1948, pp. 3-66, (p. 38)

88. Principaux résultats de la compagne de fouilles 1956-1957 à Columnata, *Congr. Préhist. de France*, XVIe session, Monaco, 1953 (sous presse).

89. Vestiges paléo-chrétiens dans la région de Tiaret, Libyca, Archéol., Epigr., t, V, 1957, pp. 77-103.

Cagnat (R.),

90. Notes sur les limites de la province romaine d'Afrique en 146 av. J.C., C.R.A.I.B.L.1894, pp. 43-51

Campardoo (J.),

91. la nécropole de Taza, Bull. de la Soc. de Géogr. et d'Archéol. d'Oran, t, XXXVII, 1917, pp. 291-328,

Camps (G.),

92. *l'Inscription de Béja et le problème des Dii Mauri, Rev, afric, t, XCVIII, 1954, pp. 233-260.*
93. *Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques,*
94. Sur trois types peu connus de Monuments funéraires nord-africains (Notes de Protohistoire); Bulletin de la Soc. De Préhist. Franç. T. LVI, 1959, pp. 101-108,
95. Les Monuments à niche et à chapelle dans la Protohistoire nord-africaine, Congrès préhist. De France, XVI, session, Monaco, 1959,
96. Relations protohistoriques entre la Berbérie orientale et les iles italiennes, XVI e Congr. Préhist. De France, Monaco, 1959.
97. Les Traces d'un age du Bronze en Afrique du Nord, rev. afric.T. CIV, 1960, pp.31-55.
98. les monuments funéraires à niche et à chapelle dans la Protohistoire nord-africaine. *Congr. Préhist de France*, XVIe session, Monaco, sous presse
99. la céramique des sépultures berbères de Tiddis, *Libyca, Anthrop. Préhist. ethnogr*., t, IV, 1956, pp. 155-203.
100. La Céramique des sépultures berbères de Tiddis, in Libyca ; Anthrop. Archéol-préhist. T. IV, 1956, pp. 155-203
101. La nécropole de Draria-El-Achour, Libyca, Archéol. Epigr. T. II, 1955, pp. 255-264.
102. Les Bavares, peuples de Maurétanie Césarienne, Rev. Afric. T. XCIX, 1955, pp. 241-288.
103. Données nouvelles sur les tombeaux du djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie, Libyca, Anthrop. Préhist. Ethrnog. T., VI, 1958.
104. Recherches sur l'antiquité de la céramique modelée et peinte en Afrique du Nord, Libyca. Anthrop. Archéol. Préhist. T. III, 1955, pp. 345-390, tableau p. 384
105. Les Bavares, peuoles de Maurétanie Césarienne, Rev. Afric. T, XCIX, 1955,

Camps-Fabrer (Henriette)

106. l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique romaine, Alger 1953.

Capot-Rey (R.),

107. La migration des Saïd Atba ou le "Zénétie ressuscitée" ***Rev. Afric.*** T, LXXXV, 1941, pp. 171-190.

Capot-Rey,

108. le Sahara français, Paris 1953, p. 173.

Capot-Rey (R.) et Marçais (Ph.),

109. la charrue au Sahara, notes préliminaires sur une enquête collective, trav. de l'I.R.S., t, IX, 1953, pp. 39-63

Carcopino (J.),

110. la fin du Maroc romain, dans le Maroc antique, pp. 284-285.
111. Le culte des cereres et les Numides, Rev. Hist., t. CLIX, 1928, reproduit dans Aspects mystiques de la Rome paienne, Paris 1941,
112. Le Maroc, marché punique de l'or, in le Maroc antique, 1943, pp.73-163.
113. *Du Périple d'Hannon aux Portulans grecs du XVI siècle dans Mélanges Ch. Picard, t. I, 1949, pp. 132-141.*
114. l'Afrique au dernier siècle de la république romaine, Rev. Histo. T, CLXII 1929, pp. 86-94
115. Le Maroc antique, Paris 1943,
116. Rome et les immolations d'enfants, dans Aspects mystiques de la Rome païenne, Paris 1941, pp. 39-48

117. Dictionario critico ethnologico de la lengua castellana

Carette-Bouvet (P.) et Neuville (H.),

118. les pierres gravées de Siaro et de Daga-Beid (Somalie), l'Anthrop, t, XVII, 1906, pp. 383-392.

Carton (D[r]),

119. Inscription relative au territoire des Musulames, C.R.A.I.B.L., 1923, pp. 71-73

Caton Thompson (Miss C.),

120. Kharga oasis in Prehistory, London, 1952, p 165

Cesariego(J.E.),

121. *El Periplo de Hannon de Carthago, Madrid 1947*

Chabassière (J.),

122. Ruine et dolmens du Fortas et de ses contreforts, Rec. Des Not. Et Mém. De la sic. Archéol. de Constantine, T, XXIV, 1886-1887, pp. 96-138

Chabot (J.B.),

123. Une prétendue réforme de l'Alphabet libyque, C.R.A.I.B.L. 1937, pp. 71-82.

Chabot (J.B.),

124. Recueil des inscriptions libyques,

125. Sur deux inscriptions puniques et une inscription latine d'Algérie C.R.A.I.B.L., 1916,

Charlier (Abbé R.),

126. les Stèles puniques de Constantine et la question des sacrifices dits : Molchomor en relation avec l'expression BSRMBTM, Karthago, IV, 1953,

Chevalier (R.),

127. La centuriation romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique, L'inform. Géogr., 22[e] année, sept-oct, 1958, pp. 149-154.

Cheynier (Dr A.),

128. Trivaux, le premier village de Meudon, Hommage à André Laville, son fouilleur principal, ibid, t. XLIX, 1952, pp. 131-145.

Christole (M.),

129. Le Tombeau de la chrétienne, Paris 1951

Cintas (P.),

130. Découvertes ibéro-puniques d'Afrique du Nord, C.R.A.I.B.L, 1953, pp. 52-57

131. Compte rendu de la nécropole de Villaricos de M. Astruc, Karthago, VII, 1956, pp. 203-213

132. Fouilles puniques à Tipasa, Rev. Afric. T, XCII, 1948, pp. 263-330.

133. Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris 1954. Céramique roue brillante de l'ouest méditerranéen et de l'Atlantique, ***C.R.A.I.B.L.,*** 1953, pp. 72-77.

Colin (G.),

134. Etymologies magrébines, Hespéris, 1927, pp. 89-90

Collet (M.),

135. sur trois tumulus de la région de Sidi Alouane, Ibid, 1917, pp. CXXXIX-CLX.

Courtois (Ch.),

136. Ruines romaines du Cap Bon, in *Karthago*, V, 1954, pp. 182-202.

137. Les Vandales et l'Afrique, Paris 1955,

138. *La Thala de Salluste, Rec. Des Not. Et Mém. De la Soc. Archéol. De Constantine*, t. LXIX, 1955-1956, pp. 55-69.

D

De Bayle des Hermens (R.),

139. L'Abri préhistorique de l'Aïn Keda, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist., t. III, 1955, pp. 129-161.

De Beaumais (A.) et Royer (P.)

140. B.S.P.F., t. XXIII, 1926, pp. 223- 238.

Debruge, ***(D*****R*****.)***

141. Compte rendu des fouilles faites à Bougie en 1904, Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine, t. XXXIX, 1905, pp. 67-123 (pp. 119-120)
142. Atlas préhistorique ou Essai de chronologie sur les diverses industries Préhistoriques recueillie dans mes recherches et fouilles en Algérie. Recu. Des Not. Et Mém. Du soc. Archéol. De Constantine, t. LX, 1930-1921, p. 289.
143. *Fouille à la grotte du mofflons (Constantine), C. R., du XXXVIII e Congr. De l'A.F.A.S.* Lille 1909, pp. 814-822.
144. La grotte de Bou zabaouine, reprise des fouilles, Rec. Des not. Et Mém. De la Soc. Archéol. de Constantine, t. L., 1916, pp. 123-138.

De Candolle (A.),

145. Origine des plantes cultivées, Paris 1883,

De Coudray (de la blanchère) et Gauckler (P.),

146. Catalogue du Musée Alaoui, 1897,

De Foucauld (Père ch.),

147. Dictionnaire Touareg-Français,

De Jarreguy (J.J.),

148. *Las islas de Canarias y la carrera del oro y la purpura en el periplo de Hannon. Acte du 1er congrès archéol. Du Maroc espagn. Tétouan 1953 pp. 271-276*

Del Castello (A.),

149. *la cultura del vaso campaniforme, su arigen y extension en Europa*, Barcelone, 1928
150. La cazuela de la cueva de Dar es-Soltane y su procedencia hispanica, 1e Congr. Arqueol. Del Murruecos espan. Tétouan 1953, pp. 53-56

Delibrias (G.), Hugot (H.), Quezel (P.),

151. *Trois datations de sédiments sahariens récents par le radio-carbone, in Libyca, Anthro. Préhist. Ethnog.T. V, pp.267-270.*
152. *Le Capsien des environs de Tébessa, Rec. De la Soc. de Préhist. et d'archéol. De Tébessa*. 1935-1937, pp. 131-169, p. 159.

Delmas (P.)

153. XXXIX e Congr. De l'*A.F.A.S.*, Toulouse 1910, pp. 367-379

Demaeght (L.),

154. Catalogue raisonné du Musée d'Oran, section des médailles, Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, XV, 1895, p. 324
155. Carte de la partie de la Maurétanie Césarienne correspondant à la province d'Oran, Révision 1931..), Fouilles puniques à Mersa Madakh, in Libyca, Archéol, Epigr, t, II, 1954, pp. 299-342

Demougeot (E.),

156. Le Chameau et l'Afrique du Nord romaine, Economies, Société, Civilisation, XV e année n°2, 1960, pp. 209-247.

De Roch (E. Sérée),

157. Note sur les vestiges d'habitat au Tazbent, commune mixte de Tébessa, B.A.C., 1940, pp. 193-146.

Deroy (L.)

158. L'origine préhellénique de quelques noms de peuples méditerranéens, Mélange Isidore Levy, Bruxelles 1955, pp. 87-121.

Desanges (J.),

159. *Le triomphe de Cornelius Balbus (19 av. J. C.) t. CI, 1957, pp. 5-43.*

Desjardins (V.),

160. Découverte d'une sépulture ancienne aux trembles; bull. de la Soc. de Géogr. Et d'Archéol. d'Oran, t, LVI, 1935, pp. 87-88

Dépois (J.),

161. l'Afrique du Nord Paris 1949,
162. les cultures en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50.
163. Le Djebel Ousselat, les Ousseltya et Kooub, Cahiers tunisiens, n° 28, 4e trim., 1959, p. 413
164. Rendements en grains du Byzacium il y a 2000 ans et aujourd'hui, Mélanges Gautier, pp. 186-193.

Doumergue (F.),

165. la grotte du Polygône, Bull. de la Soc. De Géog. Et d'Archéol. D'Oran, t, XLVII, 1927, pp. 205-254 (p. 248)

Dessogny (Cne),

166. Notice sur quelques monuments de la région d'Aïn Sefra, B.A.C., 1908, pp. 63-86.
167. **Doutté (E.),**
168. Magie et Religion dans l'Afrique du Nord, Alger 1902

Dresch (J.),

169. Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du rand Atlas, Tours 1941.

Ducélier (L.),

170. les blés du Sahara, Aller 1922

Dussaud (R.),

171. les dii patrii de Lepcis, Hommage à W. Deonna, Coll, Latomus, XXVIII, 1957, pp. 203-208

E

Espérandieu (Dr G.)

172. Domestication et élevage dans le Nord de l'Afrique au Néolithique et dans la Protohistoire d'après les figurations Actes du II e congr. Panaf. De Préhist. Alger, 1952, pp. 551- 573.
173. Archéologie africaine et Zootechnie, Bull. de la Soc. Vétérin. de Zootechnie d'Algérie, fasc. V, 1958, pp. 43-59
174. les Motons du Nord de l'Afrique au néolithique et durant la période protohistorique, Actes di 1er Congr. Arqueol. Del Marueccos espan. Tétouan 1953, pp. 121-142.
175. *Remarques au sujet de figurations d'animaux domestiques provenant de Djorf Torba (Sud Oranais) et conservées au Musée du Bardo (Alger), Libyca, Anthrop. Préhist. Ethnogr.*, t, I, 1953, pp. 181-197,

Erroux (J.),

176. Essai d'une classification dichotomique des blés durs cultivés en alérie Bull. de la Soc; d'hist. Nat. De la Afrique du Nord, t, XLVIII, 1957, pp. 230-253, citant n.1.
177. Les blés du Fezzan , Bull. de la Soc; d'hist. Nat. De l'Afrique du Nord, t, XLV, 1954, pp. 302- 317;
178. Note sur les blés des oasis du Sahara Alérien, Ibid. t, XLIX, 1958, pp. 180-195

Euzennat (M.),

179. *l'archéologie marocaine de 1955 à 1957, in Bull. d'archéolo. Maroc. T. II, 1957, pp. 199-229.*
180. Le temple C de Volubilis et les origines de la Cité, Bull. d'Archéol. maroc. T, II, 1957, pp. 41-64
181. Rapport sur l'archéologie marocaine en 1955 B.A.C. 1955-1956, pp. 97-215

F

Février (J.),

182. Inscriptions puniques du Maroc, B.A.C., 1955-1956, pp. 29-35

Février (J.G.),

183. Que savons-nous du Libyque ? *Rev. Afric.* T, C, 1956, pp. 263-273

184. Sur la bilingue de Guelaa bou Sba, *B.A.C.* 1961, pp. 38-43.
185. l'Inscription punico – libyque de Maktar, *Journ. Asiat.* T.CCXXXVII, 1949, pp. 85-91.
186. Sur quelques noms puniques et libyques, *B.A.C.,* 1949 pp. 652-655
187. Paralipomena punica (suite) III, la borne de Micipsa, Cahiers de Byrsa, VII, 1967, pp. 119-127
188. Sacrifice d'enfant chez les Numides, *Mélanges Isidore Lévy*, Bruxelles, 1955, pp. 161-171.
189. *Molchomor*, *Rev, de l'Hist, des Relig*, t, CXLIII, 1953, pp. 8-18
190. l'inscription punico-libique de Maktar, Journ, asiat, t, CCXXXVII, 1949, pp. 85-91.
191. l'inscription funéraire de Micipsa, ***Rev, d'Assyr***, *et d'Archéol, orient, t, XLV, 1951, pp.139-150.*
192. la stèle de Micipsa, *B.A.C.,* 1949, pp. 652-655.

Flammand (G.B.M.),
193. les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), Gravures et Inscriptions rupestres du Nod africain, Paris 1921

Fleury (Lt.),
194. Recherches de préhistoire dans le Sud Tunisien, Bull. de la Sic. Archéol. De Sousse, 1908,

Forrer (E.O.),
195. *Karthago Wurde erst 673-663v. Christ gegrundet. Fets-chrift Franz Dornself. Leipzig 1953, pp. 85-93*

Frezouls (E.),
196. *Les Baquates et la provinces romaine de Tingitane*, Bull, d'Archéol.,maroc., t, II, 1957, pp. 65-116
197. *Une nouvelle hypothèse sur la foundation de Carthage, Bull, de corresp. hellén, t. LXXIX, 1956, pp. 153-176.*

Frobenius (L.),
198. Der klein africanisce grabbau. Praehistorische zeitschrift, 1916, pp. 1-84

Frobenius (L.), et Obermaier (H.),
199. Hadschra Maktuba, Munich 1925, pl. CXXI

G

Gabus (J.),
200. Contribution à l'étude des Nemadi, chasseurs arxchaïques du Djouf, Bull. de la soc. Suisse d'anthrop. Et d'Ethnogr. &951-1952, pp; 49-83.

Gagé (J.),
201. Nota acerca das origines e da nome da antiga cidale de Volubilis – Univesidade de Sao Paulo, Faculdade de Filosafia, Ciencas e Letras; Bulletin n° 2, 1940.

Galland (L.),
202. Mons, Mopth… et Morti. MEFR, T. LXI, 1949, pp. 35-91

Garcia (A.) et Bellido (Y.),
203. Estado actual del problema referenti a la expansion de la ceramica iberica por la cuenca occedental del mediterraneo Archivo espan de Arqueol, t, XXX 1957, pp. 90-106.

Gardiner (H.)
204. *Ancient Egyptian onomastica, Londres* 1947,

Gattesossé (J.),
205. l'Atlanide et le Tritonis, Bulletin de la Soc. De Préhist. Du Maroc, 8e année n° 2, 1932

Gautier (E.F.),
206. Le Passé de l'Afrique du Nord, Les siècles obscurs, Paris 1937
207. Etudes d'Ethnographie saharienne l'Anthrop., t, XVIII, 1907,
208. *Rapport sur la mission Gautier-Reygasse en 1934, C.R.A.I.B.L., 1934, pp. 149-159.*

Gauthier du Mottay (J.),
209. Recherches sur les voies romaines du département des Côtes–du-Nord, Mém, de la Soc, d'émulation des Cotes-du-Nord, t, V, 1867, pp. 1-188 (pp. 140-144).

Genevois, (H.)

210. Djemaa n'Saharidj : à propos d'une inscription funéraire, *Libyca, Anthrop. Epigr* ; t, III, pp. 373-374

Germain (G.),

211. *qu'est-ce que le Périple d'Hannon ? Document, amplification littéraire ou faux intégral ? Hespéris, t. XLIV, 1957 pp. 205-248.*

Glotz (G.)

212. la civilisation égéenne nouvelle édition remise à jour par G. CH. Picard, Paris 1937, pp. 74-75

Gobert (E.G.),

213. *Notions générales acquises sur la préhistoire de la Tunisie, Actes du II e congr. Panaf. De préhist.* Alger 1952, pp. 221-239

214. *Les Poteries modelées du paysan tunisien. Rev. Tunisi. T. XLVII*, 1940, pp. 119-193

215. les escargoutières le mot et la chose, Rev. Afric. T., LXXXI, 1937, pp. 639-645 (p. 643).

216. *Introduction à la Palethnologie tunisienne. Cahiers d'Archéol. tunis.* II, 1914, pp. 117-172

217. *Sur le problème des croûtes et sur les sols capsiens, Bull. de la Soc. des Sc. Nat. de Tunisie*, 1948, pp. 56-65 (p. 62)

218. L'abri de Bortal Fakher, Libyca, Anthrop. Préhist. Ethnog., t. V, 1957, pp. 33-47.

219. le pudendum magique et le problème des cauris, ***Rev. Afric***., t. .XCV, 1951, pp. 5-61

220. El Makta, station princepale du Capsien, ***Karthago III***, 1952, pp. 3-77.

221. les poteries modelées du paysan tunisien, Rev. Tunis. 1940, pp. 119-198:

Gobert (E.G.) et Cintas P.),

222. Smirat, Rev. Tunis., 1941, pp. 83-121

Grimal (P.),

223. les fouilles de Siga, in MEFR, t, LIV 1937, pp. 108-141.

Graziosi (P.),

224. *l'Arte ruperstre della Libia, pl. 37 B et 38 B.*, **Libyca, Archéol, Epigr**, *t, VII, 1959, pp. 7-13.*

Gsell (S.),

225. Atlas archéologique de l'Algérie,

226. Les Monuments antiques de l'Algérie, t. I, Paris 1901,.

227. *Histoire ancienne de l'Afrque du Nord,*

228. Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, I, Hérodote, Paris – Alger 1916

229. Etendu de la domination carthaginoise en Afrique, Alger 1905.

230. Tombe découverte au dessus de la grotte d'Hercule, B.A.C. 1923, pp. CCX-CXIV,

231. Observations géographiques sur la révolte de Firmus, RSAC, t, XXXVII, 1903 pp. 21-46

Gsell (S.) et Joly (Ch.),

232. Khémissa, M'Daourouch, Announa, 1ère partie, Khémissa,

H

Hamy (E.T.),

233. *Cités et nécropoles berbères de l'Enfida, Bull. de Géogr. hist., et descript.* , t, XX, 1904, pp. 33-63

Hardy (G.),

234. l'Alimentation des indigènes au Maroc, la Géographie, t, LVIII, 1932, pp. 143-158, pour la Tunisie ;

Haudricourt (G.) et Delamare (Jean-Bruhnes),

235. l'Homme et la charrue à travers le monde, Paris 1955

Homolle,

236. Les comptes de Demarès, Bull, de Corresp, hellén, t, VI, 1882, pp. 10 et sq,

Hugot (H.J.), et Quezel (P.),

237. A propos de quelques graines fossiles du gisement préhistorique de Meniet, Bull. de la Soc. D'Hist, Nat, de l'Afr. Du Nord, t. XLVIII 1957, pp. 370-373.

Huyghe (G.),

238. Dictionnaire Français-Kabyle, Article : Roi.

I

Ibn Khaldoun,

239. Histoire des Berbères, trad. De Slane, I,.

Isidore de Séville,

240. Etymologie, VIII,

J

Janier (E.),

241. une petite monographie : Siga, ibid, p. 68-77

Jodin (A.),

242. les civilisations du sud de l'Espagne et le Néolithique marocain. XV e Congr. Préhist. De France, Poitiers-Angoulème, 1956, pp. 564-578 ;

243. *Note préliminaire sur l'établissement pré-romain de Mogador, Bull. d'archéol. Maroc, t. II, 1957, pp. 9-40.*

244. les problèmes de la civilisation du vase campaniforme au maroc, Hespéris, t, XLIV, 1957, pp. 353-360.

245. Le tombeau pré-romain de Mogogha Es-Seghira (Province de Tanger), Actes du 84e Congr. Nat. Des Soc. Sav. Dijon, 1959, pp. 201-213

Joleaud (L.),

246. Gravures rupestres et rite de l'eau en Afrique du Nord, Journ. De la Soc. Des African., t. III, 1933, pp. 197-282; et t. IV, 1934, pp. 285-302.

247. l'ancienneté de la fabrication de l''huile en Afrique du Nord, Rev. Afr. T, LXX, 1929, pp. 19-356

248. *le rôle des singes dans les traditions populaires nord-africaines, Journ. de la oc. des Africain*. T. I, 1931, pp. 117-150.

Joleaud (L.) et Lafitte (R.)

249. l'Anthrop., t. XXXIV, 1934, pp. 469-471.

Joly (A.) et Joleaud (L.),

250. Ruines et vestiges anciens relevés dans la province de Constantine, Rec. des Not. et Mém. De la Soc. Archéol. de Constantine, t, XLV, 1911, pp. 19-36 (p. 29).

Julien (Ch. A.),

251. Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie-Algérie-Maroc I, Des origines à la conquête arabe (647 ap. J.C.) 2ème édition, revue et remise à jour par Ch. Courtois, Paris 1951,.

K

Koehler (P.),

252. la civilisation mégalithique au Maroc, B.S.P.F., t, XXIX, 1932,

L

Lafuente (G.A.),

253. Le rôle du signe = dans les inscriptions libyque, Rev. Afric., t, CI, 1957, pp. 388-392

Lancel (S.),

254. Suburbures et Nicives: une inscription de Tigisis , in Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955, pp. 289-298.

Laoust (E.),

255. Mots et choses berbères, Notes de linguistique et d'ethnographie, Paris 1920.
256. le nom de la charrue et de ses accessoires chez les Berbères, Archiv. Berb, 1918.
257. Au sujet de la charrue berbère, Hespéris, t, X, 1930, pp. 37-47

Leboeuf (J.P.),

258. l'écriture verticale des caractères arabes et latins dans l'Afrique subsaharienne, Notes africaines, n° 88, oct. 1960, pp. 126-127

LE Dû (R.),

259. les Tombeaux ronds du Djebel Mistiri, C. r. de l'IVe Congr. De la Fédération des Soc. Sav. De l'Afrique du Nord, 1938, pp. 565-587
260. Gravures, graffiti et peintures de la vallée de l''oued Hallaïl et du Tazermoumt, Rev. Afric. T. LXXXI, 1937, pp. 647-667.

Le Glay (M.),

261. l'Archéologie algérienne en 1954, *Rev. Afric.* ,t.XCIX1955 ,, p. 215
262. Junon et les Cereres d'Après la stèle de Aelia Leporina trouvée à Tébessa, Libyca, Archéol, Epigr, t, IV, 1956, p. 41, n° 12)

Lencman (J.A.),

263. Massinissa Vestnix drevnef istorii, 1948.

Leschi (L.),

264. Un sacrifice pour le salut de Ptolémée, roi de Maurétanie Mélange E.F.Gauthier1937 ,, PP.332-340.

Leser (P.),

265. Enslehung und verbreitung des plufges. Munster 1931

Lhoute (H.),

266. *l'expédition de Cornelius Balbus au Sahara, Rev. Afric. T. XCVIII, 1954, pp. 41-83.*

Libby (W.F.),

267. Radiocarbon dating, Chicago, 1955.

Logeart (F.),

268. Nouvelles inscriptions libiques de la Commune mixte d'Ain M'Lila, Rev. Afric. T, LXXIX, 1936, pp. 441-453 (Rec. Des Not. Et Mém. De la sic. Archéol. de onstantine, T, LXIII 1935 pp. 187-196)
269. Grottes funéraires hypogées et caveaux sous roches de Sila, *Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine,* t, LXIII, 1935-1936, pp.69-105

Luquet (A.),

270. Prospection punique de la côte atlantique du Maroc, Hespéris, t., XLIII, 1956, pp. 117-132.

M

Maire (R.),

271. Flore de l'Afrique du Nord, vol, III, Paris 1955.

Malhomme (J.),

272. Corpus des peintures rupestres du Grand Atlas (1ère partie ; publ, du service des antiq, du Maroc, (fasc, 13, 1050).
273. les représentations anthropomorphes du Grand Atlas (Maroc), *Libyca. Anthrop. Archéol.* T, I, 1953, pp. 373- 385.

Marcellet Jaubert (J.),

274. Port-Romain : Monnaie numide de Mastenissa 1er Libyca, Archéol, Epigr, t, III, 1955 pp. 371-372

Marchand (DR.)

275. La grotte préhistorique de l'Oued Kerma, *B.S.P. F.* T, XXXI, 1934, pp. 247-251.

276. Industries lithiques de la Mizrana, leur classification, Bull. de la Soc. D'Hist. Nat. de l'Afrique du N. t. XXV, 1934, pp. 157-162.

Marçais (G.),

277. les inscriptions bilingues de l'Afrique du Nord, *Cah. de la Soc. Asiat.* Paris 1936

278. l'art des Berbères, les conférences-visites du Musée Stéphane GSELL, Alger, 1956

279. *Périple d'Hannon, Le Maroc antique, de M. Jérôme Carcopino, in Journ. Asiat. 1943-1944, pp. 1-57*

Margat (J.) et Camus (A.),

280. la Nécropole de Bouïa au Tafilalt, Bull. d'Archéol. Maroc. T, III, 1958;

Marion (J.),

281. Les agglomérations antiques des environs de Paul-Robert, *Rev. Afric.* T, XCIV, 1950, pp. 209-258.**Martin (Saez),**

282. Sobre una supuesta edad del bronce en Africa menory Sahara, Actes di IIe Congr. Panaf de préhist, Alger 1952, pp. 659-662

Massiera (P.),

283. Inscriptions de la région sétifienne, Bull. de la soc. Hist, et géogr, de Sétif, t, II, 1941, pp. 89-134 (pp. 110-112).

Mauny (R.),

284. Une route préhistorique à travers le Sahara occidental, Bulletin de l'institut français de l'Afrique noire, 1947, pp. 341-357, Actes du 11 e Congr. Panaf. De réhist. Alger 1952 pp. 741-746.

285. Note sur le Périple d'Hannon, Acte de la 1ère conf. Intern. Des Afric. De l'ouest, t. II, 1951, pp. 509-530,

286. La navigation sur les côtes du Sahara pendant l'Antiquité. Rev. Des étud. Anc. T. LVII, 1955, pp. 92-101

287. *Autour d'un texte bien controversé : le "périple" de Polybe (146 Av. J.C.), Hespéris t. XXXVI, 1949, pp. 47-68.*

Mazard (J.),

288. *Corpus nummum Numidiae Mauretaniaeque*, Paris 1955,

289. Deuxieème supplément au *Corpus Numidiae Maruretaniaeque*, Libyca, Archéol, Epigr, t, V, 1957, pp. 51-58

Meltzer (O.),

290. *Geschichte der Karthager*

Menendez (Pedal),

291. Historia de Espana, t, I, fig. 398

Mennetrier (Ch.),

292. *Note sur les monuments mégalithiques de la province de Constantine Congr. Préhist. De France, IVe session,* Chambéry, 1908, pp. 352-386

Mercier (A.), et Seguin (a.),

293. Propagation d'Est en Ouest d'une technique préhistorique, B.S.P.F. t. XXXVII, 1940, pp. 201-218.

294. la langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, in Journal asiatique, 1924 pp. 189-320,

Merlin (A.),

295. Inscriptions latines nouvellement découvertes en Tunisie, *C.R.A.I.B.L.,*1909 pp. 91-101

296. *La véritable portée du périple d'Hannon, Journ. Des sav., 1944, pp. 62-76*

297. Rapport sur les récentes découvertes de ruines en Tunisie, B.A.C. 1912, pp. CLXXXIX

298. *Divinités indigènes sur un bas-relief romain de la Tunisie, C.R.A.I.B.L., 1947, pp. 355-371*

Meunté (D. Jacque),

299. la nécropole de Foum le-rjam, tumuli du Maroc présaharien, Hespéris, t, XLV, 1958, pp. 95-142.

Meunté (J.) et Allain (Ch.)

300. *Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême Sud-est marocain*, Hespéris, t. XLIII, 1956, pp. 51-88.

Mesnage (R.P.)

301. Le christianisme en Afrique, Rev, afric, t, LVII, 1913,

Movers,

302. Die Phoenizers,

Meunié (J.) et Allain (Ch.),

303. Quelques gravures rupestres et monuments funéraires de l'extrême sud-est marocain, Hespéris, t, XLIII, 1956, pp. 51-81

M'Hamsadji (N.),

304. Usages et rites alimentaires d'une contrée rurale d'Algérie (Aumale-Sidi Aïssa) Annales e l'inst. D'Et. Orient., t, XIV 1956 pp. 257-326,

N

Neuville (R.),

305. les débuts de l'Agriculture et la faucille préhistorique en Palestine, Rec. De la Soc. Hébraïque d'explor. Et d'archéol; palestin; et plus facilement :

Nougier (L. R.),

306. *Contribution à la préhistoire du Sud du Maroc, Bull. de la Soc. de Préhist. Maroc.* 9e année, 1953, pp. 3-26 (p. 16)

Nougier (L.R.),

307. Les civilisations campigniennes en Europe Occidentale, Le Mans, 1950,

O

Orsi (P.),

308. La nécropoli sicula di Castelluccio (Siracusa), Bull. di Paletnol. Ital. 2e série, t, VIII, pp. 1-34 et 67-84 (p. 81).

P

Pace (P.) et Caputo (G.) et Sergi (S.),

309. Scavi sahariani, Monumenti Antichi, Acad, dei Lincei, vol. XLI

310. Notes archéologiques sur la région de Taza, Bull. de la Soc. de Géogr. Et d'Archéol. d'Oran, t, XLI, 1921 pp. 190-193

Pâques (V.),

311. Le bélier cosmique, son rôle dans les structures humaines et territoriales du Fezzan, Journ. De la Soc. Des Africain., T. XXVI, 1956, pp. 210-253 et surtout par M. Brulard, "*Tfaska n'tisent*" la fête du sel à Ghat, le 27 Ramadhan, Bull. de liais. Sahar. N° 25, mars 1957, pp. 12-17.

Pauphelet (D.),

312. Monument mégalithique à Maktar, Karthago IV, 1953, pp. 49-83

Pedech (P.),

313. *Un texte discuté de Pline : le voyage de Polybe en Afrique, Rev. Des études latines, t. XXXIII, 1956, pp. 318-332*

Pellegrin (E.),

314. Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, Tunis 1953.

Petit (Cne),

315. le Préhistorique du Maroc oriental (notes mises en ordre par F. Doumergue), t, XXXVIII, 1918, pp. 157-174

316. Note sur les tumuli d'Aïn sefra, Bull. de la Sic. de Géogr. Et d'Archéol. D'Oran, t, XXV, 1905, pp. 285-295;

Picard (G. Ch.),
317. Nouveaux documents sur le culte des Cereres dans l'Afrique proconsulaire, Actes du LXXIX e Congr, des Soc, sav, Alger, A054, pp. 237-252.
318. Civitas Mactaritana, *Karthago*, VIII, 1967, pp. 23-40.
319. *leMonde de Carthage, 1956, p. 78.*
320. Les Religions de l'Afrique antique, Paris 1954, pl. II .
Picard (C. et G. Ch.),
321. la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, III e siècle av. J. C., Paris 1958, pp. 83- 84.
Piganiol (A.),
322. *Sur la source su songe de Scipion, CRAIBL, 1957, pp. 88-98.*
Pinchon (**D**^{R})
323. Stations de surface et de tumuli de Bossuet et du Télagh (Oran) *Congr. Préhist. De France*, XIIe session, Toulouse-Foix, 1936, pp. 375-402
Poinssot (L.),
324. Une inscription de Souani El-Adani, Rev, tunis, 1942, t, LXXXVI, pp. 124-140
325. Note sur la Fossa Regia, Ibid. 1907, pp. 466-481
326. les ruines de Dougga, Tunis 1958.
Poinssot (L.) et Revault (J.),
327. Tapis tunisiens, I, Kairouan, 2ème édition.
Pothier (le Col.),
328. les tumulus de la Daïa de Tilghemt, Rev. D'Ethnor. , t, V, 1886, pp. 301-332 ;
Prades (H.),
329. Des galettes au calcholithique, B.S.P.F., t, LV, 1958 pp. 157-162.

Q

Quézel (P.) et Pons (A.),
330. A propos de quelques graines fossiles du gisement préhistorique de Meniet, Bulletin de la Soc. d'Hist. nat. d'Af. du N., t. XLVIII, 1957, pp. 370-372;
Qintero Auturi (P.),
331. Nueva estacion prehistorica en el Marruecos espanol. Archivo espan. de Arqueol, n° 45, 1941, pp. 563-564.

R

Régnier (Lt, J.),
332. Diverses utilisations de pointes au Hoggar, Bull. de Liais, Sahar, n° 35, Sept, 159, pp. 245-249.
Reise,
333. Geogr. Latin. Minor, pp. 53-54.

Renier (Lt, J.),
334. Diverses utilisations de plantes au Hoggar, Bull. de liais. Sahar. N° 35, sept 1959, pp. 245-249
Rethault (E.),
335. Les Djeddards du Sud Constantinois, Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, t, XXXVII, 1932, pp. 475-589.
Reygasse (M.),
336. Découverte d'une technique campignienne dans le paléolithique inférieur 1934, pp. 570-573 ;
337. Sur une industrie campignienne d''couverte dans la région de l'Oued Mahrougue, Journ. de la Soc. des african. t. IV, 1934, pp. 115-116 ;
338. Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris 1951, p. 33; Père de Faucault, Dictionnaire abrégé Touareg-Français, 1913, p. 115.

Rinn (L.),

339. *les premiers royaumes berbères et la guerre du Jugurtha, Rev. Afric. T, XXIX* 1885 pp. 172-209 et 241-283

Roche (J.),

340. Chronologie absolue de l'épipaléolithique marocaine, C. R. Hébdom. De l'Acad. Des sciences, 23 juin 1958, pp. 3486-3487.

Roffo (D^R^),

341. *Sépultures indigènes antéislamiques en pierres sèches*, étude sur les trois nécropoles de l'Algérie centrale, *Rev afric.* T, LXXXII, 1938, pp. 197-240

Romanelli (P.),

342. *Storia delle province romane dell'Africa, Rome 1959, p. 25.*

Rousse (P.) et Hatzfeld (J.),

343. Fouilles de Délos, Inscriptions- Dédicace du roi Nikomedès au roi Massinissa, Bull, de Corresp, hellén, t, XXXIII, 1909, pp. 473-522 (pp. 484-485).

Rousseaux (M.),

344. *Hannon au Maroc, Rev. Afric. T. XCIII, 1949, pp. 161-232*

Ruhlmann (A.),

345. Recherches de préhistoire dans l'extrême sud marocain, Publ. Du Serv. Des Antiq. Du Maroc, t, V, 1939, pp. 42-51 ;
346. le tumulus de Sidi Slimane, du Rharb, Bullet. De la soc. De Préhist. Du Maroc, t. XIII, 1939, pp. 37-70
347. le Volubilis préhistorique, Bull. de la Soc. De préhist. Du Maroc, 1933, pp. 3-26

S

Santa (S.),

348. Essai de reconstitution de paysages végétaux quaternaires d'Afrique du Nord, Lybica, anthrop. Préhist. Ethpogr. T, VI-VII, 1958- 1959, pp. 37-77 (p. 41)

Saumagne (Ch.),

349. les prétextes juridiques de la Troisième Guerre punique, Rev. Hist, t, CLXVII, 1931, pp. 225-253, et CLXVIII, pp. 1-42.
350. les prétextes juridiques de la Troisième Guerre punique, Rev. Hist, t, CLXVII, 1931, pp. 225-253
351. Observation sur le tracé de la Fossa Regia, Recond. Dell'Acad. Dei Lincei, 1928, pp. 451-459.

Schur,

352. Massinissa, dans le Real-Encyclopédie der Klassischen Altertumswissenschaft, t, XIV, pp. 2154-2164

Sérée de Roch,

353. Tébessa, antique Théveste, Alger, Alger 1952,

Servier (J.),

354. les rites du labour en Algérie (Région du Dahra et du moyen chélif) Journ, de la Soc, des Afric, t, XXI, 1951, pp. 175-196

Solignac (P.),

355. Les gravures préhistoriques du Grand Atlas de Marrakech, C.R. du LXXe Congr. De l'A.F.A.S. Tunis 1951, TIII, pp. 149-153
356. Une représentation de haches du Bronze (Grand Atlas), Bull. de la Soc. De Préhist. De Maroc, 1954, pp. 105-109.
357. Les armes gravées du Grand Atlas, *Congr. Préhist. de France,* XIVe session, Strasbourg-Metz, 1953, pp. 395-402
358. Aperçu sur les gravures rupestres de la région de Marrakech, Hespéris, t. XL, 1953, pp. 255-263

359. Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas, Libyca, Anthrop. Archéol. Préhist. T. I, 1953, pp. 373-385.

Solignac (M.),

360. Les pierres écrites de la Berbérie Orientale (Est Constantinois et Tunisie) Tunis 1928,

Souville (G.),

361. le préhistoire au musée de Volubilis, Hespéris, 1956, pp. 457-461:

362. Principaux types de tumulus marocains, Ibid., t, LVI, 1959, pp. 394-402.

T

Tarradell (M.),

363. Les excavaciones de Lixus. Tinga, 1953.

364. Marruecosantigua : nuevas perspectivas. Zephyrus, t. V, 1954, pp. 105-139,

365. *Notas acerca de la primera epoca de los fenicios en muarruecos, Tamuda, t. VI, 1958, pp. 71-88.*

366. Las exacavaciones de Tamuda de 1940 à 1955, *TAMUDA T. IV*, 1956, pp. 71-85

367. Lecciones de Arqueologia punica, Caesaraugusta, t, VI, 1955, pp. 55-108.

Thouvenot (R.),

368. Rapport sur l'activité du service des antiquités du Maroc en 1951, B.A.C., 1952, pp. 142-157

369. Recherches archéologiques à Mogador. Hespéris, t. XLI, 1954, pp. 463-476

370. Défense de Polybe, Hespéris t. XXXV, 1948, pp. 79-92

371. *Le Témoignage de Pline sur lz périple africain de Polybe, ibid. t. XXXIV, 1957, pp. 88-92*

Tissot (Ch.),

372. Géographie comparée de la province d'Afrique, t, I, p. 47

Troussel ,

373. Le trésor monétaire de Tiddis, Rec, des Not, et Mém, de la Soc, archéol, de Constantine, t, LXVI, 1948, pp, 129-176 (p. 146).

374. l'énigme de la tète laurée et barbue à G. et du cheval galopant à gauche, in RSAC, t, LXIX, 1955-1956, pp. 3-54.

Tschudi (Y),

375. Les peintures rupestres du Tassili n'Ajjer, Neuchâtel 1956,

V

Vandier (J.),

376. Manuel d'Archéologie égyptienne, t. I, Les époques de formation,

Vaufrey (R.),

377. l'Art rupestre nord-africaine, Arch. de l'I.P.H., Mém. N° 20, 1939.

378. Préhistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb,

Vavilov,

379. Studies on the origin of cultivated plants. Léningrad 1926

Vayson (A.),

380. Faucille préhistorique de Solfereino, l'Anthrop, t. XXIX, 1918-1919, pp. 393-422.

Vel (Auguste),

381. Monuments et inscriptions libyques relevés dans les ruines de Tirkabbine ,*Rec. des Not. et Mém. de la Soc. Archéol. de Constantine*, t, XXXIX, 1905 pp. 193-227.

Vélain(C.),

382. *Le dolmen des Béni Snassen, Rev. Ethnogr.*1885,pp.307-312.

Veyne (P.),

383. Deux inscription de Vina, Karthago, IX, ; 1958 pp. 91-117.

Villard (F.),

384. Vases attiques du Ve siècle av. J.C., à Gunugu **Vaufrey (R.),**

385. Préhistoire de l'Afrique, t. I, Le Maghreb, Paris 1956, p. 155.

Vincent (M.),

386. Vase ibérique du cimetière Est de Portus Magnus (Saint-Leu) *Libyca, Archéol, Epigr*, t, I, 1953, pp. 13-23.

Voinot (L.),

387. les tumuli d'Oujda, Bull. de la Soc. De Géogr. Et d'Archéol. D'Oran, t, XXX, 1910, pp. 516-528.

Vuillemot (G.),

388. Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXVI, 1953, p. 33
389. la nécropole punique du phare dans l'ile Rachgoun (Oran), *Libyca, Archéol, Epigr*, t, III, 1955, pp. 7-76.
390. Fouilles puniques à Mersa Madakh, Ibid, t, II, 1954, pp. 299-342.
391. Vestiges puniques aux Andalouses, Bull, de la Soc, de Géogr, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXIV, 1951, pp. 55-73
392. Note sur un lot d'objets découverts à Siga, Bull, de la Soc, de Géogf, et d'Archéol, d'Oran, t, LXXVI, 1953, pp. 25-33

393. Deux stèles de Siga, Bull, de la Soc, des Amis du vieux Tlemcen, 1954, pp. 73-80

W

Walter (G.),

394. la destruction de Carthage, (264-146) Paris 1947

Westermarck,

395. Ceremonies and beliefs connected with agriculture in Morocco Helsingfors, 1919

Wycichi (M.),

396. Les Gétules de Mauritanie, Bull. de l'I.F.A.N., 1955, pp. 163-167.



397. Collection du Musée du Bardo (Alger)
398. Musée d'Ethnographie et de Préhistoire du Bardo, Collections préhistoriques,
399. Musée d'ethnographie et de Préhistoire du Bardo, Collections ethnographiques Album n° I, Touareg Ahaggar, pl. VI.



بيبليوغرافيا الملحق

أ- مصادر

Appien,
01- Histoire romaine, Trad. Par H. white (Loeb.lass. Libr.) London, 1912-1928.
Diodore,
02- Bibliothèque universelle, trad. par Af. Milot, imprimerie royale, Paris 1834-1837.
Hérodote,
03- Histoire, Livre IV, Texte établi et traduit par Ph. E. Le Grand, éditions les belles lettres, Paris 1980.
Polybe,
04- Histoire Romaine, traduit par Denis Roussel, édition Gallimard, Paris1970
Strabon,
05- Géographie, traduit par tardieu, Edition Hachette, Paris 1867-1870. (4 Volumes).
Tite-Live,
06- Histoire Romaine, Traduit par Verger, Editions Panckoucke, Paris 1930.

ب- مراجع عربية أو معرّبة

07- سفر التكوين.
بازامة (محمد مصطفى) ،
08- ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، مكتبة قورينة للطباعة والنشر 1965 .
جغلول (عبد القادر) ،
09- الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس مراجعة خليل احمد خليل، ط 3 ، دار الحداثة بيروت 1982
حسن الوزان (ليون الأفريقي)،
10- وصف أفريقيا،ج1،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر،ط2دارالغرب الإسلامي،بيروت 1983.
عقون (العربي) ،
11- المؤرّخون القدامى:سالوستيوس وكتابه حرب يوغرطة، دار الهدى عين مليلة، 2006 ،
12- من تداعيات الحرب البونية الأولى على قرطاج : ثورة جندها المأجور، في مجلة العلوم الإنسانية صادرة عن جامعة منتوري قسنطينة (الجزائر) عدد 21- جوان 2004 ص ص199-212
13- الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008
كامبس (قابريال) ،
14- إشكالية الاسم الإثني واسم البلاد، ترجمة العربي عقون، في الحوار الفكري مجلة صادرة عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية،جامعة منتوري قسنطينة،العدد 9،2007 ص ص185-197.

ج- مراجع ودوريات

Ageron, (Ch. R.)
15- "**Jules Ferry et la question algérienne en 1892**" in Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine 10 (April-June 1963: 131-34
Alexandropoulos (Jacques),
16- Les monnaies de l'Afrique antique - 400 av. J.-C - 40 ap. J.C. édition PU Mirail revue et augmentée, Toulouse 2008 (500p)
Arnold Hermann Ludwig Heeren, traduit par W. Suckau:
17- De la politique et du commerce des peuples de l'antiquité, Volume 4, Firmin Didot frères, 1832, pp. 28-66
Berthier A., Juillet J., Abbé Charlier R.,
18- Le Bellum Jugurthinum de Salluste et le problème de Cirta, Constantine 1949
Berthier (A.) et Charlier (R.),
19- le sanctuaire
Beschaouch (Azedine),
20- le territoire de Sicca veneria (El-Kef) Nouvelle Cirta en Numidia proconsulaire (Tunisie) , IN comptes rendus des séances de l'académie Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Année 1981, Volume 125, Numéro 1 pp. 105 – 122

CAMPS (G),

21- Les Numides et la civilisation punique , in *Antiquités Africaines*, 1979, n°14, pp. 43-53
22- Berbères, Mythe ou réalité ? In les cultures du Maghreb, Editions de l'Harmattan, Paris 1996
23- Tableau chronologique de la Préhistoire récente du Nord de l'Afrique, in Bulletin de la Société préhistorique française, Année 1968, Volume 65, Numéro 2 pp. 609 – 622
24- Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, Arts et Métiers Graphiques, 1961

Carcopino (J.),

25- le culte des Cereres et les Numides, ***Rev. histor,*** t, CLIX, 1928, et dans Aspects mystiques de la Rome païenne, pp. 13-27.

Charles-Picard (G.),

26- les religions de l'Afrique antique, Paris 1954

Despois (J.),

27- la culture en terrasses en Afrique du Nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50

Foucauld (Père Charles de),

28- Dictionnaire Touareg – Français, 4 Volumes, Imprimerie nationale de France 1951 .

Gsell (s.),

29- V, p. 332.

Gautier (E.F.),

30- le passé de l'Afrique du Nord, Payot, Paris1952.

Lancel (S.),

31- Suburbures et Nicives, une inscription de Tigisis, Libyca, Archéol, Epigfr. ,t, III, 1955, pp. 289-298.

Nouschi (André),

32- L'ALGERIE, Passé et présent, éditions sociales, Paris

د- ويبوغرافيا

Monique Dondin-Payre

33- , « Historiographie de l'Afrique du Nord antique », **Annuaire de l'École pratique des hautes études (EPHE), Section des sciences historiques et philologiques**,139 | 2008,[En ligne], mis en ligne le 15 décembre 2008. URL http://ashp.revues.org/index 233.html.



فهرس الأعلام (أشخاص، معبودات، أماكن جغرافية)

A

***

B

***

C

D

***

E

F

G

H

I

J

K

L

M

N

O

P

Q

R

S

***

T



فهرس الأشكال



مسرد المفردات غير العربية الواردة في النص

***

فهرس المحتوى

القسم الثاني/ عهد ماسينيسا

القسم الثالث / أسطورة ماسينيسا

فهارس

تم بحمد الله وعونه

احتل الأقليذ ماسينيسا وهو أبز ملوك السلالة الماسيلية مكانة في المصادر الأدبية الإغريقية و اللاتينية على السواء، التي أشادت به وبأعماله، أما المؤرخون المحدثون فقد نبهوا إلى أهمية "مشروعه" الذي يتجاوز توحيد نوميديا إلى توحيد كل "بلاد البربر"، كما يستفاد من الشعار الذي أطلقه و هو "**افريقيا للأفارقية**" المعبر عن طموح رائد كاد أن يتحقق إذ لم تبق خارج مملكته النوميدية سوى قورين و موريتانيا وإقليم قرطاج، ولذلك كان هذا الملك المحارب محل دراسات وآراء تتفق أحيانا وتتعارض أحيانا أخرى حسب الميول والنزعات.



المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر-
الهاتف: 25-24-07-23-021 الفاكس: 07-07-23-021
ص.ب 575 الجزائر .ديدوش مراد
www.csla.dz